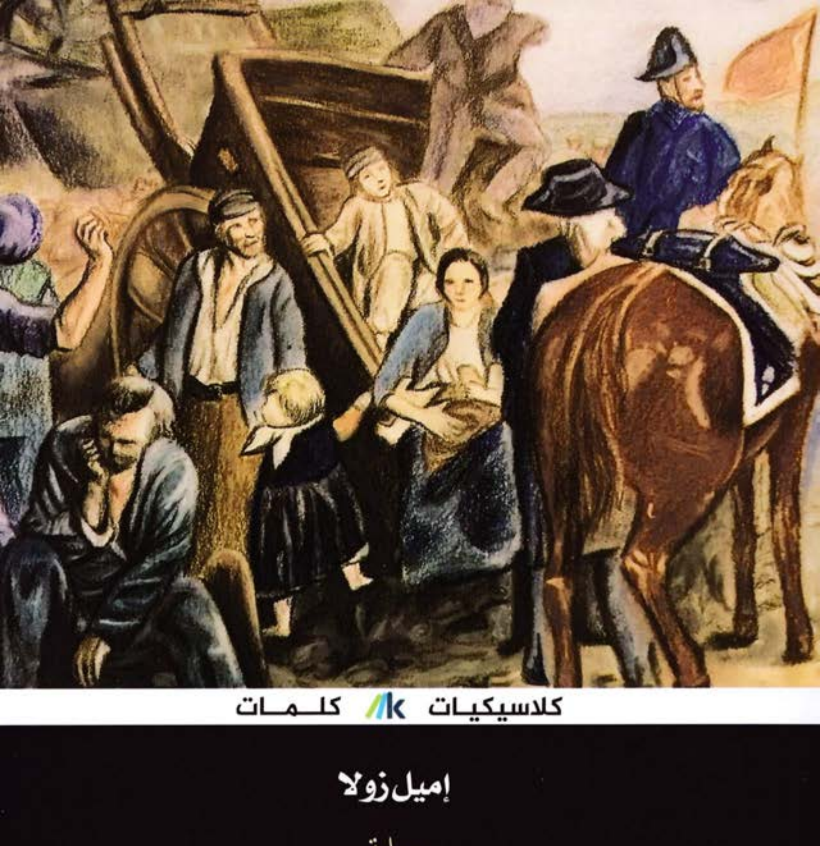

كلاسيكيات كلمات

إميل زولا

رواية

جرمينال

صرخة الشعب

ترجمة:
شكير نصر الدين

مكتبة ١١٣٣

مكتبة | ١١٣٣
جرمينال
t.me/soramnqraa

جرمينال

Germinal

إيميل زولا

Émile Zola

ترجمة: شكير نصرالدين

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

24 4 2023

ردمك: 978-9921-730-56-2

جـرمينـال

GERMINAL

مكتبة | ١١٣٣
t.me/soramnqraa

إيميل زولا

ÉMILE ZOLA

ترجمة:
شكير نصرالدين

2021

Kalemat

القسم الأول

I

في السهل العراء، وقد عمّ الليل وغابت نجومه، ليل له ظلمة وكثافة الحبر، كان رجل وحيد يسلك الطريق الواسع المؤدي من **مارشيين** إلى **مونسو**، عشرة كيلومترات من البلاط الموطّأ في اتجاه مستقيم، عبر حقول الشمندر. قبالته، لم يكن يتبيّن حتى الصعيد الأسود ولم يكن يشعر بالأفق الشاسع المنبسط إلا بفضل هبوب ريح شهر مارس، هبّات واسعة مثل البحر، جليدية لأنها كسحت مساحات من المستنقعات والبقاع العارية. ما كان ثمة من ظلّ شجرة يلطخ السماء، وكان البلاط ينساب باستقامة رصيف، وسط ضباب الظلمة الذي يعمي الأبصار.

غادر الرجل **مارشيين** حوالي الساعة الثانية. كان يمشي مباعداً خطوه، يرتجف تحت القطن الشفيف لمعطفه وسرواله المُخمل. لقد كانت تزعجه كثيراً رزمة صغيرة، معقودة في منديل بمربعات؛ وكان يشدّها إلى جنبيه، تارة بهذا المرفق، وتارة بالآخر، حتى يدس في قلب جيبيه يديه معاً، يدان متيبستان تُدميهما سياط ريح الصّبا. كانت هناك فكرة واحدة تشغل رأسه الفارغ، رأس رجل عامل بلا عمل ولا ملجأ، كانت رجاء أن تخف حدّة البرد مع طلوع النهار. منذ ساعة، كان يتقدم على ذلك النحو، حينما أبصر إلى يساره، على بعد كيلومترين اثنين من **مُونسو**، نيراناً محمرّة، ثلاث مجامر مشتعلة في الهواء الطلق، وكأنها معلَقة في السماء. تردّد في البدء، ثم لم يستطع كبح الحاجة الموجعة لتدفئة يديه للحظة.

كان هناك درب مقعر يذهب غوراً. اختفى كل شيء. إلى يمين الرجل سياج، حائط ما من الألواح الغلاظ تغلق السكة الحديد؛ بينما يرتفع إلى اليسار منحدرٌ معشِب، يعلوه صنوبر كثيف، ومنظر قرية ذات سقوف منخفضة وموحدّة الشكل. مشى تقريباً مائتي خطوة. بغتة، عند منعطف الدرب، ظهرت قربه النيران من جديد، رغم أنه لم يفهم كيف كانت تشتعل بذلك القدر من العلو في السماء الميّتة، كأنها أقمارٌ تنفث الدخان. ولكن، عند استواء الأرض، أوقفه منظر آخر. كان منظر كتلة ثقيلة، ركام دكّ من المنشآت، منه ينتصب طيف مدخنةُ معملٍ؛ ومضات شحيحة تخرج من النوافذ القذرة، خمسة أو ستة فوانيس حزينة كانت معلقة في الخارج، إلى هياكل تصطف، من خشبها المسودّ ملامحُ حوامل جبّارة، دون أن تتبيّنها العين بوضوح؛ ومن هذا الظهور العجيب، المغمور بالليل والدخان، يرتفع صوت واحد، التنفّس الضخم والطويل لمُصرَف بخار، لم يكن يُرى قطعاً.

حينذاك، تبيّن الرجل حفرة. اعتراه الخجل من جديد: ما الفائدة؟ لن يوجد ثمة عمل. وبدل التوجه صوب البنايات، جازف في آخر الأمر بصعود الردم الذي كانت تتقد فيه نيران الفحم الثلاث، في أوعية من الحديد، بغرض الإنارة والتدفئة. لا بدّ أن عمّال الردم يعملون حتى وقت متأخر، لأنهم لايزالون يستخرجون الحطام غير اللازم. كان يسمع عمال التفريغ وهم يدفعون عربات القطر على الحوامل، ويتبيّن ظلالاً حيّة تقلب عربات الحمل قرب كل نار متوقدة.

«صباح الخير»، قال وهو يدنو من أحد الأوعية.

مديـراً ظهـره للمجمـر، كان سـائق العربـة واقفـاً، عجـوزاً يلبـس قميصـاً مـن صـوفٍ بلـون أرجوانـي، معتمـراً قبعـة مـن جلـد الأرانـب: بينمـا كان حصانـه الضخـم الأصفـر ينتظـر دون حركـة، كأنـه حجـر، أن يتـمّ إفـراغ الشـحنات السـتّ المحملـة عليـه. لـم يكـن المنـاوِل المسـتخدم فـي المُقلِب مسـتعجلاً قـط، وهـو رجـل أشـقر قـوي البـدن لكنـه ضامـر الجنبيـن، كان يضغـط علـى مقبـض الرافعـة بيـدٍ دبّ فيها النـوم. وفـي الأعلـى، تشـتد الريـح، ريـح الشـمال الجليديـة، تمضـي نفحاتهـا العظيمـة المنتظمـة كأنهـا ضربـات منجـل.

«صبـاح الخيـر»، ردّ العجـوز.

عـمّ صمـت. بسـرعة قـال الرجـل اسـمه وقـد أحـس بأنـه ينظـر إليـه بعيـن حـذرة.

«اسـمي **إتيان لانتيي**، أنـا عامـل آلـة الرفـع... ألا يوجـد هنـا ثمـة عمل؟».

كانـت النيـران الملتهبـة تُضـيء وجهـه، لعلـه كان يبلـغ إحـدى وعشـرين سـنة مـن عمـره، أصحـم، وسـيماً، يبـدو قويـاً رغـم أطرافـه النحيفـة.

بعد أن اطمـأن، كان العجـوز يحـرّك رأسـه.

«شـغل لعامـل رافعـة، كلّا، كلّا... لقـد تقـدم للعمـل اثنـان البارحـة أيضـاً. ليـس هنـاك شـيء يذكـر».

قطعـت هبّـة ريـح كلامهمـا. ثـم سـأل إتيـان وهـو يشـير إلـى ركـام المنشـآت الداكـن، أسـفل الـرّدم.

«هـذه حفـرة المنجـم، أليـس كذلـك؟».

هـذه المـرة، لـم يسـتطع العجـوز الـرد. ألـمَّ سـعال شـديد خانـق بـهِ. فـي نهايـة الأمـر، ألقـى نخامـة، وتركـت نخامتـه علـى الصعيـد القرمـزي لطخـة سـوداء.

«أجل، حفرة، لوڤوروه... هناك! المجمّع السكني على مقربة».

بـدوره، أشـار بذراعـه الممـدودة فـي الليـل إلـى القريـة التـي تبيّـن الرجـل الشّـاب سـقوفها. لكـن عربـات الشـحن السـتّ كانـت فارغـة، تبعهـا دون ضربـة سـوط، سـاقاه متيبسـتان مـن مـرض المفاصـل؛ بينمـا كان الحصـان الأصفـر ينطلـق تلقـاء نفسـه، يسـحب بشـدة بيـن القضبـان، وقـد هبّـت عليـه ريـح عاصفـة جديـدة اقشـعر لهـا وبـره.

لوڤـوروه ينبثـق الآن مـن الحلـم. إتيـان الـذي تناسـى نفسـه قبالـة المجمـر يُدفـئ يديـه المسـكينتين الداميتيـن، ينظـر ويسـتعيد كل قسـم مـن الحفـرة، حظيـرة غريلـة الفحـم، المكسـوة بالقطـران، سـقيفة البئـر، غرفـة آلـة اسـتخراج الفحـم الواسـعة، البـرج الصغيـر المربـع الخـاص بمضخـة المُصـرّف تلـك الحفـرة المكدَسـة فـي قعـر جـوف، ومنشـآتها المتدانيـة المبنيـة بالطّـوب، المرفوعـة مدخنتهـا مثـل قـرن متوعـد، عـنّ لـه أنهـا تُبـدي وجهـاً كريهـاً لوحـش جشـع، رابـض هنـاك كـي يلتهـم العالـَم. وهـو يتفحصهـا، كان يفكـر فـي نفسـه، فـي كونـه متسـكعاً، هائمـاً علـى وجهـه، منـذ ثمانيـة أيـام يسـعى إلـى عمـل؛ كان يـرى نفسـه مـرة أخـرى فـي مشـغله بالسـكة الحديـد، يصفـع رئيسـه، يُطـرد مـن مدينـة **لِيل**، يُطـرد مـن كل مـكان؛ السـبت، كان قـد وصـل إلـى مارشـيين، حيـث قيـل إن هنـاك عمـلاً فـي معمـل حديـد **فـورج**؛ ولا شـيء، سـواء فـي **فورج** أو عنـد **سـونڤيل**، ولـم يجـد بـدّاً مـن قضـاء يـوم الأحـد مختبئـاً تحـت أخشـاب ورشـة النِّجـارة، التـي قـام حارسـها

بطرده منها في الساعة الثانية ليلاً. لا شيء، ولا فلس واحد، ولا حتى كسرة خبز! ما الذي يجدر بهِ أن يفعل وهو يتجول في الطرقات، بلا هدف، دون أن يعرف حتى أين يحتمي من ريح الشمال الشديدة؟ نعم، لقد كانت بالفعل حفرة، كانت الفوانيس القليلة تنير سطح المنجم، وسمح له الباب المفتوح بغتة أن يتبيّن بؤر المولدات، تحت ضوء ساطع. كان يفسر لنفسه حتى مصرف المضخة، ذلك التنفس الضخم الطويل الذي ينفث بلا هوادة والذي كان مثل أنفاس وحشٍ مختنق.

نافخاً ظهره، لم يرفع مناول آلة القلب ناظريه نحو إتيان، وكان هذا الأخير يتأهّب لالتقاط رزمته الصغيرة الساقطة على الأرض، حينما أعلنت نوبة سعال عن عودة سائق العربة. بتؤدة، شوهد وهو يخرج من العتمة، يتبعه الحصان الأصفر، الذي كان يسحبُ، صعوداً، ستّ عربات شحن جديدة مملوءة عن آخرها.

«هل هناك مصانع في مونسو؟». سأل الرجل الشاب.

بصق العجوز نخامة سوداء، ثم أجاب في وجه الريح:

«أوه! ليست المصانع هي ما ينقص المكان. لو أنّك رأيتُها قبل ثلاثة أو أربعة أعوام! كان كل شيء يهدُر، لم يكن في المستطاع العثور على رجال، لم يسبق قطّ أن كانت الأرباح بذلك القدر من ذي قبل... وها قد شرع الناس في شدّ البطن. وضع يدعو للرثاء حقيقة في البلد، يتمّ طرد الناس، المشاغل تغلق أبوابها واحداً تلو آخر... ربما ليس من خطأ الإمبراطور؛ لكن لماذا يذهب إلى الحرب في أمريكا؟ ناهيك عن أن البهائم تهلك بفعل الكوليرا، مثلما يهلك الناس».

ثم، بجملٍ قصيرة وأنفاس مقطوعة، استمر الاثنان في الشكوى. كان إتيان يحكي عن بحثه غير المجدي منذ أسبوع: هل كان يجب أن يهلك من الجوع؟ وسرعان ما سوف تمتلئ الطرق بالمتسولين. أجل، كان يقول العجوز، سينتهي الأمر بما لا يحمد عقباه، لأن الرب لا يرضى بأن يُطرد كل هؤلاء المسيحيين إلى الشارع.

«ليس لدينا لحم سائر الأيام».

«هذا إذا كان لدينا خبزا».

«صحيح، لو كان لدينا خبز فحسب!».

ضاع صوت كلّ منهما. كانت هبّات ريح شديدة تحمل الكلمات بعويل كئيب.

«هناكَ!»، استأنف سائق العربة بصوت عال جداً وهو يُدير ظهره صوب أراضي الجنوب، «مونسو هناك».

وبيده الممدودة مرة أخرى أشار في الظلام إلى أماكن لا تُرى كلما سمّاها. هناك، في مونسو، معمل تكرير السكر في **فوفيل** لا يزال يعمل، لكن معمل تكرير السكر في **هوتون** سبق وأن قلّص عدد موظفيه، ولم يصمد سوى مطحنة **دوتيول** ومصنع **بلوز** للحبال الفولاذية. ثم بتلويحة عريضة، أشار جهة الشمال إلى نصف الأفق تماماً: «لم تتلقّ ورش البناء في سونفيل ثلثي طلباتها المعتادة؛ من المصاهر الثلاثة بمعامل الحديد **فورج** في مارشيين، كان يشتعل فرنان فقط؛ وأخيراً، هناك تهديد بإضراب في معمل الزجاج **غاجبوَ**، لأن هناك حديث عن تقليص الأجر».

«أعرفها، أعرفها»، كان الشاب يكرر مع كل إشارة، «لقد جئتُ من هناك».

«نحن بخير حتى الآن»، أردف صاحب العربة، «ومع ذلك فإن حُفَر المناجم خفّضت ما تستخرجه. ثم انظر، بإزائنا، في **لافيكتوار**، لا تشتعل فقط سوى بطاريتان لأفران الفحم القابل للحرق».

بصق، وانطلق خلف حصانه النعسان، بعد ربطه إلى عربات الشحن الفارغة.

الآن كان إتيان ينظر إلى البلد كله. ظلّ الظلام غائراً، لكن يد الرجل العجوز كانت وكأنها ملأتها بملامح بؤس شديد، يشعر بها الشاب حوله تلك الساعة، دون وعي منه، في كل مكان، في المدى الذي لا حدود له. ألم تكن صرخة جوع تلك التي تذروها ريح مارس، خلال تلك البريّة المقفرة؟ لقد اشتدت العواصف، وبدا أنها كانت تحمل موت العمل، مجاعة ستقتل الكثير من الأنفس. كان يُجهد نفسه لاختراق الظلال بعينين تائهتين. حائراً بين الرغبة والخوف من الرؤية. كان كل شيء يندثر في عمق مجاهل الليالي المظلمة، ولم يكن يرى، بعيداً جداً، سوى المصاهر العالية وأفران الفحم القابل للحرق. وتلك الأفران، بطاريات لها مائة مدخنة، كانت منصوبة على نحو مائل، تصُفُّ مناصب من اللهب الأحمر؛ بينما البرجان، إلى اليسار أكثر، يشتعلان معاً باللون الأزرق في السماء، كأنهما مِشعلان جبّاران. كان للمنظر حزنُ الحريق، ولم تكن هناك نجوم طالعة في الأفق المتوعّد، سوى تلك النيران الليلية من بلاد الفحم والحديد.

«أنت على الأرجح من بلجيكا؟». قال صاحب العربة من خلف إتيان، وكان قد رجع.

هذه المرة لم يُحضِر سوى ثلاث عربات للشحن. في الإمكان دوماً قلبها: حادثة في قفص الاستخراج، قفل منكسر، قد يتوقف من جرائه العمل لمدة ربع ساعة. أسفل الردم، ساد الصمت، ولم يعُد عمال التفريغ يهزّون الحوامل بجلجلة ممدودة. كان يُسمَع فقط الصوت البعيد لمطرقة، الخارج من الحفرة، وهي تضرب صفائح المعدن.

«كلا، أنا من بلاد الجنوب»، ردّ الشاب.

بعد أن أفرغ المُناول العربات، جلس على الأرض، وهو مسرور بالحادثة؛ وكان محافظاً على توحشه الأخرس، لقد رفع فقط عينين واسعتين كابيتين نحو سائق العربة وكأنه قد انزعج من كثرة الكلام. وفي حقيقة الأمر، لم يكن هذا الأخير يتحدث بكل هذا القدر من الإسهاب في العادة. لا بدّ أن وجه الغريب راقه وأن جلده استبدت به حكّة البوح تلك التي تجعل العجزة أحياناً يحدثون أنفسهم، بصوتٍ عالٍ.

«أنا، من مونسو، اسمي بُونمُور»، قال.

«أهو لقب؟»، سأل إتيان مستغرباً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قهقه العجوز بانشراح وهو يشير إلى لوفوروه:

«أجل، أجل... لقد انتُشِلتُ من هناك ثلاث مرات ممزقاً، مرة وقد احترق شعري، مرة ثانية وقد غمرني التراب حتى دخل الحوصلة، والثالثة وقد انتفخ بطني بالماء مثل ضفدع... وعليه، حينما علموا أني لن أموت، لقبوني بُونمُور، من باب الضحك».

زاد مرحه ضعفين، مثل صرير بكرة لم يُحسن دهنها، انتهى به الأمر أن تحول إلى نوبة سعال رهيبة. وعاء النار يُضيء الآن رأسه

الغليظ كله، بشعره الأبيض النزر، والوجه المسطح، ذي الشحوب الفاقع، مرقط ببقع مائلة إلى الزرقة. كان قصير القامة، طويل العنق، ساقاه وعقباه مقوسان إلى الخارج، له ذراعان طويلتان تتدلى منهما اليدان عند ركبتيه. الحصيلة، مثل حصانه الذي كان يظل ثابتاً على الأقدام، ولا يبدو عليه أنه يتأذى من الريح، كان يبدو من حجر، ولم يظهر عليه أنه يرتاب لا من البرد ولا من هبّات الريح المصفِّرة حذو أذنيه. بعدما يسعل، وقد تمزق حلقه بنحنحة عميقة، يبصق أسفل الوعاء، ويَسودّ التراب.

كان إتيان ينظر إليه وينظر إلى التراب الذي كان يلطّخه على ذلك النحو.

«هل تعمل في المنجم منذ أمد بعيد؟»، استأنف كلامه.

فتح بُونمُور ذراعيه واسعاً.

«منذ أمد بعيد، آه! أجل!... لم أكن أبلغ ثمانية أعوام من عمري عندما نزلت، هناك! بالضبط داخل لوفوروه، وقد بلغت الثامنة والخمسين من عمري في هذه الساعة. قم أنت بالحساب قليلاً... قمت بكل شيء هناك في الداخل، كعامل منجم متعلّم أول الأمر، ثم عامل دفع عربات القطر، عندما كانت لدي القوة للدفع، ثم حفّار مدة ثمانية عشر عاماً. ثم، بسبب ساقَيّ اللعينتين، جعلوني من عمال الردم، ومكلّف بصيانة ما فسد من ألواح الخشب، إلى أن حان الوقت وتوجب عليهم إخراجي من الجوف، لأن الطبيب قال إنني سأهلك هناك. لذا، قبل خمس سنوات، جعلوني سائق عربة... هه؟ أمر ظريف، خمسون عاماً في المنجم، منها خمسة وأربعون في الجوف».

وبينما هو يتكلم، كانت قطع الفحم المحترقة، التي تسقط بين فينة وأخرى من الوعاء، تضيء وجهه الشاحب بظلٍّ دام.

«يقولون يجب أن أستريح»، واصل كلامه، «أنا لا أريد، يظنون أني شديد الغباء!... سأُمضي عامين، حتى عامي الستين، لأحصل على معاش مائة وثمانين فرنكاً. لو ودعتهم هذا المساء، سيعطونني في الحال معاش مائة وخمسين. إنهم ماكِرون، يا لحقارتهم! ثم إني متين، ما خلا الساقين. إنه، كما ترى، الماء الذي تسلل تحت الجلد، من فرط البلل أثناء استخراج الفحم. بعض الأيام لا أستطيع تحريك قدم دون أن أصرخ».

قاطعته نوبة سعال مرة أخرى.

«وهذا يجعلك تسعل أيضاً؟». قال إتيان.

لكنه ردّ بعنف نافياً برأسه. ثم حين استطاع الكلام قال:

«كلّا، كلّا، لقد أصابتني نزلة برد، الشهر الماضي. لم أكن أسعل قط، الآن، لا أستطيع التخلص من ذلك... والعجيب، أني أبصق، أني أبصق...».

صعد مخاط من حنجرته، وبصق سواداً.

«هل ذاك دم؟». سأل إتيان، وقد تجرأ أخيراً على سؤاله.

ببطء، كان بُونمُور يمسح فمه بظهر يده.

«إنه فحم... في بدني من الفحم ما يكفي لتدفئتي حتى آخر يوم في حياتي. وها قد مضت خمسة أعوام لم تطأ فيها قدماي القعر. يبدو أنني كنتُ أختزنه في جسدي، لا ضير، إنه يُبقي على المرء حياً!».

عمّ صمت، كانت المطرقة البعيدة تضرب بانتظام في الحفرة، والريح تمضي بشكواها، مثل صرخة جوع ونَصب آتية من أعماق

الليل. قبالة ألسنة اللهب المضطربة، واصل العجوز خافضاً صوته، مجتراً بعض الذكريات، «آه! بالطبع، إنه لا يعمل هو وأهله في استخراج الفحم منذ البارحة فقط! لقد كانت الأسرة تعمل لأجل شركة المناجم في مونسو منذ أن تأسّست؛ وذلك يعود إلى أمد بعيد، منذ مائة وستة أعوام أصلاً. جدّه **غِيوم مَاهُو**، غلام في الخامسة عشرة من عمره آنذاك، كان قد وجد الفحم المُقيّر في **ريكيار**، أول حفرة منجم للشركة، حفرة قديمة مهجورة اليوم، هناك، قرب مصنع سكّر **فوفيل**. البلاد كلها كانت تعلم ذلك والدليل أن العِرق المكتشف كان يحمل اسم **غِيوم**، اسم جده. لم يعرفه، كان رجلاً ضخماً حسب ما رُوي عنه، وقوياً جداً، مات من الشيخوخة في الستّين من عمره. ثم أبوه، **نيكولا ماهو** ولقبه **الأحمر**، بالكاد كان يبلغ الأربعين عاماً من عمره حينما لبث داخل لوفوروه، الذي كان يتم حفره في ذلك الوقت: انهارت الأرض، ثم استوت تماماً، شربت الصخور دمه وابتلعت عظامه. اثنان من بين أعمامه وإخوته الثلاثة، بعد ذلك، لقوا حتفهم هناك. أما هو، **فانسون ماهو** الذي خرج من هناك بتمام أطرافه تقريباً، وساقاه غير مستويتين فقط، فكان يُعتبر داهية. ثم، ماذا يصنع؟ كان لا بدّ من العمل. يقوم الناس بذلك أباً عن جد، مثلما قد يقوم الناس بغير ذلك، ابنه، **توسان ماهو** كان يهلك نفسه هناك الآن، وأحفاده، وكل عشيرته، التي تسكن إزاءه، في مجمَّع العمال. مئة وستة عامٍ في استخراج المعدن من الصخر، الغلمان بعد الشيوخ، في خدمة ربّ العمل نفسه، هه؟ ما كان لكثير من سكان المدن أن يفلحوا في سرد قصتهم بهذا القدر من الحسن!

«لا ضير، طالما يجد المرء ما يكفيه ليأكل!»، همس إتيان من جديد.

«هذا ما أقول، ما دام لدينا خبز للأكل، نستطيع العيش».

سكت بُونمُور، وعيناه مصوبتان نحو مُجمّع العمال، حيث كانت تضيء أنوار، تباعاً. كانت الساعة الرابعة تدق في جرس برج مونسو، والبرد يصير أشد.

«وهل هي غنية، شركتكم؟». استأنف إتيان.

هزّ العجوز كتفيه، ثم أرخاهما، كما لو أثقل عليه سقوط أتراس.

«آه! نعم، آه! نعم... لكنها ربما ليست بقدر غنى جارتها، شركة **آنزان**. لكن ملايين وملايين على كل حال. لم نعد نحسب عددها... تسعة عشر حفرة، منها ثلاثة عشر للاستغلال، لوفوروه، لافيكتوار، كريفكور، ميرو، سان توما، مادلين، فوتري كانتيل، وغيرها أيضاً، وتسعة من أجل التهوية والنّزح، مثل ريكيار. عشرة آلاف عامل، احتكارات تمتد على سبع وستين بلدية، استخراج خمسة آلاف طن يومياً، سكة حديدية تربط جميع الحفر، والورش والمصانع!... آه! نعم، آه! نعم، هناك وفرة في الأموال!».

أدى تدحرج العربات على الحوامل إلى رفع أذني الحصان الأصفر الضخم. في الأسفل، لا بد أن إصلاح القفص قد تمّ، واستأنف عمال التفريغ عملهم. بينما كان يربط بهيمته للنزول مجدداً، أضاف سائق العربة بهدوء مخاطباً إياها:

«يجب أن لا تعتاد على الثرثرة، أيها الكسلان السخيف! لو علِم السيد إينبو كيف تهدر وقتك!».

كان إتيان ينظر إلى الليل، شارد الذهن. ثم سأل:

«إذن، المنجم ملك السيد **إينو**؟».

«كلا»، قال العجوز مفسراً كلامه، «السيد **إينو** هو المدير العام، ليس إلا. إنه أجير مثلنا».

بحركة من يده، أشار الرجل الشاب إلى سعة الظلمات.

«لمن كل هذا إذن؟».

ظل **بونمور** مخنوقاً مدة من نوبة جديدة، لم يستطع من شدّتها استرداد أنفاسه. وفي الأخير، لمّا بصق ومسح الزبد الأسود من شفتيه، قال في وجه الريح التي زادت شدَة هبوبها:

«هه؟ من يملك كل ذلك؟ لا نعلم عن الأمر شيئاً. يملكه ناس».

ثم أشار بيده إلى بقعة مبهمة، مكان مجهول ومتوار، يسكنه أولئك الناس الذين يحفر آل **ماهو** طبقات الصخر لأجلهم من أكثر من مائة عام. كان صوته قد اكتسى بما يشبه الخشية الدينية، كما لو أنه تحدث عن متعبّد عصيّ المنال، حيث يختبئ الإله المتخم، الرابض، الذي وهبوه لحمهم جميعاً ولم يسبق أن رأوه قط.

«لو أمكن على الأقل للمرء أن يأكل كفايته من الخبز!». كرر إتيان للمرة الثالثة، دون توسّط ظاهر.

«وحق السيّدة العذراء، أجل! لو كنا نأكل الخبز دوماً، لكان أحسن كثيراً!».

كان الحصان قد انطلق، واختفى سائق العربة بدوره، يخطو ببطء، خطو المعاق. قرب آلة القلب، لم يتحرك المناول، دافناً ذقنه بين ركبتيه، ومثبتاً في الفراغ عينيه الكابيتين الواسعتين.

لما استعاد رزمته، لم يبتعد إتيان بعدُ. كان يشعر بهبّات الريح الباردة الشديدة تجلد ظهره، بينما صدره يلتهب، قبالة النار المتأجّجة. ربما، في كل الأحوال، من مصلحته أن يتوجه للحفرة: قد لا يكون العجوز على علم؛ ثم أنه استسلم، سوف يقبل أي عمل. أين الوجهة وما مصيره، عبر هذا البلد الذي أدخلته البطالة في مجاعة؟ هل يترك خلف جدارٍ عظامه، كعظام كلبٍ ضالٍ؟ وأثناء ذلك، كانت تستبد به حيرةُ تردّدٍ، خوف من لوفوروه، وسط هذا السهل العراء، الغارق في ليل كثيف بشدة. مع كل عاصفة، تبدو الريح وكأنها عظُمت وهبّت من أفق لا يكفّ عن الاتساع. لا فجر ينشر بياضه في السماء الميتة، وحدها المصاهر العالية كانت تتّقد، والشأن كذلك بالنسبة لأفران الفحم الحجري، التي تدمي الظلمات دون أن تنير مجاهلها. ولوفوروه، في قعر ثقبه، متكدس تكدس الوحش الشرير، يندك زيادة، يتنفس بلهاث أضخم وأطول، وكأن هضمه للحم البشري يزعجه.

II

وسـط حقـول القمـح والشـمندر، كان مُجمّـع **المائتيـن وأربعيـن** ينام في كنف الليل المظلم. بالكاد تتميّز المربعات السكنية الأربعة العظيمة لبيوت صغيرة متجاورة، مربعات تضم ثكنة أو مستشفى، هندسية، متوازية، تفصل بينها الشوارع الثلاثة الواسعة، المقسمة إلى حدائق متساوية. وعلى النجد المقفر، لا تسمع إلا شكوى العاصفة في تعاريش الحظائر المنتزعة.

في بيت آل **ماهو**، بالرقم 16 من القطاع الثاني، لم يكن شيء يتحرك. ظلام دامس يغرق غرفة الطابق الأول الوحيدة، وكأنه يسحق بثقله نوم الكائنات التي كان المرء يشعر بها هناك، متراكمة، بفم فاغر، وقد صرعها التّعب. رغم البرد القارس بالخارج، كان للهواء المثقل دفء حيّ، ذلك الاختناق الحار لأفضل الحجرات التي تفوح منها ريح القطيع البشري.

دقّت الرابعة في الساعة الحائطية ذات صوت الوقواق في حجرة الطابق السفلي، لم يتحرك شيء بعدُ، أنفاس رقيقة تُصَفِّر، يرافقها شخيران جهيران. بغتة. استيقظت كاترين. من تعبها، أحصت كالعادة الدقات الأربع، من خلال لوح السقف، ولم تجد القدرة للاستيقاظ تماماً. ثم، بعد أن رمت ساقيها خارج الأغطية، تحسست طريقها، وعثرت في النهاية على عود ثقاب وأوقدت الشمعة.

في هذا الأوان، كانت الشمعة تضيء الغرفة المربعة، ذات النافذتين الاثنتين، التي كانت تشغلها ثلاثة أسرّة. هناك خزنة

ملابس، كرسيان من خشب الجوز القديم، وقد كان لونهما المدخن يلطخ بشدة الحيطان المصبوغة بأصفر واضح. كانت هناك أسمال معلقة إلى مسامير، جرّة ماء موضوعة على الأرض، قرب وعاء طيني أحمر يصلح مِطهرة. في السرير الأيسر، **زكاري**، الابن البكر، فتى في الحادية والعشرين عاماً من عمره، كان مضطجعاً معية أخيه **جونلان** الذي أتمّ عامه الحادي عشر؛ في السرير الأيمن صغيران، **لينور وهنري**، الأولى، تبلغ ستة أعوام من عمرها، والثاني، أربعة أعوام، ينامان في حضن بعضهما؛ بينما كانت كاترين تقتسم السرير الثالث مع أختها **ألزير**، التي من شدة هزالها نسبة إلى أعوامها التسعة، لم تكن تشعر بها قربها، لولا حدبة الصغيرة المصابة بعاهة التي كانت تغرز في أضلاعها. كان الباب الزجاجي مفتوحاً، ويمكن رؤية الممر من الدرج، ما يشبه المخروط حيث كان الأب والأم يشغلان سريراً رابعاً، الذي لم يجدا بدّاً من أن يلصقا به مهد الوافدة الأخيرة، **إستيل**، التي كانت بالكاد تبلغ ثلاثة أشهر من عمرها.

ومع ذلك، قامت كاترين بجهد لا رجاء منه. كانت تتمطّى، تعقد يديها في خصلات شعرها الأصهب، التي كانت تنتشر بكثافة على جبينها ورقبتها. نحيلة بالنسبة لسِنِيّ عمرها الخمس عشرة، لم تكن تُظهر من أطرافها، خارج مبذلة قميصها الضيقة، سوى قدميها المزرقتين، وكأنها موسومة بالفحم، وذراعين ليّنتين، يتميز بياضهما الناصع عن سحنة وجهها الشاحب، الذي أفسده أصلاً الاغتسال المستمر بالصابون الأسود. تثاؤب أخير شرع فمها الواسع قليلاً، ذا الأسنان الرفيعة بين شحوب اللثة المصفرة؛

بينما كانت عيناها الرماديتان تدمعان من مقاومة النوم، وقد اكتست ملمحاً متوجعاً ومنكسراً، بدا أنه يزيد عريها التام تعباً.

لكن زمجرة أقبلت من الدرج، كان صوت ماهو المسترخي، يطحر:

«يا للهم! حان الوقت... كاترين، هل أنتِ من أشعل الضوء؟».

«أجل، أبي... لقد دقت الساعة آنفاً، في الأسفل».

«أسرعي إذن، أيتها الخاملة! لو أنك لم تكثري من الرقص أمس الأحد، لتكفلتِ بإيقاظنا باكراً... يا لحياة الكسل!».

ثم تابع غمغمته، لكن النوم عاوده بدوره، فارتبك عتابه واندثر في شخير جديد.

كانت الفتاة الشابة تغدو وتروح في الغرفة، بقميصها وقدماها عاريتان فوق البلاط. ولما كانت تمرّ حذو سرير **هنري** و**لينور**، ردّت عليهما الغطاء الذي كان قد زلق؛ ولم ينبها من النوم وقد غلبهما نوم الطفولة الثقيل. استدارت وعيناها مفتوحتان لتحلّ بمكان أختها الكبرى الدافئ، من غير أن تنبس ببنت شفة.

«هيه، **زكاري**! وأنت **جونلان**، هيه!»، كانت كاترين تردّد، واقفة قبالة أخويها، اللذين ظلا مستلقيين، والأنف مدسوس في المخدة.

كان لا بد لها من مسك البكر من كتفه وهزّه؛ ثم بينما كان يلوك الشتائم، قررت أن تكشفهما، بنزع اللحاف. بدا لها ذلك مضحكاً، وبدأت تضحك لمّا رأت الفتيان يتخبّطان، وسيقانهما عارية.

«هذا غباء، دعيني!»، زمجر **زكاري** ومزاجه كدر، «لا أحب المقالب... نُرغَم على النهوض، يا لها من لعنة!».

كان هزيلاً، يخلج في مشيته، له وجه طويل، لطخته شعيرات متفرقة في لحيته، شعره أشقر وبه الشحوب المرضي المستديم في الأسرة. كان قميصه يعلو بطنه، فأسدله، ليس حشمة، ولكن لأنه لم يكن يشعر بالدفء.

«لقد دقت الساعة تحت»، كانت تردد كاترين. «هيّا، تحرّكا! أبي مغتاظ».

أغلق جونلان عينيه بعدما تكوم على نفسه وهو يقول: «انصرفي، أنا نائم!».

ومن جديد بدرت منها ضحكة الفتاة الطيبة. ومن شدة ما كان قصيراً، بأطرافه الناحلة، ومفاصله الغليظة التي انتفخت بسبب داء الملوك، بحيث استطاعت رفعه بذراعيها. لكنه كان يتخبط، من غيظ إحساسه بالضعف، كانت الصفرة تعلو وجهه، قناع القرد الشاحب والمجعد، المثقوب بعينين خضراوين، المتسع بأذنيه الكبيرتين. لم يقل شيئاً. عضّها في ثديها الأيمن.

«يا لك من فتى شرير!»، همهمت وهي تكبح صرخة وتضعه على الأرض.

لم تعُد ألزير للنوم، كانت صامتة، واللحاف يدثرها حتى ذقنها. كانت بعينيها المتقدتين فطنة، عينا المصابةِ بعاهةٍ، تتبع أختها وأخويها الذين كانوا يرتدون في ذلك الأوان ملابسهم. وتشاجروا مرة ثانية حول المِطهرة، الولدان يدفعان أختهما لأنها تطيل الغسل. كانت القمصان تتطاير بينما وجوههم لا تزال منتفخة جراء النوم، كانوا يقضون حاجتهم دون حياء، بما يشبه راحة وسكينة جِراءٍ كبُرت معاً. ومع ذلك، كانت كاترين أول من استعدّ.

لبست سروالها، سروال عمّال المناجم، أتبعته بمعطف من الكتان الغليظ، عقدت البخنق الأزرق حول عقيصتها؛ وبملابس يوم الاثنين النظيفة تلك، كان لها مظهر رجل قصير، لم يبق لديها شيء من أنوثتها، سوى الهزة الخفيفة لخصريها.

«عندما يدلف العجوز»، قال زكاري بخبثٍ، «سوف يفرحه الفراش غير المرتّب... تعرفين، سوف أخبره أنك أنتِ السبب».

كان العجوز المقصود هو الجدّ، بونمور، وبما أنه يعمل ليلاً فقد كان ينام نهاراً؛ وحتى لا يبرد الفراش، كان هناك دوماً أحد يشخر فيه.

دون أن تحير جواباً، أخذت كاترين تجذب الغطاء وتسوي أطرافه. إلا أن أصواتاً كانت تُسمع منذ مدة خلف الجدار، بالبيت المجاور. إن بنايات الطوب تلك، المقامة بتقتير من طرف الشركة، من شدة ما كانت رقيقة، فإن أدنى أنفاس كانت تخترقها. يعيش الناس مرفقاً لمرفق، من أدنى بيت إلى أقصاه، ولا شيء من الحياة الحميمة كان يظل محجوباً فيها، حتى على الصبيان. كانت خطوة ثقيلة قد رجّت السّلم، ثم تبعها مثل سقوط رخو، تلته زفرة ارتياح.

«حسناً!»، قالت كاترين، «**لوفاك** ينزل، وها هو **بوتلو** ذاهب عند السيدة لوفاك».

قهقه **جونلان**، بل حتى عينا **ألزير** لمعتا. كل صباح، كانوا يستمتعون على هذا النحو بحياة الجيران ثلاثية الأطراف، حفّار يسكن معه عامل بالردم والصيانة، مما كان يوفر للمرأة رجلين، واحد بالليل، وثان بالنهار.

«**فيلومين** تسعل»، قالت كاترين بعد أن رمت بأذنها تتسمّع.

كانت تتحدث عن البنت البكر لآل **لوفاك**، فتاة ضخمة تبلغ تسعة عشر عاماً من عمرها، عاشقة زكاري، ولها منه طفلان، ثم لما كانت تعاني بشدة من سقم في صدرها، فهي تعمل مغربلة في المنجم، لأنها لم تستطع قط العمل في الجوف.

«آه، أجل! فيلومين!»، أجاب زكاري، «إنها لا تكترث بالأمر، تتام!... من العيب النوم حتى السادسة!».

كان يلبس سرواله، عندما فتح النافذة وقد شغلته فكرة طارئة. في الخارج، وسط الظلمات، كان المجمّع السكني يستيقظ، وتبزغ الأضواء تباعاً، بين فُرَجِ شبابيك النوافذ: ومرة أخرى هناك خصومة: انحنى حتى يرصد إن كان سيخرج مراقب العمال في لوفوروه من بيت آل **پييرون** المُواجِه له، والمتهم بأنه يضاجع **پييرونه**؛ بينما كانت أخته تقول صارخة إن الزوج عاد للخدمة نهاراً بمنفذ السرداب منذ اليوم السابق وإن **دانسير** يستطيع النوم تلك الليلة بالطبع. كان الهواء يلج بنفحات من جليد، وكانا يتجادلان معاً، ويدافع كل منهما عن دقّة أخباره عندما دوّت صرخات وسالت دموع. كانت تلك **إستيل**، في مهدها، وقد أزعجها البرد.

ومن ثم، استيقظ **ماهو**. ماذا حلّ بعظامه يا ترى؟ ها قد أصبح يعود للنوم مثل أي خامل! من شدة ما كان يلعن بقوة لم يعُد أحد من الأبناء، جنبه، يتنفّس. أنهى **زكاري** و**جونلان** غسلهما، ببطء مرهَق أصلاً. كانت **الزير** تنظر دوماً وعيناها مفتوحتان. أما الصبيّان، **هنري** و**لينور**، كل منهما في حضن الثاني، فلم يتحركا، وكانا يشهقان النفّس الخفيف عينه، رغم الجلبة.

«كاترين، هاتِ لي الشمعة!»، صاح ماهو.

كادت تفرغ من شدّ أزرار معطفها، حملت الشمعة إلى الكنّة، وتركت أخويها يبحثان عن ملابسهما، على ضوء النور القليل من جهة الباب. كان والدها قد قفز من الفراش، لكنها لم تتوقف، ونزلت بجواربها الصوف الطويلة، وهي تتلمّس وأوقدت في الحجرة شمعة ثانية لإعداد القهوة. جميع القباقيب الخشبية للأسرة كانت تحت صوان الطعام.

«اسكتي، أيتها البقّة!»، قال **ماهو** مغتاظاً من صراخ **إستيل** المتواصل.

كان قصير القامة شأن العجوز بونمور، يشبهه في سمنته، الرأس غليظ، الوجه مسطح وشاحب، تحت الشعر الأشقر، المقصوص. كان صراخ الطفلة يزداد، وقد راعتها تينك الذراعان المعضّلتان اللتان كانتا تتأرجحان فوقها.

«دعها، تعرف أنها لا تريد أن تسكت»، قالت الزوجة **ماهو**، وهي تتمدّد وسط الفراش.

كانت قد استيقظت بدورها، وكانت تشكو، من الغباء ألّا ينام المرء أبداً ليلته كاملة. ألم يكن في إمكانهم الانصراف بهدوء؟ ملحّفة في غطائها، لم تكن تُظهر سوى وجهها الطويل، بملامحه البارزة، وجماله الثقيل، المشوه أصلاً في سن التاسعة والثلاثين بحياتها البائسة وأولادها السبعة. تكلمت ببطء فيما عيناها شاخصتان في السقف، بينما كان رجلها يرتدي ملابسه. لم يعُد كل منهما يسمع الصغيرة التي كانت تختنق بالبكاء.

«هه؟ تعرف أني بلا أي فلس، ونحن ما نزال في يوم الاثنين: ستة أيام أخرى في انتظار أجرة نصف الشهر... لا وسيلة لأن

يطول الأمر. أنتم بجميعكم، تجنون تسعة فرنكات. كيف تريد أن أتدبر؟ نحن عشرة في البيت».

«أوه! تسعة فرنكات!»، صاح ماهو من جديد، «أنا وزكاري: المجموع ستة... كاترين والأب، فرنكان: المجموع أربعة؛ أربعة زائد ستة، عشرة... وجونلان، فرنك، المجموع أحد عشر».

«أجل، أحد عشر، لكن هناك أيام الآحاد، وأيام العطل... لا يفوق المجموع تسعة أبداً، هل سمعت؟».

لم يحِر جواباً، إذ كان مشغولاً بالبحث عن حزامه الجلدي على الأرض. ثم قال وهو يستقيم واقفاً:

«لا ضرورة للشكوى، أنا قوي على كل حال. هنالك كثيرون عندما بلغوا الاثنين وأربعين عاماً من العمر انتقلوا إلى أعمال الصّيانة».

«ممكن، يا رفيقي، لكن هذا لا يوفر لنا الخبز. ماذا سوف أصنع، قل؟ أليس عندك شيء، أنت؟».

«عندي فلسان».

«احتفظ بهما لشراء كأسك من الشراب... يا إلهي! ماذا سأفعل؟ ستة أيام، إنها لا تنتهي أبداً. لدينا دين بستين فرنكاً عند مِيغرا، الذي صدّ الباب في وجهي مساء البارحة. وهذا لا يمنعني من العودة عنده. لكن إذا أصرّ على الرفض...».

وتابعت ماهود بصوت كئيب، والرأس ثابت، مغمضة عينيها بين فينة وأخرى في ظلّ نور الشمعة الحزين. كانت تذكر صوان الطعام الفارغ والأطفال وطلبهم الخبز المدهون، بل حتى القهوة غير متوفرة، والماء الذي يصيب بالمغص، والأيام الطويلة التي

تُمضيها بمراوغة الجوع بأوراق الملفوف المسلوقة. شيئاً فشيئاً، لم تجد بداً من رفع نبرة صوتها، لأن عويل **إستيل** كان يحجب كلامها. أضحت تلك الصرخات لا تُطاق. بغتة بدا أن **ماهو** يسمعها، وفي سورة غضب، أمسك الصغيرة في المهد، رماها فوق فراش الأم، وقد تلعثم من غيظه:

«هاكِ!، خُذيها، أُوشك أن أسحقها... يا لها من طفلة، اللعنة! لا ينقصها شيء، ترضع وتشكو أعلى من غيرها!».

كانت إستيل قد أخذت ترضع بالفعل. مختفية تحت الغطاء، بعد أن هدّأها دفء الفراش، لم يعُد يبدو منها سوى صوت شفتيها الخفي المنهوم.

«ألم يخبركِ صاحبا ضيعة **پيولين** الثريّان بالذهاب عندهما؟»، استأنف الأب كلامه بعد صمت.

زمّت الأم شفتيها، والشكّ المحبط باد عليها.

«أجل، لقد لقياني، كانا يحملان ملابس للأطفال الفقراء... أقصد، سوف آخذ هذا الصباح لينور وهنري إلى بيتهم. لو أعطياني مئة فلس فحسب».

عاد الصمت من جديد. كان ماهو جاهزاً. ظلّ لحظة لا يتحرّك، ثم ختم بصوته المكتوم.

«ماذا تريدين؟ ؟ هذه هي الحال، تدبّري أمر الحساء... لا فائدة من الكلام في ذلك، من الأفضل أن أكون هناك في العمل».

«طبعاً»، ردّت الزوجة ماهود، «أطفئ الشمعة، لا أحتاج إلى رؤية لون أفكاري».

أطفأ الشمعة. كان زكاري وجونلان نازلان أصلاً؛ تبعهما؛ فقعقع السلّم الخشبي تحت أقدامهما الثقيلة الملفوفة في جوارب من

صـوف. خلفهـم، سـاد الظـلام مـن جديـد فـي الكنّـة وفـي الغرفـة. كان الأطفـال نائمـون، حتـى ألزيـر نفسـها كانـت مغمضـة الجفنيـن. لكن عينـي الأم ظلّتـا مفتوحتيـن إلـى الآن وسـط الظـلام، بينمـا كانـت إسـتيل، وهـي تمـص ثديهـا المتدلـي، ثـدي المـرأة المتعبـة، تغـط فـي النـوم مثـل هـرّ صغيـر.

فـي الأسـفل، اهتمّـت كاتريـن أولاً بالنـار، الموقـد الحديـدي، ذي المشـبك الوسـط، الـذي يحيطـه فرنـان وفيـه علـى الـدوام نـار الفحـم. كانـت الشـركة تـوزّع شـهرياً علـى كل أسـرة ثمانيـة هكتـو لتـرات مـن رذالـة الفحـم، وهـو فحـم صلـب يُلتقـط مـن علـى سـكك الحديـد. يشـقُّ اسـتيقاده، والفتـاة الشـابة التـي كانـت تغطّـي النـار كل مسـاء، لـم يكـن عليهـا سـوى تحريكهـا صباحـاً، بإضافـة قطـع صغيـرة مـن الفحـم اللّيّـن، مختـارة بعنايـة. ثـم بعـد أن وضعـت المِسـخَنة علـى المجمـر، قعـدت القرفصـاء قبالـة صـوان الطعـام.

كانـت غرفـة واسـعة بمـا فيـه الكفايـة، تسـتحوذ علـى الطابـق السـفلي كلـه، مصبوغـة بلـون التفـاح الأخضـر، ذات نظافـة فلامانيـة، وبلاطاتهـا المغسـولة بمـاء كثيـر وقـد ذُرّي عليهـا رمـل أبيـض. فضـلاً عـن الصـوان المتّخـذ مـن خشـب الصنوبـر المطلـي، كان الأثـاث يتلخـص فـي مائـدة وكـراسٍ مـن الخشـب عينـه. ملصقـة علـى الجـدران، تصاويـر ملوَنـة حـادّة، صـور الإمبراطـور والإمبراطـورة عطيـة مـن الشـركة، جنـود وقديسـين، مذهّبـة، بـارزة بفجاجـة وسـط عـري الحجـرة الواضـح؛ ولـم يكـن مـن زينـة غيرهـا سـوى صنـدوق مـن الـورق المقـوّى باللـون الزهـري فـوق الصـوان، والسـاعة ذات الإطـار الطافـح بالألـوان، التـي كانـت تكتكتهـا تمـلأ فـراغ السـقف

على ما يبدو. قرب باب السلم، هنالك باب يؤدي إلى القبو. رغم النظافة، كانت رائحة بصل مطبوخ، المحبوسة منذ ليلة البارحة، تسمم الهواء الحار، ذلك الهواء المثقل، المحمّل دوماً بحموضة الفحم.

قبالة الصّوان المفتوح، كانت كاترين تفكر. لم يتبق سوى قطعة خبز، ما يكفي من الجبن الأبيض، لكن بالكاد قليل من الزبدة؛ وكان يتعلق الأمر بدهن الخبز لهم الأربعة. في آخر المطاف، قرّرت، قطعت الشرائح، أخذت منها واحدة غطّتها بالجبن، وحكّت الثانية بالزبدة، ثم ضمّتهما معاً؛ كانت تلك هي الزوادة، كِسرتا الخبز المدهون المحمول كل صباح إلى الحفرة. وفي الحال، صُفّت الزوّادات الأربع فوق المائدة، موزعة بعدل حازم، بداية من زوّادة الأب الضخمة إلى زوّادة جونلان الصغرى.

كاترين التي كانت مستغرقة كما يبدو في شغلها المنزلي، لا بد أنها كانت تتخايل القصص التي كان يرويها زكاري عن رئيس العمال وپييرونه، لأنها واربت باب المدخل ورمت بنظرها إلى الخارج. كانت الريح تهبّ دوماً؛ أضواء كثيرة تركض على واجهات المجمّع الخفيضة، التي تصدر منها جلبة استيقاظ لا تَبين. كانت أبواب تغلق مسبقاً، وصفوف سود من العمل تبتعد في الليل. يا لها من مغفّلة، أن تتعرض للبرد من جديد، ما دام حمّال العربات في السرداب ينام بالطبع، في انتظار الذهاب للقيام بخدمته، على الساعة السادسة! ولبثت، تنظر إلى البيت، على الجانب الآخر من الحدائق. فُتح الباب، اتّقد حب الاستطلاع فيها. لكنها لم تكن سوى صغيرة آل پييرون، ليدي الذاهبة إلى الحفرة.

جعلها صوت صفيرِ بخارٍ تستدير. أغلقت الباب، وعجّلت تجري: كان الماء يغلي وهو يفيض فأطفأ النار. لم يبقَ شيء من القهوة، وكان لا بدّ لها من الاكتفاء بوضع الماء على ما رَسَب في اليوم السابق؛ ثم وضعت السكر في إناء القهوة، ومعه بعض السكر الخام له لون البنّ. في ذلك الحين بالضبط، كان والدها وأخواها نازلين.

«بُعداً!»، قال زكاري حينما قرّب أنفه من قعبه الصغير، «ها هي واحدة لن تكسر رأسنا!».

نفّض ماهو كتفيه باستسلام ظاهر عليه.

«لا ضير! إنها ساخنة، إنها طيّبة على كل حال».

كان جونلان قد التقط فتات قطع الخبز المدهون وبلّل حساءه. بعد أن شربت كاترين، انتهت بإفراغ إناء القهوة في القوارير المعدنية. كانوا يبتلعون على عجل وهم وقوف، أربعتهم، لا تضيئُهم الشمعة المدخنة بوضوح.

«وصلنا النهاية! قال الأب. قد يُظن أن لنا معايش!».

لكن صوتاً سُمع من السلم، الذي تركوا بابه مفتوحاً. كانت **ماهود** هي من يصيح:

«خذوا الخبز كله، عندي قليل من الشعيريّة للأطفال!».

«أجل، أجل!». ردّت كاترين.

كانت قد غطّت النار وقد ثبّتت في زاوية المجمر بقية حساء يجدها الجدّ ساخنة حينما يعود عند السادسة. أخذ كل واحد زوج نعليه الخشبيين من تحت صوان الطعام، ووضع حبل قارورته على كتفه وأدخل زوّادته في ظهره، بين القميص والمعطف. ثم

خرجوا، الرجال في المقدمة، والبنت في الخلف، لكي تطفئ الشمعة وتدير المفتاح. صار البيت مظلماً من جديد.

«هاك! نمضي معاً»، قال رجل كان يغلق باب المنزل المجاور.

كانوا **لوفاك**، مع ابنه بيبير، غلام في الحادية عشرة من عمره، صديق جونلان الحميم. كبحت كاترين، مستغربة، ضحكة، مُسِرّة في أذن زكاري: «ماذا حل إذن؟ لم يعُد **بوتلو** ينتظر أن ينصرف الزوج!».

في هذا الأوان كانت الأضواء تنطفئ في المجمّع. أوصد بابٌ أخير، ونام الجميع من جديد، عاد النساء والأطفال إلى نومهم داخل فرش أوسع. ومن القرية المنطفئة إلى **لوفوروه** الذي كان يتنفس، هنالك موكب بطيء من الظلال عرضة للريح العاصفة، انطلاق عمال الفحم للعمل، يتمايلون بمناكبهم، تعيقهم أذرعهم التي كانوا يشبكونها حول الصدر؛ بينما في الظهر، كانت الزوّادة تشكل لكل واحد حدبة. بمعاطفهم ذات القماش الرقيق النسج، كانوا يرتعدون من البرد، دون أن يسرعوا زيادة، متفرّقين على طول الطريق، مثل سير القطيع الرّويد.

III

كان إتيـان قـد دخـل آنفـاً إلـى **لوفـوروه** بعـد أن نـزل أخيـراً مـن ركام الـردم؛ والرجـال الذيـن كان يخاطبهـم، سـائلاً هـل هنـاك عمـل، كانـوا يهـزّون رؤوسـهم ويقولـون لـه جميعـاً أن ينتظـر رئيـس العمـال الأول. كان يتـرك طليقـاً، وسـط بنايـات سـيئة الإضـاءة، مليئـة بالثقـوب السـود، المحيّـرة بتعقّـد قاعاتهـا وطوابقهـا. بعدمـا ارتقـى سـلّماً مظلمـاً نصفـه مهـدّم، وجـد نفسـه علـى قنطـرة تهتـزّ، ثـم جـاز حظيـرة الغربلـة، مـن شـدة مـا كانـت غارقـة فـي ظـلام غائـر كان يمشـي ويـداه إلـى الأمـام حتـى لا يصطـدم بشـيء. قبالتـه، بغتـة، خرقـت العتمـة عينـان صفـراوان، عظيمتـان. كان يقـف أسـفل سـقيفة البئـر، فـي قاعـة التوريـد، عنـد فتحـة البئـر نفسـه.

فـي ذلـك الحيـن بالضبـط، كان يتجـه نحـو مكتـب المـورد، واحـد مـن المشـرفين علـى العمـال، الأب **ريشـوم**، وهـو رجـل ضخـم لـه وجـه جِلَّـوز حقيقـي، يخرطـه شـاربان رماديـان.

«ألا يُحتـاج إلـى عامـل هنـا، كيفمـا كان الشـغل؟». سـأل إتيـان مـن جديـد.

أوشـك ريشـوم أن يـردّ نفيـاً؛ لكنـه تراجـع وأجـاب مثـل الآخريـن، وهـو يبتعـد:

«انتظـر السـيد **دانسـير**، رئيـس العمـال الأول».

كانـت أربعـة فوانيـس مثبّتـة هنـاك، والعاكسـات التـي كانـت ترمـي الضـوء كلـه علـى البئـر، تضـيء بشـدة مناصـب الحديـد وروافـع التشـوير والأسـدّة، وألـواح القِيـاد الخشـبية الكبيـرة حيـث كان ينزلـق

القفصان. أما الباقي، القاعة الواسعة، مثل صحن كنيسة، فقد كانت غارقة في الظلمة، تملؤها ظلال عظيمة حائمة. كانت قاعة المصابيح تتوهج في أقصى طرف، بينما في مكتب المُورد مصباح هزيل يبدو مثل نجمة آفلة. كانت عملية الاستخراج قد استؤنفت؛ وفوق بلاطات الحديد السبيكة، كان هناك رعد متواصل، وعربات قطر الفحم تجري دون توقف، وتسابق عمال التفريغ والطحن الذين كانت ترى منهم ظهورهم المحنية، في تحريك كل تلك الأشياء السود والصاخبة المتململة.

لبرهة، ظلّ إتيان بلا حركة، كما لو أنه أصابه صمم وعمى. جامد الأطراف، لأن الهواء كان يدخل من كل الجهات. وعليه، مشى خطوات معدودة، جذبته الآلة التي كان يرى منها في هذا الأوان قطع الفولاذ والنحاس. كانت تقع خلف البئر، على بعد خمسة وعشرين متراً، في قاعة أكثر علواً، راسية بالتمام على قاعدتها من الآجر، حتى أنها كانت تعمل بأقصى سرعتها، بكامل قوتها، قوة أربعمائة حصان، من دون أن يخلف دوران محورها الضخم رعشة في الجدران وهو يطفو ويغوص بليونة فائقة. كان عامل الآلة، الواقف عند عتلة تحريك القطر، ينصت إلى أجراس الإشارات، ولا تفارق عيناه لوحة التشوير حيث رسمُ البئر، بطوابقها العديدة، من خلال فرجة عمودية تعبرها قضبان من رصاص معلقة إلى حبال، وهي بمثابة مصاعد. وعند كل انطلاقة، لمّا تشرع الآلة في الاهتزاز، فإن اللولبين، وهما عجلتان عظيمتان نصف قطر كل منهما خمسة أمتار، بفضل محورهما ينعقد حبلا الفولاذ وينفكّان في اتجاه معاكس، من شدة ما كانا يدوران بسرعة، فإنها لم تكن تبدو إلا غباراً مرمداً.

«حذار!»، صاح ثلاثة عمال تفريغ، كانوا يجرّون سلماً ضخماً.

كان إتيان يوشك أن يُسحَق. تعودت عيناه، كان يرى الحبال الفولاذية تعدو في الجو، أكثر من ثلاثين متراً من الأشرطة الفولاذية تصعد محلقة في السقيفة، حيث تمرّ على بكرات، لتنزل على نحو حاد في البئر وتعلَق بمصاعد الاستخراج. دعامة من حديد، مثل دعامة برج جرس عالية، كانت تحمل البكرات. كان الأمر عبارة عن انزلاق طائرٍ، دون ضجة، دون صدام، الانفلات السريع، الغدو والرواح المتواصل لحبل خاص بالوزن الثقيل، الذي كان يستطيع رفع ما يزن اثني عشر ألف كيلوغرام، بسرعة عشرة أمتار في الثانية.

«حذار، يا إلهي!»، صاح عمال التفريغ من جديد، وهم يدفعون السلم من الطرف الثاني، لتفقد مقبض جهة اليسار.

ببطء عاد إتيان إلى المورد. كان يذهله ذلك التحليق الجبار فوق رأسه. وهو يرتعد في مهب الريح، نظر إلى عمل المصاعد، وقد تأذت أذناه من صخب عربات القطر. قرب البئر، كانت الإشارة تنهض بوظيفتها، مطرقة ثقيلة ذات رافعة كان حبل مجرور من القعر يُسقطها على مِيشار. ضربة للتوقف، ضربتان للنزول، ثلاثة للصعود: كان ذلك يتمّ بلا هوادة مثل ضربات هراوة تغلب الجلبة، تصاحبها رنة جرس واضحة؛ بينما عامل التفريغ، الذي يدير العمل، يزيد من حدة الجلبة صارخاً بأوامر لعامل الآلة، عبر مكبّر صوت. كانت المصاعد وسط هذا الضجيج، تظهر وتغمر، تفرغ وتمتلئ، دون أن يفهم إتيان شيئاً من تلك الأعمال المعقّدة.

لم يكن يفهم سوى شيئاً واحداً: كانت البئر تبلع من الرجال في كل لقمة عشرين أو ثلاثين فرداً، بدفعة سهلة من الحلقوم حتى كان يخيل إليه أنه لا يشعر بهم يمرون. كان نزول العمال يبتدئ منذ الساعة الرابعة. يقدمون من الحظيرة، حفاة، المصابيح في الأيدي، ينتظرون وهم جماعات صغيرة أن يكتمل عددهم بما يكفي. بلا أدنى صوت، وكأنه سانحة لطيفة لوحش من وحوش الليل، كان قفص الحديد يصعد من وسط الظلام، يثبت على الأقفال بطوابقه الأربع في كل واحد منها عربات قطر مليئة بالفحم. كان عمال تفريغ، عند مختلف المدارج، يُخرجون العربات، يعوضونها بغيرها، فارغة أو محمّلة مسبقاً بخشب القطع. وفي تلك العربات الفارغة كان يتراكم العمال، خمسة فخمسة، حتى أربعين عامل دفعة واحدة عندما كانوا يحتلون كل خانة. كان ينطلق أمر من مكبّر الصوت، خوار مكتوم لا يُميَّز، بينما يُجرُّ حبل الإشارة من تحت أربع مرات، «جرس اللحم»، للإخبار بأن هذه حمولة اللحم البشري. ثم بعد هزّة خفيفة، يغوص القفص في صمت، يسقط مثل حجر، ولا يترك خلفه سوى انزلاق الحبل الحثيث.

«هل ذلك عميق؟»، سأل إتيان أحد العمال كان ينتظر بالقرب منه، والنعاس ظاهر عليه.

«خمسمائة وأربعة وخمسون متراً»، ردّ الرجل، «لكن هناك أربع مراتب فوقه، طول الأول ثلاثمائة وعشرون متراً».

سكتا هما الاثنان، العيون على الحبل الصاعد. استأنف إتيان الحديث:

«وعندما ينقطع؟».

«آه! عندما ينقطع...».

ختم عامل المنجم بإيماءة. كان دوره قد حان، إذ ظهر قفص المصعد من جديد، بحركته السهلة ودون تعب. قعد فيه القرفصاء مع رفاقه، ثم غاص مرة أخرى وظهر من جديد، ولم تمض أكثر من أربع دقائق ليبتلع حِملاً ثانياً من الرجال. مدة نصف ساعة والبئر تلتهم بذلك النحو، بفم شرِه، قليلاً أو كثيراً، حسب عمق المراتب التي ينحدرون إليها، لكن بلا أدنى توقف، جائعة دوماً، بمصارين جبارة قادرة على هضم شعب. كانت تمتلئ وتمتلئ زيادة، والظلمات تبقى ميتة، والقفص يصعد من الفراغ بالصمت النّهم نفسه.

بمرور الوقت، شعر إتيان مرة أخرى بالضيق الذي استبد به سابقاً وهو على ركام الردم. لِم العناد؟ سوف يطرد رئيس العمال الأول ذاك مثل غيره. بغتة دفعه خوف ملتبس إلى حسم قراره: انصرف، لم يتوقف في الخارج إلا قبالة بناية المولدات. كان الباب المشرع يسمح برؤية سبعة مراجل لكل واحد منها فوهتان. وسط البخار الأبيض، بين صفير السرب، كان عامل آلة منشغلاً بتحميل فوهة منهما، يشعر المرء بنارها المتأججة من العتبة، وكان الرجل الشاب، الفرِح بالدفء، يدنو عندما لقي جماعة جديدة من عمال الفحم كانت قادمة من الحفرة. كانوا هم آل **ماهو** وآل **لوفاك**. حينما رأى في المقدمة كاترين بمظهرها الهادئ، مظهر فتى، عنّت له فكرة مبشّرة للمجازفة بسؤال أخير:

«يا رفيق، أليست هناك حاجة إلى عامل هنا، كيفما كان العمل؟».

نظـرَت إليـه مندهشـة، فزعـة قليـلاً مـن ذلـك الصـوت المباغـت الـذي خـرج مـن العتمـة. لكـن كان **ماهو** مـن خلفهـا قـد سـمع الـكلام وردّ مجيبـاً فـي لحظـة، «كلا، ليسـت هنـاك حاجـة إلـى أي أحـد». هـذا العامـل العفريـت المسـكين، التائـه بيـن الطرقـات، كان يثيـر اهتمامـه. حينمـا فارقـه، قـال للآخريـن:

«هـه؟ قـد نكـون مثـل هـذا... لا وجـوب للشـكوى، لا يجـد الجميـع عمـلاً يُكـدّ فيـه».

دخلـت الجماعـة واتجهـت رأسـاً إلـى الحظيـرة، قاعـة واسـعة مطليـة بالجصّ علـى وجـه التقريـب، تحفّهـا خزانـات مغلقـة بأقفـال. فـي وسـطها، مدفـأة مـن حديـد، مـا يشـبه الموقـد لا بـاب لـه، محمـرّ مـن شـدة ملئـه بالفحـم المتوهـج كانـت قطـع منـه تتكسـر وتسـقط علـى الأرض الموحلـة. لـم تكـن بالقاعـة إضـاءة سـوى ذلـك الموقـد المتأجـج الـذي كانـت ظلالـه الداميـة تتراقـص علـى امتـداد اللـوح الخشـبي القـذر حتـى السـقف المتسـخ بالسـخام.

ولمـا كان آل ماهـو قادميـن، دوّت ضحـكات وسـط الحـرارة العاليـة. كان مـا يقـرب مـن ثلاثيـن عامـلاً واقفيـن، ظهورهـم إلـى اللهـب، يشـوون أبدانهـم والمتعـة باديـة عليهـم. قبـل النـزول، كان الجميـع يأتـي علـى ذلـك النحـو ليأخـذ ويحمـل فـي جلـده قطعـة كافيـة مـن النـار لمواجهـة رطوبـة البئـر. لكـن، ذلـك الصبـاح، كانـوا يمرحـون زيـادة عـن العـادة، ويمازحـون **موكيـت**، عاملـة دفـع فـي الثامنـة عشـر مـن عمرهـا، فتـاة محبوبـة، صدرهـا وكفلهـا الضخمـان يضيقـان فـيّ المعطـف والسـروال. كانـت تسـكن **ريكيـار** مـع والدهـا، **موك** العجـوز، سـائس الخيـول، و**موكـي**، أخيهـا، عامـل تفريـغ؛ لكـن بمـا أن سـاعات

العمل لم تكن متّفقة، فإنها كانت تذهب للحفرة لوحدها؛ وكانت، وسط حقول القمح في الصيف، أو مُسندة إلى حائط في فصل الشتاء، تتهالك على اللذة رفقة عاشقها لذلك الأسبوع. لا تردّ يدَ لامِسٍ في المنجم كله، وتجود على رفاقها حقاً، دون مغبّة. ذات يوم عِيب عليها معاشرة صانع مسامير، كادت تموت حنقاً، صارخة أنها تفرّط في احترام نفسها، أنها مستعدة لأن تقطع ذراعها إذا ما تفاخر أحد بأنه رآها صحبة غير عامل منجم.

«إذن لم يعُد الأمر يقتصر على العظيم **شافال**؟»، قال عامل منجم وهو يقهقه، «اتخذتِ ذاك القُصيّر؟ لكن سوف يلزمه سُلَم! لقد رأيتكما خلف **ريكيار**. والدليل أنه صعد على حجر علامة حدّ».

«وبعد؟»، أجابت **موكيت** بمزاج رائق، «وما دخلك أنت؟ لم يطلب أحد كي تدفع».

وضاعفت تلك الفظاظة المستملحة من قهقهة الرجال الذين كانوا ينفخون مناكبهم التي أنضجها الموقد؛ وبينما هزّها الضحك بدورها، كانت تجول بينهم في فحش ملبسها، بهزل محيّر، بكتل جسدها، المبالغ فيها حدّ ما يُكرِه.

لكن البهجة ذهبت إذ أخبرت موكيت الرفيق **ماهو** بأن فلورانس، فلورانس العظيمة لن تحضر: وجدوها في الليلة السابقة هامدة في فراشها، قال بعضهم من سكتة قلب، وقال البعض الآخر مِن تجرّع لتر من شراب الماحيا[1]. وكان اليأس قد دبّ في ماهو:

---

(1) شراب الماحيا هو شراب كحولي مقطّر، وأصل الكلمة عربي وهي منحوتة من (ماء الحياة).

سوء الحظ من جديد، ها إنه يفقد واحدة من عاملاته في الحمل والدفع، ولا قدرة له على تعويضها في الحال! كان يعمل في الصفقة، كانوا عبارة عن أربعة شركاء في مقلعه، هو، زكاري، لوفاك وشافال. إذا لم يعُد لديهم غير كاترين للنقل، لذا فإن المهمة سوف تتضرر. صاح بغتة:

«هاء! وذلك الرجل الذي كان يبحث عن شغل؟».

في ذلك الوقت بالضبط كان **دانسير** يمرّ قبالة الحظيرة. روى له **ماهو** القصة، طلب الإذن بأن يستأجر الرجل؛ كان يشدّد على رغبة الشركة في استبدال عاملات الحمل والدفع بفتيان، مثلما في **أنزان**. ابتسم رئيس العمال الأول في البداية لأن مشروع إقصاء النساء من القعر يشق في العادة على عمّال المنجم الذين كان يقلقهم وضع بناتهم، ولا يبالون كثيراً بمسألة مراعاة الأدب والنظافة. وفي آخر المطاف، بعد تردد، صرّح بذلك لكن احتفظ لنفسه بأن يمهر قراره المهندس السيد **نيغريل**.

«آه طيب!»، قال زكاري، «لقد ابتعد الرجل، إذا كان يعدو دوماً!».

«كلا»، قالت كاترين، «لقد رأيته واقفاً عند المراجل».

«اذهبي إذن، أيتها الخاملة!»، صاح ماهو.

انطلقت الفتاة بينما كان حشد من عمال المنجم يصعد إلى البئر، تاركين النار لغيرهم. ذهب **جونلان** بدوره لأخذ مصباحٍ ولم ينتظر أباه، معه بيبير، الولد الضخم الغرّ، وليدي، الفتاة الهزيلة ذات العشرة أعوام. سبقتهم **موكيت** التي كانت تصيح في السلم المظلم وهي تنعتهم بالصبيين القذرَين وتهدّد بصفعهم إن هم قاموا بقرصها.

في بناية المراجل كان إتيان يتحدث فعلاً مع الوقّاد الذي كان يملأ الفوهات بالفحم. كان يشعر ببرد قارس حين تعنّ له فكرة الليل حيث يجب عليه أن يعود. ومع ذلك، كان عازماً على الرحيل حينما شعر بيد تربت على كتفه.

«تعال»، قالت كاترين، «ثمة شيء لأجلك».

أول الأمر، لم يفهم. ثم اندفع فرحاً، شدّ بحرارة على يدي الفتاة.

«شكراً، رفيقي... آه! إنك رجل طيب، بالمناسبة!».

أخذت تضحك، وهي تنظر إليه بين وهج الفوهات التي كانت تنيرهما. كانت تستمتع بذلك، أن يظنها ولداً، نحيلة لا تزال، عقيصتها مخفية تحت البخنق. هو أيضاً كان يضحك من فرحه؛ وظلّا لحظة يضحكان وجهاً لوجه، والوجَنات متقدة.

كان ماهو داخل الحظيرة، يقعد القرفصاء قبالة صندوقه، يسحب نعليه الخشبيين وجوربيه الصوف الغليظين. عندما حضر إتيان هناك، حسم كل الأمر في أربع كلمات: «ثلاثون فلساً في اليوم، عمل شاق لكنه سوف يتعلم بسرعة». نصحه الحفّار بالاحتفاظ بحذائه ثم أقرضه خوذة قديمة، وقبعة من جلد غرضها حماية الرأس، وتلك حيطة كان الأب والأطفال لا يبالون بها. أخرجت الأدوات من الصندوق الذي كانت فيه مجرفة فلورانس بالضبط. ثم بعد أن أغلق عليه ماهو نعالهم الخشبية، وجواربهم، ورزمة إتيان كذلك، نفد صبره بغتة.

«ماذا يصنع إذن، شافال الجاهل ذاك؟ ثمة دوماً فتاة ليطأها فوق ركام الحجارة! لقد تأخرنا اليوم بنصف ساعة».

كان زكاري ولوفاك يدفئان كتفيهما في دعة. وقال الأول في نهاية المطاف:

«أو تنتظر **شافال**؟ لقد جاء قبلنا، ونزل حال وصوله».

«كيف! تعلم ذلك ولم تخبرني منه شيئاً! هيا! هيا! فلنُسرع».

لزم كاترين، التي كانت تدفئ يديها، أن تتبع العصبة. فسح لها إتيان الطريق وصعد خلفها. مرة أخرى، كان يسافر في مضلة من السلالم والممرات المعتمة، حيث للأقدام الحافية صوت الجوارب البالية الرخو. لكن قاعة المصابيح سطعت بأنوارها، قاعة من زجاج، تضج برفوف صُفّت عليها في طوابق مئات المصابيح من نوع **دافي**، فُحِصَت وغُسلت في اليوم السابق، وأشعِلت مثل شموع في أقصى طرف من كنيسة متقدة. عند الشُّبّاك، كان كل عامل يأخذ مصباحه، المختوم برقمه؛ ثم يفحصه ويغلقه بنفسه؛ بينما كان الوَاسِمُ، الجالس إلى منضدة، يقيّد في سجلّ ساعة النزول.

كان لا بد لـ**ماهو** من التدخل لأجل مصباح عامله الجديد في الدفع. كما أن هناك احتياطاً ثانياً، إذ كان العمال يمرّون تباعاً أمام مدقِّق يتأكد من أن جميع المصابيح مغلقة جيداً.

«بُعداً! الجوّ ليس دافئاً هنا»، همست كاترين مرتعدة.

اكتفى إتيان برفع رأسه. كان موجوداً مرة أخرى قبالة البئر، وسط القاعة الواسعة التي تكنسها تيارات الهواء. صحيح أنه كان يظن نفسه شجاعاً ومع ذلك فإن تأثراً مزعجاً كان يضيق على حلقه، وسط رعد عربات القطر، ضربات الإشارات المكتومة، والخواء المخنوق لمكبّر الصوت، بإزاء التحليق المتواصل لتلك الحبال، المعقودة والمحلولة بأقصى سرعة، عبر أسطوانات الآلة.

كانت الأقفاص تصعد، تنزل، منزلقة مثل حيوان ليلي، تَغُور برجال كان يبدو أن فم الثقب يبلعهم. جاء دوره في هذا الأوان، كان يشعر ببرد شديد، ويلزم صمتاً مشنّجاً، جعل كلّاً من زكاري ولوفاك يقهقه؛ لأنهما معاً لا يتفقان مع تشغيل ذلك الغريب، لوفاك على الأخص، الذي آذاه عدم أخذ مشورته. وقد فرحت كاترين لمّا سمعت أباها يشرح الأمور للرجل الشاب.

«انظر، أعلى القفص، هناك واقية من السقوط، مخالب من حديد تُغرز في حبال القياد حال الانقطاع. ذلك ينهض بعمله، أوه! ليس دوماً، أجل، تنقسم البئر إلى ثلاثة أقسام، مغلقة بألواح، من أعلى إلى أسفل: وسط الأقفاص، إلى اليسار هناك منفذ السلالم».

لكنه قطع كلامه مزمجراً، دون أن يسمح لنفسه بالإفراط في رفع الصوت:

«ماذا نفعل هنا، يا إلهي! هل من المسموح به أن نجمّد بهذا النحو!».

تناهت شكواه لرئيس العمال **ريشوم** الذي كان يتهيّأ للنزول هو أيضاً، بمصباحه ذي فتيل الغاز المثبّت بمسمار إلى جلد قبعته.

«خذ حذرك، حذار من الآذان!»، همس بنبرة أبوية، بصفته عامل منجم قديم ظلّ طيباً مع رفاقه، «لا بدّ للأعمال أن تتمّ. هاك! بالمناسبة، اركب مع جماعتك».

وبالفعل كان في انتظارهم القفص، المبطن بأشرطة من صفائح المعدن وسياج مسرود صغير الحلقات، ثابت على الأسِدّة. اندس **ماهو** وزكاري ولوفاك وكاترين في عربة من عربات القعر؛ ولما

كان عليهم الجلوس بها خمستهم، دخل إليها إتيان بدوره؛ لكن الأماكن المناسبة لم تكن شاغرة، ولزمه أن يتكوم قرب الفتاة الشابة التي كان مرفقها يبعج بطنه. كان مصباحه يزعجه، نُصِح أن يربطه بزر معطفه. لم يسمع، وأبقاه في يده على نحو آخر. كان النقل متواصلاً، فوق وتحت، حشر مختلط للقطيع. لم يكن الانطلاق ممكناً؟ ماذا كان يجري؟ بدا له أن صبره ينفد منذ دقائق طويلة. وفي نهاية الأمر، رجّته هزة وأظلم كل شيء؛ الأشياء حوله طارت، بينما كان يشعر بدوخة السقوط المجهِشة التي كانت تمزّق أحشاءه. استمر ذلك ما دام على السطح، مجتازاً طابقَي الموارد، وسط انفلات الدعائم الدّوّار. ثم بعدما سقط في ظلمة الحفرة، ظلّ مشدوهاً، ولم يعُد يدرك أحاسيسه بوضوح.

«ها قد انطلقنا»، قال **ماهو** بكل طمأنينة.

كان الجميع مرتاحاً. أما هو، فقد كان يتساءل بين فينة وأخرى هل كان ينزل أم يصعد. كان هناك ما يشبه التوقفات، حينما كان القفص يمرق رأساً، دون أن يلمس حبال القياد؛ ثم تتبعها جلبة مباغتة، ما يشبه تراقص ألواح الخشب العريضة، التي كانت تصيبه بخوف الكارثة. فضلاً عن ذلك، لم يكن يستطيع تبيّن جوانب البئر، خلف الشباك الذي كان يلصق به وجهه. كانت المصابيح لا تضيء جيداً تراكم الأجساد عند قدميه. وحده مصباح فتيل الغاز الذي لرئيس العمال، في العربة المجاورة، كان يسطع مثل فنار.

«هذا قطره خمسة أمتار»، كان يقول **ماهو** مواصلاً كلامه حتى يُعلِّمه، «من الأفضل إعادة التبطين لأن الماء ينبجس من كل

الجهات. هاؤم! وصلنا إلى الحذو، أو تسمعون؟».

كان إتيان يتساءل تحديداً عمّا إذا كان هذا صوت هطول المطر. أول الأمر رنّ صوت قطرات غليظة معدودة على سقف القفص، مثل رشّ وطشّ المطر في أوله؛ والآن زاد هطل المطر وتحوّل إلى طوفان حقيقي. لا شك أن السقف كان مثقوباً، لأن خيط ماء كان يسيل على كتفه، ويبلل حتى جسده. صار البرد صقيعاً، وهم يذهبون غوراً في رطوبة مظلمة، مروا بسرعة بمنظر مغارة تعمّها جلبة بعض الرجال، في ضوء بارقة. وها إنهم يهبطون مرة أخرى في العدم.

كان ماهو يقول:

«هذه هي المرتبة الأولى. نحن على عمق ثلاثمائة وعشرين متراً. تأمّل السرعة».

رفع مصباحه، أنار لوح حبال القياد الذي كان يجري مثل سكة تحت قطار منطلق بأقصى سرعة؛ وما وراءه، لم يكن يُرى شيء. مرت ثلاث مراتب أخرى وسط أضواء محلِّقة. كان المطر بصوته الذي يصمّ الآذان يجلد الظلام بسياطه.

«كم إنه عميق!»، همس إتيان.

لعل الهبوط طال منذ ساعات. كان يتألم من الهيئة غير السليمة التي اتخذها، لأنه لم يجرؤ على التململ، يعذّبه على الأخص مرفق كاترين. لم تكن تنطق بكلمة، كان يشعر بها فقط في حضنه، تدفئه. عندما توقف القفص في القعر، نهاية الأمر، على عمق خمسمائة وخمسين كيلومتراً، دهش لمّا علم أن الهبوط دام دقيقة فحسب. لكن صوت الأسِدّة وهي تثبت، والإحساس

بتلك الصلابة تحته أفرحاه بغتة؛ وكان أن رفع الكلفة مع كاترين ممازحاً.

«ماذا يوجد تحت جلدكَ لتكون دافئاً هكذا؟ مرفقكَ في بطني، طبعاً».

وعليه، ضحكت بشدة هي أيضاً. هل كان غبياً، ليظنها ولداً مرة أخرى! هل عيناه مغمضتان؟

«مرفقي، إنه في عينك»، أجابته وسط دويّ من الضحكات لم يفهم الرجل الشاب المستغرب سببها.

كان القفص يخلو والعمال يجوزون قاعة المرتبة، قاعة منحوتة في الصخر، قبّتها من لبِن، تُنيرها ثلاثة مصابيح غاز كبيرة عارية. وكان الحمّالون يدفعون بشدة عربات مملوءة على البلاط الحديدي. كانت رائحة كهف تنضح من الجدران، ورطوبة مشرّبة ملحاً تعبرها أنفاس حارة قادمة من الإسطبل المجاور. كانت هناك أربعة سراديب منفتحة، فاغرة أفواهها.

«من هنا»، قال ماهو مخاطباً إتيان، «لم تصل بعد، لا يزال علينا قطع كيلومترين كاملين».

انفصل العمال، وتاهوا جماعات في عمق تلك الثقوب المظلمة. كان خمسة عشر عاملاً تقريباً قد دخل آنفاً الثقب على اليسار؛ وكان إتيان يمشي في آخر الصف، خلف **ماهو** الذي سبقه كل من **كاترين وزكاري ولوفاك**. كان سرداباً جميلاً لنقل الفحم، أفقياً، ومن شدة ما كان صخره صلباً فقد كان في حاجة إلى تبليط جزء من حائطه فحسب. فرادى، كانوا يمشون ويمشون دوماً ولا ينبسون بكلمة، معهم شُعَل المصابيح الصغيرة. كان الشاب يتعثر

عند كل خطوة، وتعلق قدماه في السكك الحديدية. منذ حين، كان يحيّره صوت مكتوم، صوت بعيد لعاصفة تبدو شدّتها في ازدياد، قادمة من أحشاء الأرض. هل هو صوت هدّة، تسحق رؤوسهم بناحية الجبل الصخري العظيم الذي يفصلهم عن السطح؟ نورٌ خرَق الظلمة، شعر باهتزاز الصخر؛ وحينما اصطف على امتداد الجدار مثل رفاقه، رأى حذو وجهه مرور حصان أبيض ضخم مربوط بقطار من العربات. في الأولى كان يجلس بيبير وهو يمسك القياد؛ بينما كان جونلان يقبض طرف العربة الأخير، وهو يجري حافي القدمين.

استؤنف السير. أبعد من هناك، ثمة ملتقى طرق، وكان سردابان جديدان مفتوحين وانقسمت العصبة بينهما مرة ثانية، وكان العمال يتوزعون قليلاً قليلاً على جميع مواقع العمل بالمنجم. في ذلك الأوان، كان سرداب النقل مكسواً بألواح الخشب، دعائم من خشب شجر البلوط تُسند السقف، تجعل للصخر المنجرف حجاباً داعماً، خلفها تُرى صفائح الصخر الحجري متلألئة بالميكا، وكتلة حجارة الرمل الغليظة، الدكنة والخشنة. كانت قاطرات عربات، مملوءة أو فارغة، تمرّ دون توقف، تلتقي، بهزيمها المحمول في العتمة على دوابٍ لا تتبيّن ملامحها، لها عدو الأشباح. في الطريق المزدوج لمرآب، كان ينام ثعبان طويل أسود، قطار متوقف، جمح حصانه، بقدر ما كان غارقاً في الظلمة فإن كفله الملتبس كان أشبه بحجارة عظيمة هوَت من القبة. كانت أبواب التهوية تصطفق وتنغلق ببطء. وكلما تقدم المسير صار السرداب أضيق وأخفض، غير مستوي السقف، ويجبر الظهور على الانحناء الدائم.

صدم إتيان رأسه بقوة. ولولا قبعة الجلد لانشق دماغه. ومع ذلك، كان يتابع بعناية أدنى حركة يأتيها **ماهو** قبالته، الذي كان طيفه المعتم يبرز في ضوء المصابيح. لم يرتطم أي عامل، لا بدّ أنهم كانوا يعلمون مكان كل حدبة وعقدة في الأخشاب أو نتوء الصخر. كما وجد الشاب عناء مع التربة الزلقة التي كانت تتبلّل أكثر فأكثر. أحياناً كان يجتاز بركاً حقيقية لم يكشفها سوى الطمي الموحل للقدمين. لكن ما كان يستغرب له على الأخص هو تحوّلات الحرارة المفاجئة. أسفل البئر، كان الجو لطيفاً جداً، وفي سرداب النقل، حيث يمرّ هواء المنجم كله، كانت تهبّ ريح صقيعية تتحول شدتها إلى زوبعة بين الحيطان الضيقة. ثم، كلما توغل المرء في المسالك الأخرى، التي كان يردّها فحسب نصيبها المقتطع من الهواء، كانت الريح تخف، وتزداد الحرارة، حرارة خانقة، لها ثقل الرصاص.

لم يفتح **ماهو** فمه ثانية. انعطف يميناً إلى سرداب جديد وهو يقول لإتيان فحسب، ودون أن يلتفت:

«**عِرق غيوم**».

إنه العِرق حيث كان يوجد مَقلعه. منذ الخطوات الأولى، أصاب إتيان رأسه ومرفقيه. من شدة ما كان السقف المنحدر ينزل منخفضاً على طول عشرين، ثلاثين متراً، لزِمه المشي محني الظهر. كان الماء يصل حدّ الكاحلين. قطعوا مئتي متر على ذلك النحو، وبغتة، شهد اختفاء لوفاك، زكاري وكاترين، الذين بدوا وكأنهم طاروا عبر شقّ دقيق، مفتوح قبالته.

«يجب أن نصعد»، قال **ماهو** مستأنفاً كلامه، «اربط مصباحك في عروة معطفك، وتشبّث بالألواح».

اختفى بدوره. تبعه إتيان ملزَماً. تلك المدخنة، المتروكة في العِرق، كانت خاصة بعمال المنجم وتؤدي لجميع المسالك الفرعية. كان لها سُمك طبقة الفحم، ستين سنتمتراً بالكاد. من حسن الحظ، كان الشاب نحيفاً، وبما أنه لم تكن له دربة بعدُ، كان يتسلقها بإجهاد غير مجد لعضلاته، ويبسط كتفيه ووركيه، متقدماً بفضل قوة معصميه، متشبثاً بالألواح. خمسة عشر متراً أعلى من هناك، صادفوا المسلك الفرعي الأول؛ لكن كان لا بدّ من التقدم، فمقلع **ماهو** وشركائه كان في المسلك السادس، في الجحيم مثلما كانوا يقولون؛ وبين كل خمسة عشر متراً كانت المسالك تتراكب، والصعود لا ينتهي، من خلل ذلك الشق الذي كان يخدش الظهر والصدر. كان إتيان يئن، كما لو أن ثقل الصخور سحق أطرافه، اليدان مسلوختان، والساقان مجروحتان، ولأنه كان يعاني من نقص الهواء على الأخص، إلى حدّ الشعور بأن الدم يخرق جلده. في أحد المسالك، رأى، من غير أن يتبين تماماً، دابّتين رابضتين، إحداهما سمينة وثانيتهما هزيلة، تقودان عربات: كانتا **ليدي** و**موكيت**، المنهمكتين في العمل مسبقاً. وكان عليه أن يتسلق ارتفاع مقلعين! كان العَرق يعميه، ويئس من اللحاق بالآخرين الذين كان يسمع أطرافهم النشطة تحاذي الصخر منزلقة طويلاً.

«تشجّع، هو ذاك»، قال صوت كاترين.

لكن لما كان قادماً، صاح صوت ثان من أقصى طرف في المقلع:

«عجباً! ماذا حصل؟ أو لا نبالي بالناس؟ مشيت كيلومترين من مونسو، وأنا أول من وصل هنا!».

كان ذاك **شافال**، نحيف مديد القامة، يبلغ خمسة وعشرين عاماً من عمره، نحيل بعظام ناتئة، بارز تقاسيم الوجه، ممتعض من أنه كان ينتظر. حينما أبصر إتيان، سأل باستغراب محتقر: «ما هذا؟».

وبعد أن حكى له **ماهو** القصة، زاد قائلاً من بين أسنانه:

«إذن الأولاد يأكلون خبز البنات!».

تبادل الرجلان نظرة متقدة بذلك الحقد الغريزي الذي يندلع بغتة. كان إتيان قد أدرك الشتيمة ولم يفهم بعد. عمّ الصمت، انهمك الجميع في العمل. في آخر المطاف، امتلأت العروق شيئاً فشيئاً، والمقالع تعمل، في كل طابق، عند أقصى طرف من كل مسلك. كانت البئر الملتهِمة قد بلعت نصيبها اليومي من الرجال، ما يقرب من سبعمائة عامل كانوا يعملون في تلك الساعة داخل قرية النمل العملاقة تلك، يحفرون الأرض من كل الجهات، يثقبونها مثل خشب قديم نخرته الديدان. ثم وسط الصمت الثقيل، وسحق الطبقات العميقة، كان في وسع المرء، إن ألصق أذنه بالصخر، أن يسمع ضجيج الحشرات البشرية المتحركة، من تحليق الحبل الفولاذي الذي يُصعِّد ويُنزِّل قفص الاستخراج إلى عضّة الأدوات وهي تقشّر الفحم في أقصى مواقع الاستخراج.

وهو يستدير، وجد إتيان نفسه من جديد لصق كاترين. لكن هذه المرة، تبيّن ما استدار من صدرها الناهد، أدرك بغتة ذلك الفتور الذي سرى فيه من قبل.

«أنت فتاة إذن؟»، همس مذهولاً.

أجابت بملمحها المرح، دون احمرار:

«نعم. صحيح! لقد استغرقتَ في اكتشاف ذلك وقتاً طويلاً!».

IV

كان الحفّارون الأربعة قد استلقوا آنفاً بعضهم فوق بعض، على امتداد مصعدة جبهة المقلع. تفصل بينهم ألواح لها خطاطيف تحبس الفحم المستخرج، كان كل واحد منهم يَشغَل أربعة أمتار تقريباً من العِرق؛ ومن شدة ما كان العِرق رقيقاً، يكاد سمكه في هذا الموضع يصل خمسين سنتمتراً، فقد كانوا هناك وكأنهم انبسطوا بين السقف والجدار، يسحبون ركبهم ومرافقهم، لا يستطيعون الالتفات من دون أن يخدشوا أكتافهم. ومن أجل التصدي للفحم الحجري، كان لا بدّ لهم من أن يظلوا مضطجعين على جوانبهم، بأعناق ملتويّة، وأذرع مرفوعة وتلوّح جانباً بمعاول ذات مقابض قصيرة.

في الأسفل كان زكاري أولاً؛ لوفاك وشافال فوق؛ وأخيراً في الأعلى، كان **ماهو**. كلٌّ منهم يحفر مفرش صفيحة الفحم التي كان ينقبها بضربات المِعول، ثم يعمِل ثلمتين عموديتين في الطبقة، ثم يفصل الصخرة بغرز الإسفين في الجزء الأعلى. كان الفحم الحجري دسماً، وكانت الصخرة تتكسر، وتتدحرج قطعاً على طول البطن والفخذين. حينما تتراكم تلك القطع عليهم، بعد أن حبستها الألواح، كان الحفّارون يختفون، وقد قُبروا في الفجوة الضّيّقة.

كان **ماهو** هو من يتكبد أشد عناء. في الأعلى، ترتفع الحرارة إلى حدّ خمسة وثلاثين درجة، لم يكن الهواء يتحرك، ومع المدة يصير الاختناق قاتلاً. وحتى يرى أوضح، لزمه تثبيت مصباحه في مسمار، حذو رأسه؛ وذلك المصباح الذي يسخن قحف

رأسه، كان في نهاية الأمر يحرق دمه. لكن عذابه كان يشتد على الأخص بفعل الرطوبة. فوقه، على بعد سنتمترات معدودة من وجهه، كان الصخر ينضح ماء، قطرات غليظة متواترة وسريعة، يسقط بما يشبه الإيقاع العنيد، في الموضع نفسه دوماً. مهما لوى عنقه وقلب قفاه: فقد كانت تضرب وجهه، تسقط وتصفق بلا هوادة. بعد انصرام ربع ساعة، كان مبللاً، يغمره العرق، ينبعث منه بخار رذاذ غسيل ساخن. ذلك الصباح، جعلته قطرة، كانت تبطش بعينه، يتلفظ باللعنات. لم يُرد ترك حفره، كان يضرب بقوة، ضربات تهزّه بشدة بين الصخرتين، مثل بقّة محبوسة بين ورقتي كتاب، يتهدده تسطيح تام.

لم ينبس أحد بكلمة. كانوا يخبطون جميعاً، لم تكن تسمع سوى تلك الضربات غير المنتظمة، المحجوبة وكأنها بعيدة. كانت الأصوات تشبه جرساً أجشّ، لا صدى له في الهواء الميت. وبدا أن الظلمات كانت بلون أسود مجهول، غَلُظ بالغبار المتطاير من الفحم، ثَقُل بغازات تضغط على العيون. وذبال المصابيح، تحت قبعاتهم من القماش المعدني، لم تكن تلقي فيها سوى بعض المواضع المائلة إلى الحمرة. لم يكن في الوسع تمييز أي شيء، كان المقلع ينفتح، يصعد مثل مدخنة عريضة، مسطحة ومائلة، وكأن سخام عشرة فصول شتاء راكمت ليلاً عميقاً. كانت أشكال أطياف تتحرك هناك، والومضات الضائعة تتيح رؤية استدارة ورِك، ذراع مفتول العضل، رأس قاس، ملطخ كما في جريمة. أحياناً، عندما تتفرق، تلمع صخور ضخمة من الفحم الحجري، أطرافاً وقمماً، صارت فجأة مضاءة بلمعان من بِلَور. ثم كان يعمّ

السواد كل شيء، والمعاول تهوي بضربات قوية مكتومة، ولم يعُد هناك سوى لهاث الصدور، وزمجرة الضيق والتعب، تحت ثقل الهواء ومطر الينابيع.

بعد أن وهنت ذراعاه جراء حضوره عرساً ليلة البارحة، ترك زكاري المهمة متخذاً رصّ الخشب على الجدران ذريعة، مما سمح له بأن يغفل عن نفسه مصفراً على مهل، وعيناه تائهتان في العتمة. خلف الحفارين، ما يقرب من ثلاثة أمتار من العِرق ظلت فارغة، دون أن يتخذوا الحيطة بدعم الصخر، غير مبالين بالخطر وإنما حريصون على الوقت.

«إيه، يا مبجّل!»، صاح الفتى منادياً إتيان، «ناولني بعض الخشب».

لم يجد إتيان بُدّاً من أن يصعد بالأخشاب إلى المقلع وإن كان يتعلم حينها استعمال مِجرفه على يد كاترين. هناك مخزون صغير من اليوم السابق. جرت العادة، في كل صباح، أن يتمّ إنزالها مقطوعة وفق قياس الطبقة.

«هيا أسرع، يا للخامل»، قال زكاري مجدداً وهو يرى العامل الجديد المكلف بالحمل والدفع يصعد وسط الفحم على نحو أخرق ولا تطيعه ذراعاه في حمل أربعة ألواح من خشب شجر البلوط.

كان يحفر بمعوله شقاً في السقف، وثانياً في الجدار، ويثبت فيهما طرفي اللوح الذي كان بذلك يوسع الصخر. في الظهيرة، كان عمال الردم يجمعون الردم الذي تركه الحفارون داخل السرداب ويغطون خنادق العِرق المستغلة، ويدفنون الخشب، ولا يهيئون للنقل سوى المسلك السفلي والمسلك العلوي.

كفّ ماهو عن الزّحير. في نهاية الأمر فصَل صخرته. مسح وجهه العَرِق بكمّه. وشغله ما ذهب زكاري لفعله من ورائه.

«دع عنك ذلك»، قال، «سوف نرى بعد الغذاء. من الأفضل أن نحفر، إن نحن أردنا الحصول على نصيبنا من العربات».

«ذلك أنه ينخفض»، أجاب الفتى، «أنظر، هنا تشقّق، أخشى أن ينهدم».

لكن الأب رفع كتفيه، «آه! أجل! ينهدم! ثم، لن تكون هي المرة الأولى، سنفلت من ذلك على كل حال». وانتهى به الأمر أن غضب، وأرجع ابنه إلى جبهة المقلع.

فضلاً عن ذلك، كانوا يتمطّطون جميعاً. لوفاك، الذي ظلّ على ظهره، كان يكيل اللعنات وهو يفحص إبهامه الأيسر الذي أدماه سقوط حجر محدّد. أما شافال فقد نزع قميصه بعنف وظل عاري الصدر ليخفف من الحرّ. كانوا قد اسودّوا أصلاً بالفحم، وعمَّهم طلاء غبار رقيق أذابه العرق وأساله جداول وبركاً. وعاد ماهو للضرب هو الأول، أسفل، ورأسه سويّة الصخر. الآن، كانت القطرة تسقط على جبهته، مصرّة، إلى حدّ ظن معه أنه يشعر بها تخرق عظام جمجمته.

«لا تُعِر لذلك اهتماماً»، قالت كاترين مفسرة لإتيان، «إنهم يصرخون دوماً».

وعادت لدرسها، بصفة الفتاة الخدوم. كل عربة محمّلة تصل إلى السطح مثلما انطلقت من المقلع، موسومة بقرص خاص كيما يستطيع المورد وضعها في حساب المقلع. لذلك، يتوجب إيلاء عناية فائقة عند ملئها وانتقاء الفحم النظيف دون سواه: وإلا رُفِضت في المورد.

كان الشـاب، الـذي تتعوّد عينـاه علـى الظلمـة، ينظـر إليهـا، وهـي لا تـزال بيضـاء، بسـحنتها التـي تخالطهـا صفـرة السـقم؛ ولـم يكـن فـي وسـعه تخميـن سـنّها، كان يقـدره باثنـي عشـر عامـاً من شـدة مـا بـدت لـه ناحِلـة. ومـع ذلـك، كان يشـعر أنهـا أكبـر سـنّاً، لهـا حريـة ولـد، ووقاحـة سـاذجة كانـت تحرجـه قليـلاً: لـم يكـن يسـتحسـن جمالهـا، كان يجـد رأسـها الشـبيه بـرأس بييرو الشـاحب مفرطـاً فـي طفولتـه، مشـدودة عنـد اللمتيـن بمِحنَـك. لكـن مـا أدهشـه هـو قـوة تلـك الصبيـة، قـوة مشّـنجة فيهـا الكثيـر مـن المهـارة. كانـت تمـلأ عربتهـا أسـرع منـه، بضربـاتٍ مجرفـةٍ منتظمـة وسـريعة؛ ثـم كانـت تدفعهـا حتـى السـطح المائـل، بدفعـة واحـدة بطيئـة، دون مشـاكل، تمـر بانسياب تحـت الصخـور المنخفضـة. أمـا هـو فقـد كان يحيـد عـن مسـاره، سـاعياً للخـلاص مـن ورطتـه.

فـي حقيقـة الأمـر لـم يكـن دربـاً مـلائمـاً. كان ثمـة ستين متـراً، مـن المقلـع إلـى السـطح المائـل؛ والمسـلك الـذي لـم يوسّـعه بعـد عمـال الـردم، كان مصرانـاً حقيقيـاً، سـقفاً غيـر مسـتوي الأجـزاء، معوجـاً بحدبـات متواصلـة: فـي بعـض المواضـع، كانـت العربـة المحملـة تمـرّ بالـكاد؛ كان علـى الحمَّـال أن ينبطـح، ويدفـع وهـو علـى ركبتيـه، كـي لا يشـقّ رأسـه. فضـلاً عـن ذلـك، كانـت الأخشـاب تنثنـي وتنكسـر أصـلاً. كانـت تُـرى، وقـد قطعـت فـي وسـطها خـدوش طويلـة شـاحبة، مثـل عكاكيـز بالغـة الوهـن. كان يجـب علـى المـرء أخـذ الحيطـة مـن أن يجـرح بتلـك القطـع المكسـورة؛ وجـراء التكـدس البطـيء الـذي كان يحطـم حزمـاً مـن خشـب البلـوط غليظـة كالفخـذ، ينبطـح المـرء، تُداخلـه حيـرة مكتومـة بـأن يسـمع بغتـة ظهـره وقـد انكسـر.

«زِدا»، قالت كاترين ضاحكة.

كانت عربة نقل إتيان قد انحرفت عن مسارها آنفاً، عند أصعب ممر. لم يفلح بتاتاً في السير مستقيماً، على تلك السكك التي كانت تعلق في التربة المبللة؛ وكان يكيل اللعنات، وتعتريه سَورة غضب، ويعارك بشراسةٍ العجلات التي لم يستطع إرجاعها إلى مكانها رغم مجهوداته المفرطة.

«انتظر إذن»، قالت الفتاة الشابة من جديد، «إذا غضبتَ، لن يتحرك ذلك أبداً».

وبحذق، اندست، وأدخلت مؤخرتها بالقهقرى تحت العربة؛ وبدفعة من خاصرتيها، رفعتها وأعادتها مكانها. كان الوزن يبلغ سبعمائة كيلوغرام. أما هو، المستغرِب، الخجِل، فقد كان يتمتم بعبارات الاعتذار.

وجب أن تُريه كيف يباعد ساقيه، ويسند قدميه لصق الأخشاب، على جانبي السرداب، حتى يجد لنفسه مواضع يستند إليها بصلابة. كان ينبغي للجسم أن يكون منحنياً، والساقان مصلّبتان، بحيث يكون الدفع بجميع العضلات، والكتفين والوركين. أثناء رحلة، تبعها، ورآها تجري سريعاً، العجُز مشدود، والقبضتان منحدرتان إلى حدّ بدت معه وكأنها تعدو على أربع، مثل تلك الدواب القزمة العاملة في السيرك. كانت تنزّ عرقاً، تلهث، تفرقع مفاصلها، كما لو أن البؤس المشترك كان بالنسبة للجميع هو العيش مُكبّاً بتلك الصورة. ولم يكن يفلح في فعل مثل ذلك، كان حذاءاه يضيقان عليه، وجسده ينكسر من المشي على ذلك النحو، مطرقاً. بعد مرور بضعة دقائق، صارت تلك الهيئة عذاباً، هلعاً

لا يطاق، من شدة ما كانت توجعه، جثا لحظة، ليستقيم ويتنفس.

وفي السطح المائل، كانت مشقة ثانية. علّمَته كيف يقود عربته بخفّة. في أعلى وأسفل ذلك السطح الذي كان يربط كل المقالع، بين مرتبة وأخرى، كان هناك الصبي المتعلم، الحابِس فوق، المورد تحت. هؤلاء الصبيان الأوغاد، الذين يبلغون اثني عشر وخمسة عشر عاماً من أعمارهم، كانوا يصرخون بكلام فاحش، ومن أجل إنذارهم كان يتوجب الصياح بكلام أشد قسوة. وعليه، كلما كانت هناك عربة فارغة يجب صعودها، كان المورد يعطي الإشارة، تقود عاملة التحميل عربتها المملوءة التي كان وزنها يجعل الثانية تصعد، حينما يرخي الحابس حَصّاره. تحت، في سرداب الجوف، تتشكل القطارات التي تسوقها الأحصنة حتى البئر.

«هِيه! أيها الملاعين الجهلة!»، كانت تصيح كاترين في السطح المائل، المملوء بالخشب كاملاً، بطول مائة متر تقريباً، والذي كان يردّد الصدى مثل مكبّر صوت عملاق.

لابد أن الصبيين كانا يستريحان، حيث لم يُجب لا هذا ولا ذاك. في كل الطوابق، توقف النقل. صوت رقيق لفتاة صغيرة قال في نهاية الأمر:

«ثمة أحدهما يعتلي **موكيت** بالطبع».

دوّت ضحكات عالية، كانت جميع عاملات التحميل تمسك بطنها.

«من تلك؟»، سأل إتيان كاترين.

ذكرت له هذه الأخيرة اسم ليدي الصغيرة، صبية وقحة تعلم الكثير وكانت تدفع عربتها بشدة كأنها امرأة، رغم ذراعي الدمية

اللتين لها. أما موكيت فهي قادرة على أن تكون مع الصبِيّين في الآن نفسه.

لكن علا صوت الحمّال، هاتفاً بوجوب التحميل. لا شك أن مسؤولاً عن العمال كان يمرّ في الأسفل. استؤنِف النقل في الطوابق التسعة، ولم يعُد يُسمع سوى نداءات الصِّبيان وطحير عاملات التحميل وهن يصلن إلى السطح، والبخار ينبعث منهن مثل أفراس حُمِّلت بإفراط. كان ذلك هيجان البهيمية الذي يهبّ على الحفرة، شهوة الذكر المباغتة حينما يلتقي عاملُ منجم إحدى تلكم الفتيات قائمة على أربع، الخاصرتان طليقان، والوركان يفيضان على سروالها، سروال الأولاد.

وفي كل رحلة، كان إتيان على موعد في الجوف مع اختناق المقلع، الإيقاع المكتوم والمنكسر للمعاول، الزفرات المديدة المتوجعة للحفارين وهم مصرّون على عملهم. كانوا أربعتهم عراة، اختلطوا في الفحم، يبللهم وحل أسود حتى عصابة الرأس. في لحظة ما وجب عليهم تخليصُ ماهو الذي كان يئنّ، برفع الأخشاب كيما ينزلق الفحم على المسلك. كان غيظ زكاري ولوفاك يشتد على العِرق الذي أضحى صلباً، كما كانا يقولان، مما سوف يفسد ظروف صفقتهم التجارية. كان شافال يلتفت، يظل مستلقياً على ظهره لحظة، وهو يسبّ إتيان، الذي كان حضوره يثير سخطه لا محالة.

«يا للأفعى اللئيمة! ليس له قوة فتاة! وتريد ملء عربتك! هه؟ كيما تستريح ذراعاك. يا إلهي! لن أمنحك الفلوس العشرة، لو كنتَ سبباً في رفض واحدة من عرباتنا!».

كان الشاب يتجنّب الرد، كان بالغ الفرح حتى تلك الساعة بأنه وجد ذلك العمل الشاق، متقبّلاً الهرمية الفظة بين العامل المناوِل والعامل المعلِّم. لكن لم يعُد قادراً على العمل، قدماه تنزفان، الأطراف متقلصة بتشنجات فظيعة، الجذع مشدود بحزام حديدي. لحسن الحظ كانت الساعة تشير إلى العاشرة، قرر من في الموقع تناول الغذاء.

كان ماهو يمتلك ساعة لم ينظر إليها حتى. في عمق ذلك الليل بلا كواكب، لم يسبق قط أن غلط بمقدار خمس دقائق. لبس كلّ منهم قميصه ومعطفه. ثم بعد أن نزلوا من المقلع، قعد كل منهم، المرفق إلى الحِضن، ملصقاً عقبيه إلى أليتيه، بتلك الهيئة المعتادة عند عمال المناجم، التي يحتفظون بها حتى خارج المنجم، دون الحاجة إلى حجر أو عارضة للجلوس. وبعد أن أخرج كل واحد زوّادته، كان يقضم بشدة الشريحة السميكة، ويرمي بكلمات قليلة عن شغل الصباح. انتهى الأمر بكاترين، التي ظلت واقفة، إلى أن لحقت إتيان الذي استلقى أبعد منهم، عرض السكك، وظهره مسند إلى الخشب. كان هناك مكان جاف تقريباً.

«ألا تأكل؟»، سألته، فمها ملآن، وزوّادتها في اليد.

ثم تذكرت ذلك الولد التائه في الليل، بلا فلس، وبلا قطعة خبز على الأرجح.

«هل تودّ أن تقتسم معي؟».

وبما أنه كان يرفض، وهو يقسم أنه لم يكن به جوع، رغم الصوت المرتعد لتمزق معدته، واصلت بمرح:

«آه! إذا وجدت في هذا كراهة! لكن، هاك! لم أقضم سوى من هذا الجانب، سأعطيك ذاك».

وكانت قد قطعت الخبز شطرين. بعد أن أخذ الشاب شطره، تمالك نفسه كي لا يلتهمه دفعة واحدة؛ ثم وضع ذراعيه على فخذيه حتى لا ترى ارتعاشهما. وبمظهرها، مظهر الرفيق الطيب الهادئ، كانت قد اضطجعت آنفاً جنبه، منبطحة، الذقن في يد، وتأكل بالثانية ببطء. كان مصباحيهما، بينهما، يضيئانهما.

نظرت إليه كاترين لحظة في صمت. لعلها كانت تجده ظريفاً، بوجهه الدقيق وشاربيه الأسودين. كانت تبتسم من سرور، بلا تدقيق.

«إذن، أنت عامل آلة، وتم طردك من سكة الحديد. لماذا؟».

«لأني صفعتُ رئيسي في العمل».

ظلت مشدوهة، مضطربة من أفكارها الموروثة عن التبعية والطاعة السّاكنة.

«يلزمني الإقرار إني كنت قد شربت خمراً»، تابع قائلاً، «وحينما أشرب، أغدو مجنوناً، قد آكل نفسي وآكل الآخرين. أجل، لا أستطيع شرب كأسين دون الحاجة إلى أكل رجل. ثم أمرض مدة يومين».

«يجب أن لا تشرب»، قالت بجدّية.

«آه! لا تخافي، أعرف نفسي!».

وكان يهزّ رأسه، كان يكره شراب الماحيا، كره آخر ولد من سلالة سكارى، الذي كان يتعذب في جسمه من كل تلك السلالة التي بللها الكحول وأصابها بالحمق، إلى حدّ أن أدنى قطرة منه صارت بالنسبة إليه سمَاً.

«إن طردي يحرجني بسبب أمي»، قال بعد أن بلع لقمة، «أمي ليست سعيدة، وقد كنت أبعث لها بين فينة وأخرى قطعة من مائة فلس».

«وأين هي أمك يا ترى؟».

«في باريس. تعمل غسالة ملابس، في زقاق **لاغوت دور**».

عمّ الصمت. عندما كانت تخطر بباله تلك الأمور، كان ترنحٌ يصيب عينيه السوداوين بالشحوب، الهلع القصير من الإصابة التي يحضن مجهولها الدفين فيه، وهو في تمام عافية شبابه. لبث لحظة وعيناه غارقتان في قعر ظلمات المنجم؛ وفي هذا العمق، تحت ثقل واختناق الأرض، كانت تتخايل له طفولته، أمه المليحة والشُجاعة لا تزال، وقد تخلى عنها والده واستعادها بعد أن تزوجت غيره، تعيش بين الرجلين اللذين كانا يأكلانها، سائرة معهما إلى الجدول، في الخمر، في القذارة. كان ذلك هناك، يتذكر الزقاق، تعود إليه بعض التفاصيل: الملابس القذرة وسط الحانوت، ومجالس سُكرٍ كانت تنشر روائحها الكريهة في البيت، وصفعات تكسر الفكّين.

«الآن»، قال مسترسلاً بصوت وئيد، «لن أستطيع بثلاثين فلساً أن أبعث لها هدايا. سوف تهلك من البؤس، ذلك مؤكد».

بدرت منه هزة كتفين يائسة، قضم خبزه المدهون من جديد.

«هل تريد ماءً؟»، سألته كاترين التي فتحت قارورتها، «أوه! هذه قهوة، لن تضرّك. إننا نختنق عندما نبلع هكذا».

لكنه رفض، يكفي كثيراً أنه أخذ نصف خبزها. ومع ذلك، كانت تلحّ والطيبة بادية عليها، وانتهى بها الأمر إلى القول:

«وعليه، أشربُ قبلك، بما أنك متأدّب بكل هذا القدر. لكن، لن يمكنك الرفض الآن، سيكون ذلك لؤماً منك».

وناولته قارورتها. انتصبت على ركبتيها، كان يراها قريبة منه

جداً، مضاءة بالمصباحين. لماذا وجدها قبيحة من قبل؟ الآن وهي سوداء، الوجه مغبرّ بالفحم الدقيق، بدت له ذات سحر فريد. في ذلك الوجه الذي طغت عليه العتمة، كانت أسنان الفم الواسع تلمع بياضاً، والعينان تتسعان، تبرقان بلمعان مائل إلى الخضرة، مثل عيني قطة. كانت خصلة من الشعر الأشقر، التي أفلتت من البخنق، تدغدغ أذنها وتُضحِكها. لم تعد تبدو صغيرة السن بكل ذلك القدر، من الممكن أنها كانت تبلغ حقاً أربعة عشر عاماً على كل حال.

«لإرضائِك»، قال وهو يشرب ويعيد لها القارورة.

عبّت جرعة ثانية، وأجبرته على أن يفعل مثلها، بغية التقاسم، كانت تقول؛ وتلك القارورة الرقيقة، المنتقلة من فم لفم، كانت تسلّيهما. بغتة، تساءل إن كان عليه حضنها بين ذراعيه، لتقبيلها على شفتيها. كانت لها شفتان غليظتان بلون الورد الشاحب، جعلهما الفحم مشرقتين، تحيّرانه برغبة متعاظمة. لكنه لم يجرؤ، خجلاً في حضرتها، ولأنه لم يكن يحصل في مدينة لِيل إلا على فتيات من النوع الدونيّ، غير عالم بالطريقة الواجبة مع عاملة لا تزال تعيش مع أسرتها.

«لابد أنك تبلغين أربعة عشر عاماً إذن؟»، سألها، بعد أن عاد إلى خبزته.

استغربت، كادت تغضب.

«كيف! أربعة عشر! لكني أبلغ خمسة عشر عاماً! صحيح أني لست غليظة. الفتيات، عندنا، لا يكبرن بسرعة بتاتاً».

استمر في سؤالها، كانت تقول كل شيء، دون وقاحة ولا خجل.

فضلاً عن ذلك، لم تكن تجهل شيئاً عن الرجل ولا عن المرأة، وإن شعر بأنها عذراء الجسد، وعذراء صبية، تأخر نضج أنوثتها بسبب الوسط المشبع بالهواء الفاسد والمتاعب الذي كانت تعيش فيه. وحينما عاد إلى موضوع **موكيت**، قصد إحراجها، قصّت عليه حكايات فظيعة، بصوت هادئ، ومرح جداً. آه! تلك، كانت تصنع أحسن القصص! وبما أنه كان يودّ معرفة إن كان لها هي نفسها عاشق، أجابت مازحة بأنها لم تكن تريد إزعاج أمها، وبأن ذلك قد يحدث ذات يوم بالضرورة. نكبت كتفيها، كانت ترتعد قليلاً في برد ملابسها المبللة بالعرق، يطبع الاستسلام والسكينة محيّاها، مستعدة لتحمل الأمور والناس.

«الحال أننا نجد عشاقاً، عندما نعيش جميعاً معاً، أليس كذلك؟».

«بالتأكيد».

«ثم إن ذلك لا يضرّ أحداً في شيء. لا يقال للكاهن شيء».

«أوه! الكاهن، ما أكترث له! لكن هناك الإنسي الأسود».

«كيف، الإنسي الأسود؟».

«عامل المنجم العجوز الذي يعود للحفر ويلوي عنق كل فتاة قليلة الحياء».

كان ينظر إليها وهو يخشى من أنها تهزأ منه.

«هل تصدقين هذه الحماقات، أو لا تعرفين شيئاً؟».

«بلى، أنا، أعرف القراءة والكتابة. ذلك ينفعنا في البيت، إذ في زمان بابا وماما، لم يكن الناس يتعلمون شيئاً».

لقد كانت طيبة جداً لا محالة. حينما تكمل شريحة خبزها، سوف يمسكها ويقبلها على شفتيها الغليظتين الورديتين. كان ذلك

قـرار شـخص خجـول، خاطـرة عنـف كانـت تخنـق صوتـه. ملابـس الصبـي تلـك، ذلـك المعطـف وذلـك السـروال علـى جسـد فتـاة، كانـت تثيـره وتحرجـه. كان قـد بلـع مضغتـه الأخيـرة. شـرب مـن القـارورة، أعادهـا إليهـا كيمـا تُفرغهـا. الآن، حانـت لحظـة التصـرف، ثـم رمـى نظـرة حيـرى نحـو العمـال، فـي أقصـى طـرف، عندمـا أغلـق ظـلّ السـرداب.

منـذ لحظـة، كان شـاڤال، الواقـف، ينظـر إليهمـا مـن بعيـد. تقـدم، اطمـأن إلـى أن **ماهو** لـم يكـن فـي وسـعه أن يـراه؛ وبمـا أن كاتريـن ظلـت علـى الأرض، متكئـة، أمسـكها مـن الكتفيـن، قلـب رأسـها، وسـحق فمهـا بقبلـة خشـنة، بهـدوء، متظاهـراً بكونـه لا يأبـه بإتيـان. كان فـي تلـك القبلـة اسـتحواذ، مـا يشـبه القـرار الغيـور.

فـي تلـك الأثنـاء، ثـارت الفتـاة.

«دعنـي، هـل تسـمع؟».

كان ممسـكاً برأسـها كلّـه، ينظـر إلـى عمـق عينيهـا. شـارباه ولحيتـه الصهبـاء تتأجـج فـي وجهـه الأسـود، ذي الأنـف الضخـم المعقـوف كالنسـر. ثـم أطلقهـا فـي الأخيـر، وانصـرف، دون أن يلفـظ كلمـة.

كانـت قشـعريرة قـد صقعـت إتيـان. مـن الغبـاء أنـه انتظـر. صحيـح، كلا، الآن، لـن يقبلهـا، لأنهـا سـوف تظـن أنـه أراد التصـرف مثـل الآخـر. فـي غـروره الجريـح، كان يشـعر بيـأس حقيقـي.

«لمـاذا كذبتِ؟»، قال بصـوت مهمـوس، «ذاك عشـيقك».

«كلا، أقسـم علـى ذلـك!»، صاحـت، «ليـس هنـاك شـيء مـن ذلـك بيننـا. أحيانـاً، يريـد أن يضحـك. ثـم إنـه ليـس مـن هنـا، لقـد جـاء منـذ سـتة أشـهر قادمـاً مـن **پادوكالـي**».

نهضا معاً، كان الجميع يتهيأ للعودة إلى العمل. حينما رأت أنه بكل ذلك القدر من الصدود، بدا عليها الأسى. لا شك أنها كانت تعتبره أظرف من الثاني، الأرجح أنها كانت سوف تفضّله عليه. كانت تشغلها فكرة المودّة والمواساة؛ وبما أن الشاب، المستغرِب، كان يفحص مصباحه المتّقد زرقة، بعنقه الشاحب المتسع، فقد سعت على الأقل إلى تسليته.

«تعال، كيما أريك شيئاً»، همست بِمودّة خالصة بادية عليها.

حينما رافقته إلى عمق المقلع، نبهته إلى صدع في حجارة الفحم. كان يُسمع له أزيز خفيف، صوت خفي، شبيه بصفير عصفور.

«ضع يدك، هل تشعر بالريح، إنه غاز».

ظل مندهشاً. لم يكن الأمر إلّا ذاك، ذلك الشيء المخيف الذي كان يفجر كل شيء. كانت تضحك، كانت تقول إن منه القدر الكثير ذلك اليوم، كيما تكون شعلة المصابيح بكل تلك الزرقة.

«ألا تكفّان من الثرثرة أيها الكسولان!»، صاح **ماهو** بصوته الخشن.

عجّلت كاترين وإتيان بملء عربتيهما ودفعاهما إلى السطح المائل، والظهر مُصلّب، يزحفان تحت سقف المسلك المحدَب. منذ الرحلة الثانية، كان العرق يُغرقهما وعظامهما تقعقع من جديد.

في المقلع استؤنِف عمل الحفّارين. في معظم الأوقات، كانوا يختصرون غذاءهم، كي لا تبرد أجسادهم من جديد؛ وكانت زوّاداتهم المأكولة على ذلك النحو بعيداً من الشمس، بشراهة

مكتومة، تحمّل معداتهم بالرصاص. متكئين على جوانبهم، كانوا يضربون بشدة، لم تكن تشغلهم سوى الفكرة الثابتة بإكمال عدد كبير من العربات. كان كل شيء يختفي وسط الرغبة المحمومة في الريح المنتزع بكل ذلك القدر من القسوة. كانوا يكفّون عن سماع الماء السائل الذي ينفخ أطرافهم. تشنجات الهيئات المقيّدة، اختناق الظلمات، حيث كانوا يذبلون مثل نباتات وُضِعت في قبو. ومع ذلك، كلما تقدم النهار، كان الهواء يتسمّم زيادة، يسخن من دخان المصابيح، من بخَر الأفواه الكريه، من خنق الغاز، الذي يضيّق على العيون مثل بيوت العناكب، والتي كانت تهوية الليل هي الكفيلة لوحدها بكنسها. أما هُم، في قعر حفرة الخُلد، تحت ثقل الأرض، إذ لم تعد لهم من أنفاس في صدورهم المحترقة، فقد كانوا يضربون دائماً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

V

دون أن ينظر إلى ساعة معصمه التي ظلّت في معطفه، توقف **ماهو** وقال:

«توشك أن تحلّ الواحدة. زكاري، هل تمّ الأمر؟».

كان الفتى ينصُب دعائم الخشب منذ مدة. وأثناء عمله، ظلّ مستلقياً على ظهره، عيناه تائهتان، يتخايل مباراة كرة العصا التي قام بها في اليوم السابق. انتبه، وأجاب:

«أجل، سيكفي ذلك، غداً نرى».

ثم عاد لأخذ مكانه بالمقلع. ترك لوفاك وشافال معوليهما هما أيضاً. وكانت فترة استراحة. كانوا يمسحون جميعاً وجوههم بأذرعهم العارية، وهم ينظرون إلى صخرة السقف التي كانت كتلها الفحمية تتفتّت. لم يكن كلامهم عن شيء سوى عن شغلهم.

«من حظنا أن نقع على أتربة تتجرف!»، همس شافال، «لم يأخذوا ذلك في الحسبان أثناء إبرام الصفقة».

«إنهم محتالون!»، دمدم لوفاك، «لا غرض لهم سوى دفننا هنا».

أخذ زكاري يضحك. لم يكن يبالي بالشغل وبما تبقى، لكنه كان يتسلى بسماعهم يحتجون بصخب ضد الشركة. بملمحه الوديع شرح **ماهو** أن طبيعة الأرض كانت تتغير كل عشرين متراً. وجب الحكم بالعدل، لم يكن في الوسع التنبؤ بشيء. ثم لمّا تابع الآخران ذمهما الصاخب للرؤساء، استبدت به الحيرة، ثم نظر حوله.

«صه! هذا يكفي!».

«أصبت»، قال لوفاك، الذي خفّض من صوته، «هذا سوء خلق».

كانت تستحوذ عليهم فكرة الوشاة المقيمة، حتى في هذا العمق، كما لو أن فحم المساهمين، الذي لا يزال في العِرق، كانت له أذان.

«ومع ذلك»، أضاف شافال بصوت عالٍ فيه شيء من التحدي، «إذا كلمني ذلك الخنزير دانسير بنبرة ذلك اليوم، سأضربه بآجرة على بطنه. أنا لا أمنعه من الاستمتاع بالشقراوات ذوات البشرة الناعمة».

هذه المرة قهقه زكاري. غراميات رئيس العمال وپييرونه كانت هي المزحة المعتادة في الحفرة على الدوام. كاترين نفسها، المستندة إلى مجرفتها، أسفل المقلع، أمسكت أضلاعها وأخبرت إتيان بجملة واحدة؛ بينما كان **ماهو** مغتاظاً، وقد استبد به خوف لم يكن يخفيه.

«هيه؟ اصمت! انتظر عندما تكون لوحدك إذا أردت أن يصيبك مكروه».

كان لا يزال يتكلم حينما أقبل خفق خطوات من السرداب العلوي. وفي الحال تقريباً، ظهر في أعلى المقلع، مهندس الحفرة، **نيغريل** القصير، مثلما كان يلقبه العمال في ما بينهم، يرافقه دانسير، رئيس العمال.

«ألم أقل ذلك!» همس **ماهو**، «هناك دوماً من يخرج من الأرض».

پول نيغريل، ابن أخت السيد **إينبو**، كان شاباً يبلغ ستة وعشرين عاماً من عمره، نحيف ووسيم، شعر رأسه مقصوص وشارباه بُنيّان. أنفه دقيق الأرنبة، عيناه المتقدتان، كانتا تكسوانه بملمح نمس ودود، له ذكاء مطبوع على الرّيبة، يتحول إلى سلطة قاهرة في علاقاته بالعمال. كان يلبس مثلهم، معفّر بالفحم مثلهم؛ وكيما يرغمهم على الاحترام، كان يظهر شجاعة تتكسر لها العظام، من خلال مروره من الأماكن الأشد وعورة، وأول من يكون تحت الردم وعند حدوث انفجار الغاز.

«ها نحن فيه، أليس كذلك؟ **دانسير**»، قال سائلاً.

بأدب مبالغ فيه أجاب رئيس العمل، وهو بلجيكي ذو وجه سمين، وأنف غليظ ليِّن.

«أجل، سيد نيغريل. ها هو الرجل الذي استعملناه هذا الصباح».

سارا في استخفاء إلى وسط المقلع. دُعِي إتيان للصعود. رفع المهندس مصباحه، دون أن يسأله.

«طيب»، قال في آخر المطاف، «لا أحب بتاتاً أن نجمع الغرباء من الطرقات. وعلى الأخص، لا تعُد لفعلتك».

ولم يسمع قطعاً الشروحات التي كانت تُقدَّم له، لوازم العمل، الرغبة في تعويض النساء بصبيان، لأجل النقل. كان قد شرع في فحص السقف، بينما عاد الحفّارون إلى معاولهم. فجأة، صاح:

«أخبرني يا **ماهو**، ألا تبالي؟ سوف تهلكون هنا جميعاً، ويحاً لكم!».

«أوه! إنه متين»، ردّ العامل بهدوء.

«كيف! متين! لكن الصخر ينهار أصلاً، وتغرزون أخشاباً بما يفوق مترين»، قال متظاهراً بالحسرة، «آه! كلكم مثل بعض، تفضلون أن يدكّ رؤوسكم على أن تتخلوا عن العِرق، حتى تستغرقوا في تمتين الخشب الوقت المطلوب! من فضلكم متّنوا هذا في الحال. ضاعفوا عدد دعائم الخشب، تسمعون!».مكتبة .. سُر مَن قرأ

وأمام إحجام عمال المنجم الذين كانوا يتحدثون قائلين إنهم رقباء على سلامتهم، استشاط غضباً:

«غير معقول! عندما تتهشم عظام رؤوسكم، هل أنتم من يتحمل عواقب ذلك؟ قطعاً لا! إنها الشركة، التي يتوجب عليها أن تمنحكم معاشات، لكم أو لزوجاتكم. أكرّر لكم أننا نعرفكم، للحصول على عربتين زيادة في المساء، قد تهبون حيواتكم».

قال ماهو بأدب، رغم الغضب الذي اعتراه شيئاً فشيئاً:

«لو كنا نحصل على أجرة كافية، لقمنا بتمتين الدعائم على النحو الأفضل».

هزّ المهندس كتفيه، ولم يحِر جواباً. كان قد انتهى من نزول المقلع على طوله. قال ختاماً من تحت:

«بقيت لكم ساعة، أشرعوا في العمل؛ وأخبركم أن المقلع ملزم بأداء ثلاثة فرنكات غرامة».

استُقبِل ذلك الكلام بغمغمة مكتومة من الحفارين. وحدها قوة المراتب ما كان يمنعهم، تلك المرتبة العسكرية التي كانت تجعلهم ينحنون البعض تحت البعض الآخر، من الصبي المتعلّم إلى رئيس العمل. ورغم ذلك فقد ندّت عن شافال ولوفاك إيماءة غاضبة، بينما كان ماهو يعدل من مزاجهما بنظرة منه وزكاري ينغض كتفيه باستهزاء. لكن الأرجح أن إتيان كان هو من اعترته أشد

رعدة. منذ أن وصل قعر هذا الجحيم، كانت تهزه ثورة بطيئة. رأى كاترين مستكينة، الظهر مطوي. هل كان ممكنا أن يقتل المرء نفسه في عمل شاق بذلك القدر في تلك الظلمات المميتة، ولا يجني منه حتى تلك الفلوس المعدودة للخبز اليومي؟

في تلك الأثناء كان نيغريل ينصرف رفقة دانسير الذي اكتفى بالموافقة محركاً رأسه باستمرار. ثم علا صوتاهما مرة ثانية، كانا قد توقفا آنفاً، يفحصان تمتين دعائم السرداب الذي كان الحفارون معنيين بصيانته على طول عشرة أمتار، في الجانب الخلفي من المقلع.

«ألم أقل لك إنهم لا يبالون بالأمر!»، كان المهندس يصيح. «وأنت، ويلٌ لك، ألا تراقب إذن؟».

«بلى، بلى»، كان رئيس العمال يتمتم، «لكن المرء يتعب من تكرار الأشياء عليهم».

نادى نيغريل بصوتٍ عالٍ:

«ماهو! ماهو!».

«لقد نزلوا جميعهم». تابع كلامه.

«انظر لهذا، هل هو متين؟ إنه مُشيّد مثل أربعة فلوس. ها هي قبعة لم تعد تلبسها حتى الخرفان، من شدة ما وضعت على عجل! أدرك أن الترميم يتطلب كلفة عالية. أليس كذلك؟ شرط أن يطول ذلك ما دام على مسؤوليتكم! وبعد يتحطم كل شيء، والشركة مجبرة على استعمال جيش من عمال الترميم. انظر قليلاً هناك، إنها مفسدة حقيقية».

أراد شافال الكلام، لكنه أسكته.

«كلا، أعرف ما سوف تقوله. أن يُرفع أجركم، هه؟ وعليه! أنذركم من أنكم تجبرون الإدارة على فعل ما يلي: أجل، سوف

نؤدي لكم تمتين الدعائم على حدة، ونخفّض بالمقابل ثمن العربة. سوف نرى حينها ما سوف تكسبونه في ذلك من أرباح. وحتى ذلك الحين، قوموا بتمتين دعائم الخشب في الحال. سأعود غداً».

ثم ابتعد، وسط الذهول الذي سببه تهديده. **دانسير**، المتواضع بكل ذلك القدر أمامه، ظلّ في الخلف ثواني معدودة كيما يقول للعمال بفظاظة:

«جعلتموني عرضة للتوبيخ، أنتم. أنا لن ألزمكم بأداء غرامة ثلاثة فرنكات! احذروا!».

ولما انصرف، امتلأ **ماهو** غيظاً بدوره:

«يا إلهي! ما هو غير صحيح فهو غير صحيح. أنا، أحب أن يكون المرء هادئاً، لأنها الوسيلة الوحيدة للتفاهم؛ لكن في نهاية المطاف يجعلونك مسعوراً. هل سمعتم؟ تخفيض سعر العربة، وتمتين الدعائم على حدة! يا إلهي يا إلهي!».

كان يبحث عن أحد ما يشفي فيه غليله عندما رأى كاترين وإتيان، لا يصنعان شيئاً.

«لو تفضلتما بإعطائي بعض الأخشاب! هل يناسبكما هذا؟ وإلا رفستكما حيث تعرفان».

انصرف إتيان لحمل الدعائم، غير مستاء من تلك الخشونة، من شدة ما كان هو مغتاظاً من الرؤساء فقد كان يرى أن العمال طيبون فوق الحد.

فضلاً عن ذلك، أراح كل من لوفاك وشافال نفسيهما بكلام بذيء. كان الجميع يُمتّن دعائم الخشب بحنقٍ، بمن فيهم زكاري.

ولمدة نصف ساعة تقريباً، لم يُسمع سوى قعقعة الخشب، المثبّت بضربات المطرقة. لم يعودوا إلى فتح أفواههم، كانوا يزفرون، يغتاظون من الصخر، الذي كانوا يودون زحزحته ورفعه بدفع من الكتفين لو استطاعوا.

«هذا يكفي!»، قال **ماهو** في نهاية المطاف، وقد حطّمه الغضب والتعب، «إنها الواحدة والنصف! نهار بالتمام، ولن نحصل على خمسين فلساً! أنا ذاهب، كرهت هذا الأمر».

ومع أنه كان عليهم العمل لنصف ساعة أخرى، فقد ارتدى ملابسه. تبع الآخرون أثره. كان مشهد المقلع لوحده يفقدهم رشدهم. ولأن عاملة الحمل والنقل عادت إلى النقل، صاحوا بها وقد غاظهم حماسها الزائد: «لو كان للفحم قدمين لخرج وحده». وانطلقوا ستتهم، متأبطين أدواتهم، إذ أن عليهم قطع الكيلومترين من جديد، عائدين إلى البئر من طريق الصباح.

في المدخنة، تأخرت كاترين وإتيان، بينما كان الحفارون ينزلقون حتى الأسفل. التقيا بليدي القصيرة، التي توقفت وسط المسلك حتى تفسح لهما الطريق، وأخبرتهما باختفاء **موكيت** التي ألم بها نزيف الأنف فذهبت منذ ساعة كيما تبلل وجهها في مكان لا يعلم به أحد. ولمّا فارقاها، دفعت الصبية عربتها ثانية، مكدودة، معفَّرة بالوحل، مصلّبة ذراعيها وساقيها ساقي الحشرة، أشبه بنملة هزيلة سوداء تُعارك حملاً ثقيلاً. بينما كانا ينحدران على الظهر، مسطِّحَين أكتافهما، خشية سلخ جلدة الجبهة؛ ومن شدة ما كان يمرقان بتصلب طول الصخر الذي صقلته أطراف الدعائم، فقد كان لا بدّ لهما بين فينة وأخرى من

الإمساك بالأخشاب، حتى لا تشب النار في ردفيهما، كما كانا يقولان مزاحاً.

تحت، وجدا نفسيهما وحيدين. كانت نجوم حمرٌ تختفي بعيداً، عند منعطف السرداب. فترت بهجتهما، استأنفا المشي بخطوة التعب الثقيلة، هي في المقدمة، هو خلفها. كان المصباحان يدخنان، بالكاد كان يراها، غارقة في ما يشبه الضباب المدّخن؛ وكان يضيق صدره من فكرة كونها بنت، إذ كان يشعر بأنه غبي لأنه لم يُقبِّلها وبأن ذكرى الآخر كانت تمنعه من ذلك. بكل تأكيد، كانت قد كذبت عليه: الآخر عشيقها، كانا ينامان معاً فوق كوم رذالة الفحم، لأنها كانت تتهادى في مشيتها كالمتسولة. ومن غير سبب، كان يعبس في وجهها وكأنها خدعته. أما هي، رغم ذلك، فكانت تلتفت كل دقيقة، تحذّره من حاجز، وكان يبدو أنها تدعوه ليكون ودوداً. من شدة ما ضلّا الطريق، كان من المفروض أن يضحكا مثل صديقين! في النهاية وصلا إلى سرداب النقل، أراح نفسه بذلك من الحيرة التي كان يعانيها؛ بينما هي، للمرة الأخيرة، نظرت إليه نظرة حزينة، والندم على سعادة لن يستعيداها أبداً.

في ذلك الآن، حولهما، كانت الحياة السفلية تزمجر، بمرور رؤساء العمال المستمر، غدوّ ورواح القاطرات، المحمولة بعدو الأحصنة. دون توقف، كانت المصابيح تنير الليل. كان عليهما التراجع لصق الصخر، فسحُ الطريق لظلال رجال ودوابّ، كانا يتلقيان بخر أنفاسهم على الوجه. صاح جونلان نحوهما بكلمة وقحة لم يسمعاها وسط رعد العجلات، وهو يجري حافي القدمين خلف قاطرته. كانا يمشيان دوماً، هي الآن صامتة، هو

لا يتعرف ملتقيات طرق وأزقة الصباح، متخيلاً أنها سوف تضلّه أكثر فأكثر تحت الأرض؛ وما كان يصيبه بالعناء أكثر، هو البرد، برد متزايد لفحه عند الخروج من المقلع، وكان يجعله يرتعد أكثر، كلما دنا من البئر. بين الأبنية الحائطية الضيقة، كان عمود الهواء يهب من جديد في زوبعة. كانا قد يئسا من الوصول بتاتاً حينما وجدا أنفسهما، بغتة، في قاعة المرتبة.

رشقهما شافال بلَحظ عداوة وفمه منقبض من الريبة. كان الآخرون هناك، يتصببون عرقاً، في ممر الهواء الجليدي، خرسٌ مثله، يجترّون غمغمات الغضب. لقد وصلوا مبكراً، ولم يُسمح لهم بالصعود قبل انصرام نصف ساعة، لا سيّما أنه في الأثناء كان يجري عمل معقّد لإنزال حصان. كان الحمّالون لا يزالون يقودون العربات، بجلبة الحديد المهزوز التي تصمّ الأذان، وكانت المصاعد تحلق، وتختفي وسط المطر المنهلّ الذي كان يسيل من الثّقب الأسود. تحت، كان الحوض، مجتمع ماء طوله عشرة أمتار مملوء بذلك السيل، يفوح هو الآخر برطوبته الموحلة. كان رجال يدورون دون توقف حول البئر، يجذبون حبال الإشارات، يزنون بأذرعهم روافع، وسط نثار الماء الذي كان يبلل ملابسهم. الضياء المائل إلى الحمرة المنبعث من المصابيح الثلاثة بفتيل الغاز، وهو يميز ثلاثة ظلال عظيمة متحركة، كان يكسو تلك القاعة السفلية بملمح مغارة للمجرمين، أو محل حدادة لقطاع طرق، قرب سيل من السّيول.

حاول **ماهو** محاولة أخيرة. اقترب من **پييرون** الذي استلم شغله عند الساعة السادسة.

«هيّا، يمكن لك أن تدعنا نصعد».

لكن الحمّال، وهو فتى وسيم مكتنز الأطراف ذو وجه وديع، رفض بإيماءة ذعر.

«مستحيل، اسأل رئيس العمل. سوف يلزموني بغرامة».

كُتِمت غمغمات جديدة. أكبَّت كاترين، أسرّت في أذن إتيان:

«تعال إذن كيما ترى الإسطبل. هناك الجو لطيف!».

لزمهما الفرار دون أن يراهما أحد، إذ كان الذهاب إليه محرَّماً. كان يقع إلى اليسار، عند طرف سرداب قصير، محفور في الصخر وله قبة من آجر، كان في وسعه إيواء عشرين حصاناً. كان الجو فيه لطيفاً بحقّ، حرارة دوابّ حيّة ممتعة، رائحة طيبة لمفترشها المَريح المُعتنى بنظافته. كان للمصباح الوحيد وميض الشُّعيلة السّاكن. كانت هناك خيول مرتاحة تحرّك رؤوسها، بعيونها الواسعة كعيون الأطفال، ثم تعود إلى علفها، بلا عجل، بصفتها دواب سمينة وفي تمام العافية، عاملة، يحبها الجميع.

لكن بينما كانت كاترين تقرأ الأسماء بصوت مسموع على ألواح من قصدير، فوق الرفوف، صاحت وهي ترى جسداً ينتصب أمامها بغتة. كانت تلك **موكيت**، مذعورة، التي خرجت من كومة تبن حيث كانت نائمة. يوم الاثنين، حينما تكون متعبة كثيراً من مقالب الأحد، كانت تضرب أنفها بشدة، تغادر المقلع بذريعة الذهاب بحثاً عن الماء، وتأتي للاختباء هناك، مع الدواب، في المفترش الدافئ. كان أبوها الذي لا يستطيع أن يردّ لها طلباً، يغضّ الطرف، ولو كانت عواقب ذلك عليه وخيمة.

وفي هذه الأثناء بالضبط دخل الأب **موك**، قصير القامة، أصلع، ذابل، لكنه ظلّ مع ذلك ضخماً، وقلّما كان يحدث هذا

عند عامل منجم سابق يبلغ خمسين عاماً من عمره. ومنذ أن صار سائساً، كان يمضغ التبغ إلى حدّ أن لثته كانت تنزف في فمه الأسود. وسخط عندما رأى الاثنين الآخرين مع ابنته.

«ماذا تفعلون هناك، جميعكم؟ هيا، تحركوا! أيتها الحقيرتان تحضران لي رجلاً هنا! من الطهارة أن تستقدما قذارتكما إلى تبني».

كانت **موكيت** تجد الأمر مضحكاً، وتمسك بطنها. لكن إتيان انصرف، مُحرَجاً، بينما كانت كاترين تبتسم له. وبما أن الثلاثة كانوا راجعين إلى المرتبة، فقد كان بيبير وجونلان متجهَين إليها أيضاً بقاطرة من العربات. حصل توقف في حركة المصاعد، ودنت الفتاة من حصانهما، لامسته بيدها وهي تحدث صاحبه عنه. كان اسمه **باتاي**، عميد المنجم، حصان أشهب أمضى عشرة أعوام في القعر. منذ عشرة أعوام وهو يعيش في هذا الثقب، يتخذ المكان نفسه في الإسطبل، يقوم بالمهمة نفسها على طول السراديب السود، دون أن يرى نور السطح ثانية أبداً. سمين جداً، شعره لامع، بملمحه المِعوان، كان يبدو عليه أنه يمضي حياة حكيم، بمنأى عن مآسي الفوق. فضلاً عن ذلك، في الظلام، صار ذا فطنة كبيرة. انتهى المطاف بالمسلك الذي كان يشتغل فيه أن صار مألوفاً بشدة لديه إلى حدّ أنه كان يدفع أبواب التهوية برأسه، وينحني كي لا يصدم نفسه في الأماكن المنخفضة جداً. لا شك أيضاً أنه كان يحسب دوراته، إذ حينما كان يقوم بالعدد القانوني من الرحلات، كان يرفض القيام بدورة أخرى، آنذاك كان يلزم قوده إلى معلفه. الآن، وقد هرم، فإن عينيه عينا

القطّ كانت تغشاهما الكآبة أحياناً. الأرجح أنه كان يتخايل على نحو ملتبس، في غور أحلامه المعتمة، الطاحونة حيث نشأ، قرب **مارشيين**، طاحونة مبنية على ضفة نهر **سكارپ**، تُحيطها خضرة وافرة، تحرّكها الريح على الدوام. شيء ما كان يحترق في الجو، مصباح عظيم، كان تذكّره التام يشق على ذاكرته، ذاكرة دابّة. وكان يظل مُطرق الرأس، يرتعش على قوائمه الهرِمة، ساعياً بجهد لا جدوى منه إلى تذكر الشمس.

كانت الأعمال تتواصل في البئر، إذ نقرت مطرقة الإشارات أربع ضربات، وسيتم إنزال الحصان؛ وعلى الدوام، تلك لحظة تأثر، حيث يحدث أحياناً أن الدّابّة، وقد استبد بها هلع شديد، تصل وهي ميّتة. فوق، مربوط إلى شبكة، كان يتخبط بشدة؛ وما أن يشعر بأنه لم يعُد له موطئ قدم تحته، كان يلبث وكأنه قد تحجّر، كان يختفي من دون أن يرتعد جلده، وقد اتسعت عيناه وجحظتا. وما دام أنه أضخم من أن يمر بين حبال القياد، فقد عُمِدَ إلى تعليقه تحت القفص، وكان لا بدّ من رد رأسه جنباً وربطه بخاصرته. دام النزول ثلاث دقائق تقريباً، إذ تمّ إبطاء الآلة من باب الحيطة. ولذلك، كان التأثر يتعاظم تحت. ماذا يا ترى؟ هل كان سيتمّ تركه في الطريق، مشنوقاً في الظلام؟ في آخر المطاف، ظهر، بجموده جمود الحجر، عينه شاخصة، ممددة من رعب. كان حصاناً أشقر، يكاد يبلغ ثلاثة أعوام، اسمه **ترومپيت**.

«حذار!»، صاح الأب **موك**، المكلف باستقباله، «أحضروه هنا، لا تفكّوه بعد».

في الحال، طُرح ترومپيت على جنبه فوق البلاط الحديدي مثل كتلة عظيمة. لم يكن يتحرك، كان يبدو أنه في كابوس ذلك

الثقب المظلم، الذي بلا نهاية، في تلك القاعة العميقة، الضاجة بالجلبة. شُرع في فكّ قيوده، عندها قام **باتاي**، غير المقيد منذ مدة، بالاقتراب، مدّ عنقه لشمّ ذلك الرفيق، الساقط على ذلك النحو من الأرض. وسّع العمال الحلقة وهم يتمازحون. عجباً! ما تلك الرائحة الطيبة التي يجد له؟ لكن **باتاي** كان يزداد حركة، غير منصت للسخرية. لا شك أنه يجد فيه رائحة الهواء الطلق الطّيّبة، رائحة الشمس المنسية في الحشائش. ثم دوّى فجأة بصهيل محمحم، بموسيقى نشوة، حيث كان يبدو فيها حنين مجهِش. كان ترحاباً، فرحة تلك الأشياء القديمة التي وصلته منها نفحة هواء، كآبة هذا السجين الإضافي الذي لن يصعد إلاّ ميتاً.

«آه! يا لهذا الحيوان **باتاي**!»، كان العمال يصرخون، وقد سرّتهم مقالب دابّتهم المفضلة، «ها هو يتكلم مع الرفيق».

بعد فكّ وثاقه، لم يكن **ترومپيت** يتحرك بعد. كان لابثاً على جنبه، كما لو أنه لا يزال يشعر بالحبل يشدّه، يقيّده الخوف. في الأخير تمّ إنهاضه بضربة سوط، دائخ، وقد اهتزت أطرافه برعدة عظيمة. ثم قاد الأب **موك** البهيمتين اللتين كانتا تتصاحبان.

«هيا، هل حان دورنا الآن؟»، سأل **ماهو**.

كان يجب تنظيف الأقفاص، فضلاً عن أنه كانت لا تزال تفصلهما عشر دقائق عن أوان الصعود. شيئاً فشيئاً كانت المقالع تخلو، والعمال يقدمون من جميع السراديب. كان هناك مسبقاً ما يقرب من خمسين رجلاً، مبللين ومرتعدين، بفعل التهاب الصدور التي كانت تزفر من كل مكان. رغم وجهه الوديع، قام پييرون بصفع بنته ليدي لأنها غادرت المقلع قبل الوقت. كان

زكاري يقرص موكيت بمكر، بحثا عن الدفء. لكن الاستياء كان يتعاظم، حيث حكى شافال ولوفاك عن تهديد المهندس وتخفيض سعر العربة وأداء تمتين الدعائم على حدة؛ استُقبِل هذا المشروع بالصياح، كان ثمة تمرد يتكوّن في ذلك الركن الضيق، على بعد ستمائة متر تحت الأرض تقريباً. في الحال، لم تعُد الأصوات محبوسة، هؤلاء الرجال الذين وسخهم الفحم، جمّدهم الانتظار، كانوا يتّهمون الشركة بقتلها لنصف عمالها في الجوف وتهلك النصف الثاني من الجوع. كان إتيان ينصت وهو يرجف.

«أسرعوا! أسرعوا!»، كان رئيس العمال **ريشوم** يردّد للحمّالين.

كان يستعجل تدبير العملية للصعود، ولأنه كان لا يرغب قطعاً في القمع، فقد تظاهر بأنه لم يسمع. أثناء ذلك تعالت الهمهمات بحيث كان مجبراً على التدخل. خلفه، كان الناس يصرخون أن ذلك لن يستمر دوماً وأنه ذات صباح سينفجر المحل.

«أنت أيها الرزين»، قال لماهو، «أسكتهم إذن. حينما لا نكون أقوياء، علينا أن نكون حكماء».

لكن **ماهو** الذي كان قد استرجع بعض هدوءه، وانتهى به الأمر إلى التحيّر، لم يضطر للتدخل. فجأة، سكنت الأصوات: برز نيغريل ودانسير من أحد السراديب، وهما عائدان من التفتيش، وعرقُهما يسيل هما أيضاً. جعلت عادة الانضباط الرجال يتراجعون، بينما كان المهندس يعبر المجموعة، دون كلمة واحدة. ركب عربة، ورئيس العمال عربة ثانية؛ جُذب حبل الإشارة لخمس مرات، إعلاناً عن اللحم الغليظ، كما كان يقال بخصوص الرؤساء؛ وانطلق القفص سريعاً في الهواء، وسط صمت كئيب.

VI

في القفص الذي كان يصعد به، مكدّساً مع أربعة غيره، عزم إتيان على استئناف ركضه الجائع، على امتداد الطرقات. من الأفضل أن يهلك في الحال على أن ينزل مرة أخرى إلى قعر ذلك الجحيم، والذي لا يكسب فيه حتى قوته. كاترين، المحشوة أعلاه، لم تعُد هناك، لصق حضنه، بتلك الحرارة الطيبة المخدرة. وكان يفضل أحسن ألا يفكر في تلك الحماقات، والابتعاد؛ حيث مع تعليمه الأوفى، لم يكن يشعر بتاتاً أن فيه استكانة ذلك القطيع، قد يخنق رئيساً ما في نهاية المطاف.

بغتة، بهره الضوء. من شدة ما كان الصعود سريعاً ظلّ متحيراً من وضح النهار، جفناه يرفرفان في ذلك النور الذي فقَد عادته مسبقاً. لكن أراح نفسه على الأقل عندما أحس بالقفص يحط على الأسِدّة. فتح عامل تفريغ الباب، وقفز حشرٌ من العمال من العربات.

«قل إذن يا **موكي**»، همس زكاري في أذن عامل التفريغ، «هل نذهب إلى **ڤولكان**، هذا المساء؟».

ڤولكان، كان ذاك مقهى-مرقص في **مونسو**. غمز موكي بعينه اليسرى، بضحكة صامتة كانت تشقّ فكّيه. قصير وغليظ مثل أبيه كان له أنف أختم لشخص يأكل كل شيء، دون أدنى اهتمام بالغد. وفي ذلك الحين بالضبط كانت **موكيت** خارجة بدورها، صفقها صفقة شديدة عند خاصرتيها، من باب العاطفة الأخوية.

تعرّف إتيان بعناء على الصحن العالي للمُورّد، الذي رأى أنه

محيّر، وسط ومضات الفوانيس الغبشة. لم يكن ثمة سوى العري والقذارة. نهار قاتم يدخل عبر النوافذ المغبرّة. وحدها الآلة كانت تلمع، هناك، بنحاسها؛ حبال الفولاذ، المطلية بالدهن، كانت تمرق مثل أشرطة مبلّلة بالحبر؛ والبكرات فوق، الهيكل العظيم الذي كان يسندها، الأقفاص، العربات، كل ذلك المعدن الوافر كان يظلم القاعة بلون رذالة الحديد الرمادي الخشن. بلا هوادة، كانت زمجرة العجلات تهزّ البلاط الحديدي؛ بينما كان يصعد من حجر الفحم، المنقول على ذلك النحو، غبار فحم رقيق، يذرو السّواد على الأرض والجدران بل حتى روافد سقيفة البئر.

لكن **شافال** الذي رمى ببصره إلى لوح الأقراص، في مكتب المورّد الزجاجي الصغير، استشاط غضباً. لقد لحظ أنه تمّ رفض عربتين منهم، إحداها لأنها لم تكن تحمل الكمية القانونية، وثانيتها لأن حجر الفحم فيها كان غير نظيف.

«تمّ النهار»، صاح، «عشرون فلس ناقصة مرة أخرى! وهل يلزمنا الاستعانة بكسالى يستعملون أذرعهم كما يستعمل خنزير ذيله!».

ونظرته المبغضة، الموجّهة نحو إتيان، كانت تكمل خاطرته. مال هذا الأخير إلى الردّ بلكمات من يده. ثم تساءل وما جدوى ذلك ما دام سيرحل. كان ذلك يزيد من عزمه تماماً.

«لا يمكن للمرء أن يتقن عمله من اليوم الأول»، قال **ماهو** لتعمّ السكينة، «غداً سوف يعمل أفضل».

ومع ذلك لم تخفّ مرارة الجميع، تحرِّكهم الحاجة إلى الخصام. وبما أنهم ذهبوا إلى قاعة المصابيح قصد إرجاع مصابيحهم،

تشاجر لوفاك والقائم على المصابيح، إذ عاب عليه سوء تنظيف مصباحه. ولم تتبسط أساريرهم قليلاً إلا في الحظيرة، حيث كانت النار متقدة لا تزال. بل تمّ تأجيجها بإفراط لأن الموقد كان محمرّاً. كانت الحجرة الواسعة بلا نافذة تبدو ملتهبة، بحيث أن ظلال المجمر تنزف على الحيطان. وكانت هناك همهمات فرح، كل الظهور كانت تشوى عن بعد، وينبعث بخارها مثل حساء. حينما كانت تحترق الخواصر، تُعرَض البطون للنار. بهدوء قامت **موكيت** بإنزال سروالها لتجفيف قميصها. كان الفتيان يتندرون بها، سُمِعت قهقهات لأنها كشفت لهم فجأة عجيزتها، وكان ذلك عندها أقصى دليل ازدراء.

«أنا ذاهب»، قال شافال الذي كدّس أدواته في صندوقه.

لم يتحرك أحد. وحدها **موكيت** التي عجّلت وهربت خلفه، بذريعة أنهما عائدان معاً إلى مونسو. لكن الهزل تواصل، إذ كان من المعلوم أنه لم يعُد يرغب فيها قطّ.

أثناء ذلك، كانت كاترين، وهي منشغلة البال، تحدث أباها همساً. تعجّب هذا الأخير، ثم وافق بإيماءة من رأسه؛ وهو قد نادى إتيان كيما يعيد له رزمته، قال:

«هيا، اسمع»، قال هامساً، «إذا لم يكن عندك مال، سيكون أمامك متسع للهلاك قبل أجرة نصف الشهر. هل تقبل أن أتدبر حصولك على قرض من مكان ما؟».

ظل الشاب محرجاً للحظة. في ذلك الأوان بالضبط كان يتهيأ لطلب أجرته الثلاثين فلساً والرحيل. لكن منعه الخجل أمام الفتاة الشابة. كانت تحدق فيه، ربما ظنت أنه كان مستاء من الشغل.

«اعلم أني لن أعدك بشيء»، واصل ماهو كلامه، «وما علينا سوى تحمل عاقبة الرفض».

لذلك لم يرفض إتيان. قد يرفضون الطلب. ثم إن ذلك لا يُلزمه بشيء بتاتاً، في استطاعته أن يرحل بعيداً، بعد أكل كسرة خبز. ثم غضب لأنه لم يفُه بكلمة «لا»، لمّا رأى فرحة كاترين، ضحكة لطيفة، نظرة مودة، سعيدة بأنها مدّت له يد المساعدة. لِمَ كل ذلك إذن؟

بعدما استعادوا نعال الخشب وأغلقوا عُلبهم، غادر آل ماهو الحظيرة، في آخر صفّ الرفاق الذين انصرفوا واحداً تلو الثاني، ما أن تدفؤوا. تبعهم إتيان، وانضم لوفاك وغلامه إلى العصبة. لكن بينما هم يجتازون قاعة الغربلة، أوقفهم مشهد عنيف.

كان ذلك في حضيرة ضخمة، أعمدتها مسودّة من الغبار المتناثر، وشبابيك كبيرة كان يهب منها تيار هواء متواصل. كانت عربات حجر الفحم تصل رأساً من المورد، ثم تُفرغ بآلة القلب على أقماعٍ، وهي مزالق معدنية طويلة؛ وعلى يمين ويسار هذه الأخيرة، هناك المغربلات واقفات على درجات، يحملن المجارف والفرش، يجمعن الحجارة، يدفعن الفحم النقي، الذي كان يسقط بعد ذلك عبر أنابيب مخروطة في مقطورات السكة الحديدية، المنشأة تحت الحضيرة.

كانت فيلومين لوفاك هناك، نحيفة وشاحبة لها وجه فتاة سهلة القياد تبصق الدم. رأسها محمي بقطعة صوف زرقاء، اليدان والذراعان مسودّة حتى المرفقين، كانت تنقّي فوق ساحرة عجوز، أم پييرونه، برولي كما كانت تُسمّى، مخيفة بعيني بومة،

وفمها الضيق مثل كيس نقود بخيل. كانتا دوماً في نزاع، الشابة تتّهم العجوز بأنها تجرف حجارتها، بحيث أنها لم تكن تجمع منها مقدار قفة في عشرة دقائق. كان أجرها مقابل القفّة، وكانت خصومات تتوالد على الدوام. تتطاير غدائر الشعر، ويظل أثر الأكف مرسوماً بالسواد على الوجهين الحمراوين.

«ادفعيها بشدة إذن!»، صاح زكاري من فوق مخاطباً عشيقته.

قهقهت جميع المغربِلات. لكن برولي ارتمت بحقد على الرجل الشاب.

«قُل إذن يا قذر! أولى لك أن تعترف بالطفلين اللذين جعلتها تحبل بهما! أيصح أن دميماً في سن الثامنة عشر من عمره، لا يقوى حتى على الوقوف!».

لم يجد ماهو بدّاً من منع ابنه من الهبوط، حتى يرى لون بشرتها، كومة العظام تلك. هرع أحد الحراس، وعادت المجارف تنقّب في الفحم. لم تعد تُرى، من أعلى الأقماع إلى أسفلها، سوى ظهور النساء المحدودبة، المنهمكة في تنازع الحجارة.

في الخارج، كانت الريح قد سكنت فجأة وبرودة محمّلة بالرطوبة تسقط من السماء الرمادية. نفخ عمال الفحم أكتافهم، شبكوا أذرعهم وانطلقوا، متفرقين، يموجون في مشيتهم حيث تنصب عظامهم الغليظة، تحت قماش ملابسهم رقيق النّسج. في واضحة النهار، كان يظنهم الناظر عصبة من السّود تقلّبوا في الوحل. بعضهم لم يكن قد أكل زوّادته كلها؛ وبقية الخبز تلك، المحمولة بين القميص والمعطف، كانت تجعل منهم حُدُباً.

«هاك! هذا بوتلو»، ضحك منه زكاري بفتورٍ.

ومن دون أن يتوقف، تبادل لوفاك جملتين مع صاحب البيت حيث يقيم، وهو شاب سمين أسفع الوجه يبلغ خمسة وثلاثين عاماً من عمره، ذو مظهر وديع وصادق.

«أهناك حساء، يا **لوي**؟».

«أظن ذلك».

«إذن، المرأة لطيفة اليوم؟».

«أجل، لطيفة، أظن».

كان عمال ردم آخرون يفِدون، جماعات جديدة تغور، واحدة تلو أخرى، في الحفرة. كانت تلك ورديّة الساعة الثالثة، مزيد من الرجال الذين كانت تأكلهم البئر، وكانت فرقهم تحلّ محل صفقات الحفارين، في قعر المسالك. لم يتعطّل المنجم قط، كانت هناك ليل نهار حشرات آدمية تحفر الصخر، على عمق ستمائة متر تحت حقول الشمندر.

أثناء ذلك، كان الصِّبيان يسيرون في المقدمة. كان **جونلان** يُسِرُّ إلى **بيبير** بخطة معقّدة للحصول على أربعة فلوس من التبغ قرضاً؛ بينما كانت **ليدي** قادمة باحترام، على مبعدة. تتبعها كاترين صحبة زكاري وإتيان. لم يكن أحد منهم يتكلم. ولم يلحق بهم **ماهو** ولوفاك إلا أمام خمّارة **لافانتاج**.

«ها قد وصلنا»، قال الأول مخاطباً إتيان، «هل تتفضل بالدخول؟».

تفرّق الجمع. ظلت كاترين بلا حركة لمدة، وهي تنظر للمرة الأخيرة إلى الشاب بعينيها الواسعتين، ولونهما الصافي المائل إلى الخضرة، لون ماء النبع، والذي يزيد الوجه الأسود من

تلألُئهما. ابتسمت، واختفت مع الآخرين، على الدرب الصاعد المؤدي إلى المجمّع السكني.

كانت الخمارة تقع بين القرية والمنجم، في ملتقى الطريقين. كانت عبارة عن منزل من الآجر ذي طابقين، مبيّض من فوق إلى تحت بالجير، يزينه حول النوافذ شريط أزرق سماوي عريض. في لافتة مربعة مثبتة بمسامير فوق الباب، كتبت بحروف صفر: **لافانتاج**، حانة يشرف عليها **راسنور**. في الخلف يتسع ملعب الأوتاد الخشبية، حوله سور معشب. وقد كانت الشركة تتأسف على هذه الخمّارة، إذ سعت جهدها قصد شراء تلك القطعة، النابتة وسط الحقل، المطل على مخرج لوفورّوه.

«ادخل»، كرر ماهو داعياً إتيان.

كان عري القاعة الصغيرة واضحاً للعيان، بجدرانها البيض، وموائدها الثلاثة وما يقرب من اثني عشر كرسي، معرضها المصنوع من خشب البلوط، الكبير مثل صوان مطبخ. وكانت هناك عشرة أكواب لا أكثر، ثلاث قناني خمر، قدح، وصندوق قصديري صغير له صنبور معدني للجعة. ولا شيء غير ذلك، لا صورة ولا لوحة صغيرة، ولا لعبة واحدة. في الموقد الحديدي، المصقول اللامع، كانت قطعة من الفحم تلتهب بهدوء. وفوق البلاط طبقة رقيقة من الرمل الأبيض، تتشرب الرطوبة الموصولة لهذا البلد المبلل بالماء.

«قدح»، طلب **ماهو** من فتاة شقراء ضخمة، بنت جارة كانت ترعى القاعة أحياناً، «راسنور موجود؟».

أدارت الفتاة الصنبور وكان جوابها أن صاحب المحل يوشك أن يصل. بتؤدة، أفرغ عامل المنجم نصف القدح دفعة واحدة،

كيما يكنس الغبار الذي كان يحبس حلقه. لم يقدم شيئاً لرفيقه. زبون واحد، عامل منجم آخر مبلل وملطخ، كان يجلس إلى مائدة ويشرب جعته بصمت، ويلوح عليه تأمل مستغرق. دخل ثالث، وضع طلبه بعد إيماءة منه، أدّى ما عليه وانصرف، دون أن ينبس بكلمة.

لكن ظهر رجل ضخم وعليه ابتسامة سخيّة، كان يبلغ ثمانية وثلاثين عاماً من عمره، حليق الرأس، وجهه مدّور. كان ذاك راسنور، حفّار سابق طردته الشركة قبل ثلاثة أعوام عقب إضراب عن العمل. عاملٌ جيد، كان يحسن الكلام، يتزعّم جميع المطالب، وانتهى به المطاف إلى أن صار رئيساً للغاضبين. كانت زوجته تدير في الأصل حانوتاً، شأن الكثير من زوجات عمّال المناجم؛ وعندما أُلقي به إلى الشارع، ظلّ هو القائم بالخمارة، جمع مالاً، وشيّد خمارته بإزاء لوفوروه، بمثابة تحرّش بالشركة. في هذا الآن، كان بيته يزدهر، صار هو مركزاً، وكان يغتني بنوبات الغضب التي ألقاها شيئاً فشيئاً في قلوب رفاقه القدامى.

«هذا هو الولد الذي استخدمته هذا الصباح»، قال ماهو شارحاً في الحال، «هل إحدى غرفتيك شاغرة، وهل تفضلت بأن تقرضه أجرة نصف شهر؟».

فجأة علا التوجس العظيم وجه راسنور العريض. توضّحَ إتيان بنظرةٍ وأجاب دون أن يتكبد عناء التعبير عن أسف:

«الغرفتان مسكونتان. ذلك غير ممكن».

كان الشاب يتوقع ذلك الرفض؛ وأصابه العناء منه رغم ذلك، وتعجّب من الحرج المباغت الذي خالجه من الرحيل. لا يهمّ، كان

يضحك من ذلك، حينما سيحصل على فلوسه الثلاثين. انصرف العامل الذي كان يشرب إلى مائدة. كان يدخل آخرون، واحداً تلو آخر، دائما لإزالة القذارة من الحنجرة، ثم يستأنفون المسير بالخطو المتمايل نفسه. كان ذلك مجرد تنظيف، دون فرح ولا هوى، تلبية بكماء لحاجة.

«إذن هل حدث شيء؟»، سأل راسنور بنبرة خاصة مخاطباً **ماهو** الذي كان يعبّ جعته قليلاً قليلاً.

أدار هذا الأخير رأسه ورأى بأن إتيان من ظلّ بالمكان وحده.

«حدث أننا تخاصمنا مرة أخرى. أجل بخصوص تمتين الدعائم».

قصَّ عليه الأمر. احمرّ وجه صاحب الخمارة، كان ينتفخ بتأثر دموي، يخرج لهباً من الجلد والعينين. أخيراً، دوّى بصوته.

«آه حسناً! إذا عمدوا إلى خفض الأسعار، ففي ذلك خرابهم».

كان إتيان يُشعره بالحرج. ومع ذلك، ظلّ يتابع كلامه وهو ينظر إليه من جانب أذنه. كانت لديه تحفظات، وتلميحات، كان يتحدث عن المدير، السيد إينبو، عن زوجته، عن ابن أخته نيغريل القصير، من غير أن يذكر أسماءهم، مكرراً أنه لم يعُد في الإمكان الاستمرار على ذلك النحو، وأنه لا بد لذلك من أن ينكسر في يوم من الأيام. لأن البؤس كان أعظم، وذكَر المعامل التي كانت تغلق أبوابها، وتطرد العمّال. قبل شهر، كان يعطي أكثر من ثلاثة كيلوغرامات من الخبز يومياً. وقيل له أمس إن السيد **دونولان**، مالك منجم مجاور، لم يعُد يجد سبيلاً للتحمل. فضلاً عن ذلك، تلقّى رسالة من مدينة **ليل**، كلها تفاصيل مقلقة.

«تعرف»، قال همساً، «إنها مرسلة من ذلك الشخص الذي رأيتَه هنا ذات مساء».

قُطِع كلامه. دخلت زوجته بدورها، امرأة طويلة نحيفة، ثائرة، أنفها طويل، ووجنتاها تميلان إلى الأرجوان. كانت في مجال السياسة أشدّ غلواً من زوجها.

«رسالة **پلوشار**»، قالت، «آه لو كان ذاك هو السيد، لن يتأخر تحسن الأوضاع».

كان إتيان ينصت منذ لحظة، يفهم، ويتحمس لفكرتَي البؤس والانتقام تلك.

ذلك الاسم، الملفوظ بغتة، جعله يرتعد. قال بصوت عالٍ، وكأنه مُكرَه:

«أعرفه، پلوشار».

كانوا ينظرون إليه، لذلك لم يجد بدّاً من أن يضيف:

«أجل، أنا عامل آلة، كان رقيبي في العمل بمدينة **ليل**. رجل كفء، كثيراً ما تكلمت معه».

كان راسنور يتفحصه من جديد؛ واعترى وجهه تغيّر سريع، استلطاف مباغت. وفي الأخير، قال لزوجته:

«إن **ماهو** من أحضر لي السيد، عامل لديه في الحمل، للتحقق مما إذا كانت هناك غرفة فوق، ومما إذا كان يسعنا قرضه مصروف نصف شهر».

وعليه تمت الصفقة باختصار. كانت هناك غرفة، بما أن المستأجر رحل صباحاً. وصاحب الخمارة، في سورة حماسه، باح بما يسرّ زيادة، وهو يكرر أنه لا يطلب من أرباب العمل

سوى الممكن، من دون أن يُلزِمهم كما يفعل الكثيرون بأشياء من الأصعب الحصول عليها. كانت زوجته تهز كتفيها، تريد حقها، كلّياً.

«مساء الخير»، قاطع **ماهو** الحديث، «كل هذا لن يمنع من أن ننزل، وكلما نزلنا، سيكون هناك من يهلك جراء ذلك. انظر، ها قد استرجعت قوتك، منذ أن خرجت منه قبل ثلاثة أعوام».

«أجل، لقد استعدت عافيتي كثيراً»، قال **راسنور** بلباقة.

ذهب إتيان إلى حيث الباب، شاكراً عامل المنجم الذي كان منصرفاً؛ لكن هذا الأخير كان يحرّك رأسه، دون أن يضيف كلمة واحدة، ونظر إليه الشاب وهو يصعد درب المجمّع بمشقة. التمست منه السيدة راسنور، المستغرِقة في خدمة زبائنها، أن ينتظرها دقيقة واحدة كيما ترافقه إلى غرفته، حيث يغسل وجهه. هل كان عليه أن يبقى؟ استبد به تردّد، ضيقٌ كان يجعله يتحسّر على حرية الطرقات الواسعة، الجوع تحت الشمس، التي عانى منها بفرحة كونه سيد نفسه. كان يبدو له أنه عاش هناك أعواماً، منذ وصوله إلى ركام الردم، وسط الرياح الشديدة، حتى الساعات التي قضاها تحت الأرض، منبطحاً في السراديب المظلمة. كان ينفر من إعادة الكرّة، كان ذلك جائراً وشاقّاً بإفراط، ويثور كبرياؤه بصفته رجلاً، حينما تعنّ له فكرة أنه دابّة تُعمى وتُسحق.

وبينما كان إتيان يتساءل على ذلك النحو، عيناه اللتان تاهتا في السهل الشاسع، كانتا تبصراه شيئاً فشيئاً. تعجّب، لم يتصور الأفق بذلك الشكل، حينما دلّه عليه العجوز **بونمور** بإشارة من يده، في عمق الظلمات. قبالته، كان يرى حقاً **لوفوروه** من جديد، في

طيّة أرضية، ببناياته المشيدة من خشب ومن آجر، قاعة الغربلة المكسوة بالقار، السقيفة المغطاة بألواح أردوازية، قاعة الآلة، والمدخنة العالية بلونها الأحمر الشاحب، كل ذلك مكدّس، وقبيح المنظر. لم يكن يتصوره بذلك القدر كله من السعة، وقد تحول إلى بحيرة حبرٍ بفعل الأمواج الصاعدة من مخزن الفحم، الذي تنتصب فوقه روافع تحمل سكك المعابر الصغيرة، مزدحم في ركن من خزنة الخشب، مثل حصاد غابة عضيدة. نحو اليمين، كان ركام الردم يحجب الرؤية، هائل مثل حاجز شيّده عمالقة، كساه العشب في قسمه القديم، تآكل في طرفه الثاني بنار باطنية مشتعلة منذ عام، دخانه كثيف، وقد تُرك في السطح، وسط الرماد الشاحب لصفائح الفحم والحجر المحدّد ونثارة صدأ مدمّى. ثم حقول القمح المنبسطة، حقول قمح وشمندر لا نهاية لها، هي عراء في هذه الفترة من السنة، مستنقعات بها نباتات خشنة، معزولة عن بعض أشجار الصفصاف القزمة، مروج بعيدة تفصلها صفوف من شجر الحور الهزيلة. بعيداً، لطخاتٌ بِيضٌ صغيرة كانت تدل على مدن، مارشيين في الشمال، مونسو في الوسط، بينما غابة **ڤاندام** في الشرق، كانت تحفّ الأفق بالصفّ المائل إلى الخضرة لأشجارها الخاوية. وتحت السماء الشاحبة، في ضوء النهار الشحيح لتلك الظهيرة الشتوية، كان يبدو أن سواد لوڤوروه كله، كل الغبار المتطاير من حجر الفحم قد حطّ على السهل، وذرّى غباره على الشجر، ورمله على الطرقات، ولقّح الأرض.

كان إتيان ينظر، وما كان يثير عجبه على الأخص، هي قناة، نهر **لاسكارپ** التي تمّ شقّها، ولم يرها من قبل أثناء الليل.

مـن لوفـوروه إلـى مارشـيين، كانـت تلـك القنـاة تجـري علـى نحـو مسـتقيم، شـريط فضـيّ داكـن مـن فرسـخين، طريـق واسـع تحفّـه أشـجار عظيمـة، تعلـو فـوق الأراضـي المنخفضـة، الذاهـب إلـى مـا لانهايـة وعلـى مـدى البصـر ضفافـه الخضـر، ومـاؤه الشـاحب حيث ينزلـق مؤخـر المراكـب القرمـزي. قـرب الحفـرة، كان هنـاك رصيـف، ومراكـب راسـية كانـت تحملهـا عربـات المعابـر مباشـرة. ثـم كانـت القنـاة تنعطـف، وتجتـاز المسـتنقعات؛ وكان يبـدو أن نفـس ذلـك السـهل العـراء كلهـا موجـودة هنـاك، فـي تلـك الميـاه الهندسـية التـي تخترقهـا مثـل طريـق واسـع، جارفـة حجـر الفحـم والحديـد.

كانـت عينـا إتيـان تصعـدان مـن القنـاة إلـى المجمّـع المشيّـد علـى النّجـد والـذي كان يميَّـز منـه فقـط قرميـده الأحمـر. ثم كانتـا ترجعان صـوب لوفـوروه، وتقفـان، أسـفل المنحـدر الطينـي، عنـد ركاميـن عظيميـن مـن حجـارة الآجـر، المصنوعـة والمطبوخـة فـي عيـن المـكان. كان خـط مـن السـكة الحديديـة للشـركة يمـرّ خلـف سـياج، ويربـط بيـن الحفـرة جيئـة وذهابـاً. كان يلـزم إنـزال آخـر عمّـال الـردم. مقطـورة وحيـدة يدفعهـا رجـل مـا، كانـت تُطلق صوتـاً حـاداً. لـم يعُـد الأمـر يتعلّـق بمجهـول الظلمـات، بالرعـود التـي لا تجـد تفسـيراً، ولا بتوهـج الكواكـب غيـر المعلومـة. بعيـداً، شـحُب لـون المصاهـر العاليـة وأفـران الفحـم الحجـري قبـل الفجـر. ولـم يبـق هنـاك، دون توقـف، سـوى مُصـرّف المضخـة، الـذي ينفـث علـى الـدوام البخـار الغليـظ والطويـل، بخـار غـول كان يميّـز ضبابـه الرمـادي الآن والـذي لا شـيء كان يسـتطيع إطعامـه.

حينـذاك، اتخـذ إتيـان قـراره فجـأة. علـى الأرجـح أنـه ظنّ رؤيـة

عينـي كاتريـن الرقراقتيـن مـن جديـد، هنـاك فـوق، عنـد مدخـل المجمّـع. الأرجـح أن تلـك كانـت هبّـة ريـح تمـرّد، قادمـة مـن لوفـوروه. لـم يكـن يعـرف، كان يريـد النـزول مـرة ثانيـة إلـى داخـل المنجـم كيمـا يتعـذّب ويتعـارك، يفكـر بعنـف فـي أولئـك النـاس الذيـن كان يتحـدث عنهـم **بونمور**، فـي ذلـك الإلـه المتخـم، الرابـض، الـذي وهبـه عشـرةُ آلاف مـن الجيـاع لحمهـم، دون معرفتهـم بـه.

القسم الثاني

I

كانت **پيولين**، ضيعة في مِلكية آل **غريغوار**، تقع على بعد كيلومترين اثنين من **مونسو**، في اتجاه الشرق، على طريق **جوازيل**. بيت كبير مربع، ليس على طراز محدد، شُيّد بداية القرن السابق. ولم يبقَ من الأراضي الشاسعة التابعة له في الماضي سوى ثلاثين هكتاراً تقريباً، محصّنة بجدران، تسهل صيانتها. وعلى الأخص كان يجري ذكرُ روضها وبستانها، المشهورين بثمارهما وخضرواتهما، الأطيب في البلد. ثم لم تكن بها حديقة، تحل محلها أجمة. بستان أشجار الزيزفون القديمة: قبة وارقة على امتداد ثلاثمائة متر مغروسة من الباب الخارجي إلى درج المدخل، كانت من عجائب هذا السهل العراء، حيث كانت تُعدُّ الأشجار العظيمة، من مارشيين إلى **بُونِيي**.

في ذلك الصباح، استيقظ آل غريغوار على الساعة الثامنة. جرت العادة على أن لا يتململوا إلا بعد ذلك بساعة، يكثرون النوم، بشغف؛ لكن عاصفة الليل كانت قد أثارت أعصابهم. وبينما ذهب زوجها للتحقق حالاً مما إذا كانت الريح قد أحدثت أضراراً، نزلت السيدة غريغوار إلى المطبخ، بنعليها القطنيين ومنامتها الحريريّة. قصيرة القامة، سمينة، تبلغ ثمانية وخمسين عاماً من عمرها، وتحافظ على وجه دمية غليظ ومتعجِّب، بفعل بياض شعرها الناصع.

«**مِيلاني**»، قالت مخاطبة الطبَّاخة، «لو صنعتِ فطيرة حلوى هذا الصباح، ما دام العجين جاهزاً. لن تستيقظ الآنسة قبل

نصف ساعة من الآن، وسوف تأكل منها مع شوكولاتها الساخن. هه؟ سوف تكون مفاجأة لها».

أخذت الطباخة تضحك، وهي امرأة عجوز نحيفة، في خدمتهم منذ ثلاثين عاماً.

«هذا صحيح، ستكون مفاجأة ذائعة الصيت. فُرني متّقد، يجب أن يكون الفرن ساخناً؛ ثم سوف تساعدني **أونورين** قليلاً».

أونورين، فتاة ذات عشرين عاماً تقريباً، التُقطت طفلة وتربّت في البيت، كانت في ذلك الآن تعمل خادمة غرف. وفضلاً عن هاتين المرأتين، لم يكن عدد الخدَم يتعدى الحوذي، **فرنسيس**، المكلّف بالأشغال الشاقة. هناك بستاني وبستانية يهتمان بالخضر والفواكه والأزهار وفناء الدواجن. وبما أن الخدمة كانت ذات طابع أبوي، وسكينة مألوفة، فإن هذا الجمع الصغير كان يعيش في جوّ من المودة الخالصة.

السيدة غريغوار، التي فكّرت وهي على فراشها في مفاجأة فطيرة الحلوى، بقيت كيما ترى وضع العجين في الفرن. كان المطبخ واسعاً، ويدرك المرء أنه أهم حجرة من نظافته القصوى وترسانته من المقالي والأواني والقدور التي يضُّج بها. كانت رائحة الطعام طيبة والرفوف والخزائن تفيض بالمؤن.

«وليكن مظهرها ذهبياً حقاً، أليس كذلك؟»، قالت السيدة غريغوار آمرة وهي تمرّ إلى حجرة الطعام.

رغم المدفأة التي كانت تسخن البيت كله، فإن حجر الفحم كان يدخل الانشراح على تلك الحجرة. فضلاً عن ذلك، لم يكن ثمة أي ترف: المائدة الكبيرة، الكراسي، صوان من خشب ماهوغني؛ أريكتان عريضتان هما فقط ما يدلّ على حبّ رغد العيش.

في تلك الأثناء بالضبط، عاد السيد غريغوار، لابساً معطفه العريض المصنوع من الفرو، وجهه متورّد قياساً إلى سنين عمره الستين، بملامح بارزة صادقة وطيبة، في بياض ثلج شعره المجعد. كان قد لقي الحوذي والبستاني: لم يكن هناك من ضرر يستحق الاهتمام، سوى سقوط قصبة مدخنة. كل صباح، كان يحب إلقاء نظرة على **بيولين**، التي لم تكن كبيرة بما يكفي كي تخلق له المتاعب، والتي كان يجتلب منها كل أسباب سعادة المالِك.

«و**سيسيل**؟»، سأل، «ألا تستيقظ اليوم إذن؟».

«لم أعُد أفهم من الأمر شيئاً»، أجابته زوجته، «أظن أني سمعتُها تتحرّك».

وُضِعت أطباق الطعام، ثلاثة أقداح على المفرش الأبيض. أُرسِلت **أونورين** حتى ترى ماذا حلّ بالآنسة. لكنها هبطت على الفور، وهي تكبح ضحكاتها، وتخنق صوتها، كما لو أنها تحدثت فوق، في الغرفة.

«أوه! لو أن سيدي وسيدتي رأيا آنستي! إنها نائمة، أوه! إنها نائمة مثل ملاك. لا يمكن تصوّر ذلك، إن النظر إليها متعة».

تبادل الأب والأم نظرات محبّة. قال مبتسماً:

«هلا أقبلتِ لرؤية ذلك؟».

«يا للظريفة المسكينة! أنا ذاهبة»، همسَت.

وصعدا معاً. كانت الغرفة المترفة الوحيدة في البيت، منجّدة بالحرير الأزرق، مزيّنة بأثاث مصبوغ، أبيض ذي خطوط زرق، نزوة طفل مدلّل يلبي أبواه كل رغباته. في بياضات السرير الملتبسة، وتحت ضوء الصباح النازل من فجوة ستار، كانت الفتاة نائمة،

وجنتها مسندة إلى ذراعها العارية. لم تكن مليحة، إنما بصحة جيدة، وعافية جيدة، ناضجة في سِني عمرها الثماني عشرة؛ لكن كانت لها بشرة ناعمة، وطراوة اللبن، بخصلات شعرها المشرّية حمرة، وجهها المدوّر بالأنف الصغير الشَمم، الغارق بين الوجنتين. كان الغطاء قد أُزيح عنها، وهي تتنفّس بسكون حيث أن زفيرها لم يكن يرفع صدرها الممتلئ أصلاً.

«لقد حرمَتها تلك الريح الملعونة من إغماض عينيها»، قالت الأم بلُطف.

بإيماءة من يده، أجبرها الأب على السكوت. أكبّا معاً عليها ونظرا إليها بنظرة محبّة، في عريها عري العذراء، تلك البنت التي رغبا فيها طويلاً، والتي وُلدت لهما على كبر، حينما انقطع رجاؤهما في ذلك. كانا يعتبرانها كاملة، ليست سمينة بإفراط، ولم تُطعم بما يكفي قط. وكانت لا تزال نائمة، دون أن تحسّ بهما قربها، وجه كل منهما حذو وجهها. ومع ذلك، حركت نسمة خفيفة وجهها الثابت. فسرت فيهما رعدة خشية من أن تستيقظ. وانصرفا على رؤوس أصابعهما.

«صه!»، قال السيد غريغوار عند عتبة الباب، «إذا لم تنَم، يجب أن ندعها تنام».

«لتنم قدر ما تريد، الظريفة»، أكدت السيدة غريغوار، «سوف ننتظر».

هبطا، واقتعدا الأريكتين بحجرة الطعام؛ بينما الخادمتان، وهما تضحكان من نوم الآنسة الطويل، كانتا تبقيان دون دمدمة الشوكولا على الموقد. هو، أخذ صحيفة، هي، كانت تغزل غطاء

قدميـن مـن الصـوف. كان الجـو حـاراً جـداً، ولا صـوت يأتـي مـن البيـت الأخـرس.

ثـروة آل غريغـوار، التـي تُعـد قرابـة الأربعيـن ألـف فرنـك كدخـل سنوي، كانـت كلهـا مودعـة فـي أسـهم بمناجـم مونسـو. كانـا يتحدثـان عـن مصدرهـا بـكل لباقـة، الـذي انطلـق مـن إنشـاء الشـركة نفسـها.

فـي بدايـة القـرن الماضـي، هبّـت موجـة جنـون، مـن مدينـة **ليل** إلـى **فالنسيين**، بحثـاً عـن حجـر الفحـم. النجاحـات التـي حققهـا الوكلاء، الذيـن كان عليهـم تأسيس شـركة **آنزان** فـي مـا بعـد، ألهبـت حمـاس كل الـرؤوس. فـي كل بلديـة، كان يتـمّ سـبر أغـوار التربـة؛ أُنشـئت الشـركات، ونمـت الـوكالات بيـن ليلـة وضحاهـا. لكـن مـن ضمـن الرجـال الذيـن واصلـوا العنـاد فـي تلـك الآونـة، كان بـارون **ديريمو** الـذي خلّـد بـكل تأكيـد ذاكـرة الفطنـة الأشـد بطولـة. فلمـدة أربعيـن عامـاً، كان يتصـارع دون أن يهِـن، وسـط عوائـق متتابعـة: لـم تثمـر أبحاثـه الأولـى، وتخلّـى عـن حفـر جديـدة بعـد شـهور طويلـة مـن العمـل، انجرافـات كانـت تـردم الثقـب، فيضانـات مباغتـة كانـت تغـرق العمّـال، مئـات الآلاف مـن الفرنـكات رُميـت فـي التـراب؛ ثـم متاعـب الإدارة، هلـع المسـاهمين، الصـراع مـع الإقطاعييـن، المتشـبثين بعـدم الاعتـراف بامتيـازات الملَكيـة، مـا لـم يتـمّ التعامـل معهـم هـم الأول. كان قـد أنشـأ آنفـاً شـركة **ديريمو فاكنوا** وشـركاؤه لاسـتغلال وكالـة مونسـو الاحتكاريـة، وأخـذت المناجـم تجنـي بعـض الفوائـد، عندمـا أوشـكت وكالتـان احتكاريتـان بجـواره أن تسـحقاه نظـراً لمنافسـتهما الشـديدة، وكالـة **كوني** فـي ملكيـة **كونت كوني**، ثـم وكالـة جوازيـل، فـي ملـك شـركة **كورني** و**جونار**. ومـن حسـن الحـظ، فقـد عُقِـد يـوم

25 أغسطس 1760، ميثاق بين المحتكرين الثلاثة وتم جمعها في وكالة احتكارية واحدة. أنشأت شركة مناجم مونسو مثلما هي موجودة الآن. بخصوص التوزيع، جرى التقسيم حسب نظام عملة ذلك الأوان، مجموع الملكية في أربعة وعشرين فلساً، كل واحد منها ينقسم إلى اثني عشر نصيب، والمحصلة كانت مائة وثمانين نصيباً، وبما أن النصيب كان يساوي عشرة آلاف فرنك، فقد كان الرأسمال يمثل مجموعاً يقرب من ثلاثة ملايين. حصل **ديريمو** بعد القسمة، وهو يحتضر لكن منتصراً، على ستة فلوس وثلاثة أنصبة.

في تلك الأعوام، كان البارون يمتلك **پيولين**، التي تدخل في حوزتها ثلاثمائة هكتار، وكان في خدمته **أونوري** غريغوار، بصفته مديراً لأعماله، وهو فتى من منطقة **پيكاردي**، الجدّ الأكبر لِليون غريغوار، أب سيسيل. أثناء ميثاق مونسو، **أنوري** الذي كان يخفي داخل جوربه مبلغ خمسين ألف فرنك من المدخرات، استكان وهو يرتعد إلى إيمان سيده الراسخ. استخرج عشرة آلاف جُنيه من السكّة الجميلة، أخذ نصيباً، وهو مرتعب لكونه يسرق ذلك المبلغ من أطفاله. وقد حصل ابنه **أوجين** في حقيقة الأمر على أرباح ضئيلة جداً، وبما أنه أصبح برجوازياً ومن حماقته أضاع الأربعين ألف فرنك الباقية من الإرث الأبوي في شراكة مفلسة، فقد عاش بما يكفي من البخل. لكن فوائد النصيب كانت ترتفع شيئاً فشيئاً، إذ الثروة بدأت مع **فليسيان** الذي استطاع تحقيق حلم طالما هدهد به جده، المدير السابق، طفولته: شراء **پيولين** مجزّأة، التي حصل عليها بصفتها مِلكاً وطنياً، مقابل مبلغ زهيد.

وفي الأثناء، كانت الأعوام التالية سيئة، وتطلّب الأمر انتظار مآل المصائب الثورية، ثم السقوط الدامي لنابليون. وكان ليون غريغوار هو المستفيد، بفضل تقدم مذهل، من الاستثمار الخجول الذي قام به جدّه الأكبر. تلك العشرة آلاف فرنك البائسة، كبرت وتمددت، مع ازدهار الشركة. منذ 1820، كانت تجني مائة في المائة، عشرة آلاف فرنك. عام 1844، نتج عنها عشرون ألفاً؛ عام 1850، أربعون ألفاً. وأخيراً منذ عامين، ارتفع الريح إلى الرقم الهائل، 50 ألف فرنك: تضاعفت قيمة النصيب، المدرجة حصته في بورصة **ليل** بمليون، مائة ضعف في غضون قرن.

وقد رفض **غريغوار** أن يبيع، بعد نصحه بأن يفعل عندما وصل سعر المليون، بملمحه الباسم والأبوي. ستة أشهر بعد ذلك، اندلعت أزمة صناعية، وهبط النصيب إلى ستمائة ألف فرنك. لكنه كان يبتسم دائماً، لم يكن يتحسر على شيء، لأن آل غريغوار كان لديهم في ذلك الآن إيمان قوي بمنجمهم. سوف يرتفع من جديد، لم يكن الإله بكل ذلك القدر من الصلابة. ثم يضاف إلى ذلك الإيمان الديني تقدير عميق لاستثمار كان منذ قرنٍ يُعيل الأسرة دون أن تفعل شيئاً. كان الأمر أشبه بإله يخصّهم، تحيطه أنانيتهم بعبادة، صانع خيرات البيت، يهدهدهم في فراش كسَلهم الكبير، ويسمنّهم في مائدتهم النهمة. وكان ذلك يدوم، من أب إلى ابن: لماذا الجرأة على إغضاب القدَر، بالارتياب فيه؟ وكان في عمق وفائهم رهبة تَطَيُّر، الخوف من أن يذوب المليون نصيب بغتة، إن هم صرفوه ووضعوه في جارور. كانوا يرونه بمنجاة أكثر وهو في التراب، ومن ثمة شعب من عمال المنجم، وأجيال من

الجياع الذين يستخرجون لأجلهم، كل يوم شيئاً قليلاً منه، وفق حاجاتهم.

فضلاً عن ذلك، كانت شآبيب السعادة تمطر على ذلك البيت. إذ تزوج السيد غريغوار وهو في فتوّة سنه ابنة صيدلاني من مارشيين، آنسة دميمة، معدمة، كان متعلقاً بها والتي ردّت له كل الدّين عبارة عن غبطة. أغلقت على نفسها في بيت الزوجية، منتشية في حضور زوجها، لا إرادة لها سوى ما يريده؛ لم يسبق قط أن فرّقت بينهما أذواق مختلفة، مثال أعلى للعيش الرغد كان يجمع رغباتهما؛ وكانا يعيشان هكذا منذ أربعين عاماً، من الحنان ومن العناية المتبادلة بينهما. كانت حياة منظمة، الأربعون ألف فرنك وقد أُكلت بلا ضجيج، المدخرات وقد أنفقت على سيسيل، التي قلبت ولادتها المتأخرة الميزانية بعض الوقت. وحتى اليوم، فقد كانا يلبّيان كل نزوة من نزواتها: حصان ثانٍ، عربتان زيادة، وعدّة زينتها المستوردة من باريس. لكنهما كانا يستطيبان فرحة زائدة، لم يجدا شيئاً أشدّ جمالاً لابنتهما، نظراً لكل ذلك القدر من الرهبة الشخصية من إظهار النعمة بحيث حافظا على ما راج من لباسٍ فترة شبابهما. إذ كل نفقة لا يُستفاد منها كانت بنظرهما غبية.

فجأة فُتِح الباب، وصاح صوت عالٍ:

«هه طيب! ماذا إذن، تأكلون الفطور من دوني؟».

كانت تلك سيسيل، وقد نهضت من الفراش، عيناها منتفختان من فرط النوم. كانت قد مشطت شعرها ولبست منامتها الصوفية البيضاء.

«كلا»، قالت الأم، «ألا ترين أننا كنا في انتظارك. هه؟ لا بدّ أن تلك الريح منعتك من النوم، يا للظريفة المسكينة!».

نظرت الفتاة وهي مستغربة جداً.

«هبّت الريح؟ لا أدري شيئاً عن ذلك، لم أتحرك الليل بكامله».

حينذاك، بدا لهم الأمر طريفاً، وشرعوا ثلاثتهم في الضحك؛ الخادمتان، المقبلتان بالطعام، قهقهتا أيضاً، حيث أن الآنسة نامت اثنتي عشرة ساعة المعتادة فيها دفعة واحدة، فتلك فكرة أدخلت البهجة على البيت. وزاد منظر فطيرة الحلوى من إشراق الوجوه.

«كيف! تمّ طهوها إذن؟»، كانت سيسيل تكرر، «يا له من مقلب دُبّر لي! هذا ما سوف يكون طيباً، وهي ساخنة تماماً، مع الشوكولا!».

وجلسوا إلى المائدة في نهاية المطاف، كان بخار الشوكولا ينبعث من الأقداح، ولم يطُل الكلام إلا بخصوص فطيرة الحلوى. لازمت ميلاني وأونورين المكان، كانتا تقدّمان التفاصيل عن الطهو، وتنظران إليهم وهم يأكلون، وقد علا الدهن شفاههم، وهما تقولان إنها لمتعة أن يصنع المرء حلوى ويرى أسياده يأكلونها بكل ذلك القدر من طيب الخاطر.

لكن الكلاب نبحت بشدة، وغلب الظنّ أنها كانت تُعلن عن وصول معلِّمة البيانو التي تحضر يومي الإثنين والجمعة. كما كان يحضر أستاذ للأدب. تعليم الفتاة برمته كان يتمّ على ذلك النحو في بيولين، وسط نعيم الجهل، ونزوات طفلة ترمي بالكتاب من النافذة إذا أضجرها سؤال من الأسئلة.

«إنه السيد **دونولان**»، قالت أونورين وهي راجعة.

خلفها، دونولان، قريب السيد غريغوار، ظهر دون تكلّف، كلامه رفيع، حركته تفيض حيوية، له مشية ضابط سابق في سلاح الفرسان. وإن جاوز سنه الخمسين عاماً، فإن شعره ذا القصة القصيرة وشاربيه الكثّين، كان لهما سواد الحبر.

«أجل، هذا أنا، يومكم سعيد. لا تزعجوا حالكم إذن!».

جلس، بينما كانت الأسرة ترحب به. وانتهى بها المطاف إلى العودة إلى تناول الشوكولا.

«هل لديك شيء تخبرني به؟»، سأله السيد غريغوار.

«كلا، لا شيء بتاتاً»، عجّل **دونولان** بالردّ، «ركبت فرسي وخرجت لإراحة مفاصلي قليلاً، وبما أني كنت ماراً أمام الباب، أردت أن ألقي عليكم السلام».

سألته سيسيل عن بنتيه، **جان ولوسي**. كان حالهما تماماً، لم تكن الأولى تتخلى عن الرسم بتاتاً، بينما الثانية، البكر، كانت تهذّب صوتها على البيانو، من الصبح حتى المساء. وكانت في صوته رعشة خفيفة، ضيق كان يخفيه، في دويّ ابتهاجه.

وعاد السيد غريغوار للقول:

«كل شيء يسير على ما يرام، في المنجم؟».

«والسيدة العذراء! أنا مشغول مع الرفاق بتلك الأزمة القذرة. آه! نؤدي أجور الجيوش المتكاثرة! لقد أفرطنا في بناء المصانع، أفرطنا في تشييد السكك الحديدية، أفرطنا في توظيف الرساميل لأجل إنتاج هائل. واليوم، المال يرقد، لا نجد منه لتشغيل كل ذلك! لحسن الحظ، لا شيء يدعو لليأس، سوف أتجاوز المحنة على كل حال».

شأن قريبه، كان قد ورث نصيباً من مناجم مونسو. لكنه، وهو مهندس صاحب مشاريع، وقد حيّرته الحاجة إلى ثروة ملَكية، فقد عجّل بالبيع، حينما بلغ النصيب المليون. منذ شهور، كان يفكر على مهل في خطة. كانت زوجته قد ورثت من عمٍّ لها احتكارية **ڤاندام** الصغيرة، حيث يعمل منجمان فحسب، (**جونبار وغاستون - ماري**)، ومن شدة ما كانا عرضة للإهمال، ومعداتهما معيبة، فإن استغلالهما لم يكن يغطي المصاريف أو بالكاد. بيد أنه كان يحلم بإصلاح **جونبار** وتجديد آلته وتوسيع البئر بغية النزول أكثر والحفاظ على غاستون - ماري للنزح. كان يقول إنه لا بدّ من جني قناطير الذهب هناك. كانت الفكرة صائبة. لكن تمّ إنفاق المليون في ذلك، واندلعت تلك الأزمة الصناعية الملعونة في الوقت الذي كانت فيه أرباح كبيرة ستؤكِّد أنه كان محقاً. فضلاً عن ذلك، كان سيّئ التدبير، مباغتاً في جوده، يستسلم لنهب العمال له منذ وفاة زوجته، مرخياً الزمام لبنتيه، البكر التي كانت تتحدث عن ولوج المسرح والصغرى التي لم تُقبل رسومها الثلاثة للمناظر في المعرض، كلتاهما تضحك وسط المحنة، والتي كشف البؤس الذي يتهددهما عن ربّتي بيت لطيفتين جداً.

«ها أنت ترى، يا لِيون»، تابع كلامه، صوته متردّد، «لقد أخطأتَ عندما أحجمتَ عن البيع مثلي في الوقت نفسه. الآن، كل شيء ينهار، مهما سعيتَ. لو أنك عهدت لي بأموالك، لرأيت ما كنا سنصنعه في ڤاندام، منجمنا!».

كان السيد غريغوار قد أتى على قدحه من الشوكولا، دون استعجال. أجابه بهدوء:

«أبداً! تعلم جيداً أني لا أريد المضاربة. أعيش في هناءة، من الحمق الشديد أن أشغل بالي بهموم إدارة الأعمال. أما عن **مونسو**، قد يواصل ذلك الانخفاض، سوف نجني منه دوماً ما يكفينا. لا يجب أن يكون المرء شرِها بكل ذلك القدر، اللعنة على الشيطان! ثم، أنصت إلي، أنت من سيعضّ أصابعه ندماً ذات يوم، لأن قيمة **مونسو** سوف تزداد، أطفال **سيسيل** سوف يكسبون منه خبزهم الأبيض».

كان **دونولان** ينصت إليه وعلى محياه بسمة ضيق.

«إذن»، همس قائلاً، «لو قلتُ لك بوضع مائة ألف فرنك في مشروعي، هل سترفض؟».

لكن أمام وجوه آل غريغوار الحائرة، أخذته الحسرة من تسرّعه بذلك القدر، وأجل فكرة الاستلاف إلى وقت لاحق، محتفظاً بها لحالة ميؤوس منها.

«أوه! لم أصل بعد إلى هذا الحدّ! إنها مزحة. يا إلهي! أنت محقّ على الأرجح: المال الذي يجنيه لك الآخرون هو الذي نسمن منه بكل تأكيد».

وتغيّرت دفة الحديث. عادت **سيسيل** إلى موضوع بِنتَي عمومتها التي تشغلها أذواقهما، كما أنها تصدمها. وعَدَت السيدة غريغوار بمرافقة ابنتها لزيارة الصغيرتين العزيزتين، ما أن يزف أول يوم مشمس. في تلك الأثناء، لم يكن السيد غريغوار، الذي بدا عليه الشرود، ضمن المحادثة. أضاف بصوت عالٍ:

«أنا، لو كنت مكانك، لن أعاند زيادة، وأتعامل مع **مونسو**. إن لهم رغبة حسنة في ذلك. وسوف تستعيد مالك».

كان يلمّح إلى الضغينة القديمة التي كانت قائمة بين احتكارية **مونسو** واحتكارية **فاندام**. رغم الأهمية القليلة التي تتمتع بها هذه الأخيرة، فإن جارتها القوية كانت تغتاظ حينما ترى ذلك الفرسخ المربع الذي لا يدخل في حوزتها، والمُحاصَر بين بلدياتها الستة والستين؛ وبعد محاولة قتلها، كانت تتآمر لشرائها بثمن بخس، عندما تكون في رمقها الأخير. كانت الحرب تستمر دون هدنة، كل مؤسسة استغلال كانت توقف سراديبها على بعد مائتي متر الواحدة من الأخرى، كانت تلك مبارزة حتى النهاية، وإن كان ثمة بين المدراء والمهندسين علاقات مهذبة.

تطاير شرر من عيني **دونولان**.

«أبداً!»، صاح بدوره، «ما دمتُ حيّاً، لن تحصل مونسو على فاندام. يوم الخميس تعشّيت عند **إينبو** وقد فطنت حقاً إلى أنه يتربص بي. أصلاً، في الخريف الماضي، حينما جاءت الرؤوس الكبيرة إلى الوكالة، فقد تودّدوا لي بكل أصناف التملّق أجل، أجل، أنا أعرفهم، هؤلاء الماركيزات والدوقات، هؤلاء الجنرالات والوزراء! قطاع طرق قد يسلبونك حتى قميصك، عند منعطف غابة!».

لم يكفّ عن الكلام. ثم إن السيد غريغوار لم يكن يدافع عن وكالة مونسو، فالمسيّرين الستة الذين عيّنهم ميثاق 1760، والذين كانوا يحكمون الشركة باستبداد، وعند كل وفاة كان الخمسة على قيد الحياة يختارون العضو الجديد من بين المساهمين الأقوياء والأثرياء. كان رأي مالك **پيولين**، ذي الأفكار الحكيمة، أن هؤلاء السادة ينقصهم الاعتدال أحياناً، وذلك لِحُبّهم المال حباً جمّاً.

كانت **ميلاني** قد عادت لإخلاء المائدة. في الخارج، أخذت الكلاب في النباح، وتوجهت أونورين نحو الباب، عندما غادرت سيسيل المائدة، بعد أن خنقتها الحرارة والأكل.

«كلا، اتركي ذلك لي، لا بدّ أن ذلك من أجل درسي».

نهض **دونولان** هو أيضاً. نظر إلى الفتاة وهي خارجة، سأل مبتسماً:

«وعليه! وذلك الزواج مع **نيغريل** القصير؟».

«لا شيء تمّ»، قالت السيدة غريغوار، «فكرة في الهواء. يجب التفكير في الأمر».

«لا ريب»، قال مواصلاً كلامه بضحكة يشوبها فحش، «أظن أن ابن الأخت والعمة. ما يصدمني هو أن السيدة **إينبو** هي من يريد بهذا الشكل الظفر بسيسيل».

لكن السيد غريغوار تذمّر. سيدة جليلة وتكبر الشاب بأربعة عشر عاماً! كان ذلك فظيعاً، لم يكن يستحسن أن يمزح الناس بمواضيع مماثلة. دونولان، وهو لا يزال يضحك، شدّ على يده ثم انصرف.

«دوماً الأمر نفسه»، قالت سيسيل وهي راجعة، «إنها تلك المرأة رفقة طفليها، تعرفين، ماما، زوجة عامل المنجم التي لقيناها. هل يجب إدخالهم هنا؟».

تردّد الجمع. هل كانوا قذرين؟ كلا، ليس كثيراً، وسوف يدعون نعالهم الخشبية على الدرج. أصلاً، كان كل من الأب والأم قد تمدد على واحدة من الأريكتين الوثيرتين. يجتران هناك ما طعِماه. وقد دفعتهما الخشية من تغيير الجو إلى حسم القرار.

«أدخليهم، **أونورين**».

وعليـه، دخلـت **مَاهُـود** وطفليهـا، وقـد جمّدهـم البـرد، جوعـى، اسـتبد بهـم ذهـول مخيـف وهـم يشـهدون أنفسـهم فـي تلـك الحـجـرة حيـث الـدفء العميـم والتـي يفـوح منهـا طيـب فطيـرة الحلـوى.

II

في الغرفة، التي ظلّت مغلقة، سمحت الستائر بانسلال خطوط نهار رمادية، شيئاً فشيئاً، كان نطاقها ينبسط على السقف؛ والهواء المنغلق يزداد ثقلاً، كان الجميع يواصل نوم الليل: **لينور** وهنري الأولى في حضن الثاني، **ألزير** ورأسها منقلب، مسند إلى حدبتها؛ بينما الأب **بونمور**، يحتل لوحده فراش **زكاري وجونلان**، يشخر فاغر الفم. ولا نفس واحد يصدر من الكنّة حيث نامت **ماهود** وهي ترضع إستيل، صدرها مائل إلى جنب، وبنتها فوق بطنها، وقد شبعت حليباً، صريعة هي الأخرى، تختنق بين جلد ثدييها الرخو.

أعلن وقواق الساعة تحت عن السادسة. وسُمع على امتداد واجهات المجمّع صَفقُ أبواب، ثم خفق نعال خشب فوق حجارة الأرصفة: كانت تلك هن المغربِلات المنصرفات إلى المنجم. وعاد الصمت ليعمّ حتى السابعة. حينذاك، فُتِحت الستائر، وعبرت أصوات تثاؤب وسعال من خلال الجدران. لأمد طويل سُمع صرير مطحنة للبنّ، ولم يستيقظ أحد في الغرفة بعدُ.

لكن، بغتة، انتصبت **ألزير** لمّا وصلها من بعيد صوت صفعات وصرخات. أدركت الساعة، وركضت حافية القدمين تهزّ أمها.

«ماما! ماما! تأخر الوقت. إن عليك القيام بسخرة. حذار! سوف تسحقين **إستيل**». ثم أنقذت الطفلة، التي كادت تختنق تماماً تحت دفق ثدييها.

«يا للحظ العاثر!»، تثاءبت **ماهود**، وهي تفرك عينيها، من شدة أوجاع الظهر فإن المرء قد يظل نائماً النهار كله، «ألبِسي

لينور وهنري لباسهما، سوف يرافقانني؛ واحضني **إستيل**، لا أريد أن أجرجرها معي خشية أن يصيبها أذى من هذا الجو السيّئ».

اغتسلت على عجل، لبست تنورة زرقاء قديمة، وهي أنظف ما لديها، وسُترة من الصوف رمادية اللون، الذي زادت عليه قطعتين في اليوم السابق.

«وشيء من الحساء، يا للحظ العاثر!»، همست من جديد.

بينما كانت أمّها نازلة، تصدم كل ما يعترضها، عادت **ألزير** إلى الغرفة حيث حملت إستيل التي أخذت تصرخ. لكنها كانت معتادة على سعار الصغيرة، إنها تمتلك وهي بنت في الثامنة من عمرها حِيَل حنان امرأة، قصد تهدئتها وتسليتها. بلطف، وضعتها في فراشها الذي كان لا يزال دافئاً، ونوّمتها بأن أعطتها إصبعاً لتمصه. وكان أوان ذلك، حيث اندلع صخب آخر؛ ولزمها الفصل في الحال بين لينور وهنري، اللذين استيقظا في نهاية المطاف. لم يكن ثمة وئام بين هذين الطفلين قط، ولا يعانقان بعضهما بلطف إلا حينما ينامان. كانت البنت، البالغة ستة أعوام من عمرها، ما أن تنهض حتى ترتمي على الولد، الذي يصغرها بعامين، ويتلقى صفعاتها دون الردّ بمثلها. كان لكل منهما رأس ضخم بإفراط، وكأنه منفوخ، متفرق بشعر أشقر. لقد تطلب الأمر من **ألزير** أن تجذب أختها من ساقيها، وتهددها بسلخ جلدة مؤخرتها. ثم تبع ذلك خبط للأرض بالأرجل عند الاغتسال ومع كل رداء تلبسه لكل منهما. وقد تجنبت فتح الستائر كي لا تزعج الأب **بونمور** في نومه. كان يواصل شخيره، وسط ضوضاء الطفلين.

«يا من في الأعلى، هل أنتم جاهزون؟»، صرخت **ماهود**.

كانت قد أغلقت المصاريع، أهاجت النار وألقت عليها الفحم. كانت ترجو ألاّ يبتلع العجوز الحساء كله. لكنها وجدت المقلاة وقد لُحِست لحساً، وقامت بطهي حفنة من الشعيرية، كانت تذخرها منذ ثلاثة أيام. سوف يُبلَع بالماء، دون سمن؛ لا بدّ أنه لم يتبق شيء من زبدة اليوم السابق؛ وقد تعجبت لمَّا رأت أن كاترين، وهي تعد الزوّادات، قد حقّقت معجزة بأن تركت منها قطعة ضخمة بقدر جوزة. إلا أن الصّوان كان هذه المرة خاوياً حقاً: لا شيء، ولا كسرة خبز، ولا بقية مؤونة، ولا عظم يُمصّ. ماذا سيحلّ بهم لو أن **ميغرا** أصرّ على ألّا يسلفهم شيئاً بعدُ، ولم يمنحها صاحبا بيولين مائة فلس؟ عندما سيعود الرجال والبنت من المنجم، يجب رغم ذلك أن يطعموا؛ إذ لم يُخلق بعدُ العيش من دون طعام، مع الأسف.

«أنتم نازلون، في نهاية الأمر!»، صاحت وهي مغتاظة، «المفروض أن أكون خرجت».

حينما حلّت ألزير والطفلين هناك، قسمت الشعيرية في ثلاثة صحون صغيرة. لم تكن تشعر بالجوع، قالت. ومع أن كاترين كانت قد أضافت الماء أصلاً على ما ترسّب من القهوة في اليوم السابق، فقد أغلته من جديد وبلعت قدحين كبيرين من قهوة صافية خالصة إلى حدّ أنها كانت تشبه ماء الصدأ. ذلك سوف يسندها مهما كان.

«اسمعي»، كانت تردّد مخاطبة **ألزير**، «دعي جدك نائماً، واحرصي على ألا تحطّم **إستيل** رأسها إن هي صحت من نومها،

هـاك! هـذه قطعـة سـكّر، ذوّبيهـا واعطهـا منهـا ملاعـق صغيـرة. أعـرف أنـك عاقلـة، وأنـك لـن تأكليهـا».

«والمدرسة، ماما!».

«المدرسة، طيب! نترك ذلك ليوم آخر. أنا في حاجة إليك».

«والحساء، هل تريدين أن أعده إن تأخرتِ في العودة؟».

«الحساء، الحساء. كلا، انتظريني».

كانـت **ألزيـر** تجيـد إعـداد الحسـاء، لهـا مـن الفطنـة المبكـرة مـا لفتـاة مصابـة بعاهـة. لا بـدّ أنهـا فهمـت ولـم تلـحّ قطعـاً. فـي ذلـك الأوان، كان المجمّـع مسـتيقظاً بأكملـه، جماعـات مـن الأطفـال كانـوا منصرفيـن إلـى المدرسـة، بصـوت قباقيـب الخشـب المتثاقلـة. دقّـت السـاعة الثامنـة، لغـط ثرثـرة متعاظـم كان قادمـاً مـن جهـة الشـمال، عنـد آل **لوفـاك**. كان يـوم النسـاء يبتـدئ، حـول أباريـق القهـوة، القبضـات علـى الخصـور، والألسـنة تـدور دون توقـف، مثـل حجـري مطحنـة. أتـى رأس ذابـل، لـه شـفتان غليظتـان، وأنـف أفطـس، واسـتند إلـى زجـاج نافـذة، وهـو يصيـح:

«هناك جديد، أنصتي إذن!».

«كلّا، كلّا، في ما بعد!»، أجابت **ماهود**، «عندي غرض أقضيه».

وحتـى لا تستسـلم أمـام عـرض كأس مـن القهـوة السـاخنة، دفعـت أمامهـا لينـور وهنـري وانصرفـت معهمـا. فـي الأعلـى، كان بونمـور يشـخر دائمـاً، بشـخير منتظـم يُهدهـد البيـت.

فـي الخـارج، تعجّبـت ماهـود لمّـا وجـدت أن الريـح سـكنت. كان الصقيـع قـد ذاب بغتـة، واتخـذت السـماء لـون التـراب، والحيطـان دبقـة لهـا رطوبـة مائلـة إلـى الخضـرة، والطرقـات لزجـة بالوحل، وهـو

وحلٌ يختصّ به بلد الفحم، أسود مثل السخام السائل، سميك ولاصق تعلق فيه النعال الخشبية. وفي الحال، لزمها لطمٌ لينور لأن الصغيرة كانت تلهو بجمع القذارة بقبقابيها، وكذلك بطرف مجرفة. عند مغادرة المجمّع، مشت على طول الردم وتبعت درب القناة، لاختصار الطريق عبر أزقة مخرّبة، وسط الخلاء، تسدها أسوار علاها الطحلب. كانت الحظائر تتتابع، بنايات معامل طويلة، مداخن عالية تبصق السخام، تلوث ذلك الريف المدمّر بضاحية صناعية. خلف بضعة أشجار من الحور، كان يظهر من حفرة ريكيار القديمة تهدم سقيفتها التي لم يبق منها واقفاً سوى هياكلها الضخمة. ولما انعطفت يميناً، وجدت ماهود نفسها على الطريق الأعظم.

«تمهل! تمهل! أيها الخنزير القذر!»، صاحت، «سوف أصنع لك كرات!».

الآن، كان هنري هو من أخذ حفنة من الطين وشرع في عجنها. بعد أن تمّ لطم الطفلين، دون انحياز، لزما الصف، وهما ينظران بمؤخر العين إلى الأقراص التي كانا يصنعانها وسط الأكوام. كانت أقدامهما ترتطم في الوحل، وقد هدّهما التعب أصلاً من الجهد لتخليص نعالهم مع كل خطوة.

من جهة مارشيين، كانت الطريق تبسط فرسخيها من البلاط الموطّأ، الذي ينساب على نحو مستقيم مثل شريط مبلل بالدهن السّخامي، بين الأراضي المائلة إلى الحمرة. لكن من الجهة الثانية، كانت الطرق تنزل متعطّفة خلال مونسو، المشيدة على منحدر منعرج عريض في السهل. طُرق بلاد الشمال تلك،

المرسـومة بوضـوح بيـن مـدن قائمـة علـى المعامـل، ومنحنيـات لطيفـة، ومعـارج بطيئـة، تتبنـي شـيئاً فشـيئاً، وتنحـو إلـى جعـل المقاطعـة مجـرد حاضـرة عماليـة. بيـوت الآجـر الصغيـرة، المشـبعة بالألـوان لإدخـال البهجـة علـى الجـو، بعضهـا صُفـرٌ، وبعضهـا زُرق، وأخـرى سُـود، وهـذه الأخيـرة بـلا ريـب القصـد منهـا الوصـول فـي الحـال إلـى الأسـود النهائـي، كانـت تنـزل يمينـاً ويسـاراً، ملتويـة مثـل الحيّـة حتـى أسـفل المنحـدر. هنـاك بيـوت زُوق واسـعة مـن طابقيـن، مسـاكن رؤسـاء عمـال بالمصانـع، كانـت تختـرق الخـط المُضغـط للواجهـات الضّيّقـة. وكانـت كنيسـة مـن الآجـر هـي أيضـاً تشـبه نموذجـاً جديـداً لفـرن عـالٍ، بجرسـه المربّـع، المتّسـخ أصـلاً بغبـار الفحـم المتطايـر. والغالـب بيـن مصانـع السـكر والخيـوط والمطاحـن، كانـت هـي المراقـص والخمّـارات وحوانيـت الجعّـة، ومـن شـدة كثرتهـا فـإن ضمـن ألـف منـزل، كان هنـاك أكثـر مـن خمسـمائة خمّـارة.

وبمـا أنهـا كانـت قـد اقتربـت مـن مواقـع الشـركة، وهـي مجموعـة شاسـعة مـن المخـازن والمشـاغل، قـررت **ماهـود** أن تمسـك بيـد كل مـن هنـري ولينـور، الأول علـى يمينهـا، والثانيـة علـى يسـارها. فـي الخلـف، كان يوجـد مسـكن المديـر الفاخـر، السـيد **إينبـو**، وهـو بمثابـة شـاليه واسـع تفصلـه عـن الطريـق بوابـة، تليهـا حديقـة تنمـو فيهـا أشـجار هزيلـة. فـي تلـك الأثنـاء بالضبـط، كانـت تقـف عربـة أمـام البـاب، سـيد مـزوّق وسـيدة بمعطـف مـن الفـرو، زيـارة مـا قادمـة مـن باريـس إلـى محطـة مارشـيين؛ لأن السـيدة **إينبـو** التـي ظهـرت فـي غبـش الردهـة، أطلقـت صيحـة اسـتغراب وفـرح.

«تقدمـا إذن، أيهـا المتقاعسـان!»، زمجـرت **ماهـود** وهـي تجـرّ الصغيريـن، اللذيـن كانـا يستسـلمان للوحـل.

وصلت عند **ميغرا**، كانت متأثرة تماماً. كان **ميغرا** يسكن بجوار المدير، جدار فحسب يفصل بين المسكن الفاخر ومنزله الصغير؛ وكان لديه هناك مستودع، وهو بناية طويلة تُفتح على الطريق بمتجر لا واجهة له. كان فيه من كل المتاجر نصيب، فهو محل بقالة ومحل بيع اللحوم المقدّدة والفواكه، والخبز والجعة والمقالي.

حارس سابق في لوفوروه، كان قد ابتدأ بمطعم ضيق؛ وبفضل حماية رؤسائه، توسّعت تجارته، وقد أهلَك شيئاً فشيئاً البيعَ بالتقسيط في مونسو. كان يستبدّ بالبضائع، ويسمح له العدد الهائل من الزبائن في المجمّعات بأن يبيع بأقل الأسعار ويمنح قروضاً أكبر. علاوة على ذلك، فقد ظلّ بين يدي الشركة التي شيدت له بيته الصغير ومتجره.

«ها أنا ذا مرة أخرى، سيد **ميغرا**»، قالت ماهود والذلّة تلوح عليها، إذ وجدته واقفاً بالضبط أمام بابه.

نظر إليها ولم يحرها جواباً. كان سميناً، مؤدباً، وبه فتور، ويعتز بأنه لا يرجع أبداً عن قراره.

«هيّا، لن تصدّني كالأمس. يجب أن نأكل خبزاً من يومنا هذا إلى غاية السبت. بالطبع، نحن ندين لك بستين فرنكاً منذ عامين».

كانت تشرح موقفها، بجمل قصيرة شاقة. كان ديناً قديماً، سلفة من وقت الإضراب الأخير. تعهدوا عشرين مرة بأداء ما بذمتهم، لكن لم يستطيعوا ذلك، لم يفلحوا في منحه أربعين فلساً كل أسبوع. ومع هذا، حلّت عليها مصيبة في اليومين

السـابقين، كان لا بـد لهـا مـن أداء عشـرين فرنـكاً لإسـكافي هـدّد بالحجـز عليهـم. وذلـك هـو السـبب الـذي جعلهـم بـلا فلـس. ولـولا ذلـك، لأمكنهـم مسـايرة الأمـر حتـى السـبت، مثـل الرفـاق.

كان **ميغـرا**، ببطنـه المتدلـي، وذراعيـه المتشـابكتين، يجيـب نفيـاً بإيمـاءة مـن رأسـه، مـع كل توسّـل.

«رغيفـان لا غيـر، سـيد ميغـرا. أنـا عاقلـة، لا أطلـب بُنّـاً. لا شـيء غيـر رغيفيـن وزن ثلاثـة أرطـال فـي اليـوم».

«لا!»، صاح بها في نهاية المطاف، بكل قوته.

كانـت زوجتـه قـد ظهـرت، مخلـوق نحيـف تُمضـي الأيـام مُكبّـة علـى سِجّل، ولا تجـرؤ حتـى علـى رفـع رأسـها. تملّصـت، فزعـة مـن رؤيـة تلـك الشـقية وهـي تنظـر إليهـا بعينيـن تتقـدان رجـاء. يُحكـى أنهـا كانـت تتـرك فـراش الزوجيـة لعامـلات التحميـل مـن الزبائـن. وكانـت تلـك واقعـة معروفـة: عندمـا كان عامـل منجـم يريـد تمديـد القـرض، لـم يكـن عليـه سـوى أن يرسِـل بنتـه أو زوجتـه، سـواء كانـت دميمـة أو جميلـة، طالمـا كانـت راضيـة.

ماهـود التـي كانـت لا تـزال تتوسـل بنظرتهـا **ميغـرا**، أحسّـت بالضيـق بفعـل الوضـوح الشـاحب لعينيـه الصغيرتيـن اللتيـن كان يعرّيهـا بهمـا. أغضبهـا ذلـك، ربمـا كانـت سـوف تتفهـم القصـد قبـل ولادة سبعة أطفـال، حينمـا كانـت شـابّة. ثـم انصرفـت، وجـرّت لينـور وهنـري بشـدة، اللذيـن كانـا مسـتغرقين فـي جمـع قشـور الجـوز المرميـة فـي غديـر كانـا يجوبـان أرجـاءه.

«ذلك لن يجلب لك الحظ، سيد ميغرا، تذكر ذلك».

الآن لـم يتبـق لهـا سـوى أصحـاب پيوليـن البرجوازييـن. إذا لـم يبسـطوا قبضاتهـم عـن مائـة فلـس، فلـن يكـون أمامهـم سـوى

الاضطجاع والهلاك. كانت قد سلكت إلى اليسار درب **جوازيل**. كانت الوكالة هناك، عند زاوية الطريق، قصر حقيقي من الآجر، حيث كان يأتي رجال باريس العظام، أمراء وجنرالات وشخصيات من الحكومة، كل خريف لتنظيم سهرات عشاء كبرى. وهي تمشي، كانت قد صرفت المائة فلس مسبقاً: أولا الخبز، ثم البنّ، وربع زبدة، مكيال من البطاطس، لحساء الصباح ويخنة المساء، القصد ربما القليل من جبن الخنزير، لأن الأب كان في حاجة إلى اللحم.

كان كاهن مونسو، القس **جوار**، ماراً وهو يجمع ثوب غفارته عند قدميه، برقّة قط سمين جيّد الإطعام، خشية من أن يبلل جبّته. كان لطيفاً، يتصنع عدم الانشغال بشيء، حتى لا يثير سخط كلّ من العمّال وأرباب العمل.

«نهارك سعيد، سيدي القس».

لم يتوقف عن السير، تبسّم للطفلين وتركها ثابتة وسط الطريق. لم تكن متديّنة قط، لكنها تصورت بغتة أن ذلك الراهب سوف يمنحها شيئاً.

واستأنف السباق من جديد، في الوحل الأسود واللاصق. كان لا يزال أمامهم قطع كيلومترين، والصغيران يستسلمان للجرّ زيادة، ولم يعودا للّهو قطعاً، مذهولين. يمين الدرب ويساره، تتبسط الأراضي الخلاء نفسها المسدودة بأسوار علاها الطحلب، نفس هيئات المصانع، المتسخة بالأدخنة، تنتصب فوقها مداخن عالية. ثم وسط الحقول، تمتد الأراضي المنبسطة، شاسعة، تشبه محيطاً من الرّوابي البُنّية، ليس فيها ساق شجرة، حتى خط غابة **فاندام** المائل إلى الأرجوان.

«احمليني، ماما؟».

حملتهما الواحد تلو الآخر. كانت البرك تخرق مواطئ الأقدام، وكانت تجمع ثوبها خشية أن تصل وهي مفرطة الوساخة. كادت تسقط ثلاث مرات، من شدة ما كان البلاط لزجاً. وبينما هم يصلون في آخر المطاف إلى الدرج، ارتمى عليهم كلبان ضخمان، وهما ينبحان بقوة جعلت الصغيرين يصرخان من الخوف. وقد تطلب الأمر أن يمسك الحوذي بسَوط.

«أتركوا نعالكم الخشبية، وادخلوا»، كانت **أونورين** تردّد.

في غرفة الطعام، لبثت الأم والطفلين بلا حركة، وقد أذهلهم الدّفء المباغت، وأحرجتهم بشدة نظرات ذلك السيد الهرِم وتلك السيدة العجوز المستلقيين على أريكتيهما.

«يا بنتي»، قالت هذه الأخيرة، «قومي بواجبك الصغير».

كان آل غريغوار يكلفان **سيسيل** بصدقاتهما. ذلك يدخل ضمن فكرتهما عن التربية الحسنة. حيث يجب أن يكون المرء مُحسناً، كانا يقولان بنفسيهما إن بيتهما هو بيت الرّب الكريم. ثم إنهما كانا يفتخران بأنهما يقدمان الإحسان بذكاء، ويخشيان باستمرار التعرض للخداع وتشجيع الرذيلة. لذلك لم يعطيا لأحدٍ المال قط، ولا عشرة فلوس، ولا فلسين، إذ كانت تلك واقعة معلومة، ما أن يحصل فقير على فلسين، فإنه يشرب بهما خمراً. لذلك كانت صدقاتهما دوماً عينية، على الأخص ملابس دافئة، توزع على الأطفال المعدمين خلال فصل الشتاء.

«أوه! يا للظريفين المسكينين!»، صاحت **سيسيل**، «كم إنهما شاحبان من سيرهما في البرد! **أونورين**، هيا إذن لإحضار الصرّة من الخزانة».

كانت الخادمتان تنظران بدورهما إلى هؤلاء البؤساء بنبرة الشفقة وشيء من الحيرة التي تستبد بالفتيات اللائي لا يشقين من أجل عشائهن. بينما صعدت خادمة الغرف، غفلت عن نفسها وأعادت وضع ما تبقى من الفطيرة على المائدة، كي تلبث هناك، ولا تصنع شيئاً.

«لدي أيضاً جُبتان من الصوف ووشاحين»، واصلت سيسيل، «سوف ترون، سيشعران بالدفء، الظريفان المسكينان!».

حينذاك استعادت ماهود قدرة لسانها، متمتمة:

«شكراً جزيلاً، آنستي. أنتم طيبون جميعاً».

اغرورقت عيناها بالدموع، كانت تظنّ أنها متأكدة من الحصول على المائة فلس، وكانت تشغلها فحسب الطريقة لطلبها، إذا لم تُعطَ لها. لم ترجع خادمة الغرف قط، وعمّت لحظة صمت محرِجة. بين ثياب أمهما كان الصغيران يحدّقان في الفطيرة ويتأملانها.

«لديك هذان الطفلان فحسب؟»، سألتها السيدة غريغوار، لكسر الصمت.

«أوه! سيدتي، لدي سبعة».

فزع السيد غريغوار مستنكراً هو الذي كان قد عاد إلى قراءة صحيفته.

«سبعة أطفال، لكن لماذا؟ يا إلهي!».

«هذا تهوّر»، همست السيدة العجوز.

ندّت عن ماهود إيماءة اعتذار ملتبسة. لا مفر. لم نكن نفكر في ذلك قطعاً، كان ذلك ينمو طبعاً. ثم عندما يكبر، فإنه يجلب

الـرزق، ويقـوم بأعبـاء البيـت. هكـذا، كانـوا سـوف يعيشـون فـي بيتهـم لـولا الجـد الـذي صـار متصلبـاً تمامـاً، ولـو أن مـن بيـن ذلـك الجمـع كان اثنـان مـن أولادهـا الذكـور وبنتهـا البكـر فـي سـنّ النـزول إلـى الحفـرة. مـن الواجـب علـى كل حـال إطعـام الصغـار الذيـن لا يصنعـون شيئاً.

«إذن، أنـت تشـتغلين منـذ أمـد بعيـد فـي المناجـم؟»، استرسـلت السـيدة غريغـوار

أضاءت ضحكة مكتومة وجه **ماهود** الشّاحب.

«آه! أجـل، آه! أجـل. أنـا، لقـد نزلـت حتـى سـن العشـرين. قـال الطبيـب إنـي سـأهلك هنـاك، حيـن وضعـت حبلـي الثانـي، إذ يبـدو أن ذلـك كان يخـرّب أشـياء مـا فـي العظـام. ثـم فـي تلـك الأيـام تزوجـت، وكان لـدي مـا يكفـي مـن الأشـغال بالبيـت. لكـن فـي مـا يخـصّ زوجـي، كمـا تريـان، إنـه هنـاك منـذ الأبـد. إن ذلـك يرقـى إلـى جـدّ الجـد، أقصـد لا نعـرف، فـي البدايـة الأولـى، عنـد الضربـة الأولـى مـن الفـأس، هنـاك فـي ريكيـار».

سـادراً، كان السـيد غريغـوار ينظـر إلـى تلـك المـرأة وطفليهـا اللذيـن كانـا فـي حالـة مزريـة، ولهمـا بشـرة شـمعيّة، وشـعرهما حائـل اللـون والانحـلال الـذي أقعسـهما، وقـد استشـرى فيهمـا داء فقـر الـدم، مـع قبـح الجـوع الكئيـب. عـمّ صمـت جديـد، ولـم يعُـد يُسـمع سـوى احتـراق حجـر الفحـم وهـو يُرمـي وينفـث الغـاز. كان يسـود الحجـرة النّديّـة مظهـر العيـش الرغيـد المثقـل، الـذي تغفـو فيـه أركان السـعادة البرجوازيـة.

«مـاذا تفعـل إذن؟»، صاحـت سيسـيل، بعـد نفـاد صبرهـا، «**ميلاني**، اصعـدي وأخبريهـا أن الصـرّة أسـفل الخزانـة، عنـد الجهـة اليسـرى».

في تلك الأثناء، أكمل السيد غريغوار بصوت عالٍ جداً التأملات التي أوحى له بها منظر هؤلاء الجوعى.

«صحيح أن المرء يشقى في هذه الدنيا؛ لكن سيدتي الطّيّبة، ينبغي القول كذلك إن العمّال لا يتصرفون بتاتاً بحكمة. هكذا، بدل أن يذخروا فلوساً مثل فلاحينا، فإن عمال المناجم يشربون، ويقترضون المال، وينتهي بهم الأمر إلى ألا يفضُل لهم ما يسدون بهم رمقهم».

«سيدي على حق»، أجابت ماهود بأدب، «ليس جميع الناس على الطريق المستقيم. هذا ما أكرّره على مسامع أولئك الأوغاد حينما يشتكون. أنا، صادفت خيراً، زوجي لا يشرب. ورغم ذلك، أيام آحاد الزفاف، فإنه يسرف في الشرب؛ لكن ذلك لا يتعدى أبداً الحد. وهذا لطف منه لأنه قبل زواجنا كان يشرب مثل الخنزير، مع خالص احترامي. لكن، كما تريان، أن يكون عاقلاً لا يعيننا في شيء يُذكر، في بعض الأيام، مثل يومنا هذا، ولو قلَّبتم ظهراً لبطن كل أدراج البيت، لن تُسقِطوا منها ريالاً واحداً».

كانت تريد أن توحي لهما بفكرة المائة فلس، تابعت بصوتها الرّخو، مفسّرة الدَّين المحتوم، الخجول في البدء، المتسع بعد حين والملتهِم. كان المرء يسدد دينه بانتظام مدة شهور. لكن في يوم من الأيام، يتأخر، وفي ذلك تحل النهاية، لا يمكن تدارك الأمر بعد ذلك أبداً. الهوة تتسع، وينفر الرجال من العمل، الذي لم يعُد يسمح لهم بدفع ما بذمتهم فحسب. هيّا، المرء في الوحل حتى الهلاك. ثم، كان يجب فهم كل شيء: إن عامل الفحم في حاجة إلى قدح شراب لكنس الغبار. كانت البداية من هناك، ثم لا

يغادر الحانة بتاتاً، حينما تحل عليه المتاعب. ربما الصحيح، دون الشكوى من أي أحد، أن العمال على كل حال لا يكسبون ما يكفيهم.

«كنت أظن أن الشركة تقدم لكم إيجار السكن والتدفئة».

نظرت ماهود بمؤخر عينها إلى حجر الفحم المتّقد في المدفأة.

«أجل، أجل، يُمنح لنا الفحم، هو ليس بالفحم الجيد، لكنه يشتعل مع ذلك. أما إيجار السكن فهو لا يتعدى ستة فرنكات في الشهر: يبدو أن ذلك لا شيء، وفي معظم الأحيان من الصعب أداؤه بحق. مثلاً، اليوم، لو قُطّعتُ إرباً، لن يُستخلص مني فلسان. وحيث لا يوجد أدنى شيء، لا يوجد أي شيء».

لزم السيد والسيدة الصمت، مستلقيين في دعة، ضجرين شيئاً فشيئاً وقد استبد بها الضيق أمام انبساط ذلك البؤس. خشيَت أن تكون قد جرحت أحاسيسهما وأضافت بمظهرها الصائب والهادئ، مظهر المرأة العملية.

«أوه! لا أقصد من هذا الشكوى. هكذا هي الأمور، علينا قبولها؛ لا سيّما حتى لو كافحنا لن نغير شيئاً بلا ريب. والأفضل، أليس كذلك؟ سيدي وسيدتي هو الحرص على القيام بشؤوننا بصدق، في المكان الذي وضعنا الربّ الكريم فيه».

وافقها السيد غريغوار كثيراً.

«بمثل هذه المشاعر، سيدتي الطّيّبة، يسمو المرء فوق الشّظف».

أحضرت أونورين وميلاني الصُرّة في نهاية الأمر. تكفّلت سيسيل بفكّ عقدتها وأخرجت الجُبّتين. أضافت إليهما الوشاحين،

وجـوارب وقفازيـن غيـر تامّيـن. سـوف يتناسـب كل ذلـك، كانـت تسـتعجل، تحـرص علـى أن تغلـف الخادمتـان الملابـس المنتقـاة؛ لأن معلمـة البيانـو جـاءت آنفـاً، وكانـت تدفـع الأم والطفليـن نحـو البـاب.

«إننـا فـي عـوز»، تمتمـت ماهـود، «لـو كان لدينـا قطعـة مائـة فلس فحسـب».

احتبسـت الجملـة فـي حلقهـا، لأن آل **ماهو** كانـت لهـم عـزة نفـس ولا يتوسـلون. نظـرت سيسـيل الحائـرة إلـى أبيهـا، لكنـه رفـض بوضـوح، وعليـه أمـارة الواجـب.

«كلا، ليس من عاداتنا. لا نستطيع».

حينـذاك، أرادت الفتـاة إرضـاء الطفليـن، وقـد تأثـرت مـن وجـه الأم المنقلـب. كانـا يحدقـان فـي الفطيـرة دومـاً، قطعَـت منهـا نصيبين وسـلّمتهما لهمـا.

«خذا! هذا لكما».

ثم استعادتهما، وطلبت صحيفة قديمة.

«تمهلا، سوف تقتسمانهما مع إخوانكما وأخواتكما».

وفـي ظـلّ نظـرات حنونـة مـن أبويهـا، انتهـت مـن دفعهـم إلـى الخـارج. وانصـرف الصبيـان المسـكينان، اللـذان لـم يكـن لديهمـا رغيـف خبـز، وهمـا يمسـكان تلـك الفطيـرة بإجـلال، بأيديهمـا الصغيـرة المتيبّسـة مـن البـرد.

جـرّت ماهـود طفليهـا علـى الرصيـف، لـم تكـن تـرى لا الحقـول المقفـرة ولا الوحـل المسـودّ، ولا السـماء العظيمـة المدلهمّـة التـي كانـت تـدور. حينمـا عبـرت مونسـو مـن جديـد، دخلـت بحـزم عنـد **ميغرا** وتوسـلت إليـه بقـوة إلـى أن انتهـى بهـا المطـاف إلـى أخـذ

رغيفين، بعض البنّ والزبدة، بل حتى قطعتها من مائة فلس، لأن الرجل كان يقدم سلفاً للأسبوع أيضاً. لم يكن يرغب فيها هي، بل في كاترين: لقد فهمت قصده، حينما أمرها بإرسال بنتها قصد أخذ المؤونة. سوف ننظر في ذلك، سوف تلطمه كاترين، إن هو زفر بالقرب من أنفها.

III

كانت الساعة الحادية عشر تدق بالكنيسة الصغيرة في مجمع المائتين وأربعين، كنيسة من آجر، يأتي إليها القسّ جوار لأداء قدّاس الأحد. في الجوار، داخل المدرسة، المشيدة أيضاً من الآجر، كانت تُسمع أصوات الأطفال المردّدة رغم النوافذ المغلقة دون بَردِ الخارج. المسالك العريضة، المقسّمة إلى حدائق صغيرة متجاورة، تظل مهجورة، بين المربعات السكنية الكبرى الأربعة من البيوت الموحَّدة؛ وتلك الحدائق، التي دمّرها الشتاء، تَبسُط كآبة تربتها الصلصالية التي احدودبت واتسخت بالخُضَر المتأخرة. كان يتم إعداد الحساء والمواقد تنفث دخانها، تظهر امرأة بين فينة وأخرى على طول الواجهات، تفتح باباً وتختفي. من طرف إلى طرف، على الرّصيف المبلَّط، كانت أنابيب المطر النازلة تقطر في براميل، وإن لم تُمطر، من شدة ما كانت السماء المرمّدة محمّلة بالرطوبة. وكانت تلك القرية، المبنية دفعة واحدة وسط الهضبة الشاسعة، التي تحفّ بها طرقات سُود مثل حافّة حِداد، لا تمتلك من أسباب البهجة سوى الأشرطة المنتظمة لقرميدها الأحمر، التي تغسلها الأمطار دون توقف.

عندما رجعت ماهود، اختصرت الطريق حتى تذهب لشراء البطاطس من عند زوجة المشرف، التي كان لا يزال لديها بقية من محصولها. خلف ستار من أشجار الحور هزيلة، الأشجار الوحيدة في تلك الأراضي المنبسطة، توجد مجموعة من البنايات المعزولة، بيوت صُفّت أربعاً فأربع، تحيطها حدائقها. وبما أن

الشركة خصصت ذلك المختبر الجديد لرؤساء العمال، فإن العمال أطلقوا على هذا الركن من القرية اسم مجمع **جوارب الحرير**؛ كما أنهم كانوا ينعتون مجمعهم باسم **سدّد ديونك**، على سبيل السخرية المستملحة من بؤسهم.

«أوف! ها قد وصلنا»، قالت ماهود المحمّلة بالبضاعة، وهي تدفع إلى البيت لينور وهنري، يكسوهما الوحل وسيقانهما ميتة من التعب.

قبالة النار، كانت إستيل تصرخ، تهدهدها **ألزير** بين ذراعيها. وحيث لم يعُد لديها مزيد من السكّر ولا تدري كيف تسكتها، قررت التظاهر بإرضاعها. كانت هذه الخدعة تفلح معها في معظم الأحيان. لكن هذه المرة، مهما أزاحت ثوبها وألصقت لها فمها على صدرها الهزيل، صدر فتاة ذات ثمانية أعوام مصابة بعاهة، فإن الطفلة كانت تعضّ على جلدها بغيظ شديد ولا تحتلب منه شيئاً.

«هاتِها لي»، صاحت الأم، ما أن تخلصت من حملها، «لن تدعنا نبس بكلمة».

حينما أخرجت من صدارها ثدياً ثقيلاً مثل قِربة وتعلّقت الطفلة المُعولة بطرفه، وقد صارت بكماء بغتة، أمكن الحديث في نهاية الأمر. ثم، إن كل شيء كان على ما يرام، إذ كانت ربة البيت الصغيرة قد رعت النار، كنست ورتبت الحجرة. وفي الصمت كان يسمع في الأعلى شخير الجد، الشخير المنتظم نفسه، الذي لم يتوقّف لحظة.

«هذا ما نسميه أغراضاً!»، همست **ألزير** وهي تبتسم للمؤن، «إذا أردتِ، ماما، سوف أعدّ الحساء».

كانت المائدة مزدحمة: رزمة ملابس، رغيفان، بطاطس، زبدة، بُنّ، هندباء، ونصف رطل من جبن الخنزير.

«أوه! الحساء!»، قالت **ماهود** وعليها أمارة التعب، «يجب الذهاب لقطف شيء من الحمّاض واقتلاع بعض الكرّاث. كلا، سوف أعده في ما بعد للرجال. اسلقي بعض البطاطس، كيما نأكلها بشيء من الزبدة. وشيء من البُنّ، هه؟ لا تنسي البُنّ!».

لكن، بغتة، خطرت عل بالها فكرة الفطيرة. نظرت إلى يدي لينور وهنري الفارغتين، اللذين كانا يتعاركان على الأرض، وقد استراحا وقويا مسبقاً. ألم يأكل هذان الشرّهان الفطيرة في الطريق، بمَكر؟ لطمتهما بينما كانت ألزير تسعى لتهدئتها، وهي تضع القدر فوق النار.

«دعيهما، ماما. إن كان من أجلي، فإنك تعلمين بأن الفطيرة لا تهمّني. كانا جائعين، من ذهابهما بعيداً سيراً على الأقدام».

دقّت ساعة منتصف النهار. كانت تُسمع قباقيب الغلمان الخارجين من المدرسة. كانت البطاطس قد طُبِخت، والبنّ قد زُيِّد عليه نصف هندباء تام، وجُعل في المصفاة، يصحبه صوت لحن قطرات كبيرة. أُخلِيَ جانب من المائدة لتأكل فيه الأم وحدها، واكتفى الأطفال الثلاثة بقضم رُكَبهم؛ وطول المدة، التفت الولد الصغير، ذو الشّراهة المكتومة، من غير أن يقول شيئاً، صوب جبن الخنزير الذي كان ورقه المدهون يثير حماسه.

كانت ماهود ترشف قهوتها قليلاً قليلاً، ويداها تحيطان الكأس لتدفئهما، حينما نزل الأب **بونمور**. جرت العادة على أن يتأخر في النهوض، وغذاؤه ينتظره على النار. لكن في ذلك اليوم، أخذ

يزمجر لأنه لم يعُد هناك من حساء. ثم لمّا قالت له كَنّتُه إننا لا نتصرّف دوماً كما نشاء، فأكلَ حبَات البطاطس في صمت. بين فينة وأخرى كان ينهض، يذهب للبصق في الرماد، من باب النظافة؛ ثم وهو مكدّس في كرسيه، كان يلوك الطعام في جوف فمه، مطأطأ الرأس، وعيناه كابيتان.

«آه! لقد نسيت يا ماما، جاءت الجارة».

قاطعتها أمها.

«إنها تزعجني!».

كانت تلك ضغينة مكتومة إزاء زوجة **لوفاك** التي تباكت من البؤس، في اليوم السابق كيما لا تقرضها شيئاً؛ وتعلم بالضبط أنها لم تكن في ضيق، في ذلك الحين، لأن المستأجر بوتلو أجّل لها إيجار منتصف الشهر. في المجمّع، لا يُقرض بيتٌ بيتاً بالقطع.

«هاك! لقد جعلتني أتذكر شيئاً، قالت ماهود، «لُفّي مقدار طحنة بنّ، سوف أحمله إلى **پييرونه**، أنا مدينة لها به منذ يومين».

وحينما أعدّت بنتها اللفافة، أضافت بأنها ترجع على الفور لوضع حساء الرجال على النار. ثم خرجت وهي تحمل إستيل بين ذراعيها، تاركة العجوز بونمور يهرس ببطء حبّات البطاطس، بينما كان لينور وهنري يتعاركان لأكل القشور الساقطة.

وبدل أن تقوم بدورة، فقد قطعت الطريق عبر الحدائق خشية أن تنادي عليها **لوفاكه**. إذ أن حديقتها بجوار حديقة آل **پييرون**؛ وكان في السياج المخرّب الذي يفصل بينهما ثقب يتزاوران من خلاله. وكانت البئر المشتركة هناك، تزوّد أربعة بيوت. قربها،

خلف مجموعة من شجيرات اللّيلك الهزيلة، كان يوجد المُسقّف، وهو مستودع منخفض، يعجّ بالأدوات القديمة وفيه تُربى الأرانب، واحداً تلو الآخر، التي تؤكل أيام الأعياد. دقّت الساعة الواحدة، كانت تلك ساعة القهوة، ولا أحد يظهر عند الأبواب ولا في النوافذ. وحده عامل من عمال الردم كان يقلّب بقعة خضراء دون أن يرفع رأسه. لكن عندما وصلت ماهود بإزائه، على الطرف الثاني من مجموع البنايات، استغربت لما رأت أمام الكنيسة، رجلاً وسيدتين. توقفت لحظة عين، لقد تعرّفت عليهما: كانت تلك السيدة **إينبو** ترافق ضيفيها في زيارة للمجمّع، السيد المزوّق والسيدة ذات المعطف الفرو.

«أوه! لمَ تكبّدتِ هذا العناء؟»، صاحت **پييرونه** لمّا أعادت إليها ماهود بُنّها، «لا داعي للعجلة».

كانت تبلغ ثمانية وعشرين عاماً، وتعتبر أجمل امرأة في المجمّع، سمراء، بلهاء، العينان واسعتان، والفم ضيق؛ ولعوب مع كل هذا، نظيفة نظافة قطة، ظلّ صدرها جميلاً، لأنها لم ترزق بولد. أمها، **برولي**، أرملة حفّار مات في المنجم، بعد أن بعثت ببنتها للعمل في مصنع وهي تقسم ألا تتزوج أبداً من عامل فحم، ظلت ساخطة أبداً منذ أن تزوجت تلك في سن متأخرة **پييرون**، أرمل أيضاً كانت له صبية تبلغ ثمانية أعوام من عمرها. ومع ذلك كان الزوجان سعيدين جداً بعيشتهما، وسط الثرثرات، والقصص المتداولة عن تواطؤ الزوج وعن عشاق الزوجة: لا دين لهما، يطعمان اللحم مرّتين في الأسبوع، منزل مرتب بكل ذلك القدر من الجلاء إذ يمكن للمرء أن يرى صورته في المقالي. وزيادة في

الحظ، بفضل الحماية، سمحت لها الشركة ببيع الحلوى والكعك، التي كانت تعرض قواريرها على لوحَين، خلف زجاج النافذة. وكان الكسب يصل إلى ستة أو سبعة فلوس في اليوم، وأحياناً اثنا عشر فلساً يوم الأحد. ووسط هذه السعادة لم يكن من أحد ليصرخ سوى الأم برولي، المحبوسة بصفتها ثائرة عجوز، التي عليها الانتقام لموت زوجها ضداً في رؤساء العمال، والصغيرة ليدي التي كانت تتلقى حيوية الأسرة على هيئة صفعات متواترة بإفراط.

«كم إنها سمينة مقدماً!»، استرسلت پييرونه، وهي تبتسم لإستيل.

«آه! يا للوجع الذي تسببه، لا تحدثيني عنه!»، قالت ماهود، «أنت سعيدة بأنك من غير أولاد. يمكنك أن تكوني نظيفة، على الأقل». رغم أن كل شيء في بيتها كان مرتباً، وأنها كانت تتظف كل سبت، فقد رمت ببصر ربة بيت حسودة إلى تلك الحجرة المضاءة بكل ذلك القدر، والتي كان فيها شيء من الغنج، مزهريات مذهبة فوق الصّوان، مرآة وثلاث لوحات نقوش في أطرها.

في تلك الأثناء، كانت پييرونه منهمكة في شرب قهوتها، لوحدها، فالجميع كان في حفرة المنجم.

«ستشربين فنجاناً معي»، قالت.

«لا، شكراً، شربتُ فنجاني وخرجتُ».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«وما تأثير ذلك؟».

في حقيقة الأمر، لا شيء. وشربتا معاً ببطء. بين قوارير الحلوى والكعك، توقفت نظرة كل منهما عند البيوت المواجهة

التـي تصطـف فـي نوافذهـا سـتائرها الصغيـرة التـي تخبـر درجـة بياضهـا، زيـادة أو نقصانـاً، عـن فضائـل ربّـات البيـوت. سـتائر آل **لوفاك** كانـت وسـخة جـداً، خِـرَق حقيقيـة، يبـدو عليهـا أنهـا مسـحت قـاع القـدور.

«من الممكن العيش في مثل هذه القذارة!»، همست بييرونه.

وعليـه، انطلقـت ماهـود ولـم تتوقـف. لـو كان لديهـا مسـتأجر مثـل **بوتلـو** هـذا، لكانـت هـي مـن يتمنـى تدبيـر بيتهـا! عندمـا يحسـن المـرء التصـرف، فـإن مسـتأجراً يصيـر شـأناً رائعـاً. فحسـب، لا يجـب مضاجعتـه. ثـم، الـزوج يشـرب، يضـرب زوجتـه، ويتعقّـب مغنيـات المقاهـي – المراقـص فـي مونسـو.

علـت أمـارة النفـور وجـه بييرونـه. تلـك المغنيـات تسـبب جميـع الأمـراض. كان هنـاك واحـدة فـي جوازيـل، أصابـت بدائهـا منجمـاً.

«ما أتعجب له، هو أنك سمحت لابنك بأن يرافق بنتهم».

«آه! أجـل، فلتمنعـي ذلـك إذن! حديقتهـم تلقـاء حديقتنـا. فـي الصيـف كان زكاري دومـاً رفقـة فيلوميـن خلـف شـجيرات اللّيلـك، لـم يكـن يحرجهمـا ضيـق المُسـقّف بتاتـاً، إذ لـم يكـن فـي الوسـع جلـب المـاء دون مباغتتهمـا».

كانـت تلـك القصـة المشـتركة لاختـلاط النـاس فـي المجمّع، فسـاد طبـاع الأولاد والبنـات معـاً، الارتمـاء فـي حضـن بعـض، كمـا يقولـون، علـى سـقف المُسـقّف المنخفـض والمائـل مـا أن يهبـط الليـل. كل عامـلات النقـل كـنّ يحملـن بأطفالهـن البكـور هنـاك، حينمـا لا يتكبـدن عنـاء فعـل ذلـك فـي ريكيـار أو فـي الحقـول. ولـم تكـن لذلـك أيـة عاقبـة، إذ يتـم الـزواج بعـد ذلـك، وحدهـن الأمهـات مـن كان

يغضب، حينما يبدأ الأولاد قبل الأوان، لأن ولداً متزوجاً لا يجلب للأسرة أي مكسب.

«لو كنتُ مكانك، لفضّلتُ إنهاء الأمر»، استرسلت پيپرونه، «لقد جعلها زكاري ولدك حبلى مرّتين، الأفضل أن يذهبا بعيدا للتزوج. في كل الأحوال، لقد ذهب المال».

مدّت ماهود يديها وهي تستشيط غضباً.

«أنصتي إلي: أنا ألعنهما، لو تزوّجا. ألا يدين لنا زكاري بالاحترام؟ لقد كلّفنا الكثير، أليس كذلك وعليه، يجب أن يردّ لنا الدين قبل أن يثقل نفسه بزوجة. ماذا سيحل بنا، قولي؟ إذا اشتغل أطفالنا على الفور لأجل الآخرين؟ الأحسن أن نموت إذن!».

في أثناء ذلك، هدأ روعها.

«أتكلم على العموم، سوف نرى لاحقاً. إن بُنَّك قوي على نحو ظريف: إنك تضعين فيه ما يجب».

وبعد ربع ساعة من قصص أخرى، هرعت، وهي تصيح بأن حساء رجالها لم يُهيّأ بعد. في الخارج، كان الأطفال عائدين إلى المدرسة، وبعض النسوة بارزات عند الأبواب، يتابعن السيدة **إينبو** وهي تسير على طول إحدى الواجهات وتشرحُ بإصبعها عن المجمّع لضيفيها. كانت هذه الزيارة قد أخذت تثير الحركة في القرية. توقف رجل الردم لحظة عن التقليب، وهربت من فزعها دجاجتان حائرتان في الحدائق.

ولما كانت ماهود عائدة عثرت في لوفاكه الخارجة من أجل الإمساك بالدكتور **فانديرهاغن**، طبيب الشركة، رجل قصير القامة مستعجل، الذي تهلكه المشاغل، والذي كان يفحص الناس وهو يجري.

«سيدي، لم أعد أخرج، أشعر بالألم في كل جسمي. يجب أن نتحدث عن الأمر مع ذلك»، قالت له.

كان يرفع الكلفة عند مخاطبتهن جميعاً، أجاب دون أن يتوقف.

«دعيني وشأني! إنك تسرفين في شرب القهوة».

«وزوجي»، قالت ماهود بدورها، «يجب أن تأتي لتراه. يعاني دوماً من أوجاع في ساقيه».

«أنتِ من يؤذيه، دعيني وشأني!».

ظلت المرأتان بلا حركة، تنظران لظهر الدكتور الهارب.

«هيا ادخلي»، استأنفت لوفاكه، بعد أن تبادلت مع جارتها هزة كتفين محبطة، «تعلمين أن هناك أخباراً جديدة. وستشربين حقاً قليلاً من القهوة. إنها طازجة».

ماهود التي كانت تعاند، أضحت بلا قوة. هيا بنا! قطرة مع كل حال، حتى لا تكون فظة معها. ثم دخلت.

كانت الحجرة سوداء من شدة القذارة، البلاط والجدران ملطّخة بالدسم، الصوان والمائدة لزجان من الوسخ؛ ونتانة بيت مهمل تأخذ بالخناق. قرب النار، المرفقان فوق المائدة، الأنف غارق في صحنه، كان **بوتلو**، الذي لا يزال شاباً نسبة إلى سنيه الخمس وثلاثين يشرف على إنهاء ما تبقى من لحم مسلوق، بتمام جسمه، جسم فتى سمين، وديع؛ بينما الصغير **آشيل**، الواقف حذاءه، وهو بِكُر فيلومين، المقبل على سنته الثالثة، ينظر إليه بتوسل وتكتم حيوان شره. والمستأجر، العطوف بلحيته الكثة السمراء، يحشو جوف فم الصبي بقطعة لحم بين فينة وأخرى.

«انتظر أن أضع فيه السكّر»، قالت لوفاكه، وهي تضع السكر الخام مقدماً في إناء القهوة.

هـي، التـي تكبـره بسـتة أعـوام، كانـت دميمـة، واهنـة، يفيـض ثدياهـا علـى بطنهـا وبطنهـا علـى فخذيهـا، لهـا خطـم مسـطّح بـه زغـب مائل إلـى الرمـاد، شـعرها أشـعث على الـدوام. اتخذهـا طبعـاً، دون تقشـيرها مثلمـا هـو الحـال مـع حسـاءها حيـث كان يجـد بـه شَـعراً، ومـع فراشـها الـذي كانـت لُحُفـه تسـتعمل مـدة ثلاثـة أشـهر. كانـت تدخـل ضمـن المعـاش، وزوجهـا يحـب أن يكـرر بـأن المحاسـبة الطيبـة تديـم الصداقـة الطّيبـة.

«وعليـه»، تابعَـت الحديـث، «كان ذلـك لأخبـرك بـأن هنـاك مـن رأى أمـس پييرونـه تحـوم حـول **جوارب الحريـر**. كان الرجـل المعلـوم ينتظرهـا خلـف محـل راسـنور، وانصرفـا سـريعاً علـى طـول القنـاة. هـه؟ هـذا عمـل طاهـر، امـرأة متزوجـة!».

«والسـيدة العـذراء!»، قالـت ماهـود، «قبـل الـزواج منهـا كان پييـرون يقـدّم الأرانـب لرئيـس العمـال، الآن إعـارة زوجتـه أقلّ تكلفـة عليـه».

أطلـق بوتلـو ضحكـة عظيمـة ورمـى لـبّ خبـز مسـكّر فـي فـم آشـيل. وفرغـت المرأتـان مـن إراحـة نفسـيهما علـى حسـاب **پييرونه**، اللعـوب، ليسـت أجمـل مـن غيرهـا، لكنهـا مشـغولة بالعنايـة بمسـامّ بشـرتها، بغسـل جسـمها ودلكـه بالمرهـم. فـي نهايـة الأمـر، ذلـك شـأن الـزوج، إذا كان يحـب ذل الرّغيـف. هنـاك رجـال مـن شـدة طموحهـم، مسـتعدون لمسـح أدبـار رؤسـائهم، مقابـل أن يسـمعوا منهـم كلمـة شـكر. ولـم يقاطعهمـا سـوى مجـيء جـارة كانـت تعيـد رضيعـة تبلـغ تسـعة أشـهر مـن عمرهـا، **ديزيـري**، صغـرى فيلوميـن: لأنهـا تتغـذى فـي قاعـة الغربلـة، فقـد كانـت تتفـق مـع مـن يحضـر لهـا الصغيـرة هنـاك، وترضعهـا وهـي جالسـة علـى الفحـم، هنيهـة.

«صغيرتي أنا، لا أستطيع فراقها دقيقة واحدة، إنها تصرخ في الحال»، قالت ماهود وهي تنظر إلى إستيل التي نامت بين ذراعيها.

لكنها لم تفلح البتة في تجنّب التحذير الذي تراه منذ لحظة في عيني لوفاكه.

«هيا قولي، يجب مع ذلك التفكير في إنهاء الأمر».

بداية، ودون الحاجة إلى الحديث عن الأمر، اتفقت الأمّان على عدم عقد الزواج. إذا أرادت أم زكاري أن تحصل لأطول مدة ممكنة على أجرة ابنها كل منتصف شهر، فإن أم فيلومين كانت تعتريها سورة غضب من فكرة التخلي عن أجر بنتها. لا شيء كان يدعو للعجلة، فالثانية فضّلَت حضانة الصغير ما دام هناك طفل واحد؛ لكن منذ أن بدأ يكبر ويأكل الخبز، وجاء طفل ثان، فقد كانت عرضة للخسارة، فهي تدفع بشدة إلى الزواج، بصفتها امرأة لا تريد أن تصرف على ذلك من مالها. تابعت كلامها.

«لقد استقسم زكاري سهمه، لن يوقف ذلك شيء، هيا، إلى متى؟».

«فلندع ذلك للأيام الجميلة»، أجابت ماهود، محرَجة، «هذه الأمور تسبّب المتاعب! كما لو أن في الإمكان انتظار الزواج ليكونا معاً! ها كلمة شرف مني! سأخنق كاترين إن علمتُ أنها ارتكبت تلك الحماقة».

هزّت لوفاكه كتفيها.

«دعي عنك ذلك، سوف تفعل مثل الأخريات!».

كان بوتلو هادئاً هدوء رجل في بيته، فتّش الصوان، بحثاً عن خبز. كانت بعض البطاطس والكرّاث مهملة على ركن من المائدة،

نصف مقَشَّرة، ثم شرع في تقشيرها وتركها عشر مرّات، وسط أحاديث النميمة المتواصلة. وكانت المرأة قد عادت لتقشيرها آنفاً عندما تركتها من جديد كيما تثبت قبالة النافذة.

«ما هذا؟ هاك! إنها السيدة إينبو مع بعض الناس. ها إنهم يدخلون عند پييرونه».

ومن ثم، أخذتا معاً في التشنيع بپييرونه. أوه! لن يتوقف ذلك أبداً، ما أن تعقد الشركة زيارة بعض الناس للمجمّع، حتّى يتم أخذهم رأساً إلى بيت تلك، لأنه نظيف. لا شك في أنهم لا يروون لهم القصص مع رئيس العمال. في الوسع أن يكون المرء حقاً نظيفاً، حينما يكون لديهم عشّاق يكسبون ثلاثة آلاف فرنك، يستفيدون من السكن والتدفئة، بصرف النظر عن الهدايا. إذا كان نظيفاً فوق، فلم يكن نظيفاً تحت، بالجزم. وطول الوقت الذي لبث فيه الضيوف بمواجهتهما، لم تكفّا عن الثرثرة.

«ها هم يخرجون»، قالت لوفاكه، «في آخر المطاف، إنهم يطوفون. هيا انظري، عزيزتي، أظن أنهم ذاهبون إلى بيتك».

استبدّ الخوف بماهود. من يدري هل قامت ألزير بمسح المائدة. وحساؤها، هي أيضاً، الذي لم يكن جاهزاً! تمتمت عبارة «إلى اللقاء» وانطلقت، مسرعة، عائدة، دون أن تلتفت بنظرها.

لكن كل شيء كان يلمع. كانت ألزير المُجِدّة وقطعة قماش أمامها، قد أخذت في إعداد الحساء، لمّا رأت أن أمها لم تعُد. اقتلعت آخر كراث في الحديقة، وقطفت الحمّاض، وكانت تغسل الخضر تحديداً بينما، على النار، في قدر كبير يسخن الماء لطهارة الرجال عند عودتهم. كان هنري ولينور هادئَين بالصدفة،

ومشغولين كثيراً بتمزيق كتاب حوليات قديم. والأب **بونمور** يدخن غليونه في صمت.

وفيما كانت ماهود ترمي بأنفاسها، طرقت السيدة **إينبو** الباب.

«هل تسمحين، أليس كذلك؟ سيدتي الطّيبة».

مديدة القامة، شقراء، مثقلة قليلاً بنضج الأربعين البديع، كانت تبتسم بجهد اللطف، دون أن تظهر كثيراً خشيتها من لطخ ثوبها الحريري بلون الرصاص، متلحفة بمعطف من القطيفة السوداء.

«تفضلوا، تفضلوا»، كانت تردد لضيوفها، «إننا لا نزعج أحداً. هه؟ والمكان نظيف أيضاً. وهذه السيدة الطيبة أم لسبعة أطفال! جميع بيوتنا هكذا. كنت أشرح لكم بأن الشركة تكري لهم المنزل مقابل ستة فرنكات في الشهر. حجرة كبيرة في الطابق السفلي، غرفتان فوق، قبو وحديقة».

السيد المزوّق والسيدة ذات المعطف الفرو، القادمان صباحاً من قطار باريس، كانا يفتحان أعينهما مع سكون، وعلى وجه كل منهما ملمح الذهول من تلك الأشياء المباغتة التي تُغرّبُهما.

«وحديقة»، ردّدت السيدة، «لكن قد يعيش فيه المرء، إنه ساحر».

«إنا نعطيهم الفحم بالقدر الذي يزيد عن الحاجة»، واصلت السيدة إينبو، «يزورهم طبيب مرّتين في الأسبوع؛ وحينما يهرمون، يحصلون على معاش، رغم أننا لا نقتطع شيئاً من الأجور».

«إنها بلدة مثل بلدة طيبة، بلدة النعيم حقاً!»، همس الرجل، جذلاً.

هرعت ماهود لتقدّم كراسي. رفضت السيدتان. لقد أصاب السيدة إينبو الكلل مسبقاً، هي السعيدة للحظة بالتسلي بدور

مروّض الحيوانات، في ضجر منفاها، لكنها كرهت بسرعة رائحة البؤس المنفِّرة، رغم نظافة البيوت المختارة التي كانت تجازف بدخولها. فضلاً عن ذلك، لم تكن تردّد سوى أطراف جمل مسموعة، دون أن تعبأ أبداً بشعب العمال ذاك الكادح والمعذّب بالقرب منها.

«يا لجمال الأطفال!»، همست السيدة التي كانت تجدهم بشعين، برؤوسهم المفلطحة، منتفشة الشعر الذي له لون التبن.

وكان على ماهود أن تذكر لهم سنّ كلّ منهم، وسُئِلت أيضاً عن إستيل، من باب الأدب. باحترام، سحب الأب بونمور غليونه من فمه؛ لكن ذلك لم يمنع من كونه ظلّ موضوع قلق، وقد دُمِّر إلى ذلك الحد بأعوامه الأربعين في جوف المنجم، الساقان متصلبتان، وكومة عظام محطَمة، الوجه قاتم؛ وبما أن نوبة سعال حادة ألمّت به، فقد فضّل الخروج ليبصق في العراء، ظنّاً منه أن بصاقه الأسود سوف يحرج الناس.

ظفرت ألزير بالنجاح كله. يا لها من ربة بيت صغيرة ظريفة، بممسحتها تلك! وفازت الأم بالثناء لأن لها فتاة صغيرة بهذا القدر من الكفاءة نسبة إلى سنّها. ولم يتحدث أحد عن الحدبة، وكانت نظرات الشفقة ملؤها الحرج تعود دوماً صوب المخلوق المعاق المسكين.

«الآن»، ختمت السيدة إينبو بالقول، «إذا سُئلتما عن مجمّعاتنا، في باريس، يمكنكما الإجابة. ليس هناك سكينة أكثر من هذه أبداً، طباع أبوية، كلهم سعداء وبصحة جيدة كما تريان، مكان ينبغي لكما القدوم إليه لاسترداد عافيتكما قليلاً، بفضل الهواء العليل والهدوء».

«هذا عجيب، عجيب!»، صاح الرجل في هبّة حماس أخيرة.

وخرجوا وقد علت وجوههم أمارة الفتنة حين الخروج من معرض للعجائب، وظلت **ماهود** التي كانت ترافقهم، عند العتبة، بينما هم منصرفون بلطف ويتكلمون بصوت عال. امتلأت الأزقة، كان عليهم تجاوز جماعات من النساء أثارهن خبر زيارتهم الذي تناقلنه بيتاً لبيت.

وكانت لوفاكه في تلك الأثناء تحديداً أمام بيتها، أوقفت پيرونه التي هبّت للمكان مستطلعة. أظهرتا معاً دهشة خبيثة. حسن! ماذا إذن، كان هؤلاء الناس يقصدون المبيت عند آل ماهو؟ مع ذلك، لم يكن الأمر مضحكاً بكل ذلك القدر.

«لا مال لهم دوماً، رغم ما يكسبون! والسيدة العذراء! تلك حال الخبثاء!».

«علمتُ للتو أنها ذهبت هذا الصباح تتوسل أصحاب **پيولين**، و**ميغرا** الذي رفض منحها خبزاً، أعطاها إياه. نعلم كيف يأخذ ثمنه، **ميغرا**».

«منها هي، أوه! كلا! ذلك يتطلب الشجاعة. إنه يأخذه من **كاترين**».

«آه! اسمعي إذن، ألم تتجرأ منذ حين على القول بأنها ستخنق **كاترين** لو سمحت بذلك! كما لو أن شاڤال الضخم، منذ مدة، لم يطأها في المُسقّف!».

«صه! ها هم الناس».

لذلك، اكتفت لوفاكه وپيرونه، والسكينة على محيا كلٍّ منهما، بلا حبّ استطلاع وقح، بمتابعة خروج الزّوار، بمؤخر العين.

ثم أومأتا بهمّة إلى **ماهود** التي كانت لا تزال تحمل إستيل بين ذراعيها والتي لبّت دعوتهما. وأخذت الثلاثة، وهنّ بلا حركة يتابعن إدبار السيدة **إينبو** وضيفيها، بملابسهم الجميلة على ظهورهم. وحينما صار هؤلاء على مبعدة زهاء ثلاثين خطوة منهن، عاد القيل والقال، بحدّة مضاعفة.

«إنهم يحملون أموالاً فوق أجسادهم، قيمتها أغلى منهم، على الأرجح».

«آه! مؤكّد! لا أعرف الثانية، لكن التي هي من هنا، لن أدفع فيها أربعة فلوس مهما كانت سمينة. تَرُوجُ قصصٌ».

«هه؟ أية قصص؟».

«يُزعم أن لها رجالاً إذن! أولاً المهندس».

«ذلك الصُّغَيّر النّحيف! أوه! إنه مفرط الصِّغَر، لدرجة أنك قد لا تجده بين الملاحف».

«وما دخل ذلك، إن كان الأمر يسلّيها؟ أنا لا أصدق، حين أرى سيدة تبدي ملامح النفور ولا يبدو عليها الرضا أينما كانت. انظري كيف تدور عجيزتها، وكأنها تحتقرنا جميعاً. هل ذلك أمر سليم؟».

كان المتنزّهون ينصرفون بالخطى الوئيدة نفسها، يتكلمون دوماً، حينما وقفت في الطريق عربة أمام الكنيسة. نزل منها رجل في الثامنة والأربعين تقريباً، مضيّق على نفسه داخل معطف أسود، بشرته سمراء جداً، الوجه نافذ ومقبول.

«الزوج!»، همست لوفاكه، خافضة من صوتها كما لو أنه كان يستطيع سماعها، وقد استبدت بها المخافة التراتبية التي كان

المدير يوحي بها لعمّاله البالغ عددهم عشرة آلاف عامل. «لكن مع ذلك، الحقّ أن له مظهر زوج ديّوث مغلوب، ذلك الرجل!».

في ذلك الآن، أضحى المجمّع بأكمله خارجاً. زاد حبّ استطلاع النساء، تقاربت الجماعات، والتأمت في حشد؛ بينما عصبة من الصبيان لا يزال المخاط على وجوههم كانت تتسكّع على الأرصفة بأفواه فاغرة. رأى الناس لحظةً رأس المعلم الشاحب الذي كان يقف بدوره على أطراف قدميه خلف سياج المدرسة. وسط الحدائق، أبقى الرجل المستغرق في قلب التراب قدمه فوق مجرفته، وعيناه تحملقان. وتضخم همس الأقاويل شيئاً فشيئاً وسُمِع له صوت خشخشة، أشبه بتحريك الريح لأوراق يابسة.

أمام بيت لوفاكه على الأخص تضخَّم الجمع. تقدّمت امرأتان، فعشرة نساء، ثم عشرون امرأة. بحذر، لزمت پيرونه الصمت ما دام هنالك عدد مفرط من الآذان. واكتفت ماهود أيضاً بالنظر، وهي واحدة من بين الأشد رزانة؛ وكيما تسكت إستيل، التي صحت وصرخت، فقد أخرجت بهدوء في وضح النهار ثديها الذي هو لبهيمة مرضعة حقيقية، المتدلي، المتدحرج، وكأنه ممدّد بمنبع لبنه المتواصل. حينما أجلس السيد إينبو السيدتين داخل العربة التي انطلقت مسرعة صوب مارشيين، وقع انفجار أصوات ثرثرة خلفهم، كانت جميع النساء يلوحن بأيديهن ويتحدثن وجهاً لوجه وسط جلبة قرية نمل ثائرة.

لكن دقّت الساعة الثالثة. كان عمال الردم قد انصرفوا. **بوتلو** والآخرين. بغتة، عند منعطف الكنيسة، ظهر أول عمال الفحم العائدين من المنجم، الوجه مُسوَد، الملابس مبلّلة، متشابكة

أذرعهم، وظهورهم منفوخة. حينذاك وقعت فوضى بين النساء، ركضن جميعاً، رجعن جميعاً إلى بيوتهن، وقد عمّهن فزع ربّات بيوت جعلهن الإفراط في شرب القهوة والخوض في ما لا طائل وراءه يقعن في الغلط. ولم تكن تسمع سوى تلك الصيحة الحيرى، المضخمة بالخصام:

«آه! إلهي! وحسائي! وحسائي الذي لم يجهز بعد!».

IV

حينما رجع **ماهو**، وقد ترك إتيان عند راسنور، وجد كاترين، زكاري وجونلان جالسين إلى المائدة وهم يكملون حساءهم. عند العودة من المنجم، من شدة ما كان الجوع يستبد بالمرء فإنه كان يأكل بملابسه المبلّلة حتى قبل أن يغتسل؛ ولم يكن أحد ينتظر، إذ كانت المائدة تظل جاهزة من الصباح إلى المساء، حيث هناك دوماً أحد ما، يبتلع نصيبه، حسب متطلبات الشغل.

من الباب، رأى **ماهو** المؤن. لم يقُل شيئاً، لكن وجهه الحائر أضاء. طول الصبيحة، أربكه فراغ الصّوان والبيت من دون بنّ ولا زبدة، عاوده ذلك في صورة ضربات موجعة بينما كان يحفر العِرق، وهو يختنق في جوف المقلع. كيف تمكّنت المرأة من فعل ذلك؟ وماذا سوف يحل بهم، لو أنها رجعت صفر اليدين؟ ثم، ها قد توفر من كل شيء نصيب. سوف تقصّ عليه تفصيل ذلك لاحقاً. كان يضحك من الارتياح.

أصلاً، كانت قد نهضت كاترين وجونلان، شاربين قهوتهما وقوفاً؛ بينما زكاري، الذي لم يكفهِ الحساء في ملء بطنه جيداً، كان يقطع شريحة خبز عريضة ويغطيها بالزبدة. كان يرى مليّاً جبن الخنزير في الصحن؛ إلا أنه لم يقربه، فاللحم كان لأجل الأب، حينما لا يتوفر منه سوى قطعة تكفي شخصاً واحداً. كان الجميع قد أنزلوا حساءهم بالعبّ من الماء البارد، المشروب الطيب الصافي لنهايات منتصف الشهر.

«ليس لدي جعّة»، قالت **ماهود**، حينما جلس الأب بدوره، «لقد أردت ادّخار بعض المال. لكن إن كنت ترغب في ذلك، يمكن أن تذهب الصغيرة ركضاً لابتياع نصف لتر منها».

كان ينظر إليها، مستبشر الوجه. كيف؟ كان لها أيضاً بعض المال؟

«لا، لا»، قال، «لقد شربت قدحاً، الحالة طيبة».

وأخذ ماهو يبتلع، بلعقات وئيدة، كسرة الخبز، البطاطس، الكراث والحمَّاض، وقد غطّت الوعاء الذي كان يستعمله صحناً. وكانت ماهود تساعد ألزير على ألا ينقصه شيء، دون أن تترك إستيل، كانت تقرّب منه الزبدة والقديد، وتعيد القهوة إلى النار حتى تسخن جيداً.

في تلك الأثناء، قرب النار، كان الغسل قد بدأ، في نصف برميل، جُعِل مغسلاً. ولأنها أول من سيستحم، كانت **كاترين** قد ملأته بماء فاتر؛ ثم تجرّدت من ثيابها بهدوء، ونزعت بُخنُقها، معطفها وسروالها، بل حتى قميصها، هي المعتادة على ذلك منذ بلوغها سن الثامنة، ولأنها كبرت دون أن ترى في ذلك عيباً. التفتت فحسب، بطنها للنار، ثم فركت لحمها بشدة بالصابون الأسود. لم يكن أحد ينظر إليها، بل حتى لينور وهنري لم يعُد لهما حبّ استطلاع لمعرفة كيف كانت خِلقتها. حينما نظُفَت، صعدت السلم وهي عارية تماماً تاركة قميصها المبلّل وملابسها الأخرى مكوّمة على الأرض. لكن شجاراً نشب بين الأخوين: إذ أسرع **جونلان** للقفز في المغسل، بذريعة أن **زكاري** لم يكن قد فرغ من أكله بعد؛ وقام هذا الأخير بدفعه والمطالبة بدوره صارخاً

بأنه إن كان لطيفاً بما في الكفاية ليسمح لأخته بالاستحمام أولاً، فإنه لم يكن يرغب في غُسالة الصبيان لا سيّما بعد أن دخل هذا الأخير إلى الماء أضحى من الممكن أن تُعبّأ به كل محبرة في المدرسة. وانتهى بهما المطاف إلى أنهما اغتسلا معاً، وقد التفتا أيضاً نحو النار، بل تعاونا، وفركا ظهر كليهما. ثم، شأن أختهما، اختفيا في الدرج، عاريين تماماً.

«يا للفوضى التي يخلّفونها!»، كانت ماهود تغمغم وهي تلتقط الملابس من الأرض بغية تجفيفها، «**ألزير**، امسحي قليلاً بالمنشفة، هه؟».

لكن خبطاً من الجانب الآخر للحائط قطع كلامها. كانت تلك شتائم رجل وبكاء امرأة، دوس معركة، تصحبه ضربات مكتومة لها جرس يشبه صفق يقطين أجوف.

«**لوفاكه** تحصل على رقصتها»، لاحظ **ماهو** بهدوء، وهو مستغرق في مسح قاع وعائه بالملعقة، «هذا مضحك، زعم **بوتلو** أن الحساء كان جاهزاً».

«آه! أجل، جاهزا!»، قالت **ماهود**، «لقد رأيت الخضر فوق المائدة، لم تُقشَّر حتى».

ازدادت الصيحات، وحدثت دفعة رجَّت الحائط، ثم عمّ صمت عظيم. حينذاك، ختم عامل المنجم وهو يبلع ملعقة أخيرة، وعليه أمارة العدالة الساكنة:

«إذا لم يكن الحساء جاهزاً، فذلك مفهوم».

وبعد أن شرب كأساً ملآنة من الماء، هجم على جبن الخنزير. كان يقطع منه قطعاً مربَّعة، ينقرها بطرف سكينه ويأكلها بخبزه،

ولا يستعمل الشوكة. لا كلام حينما كان الأب يأكل. هو بنفسه كان له جوع صامت، لم يتعرف على قديد **ميغرا** المعتاد، لا بد أن ذلك جاء من مكان آخر؛ ومع ذلك لم يوجّه لزوجته أي سؤال. سأل فحسب إن كان الجدّ قد خرج مُقدَّماً لنزهته المعتادة. ثم عمّ الصمت من جديد.

لكن رائحة اللحم جعلت لينور وهنري يرفعان رأسيهما، هما اللذان كانا يلهوان برسم جداول على الأرض من الماء المتدفق، وجاءا معاً للوقوف قرب الأب، الأصغر أمامه. كانت عيونهما تتبع كل قطعة، ينظران إليها والرجاء يملؤهما تنطلق من الصحن ويريانها والسخط ظاهر عليهما وهي تلجُ فمه. ومع المدة، لحظ الأب الشهية النهمة التي كانت تجعلهما شاحبين وتبلّل شفتيهما.

«هل أكل الطفلان منه؟»، سأل.

وبما أن زوجته كانت متردّدة، قال:

«تعرفين، لا أحب هذا الظلم. إن ذلك يُذهِب شهيتي، حينما يكونان هنا، حولي، يتوسلان قطعة».

«أجل، لقد أكلا منه!»، صاحت، غاضبة، «آه طيب! لو سمعتهما سوف تعطيهما نصيبك ونصيب الآخرين، سيملآن بطنيهما حتى يهلكا. أليس كذلك يا **ألزير**، ألم نأكل جميعاً شيئاً من الجبن؟».

«بالتأكيد، ماما»، أجابت الحدباء الصغيرة، التي كانت في تلك الظروف، تكذب بثقة في النفس مثل أي شخص راشد.

ظلت لينور وهنري بلا أدنى حركة من شدة التأثر، متذمران من كذبة مماثلة، هما اللذان يتم جلدهما إن لم يقولا الحقيقة. امتلأ قلباهما الصغيران حسرة، واستبدّت بهما رغبة كبيرة في

الاحتجاج، والقول بأنهما لم يكونا هناك حينما أكل الباقون منه.

«هيا انصرفا!»، كانت تردّد الأم، وهي تطردهما نحو الطرف الثاني من الحجرة، «يجب أن تخجلا من التكالب دوماً على صحن أبيكما. وإذا كان هو وحده من يحصل عليه، ألا يشتغل هو؟ بينما أنتما، أيها الوغدان، لا تجيدان حتى الآن سوى التبذير. آه! أجل، وأنتما تزدادان سمنة!».

دعاهما ماهو مرة أخرى. أجلس لينور على فخذه اليسرى، وهنري على فخذه اليمنى؛ ثم أنهى جبن الخنزير وهو يتعشى معهما. لكل واحد نصيبه، كان يقطع لهما قطعاً صغيرة. وكان الطفلان يلتهمانها، فرحَين.

حينما انتهى، قال لزوجته:

«لا، لا تصبّي لي القهوة الآن. سوف أذهب لأغتسل أولاً. وساعديني على التخلص من هذا الماء القذر».

أمسكا عروة المغسل وأفرغاه في الجدول أمام الباب، عندما نزل جونلان بملابس جافة، سروال وسترة صوف فضفاضين بإفراط، وقد تهرأت وحالت ألوانها على بدن أخيه. لما رآته ينطلق بمكر عبر الباب المفتوح، أوقفته أمه:

«إلى أين؟».

«هناك».

«هناك، أين؟ اسمع، سوف تذهب لقطف بقلة الخس البرّي لأجل هذا المساء. هه! هل سمعتني؟ إذا لم تحضر الخضرة، سوف أتدبر أمرك».

«طيّب! طيّب!».

انصرف جونلان، يداه في جيبيه، يجرّ نعليه، ويموج في مشيه بوركيه النحيلين لقزم في العاشرة من عمره، مثل عامل منجم عجوز. وبدوره نزل زكاري، أكثر أناقة، الصدر مضموم في قميص من صوف أسود مخطط بالأزرق. صاح أبوه مذكراً إياه بألّا يتأخر في العودة؛ ثم خرج وهو يومئ برأسه، غليونه بين أسنانه، دون أن يحير جواباً.

من جديد، مُلئ المغسل بالماء الفاتر. بتؤدة، كان ماهو قد نزع سترته مسبقاً. وبنظرة خاطفة منه، أخذت ألزير كلّاً من لينور وهنري للعب في الخارج. لم يكن الأب يحبّ الاستحمام في حضور أسرته، مثلما يتم ذلك في الكثير من بيوت المجمّع. كما أنه لم يكن يعاتب أحداً، كان يقول فحسب إن من الأحسن أن يلهو الأطفال معاً في الماء.

«ماذا تصنعين فوق إذن؟»، صاحت ماهود من خلال الدرج.

«إني أخيط لبستي التي مزقتُها أمس»، أجابت كاترين.

«حسن، لا تنزلي، والدك يستحم».

وعليه، ظلّ ماهو وماهود لوحدهما. وقرّرت المذكورة وضع إستيل على الكرسي التي كان، يا للعجب، قرب النار، لا تصرخ وترمي صوب والديها بنظرات تائهة لمخلوقة صغيرة لا فكر لها. هو، عارٍ تماماً، مقرفص عند المغسل، غطس رأسه أولاً، المفروك بذلك الصابون الأسود الذي يكشط استعماله الدائم لون الشعر ويصفره. ثم دخل إلى الماء، طلّى صدره، بطنه، ذراعيه، فخذيه، وفركها بقبضتيه بقوة. كانت زوجته، الواقفة، تنظر إليه.

«هيا قل»، بادرته، «لقد رأيتُ نظرتك حينما وصلتَ، كنت مهموماً، هه؟ انبسطت أساريرك بمرأى تلك المؤن. تصوّر أن صاحبَي بيولين البرجوازيين لم يدفعا لي بفلس واحد. أوه! إنهما لطيفان، لقد ألبسا الصغيرين، وكنت أشعر بالخزي من توسلهما، لأن ذلك يحبس حلقي حينما أسأل الناس».

كفّت عن الكلام لحظة حتى تثبّت إستيل على الكرسي مخافة أن تنقلب. واصل الأب سلخ جلده، دون أن يستعجل بسؤال عن تلك القصة التي كانت تهمّه، منتظراً بنفاد صبر كي يفهم.

«يجب أن أخبرك بأن ميغرا صدّني، أوه! بقسوة! مثلما يُطرَد كلب إلى الخارج. ترى إن كنت ذهبت إلى زفاف! فأن ملابس الصوف تدخل الدفء، لكنها لا تدخل للبطن شيئاً، أليس كذلك؟».

رفع رأسه، وظل ساكتاً. لا شيء في بيولين، لا شيء عند ميغرا: ماذا، إذن؟ لكن كما جرت العادة، كانت قد شمّرت للتوّ على كمّيها كيما تغسل له ظهره والأطراف التي كان من العصي عليه الوصول إليها. ثم إنه كان يحب أن تدلّكه بالصابون، أن تفرك أطرافه كلها ولو كسرت معصميها. أمسكت قطعة الصابون وشرعت تخدّ كتفيه، بينما كان يتصلب ليتحمل الألم.

«إذن، رجعتِ عند ميغرا، كم أسمعته من كلام، آه! كم أسمعته من كلام. وهل كان يجب أن يكون بلا قلب، وأنه سوف يتعرض للأذى، لو كان هناك شيء من العدل. كان ذلك يتعبه، كان يدير عينيه، كم فضّل أن يهرب».

من الظَهر، نزلت إلى الأليتين؛ وفي انطلاقتها، توغلت في مواضع أخرى، في الطّيات، ولم تترك مكاناً من البدن لم تفركه،

وجعلته يلمع مثل مقاليها الثلاث، أيام السبت المخصصة للتنظيف الشامل. لكنها كانت تتصبب عرقاً من حركة الذراعين الرهيبة تلك جيئة وذهاباً، وكلها تهتز، وينحبس كلامها في حلقها من شدة عسر التنفس.

«وفي آخر المطاف، نادى عليّ باسم العنيدة العجوز. سنحصل على الخبز حتى السبت، والأجمل من ذلك، إنه أقرضني مائة فلس. كما أخذتُ من عنده أيضاً الزبدة، البنّ، الهندباء، بل أوشكت أن آخذ اللحم المقدّد والبطاطس حينما رأيت أنه كان يزمجر. سبعة فلوس لجبن الخنزير، ثمانية عشر فلس للبطاطس، وفضل لي ثلاثة فرنكات وخمسة وسبعين فلساً من أجل يخنة وحساء لحم. هه؟ أظن أني لم أضيّع صباحي».

الآن، صارت تمسحه، تنشفه بخرقة ثوب في الأماكن حيث كان يتعذر جفاف الرشح. وهو فرحان، ولا يفكر في غداة الدَّين، كان يطلق ضحكة غليظة ويمسكها بملء ذراعيه.

«هيا، أتركني، يا أحمق! إنك مبلل، وتبلل ثيابي. أخشى فحسب أن تكون لميغرا مقاصد..».

كادت تتحدث عن كاترين، كفّت لسانها. وما الفائدة من شغل بال الأب؟ سوف يخلق ذلك متاعب لا حصر لها.

«أية مقاصد؟»، سألها.

«الغاية منها سرقتنا، إذن! يجب أن تتصفّح كاترين سجّل الديون».

أمسكها من جديد ولم يتركها هذه المرّة. دائماً كان ينتهي الحمّام على هذه الحال، كانت تشحذ همَته أثناء تدليكه بتلك

القـوة، وإلبـاس جميـع أطرافـه الـذي كان يدغـدغ زغـب ذراعيـه وصـدره. ثـم كانـت تلـك سـاعة ارتـكاب الحماقـات أيضـاً عنـد رفـاق المجمّـع، حيـث يتـم بـذر أطفـال أكثـر ممـا يريـده المـرء. فـي الليـل، هنـاك أنظـار الأسـرة. دفعهـا نحـو الطاولـة وهـو يمازحهـا بصفتـه رجـلاً طيبـاً يسـتمتع بلحظـة واحـدة مـن اليـوم، ويسـمي ذلـك تنـاول طبـق الحلـوى، وهـي حلـوى لـم تكـن تكلفـه شـيئاً. هـي بخصرهـا وصدرهـا البـارز، كانـت تمانـع، قصـد الضحـك.

«إنـك أحمـق، يـا إلهـي! إنـك أحمـق! وإسـتيل التـي تنظـر إلينـا! تمهـل حتـى أديـر رأسـها».

«آه! أجل! هل تدرك وهي تبلغ ثلاثة أشهر من عمرها؟»

حينمـا نهـض، اكتفـى **ماهو** بلبـس سـروال جـاف. كانـت متعتـه تتجلـى، حينمـا يكـون نظيفـاً وقـد داعـب زوجتـه، فـي أن يظـل عـاري الصـدر لحظـة. وعلـى بشـرته البيضـاء، بيـاض فتـاة مصابـة بفقـر الـدم، تركـت الخـدوش وحـزّات الفحـم وشـوماً، «مُزرَعـات» كمـا يقـول عمـال المنجـم؛ وكان فخـوراً بذلـك، يعـرض ذراعيـه الغليظتيـن، وصـدره العريـض، الـذي لـه بريـق رخـام عروقـه زرق. فـي الصيـف، كان جميـع العمـال يقفـون علـى تلـك الهيئـة عنـد أبوابهـم. ذهـب إلـى هنـاك لحظـة، رغـم الجـو الرطـب، وصـاح بكلمـة مبتذلـة لأحـد الرفـاق، الـذي كان صـدره عاريـاً هـو أيضـاً، خلـف الحدائـق. وظهـر آخـرون. وكان الأطفـال المتسـكعون علـى الأرصفـة يرفعـون رؤوسـهم، يضحكـون هـم كذلـك مـن فـرح كل تلـك الأجسـاد، أجسـاد العمـال المتعبـة المعروضـة للهـواء الطلـق.

وهو يشرب قهوته، من دون أن يلبس قميصه بعد، حكى **ماهو** لزوجته غضب المهندس من أجل تمتين الدعائم. كان هادئاً، منبسطاً، وأنصت بإيماءة موافقة إلى نصائح **ماهود** الحكيمة، التي كانت تظهر رجاحة عقل في تلك الشؤون. دائماً تردّد على مسمعيه أن المرء لا يربح شيئاً من معارضة الشركة. وأخبرت بعد ذلك بزيارة السيدة **إينبو**. ودون الإفصاح عن ذلك، فقد كانا فخورين بها معاً.

«هل يمكن لنا النزول؟»، سألت كاترين من أعلى الدرج.

«أجل، أجل، أبوك ينشّف بدنه».

كانت الفتاة بلبسة الآحاد، لبسة قديمة من القطن الغليظ الأزرق، الشاحبة والتي أصاب ثناياها البلى. كانت تعتمر قبعة من نسيج **تُول** الرقيق الأسود، بسيط للغاية.

«هاك! لبستِ، إلى أين أنت ذاهبة؟».

«أنا ذاهبة إلى مونسو قصد شراء شريط لقبعتي. لقد نزعت القديمة، إنها قذرة جداً».

«لديك إذن بعض المال، أنت؟».

«كلا، لقد وعدتني **موكيت** بأن تقرضني ست فلسات».

سمحت لها أمها بالذهاب. لكن عند الباب ذكّرتها:

«اسمعي، لا تذهبي لشرائها من عند **ميغرا**، عصابتك تلك، سوف يسرقك ويظنّ أننا نفترش الذهب».

أما الأب الذي قرفص قبالة النار حتى يجفف بسرعة رقبته وإبطيه، فقد اكتفى بأن أضاف:

«احرصي على ألّا تتسكعي ليلاً في الطرقات».

بعد الظهيرة، عمل **ماهو** في حديقته. كان قد بذر فيها مسبقاً بطاطس وفاصوليا وحمّصاً؛ وكان قد حفظ منذ اليوم السابق غرس نبتة الملفوف والخسّ التي شرع في نقلها من جديد. فذلك الركن من الحديقة يوفر لهم الخضروات، ما خلا البطاطس التي لم يكن لديهم منها ما يكفي قط. فضلاً عن ذلك، فإنه كان يتقن الزراعة جيداً ويحصل على خرشوف، وكان الجيران يرون في ذلك إعجاباً منه بنفسه. ولما كان يهيئ حوضه، جاء **لوفاك** بالتحديد لتدخين غليونه في مربّعه هو، وهو ينظر إلى خضرة الخس الرومانية التي غرسها **بوتلو** من ذي قبل في الصباح؛ إذ لولا شجاعة المستأجر في قلب التربة، لما نبت هناك سوى القرّاص. ودار الحديث عبر السياج. **لوفاك**، بعد أن أراح نفسه وهاج جراء ضرب زوجته، سعى بدون جدوى لجر **ماهو** عند راسنور. هيا، هل إن قدحاً واحداً كان يخيفه؟ أن نلعب برمي الأوتاد الخشبية ونتسكع لحظة مع الرفاق ثم نرجع للعشاء. كانت تلك هي الحياة بعد الخروج من الحفرة. لا شك أن ليس هناك ضرر في ذلك لكن **ماهو** كان يعاند: إذا لم ينقل بقلات الخس، ستذبل في اليوم التالي. في الحقيقة، كان يرفض من باب الحكمة، حيث لا يريد قطعاً أن يطلب من زوجته ريالاً مما تبقّى من المائة فلس.

كانت الساعة الخامسة تدق حينما جاءت پيپرونه لتعرف إن كانت بنتها **ليدي** قد انصرفت مع **جونلان**. أجابها **لوفاك** أن لا بدّ أن الأمر كان من ذلك القبيل، لأن **بيبير** اختفى هو أيضاً؛ وهؤلاء الصبيان يعبثون دوماً معاً. بعد أن هدأ **ماهو** من روعهما بكلامه عن خضرة الخسّ البرّي، أخذ هو ورفيقه يهاجمان المرأة الشابّة

بفجاجة شيطانية. كانت تنزعج من ذلك إلا أنها لم تتصرف، إذ في الحقيقة كان الكلام القاسي يدغدغها، يجعلها تضحك، ويداها على بطنها. وجاءت لنجدتها امرأة نحيفة كان غضبها المتلعثم يشبه قرقرة دجاجة. بينما أخريات، عند أبوابهن، مذعورات من تلك الثقة. الآن، كانت المدرسة قد أغلقت أبوابها، والأطفال يتسكعون جميعاً، كان المكان محتشداً بمخلوقات صغيرة، تتصايح، تتدحرج، تتعارك؛ بينما الآباء، الذين غابوا عن الحانة، ظلوا جماعات من ثلاثة أفراد أو أربعة، متربعين على أقدامهم كما في جوف المنجم، يدخنون الغليون ويتبادلون النوادر، متكئين على جدار. انصرفت پيرونه وهي غاضبة حينما حاول **لوفاك** أن يجسّها بيده ليرى إن كانت غضّة؛ وقرر بنفسه أن يذهب وحده عند راسنور بينما ظلّ **ماهو** منهمكاً في الفرس.

بغتة غرُب النهار، أضاءت **ماهود** المصباح، وهي منزعجة من أن البنت والأولاد لم يرجعوا بعد. كانت على يقين من ذلك: لم يفلحوا قط في الحضور معاً للوجبة الوحيدة حيث يسعهم أن يجتمعوا كلهم حول المائدة. ثم هناك خضرة الخس البرّي التي كانت تنتظرها. ماذا كان يستطيع قطفه في تلك الساعة، في سواد الفرن ذاك، ذلك الفتى الحقير. إن الخضرة تلائم كثيراً اليخنة التي كانت تغلي على النار والبطاطس والكرَاث والحمَّاض، الممرّقة بالبصل المقلي! كان البيت بأكمله يعبق به، البصل المقلي، تلك الرائحة الطيّبة التي تفسد بسرعة ويتشربها آجر المجمّع سُمّاً حتى تُشمّ من بعيد في البرية، من شدة رائحة الطبخ الفقير.

حينما غادر **ماهو** الحديقة مع حلول الليل، غفا سريعاً على كرسيّ ورأسه مسند إلى الحائط. في المساء، ما أن يجلس، يغط في النوم. كان وقواق الساعة يعلن عن السابعة، وقد كسر هنري ولينور صحناً للتو وهما يصرّان على مساعدة ألزير التي كانت تعدّ المائدة، عندما رجع الأب **بونمور** أولاً، مستعجلاً لتناول العشاء والعودة إلى المنجم. حينذاك، قامت **ماهود** بإيقاظ **ماهو**.

«فلنأكل، ذاك شأنهم! هم كبار بما يكفي للعودة إلى البيت. المزعج، هو الخضرة!».

V

عنـد راسـنور، بعـد أن شـرب حسـاء، صعـد **إتيـان** إلـى الغرفـة الضيقـة التـي كان عليـه أن يسـكنها تحـت السـقف، بـإزاء لوڤـورووه، ارتمـى علـى فراشـه، بكامـل ملابسـه، وقـد صرعـه التعـب. طيلـة يوميـن لـم ينـم أكثـر مـن أربـع سـاعات. حينمـا اسـتيقظ، عنـد الغروب، ظلّ شـارداً للحظـة، دون أن يتعـرف علـى المـكان الـذي كان موجـوداً فيـه؛ ومـن شـدة مـا كان يشـعر بالضيـق، وثقـل فـي الـرأس، فإنـه وقـف بعنـاء، وفـي خاطـره أن يسـتنشـق بعـض الهـواء، قبـل تناولـه للعشـاء والنـوم طـول الليـل.

فـي الخـارج، كان الجـو معتـدلاً أكثـر فأكثـر، وسـماء السـخام غـدت نحاسـية، محمّلـة بأمطـار الشـمال الطويلـة تلـك، التـي كان المـرء يشـعر بدنوّهـا مـن خـلال دفء الهـواء، ذلـك الـدفء الرطـب. كان الليـل يهبـط بأدخنـة عظيمـة، تغـرق أطـراف السـهل النائيـة. وفـوق ذلـك البحـر الشـاسع مـن الأراضـي المائـل إلـى الحُمـرة، كانـت السـماء المنخفضـة تبـدو وكأنهـا تـذوب فـي غبـار أسـود، مـن دون هبّـة ريـح فـي تلـك السـاعة تحـرك الظلمـات. كان للمنظـر حـزن مأتـم، شـاحب وميـت.

مشـى **إتيـان** قُدمـاً، يخبـط عشـواء، لا هـدف لـه سـوى التخلص مـن حُمَّـاه. حينمـا مـرَّ قبالـة **لوڤـورووه**، المظلـم أصـلاً فـي جـوف حفرتـه، والـذي لـم يُنـر فيـه قنديـل واحـد بعـدُ، توقـف لحظـة، كيمـا يـرى خـروج العمـال إلـى السـطح. لا ريـب أنهـا كانـت السـاعة السادسـة، إذ كان عمـال تفريـغ وحمّالـون فـي المراتـب وساسـة الأحصنـة منصرفيـن

زمراً، مختلطين بالفتيات المغربِلات، لا تظهر ملامحهن، يضحكن في العتمة.

أول الأمر، كانت **برولي** وصهرها **پييرون**. كانت تعاتبه لأنه لم يدافع عنها عند الاحتجاج على أحد الحراس، من أجل حسابها للحجر.

«أوه! أيتها الخرقة البالية، هيا! أيعقل أن يكون المرء رجلاً وينبطح هكذا أمام واحد من أولئك الأوغاد الذين يأكلوننا!».

كان **پييرون** يتبعها بسكون، دون إجابة. انتهى به الأمر إلى أن قال:

«ربما كان يجب أن أرتمي على الرئيس. شكراً! وأحصل على المتاعب!».

«ابسط لهم عجيزتك إذن!»، صاحت، «يا إلهي! لو أن بنتي سمعت كلامي! لم يكفهم إذن أن قتلوا الأب، تريد ربما أن أقول لهم شكراً. كلا، أرأيت، سوف أقضي عليهم».

اختفت الأصوات، ورآها **إتيان** تختفي، بأنفها أنف الصقر، وشعرها الأبيض المتطاير، وذراعيها الطويلتين الهزيلتين التي كانت تحرّكهما بغضب. لكن، من ورائه، جعله حديث فردين شابين يصيخ السمع. لقد تعرّف على **زكاري**، الذي كان ينتظر هناك، والذي قد دنا منه صديقه **موكي** آنفاً.

«هل تأتي؟»، سأله هذا الأخير، «نأكل شريحة خبز مدهون ثم ننطلق إلى **ڤولكان**».

«بعد حين، لدي شغل».

«ماذا إذن؟».

التفت عامل التفريغ ورأى **فيلومين** خارجة من موقع الغربلة. ظن أنه فهم القصد.

«آه! طيب، هذا هو إذن، سأنطلق أمامك».

«أجل، سوف ألحق بك».

حينما انصرف، لقي **مُوكي** والده، **مُوك** العجوز، الخارج بدوره من لوڤوروه؛ وقام الرجلان فحسب بتحية بعضهما أن عِم مساء، سلك الابن الطريق الأعظم بينما انصرف الأب مسرعاً على طول القناة.

كان زكاري قد دفع **فيلومين** أصلاً في الدرب المعزول نفسه رغم مقاومتها. كانت مستعجلة، مرة أخرى؛ وكانا يتخاصمان، هما الاثنان، وكأنهما زوج قديم. لم يكن من العجب ألّا يلتقيا إلا في الخارج، على الأخص في فصل الشتاء، عندما تكون الأرض مبللة وليس ثمة زروع للاستلقاء عليها.

«لكن لا، ليس هذا»، همس لها بنفاد صبر، «أريد أن أخبركِ شيئاً».

كان يمسكها من خصرها. يأخذها برفق. ثم لمّا صارا في ظلّ ركام الردم، أراد أن يعرف إن كان لديها بعض المال.

«ماذا ستصنع به؟»، سألته.

حينذاك اضطرب، وتحدث عن دين يبلغ فرنكين سوف يفجع أسرته.

«اخرس، هيا! لقد رأيتُ **موكي**، إنك ذاهب مرة أخرى إلى **ڤولكان**، حيث تلك النسوة القذرات».

انبسط، خبط صدره، وأعطاها كلمة شرف. ثم بما أنها كانت تهزّ كتفيها، قال بغتة:

«تعالـي معنـا، إن كان ذلـك يسلّيك. كمـا تريـن، فحضـورك لا يزعجنـي. بالنسـبة لمـا أريـد صنعـه مـع المغنّيـات! هـل تأتيـن؟».

«والصغيـر؟»، أجابتـه، «هـل يمكـن أن نتحـرك مـع طفـل يصـرخ علـى الـدوام؟ دعنـي أرجـع، أراهـن أنهـم لـم يعُـد بينهـم وفـاق قـط، فـي البيـت».

لكنـه حبَسـها، توسّـل إليهـا. هيّـا، تصـرّفَ كذلـك حتـى لا يبدو غبياً أمـام **موكي** الـذي وعـده مـن قبـل. إن الـرجل لا يمكنـه أن يهجـع للنـوم كل مسـاء مثـل الدجـاج. مغلوبـة، شـمّرت ذيـل قميصهـا الفضفـاض، وقطعـت بظفرهـا الخيـط ثـم جذبـت قطعـاً بعشـرة فلـوس مـن ركـن الحاشـية. مخافـة أن تسـرقها أمهـا، كانـت تخبـئ هنـاك مـا تربحـه مـن السـاعات الإضافيـة، فـي الحفـرة.

«عنـدي خمسـة، كمـا تـرى»، قالـت لـه، «أودّ أن أعطيـك منهـا ثلاثـة، لكـن يجـب أن تقسـم لـي بأنـك سـوف تقنـع أمـك بزواجنـا. يكفـي، مـن هـذه العيشـة التـي لا أسـاس لهـا! مـع ذلـك، تعاتبنـي أمـي علـى كل لقمـة أكلتهـا. اقسِـم، اقسِـم أولاً».

كانـت تتكلـم بصوتهـا الرخـو، صـوت فتـاة عانـس عليلـة، لا هـوى لهـا، فحسـب متعبـة مـن وجودهـا. أمـا هـو، فقـد أقسـم، صـرخ بـأن ذلـك وعـد، مقـدس؛ ثـم لمـا أخـذ القطـع الثـلاث، قبّلهـا، داعبهـا، جعلهـا تضحـك، وأوشـك أن يذهـب بالأمـور إلـى أقصاهـا، فـي ذلـك الركـن مـن الـردم الـذي كان غرفـة الشـتاء لبيـت الزوجيـة القديـم، لـولا أنهـا رددت أن «لا»، وأن ذلـك لـن يمنحهـا أدنـى متعـة. رجعـت إلـى المجمّـع بمفردهـا، بينمـا كان يختصـر الطريـق عبـر الحقـول، كيمـا يلحـق برفيقـه.

كان إتيـان قـد تبعهمـا مـن بعيـد، دون أن يـدرك ذلـك، ولا أن يفهـم، ظنـاً منـه أن الأمـر يتعلق بموعـد عـادي. كانـت الفتيـات يدركـن باكـراً فـي الحفـر؛ وكان يتذكـر العامـلات فـي مدينـة **ليل**، اللواتـي كان ينتظرهـن خلـف المصانـع، جماعـات الفتيـات التـي تفسـد طباعهـن مـا أن يبلغـن الرابعـة عشـرة مـن عمرهـن، بيـن أحضـان البـؤس. لكـن لقـاء ثانيـاً أدهشـه زيـادة. توقّـفَ.

كان ذلـك أسـفل الـردم، فـي تجويـف زلقـت فيـه حجرتـان عظيمتـان، جونـلان الصغيـر الـذي كان يدفـع **ليدي** و**بيبير** بعنـف، الأولـى جالسـة إلـى يمينـه والثانـي، إلـى يسـاره.

«هـه؟ مـاذا تقـولان؟ سـوف أضيـف لطمـة لـكل منكمـا، أنـا، إذا طالبتمـا. مـن الـذي خطـرت علـى بالـه الفكـرة، هيّـا!».

فـي حقيقـة الأمـر، كانـت فكـرة خطـرت علـى بـال جونـلان. بعـد أن دار فـي المـروج وهـو يقطـف الخسّ البـري مـدة سـاعة علـى طـول القنـاة مـع الاثنيـن، أمـام ركام الخضـرة عنّـت لـه فكـرة أنـه لـن يتـم أكـل ذلـك القـدر كلـه فـي البيـت؛ وبـدل الرجـوع إلـى المجمّـع، ذهـب إلـى مونسـو، مكلِّفـاً **بيبيـر** بمراقبـة الطريـق، دافعـاً **ليـدي** لطـرق أبـواب الميسـورين حيـث كانـت تقـدم الخسّ البـري. كان يقـول، هـو المجـرّب أصـلاً، إن الفتيـات يبعـن مـا شـئن. وفـي سـورة المتاجـرة، تـمّ بيـع الكومـة بأكملهـا؛ لكـن الفتـاة كسـبت أحـد عشـر فلسـاً. والآن، وأيديهـم خاويـة، كان الثلاثـة يقتسـمون الربـح بينهـم.

«هـذا ظلـم!»، صـاح **بيبير**، «يجـب اقتسـام ذلـك علـى ثلاثـة. إذا احتفظـتَ بسـبعة فلـوس، لـن يحصـل كل واحـد منـا إلا علـى فلسـين».

«ظلـم مـاذا؟»، ردّ جونـلان مغتاظـاً، «أولاً، لقـد جمعـتُ مـن ذلـك أكبـر قـدر!».

في العادة، كان الثاني يستسلم بإعجابٍ خائف، بسذاجة تجعله ضحية على الدوام. أكبر سناً، وأشد قوة، كان يستسلم حتى للّطم. لكن هذه المرة، فإن فكرة كل ذلك القدر من المال هيّجت من رغبته في المقاومة.

«أليس كذلك يا **ليدي**، إنه يسرقنا. إذا لم يقسم بالعدل، نخبر أمّه».

وعلى الفور، جعل **جونلان** قبضته أسفل أنفه.

«كرّر ذلك. أنا من سيذهب إلى بيتكم للقول إنك بِعتَ خضرة ماما. ثم، أيها الغبي الحقير، هل أستطيع قسمة أحد عشر على ثلاثة؟ حاول ذلك كي ترى، أنت الذكي، ها هما فلسان لكل واحد. أسرعا بأخذهما وإلا أعدتهما إلى جيبي».

هو المروّض، قبل بيبير الفلسين. ولم تقل **ليدي** شيئاً، وهي ترتعد، إذ كانت تشعر أمام **جونلان** بخوف وعطف زوجة صغيرة مهزومة. ولمّا كان يناولها الفلسين، مدّت يدها بضحكة صاغرة. لكنه تراجع بغتة.

«هه؟ ماذا ستصنعين بكل هذا؟ سوف تسلبه أمك منك، إذا كنتِ لا تعلمين أين تخفيه، من الأفضل أن أحتفظ لكِ به. حينما تحتاجين إلى المال، تطلبينه مني».

واختفت الفلوس التسعة. وحتى يغلق لها فمها، أمسكها وهو يضحك، وتدحرج معها في الردم. كانت بمثابة امرأته الصغيرة، كانا يجرّبان معاً، في الزوايا المعتمة، الحبّ الذي كانا يسمعانه ويريانه في البيت، خلف العوازل، عبر شقوق الأبواب. كانا على علم بكل شيء، لكنهما لا يستطيعان قطعاً، لصِغر سنّيهما،

يتلمسان، يلعبان، طول ساعات، لعب جِراءٍ خبيثة. هو، كان يسمي ذلك «نلعب الأبوين»؛ وحينما كان يأخذها معه، كانت تركض، وتستسلم له بارتعاشة الغريزة اللذيذة، غاضبة معظم الوقت، لكنها مستسلمة دوماً في انتظار شيء لا يأتي بتاتاً.

وبما أن بيبير لم يكن مقبولاً في تلك الألعاب، كان يتعرّض للّكز كلما أراد لمس ليدي، ويظل محرّجاً، يأكله الغضب والضّيق حينما كان الآخران يتسلّيان، ولا يشعران بتاتاً بالحرج في حضرته. لذلك لم تشغله سوى فكرة واحدة، إخافتهما، إزعاجهما بأن يصيح أن هناك من يراهما.

«قُضي عليكما، هناك رجل ينظر!».

هذه المرة، لم يكن يكذب، كان ذاك إتيان الذي قرر متابعة طريقه. قفز الأطفال، هربوا، ثم مرَّ هو، منعطفاً على الردم، تابِعاً القناة، وقد تسلّى بذلك الخوف العظيم الذي أصاب أولئك الأشقياء. لا شك أن ذلك كان سابقاً لأوانهم بإفراط؛ لكن ماذا؟ لقد كانوا يشهدون قدراً كبيراً، ويسمعون أعظم من ذلك، بحيث كان يجب وضع القيود عليهم، لضبط حركتهم. وفي حقيقة الأمر، أثناء ذلك صار إتيان حزيناً.

على بعد مائة خطوة، صادف أزواجاً مرة أخرى. كان قد وصل إلى ريكيار، وهناك، حول أنقاض المنجم القديم كانت جميع بنات مونسو يتجولن رفقة عشاقهن. كان ذاك هو الموعد الغرامي المشترك، الركن المعزول والمهجور حيث تأتي عاملات دفع العربات كي يحبلن بطفلهن البكر، عندما لا يتجرأن على المجازفة فوق حجارة المُسقّف. فالأسوار المهدّمة كانت تفتح

لكل واحد ساحة العتاد القديمة، التي تحولت إلى خلاء، تحجبه بقايا الحظيرتين اللتين انهدّتا، وجثث الهياكل العظيمة التي ظلت واقفة. وانتشرت هناك عربات حمل لم تعُد قابلة للاستعمال، وأخشاب قديمة أصاب النخر نصفها متراكمة في مطاحن؛ بينما نباتات كثيفة كانت تكتسح تلك الزاوية المتربة، وتمتد عشباً غليظاً، وتنبثق شجيرات فتية صارت صلبة. لذلك، كل فتاة كانت تشعر وكأنها في بيتها، إذ ثمة حفر نائية للجميع، وكان الشبان يعاشروهن على الركائز، خلف الأخشاب، في عربات التحميل. وكانوا ينحشرون رغم ذلك، متدافعين بالمرفقين، دون الاكتراث بالجيران. وكان يبدو أن الأمر، حول الآلة المنطفئة، قرب تلك البئر التي تعبت من استخراج الفحم، بمثابة انتقام من الخليقة، الحب الطليق الذي بفعل سوط الغريزة كان يزرع أطفالاً في بطون تلك الفتيات، اللاتي هن بالكاد نساء.

ومع ذلك، كان حارس يقيم هناك، إنه **موك** العجوز الذي تخلّت له الشركة، تقريباً أسفل السقيفة المنهارة عن غرفتين يهدد السقوط المتوقع للهياكل الأخيرة بسحقها باستمرار. بل إنه وسّع قسماً من السقف؛ وكان يعيش هناك على نحو جيد، مع أسرته، هو و**موكي** في غرفة، و**موكيت** في الثانية. وبما أن النوافذ لم تعُد بها زجاجة واحدة، فقد قرر إغلاقها بألواح مسمَّرة: لم تكن الرؤية واضحة، لكن كانت الحرارة تعمّ المكان. ثم إن ذلك الحارس لم يكن يحرس شيئاً، وكان يذهب لعلاج أحصنته في لوفوروه، ولم يكن يشغل نفسه قط بأنقاض **ريكيار**، التي كان يحتَفظ فيها بالبئر فقط كيما تستعمل مدخنة لفوهة، كانت تقوم بتهوية الحفرة المجاورة.

وهكذا كان الأب **موك** يشرف على أن يشيخ، وسط الغراميات. منذ العاشرة، جربت **موكيت** ممارسة الحب في كل أركان الأنقاض، ليس بصفتها صبية جزعة وغير ناضجة مثل **ليدي**، وإنما بمثابة فتاة ممتلئة أصلاً، صالحة لفتيان ذوي لحى. لم يكن للأب ما يقوله، لأنها كانت تظهر الاحترام، إذ لم يحدث قط أن أدخلت أحداً لبيته. ثم لقد كان معتاداً على تلك الحوادث. عندما كان يذهب إلى لوفوروه أو يعود منه، كلما خرج من تلك الحفرة، لم يكن بوسعه أن يقدم خطوة دون وضعها على زوج، في العشب؛ وكان يقع الأسوأ، إذا أراد أن يجمع الحطب للحساء، أو يبحث لأرنبه عن بقول، أقصى طرف من الحظيرة: حينذاك، كان يرى الأنوف الشرهة لكل فتيات مونسو، مشرئبة واحداً تلو الآخر، بينما كان عليه أخذ الحيطة حتى لا يتعثر في السيقان الممدودة سويّة المسالك. ثم، شيئاً فشيئاً، لم تعُد تلك اللقاءات تزعج أحداً، لا هو الذي كان يحرص فقط على ألّا يسقط، ولا اللطيفات اللواتي كان يتركهن لإنهاء شؤونهن، مبتعداً بخطوات قصيرة خفية، بصفة الرجل الشهم المسالم أمام شؤون الطبيعة. لكن، مثلما أنهن كن يعرفنه في تلك الساعة، فقد انتهى به المطاف هو أيضاً بمعرفتهن، مثلما يعرف المرء طيور العقعق الخبيثة التي تتزاوج على أشجار الكمثرى في الحدائق. آه! تلك الشبيبة، كم كانت تأخذ، كم كانت وحشية! أحياناً كان يهزّ ذقنه بحسرة صامتة، وهو يشيح بنظره عن تلكم الفتيات الصاخبات، اللائي كن يزفرن بصوت عال، في جوف الظلام. شيء واحد كان يعكّر مزاجه: عاشقان، اتخذا عادة سيئة بالمعانقة لصق حائط غرفته.

ليس لأن ذلك كان يمنعه من النوم، ولكن لأنهما كانا يتكآن بقوة بحيث أضرّا بالحائط.

كل مساء، كان **مُوك** العجوز ينعم بزيارة من صديقه، الأب **بونمور** الذي كان يقوم بجولته، قبل العشاء، بانتظام. لم يكن الشيخان يتكلمان قطعاً، يتبادلان عشر كلمات بالكاد، خلال النصف ساعة التي كانا يقضيانها معاً. لكن ذلك كان يفرحهما، أن يكونا على تلك الحال، والبال سائح في أمور قديمة، يجترّانها معاً، دون حاجة إلى الكلام عنها. في ريكيار، كانا يجلسان على ركيزة، جنباً إلى جنب، يلفظان كلمة واحدة، ثم يسرحان في خطراتهما، الأنف نحو الأرض. لا شك أنهما كانا يصيران شابّين. حولهما، فتية ظرفاء يداعبون حبيباتهم، قبُلات وضحكات هامسة، رائحة فتيات حارة تصعد، في طراوة الأعشاب المسحوقة. كان ذلك أصلاً، خلف الحفرة، ثلاثة وأربعون عاماً من ذي قبل، حينما أمسك بونمور بزوجته، عاملة تحميل، من شدة هزالها كان يضعها على عربة تحميل كيما يقبلها على راحته. آه! كان الجو جميلاً! وكان الصديقان العجوزان، يفترقان أخيراً، وهما يهزان رأسيهما، في معظم الوقت دون حتى أن يلقيا تحية المساء.

لكن ذلك المساء، وبما أن **إتيان** كان قادماً، فأن الأب **بونمور** وهو ينهض من على الركيزة، كيما يعود إلى المجمّع قال مخاطباً **مُوك**:

«ليلة سعيد، صديقي! هيا قل، هل عرفت **روسي**؟».

ظل **موك** ساكتاً، للحظة، هزّ كتفيه، ثم وهو يعود إلى بيته:

«ليلة سعيدة، ليلة سعيدة، صديقي!».

وبدوره جاء إتيان وجلس على الركيزة. كان حزنه يزداد دون أن يعرف السبب. الرجل الذي يرى ظهره يتوارى، كان يذكره وصوله في الصباح، وموج الكلمات التي نزعتها الريح الشديدة من ذلك الصامت. يا للبؤس! وكل تلك الفتيات، اللائي هدّهنّ التعب، واللائي كن بلهاوات بما يكفي، في المساء، لصنع صغار، لحم للشغل وللمعاناة! لن ينتهي ذلك أبداً، إذا كن يمتلئن دوماً بالجياع حدّ الموت. ألم يكن ينبغي لهن بالأحرى غلق البطن، ولم السيقان، مثلما عند دنو الشقاء؟ ربما لم يكن يحرك تلك الأفكار الكئيبة بغموض سوى لأنه ضجر من عزلته، حينما كان الآخرون، في تلك الساعة، ينصرفون اثنين اثنين لأخذ حقهم من المتعة؟ والجو الرخو كان يخنقه قليلاً، قطرات مطر، التي لا تزال نادرة، كانت تسقط على يديه التي سرت فيهما الحمّى. أجل، جميعهن كن يجتزن ذلك، وكان ذلك أقوى من أن يقبله العقل.

في تلك الأثناء بالتحديد، وبما أن إتيان ظلّ جالساً، بلا حركة في الظل، مرّ بمحاذاته زوج نازل من مونسو دون أن يراه، وهو يسلك الخلاء الواقع في ريكيار. الفتاة، بِكرٌ بالطبع، كانت تمانع، تقاوم، بعبارات توسّل خفيّة، مهموسة؛ بينما الفتى، وهو صامت، يدفعها رغم ذلك نحو عتمة ركن من الحظيرة، ظلّ قائماً، وتحته تراكمت حبال قديمة عفنة. كانت كاترين وشافال العظيم. لكن إتيان لم يكن قد تعرّف عليهما عند مرورهما به، وأتبعهما ناظريه، كان يترقب نهاية القصة، وقد استبد به شعور بدّل مجرى تأملاته. لماذا عليه أن يتدخل. حينما تقول الفتيات «لا»، فذلك أنهن يحببن أن يُداعَبن أولاً.

عندما غادرت مجمَّع **مائتان وأربعون**، كانت كاترين قد ذهبت إلى **مونسو** عبر الرصيف. منذ سنّ العاشرة، منذ كانت تكسب قوت يومها في الحفرة، وهي تجتاز البلد وحدها على ذلك النحو، بكامل الحرية التي تتمتّع بها أُسر عمال الفحم؛ وإذا صح أن أي رجل لم يحصل عليها في سن الخامسة عشر، فإن الفضل في ذلك يرجع لتأخر بلوغها، الذي لا تزال تنتظر أزمته. حينما وصلت قبالة مواقع الشركة، جازت الزقاق ودخلت غرفة غسيل، حيث كانت على يقين من أنها ستجد **موكيت**؛ لأن هذه الأخيرة كانت تقيم هناك، مع نساء تُمنح لهن كؤوس قهوة من الصباح حتى المساء. لكن أصابها الكدر، لأن **موكيت**، بالتحديد أنفقت ما عندها إلى حدّ أنها لم تستطع أن تقرضها الفلوس العشرة الموعودة. وقصد مواساتها، قُدِّم لها كأس قهوة ساخنة. لم ترد أن تقترض رفيقتها من غيرها. وعنّت لها فكرة التقتير، ما يشبه الخوف المتطيّر، اليقين من أنها لو اشترتها الآن، فإن ذلك الشريط سوف يصيبها بالنحس.

وأسرعت بالعودة لسلك درب المجمّع، وكانت عند آخر منازل مونسو حينما نادى عليها رجل، من باب حانة **ﭘيكيت**:

«إيه! كاترين، إلى أين أنت مسرعة بذلك القدر؟».

كان ذاك شاڤال العظيم. انزعجت، ليس لأنه لا يروقها، ولكن لأنها لم تكن في مزاج رائق للمزاح.

«هيّا ادخلي لشرب شيء ما، كأس عذبة صغيرة، أوَ تريدين؟».

رفضت بلطف، سوف يحلّ الليل، وينتظرونها في البيت.

تقدم هو، يتوسل إليها بصوت منخفض، وسط الزقاق. كانت فكرته، منذ مدة طويلة، أن يجعلها تصعد إلى الغرفة التي كان

يقيم بها في الطابق الأول من حانة پيكيت، غرفة جميلة بها فراش كبير، لزوج واحد. كان يخاف إذن أن ترفض دوماً. هي، الطيبة اللطيفة، كانت تضحك، وتقول إنها ستصعد في الأسبوع الذي لا ينمو فيه الأطفال. ثم، من موضوع إلى آخر، ودون أن تعرف كيف حصل ذلك، جاءت على ذكر الشريط الأزرق الذي لم تستطع شراءه.

«لكن، أنا، سوف اشتري لك واحداً!»، صاحَ.

احمرّت خجلاً، وشعرت أن من الأفضل لها أن ترفض أيضاً، وفي داخلها تتقلب الرغبة العظيمة في الحصول على شريطها. وعادت إليها فكرة الاقتراض، وانتهى بها الأمر إلى القبول، شرط أن تعيد إليه ما ستنفقه عن نفسها. وجعلهما ذلك يمزحان من جديد: وتم الاتفاق على أن تعيد إليه المال إذا هي لم تعاشره. لكن ظهرت صعوبة أخرى، حينما تحدث عن الذهاب عند **ميغرا**.

«كلا، ليس عند **ميغرا**، لقد حرّمت علي ماما ذلك».

«دعي ذلك، هيا، هل نحتاج إلى الإفصاح عن وجهتنا؟ إنه من يتوفر على أحسن أنواع الأشرطة في مونسو».

حينما شهد **ميغرا** دخول شاڤال العظيم وكاترين إلى متجره، مثل شابين ظريفين يشتريان هدية الزفاف، أحمرّ وجهه كثيراً، وعرض أنواع الأشرطة الزرق التي لديه، وقد استبد به غيظ رجل هزء به. ثم بعد خدمة الشابين، وقف ثابتاً عند الباب حتى يراهما يبتعدان في الغروب؛ وبما أن زوجته جاءت بصوت خجول تستعلمه، هجم عليها، شتمها، صارخاً بأنه ذات يوم سوف يجعل الناس القذرين الذين ينكرون الجميل يطلبون الصفح، حينما كان

ينبغي لهم الانبطاح على بطونهم ولعق قدميه.

في الطريق، كان شافال العظيم يرافق كاترين. يمشي قربها، لا يصنع شيئاً؛ كان فحسب يدفعها من خصرها، يقودها، دون أن يبدو عليه ذلك. وأدركت فجأة أنه جعلها تغادر الرصيف وأنهما كانا يسلكان معاً درب ريكيار الضّيّق. لكن لم يسعها الوقت لتعبر عن سخطها: أصلاً، كان يمسكها من خاصرتها، ويدوخها بمداعبة متواصلة من الكلمات. هل كانت بلهاء لتخاف! هل كان يريد ضرراً بمحبوبة صغيرة مثلها، رقيقة مثل الحرير، من شدة ما هي لينة يكاد يأكلها؟ وكان ينفخ خلف أذنها، في عنقها، ويجعل القشعريرة تسري في كل بشرة من بدنها. ولم تكن تجد، هي المختنقة، شيئاً تردّ به عليه. صحيح، كان يبدو أنه يحبها. مساء السبت، بعدما أطفأت الشمعة تساءلت بالضبط عما سوف يحدث لو أمسك بها مثلما على ذلك النحو؛ ثم لما أغفت، رأت أنها كفّت عن قول «لا»، وقد عمّتها اللذة بجبن. لماذا إذن، وللخاطر نفسه، اليوم، كانت تشعر بنفور وبما يشبه الحسرة؟ بينما كان يدغدغ رقبتها بشاربيه، بكل رقة، حدّ أنها كانت تغمض عينيها، عبر سواد جفنيها المغلقين، رأت ظِل رجل آخر، الفتى الذي لمحته صباحاً.

بغتة، التفت كاترين حولها. كان شافال قد ساقها إلى أنقاض ريكيار، وتراجعت وهي ترتعد أمام ظلام الحظيرة المهدّمة.

«أوه! كلا، أوه! كلا»، همسَت، «من فضلك، اتركني!».

كان الخوف من كونه رجلاً يرعبها، ذلك الخوف الذي تتصلّب منه العضلات بغريزة الدفاع، حتى حينما تستجيب الفتيات طوعاً، ويشعرن بدنو الرجل الغازي. عذريتها، التي ليست في حاجة إلى

تعلم شيء، كانت ترتعب، كما لو من تهديد ضربة، جرح تخشى ألمه لا يزال مجهولاً.

«كلّا، كلا، لا أريد! أخبرك أني ما زلت صغيرة السن بكثير. حقاً! في ما بعد، حينما أكبر».

زمجر على نحو مكتوم:

«بلهاء! لا تخشي شيئاً إذن. وما دخلك في ذلك؟»

لكنه لم يتحدث أكثر من ذلك؟ كان قد أمسكها بقوة، رماها تحت الحظيرة. وسقطت على قفاها فوق الحبال القديمة، وكفّت عن الممانعة، خاضعة للرجل قبل الأوان، بذلك الاستسلام الوراثي الذي، منذ الطفولة، يقلّب في مهب الريح الفتيات من طينتها. خمدت تمتمتها الفزعة، ولم يعُد يُسمع سوى نفَس الرجل الملتهب.

في تلك الأثناء، كان إتيان قد أنصت، بلا حركة. ها هي واحدة أخرى تقوم بالتجربة! والآن بعد أن شاهد المهزلة، قام من مكانه، وقد اكتسحه ضيق، ما يشبه الإثارة النابعة من الغيرة حيث يتصاعد الغضب. لم يعُد يشعر بالحرج، كان يجتاز الركائز لأن هذين الاثنين كانا مشغولين جداً تلك الساعة لينزعجا منه. لذا أصابته الدهشة، بعد أن سلك مائة خطوة تقريباً على الطريق، حينما رأى وهو يلتفت أنهما كانا واقفين مقدماً، ويبدو عليهما أنهما عائدان، مثله، إلى المجمّع. كان الرجل قد أمسك الفتاة من خصرها مجدداً، ويضمّها وأمارة الامتنان بادية عليه، ويكلمها دوماً في عنقها؛ وبدا أنها هي التي كانت مستعجلة، تريد العودة بسرعة، وغاضبة على الأخص من تأخرها.

لكن حينذاك استبدت بإتيان رغبة في أن يرى وجه كل منهما. كانت تلك حماقة، وأسرع الخطو حتى لا يستسلم لها. لكن قدميه أبطأتا السير من تلقائهما، وانتهى به المطاف، عند أول عمود إنارة صادفَه، إلى الاختباء في الظل. وجمد في مكانه من أثر الذهول لمّا تعرّف أثناء ذلك كاترين وشافال العظيم. كان متردّداً في البدء: هل كانت هي حقاً، تلك الفتاة الشابة بثوبها ناصع الزرقة، بتلك القبعة؟ هل هي ذلك الشقي الذي رآه بسروال، الرأس يشده بخنق من قماش؟ ذلك هو السبب في أنها مرّت بمحاذاته دون أن يفطن لأمرها. لكن لم يعُد يساوره شكّ، كان قد استعاد للتو ناظريه، الصفاء المائل إلى الخضرة لماء النبع ذاك، الزلال، الأعمق. يا لها من عاهرة! وشعَر بحاجة ماسة للانتقام منها، بلا سبب، واحتقارها. ثم لم تكن هيئة الفتاة تليق بها: كانت بشعة.

ببطء مرّت كاترين وشافال. لم يدر بخلدهما أن ثمة من كان لهما بالمرصاد على ذلك النحو، هو كان يمسكها عن السير ليقبّلها خلف أذنها، بينما أخذت تتأخر من جديد جراء المداعبات، التي كانت تُضحكها. ولأن إتيان ظلّ في الخلف، فقد كان مجبراً على السير في أثرهما، وقد زاد حنقه لأنهما كانا يسدَّان عليه الطريق، وهو شاهد في كل الأحوال على تلك الأمور التي يزعجه مرآها. إذن كان صحيحاً ما أقسمَت له عليه صباحاً: لم تكن عشيقة بعدُ لأي أحد؛ وهو الذي لم يصدّقها، الذي حرم نفسه منها كيما لا يفعل مثل الآخر! وهو الذي تركها تفلت من بين يديه، الذي بالغ في الحماقة حدّ الاستمتاع بالنظر إليها على نحو قذر! كان ذلك

يفقده صوابه، يشد قبضتيه، لو استطاع لأكل ذلك الرجل، كلما راودته الحاجة مثل مرات كثيرة إلى القتل حينما تستبد به سورة غضب.

دامت النزهة نصف ساعة. حينما دنا شافال وكاترين من لوفوروه، أبطآ في سيرهما من جديد، توقفا مرّتين عند ضفة القناة، وثلاث مرّات على طول الرّدم، مسرورين جداً في هذا الأوان، يمزحان بتلك الألعاب الطفولية اللطيفة. كان لا بدّ لإتيان من أن يكفّ عن السير بدوره، أن يقوم بالاستراحات نفسها، خشية أن يُرى. كان يسعى جهده حتى لا يحتفظ إلا بحسرة واحدة قاسية: فليأخذ العبرة من معاملته الفتيات بلطف، من حسن تربيته. ثم بعد لوفوروه، ولأنه تخلص من قيد الذهاب قصد العشاء عند راسنور، واصل السير في أثرهما، رافقهما إلى المجمّع، ولبث هناك، واقفاً في الظل، مدة ربع ساعة، في انتظار أن يسمح شافال لكاترين بالعودة إلى البيت. وحينما أيقن من أنهما لم يظلا معاً، مشى من جديد، وتوغل بعيداً في طريق مارشيين، وهو يتعثر، لا يخطر بباله شيء، ولا يستطيع أن يغلق على نفسه في الغرفة من شدة ما كان مخنوقاً وحزيناً.

ساعة بعد ذلك فحسب، حوالي التاسعة، اجتاز إتيان المجمّع، وهو يُحدّث نفسه بوجوب الأكل والنوم، إن هو أراد أن يستيقظ في الصباح على الساعة الرابعة. كانت القرية نائمة مقدَّماً، يعمّها الظلام في الليل. ولا ومضة واحدة تتسرب من بين الستائر المغلقة، الواجهات الطويلة مصطفة، ومعها النوم الثقيل في الثكنات التي يعلو غطيطها. وحده هرٌّ فرّ هارباً عبر الحدائق

الخاوية. كانت تلك نهاية اليوم، انسحاق العمال الذين يتهاوون من المائدة إلى الفراش، صرعى التعب والطعام.

عند راسنور، في القاعة المضاءة، عامل آلة وعاملان يدويان من عمال السطح، يشربون أقداحاً. لكن قبل العودة، توقف إتيان، رمى بنظرة أخيرة إلى الظلام. تعرَّف الاتساع المظلم نفسه الذي كان صباحاً، حينما وصل والريح هائجة. قبالته، كان لوڤورووه رابضاً بمظهر وحش ضارٍ، غامض، تلوح عليه بعض ومضات فانوس. كانت مجامر الردم الثلاث تحترق في الهواء الطلق، مثل أقمار دامية، مبرزة بين فينة وأخرى الطيفين العملاقين للأب بونمور وحصانه الأصفر. وخلفهما، في السهل العراء، عمّت الظلال كل شيء، مونسو، مارشيين، غابة ڤاندام، بحر الشمندر، القمح الشاسع، حيث لم تعد تلمع مثل منارات بعيدة، سوى النيران الزرق للمصاهر العالية والنيران الحمر لأفران الفحم. شيئاً فشيئاً، كان الليل يخيّم والمطر يهطل في ذلك الآن، وئيداً، متواصلاً، ماحياً ذلك الفناء في جوف سيلانه الرّتيب؛ بينما كان يُسمَع صوت واحد فحسب، التنفس الغليظ والوئيد لآلة النزح التي كانت تنفخ ليل نهار.

القسم الثالث

I

في اليوم التالي، والأيام التي أعقبته، عاد إتيان إلى عمله في المنجم. كان يتعود، وحياته تنتظم على ذلك الشغل، وتلك العادات الجديدة التي بدت له شاقة في البداية. حادث وحيد قطع رتابة الخمسة عشر يوماً الأولى، حُمّى لم تدم سوى يومين لزم فيهما الفراش، أطرافه محطمة، الرأس يغلي، يرى نفسه في ما يشبه الهذيان أنه كان يدفع عربته في جوف مسلك ضيق جداً لم يكن في وسع بدنه عبوره. كان ذلك تشنّج أطراف فحسب ناتج عن التعلّم، إفراط في التعب تعافى منه في الحال.

وتعاقبت الأيام ومضت الأسابيع والشهور. الآن، شأن الرّفاق، كان يستيقظ على الساعة الثالثة، يشرب القهوة، ويحمل شطيرتي الرغيف المدهون التي كانت تعدّهما له السيدة راسنور عشية يومه. بانتظام، حين ذهابه في الصباح إلى الحفرة، كان يلتقي العجوز بونمور الذاهب للنوم، وعند الخروج بعد الظهر، كان يلتقي بوتلو القادم لبدء مهمته. كان لديه القلنسوة، السروال ومعطف القماش، كان يرتعد ويدفئ ظهره في الحظيرة، قبالة النار المشتعلة. ثم كان يحل الانتظار، القدمان حافيتان، في المورد، الذي تخترقه تيارات هواء هوجاء. لكن الآلة ذات الأطراف الغليظة الصلبة المزينة بالنحاس، اللامعة هناك عالياً، في الظل، لم تعد تشغل باله، ولا الحبال التي كانت تمرق سريعاً بجناحها الأسود الأخرس، جناح الطائر الليلي، ولا الأقفاص التي تبرز وتغوص بلا كلل، وسط ضوضاء الإشارات، والصراخ بالأوامر، عربات الحمل

التي تهزّ بلاطات الحديد السبيكة. كان مصباحه سيّئ الإضاءة، لا بد أن عامل المصابيح ذاك الملعون لم ينظفه؛ ولم يكن يذهب عنه الفتور إلا عندما يجعلهم موكي يركبون جميعاً، بأصوات صفق مازح يسمع وقعها على أعجاز الفتيات. كان القفص ينفلت، يسقط مثل حجر في جوف حفرة، من دون حتى أن يدير رأسه للهروب من السطح. لم يحدث قط أن خطر بباله سقوط ممكن، كان يحسّ نفسه في بيته كلما نزل في الظلمات، والمطر يهطل بغزارة. في الأسفل، عند المراتب، حينما ينزلهم بيرون عند الإفراغ وهو يتظاهر باللطف على لؤمه. كان السير دوماً سير قطيع أهوج يدوس ما تحته، ويذهب كل واحد من عمال المواقع إلى مقلعه، بخطو متثاقل. أما هو فقد كان يعرف من ذلك الحين سراديب المنجم أحسن من أزقة مونسو، ويعرف أنه كان يجب الانعطاف هنا، والانحناء في مكان أبعد، تجنّب بركة ماء هنالك. ومن شدة ما اعتاد ذلكما الكيلومترين تحت الأرض، كان في وسعه اجتيازهما دون حاجة إلى مصباح، ويداه مدسوستان في جيبيه. وفي كل المرّات، كانت تحدث اللقاءات نفسها، رئيس عمال يضيء عند مروره وجوه العمال، الأب موك يقود حصاناً، بيبير يسوق بتاي الذي كان يجمح، جونلان يركض وراء القطار لغلق أبواب التهوية، وموكيت السمينة وليدي الهزيلة تدفعان عربتيهما.

ومع الوقت، أصبح إتيان يعاني بدرجة أقل من الرطوبة والاختناق في المقلع. وبدت له المدخنة مناسبة للصعود، كما لو أنه ذاب ومرّ عبر الشقوق، حيث لم يكن يجرؤ من ذي قبل على مدّ يده. كان يستنشق دون ضيق غبار الفحم، يرى بوضوح

فـي الليـل، ويتصبـب عرقـاً بهـدوء، وقـد تعـود الإحسـاس بملابسـه المبللـة فـوق بدنـه مـن الصبـاح حتـى المسـاء. ثـم، إنـه لـم يعُـد يبدّد قـواه علـى نحـو أخـرق، وقـد اكتسـب حذاقـة، بسـرعة، عجـب لهـا مـن فـي الموقـع. بعـد ثلاثـة أسـابيع، صـار ذكـره بيـن أجـود عمّـال الدفـع فـي الحفـرة: لـم يكـن هنـاك مـن يدفـع عربتـه حتـى السـطح المائـل بدفـع أشـد منـه قـوة، ولا مـن يملؤهـا بعـد ذلـك بكل ذلـك القـدر مـن المهـارة. كانـت قامتـه القصيـرة تسـعفه فـي التسـلل إلـى أي مـكان، ومهمـا كانـت ذراعـاه لطيفتـان وبيضـاوان مثـل ذراعـي امـرأة، فقـد كانتـا تبـدوان مـن حديـد تحـت جلـده الرقيـق، مـن شـدة خشـونتهما فـي العمـل. لـم يكـن يشـكو قـط، حتـى حينمـا كان يطحـر مـن التعـب. مـا كان يُعـاب عليـه فحسـب، هـو أنـه لـم يكـن يتقبـل المـزح، إذ يغضـب حالمـا أراد أحـد الهـزء بـه. فضـلاً عـن ذلـك، كان مقبـولاً، ويُعتبـر بمثابـة عامـل منجـم قـح، نظـراً لسـحق العـادة التـي كانـت تقصـره كل يـوم شـيئاً مـا علـى أداء وظيفـة آلـة.

كان ماهـو علـى الأخـص يميـل إلـى إتيـان، لأنـه يحتـرم العمـل المتقـن. ثـم، مثـل الآخريـن، كان يشـعر أن ذلـك الفتـى يتمتـع بتعليـم أعلـى منـه: كان يـراه يقـرأ، يكتـب، يرسـم أجـزاء مخطـط، كان يسـمعه يتحـدث عـن أمـور هـو يجهـل حتـى وجودهـا. لـم يكـن يسـتغرب ذلـك، لأن عمـال اسـتخراج الفحـم رجـال شـداد أكثـر عنـاداً مـن عمـال الآلـة؛ لكنـه كان معجبـاً بشـجاعة ذلـك الفتـى الشـاب، بالطريقـة التـي تشـبث فيهـا بالفحـم حتـى لا يهلـك مـن الجـوع. كان أول عامـل لقيَـه الـذي تعـوّد بـكل ذلـك القـدر مـن الحـزم. لذلـك، حينمـا كان يسـتعجلهم اسـتخراج المعـدن ولا يريـد إزعـاج أحـد الحفّاريـن، فإنـه يكلـف

الرجل الشاب بنصب الدعائم، لأنه متأكد من نظافة وصلابة العمل. كان الرؤساء يزعجونه دوماً بخصوص مسألة الخشب الملعونة تلك، يخشى في كل ساعة أن يدخل عليهم المهندس نيغريل، يتبعه دانسير، وهو يصرخ، يحتجّ، ويجعلهم يعيدون العمل من الأول؛ وقد لاحظ أن نصب الدعائم الذي أنجزه عامله في الحمل والنقل كان يرضي هذين السيدين وزيادة، رغم تظاهرهما بأنهما غير مسرورين أبداً وتكرار أن الشركة سوف تتّخذ في يوم من الأيام تدابير قاسية. كانت الأمور تتأخر، سخط مكتوم يختمر في الحفرة، **ماهو** بنفسه، الهادئ جداً، انتهى به المطاف إلى سورة غضب.

في البداية كان ثمة خصومة بين زكاري وإتيان. ذات مساء، هدّد كلاهما الآخر بلطمتين. لكن الأول، وهو فتى شهم، يسخر مما ليس له فيه متعة، وقد هدأ روعه بسرعة بعد العرض الودّي المتمثل في قدح شراب، سرعان ما لم يجد بُدّاً من الامتثال لتفوق الوافد الجديد. حتى **لوفاك** كان يبدي الآن وجهاً بشوشاً، ويتحدث في السياسة مع عامل الدفع والنقل الذي، كما يقول، كان خبيراً بها. ومن بين رجال الصفقة، فإنه لم يكن يشعر بأية عداوة مكتومة إلا عند شافال، ليس لأن كلاهما كان يجد كراهة في وجه الثاني، لأنهما أصبحا رفيقين على عكس ذلك؛ كانا يتراشقان بالنظرات فحسب، عندما يتمازحان. وكاترين، بينهما، كانت قد عادت لسير حياتها كفتاة مرهقة وخاضعة، تحني ظهرها، تدفع عربتها، لطيفة دوماً مع رفيقها في النقل الذي كان يساعدها بدوره، مستسلمة من جهة ثانية لمشيئة عشيقها الذي

كانت تخضع لمداعباته أمام العلن. كان ذلك وضعاً مقبولاً، قراناً معترف به، الأسرة بنفسها تغضّ عنه الطرف، إلى حدّ أن شافال كان يأخذ عاملة النقل كل مساء خلف الرّدم، ثم يعود بها إلى غاية باب والديها، حيث يقبّلها للمرة الأخيرة أمام المجمّع كله. إتيان، الذي ظن أنه استسلم للأمر الواقع، كان يعاكسها معظم الوقت بتلك النزهات، وهو يلفظ بغاية الضحك كلمات متهتّكة مثل تلك التي يُتلفظ بها بين فتيان وفتيات، في جوف المقالع؛ وكات ترد عليه باللهجة نفسها، وتقول من باب العجب المستفزّ ما فعله بها صاحبها، وهي حائرة مع ذلك ومصفرة الوجه حينما تصادف عينا الشاب عينيها. كانا يشيحان معاً بناظريهما، ويظلان دون أن يكلما بعضهما مدة ساعة، وعلى مُحيا كل منهما أمارة البغض بسبب أشياء دفنت بينهما، والتي لم يكونا يتبادلان بشأنها أي تفسير.

كان الربيع قد حل. ذات يوم، عند الخروج من البئر، تلقى إتيان تلك النفحة الفاترة من أبريل، رائحة أرضٍ فتية طيّبة، خضرةٍ ناعمة، هواءٍ طلق نقي؛ والآن، عند كل خروج، كان للربيع ريح أفضل، يدفئه زيادة، بعد ساعاته العشر من العمل في الشتاء الأبدي للجوف، وسط تلك الظلمات الرطبة التي لم يبدّدها أي صيف قط. كانت أوقات النهار تطول أكثر، وانتهى به الأمر، شهر مايو، إلى النزول مع شروق الشمس، حينما تضيء السماء القرمزية لوفوروه بغبار الفجر، حيث البخار الأبيض للأدخنة المصرّفة يصعد وردياً تماماً. لم يعُد المرء يرتجف بتاتاً، نفَس دافئ يهب من أقاصي السهل، بينما طيور القبَّر تغرّد، في

الأعالي. ثم، عند الساعة الثالثة، كان لديه وهج الشمس وقد صارت لاهبة، تحرق الأفق، تحمرّ من أثرها الحجارة تحت قذارة الفحم. في شهر يونيو، كانت سنابل القمح ملأى مُسبقاً، لونها أخضر تخالطه زرقة يتميز عن أخضر الشمندر الذي يخالطه سواد. كان بحراً لا حدّ له، يتموج لأدنى ريح، يراه ينبسط ويتعاظم يوماً عن يوم، ويستغرب أحياناً كما لو كان يجدها في المساء أشد خضرة من الصباح. كانت أشجار الحور المحاذية للقناة تتزيّن بالأوراق في زهو. والأعشاب تغزو الردم، والأزهار تملأ المروج، حياة تنبت بأكملها، تطلع من تلك الأرض، بينما كان يئنُ تحتها، هناك، من بؤس ومن تعب.

الآن، حينما كان إتيان يتجول، مساء، فإنه لم يعُد يفزع العشاق خلف الردم. كان يتبع أثرهم في الحقول، يفطن إلى أعشاشهم، أعشاش طيور اللذة، من خلال حركة السنابل المائلة إلى الصفرة وشقائق النعمان العظيمة الحُمر. كان زكاري وفلومين يرجعان هناك من باب عادة اقتران قديم؛ الأم **برولي**، دائماً في أعقاب **ليدي**، تجد مكانها كل مرة مع **جونلان**، ومن شدة ما كانا يندفنان عميقاً معاً، كان يجب وضع القدم عليهما لدفعهما إلى الإقلاع من هناك؛ أما **موكيت**، فقد كانت تقيم في أي مكان، لم يكن في الوسع عبور حقل، دون أن يرى المرء رأسها يغوص، بينما قدماها بارزتان وحدهما، أثناء انقلابات على الظهر بكامله. لكن جميع هؤلاء كانوا أحراراً بحقّ، ولم يكن الشاب يعتبر الأمر آثماً إلا في المساءات التي يلتقي خلالها كاترين وشافال. لمرّتين، رآهما، عند دنوه منهما، يهويان وسط قطعة ظلت سويقاتها الثابتة ميتة

بعد ذلك. مرة ثانية، بينما كان يسلك درباً ضيّقاً، بدت له عينا كاترين البراقتين سويّة القمح، ثم غرقتا. حينئذ بدا له السهل الشاسع مفرط الضيق، وفضّل قضاء السهرة عند راسنور في لافانتاج.

«سيدة راسنور، هات لي قدحاً. لا، لن أخرج هذه الليلة، ساقاي مكسورتان».

وكان يلتفت نحو رفيق، يجلس في العادة بمائدة في الطرف الأقصى، رأسه مسند إلى الحائط.

«**سوفارين**، ألا تشرب واحداً؟».

«شكراً، لا شيء على الإطلاق».

كان إتيان قد عرف **سوفارين** بالعيش هناك، جنباً لجنب. كان عامل آلة في لوفوروه، يقطن في الأعلى في الغرفة المؤثثة، بجوار غرفته. لعله كان يبلغ زهاء ثلاثين سنة من عمره، نحيفاً، أشقر، له وجه لطيف، يحفه شعر كثيف ولحية خفيفة. أسنانه البيض والحادة، فمه وأنفه الرقيقان، وسحنته المتوّردة كانت تخلع عليه مظهر فتاة، مظهر وداعة عنيدة، كان الظلّ الرمادي لعينيه اللتين قدَّتا من صلب توحش ببريقها. في غرفته، غرفة عامل فقير، لم يكن يمتلك سوى صندوق أوراق وكتب. كان روسياً. لم يكن يتحدث قط عن نفسه، ويترك الخرافات تُنسَج حوله. بعد أن فطن عمال الفحم الذين يتجرؤون كثيراً على الأجانب، إلى أنه من طبقة مغايرة من خلال يدي البرجوازي الصغيرتين، تصوروا في البدء مغامرة، اغتيالاً كان يهرب من عقابه. ثم أبدى نحوهم قدراً كبيراً من الأخوة، دون عجب، موزعاً على أطفال المجمّع كل ما في

جيبه من فلوس، مما جعلهم يقبلونه إلى حدّ تلك الساعة، وقد أمنوا لكلمة لاجئ سياسي المتداولة بشأنه، كلمة ملتبسة كانوا يجدون فيها عذراً، حتى للجريمة، وما يشبه رفقة في العذاب.

في الأسابيع الأولى، وجد إتيان أنه كان شديد التحفظ. لذلك لم يعرف قصته إلا في ما بعد. سوفارين أصغر أولاد أسرة رفيعة من ولاية **تولا**. في مدينة سان بترسبورغ، حيث كان يتابع دراسته للطب، جعله الهوى الاشتراكي الذي ذهب حينذاك بلب الشبيبة الروسية كلها، يقرّر تعلم حرفة يدوية، حرفة مصلح آلات، حتى يختلط بالشعب، ويتعرف عليه ويساعده من باب الأخوة. ومن هذه الحرفة كان يكسب قوتَه الآن، بعد هروبه عقب محاولة اغتيال فاشلة ضد الإمبراطور: مدة شهر، عاش في قبو بائع للفواكه، يحفر نفقاً عبر الزقاق، محملاً القنابل، تحت التهديد المتواصل لأن ينفجر هو والبيت. بعد أن أنكرته أسرته، دون مال، يشار إليه بالإصبع كأجنبي في الورشات الفرنسية التي كانت ترى فيه جاسوساً، كان يموت جوعاً، حينما قامت الشركة بتشغيله في نهاية المطاف، لظرف عاجل. ومنذ عام، يشتغل فيها بصفة العامل الطيّب، الرصين، الصموت، يقوم لأسبوع بخدمة النهار، ولأسبوع بخدمة الليل، بدقة، حيث أن الرؤساء كانوا يذكرونه على سبيل المثال المحتذى.

«هه، ألا تعطش أبداً؟»، كان إتيان يسأله ضاحكاً.

وكان يردّ بصوته الوديع، الذي يكاد يخلو من نبر:

«أعطش حين أجوع».

كان رفيقه يمازحه كذلك بخصوص الفتيات، ويقسم أنه رآه مع عاملة نقل في حقول القمح، جهة **با دو سوا**. حينها، يهزّ كتفيه، وكله لا مبالاة هادئة. عاملة نقل، لِم؟ المرأة بالنسبة إليه كانت فتى، رفيقاً، حينما تمتلك شجاعة رجل. وإلّا، ما الفائدة من أن يثقل على صدره بجبن ممكن؟ لا امرأة ولا صديق، لم تكن له رغبة في أية رابطة، كان في حلّ من دمه ومن دم الآخرين.

كل مساء، زهاء التاسعة، حينما تخلو الخمارة، يظل إتيان على تلك الحال يحدث سوڤارين. يشرب جعته قليلاً قليلاً، وعامل الآلة يدخّن تباعاً سجائره التي مع المدة سفَع تبغُها أصابعه الرقيقة. عيناه، عينا الزاهد التائهتان، تتبع الدخان من خلال حلم؛ يده اليسرى، كيما تشغل بشيء، كانت تجس بتوتر، تبحث في الفراغ؛ وكان ينتهي به المطاف، عادة، إلى أن يُجلِس على ركبتيه أنثى أرنب مألوفة، سمينة حبلى على الدوام، كانت تعيش طليقة، في البيت. تلك الأرنبة الأم، التي أطلق عليها بنفسه اسم **پولونيا**، أخذت تحبه، تأتي وتشم سرواله الطويل، تنتصب، تخدشه بقائمتيها، حتى يمسك بها مثل طفل. ثم، وهي متكومة عليه، أذناها مرتخيتان، تغلق عينيها؛ بينما هو، دون نصَب، بحركة مداعبة لا إرادية، يمسد بيده وبرها الحريري الرمادي، وقد بدا أنه يهدأ جراء تلك الوداعة الدافئة والحيّة.

«اعلم أني وصلتني رسالة من **پلوشار**»، قال له **إتيان** ذات مساء.

لم يعُد هناك غير راسنور. كان آخر زبون قد انصرف، عائداً إلى المجمّع الذي كان يهجع إلى النوم.

«أه!»، صاح صاحب الخمّارة، واقفاً بين مستأجرَيه، «أين وصل **پلوشار** من أمره؟».

كان إتيان يواظب، منذ شهرين، على مراسلة ميكانيكي مدينة **ليل**، الذي أخبره بفكرة قبوله للعمل في مونسو، والذي يلقنه الآن مذهبه، وقد أثارته الدعاية التي قد يسعه القيام بها وسط عمال المناجم.

« الحاصل أن الجمعية إياها تسير على أحسن ما يرام. يبدو أن الناس ينخرطون من كل حدب وصوب».

«وما رأيك، أنت، في جماعتهم؟»، سأل راسنور مخاطباً سوڤارين.

هذا الأخير الذي كان يحك بلطف رأس **پولونيا** رمى بدخان سيجارته، هامساً بصوته الهادئ:

«مزيد من الحماقات!».

لكن إتيان كان يتحمس. استعدادٌ تام للتمرد كان يرمي به إلى صراع العمل ضد الرأسمال، في أوهام جهله الأولى. كان الأمر يتعلق بجمعية العمال الأمميّة التي رأت النور من وقت قريب في لندن. أليس في ذلك جهد عظيم، حملة سوف ينتصر فيها العدل أخيراً؟ لا حدود بعد الآن، عمال العالم بأكمله، ينهضون، يتّحدون كي يضمن العامل الخبز الذي يكسبه. ويا له من تنظيم بسيط وعظيم: في الأسفل، القطاع، الذي يمثل الكومونة؛ ثم الفيدرالية، التي تجمع قطاعات الإقليم نفسه؛ ثم الوطن، وفي الأعلى، أخيراً، الإنسانية، المجسّدة في مجلس عام، حيث كل وطن ممثل بكاتب مناسب. قبل انصرام ستة أشهر، سوف يتم اكتساح الأرض، وإملاء

قوانين على أرباب العمل، إن بدر منهم أدنى تهديد.

«حماقات!»، كرر سوفارين، «لا زال كارل ماركس الذي يخصّكم يريد ترك قوى الطبيعة تفعل فعلها. لا سياسة، لا مؤامرة، أليس كذلك؟ كل شيء في واضحة النهار وفقط لرفع الأجور. دعوني وشأني أنتم وتطور الأحوال الذي يخصكم! أوقدوا النيران في كل أركان المدن، أبيدوا الشعوب، دمروا كل شيء، وحينما لا يبقى شيء من هذا العالم الفاسد، ربما قد يخرج منه عالم أفضل».

أخذ إتيان يضحك. لم يكن يسمع كلام رفيقه دائماً، إن فكرة التدمير تلك بدت له إثارة للإعجاب. راسنور، العملي أكثر، الذي له حسّ الرجل المستقر، لم يُبدِ غضباً. كان يريد فحسب تدقيق الأمور.

«وعليه، ماذا؟ سوف تحاول خلق قطاع في مونسو؟».

ذلك ما كان يرغب فيه بلوشار، كاتب فدرالية الشمال. كان يلح خصوصاً على الخدمات التي سوف تقدمها الجمعية لعمال المناجم، إن هم أضربوا يوماً عن العمل. إتيان، على وجه الخصوص، كان يظن أن الإضراب قريب: قضية الأخشاب لا تبشر بخير، يكفي مطلب واحد من الشركة حتى تثور كل المناجم.

«المزعج، هو المساهمات»، قال راسنور بنبرة حكيمة، «خمسون سنتيماً في السنة للخزينة العامة، فرنكان للفرع، يبدو أن ذلك لا يساوي شيئاً، وأراهن أن الكثير سيرفض أداءها».

«لا سيّما أنه يلزمنا في البدء إنشاء صندوق ادّخار»، أضاف إتيان، «سنجعل منه بالمناسبة صندوقاً للمقاومة. لا يهم، حان الأوان للتفكير في هذه الأمور. أنا على استعداد، إذا كان الآخرون مستعدّين».

خيّم صمت. كان مصباح الغاز يدخن على المعرض. من خلال الباب المشرع كان يسمع مجرفُ وقّاد في لوفوروه يملأ موقداً من مواقد الآلة.

«لقد أصبح ثمن كل شيء غالياً بإفراط!»، قالت السيدة راسنور التي دخلت من ذي قبل وكانت تسمع بمحياها الكئيب، وكأنها كبرت في لبستها السوداء الأبدية، «ماذا لو أخبرتكم أني دفعت مقابل البيض اثنين وعشرين فلساً. يجب وضع حدّ لذلك مهما كان الأمر».

هذه المرة كان الرجال الثلاثة على رأي واحد. كانوا يتحدثون الواحد بعد الآخر، بصوت مفجوع، وبدأت المظالم. لم يكن في وسع العامل التحمل، وزادت الثورة من حدة بؤسه، البرجوازيون هم من يزدادون ثراء منذ 89، بكل ذلك القدر من النهم إلى حدّ أنهم لم يتركوا له حتى طفاحة الصحون لمسحها. يجب القول قليلاً إذا كان العمال قد حصلوا على نصيبهم المعقول من النمو الخارق للثروة وللرفاهية، منذ مائة عام؟ لقد تمّ التخلي عنهم بالإعلان عن أنهم أحرار: أجل، أحرار في الهلاك جوعاً، وذلك لم يحرموا منه أنفسهم بتاتاً. لا يحصل المرء على خبزه من التصويت لأجل أولئك الأقوياء الذين يرفلون في النعيم بعد ذلك، ولا يتذكرون أبداً البؤساء مثلما لا يتذكرون أحذيتهم البالية. كلا، بطريقة أو بأخرى، توجب وضع حدّ لذلك، سواء بلطف، بقوانين، باتفاق ودي، أو بطريقة المتوحشين، بحرق كل شيء، وبأن يأكل هؤلاء أولئك. من المؤكد أن الأطفال سوف يشهدون ذلك، إذا لم يكن قد شهده الشيوخ والعجزة، لأنه ليس في وسع القرن أن

يكتمل دون أن تقع ثورة أخرى، ثورة العمال هذه المرة، انقلاب سوف يُطهّر المجتمع من فوق إلى تحت، وسيعيد بناءه بمزيد من النقاء والعدل.

«يجب وضع حدّ لذلك مهما كان الأمر»، كررت السيدة راسنور بحيوية.

«أجل، أجل»، صاح الثلاثة جميعاً، «يجب وضع حدّ لذلك».

كان سوفارين يلامس الآن أذني **بولونيا** التي كان أنفها ينثني متعة. قال بصوت مهموس، وعيناه تائهتان، كما لو أنه يحدث نفسه:

«رفع الأجر، هل من الممكن؟ إنه ثابت بالقانون الفولاذي، قانون الحدّ الأدنى للأجر، بالكاد ما يلزم حتى يطعم العمال كسرة خبز يابسة وصنع أطفال. إذا هبط أكثر، هلك العمال، والطلب على رجال جدد يجعله يرتفع. إذا ارتفع عالياً جداً، فإن العرض المفرط يجعله يهبط. إنه توازن البطون الفارغة، الحكم المؤبد بالسجن جوعاً».

حينما يكون سادراً بذلك النحو، ويتحدث عن مواضيع يُلمّ بها اشتراكي خبير، كان كل من إتيان وراسنور يظل حائراً، وقد بلبله كلامه المفجع، الذي لا يعرفان له جواباً.

«اسمعا!»، قال مستأنفاً كلامه بسكونه المعتاد، «عندما ننظر إليهم، يجب تدمير كل شيء، وإلا تكاثر الجوع من جديد. أجل! الفوضى! ولا يبقى شيء، الأرض وقد غسلت بالدم، طُهِّرت بالحريق! بعد كل سوف نرى».

«السيد على حق»، صرحت السيدة راسنور، التي كانت، في غمرة عنفها الثوري تظهر عن أدب جمّ.

لم يُرد إتيان مزيداً من الجدل، وقد يئس من جهله. نهض وهو يقول:

«هيّا إلى النوم. كل هذا لن يمنعني من النهوض على الساعة الثالثة».

أصلاً كان سوفارين قد حمل بلطف الأرنبة السمينة من أسفل بطنها كي يضعها على الأرض، بعد أن رمى بنفسه عقب السيجارة اللاصق بشفتيه. أغلق راسنور المحل. افترقوا في صمت، في الآذان طنين والرأس وكأنه انتفخ بالأسئلة الخطرة التي خاضوها.

وكل مساء، كانت الأحاديث نفسها، في القاعة الخالية، حول القدح الوحيد الذي كان إتيان يستغرق ساعة في شربه. كان خزان من الأفكار الغامضة، النائمة فيه، يتحرك، يتّسع. وتأكله على الأخص الحاجة إلى المعرفة؛ تردّد طويلاً في استعارة كتب من جاره الذي لم يكن يملك مع الأسف سوى مؤلفات ألمانية وروسية. وفي نهاية المطاف، استعار كتاباً فرنسياً حول المجتمعات التشاركية، مزيد من الحماقات كان يقول سوفارين؛ وكان يقرأ بانتظام صحيفة تصل إلى هذا الأخير، (Le Combat)، صحيفة فوضوية تصدر في مدينة جنيف. فضلاً عن ذلك، رغم صلاتهم اليومية، كان يرى دائماً أنه منغلق بالقدر نفسه، بمظهر من يقيمُ في الحياة، بلا اهتمامات ولا عواطف ولا ممتلكات من أي نوع.

تحسّنت أحوال إتيان في الأيام الأولى من شهر يوليو تقريباً. وسط تلك الحياة الرتيبة، التي تتجدّد باستمرار في المنجم

وقعت حادثة: صادفت أشغال عِرق **غيوم** فرشة متداخلة، تشوش كامل في الطبقة، يُنذر يقيناً بالدنو من شرخ؛ وبالفعل، صادفوا بعد حين ذلك الشرخ، لم يكن المهندسون على علم به بعدُ، رغم معرفتهم الكبيرة بالميدان. قلب ذلك الأمر المنجم، ولم يعُد هناك من حديث سوى عن العِرق المندثر، الذي زلق دون شك إلى الأسفل، من الجانب الثاني للشرخ. أخذ عمال المنجم القدامى يفتحون مناخرهم مقدماً، مثل كلاب مدربة على مطاردة حجر الفحم. لكن في انتظار ذلك، لم يكن في وسع المواقع أن تظل مكتوفة الأيدي، وأعلنت ملصقات بأن الشركة سوف تقيم مزاداً للصفقات الجديدة.

ذات يوم، عند الخروج، قام **ماهو** بمرافقة إتيان وعرض عليه الدخول كحفّار في صفقته، مكان **لوفاك** الذي انتقل إلى موقع ثان. لقد تمّ ترتيب الأمر مسبقاً مع رئيس العمال الأول والمهندس اللذين أبانا عن سرورهما كثيراً إزاء الرجل الشاب. لذلك لم يكن أمام إتيان إلا قبول هذه الترقية السريعة، وهو فرح بالتقدير المتعاظم الذي يخصه **ماهو** به.

وما أن حلّ المساء حتى عادا معاً إلى الحفرة للاطلاع على الملصقات. كانت المقالع الموضوعة رهن المزاد تقع في العِرق **فيلونيير**، بالسرداب الشمالي من لوفوروه. كانت تبدو غير ذات جدوى، وعامل المنجم يهزّ رأسه عند قراءة الشاب للشروط. وبالفعل، في اليوم التالي، حينما نزلا ورافقه لزيارة العِرق، أثار انتباهه إلى البعد من سلم البئر، وطبيعة الأرض المنهارة، قلّة السمك وصلابة الفحم. ومع ذلك، إذا أراد المرء كسب قوته، وجب

عليه أن يعمل. لذلك، في يوم الأحد التالي، ذهبا إلى المزاد الذي جرى في المستودع وترأسه مهندس المنجم بمؤازرة من رئيس العمال الأول، في غياب مهندس القسم. كان هنالك من خمسمائة إلى ستمائة عامل فحم، قبالة المنصة الصغيرة، المثبتة في أحد الأركان؛ وكانت المزايدات تسير بوتيرة سريعة حيث لا يُسمع سوى لغط مكتوم من الأصوات، صياح بأرقام، تحجبها أرقام غيرها.

خشي **ماهو** ذات لحظة من ألا يستطيع الحصول على صفقة من الأربعين صفقة التي عرضتها الشركة. كان جميع المنافسين يخفضون العروض، لقلقهم من شائعات حول الأزمة، وقد استبد بهم الذعر من البطالة. لم يكن المهندس **نيغريل** مستعجلاً أمام ذلك التعنّت، وكان يترك المزادات إلى أقل الأرقام الممكنة، بينما دانسير، الراغب في تسريع الأمور، كان يكذب بخصوص جودة الصفقات. وقد تطلب الأمر من **ماهو** للحصول على خمسين متراً لتقدم الأشغال أن ينازع رفيقاً له، كان يصرّ بدوره أيضاً عليها؛ واحداً بعد الثاني، كانا ينقصان سنتيماً من عربة الحمل؛ وإذ هو ربح المزاد، فذلك لأنه أفرط في خفض الأجر حدّ أن رئيس العمال ريشوم، الواقف خلفه، كان يكظم غيظه، يلكزه بمرفقه، وهو يزمجر بغضب أنه لن يكسب شيئاً بذلك السعر.

حينما خرجا كان إتيان يكيل اللعنات. واغتاظ من شافال العائد من الحقول رفقة كاترين، متسكعاً، بينما الصهر مشغول بالأمور الجادّة.

«يا للعنة!»، صاح، «هذا اقتتال! إذن، اليوم، أصبح العامل مجبراً على أكل العامل!».

أخذت شافال سورة غضب؛ هو، ما كان ليخفض الأجر أبداً! وقال زكاري الذي جاء بدافع الفضول أن ذلك مقرف. لكن إتيان أخرسهما بإيماءة عنف مكتوم.

«سوف ينتهي ذلك، سنكون الأسياد، ذات يوم!».

ماهو الذي ظلّ ساكتاً منذ المزاد، بدا وكأنه يصحو من غفلته. كرّر:

«الأسياد، آه! يا للحظ العاثر! لن يحدث ذلك في القريب العاجل!».

II

كان ذلك اليوم آخر يوم أحد من شهر يوليو، عيد التكريس في مونسو. بداية من مساء السبت، كانت ربّات البيوت العاملات في المجمّع قد نظفن قاعاتهن بالماء الكثير، طوفان، دلاء من الماء ترمى من بعيد على البلاطات وعلى الجدران؛ وقبل أن تجفّ الأرض بعد، رغم الرمل الأبيض الذي يُنثر عليها، ترف باهض بالنسبة لمدخرات أولئك المساكين. ومع ذلك، فإن النهار كان ينذر بحرارته الشديدة، واحد من تلك الأجواء العاتية، المحملة بالعواصف، التي تخنق في الصيف بوادي الشمال، المنبسطة والمقفرة، إلى ما لا حدّ له.

الأحد يقلب ساعة الاستيقاظ عند آل **ماهو**. مهما كان الأب مغتاظاً في فراشه، منذ الساعة الخامسة، فقد كان يرتدي ملابسه مع ذلك، بينما يظل الأطفال غرقى في النوم حتى التاسعة. في ذلك اليوم، ذهب **ماهو** لتدخين غليونه في حديقته، وانتهى به الأمر إلى العودة وفي الانتظار، أكلَ رغيفاً مدهوناً، لوحده. قضى الصبيحة على ذلك النحو، دون أن يدرك في أي شيء قضاها: سدّ الحوض الذي كان يسيل، ألصق تحت وقواق الساعة صورة أمير إمبراطوري أُعطي هدية للصغار. في تلك الأثناء، نزل الآخرون، فرداً فرداً، وكان الأب بونمور قد أخرج كرسياً للجلوس تحت ضوء الشمس، وفي الحال شرعت الأم وألزير في الطبخ. وظهرت كاترين، تدفع أمامها لينور وهنري الذي ألبسته ثيابه للتو؛ وكانت الساعة الحادية عشرة تدق، ورائحة الأرنب الذي كان

يغلي مع البطاطس تملأ البيت مقدماً، حينما كان زكاري وجونلان آخر من نزل، العيون منتفخة، وهما لا يزالان يتثاءبان.

فضلاً عن ذلك، كان المجمّع محلقاً في الهواء، متّقداً بالعيد، في مرمى الغذاء الذي كان يتمّ استعجاله للإسراع جماعات نحو مونسو. كان الأطفال يركضون فِرَقاً، والرجال بقمصانهم وسراويلهم فحسب يجرون نعالهم، يتهادون بكسلِ أيام العطل. النوافذ والأبواب مشرعة للجو الجميل، كانت تفسح لرؤية صف الحجرات، التي تضج كلها، بالحركة والصراخ، بلغط اختلاط الأُسر. ومن أدنى طرف في الواجهات إلى أقصاه، كانت تفوح رائحة الأرنب، فوح طبخ ثري، ينازع في ذلك اليوم رائحة البصل المقلي الراسخة.

تناول آل ماهو الغذاء عندما أعلنت الساعة منتصف النهار بالضبط. لم تصدر عنهم جلبة كبيرة، وسط الثرثرة من باب إلى باب، للجيران تختلط معه النساء في حركة دؤوب من المناداة والأجوبة، والأغراض المعارة، والصبيان الذين يتمّ صرفهم أو إحضارهم بصفعة. علاوة على ذلك، كان هناك فتور منذ ثلاثة أسابيع بينهم وجيرانهم آل لوفاك، بخصوص زواج زكاري وفيلومين. كان الرجلان يلتقيان، أما الزوجتان فقد كانتا تتظاهران وكأنهما لا تعرفان بعضاً. متّن هذا الخلاف العلاقات مع پييرونه. إلا أن پييرونه بعد أن تركت لأمها پييرون وليدي، ذهبت في الصباح الباكر لقضاء النهار عند قريبتها، في مارشيين؛ وكان الناس يمزحون، إذ يعرفون من تكون القريبة: كان لها شاربان، وهي رئيس عمال في لوفوروه. قالت ماهود أن ذلك ليس بتاتاً بالسلوك السّوي، التخلي عن أسرتها يوم أحد التكريس.

فضلاً عن الأرنب بالبطاطس الذي كانوا يسمّنونه في المُسقّف الحجري منذ شهر، كان بمائدة آل **ماهو** حساء دسم ولحم عجل. إذ أن أجرة نصف الشهر حُصِّلت بالضبط عشية يومهم ذاك. لم تعُد لهم ذكرى بمثل تلك المأدبة المترفة. بل حتى في عيد القديسة بربارة، عيد عمال المناجم الذي لا يصنعون فيه شيئاً مدة ثلاثة أيام، لم يكن الأرنب دسماً وليّناً بذلك القدر كله. لذلك فإن الفكوك العشرة، من الصغيرة إستيل التي أخذت أسنانها في النمو، إلى العجوز بونمور الذي كانت أسنانه في طريقها إلى السقوط، كانت تهرس بقوة إلى حدّ أن العظام نفسها كانت تندثر. كان اللحم لذيذاً؛ لكنه كان عسير الهضم، إذ من النادر جداً أن يروا مثله. لم يبق منه شيء سوى قطعة لحم للمساء. قد يضاف إلى ذلك أرغفة مدهونة، إذا كان بهم جوع.

كان **جونلان** أول من اختفى عن الأنظار، وبيبير في انتظاره خلف المدرسة. طافا كثيراً قبل جلب **ليدي**، التي كانت **برولي** تريد حجزها جنبها، وهي عازمة على أن تخرج. حينما نبهت إلى فرار الطفلة، صرخت، لوَّحت بذراعيها الهزيلتين، بينما كان **بييرون** الذي أضجره ذلك اللغط منصرفاً للتسكع بهدوء، وعليه أمارة الزوج الذي يلهو دون ندم، وهو يعلم أن زوجته، بدورها، تستمتع.

انصرف العجوز بونمور بعد ذلك، وقرر **ماهو** أن يذهب للهواء الطلق بعد أن سأل **ماهود** إن هي أرادت اللحاق به هناك. كلا، لا تستطيع بتاتاً، إنها في مشقّة حقيقية مع الصغار؛ ربما أجل رغم كل شيء، سوف تفكر، وسيلتقيان دوماً. حينما كان في الخارج،

تـردّدَ، ثـم دخـل عنـد الجيـران، حتـى يتبيـن إن كان لوڤـاك جاهـزاً. لكنـه وجـد زكاري الـذي كان ينتظـر فيلوميـن؛ وكانـت لوڤاكـه قـد بـدأت آنفـاً فـي موضـوع الـزواج، ذلـك الموضـوع الأبـدي، تصيـح أن هنـاك مـن لا يكتـرث لهـا، وأنهـا سـيكون لهـا حديث أخيـر مـع ماهـود. هـل تلـك حيـاة، أن تحضـن طفلَـي بنتهـا اللذيـن بـلا أب، بينمـا هـذه الأخيـرة تعـدو مـع عشـيقها؟ لمـا فرغـت فيلوميـن بـكل هـدوء مـن وضـعِ قبعتهـا، رافقهـا زكاري وهـو يكـرر أنـه يريـد ذلـك بحـق إذا قبلـت أمـه. ثـم إن لوڤـاك كان قـد انصـرف أصـلاً، وأرسـل **ماهو** الجـارة إلـى زوجتـه ثـم عجّـل بالخـروج. **بوتلو**، الـذي كان ينتهـي مـن أكل قطعـة جبـن، المرفقـان علـى المائـدة، رفـض بإصـرار الدعـوة الوديـة لشـرب قـدح. إنـه يبقـى فـي البيـت، بصفتـه زوجـاً صالحـاً.

فـي تلـك الأثنـاء أخـذ المجمّـع يخلـو شـيئاً فشـيئاً، كل الرجـال ينصرفـون بعضهـم خلـف بعـض؛ بينمـا الفتيـات، بالمرصـاد عنـد الأبـواب، ينصرفـن مـن الجهـة المعاكسـة، برفقـة عشـاقهن. وبمـا أن أباهـا كان ينعطـف عنـد زاويـة الكنيسـة، عجلـت كاتريـن للحـاق بشـاڤال حيـن أبصرتـه، حتـى تسـلك معـه طريـق مونسـو. وحيـث ظلـت الأم وحدهـا، وسـط أطفـال متفرقيـن، لـم تجـد القـوة لأن تبـرح كرسـيها، كانـت تصـبّ لنفسـها كأسـاً ثانيـة مـن القهـوة الحارقـة، وتشـربها قليـلاً قليـلاً. فـي المجمّـع، لـم يعُـد هنـاك سـوى النسـاء، يتبادلـن الدعـوات، يفرغـن أوانـي القهـوة مـن كل قطـرة، حـول موائـد الغـذاء وهـي لا تـزال سـاخنة ودسـمة.

كان **ماهـو** يشـعر أن لوڤـاك فـي لاڤانتـاج، فنـزل عنـد راسـنور، دون عجـل. وبالفعـل، خلـف الحانـة، فـي الحديقـة الضيقـة المسـوّرة

بسياج، كان لوڤاك يلعب بالأوتاد الخشبية مع رفاقه. وقوفاً، كان الأب بونمور والعجوز موك، وهما لا يلعبان، يتبعان الكرة، ومن شدة استغراقهما كانا يغفلان أن يتدافعا بالمرفقين. شمس حارقة كانت ترمي بشررها، لم يكن ثمة سوى بقعة ظلّة صغيرة، على امتداد الخمّارة؛ وكان إتيان هناك، يشرب قدحه عند طاولة، وهو منزعج من أن سوڤارين تركه للتو كيما يصعد إلى غرفته. كل أيام الأحد تقريباً، كان عامل الآلة يغلق على نفسه، يكتب أو يقرأ.

«هل تلعب؟»، قال لوڤاك سائلاً **ماهو**.

لكن الثاني رفض. كان يشعر بحرارة مفرطة، ويهلك من العطش مسبقاً.

«راسنور!»، نادى عليه إتيان، «هيا أحضر قدحاً».

وهو يلتفت صوب **ماهو**:

«كما تعلم، أنا من يؤدي ثمنها».

الآن، رفع الجميع الكلفة في التخاطب. لم يكن راسنور يستعجل البتة، وقد وجب المناداة عليه ثلاث مرات؛ وكانت السيدة راسنور هي من أحضر الجعة الفاترة. كان الرجل قد خفض صوته لبث شكواه من المحل: لا أشك أنهما أهل للفضل، لهما أفكار حسنة؛ لكن الجعة لا تساوي شيئاً، والحساء قبيح! كم تمنى عشر مرات أصلاً أن يغير الإقامة، لو أنه لم يتراجع أمام الغدو والرواح في مونسو. ذات يوم سوف ينتهي به الأمر إلى البحث عن أُسرة في المجمّع.

«مؤكّد»، كان **ماهو** يردد بصوته البطيء، «مؤكد، سوف تكون بحال أفضل بين أُسرة من الأسر».

لكن دوّت صرخات، كان لوفاك قد أسقط جميع الأوتاد الخشبية دفعة واحدة. مُوك وبونمور، الأنف إلى الأرض، وسط الجلبة، لزما صمتاً يدل على موافقة تامة. وقد تحول الابتهاج بضربة كتلك إلى مزح، خاصة حينما أبصر اللاعبون من خلف السياج وجه **موكيت** المتهلل الأسارير. كانت تطوف هناك منذ ساعة، وتحمّست للاقتراب حين سماعها أصوات الضحك.

«كيف؟ أنت لوحدكِ؟»، صاح لوفاك، «وعشاقك؟».

«عشاقي؟ لقد أحلتهم على المعاش»، أجابت بمرح جميل إباحيّ، «أبحثُ عن واحد».

عرض عليها الجميع أنفسهم، وأغدقوا عليها بالكلام المتهتّك. كانت ترفض بإيماءة من رأسها، تضحك بشدة، تتظاهر بالظرف. وقد كان والدها يشهد ذلك اللهو، دون أن تزيغ عيناه عن أوتاد اللعب الساقطة.

«هيا!»، تابع لوفاك وهو يرمي بنظره نحو إتيان، «إننا نشك حقاً في من وضعتِه نصب عينيك، يا بنت! يجب أخذه عنوة».

حينئذ ابتهج إتيان. إذ الحق أن حوله كانت عاملة النقل تحوم. وكان يقول «لا»، وهو يتسلى بذلك، لكن دون أن تحدوه أدنى رغبة فيها. وظلت واقفة خلف السياج دقائق معدودات أُخر، وهي تنظر إليه بعينيها الواسعتين المحدّقتين؛ ثم انصرفت بتؤدة، وقد اكتسى وجهها فجأة مسحة جادة، وكأن الشمس العاتية أثقلت كاهلها.

بصوت مهموس، استأنف إتيان شروحه الطويلة التي كان يبسطها أمام **ماهو**، عن ضرورة إنشاء صندوق ادّخار لصالح عمال الفحم بمونسو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ما دامت الشركة تدعي أنها تتركنا وشأننا»، كان يردّد، «مم الخوف؟ ليس لدينا سوى معاشاتها، وهي توزعها حسب هواها، بما أنها لا تخصم لنا شيئاً. وعليه! سوف يكون من الحكمة أن نقوم، إلى جانب إحسانها، بإنشاء جمعية تعاضدية للعون يمكن الاعتماد عليها في حال الاحتياجات العاجلة، على الأقل».

وكان يدقّق التفاصيل، يفحص الجانب التنظيمي، ويتعهّد ببذل كل جهد.

«أنا موافق»، قال **ماهو** في نهاية المطاف، «لكن، الأمر يتعلق بالآخرين، احرُص على إقناع الآخرين».

كان لوفاك قد ربح اللعبة، وتُركت الأوتاد الخشبية قصد إفراغ الأقداح. لكن **ماهو** رفض أن يشرب قدحاً ثانياً: سوف يرى لاحقاً، لم ينتهِ النهار بعد. كان قد خطر **بييرون** بباله للتو. أين تُراه، بييرون؟ لا شك أنه في حانة **لونفان**. أقنع إتيان ولوفاك، وانطلق الثلاثة جميعاً إلى مونسو، بينما جماعة جديدة كانت تدخل رقعة لعب الأوتاد الخشبية لافانتاج.

في الطريق، على الرصيف، توجّب دخول حانة **كازمير**، ثم حانة **بروغري**. كان رفاق ينادون عليهم من الأبواب: لا وسيلة للرفض. كل مرة، كان قدح، قدحان إن عرضوا هم أيضاً من باب الأدب. يظلون هناك مدة عشر دقائق، يتبادلون بضع كلمات، ثم يعيدون الكرّة في محل أبعد، بكامل الحصافة، لمعرفتهم بالجعة التي يسعهم ملء بطونهم بها، بلا حرج سوى تبولها بسرعة، شيئاً فشيئاً، صافية، مثل ماء النبع. في حانة لونفان، لقيا بييرون على الفور، وقد كان يفرغ قدحه الثاني، وبلع قدحاً ثالثاً، حتى لا يرفض

صفق الأقداح. وهم شربوا بالطبع أقداحهم. الآن صاروا أربعة، خرجوا وهم يقصدون التحقق مما إذا كان زكاري في حانة تيزون. كانت القاعة خاوية، طلبوا قدحاً لانتظاره قليلاً. ثم خطر ببالهم حانة سانتي لوا، قبلوا هناك قدحاً من رئيس العمال ريشوم، ثم تسكعوا من حانة إلى أخرى، دون ذريعة، إلا التجول فحسب.

«يجب الذهاب إلى ڤولكان»، قال لوڤاك بغتة، الذي أخذته سورة شراب.

طفق الآخرون يضحكون، وهم مترددون، ثم صاحبوا الرفيق وسط جلبة التكريس المتعاظمة. في قاعة ڤولكان الضيقة الطويلة، على منصة منصوبة في أقصى طرف، كانت هناك خمس راقصات، حثالة عاهرات مدينة لِيل، يستعرضن بحركات وملابس تكشف عن الصدور تليق بالمسوخ؛ وكان الشاربون يدفعون عشرة فلوس حينما يرغبون في واحدة منهن، خلف ألواح المنصة الخشبية. كان هناك على الأخص عمال النقل والتفريغ، بل حتى صبيان متعلمون يبلغون أربعة عشر عاماً، شبيبة الحفر جميعها، يشربون الماحيا أكثر من شربهم الجعة. كان بعض عمال المناجم القدامى يجرؤون أيضاً، أزواج المجمّعات السكنية الذين غُلِبوا شهوة، أولئك الذين أصاب الخراب حياتهم الزوجية.

ما أن جلست جماعتهم إلى طاولة صغيرة، حتى استفرد إتيان بلوڤاك، كيما يشرح له فكرته عن صندوق الادخار. كان لديه إصرار في الدعاية، إصرار المعتنقين الجدد، الذين يخلقون لأنفسهم رسالة ما.

«يستطيع كل عضو أن يدّخر في الصندوق عشرين فلساً في الشهر»، كان يردد، «بتراكم تلك العشرين فلساً، نحصل في غضون

أربعة أعوام أو خمسة على ثروة؛ وعندما نمتلك المال، نكون أقوياء، أليس كذلك؟ في أي ظرف كان، هه! ما قولك؟».

«أنا، لا أقول (لا)»، أجابه لوفاك شارد الذهن، «سوف نتحدث في الأمر لاحقاً».

كانت شقراء عظيمة تثير شهوته؛ وأصر على البقاء حينما أراد ماهو پييرون الانصراف بعدما شرب كلّ قدحه، دون انتظار رقصة ثانية.

في الخارج، لما خرج معهم إتيان، وجد موكيت التي بدا أنها كانت تتعقبهم. كانت لا تزال هناك، تنظر إليه بعينيها الواسعتين المحدّقتين، وهي تضحك ضحكة الفتاة الطيبة، كما لو أنها تقول: «هل تريد؟» مازحها الشاب، هزّ كتفيه. حينذاك لوّحت بحركة غاضبة، وغابت وسط الحشد.

«أين هو شافال إذن؟»، سأل پييرون.

«صحيح»، قال **ماهو**. المؤكد أنه عند پيكيت. هيا بنا عند **پيكيت**».

لكن حينما وصلوا ثلاثتهم إلى حانة پيكيت، أوقفتهم جلبة عراك عند الباب. كان زكاري يهدد بقبضته صانع مسامير والوني الأصل، بارد ورابط الجأش، بينما كان شافال ينظر، ويداه مدسوستان في جيبيه.

«هاك! ها هو ذا شافال»، استرسل **ماهو** قائلاً بهدوء، «إنه برفقة كاترين».

منذ خمس ساعات كاملة، كانت عاملة النقل وعشيقها يتنزهان خلال المحفل. على طول طريق مونسو، كان يمتد ذلك الفضاء

مـن الزقـاق الواسـع ذي المنـازل الواطئـة والمشـبعة بالألـوان، التـي تنحـدر متعطفـة، سـيل مـن البشـر يجـري تحـت الشـمس، مثـل قريـة نمـل سـائرة، تائهـة فـي عـري السـهل المنبسـط. كان الوحـل الأسـود الأبـدي قـد يبـس، غبـار أسـود كان يتصاعـد، يحلـق مثـل سـحابة عاصفـة. فـي الجانبيـن، كانـت الخمّـارات تضـج بالنـاس، تزيـد مـن عـدد موائدهـا حتـى الرصيـف، حيـث كان يقـف صفّـان مـن الباعـة الجوّاليـن، أسـواق فـي الهـواء الطلـق، أوشـحة ومرايـا للفتيـات، سـكاكين وقبعـات للفتيـان؛ فضـلاً عـن اللذائـذ، حبـوب محـلاة وكعـك. أمـام الكنيسـة، هنـاك الرمايـة بالقـوس. ألعـاب الكـرات، قبالـة المواقـع. عنـد زاويـة طريـق جوازيـل، جنـب الوكالـة، فـي حـوش مـن الألـواح، يهـرع النـاس إلـى عـراك الديكـة، ديـكان أحمـران عظيمـان، بمخلـب كل منهمـا مهمـاز حديـدي، والعنـق المشـقوق ينـزف. أبعـد مـن هنـاك، عنـد ميغـرا، الرهـان فـي البليـاردو علـى ربـح مئـزر وسـراويل قصيـرة. وكان يعـم الجميـع صمـت طويـل، حينمـا يشـرب الحشـد، ويمـلأ بطنـه دون صرخـة واحـدة، ويمتـد عسـر هضـم مكتـوم للجعـة وللبطاطـس المقليـة، وسـط تلـك الحـرارة الطاغيـة، تُرفـع مـن شـدتها المقالـي التـي كانـت تغلـي فـي الهـواء الطلـق.

اشـترى شـافال مـرآة بتسـعة عشـر فلسـاً ووشـاحاً بثلاثـة فرنـكات لكاتريـن. فـي كل دورة كانـا يلتقيـان مـوك وبونمـور اللذيـن جـاءا إلـى المحفـل، متواريـين، يعبرانـه جنبـاً إلـى جنـب، بسـيقانهما الثقيلـة. لكـن لقـاء ثانيـاً أغاظهمـا، إذ شـاهدا جونـلان وهـو يدفـع ببيبـر وليـدي لسـرقة قنانـي الماحيـا فـي حانـوت للقمـار، المقـام جنـب أرض خـلاء. لـم تجـد كاتريـن بـداً مـن صفـع أخيهـا، بينمـا كانـت الصغيـرة تركـض

مسبقاً بقنينة. هؤلاء الأطفال الملاعين سينتهي بهم المطاف إلى السجن.

وعليه، حينما وصل شاڤال قبالة حانوت **لاتيت كوپي** عنّت له فكرة أن يُدخل إليه محبوبته حتى تشهد مسابقة لعصافير البِرقِش المغرّدة، المعلن عنها على الباب من قبل ثمانية أيام. لبّى الدعوة خمسة عشر صانع مسامير، من مصانع مونسو للمسامير، كل واحد معه ما يقرب من اثني عشر قفصاً؛ وكانت الأقفاص الصغيرة المظلمة حيث تظل العصافير، وقد تعمَّت، بلا حركة، معلقة مسبقاً إلى سور في ساحة الخمّارة. كان الأمر يتعلق بحساب من يكرر مدة ساعة مراتٍ أكثر جملة غنائه. كل صانع مسامير، بمعية لوحة، كان يقف قرب أقفاصه، وهو يقيّد، يرقب جيرانه، وهو بدوره مراقب. وها هي العصافير قد انطلقت، عصافير «شيشويوه» ذات النغمة المكتومة، و«باتيزكويك» بصوتها العالي، التي بدأت بخجل، مجازفة بجمل معدودة، ثم بعد أن دبّ الحماس بينها، رفعت الإيقاع، ثم بعد أن أخذتها سورة المحاكاة إلى مبلغ لا يطاق، كانت تُرى وهي تسقط ثم تموت. بعنف، كان صناع المسامير يسلطون عليها أصواتهم، ويصرخون فيها باللهجة الوالونية كي تغني، مرة، وثانية، وأخرى؛ بينما المتفرجون، مائة فرد ونيف، كانوا يظلون صامتين، وقد شغفهم المشهد، وسط تلك الموسيقى الجهنمية لمائة وثمانين عصفوراً، تكرر جميعها الوتيرة نفسها في مقامات مختلفة. وقد فاز عصفور «باتيزكويك» بالجائزة الأولى وهي آنية للقهوة من الحديد المطروق.

كانت كاترين وشاڤال هناك حينما دخل زكاري وفيلومين.

سلموا على بعض وظلوا معاً. لكن، فجأة، غضب زكاري، حينما باغت صانع مسامير جاء مع رفاقه يدفعه حبّ الاستطلاع، كان يقرص فخذ أخته: كان وجهها محمراً من الخجل، تطلب منه أن يصمت، مرتجفة من فكرة وقوع مجزرة، كل صناع المسامير هؤلاء وهم ينقضون على شافال، إن هو منعها عن القرص. لقد أحسّت حقاً بالرجل، لكنها لم تقل شيئاً، من باب الحيطة. فضلاً عن ذلك، فإن عشيقها كان يقهقه، وخرج الجميع، وبدا أن الأمر لزم ذلك الحد. وما أن دخلوا عند **پيكيت** لشرب قدح، ها قد ظهر صانع المسامير من جديد، غير مبالٍ بهم، نافخاً منخريه، متحرشاً بها. زكاري، الذي أغضبه المسّ بشرف أسرته، هجم على الوقح.

«إنها أختي، أيها الخنزير! تمهل، يا إلهي، سوف أجعلك تحترمها!».

هرع الناس لمنع الرجلين، بينما شافال، يردّ، وهو ساكن جداً:

«هيا دعه، هذا شأني. أقول لك إني لا أبالي به!».

جاء **ماهو** مع جماعته، وهدّأ من روع كاترين وفيلومين اللتين كانتا تبكيان. أضحى الحشد يضحك الآن، إذ اختفى صانع المسامير. ولإنهاء ذلك تماماً، قام شافال الذي كأنه في بيته بمحل **پيكيت** بتقديم أقداح. ولم يجد إتيان بدّاً من أن يصفق قدحه وكاترين، وشربوا جميعاً، الأب، البنت وعشيقها، الابن وعشيقته، وهم يقولون بتأدب: «في صحة الجماعة!»، وأصر پييرون على أن يؤدي عن الجميع بدوره. وقد كان الجميع موافقاً، حينما استشاط

زكاري غاضباً من جديد حينما أبصر رفيقه **موكي**. نادى عليه حتى يذهبا لتسوية مشكل صانع المسامير، كما قال.

«يجب أن أقضي عليه! هاك! شافال، اعتن بفيلومين وكاترين، سوف أعود».

وقام **ماهو**، هو أيضاً، بتقديم أقداح. بعد كل شيء، إذا أراد الفتى أن ينتقم لأخته، فذلك ليس بالتصرف السيّئ. لكن منذ أن رأت **موكي**، هدأت فيلومين وصارت تهز رأسها. من المؤكد أن الحقيرين أسرعا إلى حانة ڤولكان.

أمسية التكريس، كان الحفل يُختم في مرقص **بونجوايوه**. كانت الأرملة **ديزير** هي من يشرف على ذلك المرقص، أمٌّ صلبة في الخمسين من عمرها، لها استدارة برميل، لكنها تتمتع بقدر من الفجاجة إلى حدّ أن لا يزال لديها ستة عشاق، واحد لكل يوم من أيام الأسبوع، كما كانت تقول، وكلهم يوم الأحد. كانت تنادي على كل عمال الفحم بأطفالها، وقد رق قلبها من فكرة نهر الجعة الذي كانت تسقيه لهم منذ ثلاثين سنة ؛ كما كانت تفتخر أيضاً بأن ولا عاملة نقل واحدة صارت سمينة، بعدما كانت تحرّك ساقيها عندها مُقدّماً. كان محل بونجوايوه يضم قاعتين: الخمّارة، حيث يوجد المعرض والموائد؛ ثم المرقص، الذي يتصل بها مباشرة عبر فتحة واسعة، وهو حجرة شاسعة مبلطة بالألواح في وسطها فحسب، وبالآجر حواليه. كانت به زينة، شريطان بأزاهير من ورق، يلتقيان من زاوية السقف إلى زاويته الثانية، يجمعهما في الوسط تاج من الأزاهير نفسها؛ بينما على طول الجدران، تسيل شارات ذهبية، تحمل أسماء قديسين، القديس إلوا، شفيع عمال

الحديـد، القديـس كـريسپان، شـفيع الإسـكافيين، القديسـة بريـارة، شـفيعة عمـال المناجـم، رزنامـة الحرفييـن كلهـا. مـن شـدة مـا كان السـقف منخفضـاً كان الموسـيقيون الثلاثـة يطأطئـون رؤوسـهم، فـي منصتهـم، التـي لهـا سـعة منبـر واعـظ. وللإنـارة، فـي المسـاء، تعلـق أربعـة مصابيـح غـاز، فـي أركان المرقـص الأربعـة.

فـي يـوم الأحـد ذاك، بدايـة مـن الخامسـة، كان النـاس يرقصـون، في وضـح ضـوء النوافـذ. لكـن فـي السـاعة السـابعة تمتلـئ القاعتـان. فـي الخـارج، هبّـت ريـح عاصفـة، أثـارت غبـاراً أسـود عظيمـاً كان يعمـي النـاس ويُسـمع لـه أزيـز فـي مواقـد القلـي. كان ماهـو وإتيـان وپييـرون الذيـن دخلـوا للجلـوس، قـد التقـوا شـافال للتـو فـي بونجوايـوه، وهـو يرقـص مـع كاتريـن، بينمـا كانـت فيلوميـن، الجالسـة وحدهـا، تنظـر إليهمـا. أمـا لوفـاك وزكاري فلـم يظهـرا مـن جديـد. وبمـا أنـه لـم يكـن هنـاك مـن مقاعـد حـول المرقـص، فـإن كاتريـن كانـت تسـتريح بمائـدة أبيهـا، بعـد كل رقصـة. دعيـت فيلوميـن لكنهـا كانـت تفضـل الوقـوف. كان النهـار يأفـل، والموسـيقيون الثلاثـة يسـعّرون القاعـة، ولـم يعُـد يـرى فيهـا سـوى تحريـك الوركيـن والصـدور، وسـط اختـلاط لـلأذرع. اسـتُقبل ضجيـج المصابيـح الأربعـة، وبغتـة، أضـاء كل شـيء، الوجـوه الحمـراء، الشـعور المتفرقـة، اللاصقـة بالجلـد، التنانيـر المحلقـة، التـي تكنـس الريـح النافـذة للثنائيـات المتعرقـة. دل **ماهـو** إتيـان علـى موكيـت، المكـورة والبضـة مثـل مثانـة مشـحّمة، كانـت تـدور بشـدة بيـن ذراعـي عامـل تفريـغ طويـل القامـة هزيـل: لا بـدّ أنهـا أرادت أن تواسـي نفسـها والحصـول علـى رجـل.

وأخيـراً، عنـد السـاعة الثامنـة، ظهـرت ماهـود، فـي حضنهـا إسـتيل ويتبعهـا جمـع الصبيـان، ألزيـر، هنـري ولينـور. جـاءت إلـى هنـاك رأسـاً

لملاقـاة رجلهـا، ولـم تكـن تخشـى أنهـا تغلـط فـي العنـوان. سـوف يتعشـون فـي مـا بعـد، لـم يكـن هنـاك مـن يشـعر بالجـوع، المعـدة غارقـة فـي القهـوة، منفوخـة بالجعـة. وصلـت نسـاء أخريـات، وجـرى همس حينمـا شـوهدت لوڤاكـه داخلـة خلـف ماهـود، يرافقهـا بوتلـو، الـذي كان يواكـب بيـده أشـيل وديزيـري، صغيـرَي فيلوميـن. وبـدا أن الجارتيـن كانتـا علـى اتفـاق تـام، إذ تلتفـت الواحـدة وتكلـم الثانيـة. وفـي الطريـق، جـرى نقـاش كبيـر، واستسـلمت ماهـود لـزواج زكاري، متأسـفة علـى فقـد مـا يريحـه بِكرهـا، لكنهـا مغلوبـة علـى أمرهـا بعِلّـة أنهـا لا تسـتطيع الاحتفـاظ بـه أكثـر مـن غيـر أن تظلمـه فـي ذلـك. وهكـذا حرصـت علـى أن تظهـر بمظهـر حسـن، والقلـب هلـع، بصفتهـا ربّـة بيـت تتسـاءل عـن الوسـيلة للتغلـب علـى مصاريـف الشـهر، بعـد أن أخـذت أكبـر حصـة مـن مالهـا فـي النفـاد.

«اجلسـي هنـا، يـا جـارة»، قالـت وهـي تشـير إلـى طاولـة قـرب التـي كان **ماهو** يشـرب بهـا مـع إتيـان وپييـرون.

«زوجـي ليـس برفقتكم؟»، سـألت لوڤاكـه.

أخبرهـا الرفـاق بأنـه سـوف يعـود. تكـوّم الجميـع، بوتلـو والصغـار، فـي ضيـق شـديد لاسـتحواذ الشـاربين السـاحق علـى المجلـس بحيـث أن المائدتـان كانتـا علـى هيئـة مائـدة واحـدة. طُلِبـت أقـداح. حينمـا رأت أمهمـا وطفليهـا، قـررت فيلوميـن الدنـو منهـم. قبلـت كرسـياً، وبـدت فرِحـة لمّـا علمـت أنـه تـمّ تزويجهـا فـي نهايـة المطـاف؛ ثـم عنـد السـؤال عـن زكاري قالـت بصوتهـا النـاعـم:

«إنـي أنتظـره، إنـه فـي الجـوار».

تبادل **ماهو** النظر مع زوجته. هي موافقة إذن؟ صار جادّاً، ودخّن في صمت. هو أيضاً استبدت به حيرة الغد، أمام نكران أطفاله للجميل، الذين سوف يتزوجون الواحد بعد الآخر، تاركين والديهم في البؤس.

كان الناس يرقصون دوماً، وغرق المرقص في غبار أحمر بفعل نهاية رقصة رباعية، كانت الجدران تتصدّع، وبوقٌ قصير يطلق صفيراً حاداً على دفعات، مثل قاطرة تستغيث؛ وحينما توقف الراقصون، كان البخار يصعد من أبدانهم مثل جياد.

«هل تذكرين؟»، قال لوفاك وهو يميل نحو أذن ماهود، «أنتِ من كان يتكلم عن قتل كاترين خنقاً، إن هي ارتكبت حماقة!».

قام شافال بإعادة كاترين إلى مائدة الأسرة، وكانا معاً، وهما واقفان خلف الأب، يكملان قدحيهما.

«لا ضير!»، همست ماهود باستسلام ظاهر، «نقول ذلك. لكن ما يهدئ من روعي، هو أنه لا تستطيع أن ترزق بأولاد، آه! أنا على يقين من ذلك! هل تعلم إن وضعت، تلك أيضاً، وأن أجبَر على تزويجها! ماذا سنأكل حينذاك؟».

الآن كان البوق ينفخ موسيقى پولكا؛ وبينما صُمّت الأذان من جديد، أطلع ماهو زوجته خفية على فكرة. لماذا لا يستقبلون مستأجراً، إتيان مثلاً، الذي كان يبحث عن مسكن؟ سوف يكون لهم متسع، بما أن زكاري سوف يرحل، والمال الذي سيضيع من هذه الناحية، سوف يربحونه في المقابل من ناحية ثانية. تهللت أسارير ماهود: لا ريب، إنها فكرة حسنة، يجب ترتيب الأمر. بدا أنها انتُشلت من الجوع مرة أخرى، غدا مزاجها الرائق أشد حيوية، بحيث طلبت أن تسقى الأقداح جميعاً من جديد.

في تلك الأثناء، كان إتيان يعمل على استمالة پييرون إلى مذهبه، وشرح له مشروعه عن صندوق الادخار. وجعله يتعهد بالانضمام إليه، حين قام بكشف هدفه الحقيقي، لعدم تبصره.

«وإذا قمنا بإضراب عن العمل، ستفهم جدوى هذا الصندوق. إننا لا نبالي بالشركة، سوف نجد هنا الموارد الأولى لنقاومها، هه؟ هذا هو الأمر، هل أنت معه؟».

أرخى پييرون عينيه ينظر إلى الأرض، وقد شحب لونه. تمتم:

«سوف أفكر. حينما نُحسن التصرف، ذلك هو أفضل صندوق للعون».

حينئذ استفرد ماهو بإتيان وعرض عليه أن يصبح ساكناً عنده، صراحة، بكل شهامة. قبل الشاب بالشهامة نفسها، معبراً عن رغبته التامة في أن يسكن بالمجمّع، كيما يعيش وقتاً أطول مع الرفاق. سُوّي الأمر باختصار، وقالت ماهود إنهم سوف ينتظرون زواج الوَلدين.

وبالفعل، عاد زكاري في نهاية المطاف صحبة موكي ولوڤاك. وأحضروا معهم هم الثلاثة روائح ڤولكان، بَخرَ الماحيا، ذفر مطيّب لفتيات غير مؤنقات. كانوا في سكر طافح، ويبدو أنهم راضون عن أنفسهم، يتدافعون بالمرافق ويقهقهون. حينما علم أنه سوف يتم تزويجه في نهاية المطاف، أخذ زكاري يضحك بشدة إلى حدّ الاختناق. بهدوء، قالت فيلومين إنها تفضل أن تراه يضحك على أن تراه يبكي. وبما أنه لم يعُد هناك من كرسي، تراجع **بوتلو** حتى يترك مقعده للوڤاك. وقام هذا الأخير، الذي رقَّ بغتة لرؤية أن الجميع كان هناك كما تكون الأسرة الواحدة، طلب مرة ثانية أن تسقى الجعة.

«يا إلهي! إننا لا نتسلى بهذا القدر دائماً!»، كان يصرخ.

لبثوا حتى الساعة العاشرة. كانت نساء يفدن دوماً، قصد اللحاق بأزواجهن وإرجاعهم؛ ويتبعهن جماعات أطفال صفّاً صفّاً؛ لم تعُد الأمهات يشعرن بحرج، كانت تخرج أثداء طويلة وصهباء مثل أكياس الشوفان، تلطخ بالحليب الرّضّع منتفخي الوجنات؛ بينما الصغار القادرون على المشي أصلاً، وقد امتلأت حناجرهم بالجعة، يَحبون تحت الموائد، ويقضون حاجاتهم دون حرج. كان الأمر كأنه بحر من الجعة في مدّ، أطنان الأرملة ديزير وقد شقّت، الجعة جعلت البطون مكورة، تسيل من كل مكان، من الأنف، والعينين ومن مواضع أخرى. كان الناس ينتفخون، بعضهم فوق بعض حيث أن كل واحد كان يُدخل كتفاً أو ركبة في جاره، والجميع مبتهج، مستبشر لإحساسه بالمرافق على ذلك النحو. ضحك متواصل يبقي الأفواه فاغرة، مشرعة حتى الأذنين. كانت تعم حرارة فرن، يحترق المرء، يتخلص مما فيه، الجسد إلى الخارج، مذهّب بدخان الغلايين السميك، وتمثل العيب الوحيد في الانزعاج كلما نهضت فتاة، بين فينة وأخرى، وذهبت إلى أقصى القاعة، قرب المضخة، حتى يعاشرها وترجع. تحت أشرطة الورق المصبوغ، لم يعُد بالإمكان رؤية الراقصين من شدة ما كان العرق يسيل منهم؛ مما كان يشجع الصبيان المتعلمين على قلب عاملات النقل حسب ضربات الجانبين. لكن حينما كانت فتاة ضخمة تسقط ورجَل فوقها، كان البوق يحجب سقطتهما بطنينه المسعور، ويجرفهما تشابك الأقدام، كما لو أن المرقص انهار فوقهما.

مرّ أحدهم وأخبر پييرون بأن ابنته ليدي تنام عند عتبة الباب، على الرصيف. كانت قد شربت نصيبها من القنينة المسروقة، كانت سكرانة، ولزمه الأمر حملها من عنقها، بينما جونلان وبيبير، الأشد صلابة منها، كانا يتبعانه من بعيد، ويجدان ذلك مقلباً مضحكاً جداً. كانت تلك إشارة للرحيل، خرجت أسر من بونجوايوه، وقرر آل ماهو وآل لوفاك العودة إلى المجمّع. في هذا الوقت، كان الأب بونمور والعجوز موك يغادران مونسو، بخطى من يسير وهو نائم، مصرّين على الغوص في صمت ذكرياتهما. ورجع الجميع معاً، وتم للمرة الأخيرة عبور محفل التكريس، مواقد القلي الثابتة، الحانات حيث كانت آخر الأقداح تجري جداول حتى قارعة الطريق. كانت العاصفة تنذر دائماً بالهبوب، علت ضحكات، ما أن غادر الحشد البيوت المضاءة، للتيه في البرية المظلمة. نَفَس حارق كان يخرج من حقول القمح الذي استوى على سوقه، لا بدّ أن الكثير من الأطفال كانوا في طور التكوين تلك الليلة. وصل الناس إلى المجمّع متفرقين. ولم يتعشّ بشهية سواء آل ماهو أو آل لوفاك، ونام هؤلاء وهم يتمّون يخنة الصباح.

كان إتيان قد رافق شافال لشرب المزيد عند راسنور.

«أنا موافق!»، قال شافال حينما شرح له الرفيق أمر صندوق الادخار، «اصفق هنا، أنت رجل طيّب!».

بداية سُكر كانت تجعل عيني إتيان قداحتين. صاح:

«أجل، فلنتفق. كما ترى، أنا بالنسبة للعدل، أعطي كل ما لدي، الشراب والفتيات. هناك شيء واحد يدفئ قلبي، هو فكرة أننا سوف نكنس البرجوازيين».

III

لما انتصف شهر أغسطس، أقام إتيان عند آل ماهو، عندما تمكن زكاري المتزوج من الحصول لدى الشركة على بيت شاغر في المجمّع، لفيلومين وطفليهما؛ وفي الأيام الأولى شعر الشاب بالحرج تجاه كاترين.

كان أُنساً مع كل دقيقة، يعوّض الأخ الأكبر في كل مكان، يقتسم فراش جونلان، بإزاء فراش الأخت الكبرى. عند الهجوع إلى النوم أو الاستيقاظ منه، كان لا بد له من أن يتجرد من لباسه، ويلبسه بالقرب منها، ويراها بنفسها تنزع وتلبس ملابسها. حينما كانت آخر جبّة قصيرة تسقط، كان يبدو عليها بياض شاحب، من ذلك الثلج الشفاف للشقراوات المصابات بفقر الدم؛ وكان يشعر بتأثر موصول، حينما يراها بكل ذلك القدر من البياض، اليدان والوجه وقد فسدا مسبقاً، وكأنها غُمست في لبن، من كاحليها حتى عنقها، حيث خط السمرة يبرز بوضوح كأنه طوق عنبر. كان يتظاهر بأنه يشيح بنظره عنها؛ لكنه كان يعرفها شيئاً فشيئاً؛ أولاً القدمان اللتان كانت تلتقيهما عيناه المصوّبتان نحو الأرض؛ ثم يستشف ركبة، حينما تندس تحت الغطاء، ثم الصدر ، ما أن تنحني في الصباح على المِطهرة. وهي، من غير أن تنظر إليه، تعجل رغم ذلك، وتخلع ملابسها في ظرف عشر ثوان ثم تستلقي قرب ألزير، بحركة مرنة جديرة بأفعى، بينما هو لم يكن قد نزع حذائيه، حين تختفي، تدير ظهرها، ولا تظهر سوى عقيصتها الثقيلة.

ولـم يحـدث، فضـلاً عـن ذلـك، أن سـخطت قـط. إذا كان قـد استحوذ عليـه، رغمـاً عنـه، هاجس التربـص باللحظـة التـي تهجـع فيها للنـوم، فإنـه كان يتجنـب المُزح، وحركات اليد الخطـرة. الوالدان كانـا هنـاك، وهـو فضـلاً عـن ذلـك يكنُّ لها شـعوراً ملؤه الصداقـة والضغينـة، يمنعه من معاملتها معاملة الفتاة المرغوب فيها، وسـط ما شـاءته حياتهما التي صارت مشتركة، عند الطهارة، عند الأكل، أثنـاء العمل، دون أن يبقى شيئاً منهما سـرّاً، حتى قضـاء الحاجات الطبيعيـة. لاذت حشـمة الأسـرة كلها بالنظافة اليوميـة، التي كانت الفتاة تقوم بها الآن لوحدها في حجرة الطابق العلوي، بينما كان الرجـال يسـتحمون فـي السـفلي، واحـداً تلـو الثانـي.

وبعـد انصـرام الشـهر الأول، أضحـى ظاهـراً أن إتيـان وكاتريـن لـم يعُـد كل منهما يـرى الثانـي، فـي المسـاء حينمـا كانـا يجـولان الغرفـة وهمـا عاريـان، قبـل إطفـاء الشـمعة. لقـد كفَّـت عـن العجلـة، واسـترجعت عادتهـا القديمـة فـي عقـد ضفائـر شـعرها وهـي علـى حافـة الفـراش، وذراعاهـا مرفوعتـان، تجمـع قميصهـا حتـى فخذيهـا، وهـو، بـلا سـروال، كان يسـاعدها أحيانـا، يفتـش عـن الإبـرة التـي كانـت تضيعهـا. كانـت العـادة تقتُـل الخجـل من العـري، كانـا يعتبـران مـن الطبيعـي أن يكونـا علـى تلـك الحـال، لأنهمـا لـم يقترفـا أي سـوء وليـس الذنـب ذنبهمـا إن كانـت هنـاك غرفـة واحـدة لـكل ذلـك القـدر مـن الأفـراد. ومـع ذلـك كان يحـل الانجـذاب بينهمـا فجـأة، وهمـا فـي ذلـك الحيـن لا يفكـران فـي أي تصـرف آثـم. إذ بعـد أن لـم يعُـد يـرى شـحوب جسـدها أثنـاء أمسـية، بغتـة كان يراهـا مـن جديـد بيضـاء تمامـاً، بذلـك البيـاض الـذي يهزّه برعـدة، الـذي يرغمـه علـى

أن يشيح عنها بنظره خشية أن يستسلم للرغبة في احتضانها. أما هي، في أمسية أخرى، دون سبب ظاهر، كان يغمرها فزع محتشم، تهرب، تدسُّ نفسها بين الأغطية، وكأنها أحست بأنّ يدي ذلك الفتى تمسكان بها. ثم بعد إطفاء الشمعة، كانا يدركان أنهما لم يناما بعد، وأن كل واحد منهما يفكر في الثاني، رغم تعبهما. وكان ذلك يحيّرهما ويجدان كراهة في وجه كلٍّ منهما اليوم التالي بأكمله، لأنهما كانا يفضلان أمسية السكينة حيث يجدان راحة عند المعاملة بصفتهما رفيقان.

لم يكن إتيان يشكو من أحد غير جونلان الذي كان ينام على جنبه. وألزير تزفر بنفس خفيف، وفي الصباح يوجد لينور وهنري في حضن بعضهما، كما وُضِعا على الفراش. في البيت المظلم، لم يكن هناك من صوت سوى غطيط **ماهو** وماهود، بتردّد منتظم، مثل كير حِدادة. وبالجملة، فإن حال إتيان كان أحسن مما عند راسنور، لم يكن في الفراش سوء، ويتم تغيير الأغطية مرة في الشهر. كما كان يشرب حساء أفضل، لكن كان يعاني فحسب من قلة اللحم. لكن الجميع كان في ذلك الوضع، لم يكن في وسعه أن يطلب مقابل خمسة وأربعين فلساً للسكن، الحصول على أرنب في كل وجبة. مبلغ الخمسة وأربعين فلساً ذاك كان يعين الأسرة، وينتهي بها المطاف إلى التغلب على مصاريف الشهر، وترك ديون صغيرة متأخرة دوماً؛ وكان آل **ماهو** يُظهران الامتنان للساكن عندهم، إذ يُغسَل لباسه ويُرتق فَتقه، وتُخاط أزراره من جديد، تُرتّب أغراضه، الخلاصة، كان يحسّ حوله نظافة وعناية من صنع امرأة.

تلك هـي الفترة التي سمع فيها إتيان الأفكار التي كانت تطنّ فـي رأسـه. حتـى ذلـك الحيـن، لـم يكـن يمتلـك سـوى تمـرّد الغريـزة، وسـط اختمـار الرفـاق المكتـوم. كانـت تُطـرح عليـه كل أنـواع الأسـئلة الملتبسـة: لمـاذا بؤس هـؤلاء؟ لمـاذا ثـراء أولئك؟ لمـاذا هـؤلاء تحـت قـدم أولئـك، دون أمـل أبـداً فـي أن يحلّـوا مكانهـم؟ وكانـت خطوتـه الأولـى هـي فهـم جهلـه. إحسـاس خفـي بالخـزي، غـمّ مسـتتر كانـا ينخرانـه منـذ ذلـك الحيـن: لـم يكـن يعـرف شـيئاً، لـم يكـن يجـرؤ علـى الحديـث عـن تلـك الأمـور التـي يهـوى: سواسـية كل البشـر، الإنصـاف الـذي يهدف إلـى قسـمة خيـرات الأرض بينهـم. لذلـك مـال إلـى دراسـة الـذوق بعيـداً عـن منهـج الجهـال الذيـن أعماهـم العلـم. الآن، يواظـب علـى مراسـلة پلوشـار، الـذي يفوقـه معرفـة، المنخـرط كثيـراً فـي الحركـة الاشـتراكية. طلـب التوصـل بكتـب، التـي أثـاره عسـر قراءتهـا: علـى وجـه خـاص، كتـاب فـي الطـب: **حفظ صحة عامل المنجم**، وفيـه قـام دكتـور بلجيكي بتلخيـص الأدواء التـي تقتـل شـعب مناجـم الفحـم؛ هـذا دون ذكـر كتـبٍ فـي الاقتصـاد السياسـي ذات الجفـاف التقنـي العسـير علـى الفهـم، منشـورات فوضويـة كانـت تقلـب كيانـه، أعـداد قديمـة مـن صحـف كان يحتفـظ بهـا لاحقـاً بصفتهـا حجـج دامغـة فـي نقاشـات ممكنـة. كمـا كان سـوفارين يعيـره أيضـاً مجلـدات، وقـد جعلـه المؤلـف حـول المجتمعـات التشـاركية يحلـم طـول شـهر بجمعيـة دوليـة للتبـادل، تلغـي المـال، وتجعـل الشـغل أساسـاً للحيـاة الاجتماعيـة بأكملهـا. كان الشـعور بالعـار مـن جهلـه ينـدثـر، ويحـل مكانـه العُجـب منـذ أن أضحـى يشـعر بكونـه يفكـر.

خلال تلك الأشهر الأولى، اكتفى إتيان بسرور المبتدئين، القلب يفيض بالتذمر السّخيّ من القاهرين، يُمَنّي نفسه بانتصار المقهورين القريب. لم يكن قد وصل بعد إلى إنشاء منظومة، في موجة قراءاته. كانت مطالب راسنور العملية تختلط داخله بالعنف المدمِّر عند سوفارين؛ وحينما كان يغادر خمارة لافانتاج، حيث يواصل كل يوم تقريباً الحديث معهما بصخب ضد الشركة، كان يخطو في حلم، يشهد التكاثر المتجدد الجذري للشعوب، دون أن يتم ذلك مقابل كسر زجاج نافذة واحدة ولا إراقة قطرة دم واحدة. ثم إن وسائل التنفيذ ظلت غامضة، كان يفضل الاعتقاد أن الأمور سوف تسير على خير ما يرام، لأن رأسه كان يتيه ما أن يريد صياغة برنامج لإعادة البناء. بل كان يُظهر أنه مفعم بالاعتدال وبافتقاد المنطق، إذ كان يكرر أحياناً أنه يجب إبعاد السياسة عن المسألة الاجتماعية، وهي جملة قرأها سابقاً وكانت تبدو له جديرة بالذكر، في وسط عمال الفحم غير المتحمسين الذي كان يعيش فيه.

الآن، كل مساء، عند آل **ماهو**، يتأخر نصف ساعة قبل الصعود للنوم. وكان إتيان يستأنف الحديث نفسه. منذ أن أخذ طبعه يشتد، كان يؤذيه أكثر فأكثر الاختلاط في المجمّع. هل نحن بهائم، كي نُحشَر بهذه الهيئة، بعضنا فوق بعض، وسط الحقول، من شدة ركوب بعضنا فوق بعض لا نستطيع تغيير قميص دون أن نبرز مؤخرتنا للجيران! وكم إن ذلك نافع للصحة، وكم إن الفتيات والفتيان يفسدون فيه معاً بقوة الأشياء!

«والسيدة العذراء!»، أجاب **ماهو**، «لو كنا نمتلك مزيداً من المال، لكنا في راحة أكثر. مهما يكن، صحيح حقاً أن لا منفعة

لأحد في العيش بعضاً فوق بعض. لأن ذلك ينتهي دوماً برجال سكارى وفتيات حُبالى».

وكانت الأسرة تبدأ من هناك، فيدلي كل واحد بدلوه بينما غاز المصباح يفسد هواء القاعة، العطِنة أصلاً بالبصل المقلي. كلا، بالتأكيد لم تكن الحياة مسلّية. المرء يعمل كأية بهيمة حقيقة عملاً كان في الماضي عقاباً للمحكوم عليهم بالأعمال الشاقة، إذ يلقى حتفه في معظم الأحيان، كل ذلك ولا يحصل حتى على لحم في مائدته، عند المساء. لا شك أنه كان يحصل على عصيدته في كل الأحوال، يأكل، لكن قدراً قليلاً جداً، ما يكفي ليتعذب ولا يهلك، تسحقه الديون، مطارد وكأنه يسرق رغيفه. حينما كان يحلّ يوم الأحد، ينام من شدة التعب. الملذات الوحيدة، كانت أن يسكر أو يجعل زوجته حبلى؛ والجعة التي تسمن بطنك، والطفل، الذي لا يبالي بك في ما بعد. كلّا، كلّا، لم يكن في الأمر أي تسلية.

حينذاك، أدلت **ماهود** بدلوها.

«المزعج، كما ترون، هو حينما نقول إن ذلك لا يمكن تغييره. عندما يكون المرء في شبابه، يظن أن السعادة ستأتي، نأمل أشياء؛ ثم يبدأ البؤس من جديد دوماً، ويبقى المرء محبوساً هناك. أنا لا أريد أذى لأحد، لكن أحياناً هذا الظلم يغيظني».

كان يخيم صمت، الجميع يزفر لحظة، وسط الضيق الملتبس لذلك الأفق المسدود. وحده الأب بونمور، عندما يكون هناك، يفتح عينيه المتعجبتين، لأن في عصره، لم يكن المرء يشغل باله بتلك الطريقة: كان المرء يولد في الفحم، يحفر العِرق، دون أن يطلب أكثر من ذلك؛ بينما، الآن، يخيم جوّ يجعل عمال الفحم يطمحون.

«لا يجب البصق على أي شيء»، كان يغمغم، «القدح الطيّب قدح طيّب. الرؤساء، هم في معظم الوقت أوغاد، لكن سوف يكون هناك دوماً رؤساء، أليس كذلك؟ لا فائدة من أن يُتعب المرء نفسه بالتفكير في ذلك».

ومن ثم كان إتيان يهيج. كيف! التفكير محرّم على العامل! إيه! بالمناسبة، سوف تتغير الأمور عما قريب، لأن العامل يفكر في هذه الساعة. في أيام العجوز، كان عامل المنجم يعيش في المنجم كالبهيمة، مثل آلة تستخرج الفحم، دائماً تحت الأرض، أذناه وعيناه مغلقتان دون ما يقع في الخارج. لذلك كان من مصلحة الأغنياء الذين يحكمون أن يتفقوا، أن يبيعوه ويشتروه، لأكل لحمه: لم يكن قد خطر ذلك بذهنه حتى. لكن، في الوقت الحالي، عامل المنجم يستيقظ في الجوف، ينبت في التراب مثل بذرة خالصة؛ وسوف يرى الناس ذات صباح ما سيطلع وسط الحقول تماماً: أجل، سيطلع رجال، جيش من الرجال سوف يعيدون العدل. ألم يكن كل المواطنين سواسية منذ الثورة؟ بما أن الجميع يصوّت، هل لا بد للعامل من أن يظل عبداً لربّ العمل الذي يؤدي أجره؟ الشركات الكبرى، بآلاتها، تسحق كل شيء، ولم يعُد للناس ضدّها حتى ضمانات الزمن القديم، حينما كان الناس من الحرفة نفسها، المجتمعون في هيئة، يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم. لأجل هذا، يا إلهي! ولأجل أمور أخرى، كل شيء سوف ينفجر ذات يوم، بفضل التعليم. ما علينا سوى النظر إلى ما في المجمّع: لم يكن يستطيع الأجداد التوقيع بأسمائهم، الآباء يوقعون به مسبقاً، أما عن الأبناء، فإنهم يقرؤون ويكتبون مثل الأساتذة. آه! إن ذلك يطلع،

يطلع، شيئاً فشيئاً، حصاد رجال شاق، ينضج تحت الشمس! بما أن الواحد منا لم يعُد ثابتاً في مكانه حياته بأكملها، وبما أن في الوسع الطموح لأخذ مكان الجار، لِمَ لا يستعمل المرء قبضتيه، مع الحرص على أن يكون هو الأقوى؟

في تلك الأثناء ظلّ **ماهو**، وقد أرتعدت فرائصه، متوجساً بالكامل.

«ما أن تتحرك، يعاد لك ترخيصك»، قال، «العجوز محقٌّ، عامل المنجم هو الذي يشقى دوماً، دون أمل في أن يُكافأ بفخذ خروف بين فينة وأخرى».

ساكتة منذ مدة، وكأن **ماهود** خرجت من حلم.

«هذا إذا كان ما يقصه علينا القساوسة صحيحاً، إذا كان فقراء هذا العالم أغنياء في العالم الآخر!».

قطعت قهقهة كلامها، حتى الأطفال كانوا يهزّون أكتافهم، وقد صاروا جميعاً غير مصدقين للريح في الخارج، وهم يكنّون الخوف المستتر للعائدين من المنجم، لكنهم يستمتعون بالسماء الخاوية.

«آه! أجل، القساوسة!»، صاح **ماهو**، «إذا كانوا يظنون ذلك، لأكلوا بقدر أقل وعملوا بجهد أكبر، حتى يضمنوا فوق مكاناً علياً. كلا، حينما يموت المرء، فإنه يموت».

أفلتت **ماهود** زفرات مديدة.

«آه! يا إلهي! آه! يا إلهي!».

ثم وقد سقطت يداها على ركبتيها، وبدا عليها القهر الشديد:

«إذن، صحيح حقاً، لقد قضي علينا، نحن».

كان الجميع ينظر لبعض. الأب بونمور يبصق في منديله، بينما

ماهو، نسي غليونه في فمه وهو منطفئ. كانت ألزير تنصت، بين لينور وهنري، النائمين عند حافة المائدة. لكن كاترين على الأخص، ذقنها بين يدها، لم تكن تحِد عن إتيان بعينيها الواسعتين البراقتين، حينما كان يصيح من جديد، وهو يعبر عن إيمانه، مشرعاً المستقبل المشرق لحلمه الاجتماعي. حولهم، كان المجمّع يهجع للنوم، ولم يكن يُسمع سوى البكاء الغابر لطفل أو خصام سكير متأخر. في القاعة، كان الوقواق يدق بتؤدة، وطراوة رطوبة تصعد من البلاطات الرملية، رغم الجوّ الخانق.

«يا لها من أفكار!»، كان الشاب يقول، «هل أنتم في حاجة إلى إله طيّب وجنته حتى تكونوا سعداء؟ ألا تستطيعوا أن تجدوا السعادة لأنفسكم على الأرض؟».

بصوت ملتهب، كان يتكلم بلا نهاية. وبغتة، كان الأفق المسدود هو ما ينفجر، كوة ضوء تفتح في حياة هؤلاء الناس المعتمة. البداية المعادة للبؤس، عمل البهيمة، مصير القطيع الذي يعطي صوفه والذي يُذبح، كل الشقاء كان يختفي، وكأنه كُنس بضربة شمس عظيمة؛ وفي ظلّ بهرة عالم حلم، كانت العدالة تنزل من السماء. ما دام الإله الطيب كان قد مات، فالعدالة هي ما سوف يضمن سعادة البشر، بجعل السيادة للمساواة والأخوة. مجتمع جديد يطلع في يوم واحد، مثلما في أضغاث أحلام، مدينة عظيمة، لها جمال السَراب، فيها كل مواطن يعيش من عمله ويأخذ نصيبه من المسرّات المشتركة. العالم القديم الفاسد تهاوى رماداً، إنسانية فتية، مُطهّرة من جرائمها، لم تعُد تشكل سوى شعباً واحداً من العمال، شعاره: لكل واحد ما يستحق، ولكل

استحقاق أعماله. وباستمرار، كان ذلك الحلم يتّسع، يزداد جمالاً، بقدر غوايته كان يصعد إلى الأعلى في المستحيل.

أولاً، كانت ماهود ترفض سماع ذلك، وقد استبد بها ذعر مكتوم. كلّا، كلّا، ذلك جميل بإفراط، لا يلزم أن يتخذ المرء مثل تلك الأفكار، لأنها ستجعل الحياة بشعة في ما بعد، وسوف يتطلب الأمر القضاء على كل شيء ليكون المرء سعيداً، كانت حائرة، تصرخ وهي تقاطع إتيان:

«لا تنصت، يا زوجي! ترى أنه يقص علينا خرافات. وهل سيوافق البرجوازيون أبداً على العمل مثلنا؟».

لكن، شيئاً فشيئاً، كان للسحر أثر عليها أيضاً. وابتسمت في نهاية المطاف، وقد صحا خيالها، ودخل عالم الأمل العجائبي ذاك. كم كان لطيفاً نسيان الواقع الحزين مدة ساعة! حينما نعيش مثل بهائم، الأنف في التراب، نحتاج حقاً إلى ركن للكذب، حيث نتسلى بالاستمتاع بأشياء لن نملكها أبداً، وما كانت تهواه، ما كان يجعلها على وفاق مع الشاب، كانت فكرة العدل.

«في هذا، أنت على حق!»، صاحت، «أنا، حينما يكون أمر من الأمور عادلاً، أقدم نفسي للذبح. ثم، صحيح! سوف يكون من العدل أن نستمتع بدورنا».

حينها، كاد ماهو يتحمّس للفكرة.

«يا للعجب يا إلهي! أنا لست غنياً، لكني مستعد لإنفاق مائة فلس حتى لا أموت قبل أن أشهد كل هذا. يا له انقلاب! هه؟ سوف يكون عمّا قريب؟ وكيف سيتم فعل ذلك؟».

استأنف إتيان الكلام. المجتمع القديم ينهار، لا يمكن لذلك أن يدوم أكثر من أشهر معدودة، كان يقول بصراحة. وبخصوص وسائل التنفيذ، كان يبدو أكثر غموضاً، مستعيناً بقراءاته، وهو لا يخشى أمام جاهلين أن يندفع في شروح كان يضل فيها بنفسه. كان يبسُط كل الأنظمة، التي يلطفها بيقين من الانتصار السهل، من قُبلة عالمية سوف تنهي سوء تفاهم الطبقات؛ بصرف النظر رغم ذلك عن الرؤوس القبيحة، ضمن أرباب العمل والبرجوازيين، التي سوف يكون من الإجباري الرجوع بها إلى جادة الصواب. وكان يبدو أن آل ماهو فهموا، إذ كانوا يوافقون ويقبلون الحلول المعجزة، وهم يصدقون تصديق المؤمنين الجدد الأعمى، مثل نصارى الأزمنة الأولى للكنيسة، الذين كانوا ينتظرون قيام مجتمع كامل، على أنقاض العالم العتيق. كانت الصغيرة **ألزير** تلتقط كلمات، وتتخيّل السعادة في صورة بيت دافئ جداً، فيه يلهو الأطفال ويأكلون قدر ما شاءوا. ظلت كاترين، دون أن تتحرك، والذقن دوماً بين يديها، وعيناها تحدقان في إتيان، وحينما كان يصمت، كانت تسري فيها رعشة خفيفة، وكلها شاحبة وكأن البرد قد عمّها.

لكن **ماهود** كانت تنظر إلى الوقواق.

«لقد جاوزت الساعة التاسعة، ذلك مباح! لن نستيقظ غداً، أبداً».

وغادر آل ماهو المائدة، القلب في ضيق، واليأس مستبد بهم. بدا لهم أنهم كانوا للتو أغنياء، وأنهم سقطوا فجأة في قذارتهم. الأب بونمور، وهو منصرف نحو الحفرة، كان يغمغم أن

تلك القصص لا تجعل الحساء ألذ؛ بينما كان الآخرون يصعدون صفاً، وهم يدركون رطوبة الجدران واختناق الجو العفن. فوق، بينما المجمّع غارق في النوم، كانت كاترين آخر من هجع إلى فراشه بعدما أطفأت الشمعة، كان إتيان يسمعها تتقلب محمومة، ثم نامت.

في معظم الأوقات، يهرع بعض الجيران إلى هذه الأحاديث، لوفاك الذي كان يتحمس لأفكار القسمة، بييرون الذي كان يدفعه حذره للذهاب قصد النوم ما أن تتم مهاجمة الشركة. من فترة إلى أخرى، كان زكاري يدخل لحظة؛ لكن السياسة كانت تصرعه، وكان يفضل النزول إلى لافانتاج لشرب قدح. أما شافال، فقد كان يبالغ، يتوق للدم. تقريباً في كل مساء، كان يقضي ساعة عند آل ماهو؛ وفي تلك المواظبة، كانت هناك غيرة لا يفصِحُ عنها، خشية من أن تُسلب كاترين منه. تلك الفتاة، التي ضجر منها أصلاً، صارت غالية عنده، منذ أن بات رجل ينام بالقرب منها ويمكنه أن يحضنها، ليلاً.

كان تأثير إتيان يزداد، يقلب المجمّع شيئاً فشيئاً. كان الأمر عبارة عن بروباغاندا مكتومة، من شدة ما كانت مؤكدة، فقد كان تقدير الآخرين له يكبر. كانت ماهود، رغم توجسها، توجس ربة البيت الحذرة، تعامله باعتبار، بصفة الشاب الذي يسدد لها ما عليه في الوقت المضبوط، الذي لم يكن يشرب ولا يلهو، مكبّ دوماً على كتاب؛ وكانت تنقل عنه للجارات سمعة الفتى المتعلّم، التي كانت تفرط في استخدامه، بطلبهن أن يكتب رسائلهن. كان أشبه برجل أعمال، مكلّف بالمراسلات، تستشيره ربّات البيوت

فـي الأمـور الدقيقـة. لذلـك، منـذ شـهر سـبتمبر، قـام فـي نهايـة المطـاف بإنشـاء صندوقـه للادخـار الذائـع الصيـت، الـذي كان لا يـزال هشـاً، إذ لـم يضـم سـوى سـكان المجمّـع؛ لكنـه كان يأمـل حقـاً الحصـول علـى انخـراط عمـال فحـم جميـع الحُفـر، خاصـة، إذا لـم تزعجـه الشـركة زيـادة هـي التـي ظلـت سـاكنة. كان قـد عُيّـن آنفـاً كاتبـاً للجمعيـة، بـل وصـار يحصـل علـى الرواتـب الطفيفـة، مقابـل مـا كان يكتبـه. وقـد جعلـه ذلـك غنيـاً، تقريبـاً. إذا كان عامـل منجـم متـزوج لا يسـتطيع الوفـاء بمصاريـف الشـهر، فـإن فتـى رزيـن، لا تكاليـف لديـه، يسـتطيع ادّخـار بعـض المـال.

ومـن ذلـك الحيـن، طـرأ علـى إتيـان تحـول بطـيء. انكشـفت غرائـز تأنـق وتـرف، كانـت نائمـة فـي فقـره، جعلتـه يشـتري ملابـس مـن مخمـل. كمـا ابتـاع زوج حـذاء ذا عنـق رقيـق الجلـد، ومـن ثـم أصبـح رئيسـاً، احتشـد المجمّـع كلـه حولـه. كان ذلـك إرضـاء لذيـذاً لحـب الـذات، وأخذتـه سـكرة الاسـتمتاع الأول بالصيـت: أن يكـون فـي مقدمـة الآخريـن، أن يأمـر، هـو الشـاب الفتـي والـذي حتـى الأمـس القريـب كان مُنـاوِلاً، فذلـك كان يملـؤه عجبـاً، ويعظـم حلمـه بثـورة قريبـة، فيهـا سـوف يضطلـع بـدور. تغيـر وجهـه، وأصبـح صـارم التقاسـيم، وكان يجـد متعـة فـي نفسـه متكلمـاً؛ بينمـا طموحـه الناشـئ كان يحمـس نظرياتـه ويدفـع بـه إلـى أفـكار المعركـة.

فـي تلـك الآونـة، كان الخريـف يزحـف، تعاقُـب بـرد أكتوبـر أفسـد حدائـق المجمّـع الصغيـرة. خلـف الليلـك الهزيـل، لـم يعُـد الصبيـان المتعلمـون يشـقلبون عامـلات النقـل علـى المُسـقّف، ولـم يتبـق سـوى خضـروات الشـتاء، الملفـوف المتلألـئ بالصقيـع الأبيـض، الكـرّاث،

والخضـرة المنبـوذة. مـن جديـد، كانـت الأمطـار تضـرب القرميـد الأحمـر، تصـب فـي البراميـل، تحـت البلاليـع، بأصـوات السـيل. فـي كل بيـت، لـم تكـن النـار تخمـد، محملـة بالفحـم، تلـوث القاعـة المغلقـة. مـرة أخـرى، كانـت تلـك بدايـة موسـم بـؤس شـديد.

فـي شـهر أكتوبـر، ذات ليلـة مـن أولـى الليالـي الجليدية، لم يسـتطع إتيـان النـوم، مـن حمّـى كلامـه فـي الأسـفل. رأى كاتريـن تنـدس تحـت الغطـاء، ثـم تنفـخ علـى الشـمعة. بـدا أنهـا مضطربـة تمامـاً، هـي كذلـك، متحيـرة من ذلـك النـوع مـن الحيـاء الـذي كان يدفعهـا للعجلة أكثـر أحيانـاً، علـى نحـو أخـرق حتـى يكشـف عليهـا الغطـاء زيـادة. في الظلمـة، كانـت تظـل وكأنهـا ميتـة؛ لكـن كان يسـمع أنهـا غيـر نائمـة بدورهـا؛ ويشـعر بذلـك، كانـت تفكـر فيـه، كمـا هـو يفكـر فيهـا: لـم يسـبق لهـذا الحـوار الأخـرس لكيانيهمـا أن ملأهمـا بذلـك القـدر مـن الاضطـراب. مـرّت عشـر دقائـق، لـم يتحـرك هـو ولا هـي، فحسـب اختلطـت أنفاسـهما رغـم سـعيهما لحبسـها. مرّتيـن، كان يوشـك أن ينهـض ويحضنهـا. مـن الحماقـة أن يرغـب كل منهمـا الواحـد فـي الآخـر بذلـك القـدر، ولا يرضياهـا أبـداً. لمـاذا إذن يجـدا كراهـة فـي رغبتهمـا علـى ذلـك النحـو؟ كان الأطفـال نيامـاً، إنهـا كانـت تريـد حقـاً فـي الحـال، كان علـى يقيـن مـن أنهـا تنتظـره وهـي تختنق، مـن أن تغلق عليـه ذراعيهـا، خرسـاء، والأسـنان مصـرورة. مضـت سـاعة تقريبـا، لم ينهـض لحضنهـا، لـم تلتفـت، مخافـة أن تناديـه. كلمـا عاشـا جنبـاً إلـى جنـب، كلمـا ارتفـع حاجـز بينهمـا، أحاسـيس الخـزي، الاشـمئزاز، تلاطـف الصداقـة، لا يسـعهما تفسـيرها بذاتهمـا.

IV

«اسمع»، قالت ماهود لزوجها، «بما أنك ذاهب إلى مونسو قصد أجرتك، أحضر لي إذن رطلاً من البُنّ ورطلين من السكر».

كان يرتّق أحد نعليه، حتى يتجنب الإسكاف.

«طيّب»، همهَم دون أن يترك غرضه.

«وددت أن أكلفك الذهاب أيضاً عند القصّاب. قطعة لحم عجل، هه؟ منذ مدة طويلة لم نره؟».

هذه المرة، رفع رأسه.

«أو تظنين أني سوف أحصل على ألوف ومئات. نصف الشهرية هزيلة بإفراط، مع تدبيرهم الملعون المتمثل في توقيف العمل باستمرار».

سكتا هما معاً. كان ذلك بعد الفطور، يوم سبتٍ من آخر شهر أكتوبر. مرة أخرى قامت الشركة، بذريعة الاضطراب الناتج عن الأجرة، بإرجاء الاستخراج في كل الحفر. بعدما استبد بها الذعر أمام الأزمة الصناعية التي كانت تشتد، ولأنها لا تريد الرفع من مخزونها الثقيل أصلاً، فقد كانت تنتهز أدنى ذريعة قصد إرغام عمالها البالغ عددهم عشرة آلاف على البطالة.

«تعلم أن إتيان ينتظرك عند راسنور»، استرسلت ماهود، «خذه معك، سوف يكون أكثر حيلة منك للتصرف، إن هم لم يحتسبوا ساعاتكم».

وافق ماهو بهزّ رأسه.

«وتحدّث إلى هؤلاء السادة عن أمر والدك. الطبيب يتفق مع الإدارة. أليس كذلك يا عجوز، إن الطبيب مخطئ، لأنك لا تزال قادراً على العمل؟».

عشـرة أيـام مـن ذي قبـل، الأب بونمـور، قائمتـاه مصلّبتـان كمـا يقـول، كان يظـل مسـمّراً إلـى كرسـي. وكان لا بـد لهـا مـن تكـرار سـؤالها، غمغـم قائـلاً:

«بالتأكيـد سـأشـتغل. إن المـرء لا يعتبـر مقعـداً لأن ألمـاً أصـاب سـاقيه. كل ذلـك قصـص يختلقونهـا حتـى لا يعطونـي معـاشَ مائـة وثمانيـن فرنـكاً».

كانـت ماهـود تفكـر فـي أربعيـن فلسـاً التـي للعجـوز، والتـي ربمـا لـن يحضرهـا لهـا بعـد هـذا أبـداً، وصرخـت مـن هلـع:

«يـا إلهـي! سـوف نمـوت جميعـاً عمـا قريـب، إذا اسـتمر هـذا الوضـع».

«حينمـا يمـوت المرء، لا يشـعر أبداً بالجوع»، قـال **ماهو**.

أضـاف مسـامير إلـى نعليـه وعـزم علـى الانصـراف. لـن تُصـرَف أجـور مجمّـع مائتيـن وأربعيـن إلا فـي حـدود السـاعة الرابعـة، لذلـك لـم يكـن الرجـال علـى عجلـة مـن أمرهـم، إذ يتأخـرون، ينصرفـون فـرادى، تتبعهـم النسـاء اللواتـي يتوسـلن إليهـم حتـى يرجعـوا فـي الحـال. كثيـر مـن النسـوة يكلفنهـم بمقتنيـات لمنعهـم مـن أن ينسـوا أنفسـهم فـي الحانـات.

عنـد راسـنور، كان إتيـان قـد جـاء لاسـتقصاء الأخبـار. تـروج هنـاك شـائعات مقلقـة، يقـال إن الشـركة منزعجـة أكثـر فأكثـر مـن دعائـم الخشـب. كانـت تثقـل كاهـل العمـال بالغرامـات، وبـات مـن المحتـوم وقـوع خـلاف. ثـم إن ذلـك لـم يكـن سـوى الخصـام المعلـن، بـل هنـاك فـي الخفـاء أمـور معقـدة تمامـاً، أسـباب سـرية وخطـرة.

وحينمـا وصـل إتيـان بالضبـط، كان هنـاك رفيـق يشـرب قدحـاً، بعـد رجوعـه مـن مونسـو، يتحـدث عـن إعـلان ملصـق عنـد أميـن

الصندوق؛ لكنه لا يعرف حقاً ما كتب على ذلك الإعلان. دخل رفيق ثان، ثم ثالث؛ وكل واحد كان يخبر عن قصة مختلفة. بدا من المؤكد، مع ذلك، أن الشركة قد قررت تدبيراً معيّناً.

«ما قولك في ذلك، أنت؟»، سأله إتيان، وهو يجلس جنب سوفارين، إلى طاولة حيث كان هناك علبة تبغ، سلعة وحيدة للاستهلاك.

لم يعجّل عامل الآلة قط، أكمل لفَّ سيجارة.

«أقول إن ذلك أمر سهل التوقع. سوف يدفعونكم إلى الغضب».

وحده من كان يمتلك من الذكاء المتحرر بما يكفي لتحليل الوضع. كان يشرح الأمر بالهدوء المعهود فيه. بعدما أصابتها الأزمة، كانت الشركة مجبرة على خفض مصاريفها، إذا هي أرادت ألّا تنهار؛ وبالطبع، فإن العمال هم من عليه أن يشد على بطنه، إذ سوف تقلّم من أجورهم بخلق ذريعة ما. منذ شهرين والفحم يبقى في ساحة الحفر، تقريباً كل المصانع كانت معطلة. وبما أنها لم تكن لها الجرأة على العطالة أيضاً، مذعورة أمام توقفِ الآلياتِ المُدمِّر، فقد كانت تمنّي النفس بحل على المدى المتوسط، ربما إضراب، منه سيخرج شعبها، شعب عمال المناجم مروّضاً وبأجر أدنى. وفي الأخير، فإن صندوق الادخار الجديد كان يحيّرها، إذ صار مهدِّداً للمستقبل، بينما الإضراب فسيخلصها منه، بإفراغه، وليس فيه بعد سوى القليل.

جلس راسنور بالقرب من إتيان، وكانا ينصتان معاً والسخط ظاهر على محيّا كلّ منهما. كان في الوسع الحديث بصوتٍ عالٍ، فلم يعُد هناك غير السيدة راسنور، الجالسة خلف المعرض.

«يـا لهـا مـن فكـرة!»، وشـوش الخمّـار، «لِـمَ كل ذلـك؟ ليـس مـن فائـدة للشـركة فـي أي إضـراب، ولا للعامليـن. الأفضـل هـو التوافـق».

كان ذلـك رأيـاً حكيمـاً جـداً. كان يبـدو دومـاً مـن أجـل المطالـب المعقولـة. بـل، منـذ الصّيـت السـريع الـذي أضحـى لسـاكنه القديـم، فهـو يشـجب نظـام التقـدم الممكـن ذاك، إذ يـرى أننـا لا نحصـل علـى شـيء، حينمـا نريـد الحصـول علـى كل شـيء دفعـة واحـدة. بدماثتـه، دماثـة الرجـل السـمين، الـذي يتغـذى مـن الجعـة، كانـت تصعـد غيـرة خفيـة، زاد منهـا هجـر الحانـة، حيـث لـم يعُـد عمـال لوفـوروه يدخلـون بكثـرة للشـرب وللإنصـات إليـه؛ وهكـذا كان يصـل بـه الأمـر أحيانـاً إلـى الدفـاع عـن الشـركة، ناسـياً الضغينـة التـي يحملهـا لهـا بصفـة العامـل القديـم المطـرود.

«إذن، أنـت ضـد الإضـراب؟»، صاحـت السـيدة راسـنور، دون أن تغـادر المعـرض.

وبمـا أنـه أجـاب أن نعـم، بشـدة، أخرسـته.

«هـاك! أنـت بـلا قلـب، دع هذيـن السـيدين يتكلمـان!».

كان إتيـان مسـتغرقاً فـي التفكيـر، عينـاه علـى القـدح الـذي سـقته. وفـي الأخيـر، رفـع رأسـه.

«ذلـك ممكـن بحـق، كل مـا يقولـه الرفيـق، ويجـب أن نحسـم فـي أمـر ذلـك الإضـراب، إن أُجبرنـا عليـه. لقـد كتـب لـي پلوشـار، بالمناسـبة، عـن ذلـك أشـياء صائبـة جـداً. هـو أيضـاً ضـدّ الإضـراب، لأن العامـل يتضـرر منـه بقـدر تضـرر ربّ العمـل، دون الوصـول إلـى شـيء حاسـم. لكنـه، يـرى فـي هـذا مناسـبة ممتـازة لجعـل رجالنـا يدخلـون فـي آلتـه العظيمـة. وهـا هـي رسـالته».

وبالفعل، پلوشار الذي أسِف للريبة التي تجدها الأممية لدى عمال مناجم مونسو، فقد كان يرجو أن ينخرطوا فيها جماعات جماعات، إذا أجبرهم خلاف على مقاومة الشركة. رغم مجهوداته، لم يستطع إتيان وضع بطاقة عضو واحدة، إذ صرف تأثيره كله من أجل صندوق العون ذاك، الذي استقبله الناس على نحو أفضل. لكن ذلك الصندوق لا يزال فقيراً جداً إلى حدّ أنه سوف ينفد بسرعة، كما قال سوڤارين؛ ومن المحتم أن المضربين سوف ينخرطون حينذاك في جمعية العمال حتى يهبّ إلى مساعدتهم إخوانهم من كل البلدان.

«كم عندك في الصندوق؟»، سأله راسنور.

«بالكاد ثلاثة آلاف فرنك»، أجاب إتيان، «وتعلمون أن الإدارة نادتني منذ يومين. أوه! إنهم مؤدبون كثيراً، لقد كرروا على سمعي أنهم لا يمنعون عمالهم من إنشاء صندوق احتياط. لكني فهمت أنهم يريدون مراقبته. على كل حال، سوف تكون لدينا معركة من هذه الناحية».

أخذ الخَمّار يذرع القاعة، ويصفر والازدراء ظاهر عليه، «ثلاثة آلاف فرنك! ماذا تريدون فعله بذلك؟ لن يكون ثمة ما يكفي ستة أيام من الرغيف، وإذا عولنا على الأجانب، على الناس الذي يسكنون إنجلترا، يستطيع المرء أن ينبطح ويبلع لسانه في الحال. كلا، إنه سخف كبير، ذلك الإضراب».

حينها وللمرة الأولى، تمّ تبادل كلمات لاذعة بين هذين الرجلين، اللذين كان ينتهي بهما المطاف، عادة، إلى الاتفاق حول حقدهما المشترك على الرأسمال.

«هيا، وأنت، ما قولك؟»، كرر إتيان، وهو يلتفت صوب سوفارين. أجاب هذا الأخير بكلمة ازدراء معتادة.

«الإضرابات؟ حماقات!».

ثم، وسط الصمت الذي عمّه الغيظ، أضاف بلطف:

«بالجملة، لا أقول لا، إذا كان هذا يسلّيكما: إنه يخرب هؤلاء، إنه يقتل أولئك، ولا بأس في الكنس دوماً. لكن، بهذه الوتيرة، سوف يتطلب الأمر ألف عام لتجديد العالم. بادروا أولاً إلى تحطيم ذلك الحبس الذي تهلكون فيه جميعاً!».

بيده الرقيقة، كان يشير إلى لوفوروه الذي تُرى بناياته من خلال الباب الذي ظلّ مفتوحاً. لكن مصيبة لم تكن في الحسبان قطعت كلامه؛ پولونيا، الأرنبة الأليفة السمينة، التي غامرت بالخروج، رجعت بوثبة، هاربة من حجر عصبة من الصبيان المتعلمين بالمنجم؛ ومن ذعرها لاذت بساقيه وقد أرخت أذنيها وقبضت ذيلها، متوسلة إليه، وتحكك عليه كيما يحملها. حينما مددها على ركبتيه، حماها بيديه، وهوى في ما يشبه النومة الحالمة، التي يغوص فيها بفعل مداعبة ذلك الوبر الناعم والدافئ.

في الوقت نفسه، تقريباً، دخل **ماهو**. لم يرد شرب أي شيء، رغم إلحاح السيدة راسنور المتأدب، التي كانت تبيع جعتها وكأنها تقدمها. كان إتيان قد نهض، وانصرفا معاً إلى مونسو.

أيام أداء الأجر بمواقع الشركة، تبدو مونسو كأنها في عيد، مثل أيام أحد التكريس الجميلة. من كل المجمّعات كان يصل حشد من عمال المناجم. وبما أن مكتب أمين الصندوق كان صغيراً جداً، فقد كانوا يفضلون الانتظار عند الباب، يقفون جماعات على

الرصيف، يقطعون الطريق بصف من الناس يتجدد باستمرار. كان هناك باعة جائلون ينتهزون الفرصة، يقيمون لعبتهم للأحصنة الدوارة، بل يعرضون حتى القطع الخزفية واللحم المقدد.

لكن الخمارات والحانات هي التي كانت تحصل على مورد جيد، لأن عمال المناجم، قبل أخذ أجورهم، كانوا ينتظرون أمام المعارض، ثم يعودون إليها للفرح بأجرتهم، ما أن تدخل جيوبهم. وإنه تصرف حكيم منهم حينما لا يبذروها عن آخرها في ڤولكان.

كلما تقدم ماهو وإتيان وسط الجماعات ذلك اليوم، كانا يشعران بتعاظم سخط مكتوم. لم يكن هو تلك اللامبالاة المعتادة بالمال المحصَل والمنقوص في الخمارات. قبضات مشدودة، كلمات عنيفة تجري على الأفواه.

«هذا صحيح، إذن؟»، سأل **ماهو** رفيقه **شاڤال** الذي لقيه قبالة حانة پيكيت، «لقد أقدموا على قذارتهم؟».

لكن شاڤال اكتفى بالرد مدمدماً بغضب شديد، وهو يرمي إتيان بنظرة شزر. منذ تجديد صفقة المقاولة، عمل مع آخرين، وشيئاً فشيئاً كان يأكله الغيظ من الرفيق، هذا الوافد الأخير الذي يعتبر نفسه بمثابة سيّد، والذي يتملّقه المجمّع، كما يقول. وكان الأمر يتعقد بخصام بين عاشقين، إذ لم يكن يرافق كاترين إلى ريكيار أو خلف الردم إلا واتهمها بعبارات نابية، بأنها تعاشر ساكن أمها؛ ثم كان يفتك بها بالملامسات، وقد اجتاحته نحوها رغبة موحشة.

وجّه له **ماهو** سؤالاً ثانياً.

«هل وصل دور لوڤوروه؟».

ولما كان يدير ظهره، بعد أن أجاب أي نعم، بإيماءة من رأسه، قرر الرجلان دخول المواقع.

كان مكتب الأداء عبارة عن حجرة صغيرة مستطيلة من قسمين يفصلهما سياج. كان خمسة أو ستة عمال، على مقاعد، ينتظرون على طول الجدران؛ بينما كان أمين الصندوق، يعاونه وكيل، يؤدي أجر وكيل آخر، واقف أمام الشّبّاك، وقبعته في يده. فوق المقعد الأيسر، كان هناك إعلان أصفر ملصق، لا يزال طريّاً على لون الجبس الرمادي المكسو بالدخان؛ إذ من هناك، منذ الصباح، كانت تمرّ صفوف الرجال. يدخلون مثنى أوثلاث، يظلون واقفين، ثم ينصرفون دون النبس بكلمة، مع رعدة في الكتفين كما لو كُسِرت ظهورهم.

والحال أنه كان هناك اثنان من عمال الفحم أمام الإعلان، فتى له رأس بهيمة مربعة، وعجوز نحيل جداً، والوجه متبلّد بفعل السّن. لم يكن لا هذا ولا ذاك يعرف القراءة، كان الفتى يتهجى محرّكاً شفتيه، بينما يكتفي العجوز بالنظر، بغباء. الكثير منهم كان يدخل على تلك الحال، كيما يرى، دون أن يفهم.

«هيا اقرأ لنا هذا»، قال لرفيقه **ماهو**، الذي لم يكن ملمّاً هو أيضا بالقراءة.

حينذاك، شرع إتيان في قراءة الإعلان. كان ذلك عبارة عن إخطار من الشركة لعمال المناجم في جميع الحفر. تنذرهم فيه بأنه جراء العناية القليلة التي يحظى بها تمتين الدعائم، وبعدما تعبت من فرض غرامات لا فائدة لها، فقد اتخذت قراراً بتطبيق طريقة جديدة لتسديد الأجور بالنسبة لاستخراج الفحم الحجري.

ومن هنا فصاعداً، فإنها سوف تسدد أجر تمتين الدعائم على حدة، حسب المتر مكعب من الخشب الذي تمّ إنزاله للجوف واستعماله، بالاعتماد على الكمية اللازمة لعمل متقن. وبالطبع سوف يتم خفض ثمن عربة الفحم المستخرجة، بنسبة خمسين سنتيم إلى أربعين، حسب طبيعة المقالع وبُعدها، بطبيعة الحال. وكان حساب غامض بما فيه الكفاية يحرص على تبيان أن خفض العشرة سنتيمات تلك سوف يتم تعويضه على وجه الدقة بثمن تمتين الدعائم. فضلاً عن ذلك، تضيف الشركة بأنها حرصاً منها على أن تترك لكل واحد الوقت للاقتناع بالمزايا المضمَّنة في هذه الطريقة الجديدة، فهي لا تعتزم تطبيقها إلّا انطلاقاً من الإثنين، الأول من ديسمبر.

«لو أنك تقرأ بصوت أقل من ذلك، هيه!»، صاح أمين الصندوق، «لم يعُد أحد منا يسمع الثاني هنا».

أكمل إتيان قراءته، دون اعتبار الملاحظة. كان صوته يرتعد، وحينما انتهى، واصل الجميع التحديق في الإعلان. بدا أن عامل المنجم العجوز والفتى كانا لا يزالان ينتظران؛ ثم انصرفا، المناكب مكسورة.

«يا اسم الرب!»، همس **ماهو**.

جلس هو ورفيقه. مستغرقين، الرأس مطأطأ، يحسبان، بينما الصف المتحرك كان مستمراً إزاء الإعلان الأصفر. هل كانوا يهزؤون بهم! لن يدركوا أبداً بتمتين الدعائم، العشرة سنتيمات المخفضة عن كل عربة. بأعلى تقدير، سوف يحصلون على ثمان سنتيمات، والشركة تسرق منهم سنتيمين، دون احتساب الوقت

الذي سوف يتطلبه منهم العمل المتقن. ها ما تريد الوصول إليه، خفض الأجور المقنّع! إنها تقتصد من جيوب عمال المناجم.

«يا إلهي يا إلهي!»، ردد **ماهو** وهو يرفع رأسه، «إن قبلنا هذا فنحن بلا ذمة ولا همّة!».

لكن كان الشباك خالياً، دنا كي يحصل على أجرته. لأن رؤساء المقاولة يتقدمون لوحدهم أمام الشّباك، ثم يوزعون المال على رجالهم، مما يوفر الوقت.

«ماهو وشركاؤه»، قال الوكيل، «عِرق فيلونيير، المقلع رقم سبعة».

كان يفتش البيانات، التي يتم وضعها بفحص البطائق حيث كان رؤساء العمل يدونون، كل ساعة ولكل موقع، عدد العربات المستخرَجة. ثم كرّر:

«ماهو وشركاءه، عرق فيلونيير، مقلع رقم سبعة. مائة وخمسة وثلاثون فرنكاً».

أدى أمين الصندوق المبلغ.

«العفو، سيدي»، تمتم الحفّار، وقد ذهل، «هل أنت على يقين من أنك لم تغلط في الحساب؟».

كان ينظر إلى ذلك المال القليل، دون أخذه، وقد جمد من رعشة خفيفة كانت تسري إلى قلبه. من المؤكد أنه كان يتوقع أجراً زهيداً، لكن ليس بهذا القدر القليل كله، أو لعله لم يجرِ الحساب جيداً. عندما سيعطي لكل نصيبه، زكاري، إتيان، والرفيق الآخر الذي حلّ مكان شافال، سيفضل على أكبر تقدير خمسين فرنكاً له، ولأبيه وكاترين وجونلان.

«كلّا، كلّا، لم أغلط»، قال المستخدم، «يجب عدم احتساب يومي أحد، وأربعة أيام عطالة: إذن، حصيلتك تسعة أيام عمل».

كان **ماهو** يتابع الحساب، يزيد بصوت خفي: تسعة أيام تمنحه حوالي ثلاثين فرنكاً، ثمانية عشر لكاترين، تسعة لجونلان، أما الأب بونمور، لم يكن لديه سوى ثلاثة أيام. لا يهم، بإضافة ثمانين فرنكاً لزكاري وللرفيقين، فإن الحصيلة ستكون بالتأكيد أكثر.

«ولا تنسَ الغرامات»، أكمل الوكيل كلامه. «عشرون فرنكاً غرامة عن تمتين الدعائم المعيب».

بدرت من الحفار إيماءة يأس. عشرون فرنكاً غرامات، أربعة أيام عطالة! إذن، الحساب صحيح. هو الذي كان يحصل على مائة وخمسين فرنكاً كل نصف شهر، عندما كان الأب بونمور يشتغل ولم يكن زكاري بعد في الخدمة!

«والقصد هل ستأخذه؟»، صاح أمين الصندوق وقد نفد صبره، «ترى ملياً أن غيرك ينتظر. إذا لم ترده، قل ذلك».

ولما كان **ماهو** يعتزم جمع المال بيده الغليظة المرتعشة، أوقفه المستخدم.

«مهلا، لدي هنا اسمك، توسان **ماهو**، أليس كذلك. السيد الكاتب العام يود الحديث معه. ادخل، ليس معه أحد».

وقد أدير به، وجد العامل نفسه في مكتب، أثاثه خشب أكاجو قديم، منجد بقماش غليظ باهت وأنصت مدة خمس دقائق إلى الكاتب العام، رجل طويل القامة شاحب الوجه، حدّثه من على أوراق مكتبه، دون أن ينهض. لكن طنين أذنيه كان يعيق سمعه. فهم على نحو ملتبس أن الأمر كان يخص والده، الذي سوف يُشرع في

فحص تقاعده، بمعاش مائة وخمسين فرنكاً، سنّه خمسون عاماً وخدمته أربعون عاماً. ثم بدا له أن صوت الكاتب أصبح أشد قسوة. كان ذلك عبارة عن توبيخ، إذ كان يعاب عليه الانشغال بالسياسة، وتم التلميح إلى ساكنه وإلى صندوق الادخار؛ وفي نهاية الأمر، وجهت له النصيحة بأن لا يتورط في تلك الحماقات، هو الذي يعتبر واحداً من أفضل عمال الحفرة. أراد الاحتجاج، لم يستطع سوى نطق كلمات بلا تتمة، لوى قبعته بين أصابعه المحمومة، ثم انسحب وهو يتمتم:

«بالتأكيد، سيدي الكاتب... أؤكد للسيد الكاتب...».

في الخارج، عندما لقي إتيان الذي كان في انتظاره، انفجر.

«أنا بلا ذمة ولا همة، كان يلزمني الرد عليه! ليس هناك ما يكفي لشراء رغيف، وحماقات أخرى! أجل، إنه مغتاظ منك، قال لي إن المجمّع أضحى مسموماً. وماذا نفعل؟ يا إلهي! نركع، نقول شكراً. إنه محق، هذا هو التصرف الحكيم».

سكت **ماهو**، وقد امتلأ غضباً وخشية في آن. كان إتيان يفكر والكآبة بادية عليه. من جديد، عبرا الجماعات التي كانت تقطع الطريق. السخط يتعاظم، سخط شعب ساكن، همسٌ يرعد بعاصفة، بلا عنف في الأفعال، غمغمة عاصفة مهدرة، رهيبة فوق تلك الكتلة الثقيلة. بعض الرؤوس التي تجيد العدّ قامت بالحساب، والسنتيمان اللذان ربحتهما الشركة في الأخشاب كانا يروجان، يحمسان الجماجم الأشد صلابة. لكن على الأخص الغيظ من تلك الأجرة المصيبة، هيّج الجوع! ضد العطالة والغرامات. أصلاً، لم يعُد الناس يَطعمون، ماذا سيحل بهم، إذا

تمّ خفض الأجور أكثر؟ في الحانات، كان الناس يسخطون بصوتٍ عالٍ، ومن شدة ما كانت الحناجر تجف من الغضب، فإن المال القليل المحصّل كان يظل فوق المعارض.

من مونسو إلى المجمّع، لم يتبادل إتيان وماهو كلمة واحدة. حينما دخل هذا الأخير، ماهود التي كانت لوحدها مع الأولاد، لاحظت في الحال أنه لم يكن يحمل شيئاً في يديه.

«طيب، كم أنت لطيف!»، قالت، «والبن والسكر واللحم الذي طلبت؟ ما كانت قطعة عِجل لتجعلك مفلساً».

لم يكن يرد، وهو مخنوق بالعواطف التي كان يكبحها. ثم إذا بذلك الوجه الغليظ لرجل خشن عظمه بالأشغال في المناجم، ينتفخ من شدة اليأس، وشقت دموع غليظة عينيه، وهَمَت مطراً حاراً. تهالك على كرسي، كان يبكي مثل طفل، وهو يرمي الخمسين فرنكاً على الطاولة.

«هاكِ!»، تمتم، «ها ما أحمل إليكِ. هذا عملنا جميعاً».

نظرت ماهود إلى إتيان، ورأته أخرس اللسان، مقهوراً. حينها، بكت بدورها. كيف تطعم تسعة أفراد بخمسين فرنكاً لخمسة عشر يوم؟ بِكرُها هجرهم، العجوز لم يعُد قادراً على تحريك ساقيه: إنه الهلاك عما قريب. ارتمت ألزير على عنق أمها، وقد انقلب حالها من سماع بكائها. كانت إستيل تعوي، لينور وهنري يجهشان.

ومن المجمّع بأكمله، سرعان ما دوّت صرخة البؤس نفسها. كان الرجال قد عادوا، وكل يبث شكواه أمام مصيبة ذلك الأجر الزهيد. فُتِحت أبواب من جديد، ظهرت نساء، صارخات في

الخـارج، كمـا لـو أن شـكواهن مـا كانـت لتتحمـل سـقوف البيـوت المغلقـة. كان مطـر خفيـف يأتـي مـن السـماء، إلا أنهـن لـم يشـعرن بـه، كل واحـدة تنـادي الأخـرى علـى الرصيـف، وتظهـر فـي كفهـا المـال المحصَّـل عليـه.

«انظرن! لقد أعطوه هذا، أليس هذا احتقار للناس؟».

«أنا، انظرن! ليس لي حتى ما أدفع به ثمن خبز الأسبوعين».

«وأنا، احسبن، يجب أن أبيع قمصاني أيضاً».

كانـت **ماهود** قـد خرجـت مثـل الأخريـات. تشـكّلت جماعـة حـول لوفاكه، التـي كانـت تصـرخ بشـدة؛ لأن زوجهـا السّـكّير لـم يظهـر لـه أثـر، كانـت تعـرف أن الأجـر، سـواء كان سـميناً أو هـزيـلاً، سـوف يـذوب فـي حانـة فولـكان. كانـت فيلوميـن تراقـب **ماهو** حتـى لا يقتطـع زكاري شـيئاً مـن النقـود. ولـم يكـن سـوى پييرونـه التـي بـدت هادئـة بمـا فيـه الكفايـة، فذلـك اللئيـم پييـرون كان يتدبـر أمـره دومـاً، لا يُعلـم كيـف، بحيـث كان يتـم تقييـد سـاعات أكثـر مـن سـاعات رفاقـه، فـي بطاقـة رئيـس العمـال. لكـن **برولي** اعتبـرت ذلـك جبنـاً مـن صهرهـا، كانـت مـن ضمـن الغاضبـات، نحيفـة ومسـتقيمة، وسـط الجماعـة، وقبضتهـا تشـير نحـو مونسـو.

«لذلـك هـذا الصبـاح»، صاحـت دون أن تسـمي آل **إينبو**، «رأيـتُ خادمتهـم تمـر بالعربـة المجـرورة! أجـل، الطاهيـة فـي العربـة ذات الحصانيـن، ذاهبـة إلـى مارشـيين لشـراء السـمك، بالتأكيـد!».

اشتد الصخـب، وبـدأ الضجيـج مـن جديد. تلك الخادمـة بمبذلتها البيضـاء، المحمولـة إلـى سـوق المدينـة المجـاورة فـي عربـة سـيديها، كانـت تثيـر السـخط. العمـال يهلكـون مـن الجـوع، وهـم فـي حاجـة

إلى سمك مع ذلك؟ ربما لا يأكلون السمك دوماً: سوف يأتي دور الناس المساكين. وكانت الأفكار التي بذرها إتيان تطلع، تتسع في صرخة التمرد تلك. إنه نفاد الصبر على العصر الذهبي الموعود، العجلة في الحصول على نصيب المرء من السعادة، ما وراء أفق البؤس ذاك، المسدود مثل قبر. صار الظلم شديداً، سوف ينتهي بهم المطاف إلى الإلزام بحقهم، ما دام هناك من يسلبهم الرغيف من الفم. النساء على الأخص كن يردن الهجوم حالاً على مدينة التقدم المثالية تلك، حيث لن يكون هناك بؤساء أبداً. كان الليل قد أظلم تقريباً، وسال المطر بكثرة، وزدن على ذلك إذ ملأن المجمّع بدموعهن، وسط كرّ وفرّ الأطفال وصراخهم.

في المساء، بخمارة لاڤانتاج، تمّ إقرار الإضراب. لم يعُد راسنور ينازع فيه، وقبل به سوڤارين كخطوة أولى. بعبارة واحدة، لخَّص إتيان الوضع: إذا كانت الشركة تريد الإضراب، فإنها ستحصل على إضراب.

V

مرّ أسبوع، واستمر العمل، مرتاباً وكئيباً، في انتظار الخلاف.

عند آل **ماهو**، كانت أجرة نصف الشهر تنذر بكونها أشد بخساً. لذلك كانت ماهود مغتاظة، رغم اعتدالها وحسّها السليم. ألم تقدم بنتها كاترين على النوم ليلةً خارج البيت؟ صباح اليوم التالي، عند رجوعها، من شدة ما كانت متعبة ومريضة من تلك المغامرة لم تستطع الذهاب إلى المنجم؛ وكانت تبكي، وتقول إن ذلك لم يكن غلطة منها، لأن شافال هو الذي منعها، وهدد بضربها إن هي هربت. لقد جنّ جنونه من الغيرة، كان يريد منعها من العودة إلى فراش إتيان، حيث كان يعلم جيداً، كما كان يقول، أن الأسرة تجعلها تنام فيه. وقد أثقلها الغضب، بعدما منعت ماهود ابنتها من لقاء مثل ذلك الشرس من جديد، كانت تتحدث عن الذهاب إلى مونسو حتى تلطمه. لكن ذلك لم يمنع من أن ذلك اليوم ضاع، والصغيرة بعدما حصلت الآن على ذلك العاشق، كانت تفضل أكثر ألّا تبدله.

بعد ذلك بيومين، وقع أمر آخر. الإثنين والثلاثاء، جونلان الذي كانوا يظنون أنه في لوفوروه، يشتغل بهدوء، هرب، للتجول في السّباخ وفي غابة ڤاندام، رفقة بيبير وليدي. لقد أفسد أخلاقهما، لم يُعرف قط أية سرقات، أية ألعاب أطفال لهم فطنة مبكرة كانوا يتعاطونها هم الثلاثة. أما هو فقد عاقبته أمه عقاباً شديداً وذلك بنخسه على عجزه، في الخارج، على الرصيف، أمام أطفال المجمّع المذعورين. هل سبق ورأى الناس ذلك؟ أطفالها

هـي، الذيـن تنفـق عليهـم منـذ ولادتهـم، الذيـن يلزمهـم أن يكسـبوا المـال الآن! وفـي تلـك الصرخـة، كانـت ذكـرى شـبابها القاسـي، البؤس المـوروث الـذي يجعـل من كل وليـد مـن الأولاد وسـيلة لكسـب لقمـة العيـش لاحقـاً.

ذلـك الصبـاح، حينمـا ذهـب الرجـال والبنـت إلـى الحفـرة، اسـتقامت ماهـود علـى فراشـها كـي تقـول لجونـلان:

«تعلـم إن أعـدت الكـرّة، أيهـا الحقيـر الشـرير، سـوف أسـلخ جلـد مؤخـرتـك!».

فـي موقـع عمـل **ماهـو** الجديـد، كان الشـغل شـاقّاً. فذلـك الجـزء مـن عِـرق **فيلونيير** كان يـزداد ضيقـاً إلـى حـدّ أن الحفّاريـن، وقـد سـحقوا بيـن الحائـط والسـقف، كانـوا يسـلخون جلـد مرافقهـم أثنـاء الحفـر. كمـا أنـه أصبـح رطبـاً جـداً، وكان يخشـى مـن سـيلان المـاء بيـن سـاعة وسـاعة، واحـد مـن تلـك السـيول المباغتـة التـي تخـرق الصخـر وتحمِـلُ الرجـال. فـي اليـوم السـابق، لمّـا كان إتيـان يولـج معولـه بشـدة ويخرجـه، ترشـش وجهـه مـاء نبـع؛ لكـن لـم يكـن ذلـك سـوى تحذيـر، إذ ظـلّ المقلـع جـراء ذلـك فحسـب أشـد بلـلاً وفسـد جوّه أكثـر. فضـلاً عـن ذلـك، لـم تكـن الحـوادث الممكنـة تخطـر علـى بالـه قـط، كان يسـلو هنـا الآن مـع رفاقه، وهـو غافـل عـن الخطـر. كانـوا يعيشـون فـي تسـرب الغـاز دون حتـى أن يشـعروا بثقلـه علـى الأجفـان، والحجـاب علـى شـكل بيـت العنكبـوت الـذي كان يتركـه علـى الأهـداب. أحيانـاً، لمـا كانـت شـعلة المصابيـح تذبـل وتميـل أكثـر إلـى الزرقـة، كان الفكـر يذهـب إليـه، إذ يضـع عامـل رأسـه علـى العِـرق حتـى يسـمع الصـوت الخفيـف الـذي للغـاز، صـوت كـرات هـواء تغلـي

عند كل شقّ. لكن التهديد الملازم كان هو الهَدم: إذ فضلاً عن الدعائم غير الكافية، التي يتم تمتينها دائماً بسرعة مفرطة، فإن التربة لم تكن ثابتة، لأنها غارقة بالمياه.

لم يجد **ماهو** بُدّاً من تمتين الدعائم ثلاث مرات في النهار. كانت الساعة الثانية ونصف، والرجال سوف يصعدون. وهو مستلق على جنبه، كان إتيان ينهي حفر كتلة من الحجر، حينما اهتز المنجم كله جرّاء هدّة بعيدة.

«ما هذا إذن؟»، صاح، وهو يترك معوله حتى ينصت. ظن أن السرداب تهدّم خلف ظهره.

لكن كان **ماهو** قد انزلق مسبقاً في منحدر المقلع، وهو يقول: «هذا هَدم، أسرع! أسرع!».

تدحرجوا كلهم، هرعوا، يحملهم دفع من الأخوة الحيرى. المصابيح تتراقص في أيديهم، وسط الصمت المأتمي الذي عمّ؛ يركضون صفّاً على امتداد المسالك، الظهر محني، كما لو كانوا يعدون على أربع؛ ودون إبطاء عدوهم ذاك، يتساءلون، يرمون بأجوبة مختصرة: أين إذن؟ في المقالع على الأرجح؟ كلا، كان ذلك آتياً من تحت! بالأحرى في موقع النقل! حينما وصلوا إلى المدخنة، اندفعوا داخلها، وسقط بعضهم فوق بعض، غير مبالين بالخدوش.

جونلان، الذي كان جلده لا يزال محمراً من نخس اليوم السابق، لم يهرب من الحفرة، ذلك اليوم. كان يركض حافي القدمين خلف قطار عرباته، يغلق أبواب التهوية باباً باباً؛ وأحياناً، حينما كان يأمن لقاء رئيس عمال، يركب آخر عربة تحميل، وذلك محرّم

عليـه، خوفـاً مـن أن ينـام فيهـا. لكـن تسـليته الكبـرى، كلمـا توقـف قطـار العربـات كـي يفسـح بمـرور قطـار ثـان، تمثّلـت فـي الذهـاب قصـد لقـاء بيبيـر عنـد المقدمـة حيـث يمسـك القيـاد. كان يصـل بمكـر، دون مصباحـه يقـرص الرفيـق حتـى يسـيل دمـه، يختلـق مقالـب قـرد خبيـث، بشـعره الأصفـر، وأذنيـه الكبيرتيـن، وخطمـه النحيـل الـذي تضيئـه عينـان خضـراوان صغيرتـان. بالنظـر إلـى نضجـه المبكـر، كان يبـدو أنـه يتمتـع بالـذكاء الغامـض والمهـارة النشـطة التـي عنـد جهيـض بشـري عـاد إلـى البهيميـة الأصـل.

بعـد الظهـر، أحضـر **موك** للصبيـان المتعلميـن الحصـان باتـاي، الـذي حـان دوره فـي العمـل الشـاق؛ وبمـا أن الحصـان كان يزفـر فـي مـرآب، سـأل جونـلان، الـذي انـدس إلـى حيـث بيبيـر:

«ماذا حل بهذا النَفور، الذي يحرن؟ إنه سوف يكسر ساقَي».

لـم يسـتطع بيبيـر جوابـاً، لزمـه كبـح **باتـاي** الـذي كان يفـرح بدنـو القطـار الثانـي. إذ بواسـطة الشـم تعـرف الحصـان، مـن بعيـد، رفيقـه **تروميـت**، الـذي تعلق بـه منـذ اليـوم الـذي شـهد فيـه حلولـه بالحفـرة. وكأنهـا شـفقة حانيـة مـن فيلسـوف عجـوز، يريـد مواسـاة صديـق شـاب، إذ يهبـه خنوعـه وصبـره؛ لأن **تروميـت** لـم يتعـود الأجـواء، كان يجـر عرباتـه علـى مضـض، يظـل مطأطـأ الـرأس، والظـلام يعميـه، تلازمـه الحسـرة مـن فقـد الشـمس. لذلـك، كلمـا لقيـه **باتـاي**، كان يمـدّ عنقـه، يشـب علـى قائمتيـه، ويبللـه بلمسـة تشـجيع.

«باسـم الـرب!»، قـال بيبيـر لاعنـاً، «هـا همـا يمصـان جلـد بعـض مـرة أخـرى!».

ثم بعدما مرّ تروميت، ردّ عليه بخصوص باتاي:

«هيا، إن فيه عيباً، العجوز! حينما يحرن هكذا، فذلك لأنه يفطن إلى ورطة، إلى حجر أو ثقب؛ إنه يحافظ على نفسه، لا يريد أن يُكسر شيء فيه. اليوم، لا أدري ما حل به، هناك، بعد الباب. إنه يدفعه، ويبقى واقفاً. هل شعرتَ بشيء؟».

«كلا»، قال جونلان، «هناك ماء، يصل حتى ركبتَيّ».

انطلق قطار العربة من جديد، وحينما فتح باب التهوية بدفعةٍ من رأسه، رفض باتاي التقدم من جديد، وهو يصهل، ويرتعد. وفي نهاية المطاف، حزم أمره وانصرف سريعاً.

جونلان، الذي أغلق الباب، ظلّ في الخلف. انحنى، نظر إلى البركة التي كان يتخبّط فيها، ثم بعدما رفع مصباحه، أدرك أن الأخشاب تقوست، بفعل رشحان النبع المتواصل. وفي تلك اللحظة بالضبط، كان قادماً من مقلعه، حفار اسمه **بيرلوك** ويدعى **شيكو**، مستعجل لرؤية زوجته التي كانت على وشك الوضع. توقف هو أيضاً، وفحص دعائم الخشب. وفجأة، لمّا كان الصغير يهم بالذهاب قصد اللحاق بقطاره، سُمِعت فرقعة هائلة، ابتلع الهَدَم الرجل والطفل.

خيّم صمت عظيم. كان غبار سميك دفعته ريح الهدّة يتصاعد في المسالك. كان العمال، وقد عَموا واختنقوا، ينزلون من كل حدب، من المواقع البعيدة، بمصابيحهم المتراقصة التي لا تضيء جيداً عدو الرجال المسودّة وجوههم ذاك، في جوف حُفَر الجرذان تلك. حينما اصطدم الأوائل منهم بالردم، صاحوا، منادين على الرفاق. عصبة ثانية، قادمة من أقصى مقلع، كانت توجد في الجانب الآخر من الأتربة، التي كانت كتلتها تسد

السرداب. وبسرعة، عُرف أن السقف قد هوى على ما يقرب من عشرة أمتار على أكبر تقدير. لم تكن الخسارة بالأمر الجلل. لكن القلوب انقبضت، حينما خرجت حشرجة من بين الأنقاض.

هبّ بيبير الذي ترك قطار عرباته وهو يردد:

«جونلان تحت! جونلان تحت!».

في هذه الأثناء كان **ماهو** يتدحرج عبر المدخنة، رفقة زكاري وإتيان. استبد به غيظ اليائس، ولم يلفظ سوى لعنات:

«اللعنة! اللعنة! اللعنة!».

كاترين، ليدي وموكيت اللواتي هرعن أيضاً، قد أخذن في النحيب والعويل من شدة الذعر وسط الفوضى المخيفة التي كان الظلام يزيد من حدّتها. وكلما سعى أحد إلى إسكاتهن، فزعن واشتد عويلهن، عند كل حشرجة.

وصل رئيس العمال **ريشوم** مسرعاً، وهو يأسف لأن المهندس نيغريل ودانسير غائبان عن الحفرة. وأذنه لصق الصخر، كان ينصت؛ وانتهى به الأمر إلى القول إن ذلك التوجع ليس توجع طفل. يوجد هناك رجل. وقد سبق أن نادى **ماهو** عشرين مرة باسم جونلان. ولم يتردد أي نفَس. لا بد أن الصغير انسحق.

واستمرت الحشرجة دوماً، رتيبة. كان هناك من يكلّم المحتضر، ويسأله عن اسمه. وحدها الحشرجة ما كان يجيب.

«فلنسرع!»، كان يكرر ريشوم، الذي سبق ونظّم النجدة، «سوف نتحدث في ما بعد».

من الجانبين، كان العمال يتصدون للردم، بالفأس والمجرف. وكان شافال يعمل ولا ينبس ببنت شفة، إلى جانب **ماهو** وإتيان؛

بينما زكاري يشرف على نقل الأتربة. كانت ساعة الخروج قد حلّت، لم يتناول أحد طعامه؛ لكنّهم لا يستطيعون الذهاب لأجل الحساء بينما هناك رفاق في محنة. ومع ذلك، خطر على البال أن المجمّع سوف تستبد به الحيرة إذا لم يشهد عودة أحد، وتم اقتراح إرجاع النسوة. لم ترد كاترين ولا موكيت بل ولا ليدي أن يبتعدن، وقد أقعدتهن الحاجة لمعرفة المآل، وساعدن في رفع الأنقاض. حينذاك، قبل لوفاك مهمة الإعلان فوق عن الردم، ضرر بسيط يُعمل على إصلاحه. كانت الساعة قد قاربت الرابعة، في أقل من ساعة قام العمال بعمل يوم كامل: تقريباً كان نصف الأتربة قد تمت إزالته، لولا أن صخوراً جديدة سقطت من السقف. كان **ماهو** مصرّاً بقدر كبير من الغيظ إلى حدّ أنه رفض بإيماءة رهيبة حينما دنا شخص ثان منه كي ينوب عنه لحظة.

«برفق!»، قال ريشوم في نهاية المطاف، «لقد وصلنا. لا يجب أن نهلكهما».

وبالفعل، صارت الحشرجة أشدّ وضوحاً. تلك الحشرجة المتواصلة هي ما كان يقود العمال؛ والآن بدا أنها ترمي بنفَسها تحت الفؤوس بذاتها. فجأة، سكنت الحشرجة.

نظر جميع من في المكان إلى بعض وهم صامتين، وقد سرت فيهم رعدة الإحساس بمرور برد الموت، في الظلمات. كانوا يضربون بالفؤوس، وقد بللهم العرق، ومن ذلك الموضع، شُرع في رفع التراب بالأيدي، وأخرجت الأطراف، واحداً بعد الثاني. لم يتعرض الرأس لأذى. كانت مصابيح تضيئه، وجرى

اسم شيكو على الألسن. كان ساخناً بالكامل، وقد قسمت صخرة عموده الفقري.

لفّوه في غطاء، وضعوه في عربة، أمر رئيس العمال. «إلى الصغير الآن».

وجّه **ماهو** ضربة أخيرة، وبرزت ثلمة، تمّ التواصل منها مع الرجال الذين كانوا يرفعون حجارة الهَدَم من الجانب الآخر. صاحوا، لقد وجدوا للتو جونلان وهو مغشي عليه، ساقاه مكسورتان، ولا يزال يتنفس. كان الأب هو من حمل الصغير بين ذراعيه؛ وفكّاه منقبضان، لم يكن يتلفظ بشيء غير اللعنات! للتعبير عن وجعه؛ بينما عادت كاترين وباقي النساء للعويل.

شُكِّل الموكب بسرعة. قام بيبير بإحضار **باتاي**، الذي رُبط إلى عربتين: في الأولى مُدّت جثة شيكو، التي يسندها إتيان؛ في الثانية جلس **ماهو**، يحمل جونلان على ركبتيه، مغشي عليه، مغطى بمزقة من صوف، نُزِعت من باب للتهوية. وانطلق الجميع، يخطو. في كل عربة، كان مصباح مغلف بثوب أحمر. ثم في الخلف، يتبعه صفٌ العمال، قرابة خمسين من الظلال المتتابعة. الآن كان التعب يسحقهم، يجرون أقدامهم، يزلقون في الوحل، يغشاهم حداد كئيب لقطيع ضربه وباء. تطلب الأمر زهاء نصف ساعة للوصول إلى سلم البئر. ذلك الموكب تحت الأرض، وسط العتمة السميكة، كان بلا نهاية، على امتداد السراديب التي كانت تتشعب، تلتف وتنبسط.

في سلم البئر، بعدما كان أول الواصلين، أعطى ريشوم الأمر بأن يُحجَز قفص فارغ، في الحال قام پييرون بتحميل العربتين.

في واحدة ظلّ **ماهو** مع صغيره الجريح على ركبتيه بينما في الثانية، كان على إتيان أن يحفظ بين ذراعيه جثة شيكو حتى يمكن حمله. حينما تراكم العمال في الطوابق الأخرى، صعد القفص. استغرق ذلك دقيقتين. كان مطر التبطين يسقط بارداً بشدة، والرجال ينظرون في الهواء، بنفاد صبر لمشاهدة السطح من جديد.

من حسن الحظ أن صبياً متعلماً، أُرسل عند الدكتور ڤانديرهاغن، وجده وأحضره. تمّ حمل جونلان والميت إلى حجرة رؤساء العمال، حيث يشتعل موقد نار عظيمة على طول السنة. رُتِّبت دلاء الماء الساخن على مقربة لغسل الأقدام؛ وبعد بسط فراشين محشوّين على البلاط، أُضجِعَ فيهما الرجل والطفل. دخل **ماهو** وإتيان وحدهما. في الخارج، هرعت عاملات حمل وعمال منجم وصِبيان، وكانوا يتكلمون بصوت مهموس.

ما أن رمى الطبيب بنظرة إلى **شيكو** حتى همس:

«هلك! تستطيعون غسله».

قام حارسان بخلع لباسه، ثم بالمنشفة غسلا الجثة المسودة بالفحم، التي كانت لا تزال وسخة بعرق الشغل.

«لم يُصَب الرأس بشيء»، استأنف الدكتور وقد جثا على مفرش **جونلان**، «والصدر كذلك. آه! الساقان مصابتان».

قام بنفسه بخلع ملابس الطفل، فكّ عقدة البخنق، نزع المعطف، سحب السروال والقميص، بحذق مرضعة. وبدا الجسم الصغير المسكين بهزال حشرة، دنّسه غبار أسود، وتراب أصفر تتخلله لطخات دم. لم تكن العين تميز شيئاً. ولزم غسله هو

أيضاً. حينها بدأ أنه يهزل تحت المنشفة، الجسد شاحب بشدة وشفاف بشدة حتى كانت العظام تُرى. كان منظراً مثيراً للشفقة، ذلك الانحلال الأخير لعرق من البؤساء، ذلك الذي لا يساوي شيئاً بتاتاً، المفجوع، الذي هُصَر تقريباً بسقوط الصخر الساحق. بعدما صار نظيفاً، شوهدت الخدوش على الفخذين، لطختان حمراوان على البشرة البيضاء.

أرسَل جونلان أنيناً لمّا أفاق من غشيته. واقف، عند المفرش، ذراعاه ممددتان إلى جنبيه، كان **ماهو** ينظر إليه؛ وسالت الدموع من عينيه.

«هه؟ أنت هو الأب؟»، قال الدكتور وهو يرفع رأسه، «لا تبكِ، هيا، أنت ترى أنه غير ميت. ساعدني بدلاً من ذلك».

لاحظ كسرين بسيطين. لكن الساق اليمنى أشعرته بالحيرة: يجب قطعها بلا شك.

في هذه الآونة، وصل المهندس نيغريل ودانسير، اللذان تمّ إخبارهما، وكان معهما ريشوم. أنصت الأول إلى حكاية رئيس العمال والاستياء باد عليه. انفجر قائلاً: «دائماً تلك الدعائم الخشبية الملعونة! ألم يكرر مائة مرة أن رجالاً سيهلكون هناك! وهؤلاء الغلاظ الذين يتحدثون عن خوض إضراب، إن تمّ إجبارهم على تمتين الدعائم بشدة! الأسوأ أن الشركة هي من سوف يؤدي ثمن الخسارة الآن. سوف يكون السيد **إينبو** مسروراً!».

«من هو؟»، سأل دانسير، وهو صامت قبالة الجثة التي كانوا منهمكين في لفها داخل لحاف.

«**شيكو**، واحد من أحسن عمالنا»، أجاب رئيس العمال، «له ثلاثة أطفال. يا للطيّب المسكين!».

طلب الدكتور ڤانديرهاغن نقل جونلان على وجه السرعة إلى البيت. دقّت الساعة السادسة، حلّ الغروب مسبقاً، من الأفضل نقل الجثة كذلك؛ وأعطى المهندس الأوامر بقطر الشاحنة وإحضار الحمَّالة. وُضع الطفل الجريح في الحمّالة بينما حُمِّل المفرش والميّت في الشاحنة.

عند الباب، كانت لا تزال عاملات نقل واقفات، يتحدثن إلى عمال في المنجم يبطئون للمشاهدة. حينما فُتحت حجرة رؤساء العمال من جديد، ساد الصمت في الجمع. وتشكّل موكب جديد، الشاحنة في المقدم، والحمّالة في الخلف، ثم صفّ الناس. غادر الحشد ساحة المنجم، وارتقى ببطء الطريق الصاعد إلى المجمّع. كانت بوادر برد نوفمبر قد عرَّت السهل الشاسع، وليل وئيد يغطيه مثل كفن هوى من السماء الشاحبة.

حينذاك، نصح إتيان، خفية، **ماهو** بأن يبعث كاترين لإخبار **ماهود**، حتى يخفف من الصدمة. بإيماءة وافق الأب الذي كان يتبع الحمّالة، وبدا أنه مصروع؛ وانطلقت الفتاة تجري، إذ أوشكوا أن يصلوا. لكن كان قد بلغ خبر الشاحنة، تلك العلبة المظلمة المعروفة جداً. خرجت نسوة إلى الأرصفة على نحو أهوج، ثلاثة منهن أو أربعة يركضن من هلع، دون غطاء رأس. وبعد حين صرن ثلاثين، ثم خمسين، تختنقهن جميعهن الرهبة نفسها. كان هناك إذن ميت، من يكون؟ القصة التي حكاها **لوفاك**، بعد أن طمأنَتهن جميعاً، رمت بهن الآن في مبالغة جديرة بكابوس: لم يعُد الأمر

يتعلق برجل واحد، بل عشرة هم من هلكوا، والشاحنة سوف تحملهم هكذا واحداً واحداً.

وجدت كاترين أمها وقد أربكها نذير؛ ومن الكلمات الأولى التي نبست بها، صاحت هذه الأخيرة:

«مات الأب؟».

كانت الفتاة تحتج دون جدوى، تتكلم عن جونلان. ودون أن تسمع، انطلقت ماهود. وعندما رأت الشاحنة بارزة أمام الكنيسة، خرّت قواها، وصارت شاحبة تماماً. عند عتبات الأبواب، كانت نساء أخرسهن الذهول، تشرئب أعناقهن، بينما أخريات يراقبن، مرتعدات من فكرة معرفة قبالة أي بيت كان سيتوقف الموكب.

مرّت العربة؛ وفي الخلف، تمكنت ماهود من رؤية **ماهو** الذي كان يرافق الحمَّالة. وعليه، حينما وضعت تلك الحمالة أمام بابها، ورأت جونلان حيّاً، بساقيه المكسورتين، من شدة ما انفعلت بغتة، خنقها الغضب، وتمتمت بلا دموع:

«كل هذا! يقطعون أوصال صغارنا الآن! الساقان، يا إلهي! ماذا يريدون أن أصنع بذلك؟».

«اسكتي، هيّا!»، قال الدكتور ڤانديرهاغن، الذي تبعهم لتضميد جراح جونلان، «هل تفضلين أن يكون قد بقي هناك؟».

لكن غضب ماهود زاد، وسط دموع ألزير ولينور وهنري. وهي تساعد في حمل الجريح صعوداً وتمدّ الدكتور بما كان يحتاجه، فقد كانت تلعن الدهر، وتسأل أين يريدون لها أن تجد المال لإطعام ذوي عاهات. لم يكفهم العجوز إذن، وها هو الغلام بدوره يفقد قدميه! ولم تتوقف البتة، بينما صرخات أخرى، وبكاء يمزق

نياط القلب يخرج من البيت المجاور: كانت تلك زوجة وأطفال شيكو يبكون على الجثمان. كان الليل قد أظلم، لما أخذ عمال المنجم الذين هدّهم التعب، يطعمون حساءهم في نهاية المطاف، في المجمّع الذي هوى في صمت كئيب، تخترقه فحسب تلك الصرخات العظيمة.

مرّت ثلاثة أسابيع. تمّ تجنّب البتر، وسوف يحتفظ جونلان بساقيه، لكنه سيظل أعرج. بعد تحقيق، استسلمت الشركة لمنح خمسين فرنكاً معونة. علاوة على ذلك، تعهدت بأن تبحث للمعاق الصغير عن عمل في السطح ما أن يستعيد عافيته.

ولم يمنع ذلك من تعاظم البؤس، لأن صدمة الأب كانت قوية فقد أصابته حمّى شديدة.

وبداية من الخميس رجع ماهو إلى الحفرة، وكان ذلك يوم أحد. في المساء، تحدث إتيان عن تاريخ الأول من ديسمبر القريب، وهو مشغول بالتحقق مما إذا كانت الشركة سوف تنفذ تهديدها. سهروا حتى العاشرة، في انتظار كاترين التي كان معلوم أنها ستتأخر مع شافال. لكنها لم ترجع. أغلقت ماهود الباب وهي تستشيط غضباً دون كلمة. لم ينم إتيان إلا بعد طول أمد، وهو متحيّر من ذلك الفراش الفارغ، حيث كانت ألزير تحتل منه حيزاً صغيراً جداً.

في اليوم التالي، دائماً لا أحد؛ وبعد الزوال فحسب، عند العودة من الحفرة، علم آل ماهو أن شافال كان يحجز كاترين. ومن شدة خسته في ما كان يعيبه عليها قررت العيش معه. وحتى يتجنب العتاب، هجر لوفوروه بغتة، وتم استخدامه آنفاً في

جونبار، وهو بئر السيد دونولان، حيث تبعته كعاملة نقل. فضلاً عن ذلك، ظلّ الزوج الجديد يقيم في مونسو، عند بيكيت.

أول الأمر، قال **ماهو** إنه سوف يذهب كيما يلطم الرجل ويعيد بنته بنخسها برجله على عجيزتها. ثم بدت منه إيماءة استسلام: وما جدوى ذلك؟ إن الأمور كانت تجري دائماً على ذلك النحو، لا يمكن منع الفتيات من التزاوج، حينما يرغبن ذلك. من الأفضل انتظار الزواج بهدوء. لكن **ماهود** لم تكن تنظر للأمور بذلك القدر من الرضا.

«هل ضربتُها حينما حصلت على شافال ذاك؟»، صاحت مخاطبة إتيان، الذي كان ينصت إليها، وهو صامت وشاحب جداً، «هيا، أجِب! أنت يا من هو رجل عاقل. لقد تركناها طليقة، أليس كذلك؟ لأن، يا إلهي! كلهن يعشن ذلك. أنا، مثلاً، كنت حبلى، حينما تزوجني الأب. لكني لم أهرب من بيت والديّ، ما كنت لأقدم أبداً على تلك القذارة، أن أحمل قبل الأوان المال الذي أكسبه من أيام شغلي لرجل لم يكن في حاجة إليه. آه! ذلك مقرف، كما ترى! سوف يصل بنا الأمر إلى أن لا نرغب في أولاد».

وبما أن إتيان لم يرد إلا بتحريك رأسه، ألحّت.

«فتاة كانت تذهب كل أمسية إلى حيث شاءت! ماذا يوجد في جلدها؟ لا تستطيع الانتظار حتى أزوّجها بعد أن تكون قد ساعدتنا في الخروج من الورطة! هه؟ كان ذلك أمراً طبيعياً، لنا بنت كي تعمل. لكن، ها نحن، لقد كنا طيبين فوق الحد، ما كان لنا أن نسمح لها باللهو مع رجل. نسمح لهن بالقليل، فيأخذن كل شيء».

كانت ألزير توافق بإيماءة من رأسها. لينور وهنري، مذعوران من تلك العاصفة، كانا يبكيان خفية، بينما كانت أمهما الآن تعدد المصائب: أولاً زكاري الذي وجب تزويجه، ثم العجوز بونمور الذي كان هناك، على كرسيّه، بقدميه المعوجَّتين؛ وجونلان الذي لن يستطيع مغادرة الحجرة قبل انصرام عشرة أيام؛ وعظامه لم تجبّر على نحو سويّ؛ وفي النهاية، الضربة الأخيرة، تلك الفاجرة كاترين التي رحلت مع رجل! الأسرة كلها تكسرت، لم يبق سوى الأب في الحفرة. كيف نعيش، سبعة أفراد، دون إستيل، بفرنكات الأب الثلاث؟ الأفضل أن نلقي بأنفسنا في القناة جماعة.

«لا يقدّم في الأمر شيء أن تغتمي»، قال ماهو بصوت مكتوم، «لسنا على الحافة ربما».

إتيان الذي كان يحدق في البلاط، رفع رأسه وهمس، وعيناه تائهتان في رؤيا المستقبل:

«آه! آن الأوان، آن الأوان!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الرابع

I

يوم الإثنين ذاك، حل آل غريغوار وبنتهما سيسيل ضيوفاً على مائدة فطور آل إينبو. كانت هناك خطة كاملة في الأفق: بعد الفراغ من الطعام، كان على پول نيغريل أن يرافق تلك السيدات في زيارة حفرة، سان توما، التي كان يتم فتحها من جديد بترف. لكن تلك مجرد ذريعة لطيفة، تلك الخطة كانت من اختلاق السيدة إينبو، للتعجيل بزواج سيسيل وپول.

ذلك الإثنين نفسه، وعلى نحو مباغت، على الساعة الرابعة صباحاً، كان قد اندلع إضراب للتو. حينما قامت الشركة، يوم الأول من ديسمبر، بتطبيق نظامها الجديد في الأجور، ظلّ عمال المناجم هادئين. عند متمّ نصف الشهر، يوم تحصيل الأجر، لم يقم ولا واحد بتقديم أدنى شكاية. جميع الموظفين، من المدير إلى آخر حارس، ظنوا أن التعريفة قد حظيت بالقبول؛ وكانت المفاجأة عظيمة، منذ الصباح، إزاء إعلان الحرب ذاك، التي يبدو أن تكتيكها ومجموعها يدلان على إدارة حيوية.

في الساعة الخامسة، أيقظ دانسير السيد إينبو لإخباره أنه لم ينزل إلى لوفوروه ولا رجل واحد. مجمع 240 الذي اجتازه، كان غارقاً في النوم، نوافذه وأبوابه مغلقة. وما أن قفز المدير من فراشه، وعيناه منفوختان بعد من النعاس، أثقِل كاهله: بين ربع ساعة وآخر، كانت تصل الرسائل، والبرقيات تساقط فوق مكتبه، صلبة مثل حَبّ الغمام. في البدء، أمل أن التمرد كان مقتصراً على لوفوروه، لكن الأخبار صارت خطرة مع كل دقيقة: في **ميرو**،

كانت تلك الحال في **كريفكور**، في **مادلين**، التي لم يظهر فيها سوى ساسة الجياد؛ ثم في **لافيكتوار وفلوري كانتيل**، الحفرتان الأفضل انضباطاً، التي اقتصر فيهما العمل تحت على الثلث؛ وحدها **سان توما** كان فيها العاملون بكامل عددهم وبدا أنها ظلت خارج الحركة. حتى الساعة التاسعة، قام بإملاء برقيات، وأرسل لاسلكياً إلى جميع الجهات، إلى محافظ مدينة لِيل، إلى وكلاء الشركة، مخبراً السلطات، سائلاً عن أوامر. كان قد أرسل نيغريل للقيام بجولة على الحفر المجاورة حتى يحصل على معلومات مضبوطة.

فجأة، تذكر السيد إينبو الغداء؛ وكان سوف يرسل الحوذي لإخبار آل غريغوار أن الجَمعة قد أُجّلت، حينما أوقفه تردد، وعدم الرغبة، هو الذي قام آنفاً، في جمل مختصرة معدودة بإعداد عسكري لميدان معركته. صعد عند السيدة إينبو، التي كانت خادمة الغرف على وشك الانتهاء من تزيين شعرها، في حجرتها الخاصة بالتزيين.

«آه! إنهم مضربون عن العمل»، قالت بهدوء، حينما استشارها، «وعليه، ما شأننا بذلك؟ لن نتوقف عن الأكل البتة، أليس كذلك؟».

ثم عاندت، ومهما قال لها إن الغذاء سوف يضطرب، إن زيارة سان توما لن يمكن القيام بها: كانت تحير جواباً عن كل شيء، لماذا نضيع فطوراً هو أصلا على النار؟ أما عن زيارة المنجم، يمكن التخلي عنها في ما بعد، إذا كان في تلك الجولة تهور بحق.

«ثم»، استأنفت قائلة، حينما خرجت خادمة الغرف، «تعرف لماذا أحرص على استضافة أصحاب الشهامة هؤلاء. ينبغي لهذا

الـزواج أن يعنيـك أكثـر مـن حماقـات عمالـك. بالمختصـر، أريـد ذلـك، لا تـزعجنـي».

نظـر إليهـا، وقـد هزتـه رعـدة خفيفـة، واكتسـى وجهـه الصـارم والجهـم، وجـه رجـل الانضبـاط، ذلـك الوجـع الخفـي لقلـب مجـروح. ظلـت عاريـة الكتفيـن، فـي نهايـة النضـج مسـبقاً، لكنهـا رقراقـة ومشـتهاة لا تـزال، بقدهـا الـذي لآلهـة الـزرع **سيريس** التـي كسـاها الخريـف بلـون الذهـب. للحظـة، لا بـد أن استـبدت بـه شـهوة عاتيـة لضمّهـا، ودحرجـة رأسـه فـي صدرهـا، فـي تلـك الحجـرة الدافئـة، ذات الرفاهيـة الحميمـة لامـرأة شـهوانية، وحيـث يفـوح عطـر مسـك مثيـر؛ لكنـه تراجـع، منـذ عشـرة أعـوام كل مـن الزوجيـن يبيـت فـي غرفتـه المعزولـة.

«طيّب»، قال وهو يفارقها، «لن نؤجل شيئاً».

وُلـد السـيد **إينبـو** فـي منطقـة **ليزارديـن**. كانـت بداياتـه صعبـة مثـل كل طفـل فقيـر، رمـي بـه يتيمـاً إلـى الشـارع فـي باريـس.

بعـد أن تابـع بعنـاء دروسـاً فـي مدرسـة المناجـم، فـي سـن الرابعـة والعشـرين مـن عمـره رحـل إلـى **لاغران كومب**، واشتغل مهندسـاً فـي بئـر القديسـة بربـارة. بعـد ذلـك بثلاثـة أعـوام أصبـح مهنـدس قسـم فـي لوپادوكالـي، بمناجـم **مـارل**؛ وهنـاك تـزوّج، بضربـة حـظ التـي هـي قاعـدة بالنسـبة لهيئـة المناجـم، واقتـرن ببنـت صاحـب مصنـع للنسـيج مـن أثريـاء **آراس**. ومـدة خمسـة عشـر سـنة، أقـام الزوجـان فـي البلـدة الريفيـة الصغيـرة نفسـها دون أن يقطـع حـادث مـن الحـوادث رتابـة حياتهمـا، ولـو ولادة طفـل. تتميـز السـيدة إينبـو بشـدة الاغتيـاظ المتعاظـم، لأنهـا نشـأت علـى احتـرام المـال، محتقـرة لذلـك الـزوج

الـذي كان يكسـب بعنـاء رواتـب متواضعـة لـم تكـن لترضـي رغباتهـا المغـرورة، التـي كانـت تحلـم بها وهـي فـي المدرسـة. أمـا هـو، فقـد ميزتـه الأمانـة حـدّ الصرامـة، لا يضـارب أبـداً، يـلازم مـكان عملـه كمـا يفعـل جنـدي. كبـر الخـلاف بينهمـا، وزاد مـن حدتـه سـوء اتفـاق جسـدي غريـب يجمـد أشـد أصحـاب الشـهوات الحارقـة: كان يحـبّ زوجتـه، كانـت لهـا شـهوة شـقراءٍ نهمـة، أصـلاً كانـا ينامـان بمعـزل الواحـد عـن الآخـر، فـي ضيـق، وقـد أصيبـا فـي الحـال. وحصلـت منذئـذ عـن عاشـق، تجاهلـه. وفـي نهايـة الأمـر، رحـل عـن پادوكالـي، كـي يحتـل فـي باريـس منصبـه بمكتـب، وقـد جـال بخاطـره أنهـا سـتعبر لـه عـن امتنانهـا. لكـن باريـس أكملـت الفـراق، باريـس تلـك التـي كانـت تتمناهـا منـذ حصلـت علـى دميتهـا الأولـى، وبهـا تطهّـرت فـي ظـرف عشـرة أيـام مـن ريفهـا، أنيقـة دفعـة واحـدة، ارتمـت فـي أحضـان كل حماقـات التـرف المعروفـة فـي ذلـك العصـر. الأعـوام العشـرة التـي أمضتهـا هنـاك كانـت مليئـة بشـغف عظيـم، علاقـة علنيـة مـع رجـل، كاد هجـره لهـا أن يقتلهـا.

هـذه المـرة، لـم يسـتطع الـزوج الحفـاظ علـى تجاهلـه، واستسـلم، بعـد حـوادث دنيئـة، وهـو عاجـز أمـام طيـش تلـك المـرأة الهـادئ، التـي كانـت تغـرف سـعادتها حيـث وجدتهـا. كان ذلـك بعـد الهجـر، حينمـا أدرك أن الكمـد أسـقمها، قبِـل بـإدارة مناجـم مونسـو، يحـدوه الأمـل فـي أن يُقـوّم اعوجاجهـا هنـاك، فـي هـذه الفـلاة مـن الأرضـي السـوداء.

منـذ أن أقـام آل إينبـو فـي مونسـو، عـادوا إلـى الضجـر الخانـق الـذي سـاد أيـام زواجهمـا الأولـى. أول الأمـر بـدت مرتاحـة بفضـل

ذلك الهدوء العظيم، وذاقت السكينة في الرتابة المنبسطة للسهل المتسع؛ ولزمت البيت بصفة المرأة التي انقضى أوانها، كانت تتظاهر بأن قلبها مات، ومن شدة انفصالها عن الناس، لم تعد تهتم بكونها تزداد سمنة. ثم، تحت هذه اللامبالاة سرت فيها حمّى أخيرة، الحاجة إلى أن تعيش بعدُ، التي قامت بمراوغتها طول ستة أشهر وهي تنظم وتؤثث حسب ذوقها قصر الإدارة الصغير. كانت تقول إنه قبيح، ملأته بالمنجدات والكتب، ورفاهية فنية كاملة التي سارت بها الألسن حتى مدينة لِيل. الآن صارت البلدة تزعجها، بهائم الحقول الممتدة إلى ما لانهاية له، تلك الطرقات الأبدية المسودّة، التي لم تكن فيها شجرة واحدة، حيث تعجّ بسكّان قبيحين مقرفين ومخيفين. وبدأت شكاوى المنفى، وأخذت تعيب على زوجها أنه ضحّى بها من أجل راتب أربعين ألف فرنك الذي كان يحصل عليه، وذلك مبلغ بائس بالكاد يكفي لتدبير البيت. ألم يكن ينبغي له أن يصنع مثل الآخرين، أن يطلب حصة، أن يحصل على أسهم، القصد، أن ينجح في شيء؟ وكانت تلحّ بقسوةٍ وريثةٍ جلبت الثروة معها. أما هو، سويّ على عادته دوماً، الذي يلوذ بصدوده الكاذب كرجل إداري، فقد كانت تدمره شهوة تلك المخلوقة، واحدة من تلك الشهوات المتأخرة، العنيفة بشدة، التي تزداد مع السّن. لم يسبق قط أن حضنها مثل عاشق، كانت تستحوذ عليه صورة باستمرار، أن يحصل عليها هو مرّة مثلما مَنحت نفسها لغيره. كل صباح، كان يحلم بغزوها في المساء؛ ثم حينما كانت تنظر إليه بعينيها الباردتين، حينما يشعر أن كل شيء فيها يتمنّع، كان يتجنّب حتى أن يلمس يدها. كان ذلك

عـذاب لا شـفاء ممكـن منـه، مسـتتر خلـف خشـونة موقفـه، عـذاب طبـعِ رقيـق يحتضـر فـي السّـر لأنـه لـم يجـد السـعادة فـي حياتـه الزوجيـة. عندمـا انقضـت الأشـهر السـتة، حينمـا لـم يعُـد القصـر يشـغُل السيدة إينبـو، بعـد تأثيثـه بالتمـام، وقَعَـت تحـت وطـأة الملـل، بصفـة الضحيـة التـي قـد يقتلهـا المنفـى والتـي تقـول إنهـا مسـرورة بالمـوت جـرّاء ذلـك.

فـي هـذه الأثنـاء بالضبـط، حلّ پول نيغريـل بمونسـو. أمـه، أرملـة قبطـان بروڤنسـالي، المقيمـة بأڤينيـون علـى دخـل زهيـد، اكتفـت بالخبـز والمـاء حتـى أوصلتـه إلـى مدرسـة الپوليتكنيـك. تخـرج منهـا بدرجـة سـيئة، وكان خالـه السـيد إينبـو قـد جعلـه يقـدم اسـتقالته، مقابـل توظيفـه كمهنـدس، فـي لوڤـوروه. ومـن ثمـة، بعـد معاملتـه بصفـة ابـن الـدار، كانـت لـه فيهـا حجـرة، بهـا يُطعـم، وفيهـا يعيـش، ممـا كان يسـمح لـه بـأن يرسـل إلـى أمـه نصـف راتبـه البالـغ ثلاثـة آلاف فرنـك. وحتـى يسـتر هـذا الإحسـان، كان السـيد إينبـو يتحـدث عـن الحـرج الـذي كان يوجـد فيـه الرجـل الشـاب، المجبـر علـى تكويـن أسـرة فـي واحـد مـن تلـك الشـاليهات الصغيـرة المخصصـة لمهندسـي الحفـر. وفـي الحيـن، لعبـت السـيدة إينبـو دور الخالـة الطيّبـة، برفـع الكلفـة مـع ابـن الأخـت، والحـرص علـى راحتـه. فـي الأشـهر الأولـى علـى الأخـص، أظهـرت فائـض أمومـة مـن النصائـح، فـي أدنـى الشـؤون. لكنهـا مـع ذلـك ظلـت امـرأة، وكانـت تميـل إلـى البـوح بأسـرار شـخصية. ذلـك الفتـى الشـاب والعملـي بـكل ذلـك القـدر، ذو ذكاء لا تحـرّج فيـه، الـذي يتحـدث عـن الحـب بنظريـات فيلسـوف، كان يسـلّيها، بفضـل حيويـة تشـاؤمه، الـذي كان يشـحذ

وجهه النحيف، وأنفه دقيق الأرنبة. وبطبيعة الحال، ذات مساء، وجد نفسه في حضنها؛ وبدا أنها تهِب نفسها من باب الطيبة، وهي تقول له إنها أضحت بلا قلب وبأنها تريد فحسب أن تكون صديقته. والحق أنها لم تشعر بالغيرة، كانت تمازحه بخصوص عاملات النقل اللواتي كان يقول إنهن مقيتات، كانت مستاءة منه تقريباً لأنه ليس له ما يقص عليها من مقالب الشباب. ثم شغفتها فكرة تزويجه، وراودها حلم الإخلاص في ذلك، وأن تهبه بنفسها إلى فتاة ثرية. استمرت علاقاتهما، لعبة استراحة، كانت تضع فيها عواطفها الأخيرة كامرأة ليس عندها ما يشغلها وفات أوانها.

مرّت سنتان. ذات ليلة، لما سمع السيد إينبو قدمين عاريتين تحاذيان بابه، ساوره الشكّ. لكن هذه المغامرة الجديدة كانت تغيظه، عنده، في بيته، بين أم وابن! وفي اليوم التالي، كلّمته زوجته بالضبط عن اختيارها سيسيل غريغوار لقريبهما. وقد شغلت نفسها في هذا الزواج بحماس شديد مما جعله يحمرّ خجلاً من خياله البشع. وقد احتفظ للشاب فحسب بالامتنان لأن البيت، منذ وصوله، أصبح أقل كآبة.

ولما كان السيد إينبو نازلاً من حجرة التزيين، وجد في الردهة پول العائد من العمل. وبدا على هذا الأخير أنه كان يتسلى هو الآخر بأمر الإضراب ذلك.

«ماذا إذن؟»، سأله خاله.

«إذن، قمت بجولة على الحُفَر. تبدو عليهم الرزانة كثيراً هناك، أظن أنهم سوف يبعثون لك بمندوبين عنهم».

لكن في تلك اللحظة، نادى صوت السيدة إينبو من الطابق الأول.

«هـذا أنـت، پـول؟ هيـا اصعـد لتقـدم لـي الأخبـار. ألا يدعـون إلـى الضحـك وهـم يتظاهـرون بالشـر، هـؤلاء النـاس السـعداء بـكل ذلـك القـدر!».

وكان علـى المديـر أن يتخلـى عـن معرفـة المزيـد، بمـا أن زوجتـه سـلبته رسـوله. عـاد للجلـوس إلـى مكتبـه، الـذي تراكمـت فوقـه رزمـة جديـدة مـن البرقيـات.

عنـد السـاعة الثالثـة، وصـل آل غريغـوار، وقـد تعجبـوا مـن أن هيپوليـت، الخـادم، الواقـف مثـل الحـارس، دفعهـم كـي يدخلهـم، بعـد أن رمـى بنظـرات حيـرى إلـى جهتـي الطريـق. كانـت سـتائر غرفـة الجلـوس مغلقـة، وتـم مواكبتهـم مباشـرة إلـى مكتـب العمـل، حيـث اعتـذر السـيد إينبـو باسـتقبالهم علـى ذلـك النحـو؛ لكـن غرفـة الجلـوس كانـت تطـلّ علـى الرصيـف، ولـم يكـن هنـاك مـن فائـدة فـي أن يبـدو الأمـر كأنـه اسـتفزاز لهـؤلاء النـاس.

«كيـف! ألا تعلمون؟»، قال متابعاً كلامه، وهو يرى دهشتهم.

حيـن علـم السـيد غريغـوار أن الإضـراب اندلـع فـي نهايـة المطـاف، هـزّ كتفيـه بمظهـره الوديـع. لا ضيـر! لـن يكـون فـي الأمـر شـيء يسـوء، السـكّان أمنـاء. وبإيمـاءة مـن ذقنهـا، كانـت السـيدة غريغـوار تؤكـد ثقتـه فـي خضـوع عمـال الفحـم التليـد؛ بينمـا سيسـيل، الفرحـة جـداً ذلـك اليـوم، بصحـة حسـنة فـي لبسـة مـن قمـاشٍ موشّـى بأزاهيـر، كانـت تبتسـم عنـد سـماع كلمـة الإضـراب تلـك، التـي تذكرهـا بزيـارات وتوزيـع الصدقـات فـي المجمّعـات.

لكـن ظهـرت السـيدة إينبـو، يتبعهـا نيغريـل، وكلهـا بلبـاس حريـر أسـود.

«هـه! كم إن ذلـك مُمِل!»، صاحـت مـن عنـد البـاب، «كمـا لـو أنـه لـم يمكـن لهـؤلاء الرجـال أن ينتظـروا! تعلمـون أن پـول يرفـض أن يرافقنـا إلـى سـان تومـا».

«سـوف نبقـى هنـا»، قـال السـيد غريغـوار بكياسـة، «سـوف يكـون الأمـر ممتعـاً كلـه».

اكتفـى نيغريـل بتحيـة سيسـيل وأمهـا. ولأنهـا لـم تستحسـن قلـة حماسـه، فقـد رمـت بـه خالتـه بطرفـة عيـن نحـو الفتـاة الشـابة؛ وحينمـا سـمعتهما يضحـكان معـاً، شـملتهما بنظـرة أم حانيـة.

فـي تلـك الأثنـاء، أكمـل السـيد إينبـو قـراءة البرقيـات وحـرّر بعـض الأجوبـة. كانـت المحادثـة جاريـة بالقـرب منـه، زوجتـه تشـرح بأنهـا لـم تتكلـف بمكتـب العمـل هـذا، الـذي حافـظ بالفعـل علـى ورقـه المصبـوغ الأحمـر القديـم، الباهـت، وأثاثـه الثقيـل مـن الماهوغنـي، وصناديقـه مـن الـورق المقـوى التـي أصابهـا البِلـى مـن فـرط الاسـتعمال. مـرّت ثـلاث أربـاع السـاعة، وكانـوا يتهيـؤون للمائـدة حينمـا أخبـر الخـادم بوصـول السـيد دونـولان. دخـل هـذا الأخيـر، وقـد بـدا عليـه الحمـاس، ثـم انحنـى أمـام السـيدة إينبـو.

«هـاك! هـا أنتـم؟»، قـال حيـن رأى آل غريغـوار. وبحيويـة، خاطـب المديـر.

«تـمّ الأمـر إذن؟ لقـد علمـتُ آنفـاً بالأمـر مـن مهندسـي. عنـدي، كل الرجـال نزلـوا، هـذا الصبـاح. لكـن قـد تصـل تلـك العـدوى. أنـا لسـت مرتاحـاً. هيـا، أيـن وصـل بكـم الأمـر؟».

كان يهـرع بيـن كـرّ وفـرّ، وحيرتـه ظاهـرة فـي كلامـه المرتفـع وحركتـه المزعجـة التـي كانـت تجعلـه شـبيهاً بضابـط فرسـان متقهقـر.

أخذ السيد إينبو يخبره بالوضع الحقيقي، حينما فتح هيپوليت باب غرفة الجلوس. عندها توقف عن الكلام ليقول:

«تناول معنا الطعام. سوف أتابع شرح ذلك لك عند طبق الحلوى».

«أجل، كما تشاء، أجاب دونولان، وهو حامل بكل ذلك القدر لفكرته، حيث أنه قبل في الحال.

ومع ذلك فقد أدرك أنه أساء الأدب، استدار نحو السيدة إينبو، وهو يعتذر. وقد كانت مبتهجة. حينما طلبت وضع طبق سابع، أجلست ضيوفها: السيدة غريغوار وابنتها جنب زوجها، ثم السيد غريغوار ودونولان على يمينها وعلى يسارها؛ وفي الأخير، **پول** الذي أجلسته بين الفتاة الشابة ووالدها. وحينما كانوا يهمون بتناول المقبّلات، قالت مبتسمة:

«ألتمس منكم العذر، لقد أردت أن أقدم لكم طبق المحار. الإثنين، كما تعلمون، تصل حمولة من أوستند إلى مارشيين وكنت أنوي إرسال الطاهية مع العربة. لكنها خشيت أن تُرمى بالحجارة».

قاطعها الجميع بدويّ فرحة عارمة. إذ وجدوا الأمر مضحكاً.

«صه!»، قال السيد إينبو منزعجاً، وهو ينظر إلى النوافذ التي تُرى منها الطريق. ليست البلدة في حاجة إلى العلم بأن عندنا ضيوف، هذا الصباح.

«ها هي بالمناسبة قطعة نقانق لن يحصلوا عليها»، أعلن السيد غريغوار.

سُمِعت الضحكات من جديد، لكنها مستترة أكثر. كان كل ضيف يجد راحته في تلك القاعة المنجدة بالسجاد الفلاماني، والمؤثثة

بخزنات حائطية من خشب البلوط القديم. هناك قطع من الفضة تلمع خلف زجاجيات الأواني الملوّنة؛ وكان هناك مُعَلّقة كبيرة من النحاس الأحمر تعكس استداراتها المجلوة نخلة ونبتة دريقة، خضراء في جرار خزفية. في الخارج، كان نهار ديسمبر صقيعاً تصحبه لسعة برد من شمال الشرق. لكن لم تكن تدخل ولا نسمة واحدة، إذ يعمّ هناك فتور دفيئة، يحجب الرائحة اللطيفة لثمرة أناناس، مقطعة في وعاء من الكريستال.

«ماذا لو أغلقنا الستائر؟»، اقترح نيغريل، الذي كانت تسليه فكرة إدخال الرعب في آل غريغوار.

خادمة الغرف، التي كانت تساعد الخادم، ظنت أنه أمرٌ وانصرفت لجرّ أحد الستائر. ومن ثم، لم تتوقف المُزح، إذ لم يعُد في الوسع وضع سكين أو شوكة دون اتخاذ الحيطة؛ وكان كل طبق يُستقبل وكأنه حطام سفينة لم يتعرض للنهب، في مدينة تمّ غزوها؛ وخلف هذا الفرح المفتعل، كان هناك خوف مكتوم تعبّر عنه طرفة عين لا إرادية يُرمى بها صوب الطريق، وكأن عصبة من الجياع كانت تترصّد المائدة من الخارج.

بعد البيض المخفوق بالكمأة، جاء الدور على سمك سلمون النهر المرقّط. ودار الحديث حول الأزمة الصناعية التي تتعاظم منذ عشرة أشهر.

«ذلك أمر محتوم»، قال **دونولان**، «الازدهار المفرط في الأعوام الماضية، كان لا بدّ له من أن يوصلنا إلى هذا. فكّروا إذن في الرساميل العظيمة التي تمت تعبئتها، في السكك الحديدية، في الموانئ والقنوات، في المال المدفون في المضاربات الأشد

حماقة. لو نظرنا إلى بلدتنا وحدها، أُقيمت معامل للسكّر وكأن على المقاطعة أن تعطي ثلاثة محاصيل من الشمندر. ويا للسيدة المقدسة! اليوم، المال أصبح قليلاً، يجب انتظار تعويض فائدة الملايين التي أُنفقت: ومن ثم، كساد قاتل وركود تام للأعمال».

قاوم السيد إينبو تلك النظرية، لكنه اتفق على أن الأعوام السعيدة أفسدَت العامل.

«حينما أرى»، صاح قائلاً، «أن هؤلاء الأشخاص، في حُفرنا، كان في وسعهم كسب حتى ستة فرنكات في اليوم، ضعف ما يكسبون الآن! وكانوا يعيشون عيشة طيبة، واستطابوا أذواق الرفاهية. اليوم، بطبيعة الحال، يبدو لهم الأمر صعباً، العودة إلى تقشفهم القديم».

«سيد غريغوار»، قاطعته السيدة إينبو، «من فضلك، خُذ مزيداً من قطع السمك. إنها ليّنة، أليس كذلك».

تابع المدير كلامه:

«لكن، في الحقيقة، هل ذلك خطؤنا؟ نحن أيضاً مسّتنا المصيبة بقسوة. منذ أغلقت المصانع أبوابها واحداً بعد الثاني، نعاني الأمرّين للتخلص من مخزوننا؛ وبالنظر إلى انخفاض الطلبات المتزايد، نحن مجبرون حقاً على خفض سعر الكلفة. هذا ما لا يريد العمال فهمه».

عمّ الصمت. قدّم الخادم طيور حجل مشوية، بينما شرعت خادمة الغرف في صب شراب **الشامبرتان** للضيوف.

«هناك مجاعة في الهند»، أردف دونولان بصوت خفي وكأنه يحدث نفسه، «لقد سدّدت أمريكا ضربة قاسية لمصاهرنا العالية

عندما كفّت طلباتها من الحديد والصلب. كل شيء مترابط، هزة بعيدة تكفي لزعزعة العالم. والإمبراطورية التي كانت مزهوة بحمّى الصناعة الحارّة كل ذلك الزهو!».

هجم على جناح الحجل. ثم، وهو يرفع صوته:

«الأسوأ، من أجل خفض سعر الكلفة، أنه يجب منطقياً زيادة الإنتاج: بعبارة أخرى، الخفض يمسّ الأجور، والعامل محقّ حينما يقول إنه يدفع ثمن الخسارة».

هذا الاعتراف، المنتزع من صراحته، أثار نقاشاً. لم تستمتع السيدات قط. فضلاً عن ذلك، كل واحد كان مشغولاً بطبقِه، مأخوذاً بنار الشهية الأولى. بما أن الخادم رجع، بدا أنه يريد الكلام، ثم تردد.

«ماذا هناك؟»، سأله السيد إينبو، «إذا كانت برقيات، هاتها إني أنتظر ردوداً».

«كلا، سيدي، إنه السيد دانسير الموجود في الردهة. لكنه يخشى أي إزعاج».

اعتذر المدير وأمر بإدخال رئيس العمال. ظلّ هذا الأخير واقفاً، على بعد خطوات من المائدة؛ بينما استدار الجميع حتى يروه، ضخم، يلهث من الأخبار التي يحملها. المجمّعات ظلت هادئة، لكن، هناك أمر تمّ الحسم فيه، سوف يحضر وفدٌ. ربما في غضون دقائق معدودة، سيكون هنا.

«حسناً، شكراً»، قال السيد إينبو، «أريد تقريراً صباحَ مساء، مفهوم!».

وما أن انصرف دانسير، عاد الجمع للمزح، وارتمى على الخضرة الروسية، بالقول إنه لا يجب هدر ثانية واحدة، إذا أرادوا

إنهاءها. لكن المرح لم يعُد له حدّ حينما طلب نيغريل الخبز من الخادمة، أجابته تلك: «أجل، سيدي»، بصوت مهموس ومرتعب بشدة وكأن خلفها عصبة على أهبة سفك الدماء أو الاغتصاب.

«يمكنكِ الكلام»، قالت السيدة إينبو بلباقة، «لم يصلوا بعد إلى هنا».

أراد المدير، الذي أُحضِرت إليه رسائل وبرقيات، أن يقرأ إحداها جهراً. كانت تلك رسالة **پييرون** الذي كان يعلن فيها، بعبارات احترام، أنه وجد نفسه مجبراً على الخوض في الإضراب مع الرفاق، حتى لا يتعرض لمعاملة سيئة؛ ويضيف بأنه لم يرفض حتى المشاركة في الوفد، وإن كان يعيب هذه الخطوة.

«ها هي حرية العمل!»، صاح السيد إينبو.

وعليه، رجع الحديث إلى الإضراب، سُئِل عن رأيه.

«أوه!»، أجاب، «لقد شهدنا إضرابات غير هذا، سوف يكون أسبوعاً، أو أسبوعين على أكبر تقدير من الكسل، مثل المرة الماضية. سوف يجوبون الحانات؛ ثم حينما يستبد بهم الجوع كثيراً، سيعودون إلى الحُفر».

هزّ دونولان رأسه.

«لا أشعر بكل هذا القدر من الارتياح. هذه المرة، يبدون أحسن تنظيماً. ألا يملكون صندوق ادخار؟».

«أجل، بالكاد ثلاثة آلاف فرنك: أين تريد أن يصلوا بذلك؟ أشكّ في واحد يسمى **إتيان لانتيي** بكونه زعيماً لهم. إنه عامل جيد، سوف يزعجني أن أعيد إليه رخصة عمله، مثلما في الماضي مع راسنور الذي يواصل نفث سمّه في لوفوروه، بأفكاره وجعّته. لا

يهمّ، في غضون ثمانية أيام، سوف ينزل نصف عدد الرجال، في غضون أسبوعين، سوف يكون العشرة آلاف في الجوف».

كان على يقين. حيرته الوحيدة نابعة من أن يفقد حظوته، إذا تركت له الوكالة مسؤولية الإضراب. منذ مدة معدودة، كان يشعر بأن الرهان عليه قلّ. لذلك، أرجع ملعقته حيث الخضرة الروسية، وعاد لقراءة البرقيات التي وصلته من باريس، والأجوبة التي كان يسعى للنفاذ إلى كل كلمة منها. كانوا يجدون له عذراً، إذ تحوّل الطعام إلى وجبة غذاء عسكري، في أرض المعركة، قبل أول طلقة نار.

حينذاك، شاركت السيدات في الحديث. أشفقت السيدة غريغوار على هؤلاء الناس المساكين الذين سوف يعانون من الجوع؛ وها سيسيل ترى نفسها توزع قسائم الخبز واللحم. لكن السيدة إينبو كانت تستغرب، وهي تسمع الحديث عن بؤس عمال الفحم بمونسو. ألم يكونوا سعداء كثيراً؟ أناس يسكنون، يستدفئون ويُعالَجون على حساب الشركة! نظراً لعدم اكتراثها بهذا القطيع، لم تكن تعرف عنه شيئاً سوى الدرس المحفوظ الذي كانت تثير به إعجاب الباريسيين في زياراتهم؛ وانتهى بها المطاف إلى أن صدّقت ذلك الدرس، وكانت تتذمر من جحود الشعب.

في تلك الأثناء، واصل نيغريل إخافة السيد غريغوار. لم يكن يستقبح سيسيل، وهو يريد حقاً الزواج بها، حتى يدخل السرور على خالته؛ لكنه لم يكن يصرف في ذلك أدنى حمّى غرام، بصفة الفتى المجرّب الذي لم يعُد يركب هواه، كما يقول. كان يدعي أنه جمهوري، لكن لا يمنعه ذلك من تسيير عمّاله بصرامة قصوى، ومن ممازحتهم بلطف، رفقة السيدات.

«كما لا أملك تفاؤل خالي»، أردف قائلاً، «أخشى من وقوع فوضى خطرة. لذلك، سيد غريغوار، أنصحك بإغلاق پيولين. قد تتعرضون للنهب».

في ذلك الحين بالضبط، ودون أن يفارق البسمة التي كانت تُنير وجهه الوسيم، كان السيد غريغوار يزايد على زوجته بالمشاعر الأبوية تجاه عمّال المنجم.

«نهبي!»، صاح، مندهشاً. «ولماذا نهبي؟».

«ألستَ من المساهمين في مونسو؟ لا تعمل شيئاً، تعيش من عمل الآخرين. أقصد، إنك الرأسمال البذيء، وذلك فيه كفاية. كن على يقين من أنه لو انتصرت الثورة، سوف تجبرك على إعادة ثروتك باعتبارها مالاً مسروقاً».

ومن ثم، فقَد راحة بال الطفل، والسكينة التي كان يعيش فيها. تمتم قائلاً:

«ثروتي، مال مسروق! ألم يربح جدي الأعلى، وبِكَدٍّ، المبلغ المستثمر في ما مضى؟ ألم نركب كل مخاطر المقاولة؟ هل أُسيء اليوم استعمال المداخيل؟».

حينما رأت السيدة إينبو الأم والبنت، شاحبَتين من شدة الخوف، هما أيضاً، نذرت بالأمر وسارعت بالتدخل، قائلة:

«پول يمزح، سيدي العزيز».

لكن الغضب كان قد سار بالسيد غريغوار سورته. وبما أن الخادم كان يقدم طبقاً صُفّ فيه سرطان البحر على هيئة هرَم، أخذ منها ثلاثة وهو لا يدري ما يصنع، وطفق يهرس الأرجل بأسنانه.

«آه! لا أقول بأن هناك من المساهمين مَن يجاوز القدر. مثلاً، قيل لي إن وزراء حصلوا على أموال من مونسو، رشوة، عن خدمات قدّموها للشركة. مثل ذلك الإقطاعي الكبير الذي لن أُفشي اسمه، دوق، الأقوى بين مساهمينا، الذي تُعدّ حياته فضيحة من فضائح التبذير، ملايين يُرمى بها إلى الشارع على النساء وما لذّ وطاب والترف الذي لا نفع له. لكن نحن، لكن نحن الذين نعيش دون ضجيج، مثل الناس ذوي الشهامة الذين نحن هم! نحن الذين لا نضارب، ونكتفي بالعيش على نحو سليم بفضل ما نملك، مع إنصاف الفقراء! ما بالكم! يجب أن يكون عمالنا لصوصاً مشهورين ليسرقوا من بيوتنا إبرة».

تطلّب الأمر أن يهدئ من روعه نيغريل بنفسه، الذي تسلى جيداً بغضبه. كان سرطان البحر يمرّ بين الضيوف دوماً، وتُسمع قعقعة خفيفة لقشرته الواقية بينما استقر الحديث حول السياسة. رغم ذلك، وهو لا يزال يرتعد، كان السيد غريغوار يقدم نفسه بكونه ليبرالياً؛ ويتحسّر على لويس فيليب. أما دونولان، فقد كان مع قيام حكومة قوية، ويصرح بأن الإمبراطور يسقط في منزلق التنازلات.

«تذكروا 89»، قال، «إن طبقة النبلاء هي من جعل الثورة ممكنة، لتواطئها، لحبها كل المستجدات الفلسفية. وعليه، فإن البرجوازية تنهض اليوم بالدور الغبي نفسه، بتعطشها الشديد لليبرالية، ورغبتها العارمة في التدمير، وتملقها الكثير للشعب. أجل، أجل، إنكم تشحذون أسنان الوحش كي يلتهمنا. وسوف يلتهمنا، لا تشغلوا بالكم!».

جعلته السيدات يسكت وأردن تغيير دفة الحديث، بأن سألنه أخباراً عن بنتيه. كانت **لوسي** في مارشيين، حيث تغني مع صديقة لها؛ **جان** ترسم رأس متسول عجوز. لكنه كان يقول تلك الأشياء بشرود ظاهر، لم يكن يزيح ناظره عن المدير، المستغرِق في قراءة برقياته، الغافِل عن ضيوفه. خلف تلك الأوراق الرقيقة، كان يشعر بباريس، بأوامر الوكلاء الذين سوف يقرّرون في شأن الإضراب. لذلك، لم يستطع تجنّب شغله الشاغل.

«في نهاية الأمر، ماذا ستفعلون؟»، قال بغتة.

فزع السيد إينبو، ثم تخلّص بفضل جملة ملتبسة.

«سوف نرى».

«لا شك في ذلك، لأنك تستطيع تحمّل المحنة والانتظار»، أخذ دونولان يفكر بصوت عال، «لكن أنا، سوف يُقضى عليّ إن مسّ الإضراب **ڤاندام**. مهما رمّمت **جونبار**، لن أتجاوز المحنة، وليس لي سوى تلك الحفرة الوحيدة، إلا بإنتاج لا يتوقف. آه! ليس في الأمر ما يفرح، أؤكد لكم ذلك!».

الظاهر أن هذا الاعتراف غير الإرادي أثار استغراب السيد إينبو. كان ينصت، وفي سرّه تُبذر خطة: في حال ساءت الأمور مع الإضراب، لماذا لا يستعمله، يترك الأمور تتعقد حتى خراب مال جاره، ثم يشتري احتكاريته بمبلغ منخفض؟ فتلك هي الوسيلة الآمنة لكسب رضا المدراء من جديد، الذين يراودهم منذ سنوات حلم امتلاك **ڤاندام**.

«إذا كان جونبار يضيّق عليك بكل هذا القدر»، قال ضاحكاً، «لماذا لا تتركه لنا؟».

لكن دونولان ندم مسبقاً على شكواه. صاح:

«لن يحدث ذلك أبداً!».

وتسلى الجمع بعنفه، وفي نهاية الأمر تمّ نسيان الإضراب، في الوقت الذي حضرت فيه الحلوى. فطيرة شارلوت هلامية مع التفاح، استُقبِلت بالثناء. بعد ذلك تحدثت السيدات عن وصفة، عن الأناناس الذي قيل أيضاً إنه لذيذ. وختَمَت الفواكه، عنب وإجّاص، تلك الوفرة السعيدة لنهايات طعام وفير. كان الجميع يتحدث في الوقت نفسه، وقد رقّت مشاعرهم، بينما الخادم يصب شراباً من الرّاين، بدل الشامبانيا، التي تعتبر شائعة.

وكان زواج پول وسيسيل بالتأكيد خطوة جادّة في خضم التعاطف الذي ساد طبق الحلوى. ورمته خالته بنظرات من شدة إلحاحها كان الرجل الشاب يُظهر بأنه ودود، وبمظهره المتعاطف يستعيد ثقة آل غريغوار الذين أرعبتهم قصصه عن النهب. هنيهة، وأمام التفاهم الشديد بين زوجته وابن أخته، شعر السيد إينبو بأن شكه الخسيس يستيقظ، وكأنه فاجأ ملامسة، في النظرات المتبادلة. لكن، مرة أخرى، فكرة ذلك الزواج التي تمت هناك، أمام عينيه، أدخلت عليه الطمأنينة.

كان هيپوليت يقدم القهوة حينما هرعت الخادمة، مذعورة.

«سيدي، سيدي، ها قد جاؤوا!».

إنهم المنتدبون. فُتِحت أبواب، وسُمِعت هبّة ذعر، خلال الحجر المجاورة.

«أدخلوهم المجلس»، قال السيد إينبو.

حول المائدة، نظر الضيوف إلى بعضهم وقد أخذهم دوار

الحيرة. عمّ صمت. ثم أرادوا استئناف مزحهم: وتظاهر البعض بوضع بقايا السكّر في الجيب، وتحدث البعض الآخر عن إخفاء الأطباق. لكن المدير ظلّ صارماً، وسكتت الضحكات، وصارت الأصوات همسات، بينما وهم يدخلون كانت خطوات المنتدبين الثقيلة في الجوار، تدوس سجادة المجلس.

قالت السيدة إينبو لزوجها، خافضة صوتها:

«آرجو أنك ستشرب قهوتك».

«بلا شك»، أجاب، «ما عليهم سوى الانتظار!».

كان مشدود الأعصاب، يصيخ السمع للأصوات، وكأنه مشغول فحسب بفنجانه.

كان پول وسيسيل قد نهضا آنفاً، وجعلها تجازف بالنظر إلى ثقب المفتاح. كانا يكبحان ضحكات، ويتكلمان بصوت منخفض جداً.

«هل تراهم؟».

«أجل أرى واحداً بديناً، معه اثنان قصيران، خلفه».

«هه؟ لهم وجوه بشعة».

«كلا، إنهم لطفاء جداً».

بغتة، ترك السيد إينبو كرسيّه، قائلاً إن القهوة ساخنة جداً وإنه سيشربها في ما بعد. وبينما هو خارج، وضع إصبعاً على فمه ليأمرهم بالحذر. عادوا جميعاً إلى مجلسهم وظلوا حول المائدة، خُرس، لا يجرؤون على التململ، ينصتون من بعيد، الأذن مصغية، في ضيق من أصوات الرجال الغليظة تلك.

II

منذ اليوم السابق، في اجتماع عند راسنور، قام إتيان وبعض الرفاق باختيار المنتدبين الذين سيكون عليهم الذهاب في اليوم التالي إلى الإدارة. حينما علمت ماهود، في المساء، أن زوجها ضمن الوفد، تأسفت للأمر، وسألته إن كان يريد أن يُرمى بهم في الشارع. ماهو بنفسه قبل على مضضٍ. هما معاً، حين يجدّ الجدّ، رغم ظلم بؤسهما، كانا يعودان إلى الخضوع المتأصل فيهما، مرتعدين من الغد، مفضلين الانحناء دائماً. في العادة، بخصوص تدبير الحياة، كان يرجع إلى حكم زوجته، التي كانت تسدي له النُصح الرشيد. هذه المرة، مع ذلك، انتهى به الأمر إلى التعبير عن سخطه، لا سيّما أنه كان يتقاسم في الخفاء خشيتها.

«دعيني وشأني، هه!»، قال لها وهو يستلقي في الفراش مديراً لها ظهره، «سوف يكون من غير السّويّ التخلي عن الرفاق! أنا أقوم بواجبي».

اضطجعت بدورها في الفراش. لم يتكلم أحد منهما. ثم بعد صمت طويل، أجابته:

«أنت محقّ، اذهب. لكن، يا صديقي المسكين، لقد قضي علينا».

دقّت الساعة معلنة منتصف النهار، حينما كانوا يتناولون الغذاء، لأن الموعد حُدد في الساعة الواحدة عند لافانتاج من حيث سيذهبون لاحقاً عند السيد إينبو. كانت هناك بطاطس. وبما أنه لم يبق سوى قطعة صغيرة من الزبدة، لم يقربها أحد.

فـي المسـاء، سـيحصلون علـى شـرائح خبـز مدهونـة.

«تعرف أننا نعوّل عليك للكلام»، قال إتيان فجأة مخاطباً **ماهو**.

ظل هذا الأخير مذهولاً، ولسانه أخرس من شدة التأثر.

«آه! كلا، هـذا كثيـر!»، صاحـت ماهـود، «أوافـق أن يذهـب، لكـن أمنعـه مـن أن يلعـب دور الزعيـم. هـاك! لمـاذا هـو بالـذات وليـس غيـره؟».

حينئـذ شـرح إتيـان الأمـر بحماسـته البليغـة. كان **ماهو** أفضـل عامل فـي الحفـرة، المحبـوب، المحتـرم، الـذي يُذكَر بحسـه السـليم. لذلـك فإن مطالـب العمـال سـوف تتخذ فـي فمـه وزنـاً حاسـماً. أولاً، كان عليـه، هـو إتيـان، أن يتكلـم، لكنـه لا يوجـد فـي مونسـو إلا منـذ مـدة قصيـرة جداً. سـوف يتمّ الإنصـات أكثـر لرجـل قديـم مـن البلدة. وفـي الأخيـر، فـإن الرفـاق أودعـوا مصـالحهـم عنـد الأجـدر بهـا: لـن يسـتطيع الرفـض، سـوف يكـون ذلـك جبنـاً.

بدرت من **ماهود** إيمـاءة يائسـة.

«هيّـا، هيّـا، يـا رجلـي، أهلِـك نفسـك مـن أجـل الآخريـن. أنـا موافقـة، بعـد كل شـيء!».

«لكن لن أفلح أبداً»، تمتم **ماهو**، «سـأقول سـخافة تلو سـخافة».

وهو مسرور بجعله يحسم أمره، ربّت إتيان على كتفه.

«ستقول ما تشعر به، وسيكون ذلك أحسن».

وفيمـا فمـه مـلآن، كان الأب **بونمور** ينصـت، يحـرك رأسـه، هـو الـذي خـفّ ورم سـاقيه. خيّـم الصمـت. حينمـا يأكلـون البطاطـس، كان الأطفـال يختنقـون ويظلـون هادئيـن جداً. ثم بعدمـا ابتلـع، همـس العجـوز ببطء:

«قل ما تريد، وسيكون كأنك لم تقل شيئاً. آه! كم شهدتُ، كم شهدتُ من هذه الأمور! منذ أربعين عاماً، كنا نُطرد عند باب الإدارة، ونُضرب بالسيف فوق ذلك! اليوم، سيستقبلونكم، على الأرجح: لكنهم لن يجيبوكم بقدر ما يجيبكم هذا الجدار. أيتها السيدة المقدسة! لديهم المال، ولا يهمهم شيء!».

خيّم الصمت مجدداً، نهض **ماهو** و**إتيان** وتركا الأُسرة كئيبة قبالة الأطباق الفارغة. عندما خرجا، أخذا معهما **پييرون** و**لوڤاك**، ثم ذهبوا أربعتهم عند **راسنور**، حيث كان منتدبو المجمّعات المجاورة يصِلون جماعات صغيرة. هناك، عندما التئم أعضاء الوفد العشرين، تمّ تقييد الشروط التي بها سوف تتم معارضة شروط الشركة؛ وانطلق الوفد إلى مونسو. كانت هبّة ريح من شمال الشرق تكنس الرصيف. دقّت الساعة الثانية حين وصولهم.

أول الأمر، أخبرهم الخادم بأن ينتظروا وهو يغلق الباب عليهم؛ ثم عندما رجع، أدخلهم إلى قاعة المجلس الذي فتَح ستائره. دخل نور لطيف، من خلل النسج الرقيق. لمّا بقي العمال وحدهم، لم يجسروا على الجلوس، من حرجهم، وهم نظيفون جميعاً، يرتدون قطيفة، وجوههم حليقة منذ الصباح، بشعورهم وشواربهم الصُّفر. كانوا يبرمون قبعاتهم بين أصابعهم، ويرمون بنظرات بمؤخر العين إلى الأثاث، حيث اختلطت كل الأساليب، التي جعلها ذوق العتاقة رائجة: أرائك طراز هنري الثاني، كراسي لويس الخامس عشر، مكتب إيطالي من القرن السابع عشر، حاسب إسباني من القرن الخامس عشر، وظُلّة مذبح لحاشية المدفأة وحواشي قديمة

لملابس رهبان زُيِّنت بها الأبواب. تلك القطع الذهبية العتيقة وتلك الأنسجة الحريرية القديمة ذات الألوان المائلة إلى الحمرة، كل ذلك الترف المعهود في كنيسة جعلهم في ضيق مشوب بالاحترام. زرابي الشرق بدت وكأنها تقيّد أقدامهم بصوفها الراقي. لكن ما كان يخنق أنفاسهم على الأخص، هو الحرارة، حرارة تماثل مسخّنة، استغربوا حين شملتهم، بعد أن جمَّد ريح الطريق وجناتهم. انقضت خمس دقائق. تعاظم حرجهم، وسط رفاهية تلك الحجرة الثرية، المغلقة بذلك القدر الوثير.

وفي نهاية المطاف، دخل السيد إينبو، أزراره مغلقة مثل عسكري، يحمل في معطفه عقدة وسامه الصغيرة الأنيقة. بادر إلى الكلام.

«آه! ها أنتم! يبدو أنكم تتمرّدون... «.

توقّف كي يردف بصلابة لا ينقصها الأدب:

«اجلسوا، لا أطلب أكثر من الحديث». استدار العمال، بحثوا عن مقاعد. تجرّأ بعضهم بالجلوس على الكراسي، بينما فضل الآخرون البقاء وقوفاً، وقد حيّرهم الحرير المطرّز.

عمّ الصمت، السيد إينبو الذي دحرج أريكته قبالة المدفأة، كان يحسب عددهم ويحرص على تذكّر وجوههم. تعرف آنفاً على بييرون، المستتر في الصف الأخير؛ وتوقفت عيناه عند إتيان، الجالس بمواجهته.

«هلموا»، سأل، «ماذا تريدون قوله لي؟».

كان يتوقع أن يتكلم الرجل الشاب، ومن شدة ما استغرب لمّا رأى **ماهو** يتقدم، لم يستطع منع نفسه من أن يضيف أيضاً:

«كيف! أنت، العامل الجيد الذي أبان دوماً عن قدر كبير من الرزانة، واحد من قدماء مونسو، الذي تعمل أسرته في الجوف منذ أول ضربة فأس! آه! هذا مؤلم، يحزنني أن تكون على رأس الغاضبين!».

كان **ماهو** ينصت، وعيناه إلى الأرض. ثم، بدأ، الصوت متردد ومكتوم أول الأمر.

«سيدي المدير، بالضبط لأني رجل مسالم، لا يعاب عليه شيء، اختارني رفاقي. هذا يقدم لك الدليل بأن الأمر لا يتعلق بهيجان مخرّبين، أو رجال يسارعون إلى الشر، غايتهم نشر الفوضى. نريد العدل فحسب، لقد تعبنا من الهلاك جوعاً، ويبدو لنا أن الوقت قد حان لتسوية الأمور كيما نحصل بالأقل على رغيف كل الأيام».

وضَح صوتُه. رفع ناظريه، تابع وهو ينظر إلى المدير.

«تعلم حقا أننا لا نستطيع قبول نظامكم الجديد. يجري اتهامنا بسوء تمتين الدعائم الخشبية. صحيح، إننا لا نخصص لهذا الشغل الوقت اللازم. لكن، إذا نحن خصصنا له الوقت، فإن يوميتنا سوف تتقلص، وبما أنها لا تفلح أصلاً في توفير الطعام لنا، فتكون تلك نهاية كل شيء، المنظِّفة التي ستكنس رجالك. زد في أجرنا، نمتّن الدعائم أفضل، ونخصص للخشب الساعات المناسبة، بدل الإصرار على الحفر، العمل المنتِج الوحيد. ليست هناك تسوية ممكنة غير هذه، يجب أداء أجر عن العمل للقيام به. وماذا اخترعتم مكان ذلك؟ شيء لا يمكن أن تقبله عقولنا، كما ترى! تخفضون ثمن العربة، ثم تدّعون أنكم تعوضون ذلك

التخفيض بأداء أجر التمتين على حدة. لو كان ذلك صحيحاً، فإننا نتعرض للسرقة دوماً، لأن تمتين الدعائم يستغرق منا دوماً المزيد من الوقت. لكن ما يغيظنا، هو أن حتى هذا الأمر غير صحيح؛ إن الشركة لا تعوض شيئاً بتاتاً، إنها تضع فقط في جيبها سنتيمين اثنين عن كل عربة، هذا هو الحال!»

«أجل، أجل، إنها الحقيقة»، همهم بقية المنتدبين، إذ رأوا السيد إينبو يأتي حركة شديدة وكأنه يريد مقاطعته.

فضلاً عن ذلك، قطع ماهو الكلام عن المدير، الآن، كان منطلقاً، والكلمات ترد وحدها. أحياناً ينصت لما يقول باستغراب وكأن غريباً تكلم بداخله. كانت تلك أشياء تراكمت في جوف صدره، أشياء لم يعلم أنها هناك، وكانت تخرج، مع نفخة من فؤاده. كان يقول بؤسهم جميعاً، العمل الشاق، حياة البهائم، المرأة والأولاد الذين يصرخون جوعاً في البيت. ذكر مصيبة الأجور الأخيرة، ورواتب نصف الشهر السخيفة، التي تلتهمها الغرامات وأيام البطالة، التي يعودون بها إلى الأسر الباكية. هل هناك قرار لتدميرهم؟

«إذن، سيدي المدير»، قال في الختم، «لقد جئنا إذن لنقول لك، إنا نكدّ لنهلك، نفضل أن نهلك ونحن لا نعمل شيئاً. سيكون نقص في التعب على الأقل. لقد هجرنا الحُفَر، لن ننزل إلّا إذا قبلت الشركة شروطنا. إنها تريد خفض ثمن العربة، أداء أجر الدعائم الخشبية على حدة. أما نحن، فإننا نريد أن تبقى الأمور كما كانت من ذي قبل، ونريد أن تمنح لنا خمسة سنتيمات زيادة عن كل عربة. الآن، أنتم من عليه أن يقرر إذا كنتم مع العدل ومع العمل».

علَت أصوات من بين العمال.

«هو ذاك... لقد قال رأينا نحن جميعاً... لا نطلب سوى الحق».

كان آخرون، يوافقون بهزة رأس، دون أي كلام. اختفت الحجرة المترفة، بذهبها وزخارفها، وتراكم أغراضها العتيقة الغريب، بل لم يعُد لهم حتى الإحساس بالسجادة التي كانوا يدوسون عليها بأحذيتهم الدافئة.

«دعوني أرد إذن»، صاح السيد إينبو في نهاية المطاف، الذي كان مغتاظاً، «قبل كل شيء، ليس صحيحاً أن الشركة تربح سنتيمين عن كل عربة. فلننظر إلى الأرقام».

تبع ذلك لغط. وحتى يحرص على تفريق رأيهم، نادى المدير على **پييرون** الذي أفلت منه وهو يتمتم. وعلى العكس، كان **لوفاك** على رأس الأشد خشونة، يخلط الأمور، يؤكد وقائع يجهلها. واختنقت غمغمة الأصوات الغليظة تحت النّجاد، وسط الحرارة الجديرة بدفيئة.

«إذا كنتم تتكلمون جميعاً في آن معاً»، استأنف السيد **إينبو**، «لن نتفاهم أبداً».

كان قد استعاد هدوءه، أدبه الصلب، دون مرارة، الذي لوكيلٍ تلقى أمراً ويريد أن يتقيد به الجميع. منذ بداية الكلام، لم يحد بعينه عن إتيان، كان يناوره لإخراجه من الصمت الذي أغلق الشاب على نفسه فيه. لذلك، تاركاً النقاش عن السنتيمين، وسّع المسألة بغتة.

«كلا، هيا اعترفوا بالحقيقة، إنكم تخضعون لتحريضات مقيتة. إنه طاعون، اليوم، هو ذاك الذي يمسّ كل العمال ويفسد

الأفضل من بينهم. أوه! لا أحتاج إلى اعتراف أي أحد، أرى مليّاً أنه تمّ تغييركم، أنتم المسالمون كثيراً في ما مضى. أليس كذلك؟ لقد وعدوكم بزبدة أكثر من الرغيف، قيل لكم إن دوركم حان كيما تصبحوا أسياداً. مجمل القول، تمّ تجنيدكم في تلك الأممية المشهورة، جيش قطاع الطرق ذاك الذي يحلم بتدمير المجتمع...».

حينئذ قاطعه إتيان.

«عداك الصواب، سيدي المدير. لم ينخرط بعد ولا عامل فحم واحد من مونسو. لكن، إذا دفعتَ إلى ذلك، فإن الحفر كلها سوف تتجنّد. ذلك رهين بالشركة».

ومن تلك اللحظة، استمر الصراع بين السيد إينبو وهو، كما لو أن بقية العمال لم يعودوا هناك.

«الشركة بمثابة مشيئة ربّانية بالنسبة لرجالها، إنك تغلط حينما تهددها. هذا العام، أنفقَت ثلاثمائة آلاف فرنك في بناء المجمّعات السكنية، التي لا تعود عليها بنسبة اثنين في المائة، ولا أتحدث عن المعاشات التي تصرفها، ولا عن الفحم، ولا عن الأدوية التي تمنح. أنت الذي يبدو عليك أنك ذكي، الذي صرت في أشهر قليلة واحداً من أمهر عمّالنا، ألا يجدر بك أن تنشر تلك الحقائق، بدل أن تضيع نفسك بالتردد على أشخاص سمعتهم سيئة؟ أجل، أقصد الحديث عن راسنور، الذي لزمنا الانفصال عنه، حتى نخلّص حُفرنا من العفونة الاشتراكية. يراك الناس دوماً عنده، وهو بالتأكيد من دفعك لإنشاء صندوق الادخار ذاك، الذي قد نتسامح معه لو أنه كان ادخاراً فحسب، لكنا نشعر بسلاح

ضدنا، خزان احتياط لأداء مصاريف الحرب. وبهذا الخصوص، يجب أن أُضيف بأن الشركة تريد مراقبة ذلك الصندوق».

تركه إتيان يذهب في مسعاه، عيناه على ناظريه، وشفتاه يهزهما ارتعاد خفيف من شدّ الأعصاب. ابتسم لسماع الجملة الأخيرة. أجاب ببساطة:

«إنه إذن مطلب جديد، لأن السيد المدير، تجاهل حتى هذه اللحظة المطالبة بتلك المراقبة. رغبتنا، من سوء الحظ، هو ألا تهتم الشركة بنا كثيراً، وبدل أن تنهض بدور المشيئة الربانية، عليها أن تكون بكل بساطة عادلة وذلك بأن تعطينا ما يعود إلينا، ربحنا الذي تتقاسمه. هل من الأمانة، في كل أزمة، أن يُترك العمال يموتون جوعاً لإنقاذ أرباح المساهمين؟ سيدي المدير مهما قال، النظام الجديد هو خفض للأجر متستر، وهذا هو ما يهيّجنا، لأنه إذا كانت الشركة تريد توفير بعض المال، فإنها تتصرف بسوء كبير من خلال تحقيق ذلك على حساب العامل فقط».

«آه! ها قد وصلنا المبتغى!»، صاح السيد إينبو، «كنت أنتظره، ذلك الاتهام بتجويع الشعب والعيش من عرقه! كيف يتسنى لكم الجهر بمثل هذا السخف، أنت من عليه إدراك المخاطر العظيمة التي تركبها الرساميل في صناعة المناجم مثلاً؟ إن حفرة مجهزة اليوم بالتمام تكلّف ما بين خمسمئة ألف فرنك ومليونين من الفرنكات؛ وكم من مشقة قبل استخلاص فائدة هزيلة من مبلغ تمّ التهامه مثل ذاك! تقريباً نصف شركات المناجم، في فرنسا، تعلن الإفلاس. فضلاً عن ذلك، من البلادة اتهام تلك الناجحة

منها بالقسوة. حينما يعاني عمالها، فهي تعاني أيضاً. هل تظن أن الشركة لا تخسر مثلما تخسرون، في الأزمة الحالية؟ لا سيادة لها على الأجر، إنها تخضع للمنافسة، وإلّا كان في ذلك خرابها. اعتبر الوقائع ولا تعتبرها هي. لكن لا تريدون الاستماع، لا تريدون الفهم».

«بلى»، قال الشاب، «نفهم جيداً أن ليس هناك تحسن بالنسبة إلينا، ما دامت الأمور تسير على ماهي عليه، بل بسبب ذلك لسوف ينتهي المطاف بالعمال، يوماً ما، إلى أن يتصرفوا بحيث تسير على نحو مغاير».

هذا الكلام، المعتدل في شكله، تمّ نطقه بصوت خفي، فيه قدر كبير من اليقين، يرتعد من شدة تهديده حيث عمّ صمت عظيم. حرج، هبة خوف خرقت جوّ المجلس المتعبد. شعر باقي المنتدبين، الذين لم يفهموا جيداً، بأن الرفيق قد طالب آنفاً بنصيبهم، وسط هذه الرفاهية؛ وعادوا من جديد إلى إلقاء نظرات بمؤخر العين على الستائر الدافئة، على المقاعد الوثيرة، على كل ذلك الترف الذي أقل غرض منه قادر على التكفل بثمن حسائهم مدة شهر.

في نهاية الأمر، نهض السيد إينبو الذي ظلّ مستغرقاً في التفكير، من أجل صرفهم. صنع الجميع مثله، بخفة، قام إتيان بلكز مرفق **ماهو**؛ واستأنف هذا الأخير، لسانه ثقيل وأخرق مقدَّماً:

«إذن، سيدي، هذا كل ما تردون به. سوف نخبر الآخرين بأنك ترفض شروطنا».

«أنـا، أيهـا الرجـل الشـهم»، صـاح المديـر، «لكـن لا أرفـض شـيئاً! أنـا أجيـر مثلـك، لا إرادة لـي أكثـر مـن أصغـر واحـد مـن صبيانكـم المتعلميـن. إنـي أتلقـى الأوامـر ودوري الوحيـد هـو السـهر علـى حسـن تنفيذهـا. لقـد قلـت لكـم مـا ظننـت أنـه ينبغـي لـي قولـه، لكنـي أحجـم عـن اتخـاذ أي قـرار. سـوف تأتونـي بمطالبكـم، سـوف أنقلهـا إلـى الوكالـة المسـيّرة، ثـم أنقـل إليكـم الجـواب».

كان يتحـدث بمظهـره المسـتقيم، مظهـر الموظـف السـامي، متجنبـاً الانغمـاس فـي الأسـئلة، بجفـاف فيـه كياسـة لمـن هـو أداة سـلطة فحسـب. وعمـال المناجـم، الآن، كانـوا ينظـرون إليـه بتوجّـس، متسـائلين مـن أيـن مأتـاه، ومـا الفائـدة التـي سـيجنيها مـن الكـذب، مـاذا سـوف يسـرق، بوضـع نفسـه علـى ذلـك النحـو بينهـم وأربـاب العمـل الحقيقييـن. ربمـا هـو محتـال، رجـل يـؤدى لـه أجـره مثـل عامـل، ويعيـش بـكل ذلـك القـدر مـن الحسـن!

تجرأ إتيان على التدخل من جديد.

«كمـا تـرى إذن، سـيدي المديـر، مـن المؤسـف ألّا نسـتطيع المرافعـة عـن قضيتنـا لـدى أي شـخص. سـوف نشـرح الكثيـر مـن الأشـياء، سـوف نجـد أسـباباً لا تدركُهـا بالضـرورة. لـو علمنـا فحسـب مـن علينـا مخاطبتـه!».

لم يشعر السيد إينبو بأي غضب، بل بدرت منه ابتسامة.

«آه! أيتهـا السـيدة المقدسـة! الأمـر يتعقـد بمـا أنكـم لا تثقـون فـيّ. يجـب الذهـاب هنـاك».

تبـع المنتدبـون إيماءتـه الغامضـة، يـده الممـدودة نحـو إحـدى النوافـذ. أيـن ذلـك، هنـاك؟ باريـس بـلا شـك. لكنهـم لا يعرفـون ذلـك

بالضبط، ذلك يوغل في بعد مخيف، في أرض لا يمكن الوصول إليها، أرض دينية حيث يتربع على عرشها الإله المجهول القابع في جوف هيكله. لن يروه أبداً، كانوا يشعرون به فقط كقوة تثقل من بعيد على عمال فحم **مونسو** البالغ عددهم عشرة آلاف عامل. وحينما كان المدير يتكلم، فتلك القوة هي التي كانت خلفه، مستترة وتصدر الوصايا.

ثبطهم ذلك وأثقل كاهلهم. إتيان نفسه حرّك كتفيه ليقول لهم إن من الأفضل الانصراف؛ بينما السيد إينبو يربّت بودّ على ذراع **ماهو**، ويسأله عن أحوال جونلان.

«يا لها من عِبرة قاسية مع ذلك، وأنت من يدافع عن تمتين الدعائم السيّئ! سوف تتفكرون في الأمر، أصدقائي، وسوف تدركون أن الإضراب مصيبة بالنسبة للجميع. قبل انصرام أسبوع، سوف تهلكون من الجوع: كيف ستتصرفون؟ إني أعوّل على حكمتكم، وأنا على يقين من أنكم سوف تنزلون مرة أخرى يوم الإثنين على أكبر تقدير».

انصرف الجميع، غادروا المجلس يمشون سير قطيع يدوس ما تحته، الظهر مقوس، دون أن يحيروا جواباً لأمل الاستسلام ذاك. كان المدير وهو يرافقهم مجبراً على تلخيص اللقاء: الشركة من جهة بتعريفتها الجديدة، والعمال من جهة ثانية ومطلبهم برفع ثمن العربة بخمسة سنتيمات. وحتى يجنّبهم التعلق بأدنى وهم، ظن أن من واجبه تحذيرهم من أن الوكالة سترفض بالتأكيد شروطهم.

«فكروا في الأمر قبل الإقدام على حماقات»، كرر وقد حيَّره صمتهم.

في الردهة، انحنى پيرون بشدة، بينما تظاهر لوفاك بإعادة قبعته مكانها. كان ماهو يبحث عن كلمة للانصراف، حينما لكزه إتيان من جديد. وانصرفوا جميعاً، وسط ذلك الصمت المتوعِّد. وحده الباب صفق مرة ثانية، بصوت شديد.

حينما عاد السيد إينبو إلى غرفة الطعام، وجد ضيوفه بلا حركة، خُرس قبالة المشروبات. بكلمتين، أخبر دونولان الذي اكفهر وجهه تماماً. وبينما كان يشرب قهوته، حرص الحضور على الحديث عن أمور أخرى. لكن آل غريغوار أنفسهم عادوا إلى الإضراب، مستغربين من أن ليس هناك قوانين تمنع العمال من هجر عملهم. كان پول يطمئن سيسيل، ويؤكد بأنهم في انتظار رجال الشرطة.

وفي نهاية المطاف، نادى السيد إينبو الخادم.

«هيپوليت، قبل أن ننتقل إلى المجلس، افتح النوافذ وقم بتهوية المكان».

III

مـرّت خمسـة عشـر يومـاً؛ وفـي يـوم الإثنيـن مـن الأسـبوع الثالـث، دلّـت أوراق الحضـور، المُرسَـلة إلـى الإدارة، علـى انخفـاض جديـد لعـدد العمـال النازليـن. فـي ذلـك الصبـاح، كان يُعَـوّل علـى اسـتئناف العمـل؛ لكـن إصـرار الشـركة علـى عـدم الانصيـاع أزعـج العمـال. لوڤـورروه، كريڤكـور، ميـرو، مادليـن، لـم تعـد عاطلـة لوحدهـا؛ فـي لاڤيكتـوار وفوتـري كانتيـل، كان النـزول يحسـب الآن بالـكاد بربـع عـدد الرجـال؛ وحتـى سـان تومـا أصابـه مـا أصـاب. شـيئاً فشـيئاً، صـار الإضـراب عامّـاً.

فـي لوڤـورروه، صمـت ثقيـل يـدوس السـاحة. ذلـك الفـراغ وهجـر المواقـع الكبـرى كان بمثابـة المصنـع الميـت، حيـث ينـام العمـل. فـي سـماء ديسـمبر الرماديـة، علـى امتـداد الجسـور العاليـة، ثـلاث أو أربـع عربـات منسـية كانـت تكتسـي بحـزن الأشـياء الأبكـم. فـي الأسـفل، بيـن سـيقان الهيـاكل النحيلـة، كان مخـزون الفحـم ينفـد، ويتـرك الأرض عاريـة وسـوداء؛ بينمـا مخـزون الخشـب يفسـد بفعـل الأمطـار. عنـد رصيـف القنـاة، يرسـو مركـب محمّـل حتـى نصفـه، وكأنـه يغفـو فـي المـاء العكـر؛ وفـوق الـردم المقفـر، كانـت أخـلاط الكبريـت المتحللـة تبعـث دخانهـا رغـم المطـر، عربـة مجـرورة منتصبـة علـى عموديهـا بكآبـة. لكـن البنايـات علـى الأخـص كان يغلبهـا الكسـل، قاعـة الغربلـة بنوافذهـا المغلقـة، بـرج البئـر حيـث لـم تعـد تصعـد زمجـرة المـورد، وغرفـة المولـدات البـاردة، والمدخنـة العملاقـة الأوسـع بكثيـر مـن الأدخنـة النـادرة. لـم يعُـد يتـمّ تسـخين آلـة الاسـتخراج سـوى فـي

الصباح. ساسة الأحصنة وحدهم في الجوف، صاروا عمَّالاً، يحرسون المصائب التي تخرب المسالك، ما أن يتم التوقف عن صيانتها. ثم، بدءاً من الساعة التاسعة، ما تبقى من خدمة يقام بالسلالم. وفوق ميتة البنايات المدفونة في لحافها من الغبار الأسود، لم يكن هناك دوماً سوى تصريف المضخة التي تنفخ بخارها الغليظ والطويل، بقية حياة الحفرة، التي قد تدمرها المياه، إذا توقف النفخ.

في الواجهة، على النّجد، مجمع 240، كان يبدو ميتاً هو أيضاً. كان المحافظ قد هرع، وذرع رجال الشرطة الطرقات، لكن أمام هدوء المضربين، قرر المحافظ ورجال الشرطة العودة إلى من حيث أتوا. لم يسبق قط أن قدّم المجمّع مثالاً بهذا الحسن، في السهل الشاسع. حتى يتجنب الرجال الذهاب إلى الخمارة كانوا ينامون النهار بأكمله؛ وصارت النساء، بأخذ حصتهن من البنّ، رزينات، وخفّت درجة سعارهن من الثرثرة والخصومة؛ بل حتى عصابات الأطفال الذين بدا عليهم أنهم يفهمون، بقدر كبير من الهدوء، كانوا يجرون حفاة ويلطمون بعضهم بلا ضجة.

كان ذلك هو الأمر الصادر المكرر، المتداول على الألسن: هناك إرادة لإظهار السكون.

ومع ذلك، بيت آل **ماهو** ضجّ بالناس الذي لم يكفّوا عن الغدو والرواح. إتيان، بصفته كاتباً، قام بتقسيم الثلاثة آلاف فرنك من صندوق الادخار على الأُسر المعوزة؛ ثم، من جهات مختلفة، جاءت بعض مئات من الفرنكات، حصلت من اشتراكات ومساعٍ. لكن اليوم، كل المصادر نفدت، لم يعُد لعمال المنجم مالاً يدعمون به

الإضـراب، وكان الجـوع هنـاك، متوعـداً. بعـد أن وعـد **ميغرا** بسـلف لخمسـة عشـر يومـاً، غيّـر رأيـه بعـد ثمانيـة أيام بغتـة، وقطـع الأرزاق. فـي العـادة، كان يأتمـر بأوامـر الشـركة؛ الأرجـح أن هـذه الأخيـرة كانت تريـد إنهـاء المشـكل فـي الحـال بتجويـع المجمّعـات. ثـم إنـه يتصـرف بصفـة المسـتبد المتقلـب المـزاج، يعطـي الخبـز أو يمنعـه، يحـدّق فـي وجـه الفتـاة التـي يرسـلها والداهـا للمؤنـة؛ وكان علـى الأخـص يغلـق بابـه فـي وجـه **ماهـود**، وكلـه ضغينـة، بريـد بذلـك معاقبتهـا علـى عـدم الظفـر بكاتريـن. ومـا زاد الطّيـن بِلّـة، كان هنـاك بـرد شـديد، وكانـت النسـاء يشـهدن ركام الفحـم وهـو يتناقـص، والخاطـر متحيّـر مـن أن الحُفـر لـن تزودهـن مـن جديـد، مـا دام الرجـال لـم ينزلـوا للجـوف. لـم يكـن كافيـاً الهـلاك جوعـاً، سـوف يهلكـون مـن شـدة البـرد.

عنـد آل **ماهـو** كان ينقـص كل شـيء أصـلاً. وكان آل لوفـاك لا يزالـون يُطعمـون بفضـل قطعـة عشـرين فرنـك المُقتَرضـة مـن بوتلـو. أمـا آل پييـرون، فـكان لديهـم المـال علـى الـدوام؛ لكـن، حتـى يظهـروا بمظهـر الجوعـى مثـل الآخريـن، خشـية مـن القـروض، كانـوا يتـزودون بالسّـلف مـن عنـد ميغـرا، المسـتعد لرمـي مخزنـه لپييرونـه، فقـط لـو أنهـا شـمّرت عـن طـرف ثوبهـا. وبدايـة مـن يوم السـبت، هجعـت الكثيـر مـن الأسـر للنـوم دون عشـاء. وإزاء الأيـام الرهيبـة التـي ابتـدأت، لـم تُسـمع أدنـى شـكوى، كان الجميـع يمتثـل للأمـر الصـادر، بشـجاعة هـادئـة.

رغـم ذلـك، كانـت تلـك ثقـة مطلقـة، إيمـان دينـي، الهبّـة العميـاء لسـكّانٍ مـن المؤمنيـن. بمـا أنهـم وُعِـدوا بعهـد العـدل، كانـوا مسـتعدين للعـذاب للظفـر بالسـعادة الكونيـة. كان الجـوع يحمّـس الـرؤوس، لـم

يسبق قط أن شرع الأفق المسدود آخرةً أوسع بالنسبة لمهلوسي البؤس هؤلاء. كانوا يرون هناك، حينما تضطرب أعينهم من الوهن، مدينة أحلامهم الفاضلة، لكن قريبة تلك الساعة وكأنها حقيقية، بشعبها، شعب الإخوة، عصرها الذهبي للعمل ولوجبات الطعام المشتركة. لا شيء كان يزعزع يقينهم من دخولها في نهاية المطاف. نفد الصندوق، والشركة لن تستسلم، كل يوم كان الوضع يتأزم، وكانوا يتشبّثون بالأمل، ويظهرون الاحتقار الباسم للوقائع. إذا تصدّعت الأرض تحت أقدامهم، سوف تخلّصهم معجزة. كان ذلك الإيمان يعوّض الخبز ويدفئ البطن. وحينما هضم آل **ماهو** والآخرون بسرعة حساءهم من ماء النبع، كانوا يصعدون على تلك الحال في نصف دوخة، حالُ وجدٍ بحياة أفضل ترمي بالشهداء إلى الوحوش.

ومن ذلك الحين، أصبح إتيان هو الزعيم بلا منازع. في محادثات المساء، كان يقدم وصايا، كلما شحذته الدراسة وجعلته جازماً في كل الأمور. كان يقضي الليالي في القراءة، ويصله عدد كبير من الرسائل؛ بل إنه اشترك في **فونجور**، نشرة اشتراكية من بلجيكا، وكانت تلك اليومية هي أول صحيفة دخلت المجمّع، وجلبت له، عند الرفاق، اعتباراً يخرق العادة. وشعبيته المتزايدة كانت تحمسه كل يوم زيادة. رعاية مُراسلة موسعة، مناقشة مآل الشغيلة في كل جهات الإقليم، تقديم المشورة لعمال منجم لوفوروه، وعلى الأخص، يصبح مركزاً، ويشعر أن العالم ينبسط حوله، كان ذلك يملأه غروراً باستمرار، بالنسبة له، عامل الآلة السابق، الحفّار صاحب اليدين الدسمتين والسوداوين. كان يرتقي

درجة، يدخل في تلك البرجوازية المقيتة، وهو راض كلّ الرضا عن ذكائه وبحبوحة عيشه، لم يكن يعترف به. شيء واحد كان يضايقه، إدراكه بأنه لم يحصل على تعليم كاف، كان يجعله محرجاً وخجولاً، ما أن يجد نفسه أمام سيد بمعطف طويل. وإذ واصل تعليمه، ملتهماً كل شيء، فإن افتقاد المنهج كان يجعل الاستيعاب بطيئاً جداً، ومن شدة وقوع ذلك الخلط، فقد انتهى به الأمر إلى معرفة أمور لم يفهمها. لذلك، في بعض ساعات الحس السليم، كان يشعر بحيرة حول مهمّته، الخوف من أنه ليس الرجل الموعود. ربما وجب حضور محام، رجل متعلّم قادر على الكلام والفعل، دون أن يعرّض رفاقه للخطر؟ لكن هياجاً كان يردّ له في الحال ثقته في نفسه. كلّا، كلّا، لا حاجة لمحامين! كلهم أوغاد، يستغلون علمهم للاغتناء على حساب الشعب! سوف تجري الأمور مثلما تجري، ينبغي للعمال أن يتدبروا أمورهم في ما بينهم. وأخذ حلمه بكونه زعيم شعبي يهدهده من جديد: مونسو عند قدميه، باريس في مبعدة من ضباب، من يدري؟ نائب برلماني ذات يوم؟ اعتلاء منصة قاعة ثرية، حيث كان يرى نفسه يصعق البرجوازيين بأول خطاب يلقيه عامل في برلمان.

أيام معدودة من ذي قبل، كان إتيان حائراً. إذ كتب پلوشار رسالة تلو أخرى، عارضاً الحضور إلى مونسو، قصد إذكاء حماس المضربين. كان الأمر يتعلق بتنظيم اجتماع خاص، يترأسه عامل الآلة؛ وكان خلف ذلك المشروع، فكرة استغلال الإضراب، وضم عمّال المنجم إلى الأممية، الذين ظلوا حتى ذلك الأوان حذرين. كان إتيان يخشى الهرج، لكنه سوف يذعن لحضور پلوشار لو أن

راسنور لم يعِب بشدة ذلك التدخّل. رغم قوته، كان الشاب يعوّل على صاحب الخمّارة، الأقدم منه في الخدمة، والذي كان له أوفياء من بين زبائنه. لذلك كان متردداً، ولا يعرف بما سوف يجيب.

وبالتحديد، يوم الإثنين، حوالي الساعة الرابعة، وصلت رسالة أخرى من لِيل، لما كان إتيان لوحده، مع ماهود، في قاعة الطابق السفلي. **ماهو**، الذي غاظته العطالة، كان قد خرج للصيد: لو حالفه الحظ واصطاد سمكة جيدة، تحت محبس القناة، سوف يبيعها ويشتري خبزاً. كان العجوز بونمور وجونلان قد انصرفا آنفاً، حتى يتحقّقا من أن سيقانهما استعادت عافيتها كاملة؛ بينما خرج الطفلان رفقة ألزير، التي تقضي ساعات على الردم، تجمع الجمر الملتهب. كانت **ماهود** جالسة قرب النار القليلة، التي لم تعُد لهم الجرأة على حفظها؛ أزرار قميصها مفتوحة، ثديٌ خارج الصّدار، مسترخٍ حتى البطن، ترضع إستيل.

حينما طوى الشاب الرسالة، سألته.

«هل تلك أخبار تبشّر بخير؟ هل سيرسلون إلينا مالاً؟».

أومأ نافياً، وتابعت:

«هذا الأسبوع، لا أدري كيف سوف نتصرف. في نهاية الأمر، سنصمد رغم كل شيء. حينما يكون الحق إلى جانبنا، أليس كذلك؟ إن ذلك يقوّيك، وينتهي بنا الأمر دوماً إلى أن نكون الأقوى».

في تلك الساعة، كانت مع الإضراب، رجاحة. قد يكون من الأفضل إجبار الشركة على أن تعدِل، دون هجر العمل. لكن بما أن الناس هجرته، يجب ألّا يعودوا إليه قبل الحصول على العدل.

بهذا الخصوص، كانت تبدي طاقة لا تقبل المساومة. الأفضل أن يموت المرء ولا يُبدي أنه كان مخطئاً، وهو على حق!

«آه!»، صاح إتيان، «لو تفشّت كوليرا شديدة، تُخلِّصُنا من كل هؤلاء الاستغلاليين في الشركة!».

«كلّا، كلّا»، أجابت، «لا يجب أن نتمنى الموت لأي أحد. ذلك لن يقدم في الأمر شيئاً، إذ سوف يطلع آخرون. أنا، أطلب فحسب أن يرجع هؤلاء إلى أفكار معقولة أكثر، وأتوقع ذلك، لأن هناك أشخاص ذوو شهامة في كل مكان. تعرف إني لا أتفق بتاتاً مع سياستكم».

وفي حقيقة الأمر، كانت تعيب عليه في العادة عنفه اللفظي، كانت تعتبره مولعاً بالخصام. أن يريد المرء الحصول على أجر مقابل قيمة عمله، فذلك حسن؛ لكن لماذا الاهتمام بأمور كثيرة، بالبرجوازيين وبالحكومة؟ لماذا يتدخل في شؤون الآخرين، حيث لن يجلب من ذلك سوى المصائب؟ وكانت تكنُّ له التقدير الواجب، لأنه لم يكن يسكَر، ويؤدي لها خمسة وأربعين فرنكاً مبلغ السكن. حينما يمتلك رجل من الرجال حسن السلوك، يمكن أن يُغتفر له ما تبقى.

حينذاك، تحدث إتيان عن الجمهورية، التي سوف توفِّر الخبز لجميع الناس. لكن ماهود حرّكت رأسها، لأنها كانت تتذكر عام 48، عام أجرب من كلب، تركهما عاريين حافيين، هي وزوجها، أيام زواجهما الأولى. كانت تسلو بحكاية المتاعب بصوت كئيب، عيناها تائهتان، صدرها في الهواء، بينما بنتها إستيل، تنام فوق ركبتيها، دون أن تترك ثديها. ساهِم هو كذلك، كان إتيان يحدّق

في صدرها الضخم، الذي يتعارض بياضه الرخو مع بشرة وجهها المخدّدة والمصفَرّة.

«ولا ريال واحد»، همست، «لا شيء لمضغه، وكل الحفر التي توقّفت عن العمل. تعرف المقصود! هلاك الناس البسطاء، كما اليوم!».

لكن في تلك اللحظة، فُتِح الباب، ولبثا ساكتين من الدهشة أمام كاترين التي دخلت. منذ هربها مع شافال، لم تظهر في المجمّع. من شدة اضطرابها، لم تغلق الباب، مرتعدة وخرساء. كانت تعول على وجود أمها لوحدها، مرأى الشاب أربك الجملة التي أعدّتها في الطريق.

«ماذا جئتِ تفعلين هنا؟»، صاحت ماهود، دون أن تترك مقعدها، «لا أريدك بعد هذا، انصرفي!».

حينذاك، همّت كاترين بتدارك كلماتها.

«ماما، هذا بعض البنّ والسكّر. أجل، للأطفال. لقد عملت لساعات إضافية، لقد فكرتُ فيهم».

سحبت من جيبيها رطلاً من البن ورطلاً من السكّر، أسرعت بوضعهما على الطاولة. كان إضراب لوفوروه يقلق بالها، بينما هي تعمل في جونبار، ولم تجد إلا هذه الوسيلة لمساعدة والديها قليلاً، بذريعة التفكير في الصغار. لكن قلبها الطيب لم يغلب أمها، التي ردّت:

«بدل أن تحضري لنا الحلوى، كان من الأفضل لك البقاء وكسب بعض الخبز لنا».

أهانتها، وأراحت نفسها من ذلك، وهي ترمي في وجهها كل

ما ردّدته ضدها، منذ شهر. الهرب مع رجل، الارتباط في سن السادسة عشرة، بينما لها أسرة معوزة! يجب أن تكون من أسوأ الفتيات عقوقاً. يمكن للمرء أن يغفر حماقة، لكن الأم لا تنسى أبداً تصرفاً مماثلاً. هذا لو كان المرء مقيّداً لحركتها! بتاتاً، كانت طليقة مثل نفحة هواء، كان مطلوب منها فحسب أن ترجع للبيت لتنام فيه.

«قولي؟ ماذا لديك في بدنك، في سنّك هذه؟».

كانت كاترين بلا حركة قرب الطاولة، تنصت، مطأطئة الرأس. سرت رعدة في جسمها الهزيل، جسم فتاة تأخر نموها، وحرصت على أن تجيب، بكلام متقطع.

«لو أن الأمر اقتصر علي وحدي، ما سعيت إلى الاستمتاع بالأمر. بل هو. حينما يريد، أُجبر على أن أُريد أيضاً، أليس كذلك؟ لأنه، كما تعلمين، هو الأقوى. هل نعرف كيف تؤول الأمور؟ أقصد، وقع ما وقع، ولا يمكن العودة عن وقوعه، إذ هو أفضل من غيره، الآن. يجب أن يتزوج بي».

كانت تدافع عن نفسها دون عِراك، بالإذعان الساكن للفتيات اللواتي يخضعن للذكور من وقت باكر. أليس ذلك هو القانون المشترك؟ لم يسبق قط أن حلمت بغير ذلك، عنف خلف الردم، طفل في سنّ السادسة عشر، ثم البؤس في الحياة الزوجية، إذا تزوجها عشيقها. ولم تكن تحمرّ خجلاً، لم تكن ترتعد على ذلك النحو سوى لأن كيانها اهتز من معاملتها كمتسولة أمام ذلك الفتى، الذي كان حضوره يقهرها ويحبطها.

في تلك الأثناء، نهض إتيان، وهو يتظاهر بتحريك النار الكابية؛ حتى لا يحرج شرح الأمر. لكن التقت نظراتهما، وجد

أنها كانت شاحبة، هدّها التعب، حسنة الوجه رغم ذلك بعينيها البراقتين، في وجهها الذي كان يميل إلى السمرة؛ وقد استبدّ به شعور غريب، لم يعُد يحمل لها ضغينة، قد يريد فحسب أن تكون سعيدة، عند ذلك الرجل الذي فضلته عليه. كانت تلك حاجة إلى الاهتمام بها بعدُ، رغبة في الذهاب إلى مونسو وإجبار الآخر على العناية بها. لكنها لم تر سوى الشفقة في ذلك الحنوّ الذي كان يقدمه لها دوماً، لا بد أنه كان يحتقرها وهو يتوضح وجهها على ذلك النحو. آنذاك، انقبض فؤادها بشدة إلى حدّ أنها اختنقت ولم تقدر حتى على التمتمة بكلمات اعتذار أخرى.

«هو ذاك، من الأفضل لك السكوت»، أردفت ماهود بلا شفقة، «إذا رجعت كيما تظلي، أدخلي؛ وإلا، انصرفي حالاً، ولك أن تفرحي لأني محرجة، وإلا كنت قد ركلتك مسبقاً في موضع ما من بدنك».

كما لو أن ذلك الوعيد تحقّق، بغتة، تلقت كاترين على عجيزتها، ركلة بقوة، ذهلت كاترين من فجأتها ووجعها. كان ذاك شافال، الذي دخل وثباً عبر الباب المفتوح، الذي ركلها مثلما تفعل دابّة كريهة. منذ دقيقة وهو يتربص بها من الخارج.

«آه! أيتها السافلة»، صاح، «لقد تبعتك، لقد عرفتُ أنك عدت إلى هنا بغية الهكّ الشديد وأنت من يؤدي ثمن ذلك، هه؟ تسقينه قهوة من مالي!».

لم تتحرك **ماهود** ولا إتيان من شدة الدهشة. بحركة غاضبة قام شافال بطرد كاترين نحو الباب.

«ستخرجين، اللعنة!».

وبما أنها لاذت بركن، وجه غضبه للأم.

«حراسة البيت حرفة ظريفة، بينما بنتك العاهرة فوق، وساقاها في الهواء!».

وفي الأخير، أمسك معصم كاترين، وهزها، ثم جرّها إلى الخارج. عند الباب، التفت مرة ثانية صوب ماهود، المسمّرة إلى كرسيها. لقد نسيت بفعل ذلك إخفاء صدرها. إستيل كانت نائمة، وأنفها المائل إلى الأمام مدسوس في جبّة الصوف، وكان ثديها الضخم متدلياً، طليقاً وعارياً، مثل ضرع بقرة.

«حينما لا تكون البنت حاضرة، فالأم هي من تحل محلها»، صاح شافال، «هيا، أريه لحمك! إنه لا ينفر من ذلك، ساكنك الوغد!».

ومن ثم، أراد إتيان لطم الرفيق. لكن الخشية من حشد المجمّع بعراك منعته من أن ينزع كاترين من بين يديه. لكن بدوره، استشاط غضباً، ثم وجد الرجلان نفسيهما وجهاً لوجه، الدم نافر في العينين. كان ذلك حقد قديم، غيرة مكتومة منذ أمد بعيد، وقد انفجرا. الآن، وجب أن يلتهم أحدهما الثاني.

«حذار!»، تمتم إتيان، وهو يصرّ أسنانه، «سوف تهلك على يدي».

«جرّب!»، ردّ شافال.

ونظرا إلى بعض مدة ثواني معدودة، على مقربة شديدة حيث أن أنفاسهما الحارة كانت تحرق وجهيهما. وكانت كاترين، متوسّلة، هي من أمسك يد عشيقها كيما تجرّه. كانت تجذبه خارج المجمّع، تهرب، دون أن تلتفت.

«يا لـه مـن بهيمـة!»، غمغـم إتيـان وهـو يغلـق البـاب بشـدة، وقـد هـاج مـن شـدة الغضـب حتـى لزمـه الجلـوس مـن جديـد.

تجاهـه، لـم تتحـرك ماهـود. نمـت عنهـا إيمـاءة عظيمـة، وعـمّ صمت، موجع وثقيل بالأمور التـي لـم ينطقـا بهـا. رغـم الجهـد الـذي بذلـه، كان مـع ذلـك يعـود بنظـره إلـى صدرهـا، إلـى سـيل البشـرة البيضـاء ذاك، الـذي صـار بريقـه الآن يحرجـه. لا شـك أنهـا كانت تبلغ أربعيـن عامـاً مـن عمرهـا وأضحـت مشـوَّهة، مثـل أنثـى كثيـرة الولـد؛ لكـن كانـت لا تـزال مُشـتهاة عنـد الكثيـر، عريضـة، صلبـة، بوجههـا البديـن الطويـل الـذي لفتـاة جميلـة فـي مـا مضـى. بتؤدة، وهـدوء ظاهـر، حملـت بيديهـا ثديهـا وأدخلتـه. وأدخلـت الجـزء المتبقـي بالإصبـع، وسـدّت أزرارهـا، وغـدت كلهـا سـوداء الآن، مسـترخية فـي قميصهـا عـاري الكُمّيـن القديـم.

«ذاك خنزيـر»، قالـت فـي نهايـة الأمـر، «الخنزيـر القـذر هـو مـن تكـون لديـه تلـك الخواطـر المقـززة. أنـا، لا أبالـي بذلـك! ذلـك لا يسـتحق جوابـاً».

ثـم، بصـوت واضـح، أضافـت، دون أن تحيـد بنظرهـا عـن الرجـل الشـاب:

«لـدي عيوبـي طبعـاً، لكـن هـذا ليـس مـن طبعـي. لـم يمسسـني سـوى رجليـن، فـي مـا مضـى حفّـار، كنـت أبلـغ خمسـة عشـر عامـاً، وبعده **ماهو**. لـو تخلـى عنـي مثـل الآخـر، يـا أيتهـا السـيدة المقدسـة! لا أدري مـا الـذي كان سـيقع، ولسـت أفتخـر بـأن سـلوكي كان سـلوكاً حسـناً معـه منـذ زواجنـا، وحيـث أنـي لـم أقتـرف أي سـوء، فذلـك لأن المناسـبات لـم تُتـح فـي معظـم الأحيـان. فحسـب، أقـول الواقـع،

وأعرف جارات لا يستطعن قول مثل ذلك، أليس صحيحاً؟».

«ذاك، إنه صحيح حقاً»، رد إتيان وهو ينهض.

ثم خرج بينما كانت قد عزمت على إشعال النار بعد أن وضعت إستيل النائمة، بين كرسيين. إذا اصطاد الأب سمكة وباعها، فإنهم سوف يُعدّون مع ذلك حساء.

في الخارج، كان الليل قد حلَّ مسبقاً، ليل من صقيع، ورأسه مطأطأ، كان إتيان يسير، وقد استبد به حزن شديد. لم يكن ذلك غضب من الرجل، ولا شفقة على الفتاة المسكينة التي تعرضت لسوء المعاملة. كان المشهد القاسي ينمحي، يغرق، يرمي به إلى وجع الجميع، إلى فظاعة البؤس. يتراءى له المجمّع دون خبز، نساؤه، صغاره الذين لا يأكلون في المساء، كل ذلك الشعب المناضل، والبطن خاوٍ. والشك الذي كان يلامسه أحياناً، يستيقظ داخله، وسط كآبة الغروب المخيفة، يعذّبه بضيق لم يشعر قط بحدته بذلك القدر. يا لها من مسؤولية رهيبة حمّل نفسه! هل سوف يدفعهم أكثر، يجعلهم مصرّين على المقاومة، الآن حيث لم يعُد هناك لا مال ولا قرض. وكيف سيكون الحل إذا لم يصل أدنى عون، إذا هزم الجوع الشجاعة؟ بغتة، تراءى له آنفاً مشهد الكارثة: أطفال يموتون، أمهات ينتحبن، بينما الرجال، وقد أصابهم الهزال والوهن، ينزلون من جديد إلى الحُفر. كان يمشي دائماً، قدماه تتعثران في الحجارة، وفكرة أن الشركة ستظل هي الأقوى وأنه سعى في شقاء رفاقه، كانت تملؤه بهلع لا طاقة له به.

حينما رفع رأسه، وجد أنه قبالة لوفوروه. كتلة البنايات المعتمة تزداد ثقلاً تحت جنح الظلام المتعاظم. وسط الساحة

المقفرة، التي تسدها ظلال عاتية لا تتحرك، يخال المرء كأنه ركن في قلعة مهجورة. ما أن تتوقف آلة الاستخراج، تغادر النفس الجدران. في تلك الساعة من الليل، لم تعُد الحياة تدبّ في شيء منها، ولا فانوس واحد، ولا صوت؛ وتصريف المضخة بذاته لم يعُد سوى حشرجة بعيدة، قادمة من حيث لا ندري، في فَناء الحفرة بأكملها.

كان إتيان ينظر والدم يصعد إلى قلبه. إذا عانى العمال من الجوع، فإن الشركة تصرف من ملايينها. لماذا ستكون هي الأقوى، في حرب الشغل ضد المال تلك؟ في كل الأحوال، فإن النصر سيكلفها غالياً. سوف تُحصى جثتها، في ما بعد. واعترته من جديد سورة غضب تحرّضه على المعركة، على الحاجة المُلحّة لإنهاء البؤس، ولو مات في سبيل ذلك. من الأفضل أن يهلك المجمّع دفعة واحدة إذا كان لا بد من الهلاك بالتقسيط، من المجاعة والظلم. وعادت إليه قراءات لم يستوعبها جيداً، أمثلة عن شعوب أحرقت مدنها لمنع تقدم العدوّ، قصص ملتبسة فيها تُخلّص الأمهات الأطفال من العبودية، وذلك بكسر رؤوسهم على الرصيف، فيما كان الرجال يستسلمون للموت بالامتناع عن الطعام، بدل أكل رغيف الطّغاة. كان ذلك يلهب حماسه، سرور أحمر ينبعث من أزمة حزنه الأسود، ويطرد الشك، ويشعره بالخجل من جبن تلك الساعة.

وفي صحوة إيمانه تلك، ظهرت من جديد نفحات كِبر وحلّقت به عالياً، الفرحة بكونه زعيماً، يرى الناس يخضعون لأوامره إلى حدّ التضحية بالنفس، حلم قوته المتسع، مساء النصر. مسبقاً

كان يتخيّل مشهد عظمةٍ بسيطة، رفضه للسلطة، وضع السلطة بين يدي الشعب، حينما يصيرُ السيّد.

لكنه صحا، وفزع من صوت **ماهو** الذي كان يقصُّ عليه ضربة حظه، اصطياد سمكة سلمون رفيعة وبيعها بثلاثة فرنكات. سوف يحصلون على الحساء. وعليه، ترك الرفيق يرجع وحده إلى المجمّع وهو يخبره بأنه سوف يتبعه؛ ثم دخل وجلس إلى طاولة في لافانتاج، انتظر انصراف زبون كيما يخبر راسنور بوضوح أنه سوف يكتب إلى پلوشار ويدعوه للمجيء في الحال. كان قراره محسوماً، يريد تنظيم اجتماع خاص، لأن النصر بدا له أكيداً، إذا انخرط عمال فحم مونسو جماعة في الأممية.

IV

في بونجوايوه، عند الأرملة ديزير، رُتّب الاجتماع الخاص ليوم الخميس، على الساعة الثانية. الأرملة التي أغاظتها المآسي التي أُغرق فيها أبناؤها، عمال الفحم، لم تكف عن إبداء سخطها، على الأخص منذ أن باتت خمّارتها خاوية. لم يسبق في أي إضراب أن عُزِف عن الشرب مثل هذا الأخير، فالسكارى لبثوا في بيوتهم، خشية من عدم الامتثال لأمر التصرف بحكمة. وهكذا فإن مونسو التي كانت تضج بالناس أيام عيد التكريس، بسط شارعها العريض، الأخرس والكئيب، بمظهر الخراب. لا جعة تسيل من المعارض ومن البطون، جفّت الجداول. على الرصيف، في حانة كازمير ومشرب پروغري، لم تعُد تُرى سوى الوجوه الشاحبة لغانيات الخمارة تُسائل الطريق؛ ثم في مونسو نفسها، يمتد الخط على طوله مقفراً، من مشرب لونفان إلى مشرب تيزون، مروراً بمشرب پيكيت وحانوت لاتيت كوپي؛ وحدها خمارة سانتي لوا، التي يرتادها رؤساء العمال، كانت لا تزال تسقي بعض الأقداح؛ وامتدت العزلة لڤولكان حيث تعطلت دور الصناعة، لغياب الهواة، رغم أنها خفضت من ثمنها من عشرة فلوس إلى خمسة فلوس، نظراً لضيق الأحوال. كان حداداً حقيقياً يفجع قلب البلدة كلها.

«بحق الرب!»، صاحت الأرملة ديزير، وهي تضرب بيديها على فخذيها، «إنها غلطة رجال الشرطة! فليرموا بي في السجن إذا أرادوا، لكن يجب أن أزعجهم!».

بالنسبة إليها، كل السلطات، كل أرباب العمل، هم رجال شرطة، كلمة احتقار عامة، فيها تضع أعداء الشعب. وقد استقبَلت بفرح عارم طلب إتيان: إن محلها بكامله في ملك عمال المناجم، وهي تعير مجّاناً قاعة الرقص، سوف ترسل بنفسها الدعوات، بما أن القانون يفرض ذلك. ثم، الأفضل إذا كان القانون غير مسرور بذلك! سوف نرى شدقه! بداية من الغد التالي، أحضر إليها الشاب ما يقرب من خمسين رسالة قصد التوقيع، التي نسخها على يد جيران للمجّمع يعرفون الكتابة؛ ثم بعث تلك الرسائل، في الحُفر، إلى المنتدبين وإلى الرجال الذين كان جانبهم مأموناً. الأمر اليومي المصرح به هو مناقشة استمرار الإضراب؛ لكن، في الواقع، كان ذلك لانتظار بلوشار، إذ يُعوّل على خطابه لانتزاع الانخراط الجماعي في الأممية.

صباح يوم الخميس، دبّت الحيرة في إتيان، حين لم يشهد حضور رقيبه السابق، الذي وعد في برقية بأن يكون هناك الأربعاء مساء. ما الذي كان يجري إذن؟ كان يتأسف لأنه لم يستطع الاتفاق معه قبل الاجتماع. ما أن حلّت التاسعة حتى ذهب إلى مونسو، ظناً منه أن الميكانيكي ذهب على الأرجح إلى هناك مباشرة، دون التوقف في لوفوروه.

«كلا، لم أر صديقك»، أجابته الأرملة ديزير، «لكن كل شيء جاهز، تفضل حتى ترى».

قادته إلى قاعة الرقص. ظلّ التزيين على حاله، شريطان يسندان، في السقف، تاج أزاهير من ورق مصبوغ، وشعارات من الورق المقوّى المذهّب تصطف فيه أسماء قديسين وقديسات،

على طول الجدران. لكن، تمّ استبدال منصّة الموسيقيين بطاولة وثلاثة كراسي، في زاوية؛ وفي صف مائل، زَيّنت بعض المقاعد القاعة.

«هو ذاك، تماماً»، قال إتيان.

«كما تعلم»، أردفت الأرملة، «أنتم في بيتكم. اصرخوا بقدر ما شئتم. لو جاء رجال الشرطة، على جثتي».

رغم حيرته، لم يمنع نفسه من التبسّم وهو ينظر إليها، من شدة ما بدت له عريضة، بثديين، واحد منهما فقط يتطلب رجلاً كي يحيطه بذراعيه؛ مما كان يجعل الألسنة تجري، الآن، قولاً بأن من بين العشاق الستة في الأسبوع، كانت تأخذ منهم اثنين لكل ليلة.

إلا أن إتيان تعجّب لما رأى راسنور داخلاً وسوفارين؛ وبما أن الأرملة تركتهم هم الثلاثة في القاعة الواسعة الخالية، صاح:

«هاك! وصلتما أصلاً!».

سوفارين الذي كان قد عمل ليلاً في لوفوروه، لأن عمّال الآلات غير عاطلين عن العمل، جاء فحسب بدافع حب الاستطلاع. أما راسنور، فقد بدا عليه الضيق من قبل يومين، وجهه البدين المدوّر فقَدَ ضحكته السّخيّة.

«پلوشار لم يصل بعد، أنا قلق جداً»، أضاف إتيان.

أشاح صاحب الحانة بناظريه وأجاب من بين أسنانه:

«لا أستغرب ذلك، لم أعد أنتظره».

«كيف؟».

وعليه، لقد حَسَمَ أمره، نظر إلى الآخر مواجهة، وقد أبدى شهامة:

«ذلك إني، أنا أيضاً، كتبت إليه رسالة، إذا أردتَ أن أخبرك؛ وفي تلك الرسالة، توسلت إليه بأن لا يأتي. أجل، أرى أن علينا رعاية أمورنا بأنفسنا، دون أن نخاطب الأغراب».

إتيان، وقد فقد السيطرة على نفسه، كان يرتعد غضباً، وعيناه في عينَيّ الرفيق، يردّد وهو يتمتم:

«قمتَ بذلك! قمتَ بذلك!».

«قمتُ بذلك، تماماً! وتعلم مع ذلك إن كنتُ أثق في پلوشار! إنه محتال وصلب، يمكن أن نسايره. لكن، كما ترى، لا أبالي بأفكاركم، أنا! السياسة، الحكومة، كل ذلك، لا أبالي به! ما أرغب فيه، هو أن يتمّ التعامل مع عامل المنجم بصورة أفضل. لقد اشتغلت في الجوف مدة عشرين عاماً، من شدة ما عرفتُ هناك من بؤس ومن تعب، أقسمت على أن أحصل للأشخاص المساكين الذين لا يزالون هناك، على الخيار من الشيء؛ وأنا أشعر حقاً بأنكم لن تحصلوا على شيء بتاتاً بقصصكم تلك، سوف يزداد مصير العامل بؤساً. حينما سيجبره الجوع على النزول مجدداً، سوف يتعرض للمزيد من العقاب، وستؤدي له الشركة أجره ضرباً بالهراوات، مثل كلب هارب يُعاد إلى ركنه. هذا ما أريد منعه، فهمت!». مكتبة .. سُر مَن قرأ

كان يرفع صوته، كرشه إلى الأمام، وهو ثابت تماماً على ساقيه الغليظتين. وكل طبعه بصفته رجلاً رزيناً وصبوراً كان يظهر بجمل واضحة تسيل بوفرة، بلا جهد. ألم يكن من السُخف الظن بالقدرة على تغيير العالم دفعة واحدة، وجعل العمّال مكان أرباب العمل، تقسيم المال مثلما تقسم تفاحة؟ يجب أن تمرّ آلاف وآلاف

السنين كيما يتحقق ذلك على الأرجح. إذن، فليُترك وحاله، مع المعجزات! الخيار الحكيم، حينما لا يريد أحدٌ أن يُكسر أنفه، هو السير في خط مستقيم، طلب الإصلاحات الممكنة، وتحسين مصير الشغيلة، في كل المناسبات، في نهاية الأمر. هكذا، فإنه كان يلتزم، إن هو تكلّف بالأمر، بأن يدفع الشركة إلى شروط أفضل؛ بدل «انصرف عن وجهي»! سنهلك في ذلك جميعاً، من العناد.

كان إتيان قد تركه يتكلم، وكلامه مقطوع من شدة التذمر. ثم صاح:

«اللعنة! ألا يجري دم في عروقك؟».

لحظة، وكان سيلطمه؛ وحتى لا تجرفه تلك الرغبة، انطلق في القاعة يباعد الخطو، وأراح غضبه في المقاعد التي كان يفسح لنفسه ممراً من خلالها.

«اغلق الباب على الأقل»، نبّهه سوفارين، «لا حاجة لأن يسمعنا الناس».

بعد أن ذهب بنفسه لإغلاقه، جلس بهدوء على كرسي من كراسي المكتب. لفّ سيجارة، وكان ينظر إلى الآخرَين بعينيه الهادئتين والرقيقتين، وعلى طرف شفتيه بسمة خفيفة.

«حينما تغضب، لن يقدم في ذلك الأمر شيئاً»، استأنف راسنور بحكمة، «أنا، ظننت أول الأمر أن لديك حسّاً سليماً. من الحسن جداً توصية الرفاق بالهدوء، وإجبارهم على عدم مغادرة بيوتهم، واستعملت قدرتك في الأخير للحفاظ على النظام. والآن، ها أنت تريد أن ترمي بهم في الوحل!».

فـي كل واحـدة مـن غدواتـه وروحاتـه بيـن المقاعـد، كان إتيـان يرجـع نحـو صاحـب الحانـة، يمسـك بـه مـن كتفيـه، يهـزه، وهـو يصيـح فـي وجهـه بأجوبتـه.

«لكن، يـا للعجـب، يـا إلهـي! أود حقـاً أن أهـدأ. أجـل، لقـد فرضـتُ عليهـم الانضبـاط! أجـل، لا أزال أنصحهـم بـألّا يتحركـوا! لكـن، لا يجـب أن يُهـزأ بنـا، فـي النهايـة! أنـت مسـرور برباطـة جأشـك. أمـا أنـا، هنـاك سـاعات أشـعر فيهـا بـأن عقلـي يغيـب عنـي».

كان ذلـك اعترافـاً، مـن جانبـه. كان يسـخر مـن أوهامـه، أوهـام المبتدئ، مـن أحلامـه الدينيـة بمدينـة سـوف يسـود فيهـا العـدل عمـا قريـب، بيـن بنـي البشـر وقـد صـاروا إخوانـاً. وسـيلة صائبـة حقـاً، شبكُ الذراعيـن والانتظـار، إذا أردنـا أن نـرى البشـر يلتهمـون بعضهـم حتـى نهايـة العالـم، مثـل الذئـاب! كلا! يجـب التدخـل فـي ذلـك، وإلا فـإن الظلـم سـيظل أبديـاً، وسـوف يمـص الأغنيـاء دومـاً دمـاء الفقـراء. لذلـك لـن يغفـر لنفسـه حماقـة قولـه فـي مـا مضـى أنـه ينبغـي طـرد السياسـة مـن المسـألة الاجتماعيـة. لـم يكـن يعـرف شـيئاً حينـذاك، ومـذ ذاك، قـرأ، ودرس. الآن، نضجـت أفـكاره، وكان يفخـر بـأن عنـده منظومـة. ومـع ذلـك، كان يفسـرها علـى نحـو سـيّئ، بعبـارات يحتفـظ غموضهـا بقليـل مـن كل النظريـات التـي عبرهـا وهجرهـا علـى التوالـي. وفـي القمـة، ظلـت قائمـة فكـرة كارل ماركـس: الرأسـمال حصيلـة السلـب، ومـن واجـب العمـل ومـن حقـه اسـتعادة تلـك الثـروة المنهوبـة. عمليـاً، مـالَ أول الأمـر مـع **پـرودون**، إلـى وهـم القـرض التعاضـدي، بنـك تبـادل واسـع، يحـذف الوسـطاء؛ ثـم مجتمعـات **لاصـال** التشـاركية، تسـتفيد مـن منـح الدولـة، محوِّلـة شـيئاً فشـيئاً

الأرض إلى مدينة صناعية واحدة، كل تلك الأفكار شغفته، إلى اليوم الذي نفر منها، أمام صعوبة المراقبة؛ وقد وصل منذ مدة قليلة إلى النزعة الجماعية، ويتطلب أن تعاد جميع وسائل العمل إلى الجماعة. لكن ذلك ظلّ ملتبساً، لم يكن يجد السبيل لتحقيق ذلك الحلم، يمنعه في ذلك أيضاً تحرّج حساسيته وعقله، حيث لا يجسر على المجازفة بأقوال المتعصبين المطلقة. وقد وصل به المطاف بكل بساطة إلى القول بأن الأمر يتعلق بالاستحواذ على الحكم، قبل أي شيء. بعد ذلك، لكل مقام مقال.

«لكن ما الذي حلَّ بك؟ لماذا انتقلت إلى البرجوازيين؟»، تابع بحدّة، وهو يرجع ليثبت أمام صاحب الحانة، «أنت بنفسك، كنت تقول ذلك: يجب وضع حدّ لذلك!».

احمرّ وجه راسنور قليلاً، «نعم، قلتُ ذلك. وإذا انفجر الوضع، سوف ترى أني لست أكثر جبناً من غيري. أنا فحسب، أرفض أن أكون مع الذين يزيدون الطين بلّة، للظفر بموقع من المواقع».

بدوره، سرت حُمرة في وجه إتيان. لم يعُد الرجلان إلى الصراخ، وقد صار كل منهما فظاً كريهاً، وقد عمّهما صدود تزاحمهما. وكان ذلك، في الأصل ما يزعج المنظومات، إذ يرمي بالواحد في الغلو الثوري، ويُدفع الثاني نحو الميل إلى الحيطة، ويحملهما رغماً عنهما أبعد من أفكارهما الصادقة، في حتمية تلك الأدوار التي يختارها المرء بذاته. وسوفارين، الذي كان ينصت إليهما، أظهر على وجهه، وجه الفتاة الشقراء، ازدراء صامتاً، الازدراء الساحق للرجل المستعد لبذل نفسه، على نحو غامض، دون أن يظفر من ذلك ببريق الشهيد.

«إذن، لأجلي تقول هذا؟»، سأله إتيان، «أنت حاسد؟».

«حاسد ممّ؟»، أجاب راسنور، «لا أتظاهر بأني رجل عظيم، لا أسعى لإنشاء فرع في مونسو، كيما أصير كاتبه».

أراد الآخر قطع الكلام عليه، لكنه أضاف:

«هيا، كن صريحاً! أنت لا تهتم بالأممية، تتحرّق فحسب لتكون رأساً علينا، للظهور بمظهر السيّد من خلال مراسلة المجلس الفدرالي لجهة الشمال المشهور!».

ساد صمتٌ. أردف إتيان، مرتعداً:

«طيب. كنت أظن أن ليس هناك ما يعاب عليّ. كنت أستشيرك دوماً، لأني كنت أعلم أنك ناضلت هنا، مدة طويلة قبلي. لكن بما أنك لا تقبل أحداً إلى جانبك، فمن الآن فصاعداً، سأتصرف وحدي. وبداية، أخبرك أن الاجتماع سوف يعقد، حتى وإن لم يحضر پلوشار، وأن الرفاق سينخرطون رغما عنك».

«أوه! الانخراط»، همهم الحانيّ، «لم يحدث ذلك. يجب جعلهم يؤدون المساهمة».

«بتاتاً. تمنح الأممية وقتاً للعمال في حال إضراب. سوف نؤدي لاحقاً، وهي من سوف يأتي في الحال لنجدتنا».

جراء ذلك، استشاط راسنور غضباً.

«وعليه! سوف نرى. سأحضر اجتماعك، وسوف أتكلم. لن أدعك تخلب عقول الأصدقاء، سوف أبيّن لهم مصالحهم الحقيقية. وسنعرف من الذي سيتبعونه، أنا الذي يعرفونه منذ ثلاثين عام، أو أنت، الذي قلب كل شيء عندنا، في أقل من عام. كلّا! كلّا! أغرب عن وجهي! الآن، سنرى من فينا يسحق الثاني!».

ثـم خـرج وهـو يصفـق البـاب. ارتعـدت الأشـرطة فـي السـقف، واصطدمـت الشـعارات المذهبـة بالحائـط. ثـم عـمّ القاعـة الكبيـرة سـلامها الثقيـل.

كان سـوفارين يدخـن بمظهـره الوديـع، وهـو جالـس عنـد الطاولـة. بعدمـا تمشـى لحظـة فـي صمـت، أراح إتيـان طويـلاً. هـل كانـت تلـك غلطتـه، إذا تـمّ تسـليط ذلـك الكسـول البديـن عليـه؟ وكان يدفـع عنـه تهمـة السـعي وراء الصّيـت، لـم يكـن يعـرف كيـف تـمّ ذلـك، الصداقـة المتينـة فـي المجمّـع، ثقـة العمـال، سـلطته عليهـم، فـي تلـك السـاعة. كان غاضبـاً مـن اتهامـه بأنـه يريـد أن يوصـل الأمـور إلـى الفوضـى بسـبب طموحـه، وراح يخبـط صـدره، محتجـاً بمشـاعره الأخويـة.

بغتة، وقف قبالة سوفارين، وصاح:

«لـو كنـت أعلـم أنـي أكلّـف قطـرة دم واحـدة مـن صديـق، لرحلـت فـي الحـال إلـى أمريـكا!».

هزّ عامل الآلة كتفيه، ومن جديد علت بسمة خفيفة شفتيه.

«أوه! الدم»، همهم، «وما جدوى ذلك؟ الأرض في حاجة إليه».

لمـا هـدأ إتيـان، أخـذ كرسـياً ثـم وضـع مرفقيـه علـى الطـرف الثانـي مـن الطاولـة. ذلـك الوجـه الأشـقر، ذو العينيـن الحالمتيـن اللتيـن تتوحشـان أحيانـاً بضيـاء أحمـر، كان يحيّـره، يطبـع إرادتـه بأثـر غريـب. ودون أن يتكلـم الرفيـق، وقـد اكتسـحه ذلـك الصمـت، شـعر بأنـه مفتتـن شـيئاً فشـيئاً.

«مـاذا كنـت صانعـاً لـو كنـتَ فـي مكانـي، هيـا؟»، سـأله، «ألسـتُ علـى صـواب فـي إرادة فعـل شـيء مـا؟ الأفضـل، أليـس كذلـك؟ هـو أن ننضـم لتلـك الجمعيـة».

بعد أن نفخ ببطء خيط دخان، أجابه سوفارين بكلمته المفضّلة:

«أجل، حماقات! لكن في انتظار ذلك، الأمر هو ذاك دوماً، ثم، أُميّتهم سوف تنطلق عمّا قريب. إنه يهتم بذلك؟».

«من يا ترى؟».

«هو!».

نطق تلك الكلمة همساً، وقد علته مسحة حماسة دينية، وهو يرمي بنظره جهة الشرق. كان يتحدث عن المعلم، عن **باكونين** المحطِّم.

«وحده من يستطيع أن يهدّ البنيان»، تابع قائلاً، «بينما علماؤك هم جبناء، هم وتطورهم. قبل انصرام ثلاثة أعوام، ينبغي للأممية، تحت إمرته، أن تسحق العالم القديم».

كان إتيان ينصت بانتباه شديد. يتحرق للتعلم، لفهم شعيرة التدمير تلك، التي لم يكن عامل الآلة يلفظ بخصوصها سوى كلمات قليلة وغامضة، وكأنه يحتفظ لنفسه بالأسرار.

«لكن فسّر لي، هيا. ما هو هدفكم؟».

«تدمير كل شيء. لا أوطان بعد، ولا حكومات، لا مِلكية، ولا إله ولا شعيرة».

«أدرك جيداً. لكن إلام سوف يقودكم ذلك؟».

«إلى الشِركة البدائية والتي لا شكل لها، إلى عالم جديد، إلى إعادة بدء كل شيء».

«وماذا عن وسائل التنفيذ؟ كيف تنوي فعل ذلك؟».

«بالنار، بالسّم، بالسكين. قاطِع الطريق هو البطل الحقيقي، المنتقِم الشعبي، الثوري الفاعل، بدون جمل مأخوذة من الكتب.

يجب أن ترهب سلسلة من الاغتيالات المرعبة الأقوياء وتوقظ الشعب».

وهو يتكلم، كان سوفارين يصير رهيباً. حال من الوجد يهزه من على كرسيّه، شعلة زهد تخرج من عينيه الشاحبتين، ويداه الرقيقتان، تمسكان حافة الطاولة وتكادان أن تكسراها. كان الثاني ينظر إليه وقد استبد به الخوف، ويتخيل القصص التي تُلقى عنها بوحاً ملتبساً، ألغام تحت قصر القيصر، رؤساء شرطة قتلوا بطعنات سكين مثل الخنازير، عشيقته، المرأة الوحيدة التي أحبّها، تمّ شنقها في موسكو، ذات صباح ممطر، بينما كان وسط الحشد، يُقبّلها بعينيه للمرة الأخيرة.

«كلّا! كلّا!»، همهم إتيان، بإيماءة أزاحت تلك المشاهد البشعة، «لم نصل بعد إلى هذا الحد، عندنا. الاغتيال، الحرق، قطا! هذا فظيع، هذا ظلم، سوف يهبّ كل الرفاق لخنق المذنب».

ثم، لا يزال لم يفهم، عرقه يرفض الحلم القاتم بنسف العالم، الذي يُستأصل مثل حقل ذرة. وبعد ذلك، ماذا سيفعل الناس، كيف ستنمو الشعوب؟ كان يطلب جواباً.

«قل لي برنامجك. نريد أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون؟».

حينذاك، ختم سوفارين بهدوء، بنظرته الغارقة التائهة:

«كل الاستدلالات حول المستقبل مجرمة، لأنها تمنع التدمير الخالص، وتعيق مسيرة الثورة».

جعل ذلك إتيان يضحك، رغم البرودة التي لفح بها الجواب بشرته. فضلاً عن ذلك، كان يقرّ عن طيب خاطر أن هناك شيئاً من الصواب في تلك الأفكار، التي كانت بساطتها المخيفة تجذبه

إليها. لكن سوف يصب ذلك في مصلحة راسنور، إذا تمّ إخبار الرفاق بمثلها. يتطلب الأمر أن يكون المرء عملياً.

عرضت عليهما الأرملة **ديزير** تناول الغذاء. وافقا، وانتقلا إلى قاعة الحانة، التي كان ستارٌ متحرك يفصلها عن المرقص، خلال الأسبوع. حينما فرغا من أكل عجة البيض والجبن، أراد عامل الآلة الانصراف، فيما كان الثاني يحثّه على البقاء:

«وما الفائدة من ذلك؟ لأسمعك تتلفظ بالحماقات التي لا جدوى لها! لقد شهدت ما فيه الكفاية. عِم مساء!».

وانصرف بمظهره الوديع والمعاند، وبين شفتيه سيجارة.

كانت حيرة إتيان تزداد. الساعة الواحدة، بكل تأكيد لقد أخلَفَ بلوشار الوعد الذي قطعه معه. حوالي الساعة الواحدة ونصف، بدأ المنتدبون في الظهور ولزمه أن يستقبلهم لأنه كان يريد الحرص على الداخلين، مخافة أن ترسل الشركة وُشاتها المعتادين. كان يفحص كل رسالة دعوة على حدة، ويتوضح الناس؛ الكثير منهم كان يدخل دون رسالة، يكفي أنه كان يعرفهم كي يُفتح لهم الباب. ولما دقت الساعة الثانية، رأى راسنور قادماً، أكمل غليونه أمام المعرض، وهو يتحدث دون عجلة. ذلك الهدوء المستهزئ زاد من إثارة أعصابه لا سيّما أن بعض محبي المقالب جاؤوا فحسب للضحك، **زكاري**، **موكي** وآخرون أيضا: هؤلاء لا يهتمون بالإضراب، كانوا يجدون من المضحك ألا يصنع المرء شيئاً؛ وبعد جلوسهم إلى طاولة، ينفقون آخر فلس لديهم في شرب كأس، كانوا يقهقهون، يتحامقون على الرفاق، المقتنعين، الذين سوف يكفون عنهم ألسنة الإزعاج.

مرّ ربع ساعة ثان. نفد الصبر في القاعة. لمّا يئس إتيان لم يجد بداً من العزم وحسم أمره بالدخول، حينما صاحت الأرملة ديزير التي كانت تطل بعنقها إلى الخارج:

«ها هو، الرجل الذي تنتظره!».

كان پلوشار، بالفعل، قادماً في عربة يجرها حصان ينهج. في الحال، قفز على الصيف، كان نحيفاً، مزهواً بحسنه، رأسه عريض وضخم بإفراط، وفي معطفه الطويل من المخمل الأسود يخفي زينة عامل ميسور يوم أحد. منذ خمسة أعوام، لم يعُد يستعمل المبرد، وكان يعتني بصحته، وعلى الأخص يمشط شعره بعناية، مغتراً بنجاحاته في منصة الخطابة، لكنه حافظ على تصلب أطرافه، وأظفار يديه العريضتين لم تعد تنمو، بعدما أكلها الحديد. نشطاً جداً، كان يخدم طموحه، وذلك بالتطواف في الإقليم بلا هوادة، حتى ينشر أفكاره.

«آه! اصفح عني!»، قال مستبقاً الأسئلة والمعاتبة، «أمس، محاضرة في **پرويي**، صباحاً، اجتماع في **ڤالونساي** مساء. اليوم، غداء في مارشيين، مع **سوڤانيا**. وفي نهاية المطاف، استطعت ركوب عربة. أنا منهك، إنك تسمع صوتي. لكن، لا بأس، سوف أتكلم رغم كل حال».

كان عند عتبة بونجوايوه حينما عدل عن رأيه.

«أواه! والبطاقات التي نسيتها! سوف يسُرّ حالنا الناظرين!».

رجع إلى العربة التي كان الحوذي يركنها بعيداً، ثم جذب من صندوق العربة علبة صغيرة من الخشب الأسود وتأبّطها.

كان إتيان، وضّاحاً، يمشي في ظله، بينما لم يجرؤ راسنور على مدّ يده إليه، من ذهوله. وكان الثاني يشد عليها مسبقاً،

وقال بالكاد كلمة سريعة عن الرسالة: يا لها من فكرة مضحكة؟ لماذا لا يتم هذا الاجتماع؟ يلزم دوماً عقد اجتماع كلما وسعنا ذلك. عرضت عليه الأرملة **ديزير** شرب شيء، لكنه رفض. لا حاجة لذلك! كان يتكلم من دون أن يشرب. فحسب، هو على عجلة من أمره، لأنه في المساء عليه الذهاب حتى جوازيل، حيث يريد الاتفاق مع **لوغوجوه**. دخل الجميع دفعة واحدة إلى قاعة الرقص. **ماهو** ولوفاك اللذان تأخرا في الوصول، تبعا هؤلاء الرجال. وأُغلِق الباب بالمفتاح، حتى يكون المرء كأنه في بيته، مما جعل الفتيان المهرجين يقهقهون عالياً، وصاح زكاري نحو **موكي** بأن من المرجح أنهم سوف يطيحون بصبيّ هناك، جميعهم.

ما يقارب من مائة عامل منجم كانوا ينتظرون على المقاعد، في جو القاعة المغلق، حيث الروائح الحارة لآخر حفلة رقص كانت تصعد من البلاط الخشبي. سرت وشوشات، واستدارت رؤوس، بينما الوافدون الجدد كانوا يجلسون بالأماكن الفارغة. كانت العيون تنظر إلى السيد القادم من لِيل، لأن المعطف الأسود الطويل كان يثير الاستغراب والحرج.

لكن، باستعجال، بعد مقترح من إتيان، تمّ تشكيل المكتب. كان يطلق أسماء، والآخرون يوافقون برفع اليد. تمت تسمية پلوشار رئيساً وتعيين **ماهو** وإتيان نفسه معاونَين. تململت الكراسي، وأقيم المكتب؛ وبُحث لحظة عن الرئيس الذي اختفى خلف الطاولة، حيث دسّ تحتها العلبة، التي لم يفلتها من يده. حينما ظهر مرة ثانية، خبط الطاولة بخفة مطالباً بالانتباه؛ ثم بدأ بصوت مبحوح: «أيها المواطنون...».

فُتِح باب صغير، ولزمه أن يقطع كلامه. كانت تلك الأرملة ديزير التي بعد أن لفّت من المطبخ، أحضرت ستة كؤوس في صينية.

تناولها ماهو من عندها وأمكن بلوشار من متابعة كلامه. قال إنه متأثر جداً بحفاوة استقبال شغيلة مونسو له، واعتذر عن تأخره، متحدثاً عن تعبه ووجع حلقه. ثم ترك الكلام للمواطن راسنور، الذي كان يطلبه.

أصلاً كان راسنور قد وقف جانب الطاولة، قرب الكؤوس. كرسي مقلوب يصلح منصة له. بدا متأثراً جداً، سعل ثم رمى بملء صوته:

«أيها الرفاق...».

كان تأثيره على عمال الحُفَر يكمن في سهولة كلامه، دماثته التي بفضلها يستطيع أن يكلمهم لساعات، دون أن يعيا أبداً. لم يكن يجازف بأدنى حركة، يظل رزيناً وباسماً، كان يغرقهم، حتى يكاد يغشى عليهم، إلى أن يصيح الجميع: «أجل، أجل، ذلك صحيح، أنت محق!». لكن ذلك اليوم، من الكلمات الأولى، شعر بمعارضة مكتومة. لذلك كان يتقدم بحذر، لم يكن يتحدث سوى عن استمرار الإضراب، كان يتوقع أن يُصفّق له، قبل التصدي للأممية. صحيح أن الشرف يمنع من الإذعان لمطالب الشركة؛ لكن، كم من المآسي! يا له من مستقبل رهيب إذا وجب الإصرار لمدة أطول! ودون إبداء الرأي في الاستسلام، كان يثني من العزائم، ويشير إلى المجمّعات التي تموت جوعاً، كان يسأل عن المصادر التي يعول عليها أنصار المقاومة. ثلاثة أو أربعة

رفاق سعوا إلى موافقته، مما زاد من برود صمت العدد الأكبر، والاعتراض الساخط شيئاً فشيئاً الذي كان يستقبل كلماته. حينما يئس من كسبهم مرة ثانية إلى جانبه، غلبه الغضب، وتوقع لهم المآسي، إن هم استسلموا لمن يلعب بعقولهم عبر استفزازات قادمة من الغرباء. نهض ثلثا مَن في القاعة، ساخطين عليه، وأرادوا منعه من قول المزيد، بما أنه كان يشتمهم، ويعاملهم مثل أطفال لا قدرة لهم على التصرف. أما هو، الذي كان يشرب الجعة تباعاً، فقد كان يتكلم رغم ذلك وسط الضجيج، يصيح بشدة، بأنه لم يولد بعدُ، طبعاً، الشخص الذي سيمنعه من القيام بواجبه!

كان پلوشار واقفاً. وبما أنه لم يكن لديه جرس، كان يخبط الطاولة بقبضته.

«يا مواطنين... يا مواطنين...».

وفي نهاية الأمر، حصل على بعض الهدوء، وبعد استشارة الجمع، سُحِبت الكلمة من راسنور. كان المنتدبون الذين مثّلوا الحُفر في اللقاء مع المدير، يقودون الآخرين، وقد اشتد سعارهم جميعاً من شدة الجوع، واعتملت بداخلهم الأفكار الجديدة. كان ذلك التصويت محسوماً، مسبقاً.

«أنت لا تهتم، أنت! تأكل!»، صرخ لوفاك، وهو يُظهِر قبضته لراسنور.

انحنى إتيان، خلف ظهر الرئيس، حتى يهدّئ من روع **ماهو**، الذي كان وجهه محمراً جداً، وقد امتلأ غيظاً من ذلك الخطاب المنافق.

«أيها المواطنون»، قال پلوشار، «اسمحوا لي أن أتناول الكلمة».

عمّ صمت بالغ. كان صوته يخرج، به وجع وجُشّة؛ لكنه كان قد تعود على ذلك، دائماً في سباق، يحمل حلقومه مع برنامجه. شيئاً فشيئاً، كان يضخمه ويجني من ذلك ما يثير الشفقة. مسدياً ذراعيه، يرافق جمله الطويلة بتمايل كتفيه، كانت له فصاحة مستمدّة من الوعظ، على الطريقة الدينية التي تهمل نهاية الجُمَل وينتهي المطاف بنخيرها الرتيب إلى إقناع السامع.

أقام خطابه حول عظمة ومحاسن الأممية، الخطاب الذي كان يلقيه أولاً في النواحي التي ابتدأ منها. فسَّرَ الغاية منها، تحرير الشغيلة؛ وأظهرَ بنيتها الفخمة، في الأسفل هناك البلدة، أعلى منها، الإقليم ثم الوطن، وفي القمة، الإنسانية. كانت ذراعاه تتحركان ببطء، تُراكمان الطوابق، تنصبان كاتدرائية العالم المقبل الشاسعة. ثم، عرّج على الإدارة الداخلية: قرأ قوانينها، تحدث عن المؤتمرات، أشار إلى أهمية المُنجَز المتزايدة، توسيع البرنامج، الذي منطلقاً من نقاش الأجور، كان يتصدى الآن إلى التصفية الاجتماعية، لإنهاء نظام الأجر. حيث لا قوميات، عمال العالم بأسره تجمعهم حاجة مشتركة إلى العدالة، إذ يكنسون العفن البرجوازي، ويشيّدون في الأخير المجتمع الحر، حيث من لا يعمل لا يجني ثماراً! كان يصخب، ونفَسه يُفرّق أزاهير الورق المصبوغ، تحت السقف المدخن الذي يُرجّع انخفاضه دويّ صوته.

حرّكت موجة الرؤوس. صاح بعضهم:

«هذا هو! نحن مع ذلك!».

وكان هو يتابع. غزو العالم ثلاثة أعوام من ذي قبل. وكان يعدد الشعوب التي غزيت. من كل الجهات كانت تتهاطل طلبات

الانخـراط. لـم يسـبق لديـن ناشـئ أن جمـع ذلـك القـدر مـن الأتبـاع. ثـم، حينمـا نصيـر الأسـياد، سـوف نملـي القوانيـن علـى أربـاب العمـل، وسـوف تحكـم القبضـة علـى حلقهـم، بدورهـم.

«أجل! أجل! هم الذين سوف ينزلون!».

دعاهـم للصمـت، بحركـة. الآن، كان يطـرق مسـألة الإضرابـات. مـن حيث المبدأ، إنـه معتـرض عليهـا، لأنهـا وسـيلة بطيئـة جـداً، تزيد مـن حـدة معانـاة العامـل. لكـن، فـي انتظـار الأفضـل، حينمـا يصبـح لا محيـد عنهـا، وجـب العمـل بهـا، لأن لهـا ميـزة تشـتيت الرأسـمال. وفـي هـذه الحـال، كان يظهـر الأممية كأنهـا قـدر المضربيـن، ويذكـر أمثلـة: فـي باريـس، أثنـاء إضـراب عمـال النحـاس، وافـق أربـاب العمـل علـى كل المطالـب دفعـة واحـدة، بعدمـا دبّ فيهـم الرعـب مـن أن الأمميـة كانـت ترسـل المعونـات؛ فـي لنـدن، أنقـذَت عمـال منجـم للفحـم الحجـري، بإعـادة موكـب مـن البلجيكييـن إلـى بلادهـم علـى نفقتهـا، كان قـد دعاهـم مالـك المنجـم. كان يكفـي أن ينخـرط العمـال كـي ترتعـد الشـركات، ويدخـل العمـال فـي جيـش الشـغيلة العظيـم، وهـم عازميـن علـى المـوت مـن أجـل بعضهـم البعـض، بـدل أن يظلـوا عبيـداً للمجتمـع الرأسـمالي.

قطعـت كلامـه تصفيقـات. كان يمسـح جبينـه بمنديلـه، رافضـاً كأسـاً مدّهـا لـه **ماهـو**. وعندمـا أراد اسـتئناف كلامـه، قطعتـه التصفيقـات مـن جديـد.

«يكفـي!»، قـال بسـرعة لإتيـان، «لقـد حصلـوا علـى مـا يكفـي. بسـرعة! البطاقـات!».

غمـس رأسـه تحـت الطاولـة، وظهـر مـن جديـد ومعـه العلبـة الصغيـرة ذات الخشـب الأسـود.

«أيها المواطنون»، صاح، وقد غلب الضجيج، «ها هي بطاقات الأعضاء. فليقترب المنتدبون عنكم، سوف أسلمها إليهم، ويوزعونها. في ما بعد، نسوّي كل شيء».

اندفع راسنور، احتج مرة ثانية. من جانبه، كان إتيان يتململ، لأن عليه إلقاء خطاب. تبع ذلك لغط شديد. كان لوفاك يلوّح بقبضتيه، وكأنه يريد عراكاً. واقفاً، كان إتيان يتكلم، ولم يستطع أحد أن يميّز كلمة مما يقول. في ازدياد ذلك الضجيج، كان يتصاعد غبار من البلاط الخشبي، الغبار الطائر لحفلات الرقص السابقة، يسمّم الهواء برائحة عرق عاملات النقل والصبيان المتعلمين الشديدة.

بغتة، فُتح الباب الصغير، وملأته الأرملة ديزير بكرشها وصدرها، وهي تقول بصوت كالرعد:

«اسكتوا، بحق الرب! هنا رجال الدرك!».

كان ذاك عميد المقاطعة الذي وصل متأخراً بعض الشيء، كي يحرر محضراً ويحلّ الاجتماع. كان يرافقه أربعة من عناصر الدرك. منذ دقيقة والأرملة تسلّيهم في الباب، مجيبة أنها كانت في محلها، وأن من حقها جمع أصدقاء. لكن تمّ دفعها، وهرعت لإنذار أولادها.

«يجب الهرب من هنا»، قالت من جديد، «هناك دركي قذر يحرس الفناء. لا بأس في ذلك، إن رُكن الحطب عندي يطل على الزقاق. هيا، أسرعوا!».

أصلاً، كان العميد يخبط بقبضتيه؛ وبما أن الباب لم يُفتح، كان يتوعد بتحطيمه. لا بد أن واشياً تكلّم، لأنه كان يصيح بأن

الاجتماع غير قانوني، وعدد كبير من عمال المناجم موجودون هناك دون رسالة دعوة.

في القاعة، زادت الضجة. لا يمكن الهروب على ذلك النحو، لم يصوتوا بعد، لا من أجل الانخراط ولا من أجل استمرار الإضراب. وأصر الجميع على الكلام في آن واحد. وفي نهاية المطاف، عنّت للرئيس فكرة التصويت بالتزكية. ارتفعت أذرع، وأعلن المنتدبون بعجلة أنهم ينخرطون باسم الرفاق الغائبين. وهكذا صار عمال الفحم العشرة آلاف بمونسو أعضاء في الأُممية.

وفي تلك الأثناء، بدأ الكرّ والفرّ. وحتى تحمي الانسحاب، ذهبت الأرملة ديزير لصدّ الباب الذي كانت أعقاب بنادق الدرك تهزّه في ظهرها. كان العمال يتخطون المقاعد، ويهربون تباعاً عبر المطبخ وركن الحطب. اختفى راسنور من الأوائل، وتبعه لوفاك، وقد نسي شتائمه، حالماً بأن يجعله يقدم له كأساً حتى يستعيد مزاجه. بعد أن استولى إتيان على العلبة، ظلّ ينتظر رفقة پلوشار وماهو، اللذين تمسكا بشرف أن يكونا آخر الخارجين. وبينما هم منصرفون، كسر القفل، فوجد العميد نفسه بحضرة الأرملة، التي كان صدرها وكرشها يمنعان الدخول بعدُ.

«هل ينفعكم في شيء ذي بال، أن تكسروا كل شيء في محلي!»، قالت، «ترون ملياً أن لا أحد هنا؟».

قام العميد، وهو رجل بطيء، تُتعبه المآسي، بأن توعدها فحسب بأن يقودها إلى الحبس. ثم انصرف لتحرير محضره. أعاد رجال دركه الأربعة، في ظلّ قهقهات زكاري وموكي اللذين كانا لا يلقيان بالاً للقوة المسلّحة، نظراً لدعابة الرفاق الجيدة.

في الخارج، بالزقاق، وقد ضيّقت عليه العلبة، ركض إتيان، وتبعه الآخران. خطر پيرون بباله بغتة، وسأل لماذا لم يروه؛ وأجاب **ماهو**، وهو يجري، بأنه كان مريضاً: مرض لطيف، الخوف من أن يعرّض نفسه للخطر. أرادا أن يُبقى پلوشار، لكنه، ومن دون أن يتوقف، قال إنه منطلق في الحال إلى جوازيل، حيث كان لوغوجوه ينتظر أوامره. وعليه، تمنيا له، وهما يصيحان، رحلة موفقة. لم يبطئ أحد الجري، الأقدام في الريح، الجميع يعدو خلال مونسو. تمّ تبادل كلمات، يقطعها لهاث الصدور. كان إتيان وماهو يضحكان من شدة الثقة، متأكدان من النصر منذ ذلك الحين؛ حينما ستبعث الأُممية العون، فإن الشركة هي من سوف يتوسل إليهم بالعودة إلى الشغل. وفي اندفاع الرجاء ذاك، في عدو تلك النعال الغليظة التي ترنّ على رصيف الطرقات، كان هناك شيء آخر، شيء معتم وعنيد، عنف سوف تشعل الريح حُمّاه في المجمّعات، بجهات البلد الأربع.

V

مـرت خمسـة عشـر يومـاً أخـرى. تزامـن ذلـك مـع أولـى أيـام شـهر ينايـر، وضبـاب بـارد أصـاب السـهل الشـاسـع بالفتـور. وزادت حـدة البـؤس، وكانـت المجمّعـات تحتضـر سـاعة بعـد سـاعة، بفعـل المجاعـة المتعاظمـة. أربعـة آلاف فرنـك، أرسـلتها الأُمميـة مـن لنـدن، لـم تكـفِّ لثلاثـة أيـام مـن الخبـز. ثـم لـم يصـل شـيء. ذلـك الأمـل الكبيـر الميـت حطـم العزائـم. علـى مـن المعـوَّل الآن، بمـا أن الإخـوان أنفسـهم تخلّـوا عنهـم؟ كانـوا يشـعرون بالضيـاع وسـط الشـتاء العاتـي، معزوليـن عـن العالـم.

يـوم الثلاثـاء لـم يعُـد هنـاك أي مـورد، فـي مجمَّـع 240. لـم يّدخـر إتيـان جهـداً مـع المنتدبيـن: فُتحـت اكتتابـات جديـدة، فـي المـدن المجـاورة، وحتـى فـي باريـس؛ بُذلـت مسـاعٍ، نُظِّمـت محاضـرات. لـم تـؤتِ تلـك الجهـود أدنـى ثمـار، الـرأي العـام، الـذي تأثـر أول الأمـر، أصبـح غيـر مبـال، منـذ أن تأبَّـد الإضـراب، الهـادئ جـداً، الـذي لـم ترافقـه مـآسٍ شـديدة. بالـكاد بعـض الصدقـات الهزيلـة كانـت كافيـة لدعـم الأُسـر الأشـد عـوزاً. أمـا الآخـرون فقـد كانـوا يسـدون الرمـق برهـن ملابسـهم، وبيـع متـاع البيـت غرضـاً بعـد غـرض، كل شـيء كان يمضـي عنـد باعـة الخـردوات، صـوف الأفرشـة، أوانـي الطبـخ، بـل وقطـع الأثـاث. ظـن النـاس لحظـة أنهـم وجـدوا خلاصهـم، لأن باعـة التقسـيط فـي مونسـو، الذيـن كان **ميغـرا** قـد قضـى عليهـم، قدمـوا سـلفات، سـعياً منهـم لاسـترداد الزبائـن منـه؛ وخـلال أسـبوع، **فيردونـك** البقّـال وصاحبـا المخبزيـن **كارويـل** و**سـميلتن**، أبقيـا

المحل مفتوحاً، لكن نفدت تسبيقاتهم، وتوقفوا ثلاثتهم. فرح لذلك منفّذو الأحكام، ولن يحصل من ذلك سوى تكاثر الديون، التي ستثقل كاهل عمال المناجم لأمد طويل. لا سلف في أي مكان كان، ولا قِدر بالياً للبيع، يمكن للمرء أن يضطجع في ركن ويموت مثل كلاب أصابها الجرب.

تمنى إتيان لو أنه باع لحمه. تخلى عن رواتبه، وذهب إلى مارشيين حيث رهن معطفه الطويل من المخمل، وهو مسرور لإبقاء قِدر آل **ماهو** يغلي فوق النار. احتفظ بالحذاء ذي العنق الطويل، أبقاه حتى تظل قدماه صلبتين، كما يقول. لقد تمثل الإحباط عنده في أن الإضراب تمّ في غير أوانه على نحو مبكر، حينما لم يكن لصندوق الادخار ما يكفي من الوقت كي يمتلئ. وكان يرى في ذلك السبب الوحيد للمصيبة، لأن العمال كانوا سينتصرون بكل تأكيد على أرباب العمل في اليوم الذي يجدون في صندوق الادخار المال اللازم للمقاومة. وتذكر أقوال سوفارين، التي تتهم الشركة بالدفع نحو الإضراب، بغية تبديد أموال الصندوق الأولى.

منظر المجمّع وهؤلاء الناس المساكين بلا رغيف ولا نار، منظر قلَب كيانه. لذا كان يفضل الخروج، كي يتعب نفسه بالنزهات البعيدة. ذات مساء، بينما هو راجع ويمر بمحاذاة ريكيار، رأى، في قارعة الطريق، عجوزاً مغشيّ عليها. لا شك أنها كانت تموت من الامتناع عن الأكل؛ وبعد أن أنهضها، شرع ينادي على فتاة رآها على الجانب الثاني من السياج.

«هاك! هذه أنت»، قال وقد تعرّف **موكيت**، «ساعديني إذن، يجب أن نجعلها تشرب شيئاً».

بسرعة دخلت **موكيت**، مشفقة باكية، دخلت بسرعة إلى مسكنٍ، في الكوخ المهتز الذي اتخذه والدها وسط أنقاض. خرجت من هناك في الحال مع قليل من الماحيا والخبز. أحيا المشروب العجوز التي، من غير أن تتكلم، عضّت الخبز، بنهم. هي أم عامل منجم، تقطن أحد المجمّعات، ناحية **كوني**، وقد سقطت هناك، لما كانت عائدة من **جوازيل**، حيث سعت دون طائل إلى اقتراض عشرة فلوس من أخت لها. لما أكلت، انصرفت، وهي سادرة.

ظل إتيان في حقل ريكيار الخلاء الذي كانت سقائفه المهدّمة تختفي تحت العلّيق.

«وعليه! ألا تدخل قصد شرب كأس صغيرة؟»، سألته موكيت بسرور.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولمّا كان متردداً، قالت:

«إذن، أنتَ تخافني دائماً؟».

تبعها وقد غلبته ضحكتها. ذلك الخبز الذي منحته بكل طيبة جعله يرقُّ لها. لم ترد استقباله في حجرة الأب، أخذته إلى غرفتها هي، حيث سكبت في الحال كأسين من الماحيا. كانت تلك الغرفة نظيفة جداً، فأثنى عليها. ثم كان يبدو أن لا شيء ينقص الأُسرة: إذ يتابع الأب عمله سائساً، في لوفوروه؛ أما هي، وحتى لا تظل مكتوفة اليدين، فقد عملت غسالة مما كان يعود عليها بثلاثين فلساً في اليوم. ومهما مازحت الرجال، فإنها ليست كسولة مع ذلك.

«قل؟»، همست فجأة، وقد دنت وأمسكته بلطف من خصره، «لماذا لا تريد أن تحبني؟».

لم يستطع منع نفسه من الضحك، هو كذلك، من شدة ما لفظَت ذلك بظُرف.

«لكن، إني أعزك»، أجابها.

«لا، لا، مثلما أريد. تعلّم أني أموت من شدة الرغبة في ذلك. قل؟ سوف يسعدني ذلك كثيراً».

كان ذلك صحيحاً، لقد كانت تطلب منه ذلك ستة أشهر من قبل. كان يراها دوماً، ملتصقة به، تعانقه بذراعيها المرتعشتين، ووجهها مرفوع بتضرع حبّ شديد حيث كان يؤثر فيه ذلك كثيراً. وجهها السمين المدوّر كان خالياً من كل حُسن، بسحنته المصفرّة، الذي أكله الفحم؛ لكن عينيها كانتا تشعّان بريقاً، كان يخرج من بشرتها سحر، رعدة اشتهاء، تجعلانها بلون الورد، وفي سن الفتوة. ولذلك، أمام تلك الهبة المتواضعة والملتهبة لكل ذلك القدر، لم يجرؤ على الرفض.

«أوه! تريد حقاً»، تمتمت وهي مسرورة، «أوه! تريد حقاً!».

ثم منحت نفسها على نحو أخرق وبإغماءة عذراء، كما لو أنها كانت المرة الأولى، وكما لو لم يسبق لها قط أن عرفت رجلاً. وبعدما فارقها، كانت هي من فاض بمشاعر الامتنان: كانت تقول له شكراً، وتقبّل يديه.

ظل إتيان خجلاً من ذلك الحظ الجميل. لم يكن أحد يفخر بالحصول على موكيت. وهو ينصرف، أقسم على ألّا يعيد الكرة أبداً. واحتفظ لها رغم ذلك بذكرى مودة، كانت فتاة ذات شهامة.

حينما رجع إلى المجمّع، جعلته أمور خطرة ينسى المغامرة. كانت الألسن تجري بخبر مفاده أن الشركة قد تقبل على الأرجح

بتـازل، إذا سـعى المنتدبـون إلـى خطـوة جديـدة لـدى المديـر. علـى الأقـل، قـام بعـض رؤسـاء العمـال بنشـر ذلـك الخبـر. والحقيقـة أن المنجـم كان يعانـي أسـوأ مـن العمّـال، فـي الصـراع القائـم. ومـن الجانبيـن، كان العنـاد يراكـم الخـراب: بينمـا كان العامـل يهلـك مـن الجـوع، كان الرأسـمال يتدمّـر. كل يـوم عطالـة يبـدد مئـات آلاف الفرنـكات. كل آلـة متوقفـة هـي آلـة ميتـة. الأدوات والآليـات تفسـد، والمـال الجامـد يـذوب، مثـل مـاء شـربه الرمـل. منـذ أن صـار مخـزون الفحـم القليـل ينفـد فـي سـاحة الحفـر، كان الزبائـن يتحدثـون عـن التوجّـه إلـى بلجيـكا؛ وفـي ذلـك تهديـد بالنسـبة للمسـتقبل. لكـن الذي كان يخيـف الشـركة أكثـر، مـا كانـت تخفيـه بعنايـة، هـي الخسـائر المتزايـدة فـي السـراديب والمقالـع. لـم يكـن عـدد رؤسـاء العمـل كافيـاً للإصـلاح، والخشـب ينكسـر مـن كل جهـة، وتقـع انهيـارات كل سـاعة. وفـي الحيـن، صـارت المصائـب بالكثـرة التـي تتطلـب شـهوراً طويلـة لإصلاحهـا، قبـل التمكـن مـن اسـتئناف الاسـتخراج. كانـت أخبـار تـروج مسـبقاً فـي البلـدة: فـي كريڤكـور، انهـارت ثلاثمائـة متـر مـن المسـالك دفعـة واحـدة، وأُغلـق المنفـذ إلـى عِـرق سـانكيوم؛ فـي مادليـن، كان عِـرق موغريتـو يتفتـت ويغـرق فـي المـاء. ورفضـت الإدارة الإقـرار بذلـك، حينمـا وقـع، بغتـة، حادثـان، واحـد تلـو الثانـي، وأجبراهـا علـى الاعتـراف بالأمـر. ذات صبـاح، علـى مقربـة مـن پيوليـن، هـوت التربـة فـوق السـرداب الشـمالي لميـرو، المنهـار مـن قبـل يـوم؛ وفـي اليـوم التالـي، هـزّ انهيـار داخلـي فـي لوفـوروه ركنـاً كامـلاً مـن البلـدة، إذ كاد منـزلان أن يختفيـا.

تـردّد إتيـان والمنتدبـون فـي الإقـدام علـى خطـوة دون معرفـة نوايـا الوكالـة. وتجنـب دانسـير الـذي سـألوه الجـواب: المؤكـد، هنـاك

تأسف لسوء الفهم، وسوف يتم فعل كل ما في الوسع قصد الوصول إلى تفاهم؛ لكنه لم يكن يُفصل في الأمر. وانتهى بهم المطاف إلى العزم على الذهاب عند السيد إينبو، حتى يكون الحق من جانبهم؛ لأنهم لا يريدون أن يتم اتهامهم لاحقاً بأنهم لم يفسحوا للشركة فرصة الإقرار بأغلاطها. إلا أنهم أقسموا على ألّا يتنازلوا عن أي شيء، والتمسك رغم كل حال بشروطهم، التي كانت صائبة، وحدها.

تم اللقاء صباح الثلاثاء، اليوم الذي هوى فيه المجمّع في البؤس الأشد. كان أقل وداً من الأول. تحدث **ماهو** مرة ثانية، شرح بأن الرفاق أرسلوهم للسؤال عمّا إذا كان عند أولئك السادة جديد. في البدء، تظاهر السيد بأنه مستغرب: لم يصله أي أمر، والأحوال لا يمكنها أن تتغير، ما دام عمال المناجم يصرّون على تمردهم المقيت؛ وكان لذلك التصلب السلطوي أثر مغضب إلى حدّ أن المنتدبين، إذا كانوا قد أتوا يقصدون المصالحة، فإن الطريقة التي استُقبِلوا بها كانت كافية لجعلهم يصرّون زيادة. بعد ذلك سعى المدير حقاً للبحث عن أرضية تنازلات متبادلة: هكذا، ليقبل العمال أجر تمتين الدعائم على حدة، بينما ترفع الشركة ذلك الأجر بسنتيمين التي تُتهم باستغلالها. ثم أضاف بأنه يتحمل مسؤولية العرض بنفسه، وأن لا شيء تمّ الحسم فيه بعد، وبأنه يفخر رغم ذلك بالحصول على ذلك التنازل في باريس. لكن المنتدبين رفضوا وكرروا مطالبهم: الحفاظ على النظام السابق، مع رفع كل عربة بخمس سنتيمات. حينذاك، أقر بأنه يستطيع التصدي للأمر في الحال، وألحّ عليهم بالقبول، باسم

نسائهم وأطفالهم الذين يموتون جوعاً. مهطعين، والرأس متشدد، قالوا «لا»، لا دائماً، بنفضة أشد. وتفرّق الجمع بفظاظة. كان السيد إينبو يصفق الأبواب، بينما إتيان ومن معه ينصرفون وهم يخبطون بأعقابهم الغليظة على الرصيف، وقد استبد بهم الغيظ المكتوم للمنهزمين الذين تمّ استفزازهم.

حوالي الساعة الثانية، سعت نساء المجمّع، من جهتهن، بخطوة تجاه ميغرا. لم يبق لديهن سوى ذلك الأمل، ثنيُ ذلك الرجل، انتزاع أسبوع سلف جديد منه. تلك فكرة **ماهود** التي كانت تفرط كثيراً في التعويل على طيبة الناس. وجعلت **برولي** **ولوفاكه** برفقتها؛ أما **پييرونه**، فقد اعتذرت، وأخبرتهن بأنها لا تستطيع ترك **پييرون**، الذي لم يجد داؤه دواء بعد. والتحقت نساء أُخريات بالعصبة، وكن قرابة عشرين واحدة. حينما شهد برجوازيو مونسو وصولهن، وهن يملأن عرض الطريق، عابسات بائسات، حركوا رؤوسهم من الحيرة. أُغلِقت أبواب، وأخفت سيدة أوانيها الفضية. لأول مرة يتم لقاؤهن على تلك الحال، وتلك أمارة شؤم لا مثيل لها: جرت العادة أن كل شيء يتخرب حينما تسير النساء على ذلك النحو في الطرقات. عند ميغرا، وقع حادث عنيف. أول الأمر، أدخلهن، وهو يقهقه، ويتظاهرُ بأنه يصدق أنهن أتين لأداء الديون: ذلك، لطف منهن إذ اتفقن على إحضار المال دفعة واحدة. ثم، ما أن بادرت ماهود بالكلام، حتى تصنّع الغضب. هل يسخرن من الناس؟ سلف مرة أخرى، مرادهن إذن أن تفلس تجارته؟ كلا، ولا حبة بطاطس واحدة، ولا كِسرة خبز واحدة! وطردهن إلى البقال **ڤيردونك** وصاحبا المخبزين **كارويل**

وسميلتن بما أنهن يتزودن من عندهم الآن. كانت النساء ينصتن إليه وقد اعتراهن تواضع مشوب بالخوف، معتذرات، مترصدات أي أثر لرقة قلب في عينيه. عاد لقول المزح، مانحاً متجره للسيدة **برولي**، إن هي اتخذته عشيقاً. استحوذ عليهن مثل ذلك اللؤم حتى ضحكن جميعاً وزادت لوفاكه عن ذلك إذ قالت إنها تريد حقاً. لكن صار في الحال فظاً، ودفعهن نحو الباب. وبما أنهن أصررن متوسلات، عنّف إحداهن. وقامت الأخريات على الرصيف بنعته بالخائن، بينما **ماهود**، رافعة ذراعيها في الهواء وقد غلبها التذمر المنتقم، داعية عليه بالموت لأن رجلاً مثله لا يستحق أن يعيش.

كانت العودة إلى المجمّع كئيبة. حين رجعت النساء صفر اليدين، نظر الرجال إليهن، ثم أطرقوا. قضي الأمر، سوف يكتمل اليوم بدون ملعقة حساء؛ وامتدت الأيام الأخرى في ظلّ من صقيع، حيث لا بارقة أمل. لقد شاؤوا ذلك، ولا أحد يتحدث عن الاستسلام. هذا البؤس المفرط كان يزيد من عنادهم، خُرس، مثل وحوش مطارَدة، عازمة على الموت في جوف جحورها، بدل الخروج منها. من كان ليجسر على المبادرة إلى الاستسلام؟ لقد أقسموا مع الرفاق على الصبر جميعاً، وسوف يصبرون مثلما يصبرون في الحفرة حينما يكون هناك منهم واحد تحت الردم. كان لا بد من ذلك، لأنهم هناك في مدرسة جيدة للقدرة على الإذعان؛ يستطيع المرء أن يشد على بطنه ثمانية أيام، لأنه يبلع النار والماء منذ كان في سنّ الثانية عشر من عمره، وهكذا كان إخلاصهم يتقوى باعتزاز الجنود، رجال فخورون بحرفتهم، وفي صراعهم اليومي مع الموت غنموا نخوة التضحية.

في بيت آل **ماهو**، كانت الأمسية فظيعة. الجميع يلزم الصمت، جالسين قبالة النار المحتضرة، حيث يصعد دخان آخر جمرة ملتهبة. بعدما أُفرغت الفرش، قبضة بعد قبضة، وتقرر في اليوم الأسبق بيع ساعة الوقواق بثلاثة فرنكات؛ وبدت الحجرة عارية ميتة، منذ لم تعد التكتكة المألوفة تملؤها بصوتها. الآن، وسط الصوان، لم يبق من بذخ سوى علبة الورق المقوّى الوردية، وهي هدية قديمة من **ماهو**، كانت تتعلق بها **ماهود** وكأنها حلية. بعد التخلي عن الكرسيين المتينين، كان الأب بونمور والأطفال يجلسون في ضيق على مقعد قديم علته الطحالب، أُدخِل من الحديقة. وبدا الغروب الشاحب النازل وكأنه يزيد من حدة البرد.

«ماذا نفعل؟»، كرّرت ماهود، وهي قابعة عند زاوية الموقد.

كان إتيان، الواقف، ينظر إلى صورتَي الإمبراطور والإمبراطورة الملصقتين في الحائط. كان سينتزعهما منذ مدة لولا الأُسرة التي كانت تحرم ذلك، بسبب الزينة. لذلك، غمغم، وأسنانه مصرورة:

«ونحن لا نحصل على فلسين من هذين اللذين ينظران إلينا ونحن نهلك، اللذين لا ذمة ولا همة لهما!».

«ماذا لو حملتُ العلبة؟»، أردفت المرأة وهي شاحبة تماماً، بعد تردد.

انتصب **ماهو**، الجالس عند حافة الطاولة، ساقاه خائرتان ورأسه على صدره.

«كلا، لا أريد!».

بمشقة، نهضت **ماهود** ودارت في الحجرة. هل كان يا ربّ ذلك ممكناً، أن يصل بهم المطاف إلى البؤس! لا كسرة خبز في

الصوان، لا شيء للبيع، ولا حتى فكرة للحصول على خبز! والنار التي سوف تهمد! واستشاطت غضباً في وجه **ألزير** التي أرسلتها في الصباح لجمع الجمر الملتهب من فوق الردم، والتي عادت صفر اليدين قائلة إن الشركة تمنع اللّقط. وما دخل الشركة، وكأننا نسرق أحداً، في جمع بقايا الفحم التي لا نفع لها! يائسة، كانت الصغيرة تحكي أن رجلاً هدّد بلطمها؛ ثم وعدت بالرجوع إلى هناك في اليوم التالي، ولو تعرضت للضرب.

«وذلك الوغد جونلان؟»، صاحت أمه، «أين هو، أسألكم؟ كان عليه أن يأتي بالخضرة: لكنا أكلناها مثلما تأكل البهائم، على الأقل! لا أدري ماذا يصنع، لكن الملعون الجاهل يبدو دائماً ببطن ملآن».

«المرجّح»، قال إتيان، «أنه يجمع فلوساً من الطريق».

وبفِعل ذلك، لوَّحت بقبضتيها، وقد ركبت هواها.

«لو أني كنت أعلم ذلك! أولادي يتسوّلون! أفضّل قتلهم وقتل نفسي بعد ذلك».

من جديد، تهاوى **ماهو**، عند حافة الطاولة. لينور وهنري، مستغربان من أنّ لا طعام هناك يؤكل، شرعا في الأنين؛ بينما العجوز بونمور، صامت، يلوك لسانه في فمه كما يفعل فيلسوف، كيما يخدع جوعه. لم يتكلم أحد بعدُ، الجميع غاب في خدَرٍ بفعل ازدياد أوجاعهم، الجدُّ يسعل، يبصق سواداً، وقد عادت إليه أوجاع المفاصل التي غدت داء استسقاء، الأب مصاب بضيق التنفس، الركبتان منتفختان بالماء، الأم والصغار يأكلهم فقر الدم وراثة. لا شك في أن عملهم هو ما سبّب ذلك؛ ولا يشكو الناس

إلا حينما يهلكهم نقص الطعام؛ والناس تسقط أصلاً مثل الذباب، في المجمّع. ومع ذلك، يجب إيجاد ما يحتسونه. ماذا نفعل، أين نذهب، يا رب؟

وعليه، في الغروب الذي كان حزنه الكئيب يظلم الحجرة أكثر فأكثر، قرّ عزم إتيان، الذي كان يتردد منذ لحظة، وقلبه موجوع.

«مهلاً»، قال، «سوف أذهب لأتدبر في مكان ما».

ثم خرج. خطرت بباله فكرة **موكيت**. لا بد أن لديها خبزاً وستعطيه عن طيب خاطر. كان لا يعجبه، أن يُجبر بذلك النحو على العودة إلى ريكيار: ستُقبِّل تلك الفتاة يديه، وهي تبدو عليها أمارة الخادمة المغرمة؛ لكن لا يمكن التخلي عن أصدقائه في الشدة، سوف يكون لطيفاً معها مرة ثانية، إذا وجب الأمر.

«أنا أيضاً، سأذهب لتدبر الأمر»، قالت ماهود بدورها، «من الحماقة جداً ألا نفعل شيئاً».

فتحَت الباب خلف الشاب وصفقَته بعنفه، تاركة الآخرين، بلا حركة، خُرس، وسط الضوء الخافت لذبالة شمعة أوقدتها للتو. في الخارج، أوقفها خاطر. ثم دخلت عند آل لوفاك.

«هيا قولي، لقد أعرتك خبزاً، ذلك اليوم. لو أرجعته لي».

لكنها توقفت عن الكلام، ما كانت تراه لا يشجع بتاتاً، وفي البيت ريح البؤس أشد من بيتها.

كانت لوفاكه تنظر إلى النار الهامدة وعيناها شاخصتان بينما لوفاك، الذي أسكره صانعو المسامير، ينام ومعدته خاوية على الطاولة. مُسنداً ظهره إلى الحائط، كان **بوتلو** يحك كتفيه بلا إرادة، كمن اعترته حيرة عفريت خالص، أُكِلَت مدخراته، والذي يستغرب من أن عليه شد بطنه.

«خبز، آه! يا عزيزتي»، أجابت لوفاكه، «وأنا التي كنت أطمع في أن أستعير منكِ خبزاً غيره!».

ولما كان زوجها يزمجر من الوجع في نومه، فقد سحقت وجهه على الطاولة.

«أسكت يا خنزير! أحسن إذا كان ذلك يحرق مصارينك! بدل أن تجد من يتفضّل عليك بالشراب، ألم يكن من الأفضل أن تطلب عشرين فلساً من صديق؟».

وتابعت، لاعنة، مريحة نفسها، وسط قذارة الأواني، المهجورة منذ أمد بعيد أصلاً، حيث أن رائحة لا تطاق كانت تفوح من البلاط. في وسع أي شيء أن ينكسر، لم تعد تلقي بالاً لذلك! ابنها، بيبير ذلك الصعلوك، اختفى بدوره منذ الصباح، وكانت تصيح أنه إذا لم يرجع قط، فإن ذلك سوف يكون أفضل خلاص منه. ثم قالت إنها ذاهبة للنوم. سوف تحس بالحرارة على الأقل. دفعت بوتلو.

«هيا بنا، انهض! فلنصعد. كبَت النار، لا حاجة إلى إيقاد الشمعة كيما ترى الصحون الفارغة. هل أنت قادم، يا لويس، في نهاية الأمر؟ قلت لك إننا سوف ننام. نلتصق ببعض، ذلك يريح. وهذا السكير الملعون، فليهلك هنا من البرد وحده!».

حينما كانت في الخارج، اختصرت **ماهود** الطريق عبر الحدائق، كيما تذهب عند آل پييرون. كانت تُسمَع ضحكات. طرقت الباب، ثم عمَّ صمت مباغت. وتطلب الأمر دقيقة كاملة حتى فُتِح لها الباب.

«هاك! هذه أنت»، صاحت پييرونه متظاهرة بأنها مفاجأة شديدة، «ظننت أنه الطبيب».

ودون أن تفسح لها في الكلام، تابعت، وأشارت إلى پييرون، الجالس قبالة نار متقدة من كثرة الفحم.

«آه! إنه ليس على ما يرام، ليس على ما يرام دائماً. يبدو وجهه سليماً، لكن ذلك يعتمل في بطنه. ولذلك، يحتاج إلى الحرارة، إننا نحرق كل ما لدينا».

كان پييرون يبدو بالفعل في تمام عافيته، أزهر السحنة، بضّ الجلد. كان ينفخ بلا طائل كي يظهر بمظهر الرجل المريض. ثم، حينما دخلت ماهود، شمّت آنفاً رائحة أرنب قوية: من المؤكد أنهما نقلا الطبق. بقي فتات على المائدة؛ وفي وسطها بالتحديد، رأت زجاجة خمر منسية.

«لقد ذهبت أمي إلى مونسو سعياً منها للحصول على خبز»، أردفت پييرونه، «لقد سئمنا من انتظارها».

لكن صوتها انحبس، لقد تبعت نظرة الجارة، وحطّ نظرها بدورها على الزجاجة. في الحال، سكنت، وقصت الحكاية: أجل، إنه نبيذ، لقد أتى أصحاب پيولين بتلك الزجاجة لرجلي، الذي أوصى له الطبيب بشراب البوردو. ثم كانت تجزل الشكر لهما، يا لهما من برجوازيين ذوي شهامة! خاصة الآنسة، لا عجب فيها، تدخل بيوت العمال، وتوزع الصدقات بنفسها!

«أعلم ذلك»، قالت ماهود، «إني أعرفهم».

وكان قلبها يضيق عليها إذ ترى أن الخير يذهب دوماً إلى من هم أقل فقراً. لا يكفون عن الغلط أبداً، قد يحمل أصحاب پيولين الماء لصبه في النهر. لماذا لم ترهم في المجمّع؟ من المرجح أنها كانت ستستخلص منهم شيئاً على كل حال.

«لقد جئت»، أقرت في نهاية الأمر، «لمعرفة إن كان لديكم دسم أكثر مما لدينا. هل لديك فقط شيء من الشعيرية، من باب السلف؟».

تأسفت پيرونه بصخب.

«ولا شيء يا عزيزتي. ولا حبة سميد. إذا لم ترجع أمي، فذلك يعني أنها لم تفلح. سوف ننام دون عشاء».

في تلك اللحظة سُمع بكاء من القبو، ركبت هواها وخبطت الباب بقبضتها. إنها تلك التي لا تكف عن الجري، **ليدي**، لقد حبستها، قالت، عقاباً لها لأنها لم ترجع إلا في الساعة الخامسة، بعد نهار كامل من التسكع. لم يعُد في المستطاع ترويضها، إذ تختفي عن الأنظار باستمرار.

في تلك الأثناء، ظلت **ماهود** واقفة، دون الحسم في الانصراف. تلك النار المتقدة كانت تنفذ إليها براحة موجِعة، وحينما يخطر عليها أنهم يطعمون هنا فإن ذلك كان يزيد من فراغ معدتها. من البيّن أنهما طردا العجوز وحبسا الصغيرة، كيما يلتهما الأرنب. آه! مهما قال المرء، حينما يسوء سلوك امرأة، فذلك يجلب السعادة لبيتها!

«عمتما مساء»، قالت بغتة.

في الخارج، كان الليل قد حلّ، والقمر، خلف الغيوم، ينير الأرض بضياء غبش. وبدل عبور الحدائق مرة ثانية، قامت ماهود بالانعطاف عنها، آسفة، لا تجسر على العودة إلى البيت. لكن على امتداد الواجهات الهامدة، كل الأبواب كانت تفوح منها ريح المجاعة، خاوية تصفر. ما فائدة طرقها؟ لم يكن ثمة سوى البؤس

وصحبته. منذ أسابيع، لم يعُد الناس يُطعَمون، حتى رائحة البصل نفسها رحلت، تلك الرائحة الكريهة التي تخبر عن المجمّع من بعيد، في البرية؛ الآن، لم يعُد فيه سوى رائحة المدافن القديمة، رطوبة الحُفر حيث لا شيء يحيا. الأصوات الملتبسة تحتضر، دموع محبوسة، شتائم ضائعة، وفي الصمت الذي كان صقله يزداد شيئاً فشيئاً، يُسمَع مجيء نوم الجوع، انسحاق الأجساد المرمية على عرض الفرش، تحت كوابيس البطون الفارغة.

ولما كانت تمرّ قبالة الكنيسة، رأت طيفاً يسير مسرعاً. بارقة أمل جعلتها تسرع، لأنها تعرّفت كاهن مونسو، القس **جوار**، الذي كان يلقي موعظة قدّاس الأحد في مُصَلّى المجمّع: لا شك أنه كان خارجاً من المَوهِف، إذ ناداه واجب قضاء أمر من الأمور. ظهره مقوس، كان يهرول، بمظهره السمين والوديع، الراغب في العيش بسلام مع الجميع. إذا كان يقضي أغراضه بالليل، فلا بد من أن ذلك كي لا يتورط وسط العمال، ثم يقال إنه حصل على ترقية آنفاً. مع أنه تجول مسبقاً صحبة من سيعقبه، وهو قس هزيل، له عينا جمر أحمر متقد.

«سيدي الكاهن، سيدي الكاهن»، تمتمت ماهود.

لكنه لم يتوقف عن السير بتاتاً.

«مساء الخير، مساء الخير، سيدتي الفاضلة».

وجدت نفسها أمام بيتها. لم تعد ساقاها تحملاها، ثم دخلت.

لم يتحرك أحد. كان **ماهو** دوماً عند حافة الطاولة، محطَّماً. العجوز بونمور والصغار ازدحموا على المقعد، حتى لا يشعرون كثيراً بالبرد. ولم يتكلم أحد بكلمة، وحدها الشمعة احترقت،

وذابت بالقَدَر الذي لم يتبقّ لهم فيه حتى الضوء. التفت الأطفال مع صرير الباب، لكن لما رأوا أن الأم لم تحضر شيئاً، عادوا إلى النظر صوب الأرض، مبعدين رغبة عارمة في البكاء، مخافة أن يتم زجرهم. كانت **ماهود** قد تهالكت على مكانها، قرب النار الكابية. لم يسألها أحد البتة، واستمر الصمت. لقد فهم الجميع، ورأى ألّا فائدة من التعب زيادة في الكلام؛ وكان الآن انتظاراً معدماً، بلا عزيمة، آخر انتظار للنجدة التي قد ينبش عنها إتيان، على الأرجح من مكان ما. كانت الدقائق تنقضي، وانتهى بهم بالمطاف إلى عدم التعويل على ذلك.

لما برز إتيان، كان يحمل في خرقة ما يزيد عن عشر حبات بطاطس، مطبوخة وباردة.

«هذا كل ما وجدته»، قال.

عند موكيت، لم يكن هناك خبز أيضاً: ذلك عشاؤها الذي وضعته له بالقوة في خرقة، وهي تُقبّله بكل ما في قلبها من حب.

«شكراً»، أجابَ ماهود التي أعطته نصيبه، «لقد أكلتُ هناك».

لقد كذب، كان ينظر والغم يلوح منه إلى الأطفال وهم يرتمون على الطعام. كان الأب والأم، بدورهما يُقتّران في الأكل، حتى يتركا منه زيادة؛ لكن العجوز كان يبتلع كل شيء بنهم. وقد تطلب الأمر أن نزعت منه حبة بطاطس لأجل ألزير.

حينذاك قال إتيان وصلته أخبار. الشركة، ممتعضة من تعنّت المضربين، تفكر في إرجاع الرّخص إلى العمّال المتورطين. الظاهر أنها تريد الحرب. وهناك خبر أخطر تجري به الألسن،

إنها تفتخر بكونها أرغمت عدداً كبيراً من العمال على النزول من جديد: في اليوم التالي، لا محالة من أن لافيكتوار وفوتري كانتيل سيكونان بكامل العدد؛ بل هناك أيضاً في مادلين وميرو، ثلث الرجال. انزعج آل **ماهو**.

«يا اسم الرب!»، صاح الأب، «إذا كان هناك خونة، يجب تصفية الحساب معهم!».

ثم، وهو واقف، وقد غلبه الغضب من معاناته:

«إلى الغد مساء، في الغابة! بما أننا نُمنع من اللقاء في بونجوايوه، ففي الغابة سوف نكون في ديارنا».

تلك الصيحة أيقظت العجوز بونمور، الذي أصابه نهمه بالنعاس. كانت تلك صيحة الحشد القديمة، الموعد حيث كان عمال المناجم يجتمعون في ما مضى قصد تدبير مقاومتهم لجنود الملك.

«أجل، أجل، إلى ڤاندام! أنا معكم، إذا ذهب الناس إلى هناك!».

وبدرت من ماهود حركة نشطة.

«سوف نذهب جميعاً. سوف تنتهي كل أصناف الظلم تلك وكل تلك الخيانات».

وقرر إتيان أن الموعد سوف يُعطى لكل المجمّعات، لمساء اليوم التالي. لكن النار كانت قد همدت، مثلما في بيت لوڤاك، وبغتة انطفأت الشمعة. لم يعُد هناك فحم، ولا غاز، وجب الاضطجاع للنوم بتلمّس الطريق، في البرد الشديد الذي يقرص الجلد. كان الصغار يبكون.

VI

بعدما شُفي، صار جونلان يمشي الآن؛ لكن ساقيه جُبِّرتا على نحو سيّئ حيث يعرج باليمنى وباليسرى؛ وقد وجب مشاهدته وهو يسرع بمشي بطةٍ يجري أشد مما مضى، بمهارته، مهارة الوحش الخبيث والسارق.

ذلك المساء، عند المغيب، على طريق ريكيار، كان جونلان بالمرصاد رفقة مُلازِمَيه بيبير وليدي. اختبأ في أرض خلاء، خلف سياج، قبالة محل بقالة أُقيم على نحو أعوج عند زاوية الدرب. كانت سيدة عجوز، عمياء تقريباً، تعرض فيه ثلاثة أو أربعة أكياس من العدس والفاصوليا، مسودة بالغبار؛ وكان ثمة سمكة قدٍّ مجففة قديمة، معلقة إلى الباب، لوثّتها فضلات الذباب، كان يحضنها بعينيه الضيقتين. لقد سبق لمرتين أن بعث بيبير بغية نزعها. لكن، كل مرة، كان يظهر بعض الناس، عند منعطف الطريق. دائماً هناك مزعجون، لا يمكن للمرء قضاء مآربه!

برز رجل على حصان، وانبطح الأطفال عند قدم السياج، إذ تبيّنوا السيد إينبو. في معظم الوقت، كان يُرى على ذلك النحو في الطرقات، منذ الإضراب، متنقلاً لوحده وسط المجمّعات الهائجة، مظهراً شجاعة ساكنة للاطمئنان شخصياً على حال البلدة. ولم يسبق قطّ أن صفّر حجر بمحاذاة أذنيه، كان لا يصادف سوى رجالاً صامتين يبطئون في إلقاء التحية، وفي أغلب الأحيان يصادف عشّاقاً لا يأبهون بالسياسة ويحشون أنفسهم لذّة، في

الأركان. يسير بفرسه خبباً، رأسه مستقيم حتى لا يزعج أحداً، كان يمر بينما قلبه يمتلئ برغبة لم تُشبع، من خلال ذلك النهم، نهم الغراميات الطليقة. رمق الصبية تماماً، الصغيران والصغيرة، في كومة. حتى الصغار يستمتعون أصلا بحكِّ بؤسهم! اغرورقت عيناه، اختفى، متصلباً على سرجه، أزرار معطفه الطويل مغلقة وفق النمط العسكري.

«يا للحظ العاثر!»، قال جونلان، «لن ينتهي ذلك. هيّا، بيبير! اجذب الذيل!».

لكن مرة ثانية، وصل رجلان، وحبس الطفل شتيمة أخرى، حينما سمع صوت أخيه زكاري الذي كان يخبر **موكي** كيف وجد قطعة من أربعين فلساً، مخيطة في جُبّة زوجته. كانا يقهقهان معاً من شدة اليُسر، وهما يُربتان على كتف بعض. خطر ببال موكي إجراء مباراة كرة عصا كبيرة للغد التالي: سوف يذهبان على الساعة الثانية إلى لافانتاج، ويقصدان ناحية **مونتوار** قرب مارشيين. قبِل زكاري. ما الحاجة لإزعاجهم بالإضراب؟ فليمرح المرء ما دام لا يصنع شيئاً! ثم انعطفا عند زاوية الطريق، لمّا أوقفهما إتيان القادم من جهة القناة، وأخذ يتحدث.

«هل سوف ينامون هنا؟»، أردف جونلان منزعجاً، «ها قد حل الليل، العجوز تُدخِل أكياسها».

كان هناك عامل منجم آخر ينزل صوب ريكيار. ابتعد إتيان رفقته؛ ولمّا مرّا قبالة السياج، سمعهما الطفل يتحدثان عن الغابة: لقد لزم الأمر تأخير الموعد إلى الغد التالي، خشية من أن لا يمكن إخبار كل المجمّعات في يوم واحد.

«احزرا، هيا»، همس لرفيقيه، «العمل الكبير مقرر للغد. يجب أن نحضره. هه؟ سوف ننطلق بعد الظهر».

وأخيراً، كانت الطريق خاوية، أطلقَ بيبير.

«هيا! أجذب الذيل! خذ حذرك، العجوز عندها مكنسة».

من حسن الحظ، كان الليل يزداد ظلمة. بوثبة واحدة، تعلق بيبير بسمكة القدّ التي انقطع حبلها. ثم جرى وهو يلوح بها مثل طائرة من ورق، يتبعه الآخران، يركضون ثلاثتهم. وهي مستغربة، خرجت صاحبة البقالة من المحل، دون أن تدرك شيئاً، دون القدرة على تمييز ذلك القطيع الذي كان يغيب في الظلمات.

وانتهى الأمر بأن صار أولئك الأشقياء الأوغاد مصدر رعب في البلدة. اكتسحوها شيئاً فشيئاً، مثل الهمج. أولاً، اكتفوا بساحة لوفوروه، يتشقلبون في مخزون الفحم، الذي يخرجون منه أشبه بالسّود، ويلعبون الغميضة وسط مؤن الخشب، التي يضلون خلالها، كما لو في غابة عذراء. ثم، هجموا على الردم، إذ ينزلونه من مواضعه العارية، التي كانت تغلي بنيران في باطنها، يتزحلقون بين العلّيق في الأطراف القديمة، المستترة طول النهار، وهم مشغولون بألعاب خفية هادئة لفئران متشردة. وكانوا يوسّعون دوماً مساحة غزواتهم، إذ ينصرفون للعراك حتى تسيل دمائهم وسط ركام الآجِر، يركضون في الحقول وهم يأكلون بلا خبز كل الحشائش اللبنية، يفتشون ضفتي القناة بغية لقط أسماك الوحل ويأكلونها نيئة، بل يتوغلون أبعد من ذلك، ويقطعون كيلومترات حتى أشجار ڤاندام العالية، وفي ظلالها يملؤون بطونهم بتوت الأرض فصل الربيع، وبالبندق والعنب البرّي في الصيف. وسرعان ما أضحى السهل الشاسع في مِلكهم.

لكن ما كان يرمي بهم على ذلك النحو، من مونسو إلى مارشيين، دون توقف عبر الطرقات، بعيون ذئاب فتية، كان هو الحاجة المتعاظمة إلى السرقة. ظلّ جونلان هو قائد تلك الحملات، إذ يسلط الكتيبة على جميع الطرائد، فتُخرَّب حقول البصل، تُنهب المروج، يهجم على المعروضات. في البلدة، كانت أصابع الاتهام توجه إلى العمال المضربين، وكانت الألسن تجري بذكر عصابة كبيرة منظمة. ذات يوم، أكرَه **ليدي** على سرقة أمها، وجعلَها تحمل إليه ما يزيد على عشرين قطعة حلوى سكر نبات كانت پيرونه تحتفظ بها في زجاجة، على أحد رفوف نافذتها؛ ولم تعمد الصغيرة إلى فضحه رغم الضرب الشديد الذي أصابها، من شدة ما كانت ترتعد من سلطته. الأسوأ أنه كان يظفر لنفسه بحصة الأسد. كما كان على بيبير أن يسلمه الغنيمة، وهو فرح إذا لم يلطمه النقيب، ليحتفظ لنفسه بكل شيء.

من أمد قريب، بات جونلان يفرط. أصبح يضرب **ليدي** مثلما تُضرب زوجة شرعية، وكان ينتهز غباء بيبير لتوريطه في مغامرات لا تسر أحداً، وهو يتسلى بجعل ذلك الولد البدين يدور مثل حمار الناعورة، الأقوى منه، الذي كان في وسعه أن يصرعه بقبضته. كان يحتقرهما معاً، ويعاملهما معاملة العبيد، يخبرهما أن عشيقته أميرة، لا يجدر بهما أن يقابلانها. وبالفعل، من قبل ثمانية أيام، أصبح يختفي عن الأنظار بغتة، عند أقصى أحد الأزقة، بمنعطف درب، وفي أي مكان كان، بعد أن يأمرهما، بالعودة إلى المجمّع، وقد أكتسى حالاً رهيبة. في البدء، يستولي على الغنيمة.

وكان ذلك ما وقع، في ذلك المساء.

«هـات»، قـال وهـو ينتـزع سـمكة القُـدّ مـن يـدي رفيقـه، حينمـا توقفـوا ثلاثتهـم، عنـد منعطـف طريـق، قـرب ريكيـار.

احتج بيبير.

«تعرف، أريد نصيبي منها. أنا من أخذها».

«هـه، مـاذا؟»، صـاح، «سـوف تأخـذ منهـا، إن أعطيتك، وليس هـذا المسـاء، بالطبـع: غـداً، إذا بقـي منهـا شـيء». دفـع ليـدي، وأوقفهمـا معـاً علـى الخـط نفسـه، مثل جندييـن عنـد حمـل السـلاح. ثـم بعـد أن مـرّ مـن خلفهمـا قـال:

«الآن، سـوف تظـلان هنـا خمـس دقائـق، ولا تلتفتـا. وحـق الـرب! إذا التفتُّمـا، سـوف تفترسـكما الوحـوش. بعـد ذلـك ارجعـا مباشـرة، وإذا قـام بيبير بلمـس ليدي فـي الطريـق، سـأعلم ذلـك، وأصفعكمـا».

حينـذاك، غـاب فـي جـوف الظلمـة، بخفـة لا يُسـمع لهـا حتـى خفـق قدميـه العاريتيـن. ظـلّ الطفـلان بـلا حركـة مـدة الدقائـق الخمـس، دون أن ينظـرا إلـى خلـف، مخافـة تلقّـي لطمـة ممـا لا يُـرى. ببطء، نشـأت بينهمـا عاطفـة، فـي ذعرهمـا المشـترك. هـو، كان يحلـم دومـاً بالاسـتحواذ عليهـا، بحضنهـا بقـوة، مثلمـا يـرى الآخريـن يفعلـون؛ وكـم تمنّـت هـي الأخـرى ذلـك، لأن هـذا سـوف يغيرهـا، بـأن يلامسـها بلطـف. لكـن لا هـو ولا هـي كانـا يسـمحان بعصيـان الأمـر. حينمـا انصرفـا، رغـم أن الليـل كان غارقـاً فـي الظـلام، لـم يتبـادلا ولا قُبلـة، سـارا جنبـا إلـى جنـب، وقـد رقّ حالهمـا وعمّهـا اليـأس، وهمـا علـى يقيـن مـن أنـه إذا تلامسـا، فـإن النقيـب سـوف يصفعهمـا.

فـي تلـك السـاعة، كان إتيـان قـد عـاد مـن ريكيـار. فـي اليـوم السـابق، كانـت موكيت قـد توسـلت إليـه كـي يعـود، فعـاد، وهـو يشـعر

بالخزي من كونه يهفو، رغم رفضه الإقرار بذلك، إلى تلك الفتاة التي كانت تعبده مثل يسوع. ثم إنه كان يقصد القطع معها. سوف يلتقيها، ويشرح لها بأنه لا ينبغي لها أبداً أن تتبعه، بسبب الرفاق. فالوقت ليس للمسرة، ذلك أمر يفتقد الصدق، أن ينعم على ذلك النحو بالملذات، بينما الناس يهلكون جوعاً. وبما أنه لم يجدها بالبيت، قرر انتظارها، وكان يرصد الأطياف المارة.

تحت البرج المهدَّم، تنفتح البئر القديمة وهي نصف مسدودة. عارضة مستقيمة على أتمّها، حيث تستند قطعة من السقف، كان لها ظلّ مقصلة، فوق الحفرة المظلمة؛ وفي تحصينه المحطم، نمت شجرتان، غبيراء ودلب، اللتان بدتا وكأنهما طلعتا من جوف الأرض. كان ذلك الركن المهجور موحشاً، مدخلَ هاويةٍ معشبٍ ومشعّر، يضجّ بأخشاب بالية، نبتت فيه أشجار البرقوق الشائك والزعرور البري التي تملؤها الطيور المغرّدة بأعشاشها في الربيع. ولأن الشركة أرادت تجنب مصاريف الصيانة الباهظة، فإنها كانت تعتزم منذ عامين ردم تلك الحفرة الميتة؛ لكنها تنتظر إقامة مروحة في لوفوروه، لأن بؤرة التهوية في البئرين الموصولين كانت تقع أسفل ريكيار، حيث منفذ التصريف القديم بمثابة مدخنة. وقد جرى الاكتفاء بتقوية تبطين الطابق بوضع دعامات على عرضه، تحبس الاستخراج، وتم إهمال السراديب العليا، وحراسة سرداب الجوف الذي كان يتقد فيه مصهر الجحيم، مجمر الفحم العظيم، الذي من شدة قوة جذبه فإن جرف الهواء كان يجعل الريح تهب مثل العاصفة، من أقصى الحفرة المجاورة إلى أقصاها. ومن باب الحيطة، وحتى يمكن الاستمرار في الصعود والنزول، أُعطِيت

الأوامر لصيانة منفذ السلالم؛ لكن لم يشغل أحد نفسه بالأمر، فنخَرَت الرطوبة السلالم، وتحطمت أصلاً مدارج هبوط. في الأعلى كانت شجرة عليّق تحبس مدخل المنفذ؛ وبما أن السلم الأول كان قد فقد درجات، توجب للوصول إليه التعلّق بفرع من فروع الغبيراء، ثم الاستسلام للسقوط، حسب الحظ، في الظلام.

كان إتيان ينتظر، وهو مستتر في أجمة، حينما سمع من بين الأغصان، حفيفاً مديداً. ظنّ ذلك هروب أفعى مذعورة. لكن الوميض المباغت لعود ثقاب أدهشه، وظل مذهولاً حين تعرّف جونلان الذي كان يوقد شمعة ويغيب في التراب. استبد به حبّ استطلاع شديد فدنا من الحفرة: لقد اختفى الطفل، وكان وميض خافت يشع من الدرج الثاني. تردد لحظة، ثم استسلم متدحرجاً، وهو يتمسك بالجذور، وخطر بباله قفز الخمسمائة وخمسة وعشرين متراً التي هي عمق الحفرة، وانتهى به الأمر مع ذلك بلمس درجة. ثم نزل برفق، لا بد من أن جونلان لم يسمع شيئاً، وكان إتيان يرى دوماً، أسفله، الضوء يغوص، بينما ظِلّ الصغير، العملاق والمخيف، كان يتراقص وفق تململ ساقيه المعطوبتين. كان ينطّ بخفة قرد، يتعلّق بيديه وقدميه وذقنه حينما لا توجد هناك درجات. كانت السلالم من سبعة أمتار تتعاقب، بعضها متين لا يزال، أما الأخرى فكانت تهتز وتقعقع، أدنى من أن تنكسر؛ كانت المدارج الضيقة تنبسط، مخضرّة، من شدة نخرها، كأن المرء يمشي على الطحالب؛ وكلما نزل، كانت الحرارة تحبس الأنفاس، حرارة فرن، آتية من منفذ الجر، من حسن الحظ أنه لا يعمل إلا قليلاً منذ الإضراب، إذ وقت العمل، حينما يتلهم الموقد

خمسة آلاف كيلوغرام من الفحم يومياً، لا يمكن لأي كان المجازفة هناك، دون أن يحرق جلده.

«يا له من ضفدع، إلهي!»، كان إتيان يلعن، وقد اختنق، «أين يذهب، اللعنة؟».

مرتين، كاد أن ينقلب. كانت قدماه تزلقان على الخشب النّدي. لو كانت عنده شمعة مثل الطفل على الأقل؛ لكنه كان يرتطم في كل دقيقة، لم يكن له من دليل سوى الوميض الباهت، الهارب أسفله. كانت تلك هي الدرجة العشرين أصلاً، والنزول لا يزال مستمراً. لذلك قام بحساب عددها: إحدى وعشرون، اثنتان وعشرون، ثلاث وعشرون، وكان يتوغل، ويتوغل دوماً. كانت حرقة ملتهبة تنفخ رأسه، وكان يظن أنه سقط في أتون. وفي نهاية المطاف وصل إلى مرتبة، وأبصر الشمعة تعدو سريعاً في جوف سرداب. ثلاثون سلّماً، ذلك يساوي مائتين وعشرة أمتار تقريباً.

«هل سيجعلني أطوف طويلاً؟»، كان يعنّ له، «من المؤكد أنه يربض في الإسطبل».

لكن، يساراً، كان المسلك الذي يقود إلى الإسطبل مسدوداً بردم. وبدأ المسير من جديد، أشد عناء وأشد خطراً. خفافيش مذعورة ترفرف، وتلتصق بقبة المرتبة. ولزمه الإسراع حتى لا يغيب الضوء عن ناظره، وارتمى في السرداب نفسه؛ لكن حيث كان الطفل يمرّ بسهولة، بخفة ثعبان، فإنه لم يكن بمقدوره أن يندس دون خدش أطرافه. ذلك السرداب، مثل جميع المسالك القديمة، ضاقَ، ولا يزال يضيق كل يوم، بفعل تدافع الأراضي المستمر؛ وفي بعض المواضع، لم يعُد هناك سوى مِصران الذي

كان لا بدّ له من أن ينمحي بدوره. في عمل الخنق ذاك، كانت الأخشاب المتشظية، الممزقة، تصير خطراً، تهدد بقطع جسده، واختراقه أثناء ذلك بأطراف شظاياها، الحادة مثل سيوف. كان يتحوط في السير قدماً، على ركبتيه أو على بطنه، متلمّساً الظلمة أمامه. فجأة، داسته عصابة من الجرذان، ركضت من قفاه إلى قدميه، رِكضَ الهارب.

«اللعنة! هل وصلنا إلى النهاية؟»، زمجر، وقد أوجعه ظهره وانقطعت أنفاسه.

لقد وصلا. بعد كيلومتر واحد كان المصران يتسع، ليجد الواصل نفسه في قسم من المسلك ظلّ على حاله بشكل عجيب. كان ذاك جوف مسلك النقل القديم، المحفور أفقياً، مثل مغارة طبيعية. لزمه أن يتوقف، كان يرى من بعيد الطفل وقد وضع شمعته بين حجرين، ويستقر على نحوٍ وثير، وعليه أمارة السكينة والراحة، مثل رجل سعيد بالعودة إلى بيته. جهاز كامل بدّل هذا الطرف من السرداب إلى بيت وثير. على الأرض، في أحد الأركان، كومة تبن بمثابة فرش ليّن؛ فوق أخشاب قديمة، ثابتة على شكل طاولة، كان هناك من كل شيء صنف، خبز، بطاطس، لترات من الماحيا مشروب منها: مغارة لصوص حقيقية، غنيمة مجموعة أسابيع من ذي قبل، بل هناك من المغانم ما لا حاجة له، صابون ودهن التلميع، سُرِقا حباً في متعة السرقة. والصغير، وحده وسط تلك المسروقات، يستمتع بصفة قاطع الطريق المحب لنفسه وحده.

«هيه، هل تسخر من الناس؟»، صاح إتيان، بعدما استعاد

أنفاسـه قليـلاً، «تنـزل كـي ترفـل فـي النعيـم هنـا، بينمـا نهلـك مـن الجـوع فـوق؟».

كان جونـلان يرتعـد، مصروعـاً. لكـن بتعـرّف الرجـل الشّـاب، سـكن روعَه بسـرعة.

«هـل تريـد أن تتعشـى معـي؟»، قـال فـي نهاية الأمـر، «هـه؟ قطعـة قـدّ مشـوي؟ سـوف تـرى».

لـم يتـرك سـمكته، وأخـذ يقشّـر بدقـةٍ فضـلات الذبـاب، بسـكين جميـل جديـد، واحـد مـن تلـك السـكاكين - الخناجـر الصغيـرة ذات المقبـض المصنـوع مـن العظـم، والمنقـوش بشـعارات. وكان هـذا السـكين يحمـل كلمـة «حـب»، ببسـاطة.

«لديك سكين ظريف»، قال إتيان ملاحِظاً.

«إنـه هديـة مـن ليدي»، أجـاب جونـلان، الـذي أغفـل ذكـر أن ليدي سـرقته، بأمـر منـه، مـن بائـع الخـردوات فـي مونسـو، قبالـة حانـوت لاتيـت كوبـي.

ثم، لمّا كان يقشر دوماً، أضاف بحال من الفخر:

«المقـام طيـب فـي بيتـي، أليـس كذلـك؟ نشـعر بالـدفء أكثـر ممـا عليـه الحـال فـوق، والجـو يعبـق برائحـة أطيـب علـى نحـو ظريـف!».

كان إتيـان قـد جلس، وهـو يحـب أن يدفعـه للـكلام. لـم يعُـد يشـعر حيالـه بغضـب، بـل غمـره اهتمـام بذلـك الطفـل الوغـد، الشـهم والكادح بـكل ذلـك القـدر فـي مـا يقترفـه مـن رذائـل. وبالفعـل، كان يحـس براحـة بـال، فـي جـوف تلـك الحفـرة: لـم تعـد الحـرارة فيهـا شـديدة بإفـراط، حـرارة معتدلـة تعمّهـا خـارج المواسـم، لهـا دفء الحمَّـام، بينمـا ديسـمبر القـارس يدمـي علـى الأرض جلـد البؤسـاء. مـع القِـدم،

تتطهّر السراديب من الغازات الضارة، كل الغاز قد انصرف، ولم تعُد هنا سوى رائحة الأخشاب القديمة المختمرة، رائحة أثير لطيفة، وكأنها شُحذت بذرارة قرنفل. فضلاً عن ذلك صارت تلك الأخشاب تُسلّي بمظهرها، لها شحوب الرخام المصفرّ، في حواشيه خطوط رقيقة مائلة إلى البياض، ونباتات قشرية تبدو وكأنها مغلّفة بتوشية من الحرير واللؤلؤ. وبعض الأخشاب الأخرى تنفشّت بالفطر. وكانت تحلق هناك فراشات بيض، وذباب وعناكب الثلج، مجموعة زال لونها، لأنها لا تتعرض للشمس أبداً.

«إذن، لا تشعر بالخوف؟»، سأله إتيان.

نظر إليه جونلان بتعجب.

«ممّ الخوف؟ ما دمتُ وحدي».

تم تقشير سمكة القدّ في نهاية المطاف. أشعل ناراً من حطب قليل، بسط الجمر وشواها. ثم قطع رغيفاً إلى كسرتين. كان ذلك طعاماً شهياً، مالحاً بشدة، لذيذاً على كل حال بالنسبة لمعدتين متينتين.

كان إتيان قد قبِل نصيبه.

«لم أعد أستغرب، إذا كنت تسمن، بينما يصيبنا الهزال جميعاً. هل تعلم أن من العار أن تأكل حدّ التخمة! والآخرون، ألا تفكر فيهم؟».

«هاك! ولماذا الآخرون أغبياء بكل ذلك الإفراط؟».

«كما أنك محق حيث تختبئ، إذ لو علم والدك أنك تسرق، سوف يقضي عليك».

«مع هذا كما لو أن البرجوازيين لا يسرقوننا! أنت الذي يقول ذلك دوماً. حينما اختلستُ هذا الرغيف من ميغرا، فذلك بكل تأكيد خبز هو مدين لنا به».

سكت الرجل الشاب، فمه ملآن، وحيران. كان ينظر إليه بخطمه، وعينيه الخضراوين، وأذنيه الكبيرتين، في انحلاله كجهيض غامض الذكاء والذي له حِيل متوحش، ببطء عادت إليه البهيمية القديمة. المنجم الذي أنشأه، أكمل القضاء عليه آنفاً بكسر ساقيه.

«وليدي»، سأله إتيان مرة ثانية، «هل تأتي بها إلى هنا، أحياناً؟».

بدرت من جونلان ضحكة ازدراء.

«الصغيرة، آه! كلا! النساء ثرثارات».

واستمر في الضحك، وقد غمره ازدراء لا سعة له تجاه ليدي وبيبير. لم يسبق أن كان هناك أطفال بذلك القدر من البلاهة. إن فكرة كونهما يقبلان كل أكاذيبه وينصرفان صفر اليدين، بينما هو يأكل سمكة القدّ، في الدفء، كانت تدغدغ أضلاعه من الراحة. ثم ختم، بصرامة فيلسوف صغير:

«من الأفضل أن يكون المرء لوحده، فهو يكون دوماً على وفاق».

كان إتيان قد فرغ من أكل خبزه. شرب جرعة من الماحيا. للحظة، تساءل إذا لم يكن سوف يسيء الإقرار بكرم جونلان، إن أرجعه إلى فوق بشدِّهِ من أذنه، ومنعه من السرقة، متوعداً بقول كل شيء لأبيه. لكن، حينما تفحّص هذه الخلوة العميقة، اعتملت فيه فكرة: من يدري إن كان سوف يحتاج إليها، لأجل الرفاق أو لأجله، في حال تدهورت الأمور، فوق؟ جعل الطفل يقسم على ألّا يعود للنوم خارج البيت، مثلما يفعل أحياناً، عندما ينسى نفسه في فراشه التبن؛ وبعدما أخذ طرفاً من الشمعة، انصرف هو الأول، وتركه يرتب بهدوء بيته.

يئست **موكيت** من انتظاره وهي جالسة على عارضة، رغم البرد القارس. لمّا رأته، تعلّقت في عنقه، وكان الأمر كأنه طعن قلبها بسكين حينما أخبرها بعزمه على ألّا يراها من جديد. يا إلهي! لماذا؟ ألم تكن تحبه بما فيه الكفاية؟ ومخافة أن يستسلم هو نفسه إلى الرغبة في الدخول عندها، قادها نحو الطريق، شرح لها، بما أمكن من اللطف، بأنها تُعرّضه للخطر في نظر الرفاق، وبأنها تُعرّض القضية السياسية للخطر. تعجّبت. ما أثر ذلك في السياسة؟ في نهاية الأمر، جال بخاطرها أنه كان يخجل من كونه يعرفها؛ ثم إن ذلك لم يصبها في كبريائها، لأنه أمر طبيعي تماماً؛ وعرضت عليه أن تتلقّى لطمة منه أمام الناس، حتى يبدو عليهما حال الفراق. لكنه سوف يلتقيها، مرة واحدة فقط، بين فينة وأخرى. توسّلت إليه بجنون، كانت تقسم على أنها سوف تختبئ، ولن تبقيه معها لأكثر من خمس دقائق. أما هو، وقد تأثر كثيراً، كان يرفض. ذلك واجب. وعليه، وهو يفارقها، أراد أن يُقبّلها على الأقل. خطوة تلو خطوة، وصلا إلى بيوت مونسو الأولى، وكانا يمسكان بعضهما بملء أذرعهما، حينما مرت امرأة بالقرب منهما، في ظلّ القمر التام المدوّر، وقد فزعت بغتة، كما لو أنها عثرت في حجر.

«من تكون؟»، سألها إتيان حائراً.

«إنها كاترين»، أجابت موكيت، «إنها عائدة من جونبار».

كانت المرأة، منصرفة، الآن، مطأطئة الرأس، واهنة الساقين، ويبدو عليها الإعياء التام. وكان الرجل الشاب ينظر إليها، وقد انزعج من أنها رأته، وقلبه مفجوع بحسرة لا سبب لها. ألم تكن

بصحبة رجل؟ ألم تذقه العذاب نفسه، هنا، في درب ريكيار هذا، حينما منحت نفسها لذلك الرجل؟ لكن ذلك، رغم كل شيء، يؤسفه، لأنه عاملها بالمثل.

«تريد الصدق؟»، همست موكيت، حينما كانت منصرفة، «إذا كنت لا تريدني، فذلك لأنك تريد غيري».

في اليوم التالي، كان الطقس رائعاً، سماء صقيع صافية، يوم من أيام الشتاء الجميلة تلك، حيث يكون للأرض الصلبة رنين أشبه بالبلّور تحت الأقدام. منذ الساعة الواحدة، انصرف جونلان؛ لكن لزمه انتظار بيبير خلف الكنيسة، وكادا ينطلقان دون ليدي، التي حبستها أمها مرة أخرى في القبو. وقد أخرجاها آنفاً من هناك ثم حمّلا ذراعها بسلّة وأخبراها بأن عليها أن تعيدها وهي ملأى بالخسّ البري، وإلّا حبساها مع الجرذان الليل بأكمله. وهكذا، بعد أن استبدّ بها الهلع، أرادت أن تذهب في الحال إلى الخضرة. صرفها جونلان عن الأمر: سوف نرى لاحقاً. منذ أمد طويل، وپولونيا، أرنبة راسنور السمينة، تشغل باله. كان ماراً قبالة لاڤانتاج حينما خرجت الأرنبة إلى الطريق. وثب عليها وأمسكها من أذنيها بوثبة واحدة، حشاها في سلّة الفتاة الصغيرة، وركضوا ثلاثتهم. كانوا سوف يتسلون كثيراً، بجعلها تجري مثل كلب، حتى الغابة.

لكنهم توقفوا، بغية مشاهدة زكاري وموكي اللذين كانا بعد شرب كأس مع رفيقين اثنين آخرين، قد شرعا في مباراتهم الكبرى، لعبة كرة العصا. وكان الرهان على قبعة جديدة ووشاح أحمر، تُرِكا وديعة عند راسنور. قام اللاعبون الأربعة، اثنين

اثنين، بعقد صفقة حول الدور الأول، من لوفوروه إلى مزرعة بايو، ما يقرب ثلاثة كيلومترات؛ وفاز زكاري، وقد راهن بسبع ضربات، بينما موكي عرض ثماني. تمّ وضع الكرة، بيضة خشب البقس الصغيرة، على الرصيف، وطرفها الأقصى في الهواء. كان الجميع يمسك عصاه، مضرب الحديد المائل، له مقبض طويل يزينه حبل مشدود بقوة. كانت الساعة الثانية حينما انطلقوا. وعلى نحو رائع، قام زكاري، بالنسبة لضربته الأولى المؤلفة من مجموع ثلاث ضربات، برمي الكرة مسافة فاقت أربعمائة متر، خلال حقول الشمندر؛ لأنه كان يُمنع لعب كرة العصا في القرى وعلى الطرقات، حيث مات بعض الناس في السابق. وقام موكي، الصلب هو الآخر، بردٍّ الكرة بذراعه الخشنة حيث أن ضربته الوحيدة أعادتها بمائة وخمسين متر إلى الخلف. واستمر اللعب، فريق يرمي، وفريق يردّ، دائماً بوتيرة السباق، الأقدام مسلوخة بالأحجار المسننة الجامدة في أراضي الحرث.

في البدء، جرى جونلان وبيبير وليدي خلف اللاعبين، وقد تحمسّوا للضربات العظيمة. ومن جديد خطرت ببالهم پولونيا التي كانوا يهزونها في السلة؛ فتركوا اللعبة في الخلاء، وأخرجوا الأرنبة، يدفعهم حب الاستطلاع لمعرفة إن كانت سوف تعدو بسرعة. فرّت، فانطلقوا خلفها، وكانت مطاردة دامت ساعة، السيقان في الريح، تخللتها منحرفات متواصلة، وصرخات لإخافتها، وأذرع مفتوحة ومغلقة في الفراغ. ولولا أنها كانت في بداية حملها، لما استطاعوا اللحاق بها أبداً.

ولما كانوا يستعيدون أنفاسهم، التفتوا لسماع عبارات لعن.

لقد صادفوا من جديد لعبة كرة عصا، وكان ذاك زكاري الذي أوشك أن يشق رأسه أخيه. كان اللاعبون في دورتهم الرابعة: من مزرعة پايو، أسرعوا إلى **كاتشومان**، ثم من كاتشومان إلى **مونتوار**؛ والآن، يذهبون في غضون ست ضربات من مونتوار إلى **پريديڤاش**. مما يساوي فرسخين ونصف في ظرف ساعة واحدة؛ مع أنهم شربوا كؤوساً في حانوت **ڤانسون** وحانوت **ترواساج**. كانت الكرة هذه المرة في يد موكي. وتبقت له ضربتان، وكان النصر أكيداً، حينما قام زكاري، الذي كان له الحق في ذلك، وردّ الكرة مقهقهاً بمهارة عالية، إلى حدّ أن الكرة سقطت في حفرة عميقة. لم يستطع شريك موكي إخراجها من هناك، وكانت تلك مصيبة. كان الأربعة يصرخون جميعاً، وزاد حماس اللعبة جراء ذلك، لأنهم كانوا في تعادل، وتوجب البدء من جديد. من پريديڤاش إلى طرف **إيريروس** لم تكن المسافة تصل كيلومترين: في خمس ضربات. هناك، سوف ينتعشون عند **لرونار**.

لكن جونلان كانت لديه فكرة. تركهم ينصرفون، أخرج حبلاً من جيبه، ربطه بساق پولونيا، الساق الخلفية اليسرى. وكان ذلك مسلّياً جداً، كانت الأرنبة تركض أمام الأشقياء الثلاثة، تجرُّ فخذها، تتمايل على نحو مؤسف، مما جعلهم يضحكون بقدر لم يسبق لهم فعله. ثم ربطوها من العنق، حتى تعدو؛ وبما أنها تعبت، قاموا بجرها على بطنها، على ظهرها، عربة صغيرة حقيقية. دام ذلك أكثر من ساعة، كانت تئن، حينما أعادوها بسرعة إلى السلّة، إذ سمعوا قرب غابة **كريشو** لاعبي كرة العصا، وقد قطعوا لعبتهم مرة ثانية.

حالياً، كان زكاري، موكي والآخران، يبتلعون الكيلومترات، ولا وقت للراحة سوى وقت إفراغ بعض الكؤوس، في جميع الحانات التي كانوا يحددونها سلفاً. من **إيربروس**، سارعوا إلى **بوشي**، ثم إلى **لاكروادوپيير**، وإلى **شامبلي**. كانت الأرض تطنُّ تحت أقدامهم في كرّ وفرّ، راكضين دون كلل خلف الكرة، التي كانت ترتد فوق الثلج: كان طقساً جميلاً، لم تكن الأرجل تغوص، كان هناك فحسب خطر أن يكسر المرء ساقيه. في الهواء الجاف، كانت ضربات العصا القوية تفرقع، كأنها طلقات نارية. الأيادي المعضّلة تمسك المقبض المربوط بقوة، والجسد بكامله يرتمي، كما لو يريد صرع ثور؛ وكان ذلك يجري مدة ساعات، من أقصى طرف في السهل إلى أقصاه، عبر الحفر، والحيود، ومنحدرات الطرق، وأسوار الحظائر القصيرة. كان الأمر يتطلب منفاخاً جيداً في الصدر ومفاصل من حديد في الركبتين. كان عمّال الحفر يزيلون بشغف، الصدأ الذي علاهم في المنجم. كان هناك مسعورون في عمر الخامسة والعشرين من يقطعون عشرة فراسخ. في سن الأربعين، لم يعُد الواحد منهم يرمي كرة اللعبة، لأنه أضحى ثقيلاً بإفراط.

دقّت الساعة الخامسة، وحلّ المغيب أصلاً. تبقى دورة أخرى، حتى غابة ڤاندام، للحسم في أيهم ربح القبعة والوشاح؛ وكان زكاري يسخر من السياسة بلامبالاته الصفيقة: سوف يكون من المضحك أن نصادف الرفاق هناك. أما جونلان، منذ الانطلاق من المجمّع، فقد كان يقصد الغابة، وحاله يُبدي التسكع عبر الحقول. بإيماءة تذمّر، توعَّد **ليدي** التي بعد أن استبد بها الندم والخوف، كانت تتكلم عن العودة إلى لوڤوروه قصد جمع الخسّ

البـري: وهـل سـوف يتخلـون عـن الاجتمـاع؟ أمـا هـو فقـد كان يريـد سـماع مـا يقولـه الكبـار. دفـع بيبيـر، وعـرض أن يدخلـوا البهجـة مـا تبقـى مـن الـدرب حتـى الأشـجار، بفـك قيـد پولونيـا ومطاردتهـا بالحجـارة. كانـت نيّتـه المكتومـة قتلهـا، إذ عمّتـه شـهوة أخذهـا وأكلهـا فـي جـوف حفرتـه بريكيـار. اسـتأنفت الأرنبـة سـباقها، الأنـف مكلـوم، والأذنـان مطويتـان؛ كشـط حجـر ظهرهـا، وقطـع حجـر ثـان ذيلهـا؛ ورغـم الظـل المتزايـد، كانـت سـتلقى حتفهـا هنـاك، لـو أن الأشـقياء لـم يـروا، وسـط فرجـة، إتيـان و**ماهو** واقفَيـن. ارتمـوا كالمجانيـن علـى الأرنبـة، وأدخلوهـا مـرة أخـرى فـي السـلة. فـي اللحظـة نفسـها تقريبـاً، كان زكاري وموكـي والاثنـان الآخـران، إذ صوبـوا آخـر ضربـة عصـا، قـد رمـوا بالكـرة التـي تدحرجـت علـى أمتـار معـدودة مـن الفرجـة. وتصادفـوا جميعـاً فـي غمـرة الموعـد.

فـي البلـد أجمـع، عبـر الطـرق، ودروب السـهل العـاري، منـذ المغيـب، كانـت رحلـة طويلـة، سـيلان أطيـاف صامتـة، مسـرعة منعزلـة، رائحـة جماعـات، نحـو خمـر الغابـة المائـل إلـى الخضـرة. كان كل مجمَّـع يفـرَغُ، النسـاء وحتـى الأطفـال كانـوا منطلقيـن وكأنهـم إلـى نزهـة، فـي ظلّ السـماء الواسـعة الصافيـة. الآن صـارت الـدروب مظلمـة، لـم يعُـد المـرء يميـز ذلـك الحشـد المُدلـج، الزاحـف صـوب الغابـة نفسـها، كان يحـس بـه فقـط، يمشـي رويـداً، مختلطـاً، تحملـه نفـسٌ واحـدة. بيـن الحيـود، وسـط الأشـجار، لـم يكـن هنـاك سـوى حفيـف خفيـف، همهمـة غامضـة لأصـوات الليـل.

كان السـيد إينبو، العائـد بالضبـط فـي تلـك السـاعة، راكبـاً فرسـه، يلقـي سـمعه لتلـك الأصـوات التائهـة. لقـد صـادف أزواجـاً،

مسيرة وئيدة من المتنزهين، في تلك العشية الجميلة من عشيات الشتاء. مرة أخرى عشاق ذاهبون، الأفواه لبعضها، للظفر باللذّة خلف الجدران. ألم تكن تلك هي لقاءاته المعتادة، فتيات منقلبات في جوف كل حفرة، مساكين يحشّون أنفسهم بالمسرة الوحيدة التي لا تتطلب أي ثمن؟ وهؤلاء البلهاء يشتكون من الحياة، وهم يملكون، ملء البطون، تلك السعادة الفريدة، سعادة الحب! كم ودَّ عن طيب خاطر أن يهلك جوعاً مثلهم، لو قيِّض له بدء حياته من جديد مع امرأة تقبل أن تمنح نفسها له فوق الحصى، بكل ما في صُلبه من قوة، وبملء فؤاده. لا عزاء لمصيبته. كان يغبط هؤلاء البؤساء. مطأطئ الرأس، عائداً، بسير فرسه الوئيد، وقد أزعجته تلك الأصوات المديدة، التائهة في جوف البرية المظلمة، وحيث لا يُسمع سوى اللثم.

VII

كان ذلك في **پلان دي دام**، في تلك الفرجة الشاسعة التي فسحها قطعُ أشجارٍ على عهد قريب. كانت تمتدّ بمنحدرٍ لطيفٍ، تحيطه أشجار عالية، أشجار زان رائعة، كانت جذوعها المستقيمة والمنتظمة تحيطه بأعمدة بيض، اخضرّت بالأشنات؛ وأشجار عملاقة مقطوعة، لا تزال ممدّدة على العشب، بينما في الجهة اليسرى، ركام من الأخشاب مقطوع يصطف بمكعبه الهندسي. كان البرد يزداد حدة مع المغيب، والطحالب الجامدة تشّقَق تحت الأقدام. ليل دجوجي يعمّ الأرض، والأغصان السامقة تبرز في السماء الشاحبة، حيث بدر التمام، الصاعد في الأفق، سوف يطفئ النجوم.

حوالي ثلاثة آلاف من عمال الفحم كانوا في الموعد، حشد صاخب، رجال، نساء، أطفال يملؤون الفرجة شيئاً فشيئاً، زاد عددهم عن الحدّ بعيداً في ظلال الأشجار؛ وكان يفِدُ متأخرون دوماً، دفق الرؤوس، الغارق في الظلمة، يتسع حتى المشجَرة المجاورة. كانت تُسمع له زمجرة، أشبه بريح عاصفة، في تلك الغابة الثابتة والمجمدة.

فوق، وهو مشرف على المنحدر، كان إتيان يقف صحبة راسنور **وماهو**. وقعت مشاجرة بينهم، إذ كانت تُسمع أصواتهم، بدويّ مباغت. بالقرب منهم، كانت جماعة من الرجال تنصت إليهم: لوفاك بقبضتيه المشدودتين، پييرون يُدير ظهره، قلق كثيراً من أنه لم يتذرع بحمى مزمنة؛ وكان هناك الأب بونمور والعجوز موك،

جنباً إلى جنب، يقتعدان جذعاً، ويبدو عليهما حال المستغرق في التفكير. ثم، في الخلف، كان المهرّجون، زكاري، موكي وآخرون غيرهما، أتوا للضحك؛ بينما، اجتمعت بعض النسوة، في خشوع وصرامة وكأنهن في كنيسة. ماهود، صامتة، كانت تهز رأسها عند سماع لعنات لوفاك المكتومة. وكانت فيلومين تسعل، وقد عاودها داء التهاب الصدر منذ الشتاء. وحدها موكيت كانت تضحك ملء فمها، وقد أبهجتها طريقة معاملة برولي لبنتها، الفاسدة التي كانت تطردها حتى تنعم بلحم الأرنب، خائنة، تسمنُ من جبَن زوجها. وفوق ركام الخشب، وقف جونلان، رافعاً ليدي، مكرهاً بيبير على اتباعه، وثلاثتهم في الهواء، أعلى من الجميع.

أصل المشاجرة راسنور، الذي كان يريد أن يتمّ انتخاب مكتب وفق النظام. كانت هزيمته في بونجوايوه تزيد من سعاره؛ وكان قد أقسم على الانتقام، لأنه كان يفتخر باستعادة سلطته القديمة، عند مواجهة شعب عمال المنجم وليس أمام المنتدبين. كان إتيان، الهائج، قد رأى بأن فكرة المكتب فكرة غبية، في هذه الغابة. كان يجب التصرف بصفة ثورية، صفة الهمج، ما دام هناك من يطاردهم كأنهم ذئاب.

لما وجد أن الخصام تأبّد، استولى بغتة على الحشد، صعد على جذع شجرة وهو يصيح:

«يا رفاق! يا رفاق!».

خمد لغط ذلك الشعب في زفير مديد، بينما كان ماهو يحبس احتجاج راسنور. تابع إتيان بصوت مزمجر:

«يا رفاق، بما أننا نُمنع من الكلام، ويرسل إلينا رجال الدرك، كما لو أننا قطاع طرق، ها هنا يجب علينا أن نتفق! هنا نحن

أحرار، نحن في ديارنا، لا أحد سيأتي لإسكاتنا، مثلما لا يمكن أن نسكت الطيور والدّواب!».

أجابه رعدٌ، صيحات، هتافات.

«أجل، أجل، الغابة مِلكنا، من حقنا الكلام فيها.. تكلم!».

حينذاك، ثبت إتيان لحظة بلا حركة فوق جذع الشجرة. القمر، الذي كان لا يزال نازلاً بكثير في الأفق، لم يكن يضيء سوى الأغصان العالية؛ وظل الحشد غارقاً في الظلمات، وقد صار هادئاً وصامتاً، شيئاً فشيئاً. وهو مظلم بدوره، كان يلقي فوق الحشد، من أعلى المنحدر، حاجزاً من الظل.

رفع ذراعه في إيماءة وئيدة، ثم بدأ؛ لكن صوته لم يعُد مزمجراً، واكتسى النبرة الباردة لمبعوث بسيط من الشعب يقدم حساباته. وفي نهاية المطاف، بسط الخطاب الذي قاطعه فيه عميد الشرطة في بونجوايوه؛ وبدأ بجرد تاريخي سريع للإضراب، متخذاً الفصاحة العلمية: الوقائع، ولا شيء غير الوقائع. في البداية عبّر عن نفوره من الإضراب: لم يُرِده العمال، بل الإدارة هي التي استفزّتهم، بتعريفتها الجديدة في تمتين الدعائم الخشبية. ثم ذكر بمسعى المنتدبين الأول لدى المدير، سوء نية الوكالة، أثناء المسعى الثاني، لاحقاً، تنازلها المتأخر، العشرة سنتيمات التي أعادتها، بعد أن حرصت على سرقتها. الآن، هم في هذا الوضع، وكان يُثبِتُ بالأرقام فراغ صندوق الادخار، ويشير إلى استعمال المعونات المرسلة، ويجد العذر للأممية، وبلوشار والآخرين، لعجزهم عن فعل المزيد لأجلهم، وسط مشاغلهم بغزو العالم. إذ الوضع يزداد حدة يوماً عن يوم، الشركة تُعيد الرّخص

وتُهدد باستخدام عمال من بلجيكا؛ إضافة إلى ذلك، كانت ترهب الضعفاء، وأرغمت عدداً معيّناً من عمال المناجم على النزول إلى جوف الأرض من جديد. كان يحافظ على صوته الرتيب وكأنه يلحّ على تلك الأخبار السيّئة، كان يصف الجوع الظافر، الأمل الميّت، الصراع وقد وصل إلى آخر أشواط حمّى الشجاعة. وبغتة، ختم، دون أن يرفع من نبرة صوته.

«في هذه الظروف، أيها الرفاق، يجب أن تحسموا قراركم هذا المساء. هل تريدون مواصلة الإضراب؟ وفي هذه الحال، ماذا أنتم فاعلون للانتصار على الشركة؟».

هبط صمت شديد من السماء المزينة بالنجوم. الحشد الذي لا يُرى، يلزم الصمت، في الليل، بعد هذا الكلام الذي يحنق القلب؛ ولم يكن يُسمع سوى لهاثه اليائس، من خلال الأشجار.

لكن، تابع إتيان بصوتٍ متبدّل. لم يكن كاتب الجمعية هو من يتكلم، بل كان زعيم العصبة، الحواري الحامِل للحقيقة. هل هناك جبناء ينكثون عهدهم؟ ماذا! منذ شهر، هل تعذبوا بلا طائل، وعليهم أن يرجعوا إلى الحفر، مهطعين، ويبدأ البؤس الأبدي من جديد! أليس من الأفضل الموت في الحال، بمحاولة تدمير استبداد الرأسمال ذاك الذي كان يجوّع العامل؟ دائماً الاستسلام للجوع، إلى حين يدفع فيه، الجوع من جديد، بمن هو أشدّ سكينة إلى التمرّد، أليست لعبة غبية لا يمكنها الاستمرار بما يزيد؟ وكان يشير إلى العمّال الذين تمّ استغلالهم، الذين يتحمّلون لوحدهم مصائب الأزمة، وأصبحوا لا يجدون ما يطعمون، ما أن تؤدي ضرورة التنافس إلى خفض سعر الكلفة. كلا! تعريفة تمتين

الدعائم غير مقبولة، ليس ذلك سوى اقتصاد مُقَنّع، يريدون سرقة ساعة عمل في اليوم لكل رجل. طفح الكيل هذه المرّة، حان الوقت الذي فيه يقيم البؤساء العدالة بعد أن زاد غضبهم عن الحدّ.

ظل رافعاً ذراعيه في الهواء. ردّ الحشد على كلمة العدالة تلك، وقد سرت فيه رعدة مديدة، بدويّ من التصفيقات التي تنبسط بصوت الأوراق اليابسة. صاحت بعض الأصوات:

«عدالة! حان الوقت، عدالة!».

شيئاً فشيئاً، تحمّس إتيان. لم يكن بمثل وفرة راسنور اليسيرة والسلسة. كانت تعوزه الكلمات معظم الوقت، كان عليه ليّ عنق الجملة، وكان يتخلص منها بجهد يسنده بدفعة من كتفه. لكن، رغم هذه العثرات المتواصلة، كان يصادف صوراً ذات طاقة مألوفة، تشدّ سامِعِيه؛ بينما حركاته كعامل في الموقع، بمرفقيه المضمومين، ثم المنبسطين وملوحاً بقبضتيه إلى الأمام، وفكّه الممدود بغتة، وكأنه يتأهّب للعضّ، كانت لها جميعاً أثرها في الرفاق. كان الجميع يقول ذلك، لم يكن كبيراً، لكنه كان يُنصَت إليه.

«نظام الأجور شكل جديد للعبودية»، أردف بصوت مصلصل، «يجب أن يكون المنجم في ملك عمّاله، مثل البحر بالنسبة للصياد، والأرض للمزارع. اسمعوا! المنجم منجمكم، لكم جميعاً، أنتم من أدى ثمنه دماً وبؤساً، منذ قرن من الزمان!».

دون مواربة، بسط مسائل غامضة في القانون، المسار الطويل للقوانين الخاصة، حول المناجم، والذي تاه فيه. ما تحت الأرض،

مثلـه مثـل الأرض، فـي ملـك الوطـن: وحـده الامتيـاز الشـنيع الـذي كان يجعلـه فـي يـد الشـركات دون سـواها؛ لا سـيما وأن بالنسـبة إلـى مونسـو فـإن قانونيـة الاحتـكارات المزعومـة تتعقـد بالمواثيـق القديمـة المعقـودة فـي مـا مضـى مـع مـلاك الإقطاعيـات القديمـة، وفـق العُـرف القديـم، عُـرف إينـو. لـم يكـن علـى شـعب عمّـال المنجـم سـوى اسـتعادة ملكِه؛ ويـداه مبسـوطتان، كان إتيـان يشـير إلـى البلـد كلـه، مـا وراء الغابـة. فـي تلـك اللحظـة، أضـاءه القمـر، الصاعـد مـن الأفـق، المنزلـق مـن الأغصـان العاليـة. حينمـا رآه الحشـد، الـذي كان لا يـزال فـي الظـل، بتلـك الصـورة، أبيـض مـن شـدة الضـوء، موزِّعـاً الثـروة بيديـن مفتوحتيـن، صفَـق لـه مـرة ثانيـة، تصفيقـاً متواصـلاً.

«أجل، أجل، إنه محق، مرحى له!».

مـن ثـم، ركـب إتيـان مسـألته المفضلـة، منـح وسـائل العمـل للجماعـة، مثلمـا كان يـردّد ذلـك فـي جملـة واحـدة، التـي كانـت وحشـتها تدغدغـه بلـذاذة. بالنسـبة إليـه، فـي تلـك السـاعة، كان تطـور الأحـوال تامـاً. منطلقـاً مـن أخـوة المتنصّريـن الرحيمـة، مـن الحاجـة إلـى إصـلاح نظـام الأجـور، بلـغ فكـرة إلغائـه السياسـية. منـذ اجتمـاع بونجوايـوه، نُزعتَـه الجماعيـة، التـي كانـت لا تـزال إنسـانية ولا صيغـة لهـا، تصلّبـت فـي شـكل برنامـج معقـد كان ينـاقَش كل بنـد فيـه علـى نحـو علِمـيّ. أولاً، كان يفتـرض أن الحريـة لا يمكـن الحصـول عليهـا إلا بتدميـر الدولـة. ثـم، حينمـا يسـتحوذ الشـعب علـى الحكـم، سـتبدأ الإصلاحـات: العـودة إلـى الشِّـركة البدائيـة، وضـع أُسـرة تحكمهـا المسـاواة، حـرة بـدل أُسـرة أخلاقيـة وقاهـرة، مسـاواة مطلقـة، مدنيـة، سياسـية واقتصاديـة، ضمانـة الاسـتقلال الفـردي بفضـل

الامتلاك والإنتاج التام لوسائل العمل، وأخيراً تعليم مهني مجاني، تؤديه الجماعة. وسوف يؤدي ذلك إلى إعادة بناء شاملة للمجتمع القديم المتعفن؛ هاجم الزواج، حق التجريب، نظم ثروة كل واحد، وحطم البنيان الظالم للعصور البائدة، بحركة عريضة من ذراعه، الحركة نفسها دوماً، حركة الحاصد الذي يجزّ النبت إذا استوى على سوقه؛ ثم كان يعيد البناء بيده الثانية، يبني الإنسانية القابلة، بنيان الحقيقة والعدالة، المتعاظم في فجر القرن العشرين. وقد وصل هذا التوتر الفكري، فإن العقل كان يترنح، ولم تبق سوى فكرة المتعصب الثابتة. وذهب تحرج حساسيته وحسّه السليم، لم يعُد هناك شيء أسهل من تحقيق ذلك العالم الجديد: لقد توقع كل شيء، كان يتكلم عن الأمر كما لو كان يتكلم عن آلة يُركِّبها في ظرف ساعتين، ولا يهمه لا النار ولا الدم.

«جاء دورنا»، صاح في صرخة أخيرة، «نحن من عليه امتلاك السلطة والثروة!».

بلغه الهتاف من جوف الغابة. القمر الآن يُبيّض الفرجة كلها، ويُبرِز موج الرؤوس كأعراف واضحة، حتى الأطراف المترامية للمساحات المشجرة، بين الجذوع العظيمة المائلة إلى لون الرماد. وفي الهواء الصقيع، كانت تلك سورة غضب وجوه، عيون براقة، أفواه مفتوحة، شبق شعب كامل، الرجال، النساء، الأطفال، جوعى وقد فُكّت قيودهم بغية النهب العادل لمالهم القديم الذي سُلِب منهم. لم يعُد أحد منهم يشعر بالبرد، تلك الكلمات الملتهبة أدفأت أحشاءهم. سموّ ديني كان يرفعهم من الأرض، حمّى أمل أوائل نصارى الكنيسة، في انتظار سيادة العدالة عمّا قريب.

لم يدركوا الكثير من الجمل الغامضة، لم يكن أحد منهم يسمع بتاتاً تلك الأدلة التقنية والمجردة؛ لكن الغموض في حدّ ذاته، والتجريد، كان يوسّع أكثر من مدى الوعود، يُقلع بهم في انبهار. يا له من حلم! أن يصيروا أسياداً، أن تكفّ المعاناة، ويستمتعوا في نهاية المطاف!

«هو ذاك، وحق الرب! جاء دورنا!... الموت للمستغِلّين!».

كان النساء يهذين، ماهود وقد خرجت عن صمتها، واستبدّ بها دوار الجوع، لوفاكه تصرخ، العجوز **برولي** وقد ركبت هواها تلوح بذراعيها، ذراعي الساحرة، و**فيلومين** التي هزّتها نوبة سعال، و**موكيت**، من شدة اشتعالها، كانت تصيح في الخطيب بكلمات رقيقة. من ضمن الرجال، **ماهو** المعجب، ندّت عنه صرخة غضب، بين **پييرون** المرتعد و**لوفاك** الذي كان يكثر من الكلام؛ بينما المهرّجان، **زكاري** و**موكي**، كانا يحاولان القهقهة، وقد شعرا بالضيق، وتعجبا من كون الرفيق استطاع الإطالة بكل ذلك القدر من دون أن يشرب جرعة واحدة. لكن، على كومة الخشب، كان **جونلان** يسبب أشد جلبة، محمّساً **بيبير** و**ليدي**، محركاً السّلة حيث ترقد **پولونيا**.

بدأ الهتاف من جديد. و**إتيان** يتلذذ بسُكرة شعبيته. تلك سلطته التي يمسك بها، وكأنها تجسدت، في تلك الصدور الثلاثة آلاف التي كان يجعل أفئدتها تخفق، بكلمة واحدة. لو تفضل **سوفارين** بالمجيء، لصفّق لأفكاره كلّما تعرف عليها، وسُرّ بما أحرزه تلميذه من تقدم فوضوي، ورضي بالبرنامج، سوى البند حول التعليم، وهو بقية من بلاهة عاطفية، لأن الجهل المقدس والمخلّص هو

الماء الذي يجب أن ينقع فيه الرجال. أما راسنور، فقد كان يهزّ كتفيه استخفافاً وغضباً.

«دعني أتكلم!»، صاح في وجه إتيان.

وثب هذا الأخير من على جذع الشجرة.

«تكلم، سوف نرى هل ينصتوا إليك».

سرعان ما حلّ راسنور مكانه وطلب الصمت بإيماءة. لم يهدأ الصخب، جرت الألسن باسمه من الصفوف الأمامية التي تعرّفت إليه، إلى الصفوف الأخيرة الغائبة تحت أشجار الزان؛ وامتنع الناس عن سماعه، كان صنماً وتم تحطيمه، مرآه وحده كافٍ لجلب سخط أتباعه القدامى. بيانه، كلامه السلس والمستملح، الذي لطالما سحر سامعيه، صار في تلك الساعة نقوعاً فاتراً، جُعل لتنويم الجبناء. دون جدوى، كان يتكلم وسط الضجيج، أراد استعادة خطاب التهدئة الذي كان يحمله معه، استحالة تغيير العالم بقوة القوانين، ضرورة فسح الوقت حتى يتم التطور المجتمعي: كان الناس يهزؤون به، يدعونه للسكوت، هزيمته في بونجوايوه زادت حدّتها وبات لا رجعة فيها. وانتهى الأمر إلى أن رُميت عليه قبضات طحالب جامدة، وصاحت امرأة بصوت حاد:

«فليسقط الخائن!».

أوضَح أن المنجم لا يمكنه أن يصير في ملك العامل، مثلما المنسج في ملك النسّاج، وكان يقول إنه يفضّل المساهمة في الأرباح، وكل عامل يهمه الأمر، يصير ابن الدار.

«فليسقط الخائن!»، ردّد ألف صوت، بينما بدأت الحجارة تصفر.

حينئذ، شحب وجهه، وامتلأت عيناه دمعاً من اليأس. انهار وجوده، عشرون عاماً من الرفقة الطموحة هوَت بفعل جحود الحشد. نزل من جذع الشجرة، وقد أصيب في قلبه، دون القدرة على المواصلة.

«يُضحِكُك ذلك»، قال متلعثماً وهو يخاطب إتيان الظافر، «طيّب، أتمنى أن يحدث لك ذلك. وسوف يحدث لك، هل تسمع!».

وكما لو أنه يجعل نفسه في حِلٍّ من كل مسؤولية عن المصائب التي توقّعها، لوّح بيده واسعاً، ابتعد وحيداً، عبر البرية الخرساء والبيضاء.

تعالت الصيحات، وتعجّب الجمع لمّا شاهد الأب **بونمور** واقفاً على الجذع، مستغرقاً في الكلام وسط الضجيج. حتى تلك اللحظة، ظلّ هو ومُوك سادِرَين، كما هو حالهما دوماً عند التفكير في أمور قديمة. لا شك أنه استسلم لواحدة من أزمات الثرثرة المباغتة تلك التي تحرّك الماضي داخله، أحياناً، بشدة إلى حدّ أن الذكريات تصعد من جديد وتسيل بين شفتيه، خلال ساعات. خيّم صمت عظيم، الجميع ينصت إلى ذلك العجوز، الذي له شحوب طيفٍ تحت ضوء القمر؛ ولما كان يروي أشياء ليست لها صلة مباشرة بالنقاش، قصصاً طويلة لم يكن في وسع أحد فهمها، فإن الذهول زاد. لقد كان يتحدث عن شبابه، ويخبر عن موت عمّيه اللذين دُهِسا في لوفوروه، ثم ذكر ذات الرئة الذي فتك بزوجته. ورغم ذلك لم يحِد عن فكرته: لم يحدث قط أن سارت الأمور على ما يرام، ولن تسير أبداً على ما يرام. وبالمثل، اجتمعوا في الغابة، خمسمائة فرد، لأن الملك لم يقبل خفض

ساعات العمل؛ إلا أنه سكت، ثم بدأ يقص خبر إضراب آخر: لقد شهد الكثير منها! جميعها كان يبلغ في ظلّ تلك الأشجار، هنا في **پلان دي دام**، هناك في **لاشاربونري**، وأبعد من هناك أيضاً صوب **لوصو ديلو**. أحياناً كان هناك صقيع، وأخرى كان الجو حاراً. ذات مساء، من شدة ما هطل المطر، عاد الجميع بعد أن تعذّر قول أي شيء. وكان جنود الملك يصلون، وينتهي الأمر بإطلاق رصاص من البنادق.

«كنا نرفع أيدينا هكذا، ونقسم على ألا ننزل إلى جوف الأرض من جديد. آه! لقد أقسمتُ، أجل! لقد أقسمتُ!».

كان أولاء الحشد ينصتون، فاغري الأفواه، وقد استبد بهم الضيق، حينما قام إتيان الذي كان يتابع المشهد، بالوثب على الشجرة المقطوعة وأبقى العجوز جانبه. كان قد تبيّن للتوّ **شافال** وسط الرفاق، في الصف الأول. فكرة أن **كاترين** حاضرة هناك لا محالة، أذكت فيه شعلة جديدة، حاجة إلى أن يُهتَف باسمه في حضرتها.

«أيها الرفاق، لقد سمعتم، ها هو واحد من كبارنا، هذا ما عاناه، وهذا ما سوف يعانيه أطفالنا، إذا لم نضع حداً للصوص وللجلّادين».

كان رهيباً، لم يسبق قط أن تكلّم بذلك القدر من الشدة. بذراع، كان يمسك العجوز بونمور، كان يبسطه وكأنه علَم بؤس وحِداد، ويصرخ مطالباً بالانتقام. بجمل سريعة، ارتقى حتى وصل **ماهو** الأول، وكان يُشهر تلك الأُسرة التي أبلاها المنجم، أكلتها الشركة، وأضحت أكثر جوعاً بعد مائة عام من الشغل؛

وقبالتها، كان يبسط بطون الوكالة، التي كانت تنضح مالاً، عصابة المساهمين كلها التي يُنفَق عليها كما ينفق على الفتيات منذ مائة عام، كي لا تعمل شيئاً، وكيما تستمتع بأجسادها. أليس ذلك فظيعاً؟ شعب من الرجال، يهلكون أباً عن جد في جوف الأرض، حتى تُمنح الرشاوى للوزراء، حتى يتسنى لأجيال من كبار الإقطاعيين والبرجوازيين إقامة الحفلات، ويزدادوا بدانة جنب مدافئهم! لقد درس أسقام عمال المناجم، وكان يعرضها كلها، بتفاصيلها المخيفة: فقر الدم، الالتهاب الرئوي الحاد، الربو الخانق، داء المفاصل الذي يشلُّ الحركة. هؤلاء البؤساء، كان يُرمى بهم فريسة للآلات، كان يتم حبسهم على ذلك النحو مثل قطيع في المجمّعات، وكانت الشركات تمتصهم شيئاً فشيئاً، تقنِّن العبودية، مهدِّدة بتعبئة كل عمال الوطن، ملايين الأذرع، لأجل إثراء ألفٍ من الكسالى. لكن عامل المنجم لم يعُد ذلك الجاهل، تلك البهيمة التي تُسحق في أحشاء الأرض. إنه جيش ينمو من أعماق الحُفر، حصادُ مواطنين بذوره تطلع وتشقّ التراب، في يوم تسطع شمسه. وسوف يُعلم حينذاك، بعد أربعين عاماً من الخدمة، إذا كان هناك من يجسر على منح مائة وخمسين فرنك معاشاً لعجوز يبلغ ستين عاماً من عمره، يبصق الفحم، ساقاه منتفختان بماء المقالع. أجل! العمل سوف يُحاسِب رأس المال، ذلك الإله غير المشخص، المجهول عند العامل، الرابض في مكان ما، في سرّ هيكله، ومن هناك يَمتصّ حياة الجياع الذين يُطعمونه! سوف يذهبون هنالك، وينتهي بهم المطاف حقاً إلى رؤية وجهه على ضوء الحرائق، سوف يغرقونه في الدم، ذلك الخنّوص القذر، ذلك المعبود البشع، المتخم باللحم البشري!

سكت، لكن ذراعه، الممدودة دائماً في الفراغ، كانت تدلّ على العَدوّ، هناك، لم يكن يدري أين، من أدنى الأرض إلى أقصاها. هذه المرة، كان هتاف الحشد عالياً بالقدر الذي جعل حاضري مونسو يسمعونه وينظرون ناحية ڤاندام، وقد استبدّت بهم الحيرة ظناً أنه انهيار تربة عظيم. حلّقت طيور الليل فوق الأشجار، في السماء الواسعة الصافية.

وأراد هو أن يختم في الحال:

«أيها الرفاق، ما هو قراركم؟ هل تصوتون لاستمرار الإضراب؟».

«أجل، أجل»، صاحت الأصوات.

«وما هي التدابير التي أقررتموها؟ هزيمتنا مؤكدة إذا نزل بعض الجبناء إلى المنجم غداً».

أردفت الأصوات، بزفيرها العاصف:

«الموت للجبناء!».

«إذن أنتم عازمون على تذكيرهم بالواجب، بحلف اليمين. هاكم ما نستطيع القيام به: سوف نحضر إلى الحُفَر، ونعيد الخونة بحضورنا، ونظهر للشركة أننا موافقون جميعاً وأننا مستعدون للموت ولا نستسلم».

«هو ذاك، إلى الحُفَر! إلى الحُفَر!».

منذ أن كان يتكلم، بحث إتيان عن كاترين، بين الرؤوس الشاحبة، المزمجرة قبالته. بكل تأكيد، إنها لم تكن هناك. لكنه كان يرى شاڤال دوماً، الذي يتظاهر بأنه يقهقه وهو يهز كتفيه، وقد أكلته الغيرة، مستعد لبيع نفسه مقابل قليل من ذلك الصّيت.

«وإذا كان بيننا وشاة، أيها الرفاق»، تابع إتيان كلامه، «عليهم

الحيطة، إننا نعرفهم. أجل، إني أرى عمّال فحم من ڤاندام، لم يغادروا حفرتهم».

«هل تقصدني بهذا الكلام؟»، سأله شاڤال، بتبجّح.

«أقصدك وأقصد غيرك. لكن بما أنك تكلمت، لا بد أن تدرك بأن الذين يأكلون لا دخل لهم بمن هم جائعون. إنك تعمل في جونبار...».

قاطعه صوت صفيق:

«أوه! إنه يشتغل، لديه امرأة تشتغل لأجله».

لعن شاڤال، وقد استشاط غضباً.

«اللعنة! هل العمل محرّم، إذن؟».

«أجل!»، صاح إتيان، «حينما يعاني الرفاق الفقر لأجل أن يعمّ الخير الجميع، يُحرَم أن يتصرف المرء بأنانية وبجبن إلى جانب أرباب العمل. لو كان الإضراب عامّاً، لأصبحنا نحن الأسياد منذ أمد بعيد. هل كان على رجل واحد من ڤاندام أن ينزل عندما بَطلَت مونسو؟ الضربة الكبيرة، هي أن يتوقف الشغل في البلد كله، عند السيد دونولان مثلما هو الأمر هنا. هل تفهم؟ ليس هناك إلا الخونة في مقالع جونبار، جميعكم خونة!».

أصبح الحشد حول شاڤال مهدِّداً، ارتفعت قبضات، صيحات تدعو بالموت أخذت تهدر، اصفرّ وجهه. لكن من شدة غيظه بالانتصار على إتيان، عنّت له فكرةٌ رفعت هامته.

«أنصتوا إلي هيّا! هبوا غدا إلى جونبار، وسوف ترون إن كنت سأشتغل! نحن منكم، لقد أُرسِلت لأخبركم بذلك. يجب إطفاء النيران، يجب على عمال الآلات أيضاً أن يدخلوا في الإضراب.

حبذا لو توقّفت المضخات! سيُهلك الماء الحُفر، ويخرب كل شيء!».

صُفِّق له بشدة هو أيضاً، ومن ذلك الحين غلب الحشد إتيان. تعاقب خطباء على جذع الشجرة، يشيرون في صخب، يلقون مقترحات شرسة. كان ذلك جنون الإيمان، نفاد صبر طائفة دينية التي بعد أن أعياها الرجاء في المعجزة المنتظرة، قررت إثارتها في نهاية الأمر. الرؤوس، وقد أفرغتها المجاعة، كانت تتميّز من الغيظ، تحلم بالحريق وبالدم، وسط مجد مقدّس، حيث ترتقي السعادة الكونية. وكان القمر الساكن يغمر ذلك الحشد، والغابة الغابرة تحيط بصمتها العظيم صرخة سفك الدماء. وحدها الطحالب الجامدة تشقّق تحت الأقدام؛ بينما أشجار الزّان، الواقفة بكل قوتها، بأوراق فروعها اللطيفة، سوداً في السماء البيضاء، لم تكن ترى ولا تسمع الكائنات البائسة التي كانت تتحرك عند قدمها.

وَقَعَ تدافع، وجدت **ماهود** نفسها جنب **ماهو**، وهما معاً، وقد تخليا عن حسهما السليم، بعد أن جرفهما السّخط الوئيد الذي اعتمل داخلهما منذ أشهر، وافق لوفاك الذي كان يزيد على ما قيل مطالباً برؤوس المهندسين. **پييرون** كان قد اختفى. **بونمور** و**موك** كانا يتحدثان دفعة واحدة، يقولان أشياء غامضة وشديدة لم يتبينها أحد. من باب المزح، دعا زكاري إلى تحطيم الكنائس، بينما موكي ومضربه في يده، كان يخبط به الأرض، زيادة في الضجيج ليس إلا. بلغ الغيظ بالنساء مبلغه: لوفاكه، واضعة قبضتيها على الخاصرتين، كانت تشاجر فيلومين، إذ لامتها

بأنها كانت تضحك؛ بينما **موكيت** قالت إنها سوف تضرب رجال الدرك ضرباً شديداً في موضع معلوم؛ **برولي** التي لطمت ليدي آنفاً إذ رأت أنها بلا سلّة ولا خضرة، واصلت التلويح باللطم في الهواء، تجاه كل أرباب العمل التي تمنّت لو أمسكت بهم. لحظة، ظلّ جونلان دهِشاً، حيث علم بيبير من أحد صبيان المنجم أن السيدة راسنور شاهدتهم وهم يسرقون پولونيا؛ لكن عندما عزم على العودة لإطلاق سراح الأرنبة خلسة عند باب لافانتاج، صرخ بشدة، فتح سكينه الجديد الذي كان يلوح بنصله، وهو يفتخر بجعله يلمع.

«يا رفاق! يا رفاق!»، كان إتيان يردّد وقد أصابه العياء وبحّ صوته من ابتغاء دقيقة صمت، وبات خفيّاً تماماً.

في نهاية الأمر، أنصت إليه الناس.

«يا رفاق! في صباح الغد، إلى جونبار، هل اتفقنا؟».

«أجل، أجل، إلى جونبار! الموت للخونة!».

عاصفة تلك الأصوات الثلاثة آلاف ملأت السماء وسكنت في وضح القمر.

القسم الخامس

I

في الساعة الرابعة، غاب القمر، وعمّ ليل دامس. كل شيء كان يغط في النوم عند آل دونولان، وظل بيت الآجر القديم أخرس ومظلماً، أبوابه ونوافذه مغلقة، عند طرف الحديقة الواسعة المهملة التي تفصلها عن حفرة جونبار. وعلى الواجهة الثانية، تمرّ طريق ڤاندام المقفرة، وهي دسكرة مستترة خلف الغابة، تقع على بعد ثلاثة كيلومترات.

كان دونولان يشخر، هو الذي أصابه العياء من قضاء اليوم السابق، قسطاً من النهار، في الجوف، كان أنفه لصق الجدار حينما رأى في الحلم أن هناك من ينادي عليه. انتهى به الأمر إلى أن صحا من نومه وسمع حقيقة صوتاً، فتح النافذة. كان ذلك واحد من رؤساء العمال، يقف وسط الحديقة.

«ماذا إذن؟»، سأله.

«سيدي، إنه تمرد، نصف عدد العمال لا يريد العمل ويمنع الآخرين من النزول».

لم يكن يفهم على نحو سويّ، رأسه ثقيل وبه طنين من أثر النوم، وقد هجم عليه البرد القارس، مثل حمام ثلج.

«أجبروهم على النزول، اللعنة!»، تمتم.

«منذ ساعة والأمر على تلك الحال»، أردف رئيس العمال، «لذلك، خطرت علينا فكرة المجيء عندك، ربما، لا أحد سواك يستطيع أن يعيدهم عن غيّهم».

«طيّب، أنا قادم».

بسـرعة، ارتـدى لباسـه، وقـد صفـا ذهنـه الآن، لكنـه حائـر جـداً. كان فـي الإمـكان نهب البيـت، لـم تتحـرك الطاهية ولا تحـرّكَ الخـادم. لكـن، مـن الجانـب الآخـر للـدرج، كانـت هنـاك أصـوات مذعـورة توشـوش؛ وحينمـا خـرج، رأى بـاب حجـرة بنتَيـه يُفتـح، وظهرتـا معـاً، وقـد لبسـت كل منهمـا علـى عجـل منامـة بيضـاء.

«أبي، ماذا هناك؟».

البكـر، لوسـي، كانـت تبلـغ أصـلاً اثنيـن وعشـرين عامـاً مـن عمرهـا، ممشـوقة، سـمراء، فـي وجههـا نضـرة؛ بينمـا جـان، الصغـرى، التـي بالـكاد تبلـغ تسـعة عشـر عامـاً مـن عمرهـا، كانـت قصيـرة، شـعرها ذهبـي، ناعـم الملمـس.

«لا شـيء يسـوء»، أجـاب حتـى تطمئنـا، «يبـدو أن صُـخبانـاً يحدثـون بعـض الضوضـاء، هنـاك. أنـا ذاهـب للتحقـق مـن الأمـر».

إلا أنهمـا صاحتـا مـن جديـد، لـم تشـأ الفتاتـان السـماح لـه بالذهـاب إن لـم يلبـس شـيئاً يدفئـه. مـا خـلا ذلـك، سـوف يرجـع إليهمـا وهـو مريـض، يتوجـع مـن معدتـه الخربـة كمـا العـادة. أمـا هـو فقـد كان يتخبـط ويقسـم علـى شـرفه بأنـه كان علـى عجلـة مـن أمـره.

«اسـمع»، قالـت جـان فـي نهايـة المطـاف وهـي تتشـبث بعنقـه، «سـوف تشـرب كأسـاً صغيـرة مـن الـرُّوم وتـأكل كعكتيـن؛ وإلا بقيـتُ هكـذا، وسـتكون مجبـراً علـى حملـي معـك».

كان لا بـد لـه مـن الإذعـان، وهـو يقسـم أن الكعـك سـيخنقه. نزلتـا أمامـه مسبقاً، كل واحـدة تحمـل شـمعدانها. أسـفل، فـي قاعـة الطعـام، عجلتـا بخدمتـه، الأولـى تسـكب الـروم والثانيـة أسـرعت نحـو المطبـخ بحثـاً عـن علبـة الكعـك. وإذ فقدتـا أمهمـا فـي صغرهمـا،

فقد ربيتا نفسيهما لوحدهما، على نحو سيّئ بما فيه الكفاية، ودللهما أبوهما، يسيطر على الكبرى الحلم بالغناء في المسارح، والصغرى، المجنونة بالرسم، لها جرأة في الذوق تميزها عن الغير. لكن حينما كان لزاماً خفض سرعة قطار الحياة، عقب متاعب كبيرة في الأعمال، فقد تمّ دفعه بغتة، عند تلك الفتاتين الذي يبدو حالهما خارجاً عن المعقول، كلاهما ربة بيت حكيمة جداً ومحتالة جداً، بعيونٍ تكتشف أخطاء بمقدار سنتيمات في دفتر الحسابات.

اليوم، بمظهرهما، مظهر الفتى الفنان، كانتا تدبران المال، تقلّمان من كل فلس، تجادلان المورّدِين، ترتقان دون كلل فساتينهما، وتفلحان في نهاية المطاف في جعل ضيق العيش المتعاظم في البيت مقبولاً.

«كُل، بابا»، كانت تردد **لوسي**.

ثم بعدما نبهت للهم الذي لا يبارحه، إذ ظلّ صامتاً، مكدّر الوجه، استبد بها الخوف من جديد.

«الخطب جلل إذن، إذ تصعّر لنا وجهك هكذا؟ هيا، قل، سنظل معك، ولن ينتظرنا أحد لذلك الغذاء».

كانت تتحدث عن لقاء مقرّر للصباح. كان من المتوقع أن تذهب السيدة **إينبو** بعربتها لإحضار **سيسيل**، عند آل غريغوار؛ ثم تأتي لأخذهما، كيما يذهبن جميعاً إلى مارشيين، للغذاء في فورج، تلبية لدعوة المدير. وكانت تلك فرصة لزيارة المعامل، المصاهر العالية وأفران الفحم.

«بالتأكيد، سنبقى»، قالت **جان** بدورها.

لكنه غضب.

«يا لها من فكرة! أكرر لكما أن ليس هناك شيء يستحق الذكر. سوف أكون مسروراً إذا عدتما إلى فراشكما؛ تجهّزا بلباسكما على الساعة التاسعة كما هو متفق عليه».

قبلهما، وعجّل بالانصراف. سُمع خفق حذائيه اللذين غابا في تراب الحديقة الجليدي.

أدخلت **جان** سدّادة زجاجة الروم بعناية، بينما أغلقت **لوسي** على الكعك بالمفتاح. كان للغرفة نظافة غرف الطعام التي قلّما تُبسط فيها مائدة الطعام. وقد انتهزتا معاً ذلك النزول الصباحي للتحقق مما إذا لم يتبق شيء من اليوم السابق عرضة للنهب. كانت هناك منشفة مهملة، سوف يتم زجر الخادم. وفي نهاية المطاف صعدتا من جديد.

بينما هو يختصر الطريق، عبر ممرات بستانه الضيقة، كان دونولان يفكر في ثروته المعرضة للخطر، في نصيب **مونسو** ذاك، ذلك المليون الذي استثمره وهو يحلم بمضاعفته، والذي يتعرض اليوم إلى مخاطر كبرى. كانت تلك سلسلة متصلة من ضربات سوء الحظ، من الإصلاحات الضخمة وغير المتوقعة، من ظروف الاستغلال المؤدية إلى الإفلاس، ثم مصيبة هذه الأزمة الصناعية، بالضبط في وقت بدأت فيه الأرباح. إذا اندلع الإضراب عنده، فإنه سيسقط صريعاً. دفع باباً صغيراً: كانت بنايات المنجم بادية، في الليل المظلم، بفضل تضاعف الظل، تنيرها بعض الفوانيس.

لم يكن جونبار بأهمية لوفوروه، لكن المنشأة وقد تمّ إصلاحها كانت تجعل منه منجماً ظريفاً، حسب وصف المهندسين. لم يتم

الاكتفاء بتوسعة البئر بمتر وخمسين وحفرها حتى عمق سبعمائة وثمانية أمتار، بل جُهِزت من جديد، آلة جديدة، أقفاص جديدة، أدوات جديدة بأكملها، وُضِعت وفق آخر المهارات التي أنجزها العلم؛ بل هناك أيضاً سعيٌ للأناقة نجده حتى في المنشآت، حظيرة غربلة ذات ستارة معزولة، وبرج تزينه ساعة حائطية، قاعة مورد وحجرة الآلة، لها منحى مراقد كنيسة من عصر النهضة، تعلوها المدخنة بزخرفة من فسيفساء مُلولَب، صنعت من آجر أسود وآجر أحمر. وكانت المضخة موضوعة في بئر الاحتكارية الثانية، في حفرة غاستون ماري القديمة، المخصصة للنزح فحسب. جونبار، على يمين وعلى يسار موضع الاستخراج، لم يكن لها سوى مجريان، مجرى المروحة البخارية ومجرى السلالم.

في الصباح، بداية من الساعة الثالثة، كان شافال أول من وصل، وعمل على إخراج الرفاق وإقناعهم بوجوب التصرف مثلما فعل الرفاق في مونسو والمطالبة برفع ثمن العربة بمقدار خمسة سنتيمات. وسرعان ما تدفق الأربعمائة عامل من عمال الجوف من المستودع في قاعة المورد، وسط صخب من الحركات والصيحات. كان الذين يريدون العمل يحملون مصابيحهم، حفاة، يتأبطون مجرفاً أو معولاً؛ بينما الآخرون، وهم بنعالهم القباقيب لا يزالون، المعطف على الكتفين بسبب البرد القارس، كانوا يُمنَعون الوصول إلى البئر؛ وبحَّت أصوات رؤساء العمال الذين كانوا يريدون إعادة النظام، ويتوسلون إليهم ليكونوا عقلاء، ولا يمنعوا من النزول أولئك الذين يشاؤون ذلك عن طيب خاطر.

لكن شافال ثار، عندما رأى كاترين بسروالها القصير ومعطفها، الرأس مشدود بالبخنق الأزرق. كان قد أمرها بشدة، حينما نهض، بأن تبقى مستلقية في فراشها. أما هي فقد تبعته رغم ذلك، حيث يئست من توقف الشغل ذاك، لأنه لا يعطيها مالاً أبداً، إذ يلزمها الشغل لأجلها ولأجله؛ وماذا سيكون مصيرها، إذا هي لم تعد تكسب شيئاً؟ كان يستبد بها خوف، الخوف من ماخور في مارشيين، حيث تنتهي عاملات النقل اللواتي لا قوت ولا موئل لهن.

«اللعنة!»، صاح شافال، «ماذا جئت تفعلين هنا؟».

تلعثمت وقالت بأن لا مداخيل لها وأنها تريد أن تشتغل.

«إذن، تعارضينني، يا فاجرة! عودي في الحال، وإلا رافقتك بضرب من قبقابي على مؤخرتك!».

تقهقرت بشدة خوف، لكنها لم تنصرف، عازمة على تبيّن مآل الأمور.

وصل دونولان عبر سلّم قاعة الغربلة. رغم ضوء الفوانيس الخافت، بنظرة سريعة نظر إلى جميع ما في المكان، تلك الجلبة الغارقة في العتمة، التي كان يعرف كل وجه فيها، الحفارون، الحمالون، عمّال التفريغ، عاملات النقل، وحتى الصبيان المتعلمون. في الصحن، الجديد والنظيف بعدُ، كان الشغل المتوقف ينتظر: بفعل الضغط، كانت الآلة تصدر صفير بخار خفيف؛ وظلت المصاعد معلّقة إلى الحبال الثابتة؛ العربات المهجورة في الطريق، تملأ البلاطات السبيكة. بالكاد أخذوا ثمانين مصباحاً، أما البقية فكانت تتوهّج في قاعة المصابيح.

لكن كلمة واحدة منه قد تكفي دون شك، وحياة الشغل كلها تبدأ من جديد.

«هيه! ماذا يجري إذن، يا أولادي؟»، سأل بملء صوته، «ما الذي يزعجكم؟ فسّروا لي ذلك، سوف نتفق».

في العادة، كان يبدو بمظهر الأب بالنسبة لرجاله، ويلزمهم بالشغل الكثير مع ذلك. كان له عليهم سلطان، يمشي في عجل، يحرص أولاً على كسبهم بدماثة لها دويّ البوق؛ ويجلب محبتهم في معظم الأوقات، إذ كان العمال يحترمون فيه على الأخص الرجل الشجاع، دائماً برفقتهم في المقالع، أول من يتعرض للخطر ما أن يرعب حادثُ الحفرةَ. مرتين بعد انفجار الغاز، تمّ إنزاله، وقد شُدّ بحبلٍ في وسطه حينما تراجع عن فعل ذلك أشدهم شهامة.

«هيا»، أردف قائلاً، «لا تجعلوني نادماً على تحمل مسؤوليتكم. تعلمون بأني رفضتُ مخفر رجال درك هنا. تكلموا بكل طمأنينة، إني أنصت إليكم».

سكت الجميع الآن، محرجين، مبتعدين عنه؛ وكان شافال هو من قال في نهاية المطاف:

«هاك ما في الأمر، سيد دونولان، لا نستطيع الاستمرار في الشغل، نطلب خمس سنتيمات إضافية عن كل عربة».

بدا مستغرباً.

«كيف! خمس سنتيمات! ما موضوع هذا الطلب؟ أنا لا أشكو من تمتينكم للدعائم، لا أريد أن أفرض عليكم تعريفة جديدة مثل وكالة مونسو».

«ذلك ممكن، لكن الرفاق في مونسو على حقّ رغم كل شيء.

إنهم يرفضون التعريفة ويلزمون برفع مقداره خمس سنتيمات، لأنه ليس هناك وسيلة للعمل على نحو لائق، مع الصفقات الحالية. نريد خمسة سنتيمات زيادة، أليس كذلك، أنتم يا رفاق؟».

وافقت أصوات، وعاد الضجيج، وسط حركات عنيفة. شيئاً فشيئاً، اقترب الجميع في حلقة ضيّقة.

أضاء وهج عينَي دونولان، بينما اشتدت قبضته، قبضة الرجل العاشق للحكم القوي، مخافة الإذعان لفتنة الأخذ بخُناق أحدهم. فضّل المجادلة، وكلام العقل.

«تريدون خمسة سنتيمات، وأتفق أن الشغل يستحقها. لكن، لا أستطيع أن أمنحها لكم. إذا منحتها لكم، سوف يُقضى عليَ ببساطة. افهموا أنه يجب أن أعيش، أنا أولاً، كيما تعيشوا أنتم. وأنا وصلت إلى القعر، أدنى زيادة في سعر الكلفة ستقودني إلى الإفلاس. تذكروا، قبل عامين، أثناء الإضراب الأخير، أذعنتُ، كان ذلك في وسعي حينها. لكن رفع الأجر ذاك كان فيه خراب مع ذلك، إذ منذ عامين وأنا أتخبط. اليوم، أُفضّل أن أتخلى عن المحل في الحال، بدل ألّا أعرف، الشهر القادم، من أين أجلب المال لأداء أجوركم».

ضحك شافال بخبث، في وجه ذلك السيد الذي يقصّ عليهم شؤونه بكل ذلك القدر من الصراحة. بينما أنِفَ الآخرون، عناداً، غير مصدّقين، رافضين الإقرار أن رئيساً لا يربح الملايين على حساب عمّاله.

حينذاك ألحَّ دونولان. شرح صراعه ضد مونسو المتربّص به على الدوام، على أهبة افتراسه، لو حدث أن تصرف ذات مساء

على نحو أخرق وقصم ظهره. إنه تنافس متوحش، يجبره على التقتير، لا سيما وأن العمق البالغ في جونبار يرفع عنده سعر الاستخراج، وذلك ظرفٌ غير مواتٍ بالكاد يتم تعويضه بالسُّمك الرفيع لطبقات الفحم. ما كان يجب عليه أبداً أن يرفع من الأجور بعد الإضراب الأخير، لولا الضرورة التي جعلته يحاكي مونسو، خشية من أن يتخلى عنه رجاله. ثم هدّدهم في اليوم التالي، أي نتيجة حسنة تنتظرهم، إذا هم أجبروهم على البيع، وبأنهم سوف يصبحون تحت حكم الوكالة الرهيب! فهو، لا يتربع عرشاً بعيداً منهم، في هيكل غير معلوم؛ هو ليس واحداً من أولئك المساهمين الذين يستأجرون مدبرين قصد جزّ عامل المنجم، لم يسبق أن رآهم قط؛ إنه ربّ عمل، يجازف بشيء آخر غير ماله، يجازف بفطنته، بصحته، بحياته. وقف الشغل سيكون هو الموت، بكل بساطة، لأنه لا يتوفر على مخزون، ويجب عليه رغم ذلك تصدير الطلبات. من جهة ثانية، لا يمكن لرأسمال أدواته أن ينام. كيف سوف يفي بتعهداته؟ من سيؤدي معدل المبالغ التي عهد له بها أصدقاؤه؟ سوف يكون الإفلاس.

«هذا ما في الأمر، أيها الأفاضل!»، قال في الختام، «أريد أن أقنعكم. إن المرء لا يطلب من رجل أن يذبح نفسه بنفسه، أليس كذلك؟ أن أعطيكم سنتيماتكم الخمسة أو أسمح لكم بخوض الإضراب، فذلك كما لو أني ضربتُ عنقي بيدي».

سكَت. جرَت بعض الغمغمات. بدا أن قسماً من عمال المنجم متردد. وعاد الكثير منهم إلى مقربة من البئر.

«أن يكون الناس أحراراً، على الأقل»، قال رئيس عمال، «من الذين يريدون العمل؟».

كانت كاترين قد تقدّمت من بين الأوائل. لكن شافال، الغاضب جداً، دفعها وهو يصرخ:

«إننا متفقون جميعاً، لا يتخلى عن الرفاق إلا الذين لا ذمة ولا همّة لهم!».

ومنذ ذلك الحين، بدا من المحال عقد مصالحة. تعالى الصراخ من جديد، ودُفِع الرجال عن البئر لإبعادهم، حتى لو أدى إلى خطر سحقهم مع الجدران. للحظة، بعدما يئس المدير، حاول الصراع لوحده، وتفريق ذلك الحشد بعنف؛ لكن كانت تلك حماقة لا جدوى منها، ولزمه الأمر أن ينسحب. وظل لدقائق معدودة، في أقصى طرف من مكتب المُورّد، يلهث وهو جالس على كرسي، وقد جنّ من عجزه، ومن أن لا فكرة واحدة خطرت عليه. وفي نهاية المطاف، سكن، وقال لحارس بأن يأتي له بشافال؛ ثم حينما وافق هذا الأخير على المحادثة، صرف الجميع بإيماءة واحدة.

«انصرفوا».

كانت فكرة دونولان هي تبيّن ما يستبطنه ذلك الرجل البدين. وما أن تلفظ كلماته الأولى حتى شعر بأنه مغرور، يأكله هوى الغيرة. لذلك، أخذه بالتملق، وتظاهر بالتعجب من أن عاملاً بحذقه يُفسِد مستقبله بتلك الصورة. يظن من يسمعه، أنه جعله منذ أمد طويل نصب عينيه لترقية سريعة؛ وختم كلامه بأن عرض عليه صراحة تعيينه رئيسَ عمَّال في ما بعد. كان شافال ينصت إليه، وهو صامت، وقبضتاه مشدودتان في البدء، ثم شيئاً فشيئاً انبسطتا. كان رأسه مشغولاً تماماً بتدبير الأمر: إذا أصر على الإضراب،

فلن يكون فيها أبداً سوى مُلازماً عند إتيان، بينما طموح آخر يشرع الأبواب أمامه، طموح الانتقال إلى صف الرؤساء. نار غرور لفحت وجهه وأسكرته. ثم إن عصبة المضربين، التي ينتظرها منذ الصباح، لم تحضر في هذه الساعة؛ لا بد أن عائقاً أوقفها، رجال درك، على الأرجح: لم يعُد الوقت إلا وقت استسلام. لكن مع ذلك كان يرفض بحركة من رأسه، يتظاهر بأنه رجل لا يذعن للرشوة بالخبط على صدره مستاءً. وفي الأخير، دون أن يحدّث ربّ العمل على الموعد الذي ضربه مع رفاق مونسو، وعد بأن يهدئ الرفاق وجعلهم ينزلون إلى جوف الأرض.

بقي دونولان مختبئاً، حتى رؤساء العمال وقفوا بعيداً. مدة ساعة، سمعوا شافال يطيل الكلام ويتحذلق فيه، يجادل، وهو واقف على عربة في المَورِد. صاح به قسم من العمال، انصرف منهم مائة وعشرون، منزعجين، مصرين على القرار الذي جعلهم يتخذونه. كانت الساعة تقارب السابعة، والنهار يطلع، صحواً جداً، نهار مرح في صقيع شديد. ثم، دفعة واحدة، دبّت الحركة من جديد في الحفرة، وتم استئناف العمل المتوقف. أول الأمر، الآلة التي غاص محورها، إذ يُعقَد ويُفَك حبال اللوالب. ثم وسط ضجيج الإشارات، جرى النزول، كانت المصاعد تمتلئ، تهوي، وتصعد من جديد، كانت البئر تبلع نصيبها من الصبيان وعاملات النقل والحفارين؛ بينما على البلاطات السبيكة، عمال التفريغ يدفعون العربات، بجلبة هزيم الرعد.

«ويحك! ماذا تفعلين هنا؟»، صاح شافال في وجه كاترين التي كانت تنتظر دورها، «هلا نزلتِ وكففتِ عن التسكع!».

في الساعة التاسعة، حينما وصلت السيدة إينبو بعربتها رفقة سيسيل، وجدت لوسي وجان على أهبة الاستعداد، أنيقتان رغم لباسهما المرتق عشرين مرة. لكن دونولان استغرب حينما رأى نيغريل الذي كان يرافق عربة الحصان. ماذا إذن، هل كان الرجال ضمن اللقاء؟ لذلك، أخبرت السيدة إينبو وحالها حال الأم، أنها أصيبت بالذعر، وبأن الطرق عامرة بوجوه السوء، حسب ما قيل، وبأنها فضلت أن تحضر مُدافِعاً. كان نيغريل يضحك، ويطمئنها: لا شيء يدعو للقلق، تهديدات من مشاكسين كما العادة دائماً، لكن ليس هناك من يجرؤ على رمي زجاج بحجر. وهو لا يزال مسروراً بنجاحه، قص عليهم دونولان التمرد المقموع في جونبار. الآن، كان يقول بأنه مرتاح جداً. وفي طريق ڤاندام، بينما كانت تلك الآنسات يصعدن العربة، كان الجميع فرحاً بذلك اليوم الرائق، ولم يفطنوا أن هناك، في البرية، على مبعدة منهم، دبيب طويل في ازدياد، الشعب السائر الذي كان يسعُهم سماع عدوِه لو ألصقوا الأذن على الأرض.

«هيه! اتفقنا»، ردّدت السيدة إينبو، «مساء اليوم، سوف تأتي لإحضار الآنسات، وتتعشى معنا. كما أن السيدة غريغوار وعدتني بأنها ستحضر للعودة بسيسيل».

«اعتمدي علي»، أجابها دونولان.

انطلقت العربة صوب ڤاندام. مالت كل من جان ولوسي، للضحك في وجه أبيهما، الذي ظلّ واقفاً في قارعة الطريق؛ بينما كان نيغريل يخبّ بفرسه على نحو أنيق، خلف العجلات الهاربة.

جازت العربة الغابة، وسلكت الطريق المؤدية من فاندام إلى مارشيين. وحينما دنت من **تارتاي** سألت جان السيدة إينبو إن كانت تعرف **لاكوت فيرت**؛ أقرت هذه الأخيرة بأنها رغم مقامها لمدة خمسة أعوام في البلد لم يسبق لها قط الذهاب إلى تلك الناحية. وعليه، انعطفت العربة. **تارتاي** أرض لا تُنبِتُ زرعاً، في حافة الغابة، عُقمها بركاني، تحتها يشتعل منجم من الفحم الحجري المحترق، منذ قرون. ذلك أمر غابر في الخرافات، كان عمال مناجم من البلدة يروون حكاية: لما ضربت نار السماء **سَدوم** بطن الأرض هذه، حيث كانت عاملات النقل يدنّسن أنفسهم بتلك الأفعال الكريهة إلى حدّ أن الوقت لم يمهلهن للصعود من جديد، وحتى اليوم، فإن اللهب يحرقهن في جوف هذا الجحيم. الصخور المفحمة، التي خالط حمرتها سواد، كانت مكسوة بطلع الشّب، أشبه بالجذام. كان الكبريت ينمو زهوراً صفراً عند حوافّ الشقوق. في الليل، أكثر الناس شجاعة الذين كانوا يجرؤون على المجازفة بإلقاء نظرة على تلك الثقوب وكانوا يقسمون بأنهم يرون فيها لهباً، النفوس الآثمة وهي تحترق في سعير الباطن. ومضات تائهة كانت تجري سوية الأرض، وأبخرة حارّة تنبعث باستمرار، تنفث سمّها في قذارة ووسخ مطبخ الشيطان. ومثل أعجوبة من أعاجيب الربيع الأبدي، وسط أرض **تارتاي** الملعونة تلك، كانت **لاكوت فيرت** تنصب مساحات ثيلها المخضرة على الدوام، أشجار الزان فيها التي تتجدد أوراقها دون توقف، حقولها التي تُنبت زرعها لثلاث مواسم في العام. كانت عبارة عن دفيئة طبيعية، يسخنها حريق الطبقات السحيقة. لا يقيم فيها الثلج

أبـداً. خمـر الخضـرة العظيـم، جنـب أشـجار الغابـة العاريـة الأوراق، كان يتفتـح فـي يـوم ديسـمبر ذاك، دون أن يسـفع الصقيـع جوانبهـا.

وسـرعان مـا انطلقـت العربـة وسـط السـهل. كان نيغريـل يسـخر مـن الخرافـة ويشـرح كيف يندلـع الحريق معظم الأحيـان فـي جوف منجـم مـن المناجـم، عبـر اختمـار أغبـرة الفحـم؛ حينمـا لا يمكـن التحكم فيـه فإنـه يحتـرق إلـى مـا لانهايـة لـه؛ وذكـر حفـرة فـي بلجيـكا تـمّ إغراقهـا بعـد تغييـر مجـرى نهـر وصبّـه فـي البئـر. لكنـه سـكت، جماعـات مـن عمـال المناجـم كانـت تُلاقـي العربـة فـي كل دقيقـة منذ مـدة. كانـوا يمـرون وهـم صامتـون، ينظـرون إليهـم بأعيـن خُـزر، يتفحصـون ذلـك التـرف الـذي يجبرهـم علـى فسـح الطريـق. كان عددهـم يـزداد دومـاً، ولـزم أن تسـير الأحصنـة الرّويـد علـى جسـر لاسكارپ الصغيـر. مـا الـذي يجـري إذن ليكـون هـذا الشـعب علـى الطرقـات بهـذا الشـكل؟ ذُعِـرت الآنسـات، وأخـذ نيغريـل يشـمّ ريـح عـراك فـي البريـة المُرعـدة؛ ولقـد أراحـوا حينمـا وصلـوا فـي نهايـة المطـاف إلـى مارشـيين. تحـت الشـمس التـي بـدت وكأنهـا أطفأتهـا، كانـت أفـران الفحـم وأبـراج المصاهـر العاليـة تنفـث الدخـان الـذي كان سـخامه الأبـدي يتقاطـر فـي الهـواء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

II

في جونبار، كانت كاترين تعمل منذ ساعة أصلاً، دافِعةً العربات حتى المِحَطّ؛ وكانت مبللة بدفق من العرق جعلها تتوقف هنيهة لمسح وجهها.

من جوف المقلع، حيث كان يضرب العِرق مع رفاق الصفقة، تعجّب شافال حينما لم يعُد يسمع هدير العجلات. كانت المصابيح لا تضيء بصورة حسنة، وغبار الفحم يحجب الرؤية.

«ماذا إذن؟»، صاح.

حينما أجابت بأنها سوف تذوب من الحر بكل تأكيد، وأنها تشعر بقلبها يُنتزع منها، ردّ عليها بغضب:

«يا غبيّة، افعلي مثلنا، أزيلي قميصك».

كان ذلك على بعد سبعمائة وثمانية أمتار، في الشمال، بالمسلك الأول من عِرق **ديزيري** الذي تفصله ثلاثة كيلومترات عن سلم البئر. عندما يتحدثون عن هذه الناحية من الحفرة، كان عمال منجم البلدة يخفضون الصوت وتصفرّ وجوههم كما لو أنهم تحدثوا عن الجحيم؛ وكانوا يكتفون معظم الوقت بتحريك الرأس، بصفتهم رجالاً يفضلون ألّا يتكلموا بتاتاً عن أعماق الجمر الحارق تلك. كلما أوغلت السراديب صوب الشمال، كانت تدنو من تارتاي، وتلج الحريق الباطني الذي كان يحيل الصخور فحماً، فوق. كان معدل حرارة المقالع، نظراً للحدّ الذي وصلوا إليه، هو خمس وأربعون درجة. هناك يجد المرء نفسه في قلب الحاضرة الملعونة، وسط النيران التي يراها عابروا السهل من خلال الشقوق، تبصق كِبريتاً وأبخرة كريهة.

تـرددت كاتريـن، بعدمـا خلعـت سـترتها سـلفاً، ثـم نزعـت سـروالها القصيـر أيضـاً؛ اسـتأنفت الدفـع، عاريـة الذراعيـن، عاريـة الفخذيـن والقميـص معقـود بحبـل إلـى الخاصرتيـن، مثـل مبذلـة.

«على كل حال، الآن أفضل»، قالت بصوت عال.

فـي اختناقهـا، كان هنـاك خـوف ملتبـس. منـذ أن شـرعوا فـي العمل هنـاك منـذ خمسـة أيام، كانـت تفكـر فـي الحكايـات الخرافيـة التـي هدهـدت طفولتهـا، فـي عامـلات النقـل فـي الزمـان الماضـي، اللائـي يحترقـن أسـفل **تارتـاي**، عقابـاً لهـن عـن أشـياء لـم يكـن أحـد يجـرؤ علـى ذكرهـا. لا شـك، أنهـا كبيـرة الآن بمـا يزيـد عـن القـدر لتصديـق مثـل تلـك السـخافات؛ لكـن، رغـم ذلـك، مـاذا سـوف تفعـل لـو أنهـا شـهدت بغتـة، مـن الجـدار، خـروج فتـاة حمـراء مثـل موقـد، بعينيـن كالجمرتيـن؟ كانـت تلـك الخاطـرة تزيـد مـن تصبّـب عرقهـا.

فـي المِحَـطّ، علـى بعـد ثمانيـن متـراً مـن المقلـع، تتسـلم عاملـة ثانيـة العربـة وتدفعهـا ثمانيـن متـراً أبعـد، حتـى أسـفل السـطح المائل، كيمـا يرسـلها المُـوَرِّد مـع تلـك النـازلات مـن مسـالك الفـوق.

«بُعـداً! تـأخذيـن راحتـك»، قالـت تلـك المـرأة، أرملـة هزيلـة فـي سـن الثلاثيـن، عندمـا رأت كاتريـن بالقميـص، «أنـا لا أسـتطيع ذلـك، إذ يزعجنـي صبيـان السـطح بقذاراتهـم».

«آه! طيـب!»، ردّت الفتـاة، «أنـا لا أبالـي بالرجـال! لأنـي أعانـي مـن شـدة الحـر».

ثـم انصرفـت وهـي تدفـع عربـة خاويـة. الأسـوأ مـن ذلـك هـو فـي مسـلك الجـوف ذاك، هنـاك سـبب آخـر يقتـرن بجـوار تارتـاي، لجعـل الحـرارة غيـر قابلـة للتحمـل. إذ فـي الجـوار أشـغال قديمـة،

سرداب مهجور من غاستون ماري، عميق جداً، كان اشتعال الغاز، منذ عشرة أعوام قد أحرق العِرق، الذي لا يزال مشتعلاً، خلف «المِلاط»، جدار الطين المشيّد هناك والذي يجري ترميمه على الدوام، للتخفيف من وقع المصيبة. المفروض أن تكبو النار لانعدام الهواء؛ لكن لا ريب في أن تيارات مجهولة كانت تذكّيها، وهي متقدة منذ عشرة أعوام، كانت تسخن طين المِلاط مثلما يُسَخّن آجرٌ فرن، حيث يصل لفحها إلى من يمر بالقرب منها. وعلى امتداد هذا التحصين، على طول يفوق مائة متر، يتم النقل، وسط حرارة تصل ستين درجة.

بعد رحلتين، اختنقت كاترين من جديد. من حسن الحظ أن المسلك كان عريضاً وملائماً في عِرق ديزيري ذاك، واحد من أكثرها سمكاً. كان علو الطبقة متراً وتسعين سنتمتراً، مما يمكّن العمال من العمل وقوفاً. لكنهم كانوا يفضلون العمل وأعناقهم ملوية وقليل من النسيم.

«آه! ما هذا، هل أنت نائمة؟»، صرخ شافال بشدة ما أن كفّ عن سماع حركة كاترين، «مَن الذي ألصق بي جاهلة من هذا النوع؟ هلا ملأتِ عربتك ودفعتِها!».

كانت أسفل المقلع، متكئة على مجرفها، وعمّها ضيق، بينما كانت تنظر إليهم جميعاً ببلاهة، ولا تطيع الأمر. كانت لا تراهم على نحو حسن، تحت ضوء المصابيح المائل إلى الحمرة، وهم عراة تماماً مثل بهائم، من شدة سوادهم ووسخهم عرَقاً وفحماً فإن عريهم لم يكن يحرجها. كان ذلك عمل مظلم، ظهور قردة تتمدد، مشهد جهنمي لأطراف مشوية، تكلُّ وسط ضربات مكتومة

وأنين. لكنهم كانوا يميزونها هي دون شك على نحو أفضل، لأن المعاول توقفت عن الحفر، ومازحوها لأنها تجرّدت من سروالها.

«إيه! سوف تصيبينه بالزكام، حذار!».

«ذلك لأن لها ساقين ممتلئتين! هيا، قل يا شافال، فيهما ما يكفي اثنين!».

«أوه! يجب أن نرى. ارفعي ذلك. أعلى! أعلى!».

حينذاك، ودون أن تزعجه تلك المزح، سلّط عليها لسانه.

«هل كفاك ذلك، اللعنة! آه! إنها تحب الكلام المتهتّك. قد لا تبرح مكانها لتسمعه حتى الغد».

بكثير من العناء، عزمت كاترين على ملء عربتها؛ ثم دفعتها. كان السرداب عريضاً فوق القَدر الذي يسمح بالاعتماد على جانبي الأخشاب، قدماها الحافيتان كانتا تلتويان بحثاً عن موضع يسندهما بينما كانت تسير ببطء، ذراعاها مصلبتان إلى الأمام والخصر مكسور. وما أن تسير على طول الملاط، يبتدئ من جديد عذاب النار، وفي الحال يسقط العرق من كل بدنها، قطرات غليظة، مثل مطر العاصفة. وما كادت تصل ثلث المسافة الموصلة إلى المحط، حتى انغمرت كلها، وحجب بصرها، واتسخت هي كذلك بطين أسود. قميصها الضّيّق، وكأنه غطس في مداد، كان يلتصق بجسدها، وينكمش حتى خصريها بحركة الفخذين؛ ولأن ذلك كان يمنعها من التقدم مع ألم شديد، وجب عليها ترك المهمة مرة أخرى.

ما الذي جرى لها ذلك اليوم؟ لم يسبق لها قط أن شعرت بتلك الرخاوة في العظام. لعله هواء فاسد. لأن التهوية لم تكن

تصل في جوف هذا المسلك البعيد. فيه يشم المرء كل أنواع الأبخرة التي تنبعث من الفحم مصحوبة بصوت خفي من نبع يغلي، وتكثر تلك الأبخرة أحيانا إلى حدّ أن المصابيح لا تريد الاشتعال؛ هذا دون الحديث عن انفجار الغاز السائل، الذي لم يكن أحد يشغل به نفسه، بما أن العِرق ينفثه في أنوف العمال على الدوام، على امتداد الأيام الخمسة عشر. كانت تعرفه جيداً، ذلك الهواء الفاسد، ذلك الهواء الميت كما يقول عمال المناجم، في أسفل غازات ثقيلة خانقة، في أعلى، غازات خفيفة تشتعل وتصعق كل مقالع الحفرة، مئات الرجال، في قصفة رعد واحدة. منذ طفولتها، من شدة ما استنشقت منها فإنها تستغرب كونها لا تتحملها الآن، إضافة إلى طنين في الأذنين، وحريق في الحلق.

وبما أنها لم تعد تتحمل الأمر، شعرت بحاجة إلى نزع قميصها. إذ تحول ذلك إلى تعذيب، حيث أن أدنى ثنية في ذلك الثوب كانت تحزّ لحمها، تحرقها. قاومت، أرادت أن تواصل الدفع، مجبرة على الوقوف. لذلك، بسرعة، وهي تحدث نفسها بأنها ستتغطى في المحط، نزعت كل شيء، الحبل، القميص، من شدة الحمّى التي أصابتها ودّت لو سلخت جلدها إن استطاعت ذلك. وبعد أن صارت الآن عارية، مثيرة للشفقة، وانحط قدرها إلى هرولة أنثى تسعى وراء رزقها في وحل الدروب، كانت تكدّ، وعجيزتها ملطخة بالسخام، والقذارة حتى البطن، مثل فرس تجر عربة. على أربع، كانت تدفع.

لكن استبد بها اليأس، لم تكن مرتاحة وهي عارية. ماذا تنزع بعدُ؟ طنين أذنيها كان يصمّها، ويبدو لها أن مِلزماً يشدّ على

صدغيها. سقطت على ركبتيها. بدا لها أن المصباح المثبت على فحم العربة قد انطفأ. وحدها فكرة رفع فتيلها ظلت تطفو وسط خواطرها المختلطة. لمرتين حاولت فحصه، وفي المرتين، كلما وضعته أمامها رأته يكبو كما لو أن النَّفَس يعوزه هو الآخر. بغتة، انطفأ المصباح. حينئذ، كل شيء دار في جوف الظلمات، طاحونة تدور في رأسها، قلبها يضعف، يكفّ عن الخفقان، وقد دبّ فيها خدر التعب الشديد الذي ينوّم أطرافها. انقلبت على قفاها، وكانت تحتضر في هواء الاختناق، سويّة التراب.

«ويح لها، أظن أنها لا تزال تتسكع!»، دمدم صوت شافال.

أنصَتَ من أعلى المقلع، ولم يسمع قطعاً صوت العجلات.

«إيه! كاترين، أيتها الأفعى الملعونة!».

كان الصوت يغيب بعيداً، في السرداب المظلم، ولا نَفَس يرد.

«تريدين أن آتي لجعلك تتحرّكين!».

لم يكن أي شيء يتحرك، دائماً الصمت المطبق نفسه. نزل وقد ثارت ثائرته، ركض بمصباحه، بشدة حتى كاد يصطدم بجسد عاملة النقل الذي كان يعترض المسلك. ظلّ ينظر إليها فاغراً فاه. ماذا جرى لها؟ ليست مزحة على الأقل، بذريعة الإغفاء؟ لكن المصباح الذي حطّه قصد إضاءة الوجه كاد ينطفئ. رفعه، خفضه مرة ثانية وانتهى إلى إدراك السبب: لعلها هبّة ريح فاسدة. سكنت شدّته، واستيقظ فيه تفاني عامل المنجم، أمام رفيق في خطر. وصاح طالباً إحضار قميصه؛ وأمسك بملء ذراعيه الفتاة العارية المغشي عليها، كان يرفعها أعلى ما يمكن الرفع. حينما رمى بملابسهما على كتفيه انطلق جرياً، داعماً حِمله بيد، وفي

يده الثانية المصباحان. كانت السراديب السحيقة تتبسط أمامه، وكان هو يركض، يمنة، يسرة، سعياً في البحث عن الحياة وسط هواء السهل الجليدي الذي كانت تنفثه المروحة. وفي الأخير، أوقفه صوت منبع، سيلان تسرب جار من الصخر. كان في ملتقى سرداب نقل واسع كان في الماضي يوصل إلى غاستون ماري. كانت التهوية فيه تنفخ مثل ريح عاصفة، مريح كثيراً إلى حدّ أن سرت فيه رعدة حينما أجلس عشيقته على الأرض، مسندة إلى الألواح، المغشي عليها دوماً، وعيناها مغلقتان.

«كاترين، هيا، باسم الرب! لا داعي للمزح. تماسكي قليلاً حتى أغمس هذا في الماء».

ذُعِر من رؤيتها بذلك القدر من الرّخاوة. ومع ذلك، استطاع غمس قميصه في النبع وغسل وجهها به. كانت أشبه بالميتة، المدفونة مسبقاً في جوف الأرض، بجسدها النحيل لفتاة تأخر نموها، حيث مظاهر البلوغ لا تزال مترددة. ثم سرت رعشة في صدرها، صدر الطفل، في بطنها وفخذيها، التي لبائسة صغيرة، فُضَّ خاتمها قبل الوقت. فتحت عينيها، وتمتمت:

«أحس بالبرد».

«آه! هذا أفضل كثيراً، بالمناسبة!»، صاح شافال وقد أراح نفسه.

ألبسها ثيابها، دسّ القميص بيسر، ولعن العناء الذي وجد في إلباسها السروال، لأنها لم تستطع العون في ذلك كثيراً. ظلت سادرة، لا تدرك أين هي، ولأي سبب كانت عارية. حينما تذكرت، شعرت بالخزي. كيف تجرأت على نزع كل شيء! وكانت تسأله: هل

شاهدها الناس على تلك الصورة، ولا حتى منديل حول خصرها، كي تحجب نفسها؟ هو الذي كان يمزح، اختلق قصصاً، وأخبرها أنه حملها آنفاً إلى هناك وسط جميع الرفاق المتحلّقين. يا لها من فكرة حينما اتبعت نصيحته وعرّت عجيزتها! ثم أقسم على أن الرفاق لا يعرفون حتى إن كانت مدوّرة أو مربَعة، من شدة ما كان يركض وهو مستقيم.

«ويهِ! إني أموت من البرد»، قال وهو يلبس ثيابه بدوره.

لم يسبق قط أن رأته بذلك القدر من اللطف. في العادة، مقابل كلمة طيبة يقولها لها، كان يصيبها في الحال بكلمتين سخيفتين. كم سيكون طيّباً العيش على وفاق! نفذت إليها عاطفة رقيقة بفعل الاسترخاء من التعب. ابتسمت له، همست: «قبِّلني».

قبّلها واستلقى جنبها، في انتظار أن تستطيع المشيء.

«كما ترى»، أردفت قائلة، «لقد أخطأتَ حين صرختَ هناك، لأني لم أعد أقوى على تحمّل الحر، بصدق! في المقلع، لا تشعرون بالحر أكثر؛ لكن لو علمت كم إننا نكوى، في جوف المسلك!».

«بالتأكيد»، أجاب، «سنكون أحسن في ظلّ الشجر. إنك تتعذبين في هذا الموقع، أنا لا أشك في ذلك، فتاتي المسكينة».

وقد تأثرت كثيراً بسماعه يتفق مع ذلك، فتظاهرت بالشجاعة.

«أوه! هذا وضع سيّئ. ثم، اليوم، الهواء مسموم. لكن سوف ترى، لاحقاً، إن كنت أفعى. عندما يجب العمل، نعمل، أليس كذلك؟ أنا أفضل أن أهلك في ذلك، ولا أجبن».

عمّ الصمت. هو، كان يمسكها من خصرها بذراعه، ويضمها بشدة إلى صدره، كي لا يصيبها مكروه. هي، مع أنها شعرت بالقدرة على العودة إلى الموقع، فقد كانت تسلو بتلك اللذائذ.

«لكن»، تابعت بصوت منخفض، «أود حقاً أن تكون أكثر لطفاً. أجل، نكون سعداء جداً حينما نحب بعضنا قليلاً».

ثم أخذت تبكي بلطف.

«لكني أحبك»، صاح، «بما أني اتخذتكِ».

لم تردّ إلّا بهزة رأس. في معظم الأحيان، هناك رجال يتخذون نساء، للحصول عليهن، ولا يبالون بسعادتهن. كانت دموعها تسيل حرّى، ذلك يزعجها الآن، أي التفكير في عيشتها الهانئة لو أنها صادفت فتى آخر، تشعر دوماً بيده تحيط خصرها على هذا النحو. آخر؟ وانتصبت صورة ذلك الآخر من شدة أثرها. لكن ذلك الأمر انتهى، لم تعد لها سوى الرغبة في العيش إلى آخر المطاف مع هذا، لو أنه أراد فحسب أن لا ينهرها بكل تلك الشدة.

«إذن»، قالت، «احرص على أن تكون هكذا بين فينة وأخرى».

قطع نحيب كلامها، فقبّلها مرة ثانية.

«إنك بلهاء! هاك! أقسم بأن أكون لطيفاً. لست فظاً أكثر من غيري، هيا!».

كانت تنظر إليه، وابتسمت من جديد وسط دموعها. ربما كان على صواب، إذ لا يصادف المرء نساء سعيدات قطعاً. ثم، رغم أنها نقضت عهدها، فقد استسلمت لفرحة رؤيته ودوداً. يا رب! لو أن هذا طال! استعادا رباطة جأشهما؛ وبما أنهما كانا متعانقين مدة طويلة، وقفا بعد سماع وقع خطوات. ثلاثة رفاق كانوا شهوداً على مرورهما، جاؤوا لاستطلاع الأمر.

وانطلق الجميع من جديد. كانت الساعة تقارب العاشرة، وتناولوا الغذاء في مكان مريح ثم عادوا للكدّ في جوف المقلع. لكن أتموا شطائرهم من كسرتي الرغيف المدهون، وكانوا يهمون بشرب جرعة من قارورة القهوة حينما أصابتهم غمغمة قادمة من المواقع النائية بالحيرة. ما ذاك؟ هل هي حادثة أخرى؟ نهضوا، ركضوا. في كل لحظة كانوا يلتقون بحفارين وعاملات نقل وصبيان؛ لا أحد كان يعلم السبب، الجميع يصرخ، لا بد أن تلك مصيبة عظيمة. شيئاً فشيئاً، فزع المنجم كله، ظلال مذعورة تخرج من السراديب، الفوانيس تتراقص، تمضي في الظلماء. أين كان يجري ذلك؟ لماذا لا يقال ذلك؟

بغتة مرّ رئيس عمال صارخاً:

«الحبال تُقطع! الحبال تُقطع!».

حينئذ هبّ الذعر. وكان هناك عدو شديد خلال المسالك المظلمة. العقول تشط. لأي غرض تُقطع الحبال؟ ومن يقطعها بينما الرجال في جوف الأرض؟ بدا ذلك أمراً شنيعاً.

لكن دوّى صوت رئيس عمالٍ ثانٍ، ثم غاب.

«عمال مونسو يقطعون الحبال! فليخرج الجميع!».

عندما أدرك شافال ما يقع، أوقف كاترين في الحال. خدِرَت ساقاه من فكرة أن يلتقي فوق أصحاب مونسو، إن هو خرج. إذن جاءت تلك العصابة التي ظن أنها بين يدي الدرك! لحظة فكر في التقهقر والعروج عبر غاستون ماري؛ لكن ذلك لم يعُد معمولاً به هناك. لعن، وهو متردد، يخفي خوفه، مكرراً أن من البلاهة الجري بتلك الصورة. لن يتركوهم في الجوف، على الأرجح!

دوّى صوت رئيس العمل من جديد، واقترب.

«فليخرج الجميع! إلى السلالم! إلى السلالم!».

وحُمِل شافال مع سيل الرفاق الجارف. دفع كاترين وعاب عليها كونها لا تجري بما يكفي من قوة. هل تريد إذن أن يلبثا لوحدهما في الحفرة، والهلاك جوعاً؟ لأن قطاع طرق مونسو قادرين على كسر السلالم، دون انتظار أن يخرج الناس. قضى عليهم هذا الافتراض الكريه بالشتات جميعاً، ولم تعد ترى على امتداد السراديب سوى كرّاً وفرّاً مسعوراً، سباق مجانين إلى من يكون أول الواصلين، للصعود قبل الآخرين. كان هناك رجال يصرخون بأن السلالم مكسورة، وأن لا أحد سوف يخرج. وحينما شرعوا في الوصول إلى قاعة سلم البئر في جماعات فزعة، كان ازدحاماً حقيقياً: كانوا يهرعون إلى البئر، ويسحقون بعضهم عند الباب الضيق لمنفذ السلالم؛ بينما كان سائس عجوز، أدخل آنفاً الخيول إلى الإسطبل بحيطة، ينظر إليهم بلا اهتمام فيه ازدراء، لأنه اعتاد قضاء الليالي في الحفرة، وهو على يقين من أنه سوف يتم إخراجه دوماً من هناك.

«اللعنة! هلا صعدتِ أمامي!»، قال شافال مخاطباً كاترين، «سوف أمسكك، على الأقل، إذا سقطتِ».

متحيّرة، وقد خنقها عدو مسافة ثلاثة كيلومترات تلك التي بللتها مرة ثانية بالعرق، استسلمت لدوامة الحشد من دون أن تفهم شيئاً. لذلك، جرها من ذراعها، وكاد يكسرها جراء ذلك؛ وأنّت أنيناً، سالت دموعها: لقد نسي أصلاً عهده، لن تكون سعيدة أبداً.

«هيًا تحركي!»، صاح بها.

لكنه كان يخيفها جداً. إذا صعدت أمامه، سوف يعنّفها. لذلك قاومت، بينما دفق الرفاق المجنون كان يدفعهما إلى جنب. كانت تسريبات البئر تسقط قطراً غليظاً، ولوح سلم البئر الذي يزلزله دوس الأقدام، كان يهتز فوق بالوعة الحوض الموحل، التي عمقها عشرة أمتار. وبالمناسبة، ففي جونبار، وقبل عامين وقعت حادثة رهيبة، حيث أدّى انقطاع حبل إلى قلب القفص في عمق البالوعة التي غرق فيها رجلان. والجميع يستحضر ذلك، سوف يهلكون هنا كلهم، إذا هم تراكبوا على الألواح.

«يا رأس الفأس الملعونة!»، صاح شافال، «اهلَكي إذن، سوف أكون قد تخلّصتُ منكِ!».

صعد، وتبعته.

بين الجوف والسطح، هناك مائة واثنان من السلالم، بحوالي سبعة أمتار، كل واحد منها موضوع على درج ضيق يحتل عرضَ المنفذ، وفيه ثقب مربّع بالكاد يسمح بمرور كتفين. أشبه بمدخنة مسطحة، علوها سبعمائة متر، بين حضن البئر وحاجز قسم الاستخراج، هناك قناة رطبة، مظلمة، لا نهاية لها، فيها تتراكب السلالم، مستقيمة تقريباً، في طوابق منتظمة. لصعود ذلك العمود العملاق يتطلب الأمر خمسٌ وعشرون دقيقة من رجل قوي البنية. علاوة على ذلك، لم يكن المنفذ يصلح إلا في حالة الكوارث.

في البدء، صعدت كاترين بهمة ونشاط. إذ تعودت قدماها الحافيتان على رذال الفحم القاطع في المسالك ولم تكن تعاني

مـن الدرجـات المربّعـة، التـي يكسـوها قضيـب مـن حديـد يمنـع الصّـدأ. يداهـا، اللتـان اخشوشـنتا مـن النقـل، تشـدان دون كلـل القوائـم الغليظـة عليهـا بإفـراط. وحتـى ذلـك كان يشـغلها، يخرجهـا مـن كدرهـا، ذلـك الصعـود غيـر المتوقـع، ذلـك الثعبـان الطويـل مـن الرجـال، الذيـن يزحفـون، يرتقـون ثلاثـة فـي سـلم واحـدة، بحيـث أن رأسـه قـد يصـل إلـى السـطح بينمـا ذيلـه لا يـزال مجـروراً علـى البالوعـة. لـم يكـن الأمـر كذلـك بعـد، لا بـد مـن أن الأوائـل هـم بالـكاد عنـد ثلـث علـو البئـر. لـم يعُـد أحـد يتكلـم، وحدهـا الأقـدام تجـري بصـوت مكتـوم؛ بينمـا المصابيـح، مثـل نجـوم سـيّارة، تتباعـد مـن أسـفل إلـى أعلـى، فـي خـط متعاظـم دومـاً.

خلفهـا، سـمعت كاتريـن صبيـاً مـن المتعلميـن يعـدّ السـلالم. وعنـت لهـا أيضـاً فكـرة عدّهـا. لقـد سـبق وصعـدوا خمسـة عشـر سـلماً، ووصلـوا إلـى مرتبـة مـن سـلالم البئـر. لكـن فـي اللحظـة نفسـها، صدمـت سـاقي شـافال. لعـن وهـو يصيـح فيهـا بـأن تحتـاط. مـن واحـد إلـى الثانـي، وقـف العمـود كلـه، ولبـث بـلا حركـة. مـاذا إذن؟ مـاذا يجـري؟ واسـتعاد كل واحـد صوتـه ليسـأل ويذعـر. زاد الهلـع منـذ الجـوف، المجهـول القابـع فـوق كان يخنقهـم زيـادة كلمـا اقتربـوا مـن السـطح. قـال أحـد مـا إنـه يجـب النـزول مـرة ثانيـة، وإن السـلالم كانـت مكسـورة. كان ذلـك هـو شـاغل الجميـع، الخـوف مـن أن يجـد نفسـه فـي الفـراغ. هنـاك تفسـير ثـان، تناقلتـه الألسـن نـزولاً، حادثـة حفّـار زلَـق مـن علـى درجـة. لـم يكـن أحـد يعلـم بالضبـط، صيحـات تمنـع السـماع، هـل سـوف نقضـي الليـل هنـا؟ وفـي نهايـة المطـاف، دون أن يزيـد علمهـم بالأمـر سـعة، اسـتؤنف الصعـود، بالحركـة

الوئيدة والشاقة نفسها، وسط أصوات الأقدام ورقص المصابيح. من المؤكد أن السلالم المكسورة، متروكة للأعلى.

عند السلم الثاني والثلاثين، لمّا جازوا مرتبة ثالثة، أحست كاترين بساقيها وذراعيها وقد تصلّبت. في البداية شعرت بوخز خفيف في جلدها. الآن، لم يعُد لها حسّ بالحديد وبالخشب، تحت قدميها وبين يديها. وجع ملتبس، يغدو حارقاً، شيئاً فشيئاً، يسخن عضلاتها. وبفعل السدر الذي اكتسحها، تذكرت حكايات الجد بونمور، في الوقت الذي لم يكن هناك فيه منفذ وكانت فتيات العشرة أعوام يُخرجن الفحم على الأكتاف، على طول السلالم الثابتة في العراء؛ إلى حدّ أن عندما كانت إحداهن تزلق، أو بكل بساطة تسقط قطعة فحم من سلّة، يتدحرج ثلاثة أطفال أو أربعة جراء ذلك، الرأس إلى الأسفل. لم تعد قادرة على تحمل تشنج أطرافها، لن تصل أبداً حتى النهاية.

سمحت لها وقفات جديدة بالتنفس. لكن الرعب الذي كان يهبّ من فوق، كل مرة، شلّها تماماً. تحتها وفوقها، كانت الأنفاس تختلط، ومن ذلك الصعود بلا نهاية كانت تنشأ دوخة يهزّها غثيانها مع الآخرين. كانت تختنق، سكرانة من الظلمات، متذمرة من سحق جوانب البئر لجسدها. وكانت ترتعش أيضاً من الرطوبة، الجسم عرقان تحت القطر الغليظ الذي كان يبللها. كانوا قد اقتربوا من المستوى، والمطر يهطل بشدة مهدداً بإطفاء المصابيح.

قام شافال بسؤال كاترين، مرتين، ولم يحصل على جواب. ماذا تصنع تحت، هل أسقطَت لسانها؟ تستطيع إخباره إن كانت

تقـاوم. إنهـم يصعـدون منـذ نصـف سـاعة؛ لكـن علـى نحـو بطـيء بحيـث أنهـم لا يزالـون فـي السـلم التاسـع والخمسـين. هنـاك ثلاثـة وأربعـون بعـدُ. وانتهـى الأمـر بكاتريـن أن تمتمـت أنهـا تقـاوم علـى كل حـال. كان سـوف ينعتهـا بالأفعـى إن هـي باحـت بإعيائهـا. لا بـد أن حديـد الدرجـات سـلخ قدميهـا، بـدا لـه أن يجزهـا هنـاك حتـى العظم. بعـد كل مسـكة كانـت تتوقـع أن تـرى يديهـا وقـد أفلتتـا المصاعـد، مسـلوختين وصلبتيـن بحيـث لا تسـتطيع قبـض أصابعهـا؛ وكانـت تظـن أنهـا تتراجـع، منزوعـة الكتفيـن ومفككـة الفخذيـن، بالجهـد المتواصـل. وكانـت علـى الأخـص تعانـي مـن قلـة انحـدار السـلالم، مـن ذلـك الثبـات المسـتقيم تقريبـاً الـذي يجبرهـا علـى الارتقـاء بالاعتمـاد علـى قـوة المعصميـن، وبطنهـا ملصـق علـى الخشـب. زفـرات الأنفـاس تحجـب الآن وقـع الخطـوات، حشـرجة عظيمـة، يزيـد مـن حدتهـا حاجـز المنفـذ، تصعـد مـن الجـوف، وتشـهق فـي السـطح. سُـمِع توجّـع، جـرت كلمـات بيـن الألسـن، صبـي متعلـم، لقـد شـج رأسـه مـع حافـة درج.

وكانـت كاتريـن تصعـد. تجـاوزوا المسـتوى. توقـف المطـر، ضبـاب يثقـل هـواء القبـو، تفسـده رائحـة حديـد بـالٍ وخشـب رطـب. مـن دون إدراكهـا ذلـك، كانـت تُصـرُّ علـى العـد فـي السّـر: 81، 82، 83، 84: هنـاك تسـعة عشـر بعـدُ. تلـك الأعـداد، المكـررة، كانـت وحدهـا تدعمهـا بتأرجحهـا ذي الإيقـاع المنتظـم. لـم تعـد تـدرك حركاتهـا. حينمـا ترفـع عينيهـا، كانـت المصابيـح تـدور كاللولـب. كان دمهـا يسـيل، وتشـعر أنهـا تمـوت، أدنـى نفخـة تسـقطها فـي الهاويـة. الأسـوأ هـو أن الذيـن فـي الأسـفل كانـوا يتقدمـون الآن، وأن العمـود بكاملـه،

يهجم، وقد غلبه الغضب المتزايد من تعبه، والحاجة الشديدة لرؤية الشمس من جديد. كان بعض الرفاق أول من خرج؛ لم تكن هناك إذن درجات مكسورة؛ لكن فكرة كانت تفقدهم صوابهم تماماً، وهي أن تتعرض بعض الدرجات للكسر، قصد منع الأواخر من الخروج، بينما آخرون يتنفسون مسبقاً فوق. وحينما حدث وقوف جديد، دوّت لعنات، وتابع الجميع الصعود، متدافعين، عابرين على الأجساد، للوصول على أي حال.

حينذاك سقطت كاترين. صاحت باسم شافال، في نداء يائس. لم يسمَع، كان يتعارك، يلكز أضلاع رفيق، بضربات من كعبه كيما يصل قبله. تكوّرت، داستها الأقدام. في غشيتها كانت تحلم: بدا لها أنها كانت واحدة من عاملات النقل الصغيرات في ما مضى، وأن قطعة فحم فوقها، زلقت من سلّة، ورمت بها في قعر البئر، مثل عصفور أصابه حجر. بقيت خمسة سلالم فقط يجب تسلقها، لقد قضوا ساعة تقريباً. لم تعرف قط كيف وصلت إلى السّطح، محمولة على الأكتاف، يسندها ضيق المنفذ الخانق. بغتة، وجدت نفسها في ضوء الشمس الباهر، وسط حشد كان يهتف لها.

III

منذ الصبح، قبل طلوع النهار، أخذت المجمّعات رجفة، تلك الرجفة التي تعظم هذه الساعة عبر الطرقات، في البرية كلها. لكن الانطلاق المتفق عليه لم يمكن، إذ شاع خبر بأن قوات التنانين وهم جنود من سلاح الفرسان، ورجال درك كانوا يجوبون السهل. قيل إنهم أتوا من دُوَاي أثناء الليل، ووُجِهت أصابع الاتهام إلى راسنور بكونه خان الرفاق بإخبار السيد إينبو؛ بل إن عاملة نقل أقسمت أنها رأت الخادم يحمل البرقية إلى مكتب البريد. كان عمال المنجم يشدون قبضاتهم، يترصّدون الجنود، خلف ستائرهم، على ضوء الصباح الشاحب.

حوالي الساعة السابعة ونصف، والشمس طالعة، جرت الألسن بخبرٍ ثانٍ، يُطمئِن الذين نفد صبرهم. كان ذلك إنذار كاذب، جولة عسكرية عادية، كما جرت عادة الجنرال على الأمر بها أحياناً منذ الإضراب، بطلب من محافظ مدينة لِيل. كان المضربون يبغضون ذلك الموظّف، الذي عابوا عليه خداعهم حيث وعدهم بتدخل فيه مصالحة، يقتصر، كل ثمانية أيام، على تجوّل الجنود في مونسو، لفرض الاحترام. هكذا، حينما عادت قوات التنانين ورجال الدرك بهدوء إلى طريق مارشيين، مكتفين بجعل المجمّعات لا تسمع صوتاً غير صوت حوافر الجياد على الإسفلت الصلد، صوت يصم الأذان، فقد هزء عمال المناجم من ذلك المحافظ الأبله، وجنوده الذين يدورون على أعقابهم حينما حمى الوطيس. حتى الساعة التاسعة، تسلّوا في هدوء بأن أتبعوا

بصرهم ظهور أواخر رجال الدرك السّخيّة، على الرصيف. كان برجوازيو مونسو لا يزالون نائمين في أحضان أفرشتهم العظيمة، الرأس في الريش. في الإدارة، شوهدت آنفاً السيدة إينبو تنطلق في العربة، تاركة السيد إينبو في الشغل، دون شك، لأن القصر، المغلق والأخرس، بدا ميّتاً. لم تكن هناك حراسة عسكرية لأية حفرة، إنه غياب التبصر، الفادح، ساعة الخطر، السخف الطبيعي عند الكوارث، كل ما قد يقع فيه الحكم من أخطاء، ما أن يتعلّق الأمر بالفطنة للوقائع. كانت الساعة تدّق التاسعة، حينما سلك عمال الفحم طريق ڤاندام في نهاية الأمر، للوصول في الموعد المقرر من قبل اليوم، في الغابة.

فضلاً عن ذلك، أدرك إتيان في الحال أنه لن يكون هناك، في جونبار، الرفاق الثلاثة آلاف الذين كان يعوّل عليهم. الكثير منهم ظن أن المظاهرة أُجِّلت، والأسوأ، أن عُصبتان أو ثلاث، الموجودة في الطريق أصلاً، سوف تُفسِد القضية، إن هو لم يكن على رأسها بأي حال. قبل طلوع النهار، انطلق ما يقارب مائة فرد، لعلهم لاذوا بظلال شجر الزان في الغابة، في انتظار الآخرين. نغض سوڤارين كتفيه حينما صعد الرجل الشاب لطلب مشورته: عشرة رجال أشداء كانوا يقومون بالمهمة أكثر من حشد؛ ثم عاد وانغمس من جديد في كتاب مفتوح أمامه، رفض أن يكون معهم. كان ذلك ينذر بالتحول إلى عاطفة، حينما يكفي حرق مونسو، وكان ذلك أمراً يسيراً. ولما خرج إتيان عبر ممشى المنزل، رأى راسنور جالساً قبالة مدخنة الحديد الصلب، كثير الشحوب، بينما زوجته، التي كبرت في لبستها السوداء الأبدية، تعيب عليه بكلمات حاسمة ومؤدبة.

كان **ماهو** يرى أنه لا بد من الوفاء بالعهد. إن موعداً من هذا القبيل موعد مقدّس. وفي الأثناء، كان الليل قد سكّن من حمياتهم جميعاً؛ هو الآن يخشى حدوث مصيبة؛ ويشرح بأن واجبهم هو الوجود هنالك، لدعم الرفاق في الطريق الصحيح. وافقت ماهود بإشارة منها. كان إتيان يكرر بلباقة أن الواجب يقتضي التصرف على نحو ثوري، دون المساس بحياة الناس. وقبل الانصراف، رفض نصيبه من الخبز الذي أعطي له في العِرق، مع زجاجة من الماحيا؛ لكنه شرب تباعاً ثلاث كؤوس صغيرة، لمقاومة البرد فحسب؛ وحمل معه منها قارورة ملآنة. سوف تحرس ألزير الأطفال. العجوز بونمور ظلّ في فراشه، لأن ساقيه مريضتان من كثرة جريه في اليوم السابق.

لم ينصرفوا البتة معاً، من باب الحيطة. منذ أمد طويل كان جونلان قد اختفى. أسرع **ماهو وماهود** من جانبهما، وانعطفا نحو **مونسو**، بينما توجه إتيان إلى الغابة حيث شاء اللحاق بالرفاق. في الطريق، لحق مجموعة من النساء، تعرّف ضمنها على برولي ولوفاكه: كن يأكلن في سيرهن ثمار الكستناء جاءت بها موكيت، كانت تبلع القشرة حتى يظل ذلك في المعدة بما يزيد من الوقت. لكن في الغابة، لم يجد أحداً، إذ كان الرفاق مسبقاً في جونبار. لذلك سابق نفسه، ووصل قبالة الحفرة حينما كان لوفاك ومائة فرد تقريباً يدخلون الساحة. من كل صوب يخرج عمال المناجم، آل **ماهو** من الطريق الواسع، النساء من خلال الحقول، أشتاتاً، بلا زعماء ولا أسلحة، يسيلون على نحو طبيعي، مثل ماء جارف يتبع المنحدرات. رأى إتيان الفتى جونلان، وقد

تسلق جسراً صغيراً، وجلس كأنه يشهد مسرحية. جرى بشدة، ودخل مع الأوائل. كان عددهم بالكاد يبلغ ثلاثمائة فرد.

تردد الجمع حينما ظهر **دونولان** أعلى الدرج المؤدي إلى المورد.

«ماذا تريدون؟»، سأل بصوت عالٍ.

بعدما غابت عن ناظريه العربة حيث لا تزال بنتاه تضحكان في وجهه، رجع إلى الحفرة، وقد داخلته من جديد حيرة ملتبسة. كان كل شيء هناك على ما يرام، لقد جرى النزول، والاستخراج يعمل، وكان يطمئن على الحال مرة ثانية، ويحدث رئيس عمال حينما تمّ إخباره بدنو المضربين. بسرعة، أخذ مكانه عند نافذة في قاعة الغربلة؛ وأمام ذلك الموج المتعاظم الذي كان يكتسح الساحة، أدرك في الحال عجزه. كيف يدافع عن بنايات مفتوحة على كل الجهات؟ بالكاد استطاع أن يجمع حوله ما يقارب عشرين عاملاً من عماله. لقد هلك.

«ماذا تريدون؟»، كرر، وهو مصفر الوجه من غيظ مكتوم، ويجهد نفسه لقبول مصيبته بشجاعة.

وقع تدافع وسُمعت دمدمة وسط الحشد. انتهى الأمر بإتيان إلى أن برز وهو يقول:

«سيدي، لم نأت لنصيبكم بسوء. لكن يجب أن يتوقف العمل في كل مكان».

نعته دونولان صراحة بالأبله.

«هل تظن أنكم ستحسنون إليّ خيراً إذا أوقفتم العمل عندي؟ كما لو أنكم تطلقون عليّ رصاص بندقية في الظهر، على مقربة.

أجل، رجالي في الجوف، ولن يصعدوا مرة ثانية، أو عليكم بقتلي أولاً!».

هتف الناس ضد كلامه الفظ. كان على **ماهو** أن يمسك **لوفاك** الذي هُرِع، متوعداً، بينما كان إتيان يواصل التفاوض، سعياً منه إلى إقناع دونولان بشرعية عملهم الثوري. لكن هذا الأخير ردّ بالحق في العمل. ثم إنه كان يرفض الجدال حول ذلك السخف، كان يريد أن يكون السيد في محله. وتتمثل حسرته الوحيدة في أن ليس لديه هنا أربعة من رجال الدرك لكنس هؤلاء السفلة.

«تماماً، إنها غلطتي، أستحق ما يقع لي. ليس هناك سوى القوة مع علوج من طينتكم. الأمر مثل الحكومة التي تتصور أنها تشتريكم باحتكارات. سوف تدمرونها حينما تمدكم بالسلاح».

وإن اعترت إتيان رعدة غضب، فقد ظلّ رابط الجأش. خفض صوته.

«من فضلك، سيدي، أعطِ الأمر بأن يصعد عمالك. لا أتحمل وزر ما قد يفعله رفاقي. يمكنك تجنب مصيبة».

«كلا، دعني وشأني! هل أعرفك؟ أنت لا تعمل عندي، لا شيء عندك لتجادلني فيه. وحدهم قطاع الطرق الذين يجوبون البرية هكذا لنهب البيوت».

صيحات غضب شديدة تحجب الآن صوته، على الأخصّ، كانت النساء يشتمنه. وهو يواصل صدّهم، ويحس براحة من تلك الصراحة التي أُفرِغت قبله، قلب الرجل السلطوي. بما أن الخراب قادم لا محالة، كان يعتبر التفاهات جبناً لا جدوى منه. لكن عددهم كان يزداد، تقريباً خمسمائة هرعوا أصلاً نحو الباب،

وكان سيتعرض للفتك، حينما جرّه رئيس عماله بشدة إلى الخلف.

«من فضلك، سيدي! ستحدث مذبحة. ما الفائدة من أن يُقتل رجال بدون مقابل؟».

كان يتخبط، يحتج، بصرخة أخيرة، رمى بها إلى الحشد.

«شرذمة لصوص، سوف ترون ذلك، حينما نصير الأقوياء من جديد!».

أخذه رجاله، تدافعٌ رمى للتو بأوائل العصبة على السّلّم الذي التوت صعدته. كانت النساء هن من يدفع، ينعقن، يحرّضن الرجال. كُسِر الباب بسهولة، باب بلا قفل، مغلق بمزلاج فحسب. لكن السلم كان ضيقاً بإفراط. لم يكن في وسع المتدافعين الدخول منذ مدة طويلة، لو أن ذيل المحاصِرين لم يختر المرور من الفتحات الأخرى. حينئذ تدفقت أعدادهم من كل صوب، من المستودع، من قاعة الغربلة، من بناية المراجل. في أقل من خمس دقائق، صارت الحفرة في حوزتهم، وجابوا طوابقها الثلاثة، وسط هيجان من الحركات والصيحات، وقد حملهم اندفاع نصرهم على ربّ العمل ذاك الذي قاومهم.

كان **ماهو**، مذعوراً، من أوائل الذين هبّوا إلى إتيان وقال:

«لا يجب أن يقتلوا أحداً!».

وكان هذا الأخير يجري مسبقاً؛ وحينما أدرك أن دونولان تمترس في غرفة رؤساء العمال، أجاب:

«وبعد؟ هل ستكون تلك غلطتنا؟ مع مثل هذا المسعور!».

ومع ذلك، كانت تغلب عليه الحيرة، ولم يستسلم لنوبة الغضب تلك إذ كان هادئاً للغاية بعدُ. وكان يتألم أيضاً مما أصابه كزعيم

معتز بنفسه، وهو يرى العصبة تفلت من سيطرته، وتهتاج خارج التنفيذ البارد لمشيئة الشعب، كما توقعها. وبلا جدوى كان يدعو إلى ضبط النفس، ويصرخ بأنه لا يجب أن يجعلوا أعداءهم على حق من خلال أعمال تخريب لا فائدة منها.

«إلى المراجل»، كانت تصرخ **برولي**، «فلنطفئ النيران!».

لوفاك، وقد وجد منشاراً، كان يلوح به مثل خنجر، وحجب الصّخب بصرخة مرعبة:

«فلنقطع الحبال! فلنقطع الحبال!».

وسرعان ما كرّر الجميع ذلك، وحدهما **إتيان** و**ماهو** واصلا الاحتجاج، مذهولين، يتكلمان وسط الجلبة، ولم يثمرا صمتاً. وفي نهاية الأمر، تمكن الأول من القول:

«لكن هناك رجال في الجوف، أيها الرفاق!».

ازداد الصّخب، وانطلقت أصوات من كل صوب.

«ذاك شأنهم! ما كان ينبغي لهم النزول! هذا جزاء الخونة! أجل، أجل، فليلبثوا هناك! ثم، إن لديهم السلالم!».

حينذاك، لما جعلتهم فكرة السلالم تلك يزيدون في عنادهم، أدرك إتيان أن عليه الاستسلام للأمر الواقع. ومخافة مصيبة أفظع، أسرع إلى الآلة، يريد على الأقل رفع الأقفاص، حتى لا تسحقهم الحبال، المقطوعة فوق البئر بوزنها الثقيل، إذا سقطت عليها. كان عامل الآلة قد اختفى، وكذلك بعض عمّال السطح. أمسك بمقبض التشغيل، حرّكها بينما كان لوفاك وآخران يتسلقان هيكل الحديد السبيك الذي يحمل البكرات. بالكاد كانت الأقفاص مثبتة على الأسدّة حتى سُمع صرير المنشار الحاد يقطعُ الفولاذ.

وعمّ صمت شديد، وبدا أن ذلك الصوت قد ملأ الحفرة كاملة، رفع الجميع الرؤوس، كانوا ينظرون، ينصتون، وقد استحوذ عليهم التأثر. في الصف الأول، كان **ماهو** يشعر بفرحة عارمة، وكأن أسنان المنشار قد خلَّصتهم من الشقاء، بأكل حبل حفرةٍ من حُفر البؤس، التي لن ينزل إليها أحد بعد.

لكن **برولي** كانت قد اختفت عبر درج المستودع، وهي تعول دائماً:

«يجب إطفاء النيران! إلى المراجل! إلى المراجل!».

تبعتها بعض النساء. أسرعت **ماهود** لتمنعهن من تكسير كل شيء. كانت أكثرهن رزانة، يمكن للمرء المطالبة بحقه من دون أن يُكبِّد الناس الخسائر. حينما دخلت بناية المراجل، كانت النساء منهمكات أصلاً في طرد عاملَي التسخين، و**برولي**، مسلحة بمجرف كبير، رابضة قبالة أحد المواقد، تفرغه بعنف، وترمي الفحم المتقد في ساحة الآجر، حيث ظلّ يحترق ويبعث دخاناً أسود. كانت هناك عشرة مواقد للمولدات الخمس. وسرعان ما بذلت النساء في ذلك جهدهن، **لوفاكه** محركة المجرف بيديها معاً، **موكيت** التي شمرت كسوتها حتى الفخذين حتى لا تشتعل، جميعهن بلون الدم في انعكاس الحريق، يتصببن عرقاً وشعورهن مشعثة في مطبخ السبت ذاك. كانت أكوام الفحم تصعد، والحرارة الحارقة تُقشّر سقف القاعة الواسعة.

«يكفي، هيا!»، صاحت ماهود، «ركن المؤونة يلتهب».

«ذلك أفضل!»، ردّت **برولي**، «ستكون مهمة وقد أنجزت. آه! اللعنة! كنت دائماً أحدث نفسي بأني سأجعلهم يدفعون ثمن موت رَجُلي!».

في تلك اللحظة، سُمع صوت جونلان الحادّ.

«حذار! أنا سأطفئها! وأفرغ كل شيء!».

لأنه دخل ضمن الأوائل، وثب وسط الجلبة، مسروراً بذلك العراك، وهو يبحث عما يستطيع فعله من شر؛ وعنّت له فكرة تحريك صنابير التفريغ، لإطلاق البخار. وانطلقت النفثات بشدة طلقات رصاص، وأفرغت المراجل الخمسة بنفخة عاصفة، تصفر مثل رعد الصاعقة، أدمت الأذان. اختفى كل شيء وسط البخار، وشحب الفحم، ولم تعد النساء سوى ظلال بحركات مكسورة. وحده الطفل كان ظاهراً، فوق الرواق، خلف زوابع الضباب الأبيض، والفرحة بادية عليه، وفمه متسع من شدة الابتهاج لأنه أطلق ذلك الإعصار.

دام ذلك ربع ساعة تقريباً. صُبّت بعض دلاء الماء على الأكوام لإطفائها تماماً: لقد تمّ تجنب خطر الحريق. لكن غضب الحشد لم يسكن، بل زاد على العكس من ذلك. نزل رجال بمطارق، وتسلّحت النساء بقضبان من حديد؛ وجرى حديث عن ثقب المولدات، وكسر الآلات، وتدمير الحفرة.

بعدما أُخبِر إتيان بالأمر، سارع إلى المكان رفقة **ماهو**. هو بنفسه أخذته نشوة، وساقته حمى الانتقام الحارة تلك. ومع ذلك كان يصارع، ويناشدهم بالهدوء، الآن وقد قُطعت الحبال وأُطفئت النيران، وأُفرغت المراجل مما يجعل العمل مستحيلاً. لم يكن أحد ينصت إليه دوماً، كان سيتجاوزه الأمر من جديد، حينما سُمعت هتافات في الخارج، عند باب صغير منخفض، حيث يؤدي منفذ السلالم.

«فليسـقط الخونـة! أوه! وجـوه الجبنـاء القـذرة! فليسـقطوا! فليسـقطوا!».

كان قد بدأ خـروج عمـال الجـوف. الأوائـل، الذيـن بهرهـم ضـوء السـطح، ظلّـوا هنـاك، يرفّـون جفونهـم. ثـم سـاروا، وهـم يحرصـون علـى الوصـول إلـى الطريـق والهـرب.

«فليسقط الجبناء! فليسقط الإخوة المزيّفون!».

هـرعـت عصبـة المضربيـن كلهـا. فـي أقـل مـن ثـلاث دقائـق، لـم يبـقَ رجـل فـي البنايـات، واصطـف أصحـاب مونسـو الخمسـمائة فـي صفّيـن، لإجبـار أصحـاب ڤانـدام علـى المـرور بيـن ذلـك الحيـد المـزدوج، أولئـك الـذي دفعتهـم خيانتهـم للنـزول. ومـع كل عامل جديد يظهـر عنـد بـاب المنفـذ، بملابسـه الممزقـة والوحـل الأسـود الناجـم عـن الشـغل، كانـت الهتافـات تتضاعـف، والنـكات القبيحـة تسـتقبله: أوه! هـذا، طـول سـاقيه ثـلاث بوصـات، وتليهمـا المؤخـرة فـي الحـال! وذلـك، أنفـه أكلتـه عاهـرات ڤولـكان! وذاك الثالـث، عينـاه تبـولان الشـمع الذي يكفي عشـر كاتدرائيات! وذلك الآخر، الطويل، الأرسـح، الهزيـل الطّـوال. ولمـا خرجـت عاملـة نقـل، عظيمـة، صدرهـا فـي بطنهـا، وبطنهـا فـي عجيزتهـا، ذهـب بهـم الضحـك كل مذهـب. هنـاك مـن شـاء لمسـهم، وزاد المـزح عـن حـدّه، وانقلـب إلـى قسـوة، وكادت تنهـال عليهـم الضربـات؛ بينمـا تواصـل عـرض العفاريـت المسـاكين، وهـم يرتعـدون، صامتيـن أمـام الشـتائم، مترقبيـن الضربـات بمؤخـر العيـن، فرحيـن لمـا تمكنـوا فـي الأخيـر مـن الركـض خـارج الحفـرة.

«يا للعجب! كم عددهم هناك؟»، سأل إتيان.

وكان يسـتغرب مـن رؤيتهـم يخرجـون دومـاً، ويغتـاظ مـن فكـرة أن الأمـر لا يتعلـق ببعـض العمـال، الذيـن اسـتعجلهم الجـوع وأرهبهـم

رؤساء العمل. لقد كذبوا عليه في الغابة إذن؟ تقريباً **جونبار** كله كان قد نزل. لكن صرخة أفلتت منه، أسرع، وهو يرى **شافال** واقفاً عند العتبة.

«اللعنة! ألهذا الموعد جعلتنا نأتي؟».

ودوّى الدعاء عليه، وحدث تدافع للارتماء على الخائن. العجب! لقد أقسم معهم في اليوم السابق، فوجدوه في الجوف، رفقة الآخرين؟ كان غرضه الاستهتار بالناس!

«ارفعوه! إلى البئر! إلى البئر!».

كان شافال، المصفرّ من شدة الخوف، يتمتم، يريد أن يفسّر ما صنع. لكن إتيان كان يقطع عليه الكلام، وقد ثارت ثائرته، ومَلكه حنق العصبة.

«لقد شئت أن تكون معهم، وسوف تكون. هيا! تقدم، أيها الكلب القبيح!».

حجبت صيحة أخرى صوته. ظهرت كاترين، بدورها، وقد بهرتها الشمس الصافية، مذعورة لأنها وقعت بين هؤلاء المتوحشين. وساقاها المكسورتان من صعود السلالم المائتين واثنين، والكفّان داميتان، كانت تلهث، حينما اندفعت **ماهود** التي رأتها، رافعة يدها.

«آه! أيتها السافلة، أنتِ أيضاً! حينما تهلك أمك جوعاً، تخونينها لأجل قاهركِ الديوث!».

أمسك **ماهو** الذراع، منعَ اللطمة. لكنه هزّ ابنته، وثار غضباً مثل زوجته وهو يعيب عليها تصرفها، وقد جن جنونهما معاً، وصرخا أشد من الرفاق.

وبلغ غضب إتيان مبلغه لما شاهد كاترين. كان يردد:

«هيّا بنا! إلى الحفر الأخرى! وسوف تأتي معنا، أيها الخنزير النّجس!».

بالكاد وجد شافال متسعاً من الوقت لاسترجاع نعليه من المستودع، ورمى قميصه الصوف على كتفيه الجامدين برداً. كان الجميع يجرجره، يجبره على الركض وسطهم. متحيّرة، لبست كاترين نعليها كذلك، وربطت إلى عنقها سترتها الرجالية البالية التي تتغطى بها منذ دخول البرد؛ ثم جرت خلف عاشقها، لم تشأ هجره، لأنهم سوف يفتكون به، بكل تأكيد.

وعليه، في دقيقتين، خلا جونبار. جونلان الذي عثر على بوق للنداء، كان ينفخ، يخرج أصواتاً غليظة، وكأنه جمع عجول. كانت النساء، **برولي**، **لوفاكه** و**موكيت** يرفعن ثيابهن للجري؛ بينما **لوفاك** يلوّح بساطور في يده كأنه عصا طبل. وكان يفد عليهم رفاق آخرون دوماً، كانوا حوالي ألف فرد، بلا ترتيب، يتدفقون على الطريق كسيل جارف. كان مسلك الخروج ضيّقاً، فتم تحطيم بعض الحواجز.

«إلى الحُفر! فليسقط الخونة! لا شغل بعد اليوم!».

ثم سقط جونبار بغتة في صمت عظيم. لا رجل واحد، ولا نفَس واحد. خرج **دونولان** من غرفة رؤساء العمال، ولوحده تماماً، مانعاً بإيماءة منه أن يتبعه أحد؛ جال الحفرة. كان شاحباً، وساكناً جداً. أول الأمر، وقف قبالة البئر، رفع عينيه، نظر إلى الحبال المقطوعة: مِزَقٌ من الحديد تتدلى بلا جدوى، ترك تقطيع المنشار أثراً غائراً، جرحاً ندياً يلمع في سواد الدهون.

ثم صعد على الآلة، تفحص محورها الهامد، نصل مفصل عضو عملاق أصابه الشلل، لمس معدنه البارد مسبقاً، الذي أصابته برودته برعشة كما لو أنه لمس ميتاً. ونزل إلى المراجل، مشى وئيداً قبالة المواقد المنطفئة، فاغرة الأفواه والمغرَقة، ضرب بقدمه المولدات التي رنّ فراغها. هيا! لقد قضي الأمر، وأفلس تماماً. حتى لو رتق الحبال، وأشعل النيران من جديد، أين سوف يجد رجالاً؟ وخمسة عشر يوماً من الإضراب أمامه، لقد حلّ إفلاسه. وفي يقينه ذلك من مصيبته العظمى، لم يعُد يحمل ضغينة للصوص **مونسو**، كان يشعر بتواطؤ الجميع، غلطة عامّة، أزلية. هم أوغاد لا شك، لكنهم أوغاد لا يعرفون القراءة ويهلكون من الجوع.

IV

انطلقت العصبة، عبر السهل العراء، المُبيَضّ من الصقيع، تحت شمس الشتاء الشاحبة، وكانت تفيض عن الطريق، خلال حقول الشمندر.

ما أن وصل إتيان **لافورش أوبوه** حتى تسلم القيادة. دون أن يتوقف الحشد، كان يصيح بالأوامر، ينظم المسيرة. جونلان، في المقدمة، يعدو وهو ينفخ في بوقه موسيقى همجية. ثم في الصفوف الأمامية، تتقدم النساء، سلاح بعضهن عِصيٌّ، **ماهود** بعينيها المتوحشتين اللتين بدتا وكأنهما تبحثان في البعيد عن مدينة العدل الموعودة؛ برولي، لوفاكه، موكيت، يباعدن خطوات سيقانهن تحت أسمالهن، مثل جنود ذاهبين إلى الحرب. وإذا لقيهم سوء، سوف نرى حقاً إذا تجرّأ رجال الدرك على ضرب النساء. وكان الرجال يتبعون، قطيعاً مختلطاً، في ذيل يتسع، تنتصب فيه قضبان حديد، يغلب عليها ساطور لوفاك الوحيد، الذي كان نصله يلمع في الشمس. في الوسط، لم يكن إتيان يزيغ بناظره عن شافال، الذي كان يجبره بالمضي أمامه؛ بينما **ماهو**، في الخلف، كئيب المحيّا، يرمي بنظره إلى كاترين، المرأة الوحيدة بين أولئك الرجال، مصرة على العدو جنب عشيقها حتى لا يمسه أحد بسوء. رؤوس عارية كان شعرها يتفرق في الهواء الطلق، لم يعُد يسمع سوى خفق نعال الخشب، مثل ركض قطيع فُكّ من القيد، يحمله الرنين الهمجي لجونلان.

لكن في الحال، علت صرخة جديدة.

«خبزا خبزا خبزا».

كان الوقت منتصف النهار، جوع الأسابيع الستة من الإضراب صحا في البطون الفارغة، وزاد من حدته الجري وسط الحقول. فتات الصباح النادر. ثمار الكستناء المعدودة من موكيت أضحت بعيدة أصلاً؛ وكانت البطون تصرخ، وإلى ذلك الألم أضيف السخط البالغ على الخونة.

«إلى الحفر! لا شغل بعد اليوم! الخبز!».

إتيان الذي رفض أكل نصيبه، في المجمّع، كان يشعر في صدره بإحساس انتزاع لا يطاق. لم يكن يشكو؛ لكن بحركة غير إرادية، كان يتناول قارورته بين فينة وأخرى، ويبتلع جرعة من الماحيا، ومن شدة ما كان يرتعد فقد ظن أنه في حاجة إلى ذلك للذهاب إلى آخر المطاف. كانت وجنتاه تسخنان، ولهب يتقد في عينيه. ومع ذلك، كان يحافظ على رزانته، لأنه يريد أن يتجنب دائماً الخسائر التي لا فائدة منها.

وبما أنهم وصلوا إلى درب جوازيل، قام حفّار من ڤانددام انضم إلى العصبة قصد الانتقام من ربّ عمله، بدفع الرفاق صوب اليمين، وهو يصرخ:

«إلى غاستون ماري! يجب أن نوقف المضخّة! يجب أن تدمّر المياهُ جونبار!».

الحشد المجرور انعطف مسبقاً، رغم احتجاج إتيان، الذي توسّل إليه بأن يتركوا المياه تنزح. ما جدوى تدمير السراديب؟ كان ذلك يهيج قلبه، قلب العامل رغم امتعاضه. كما رأى ماهو بدوره أن من الجور مهاجمة آلة. لكن الحفّار كان يلقي دوماً صرخة انتقامه، وتطلب الأمر أن يصرخ إتيان أشد منه:

«إلى ميرو! هناك خونة في الجوف! إلى ميرو! إلى ميرو!».

بحركة واحدة، ردَّ الحشدَ إلى الطريق على اليسار، بينما جونلان الذي أخذ زمام المقدمة من جديد، كان ينفخ في البوق بقوة أشد. وحدثت حركة عظيمة. هذه المرة، أنقذت غاستون ماري.

وتم قطع الكيلومترات الخمسة التي تفصلهم عن ميرو في ظرف نصف ساعة، هرولة تقريباً، خلال السهل الذي لا حدّ له. كانت القناة، في تلك الناحية، تقطعه في شكل شريط من الجليد. وحدها أشجار الضفاف العارية، التي حوّلها الجليد إلى شمعدانات عملاقة، وتغير من شكله الموحد المسطح، الممتد والغابر، في سماء الأفق، مثلما في بحر. تموُّجٌ من الأراضي كان يحجب مونسو ومارشيين، كانت الشساعة العارية.

وصلوا إلى الحفرة، حينما رأوا رئيس عمالٍ يقف ثابتاً على معبر قاعة الغربلة لاستقبالهم. كان الجميع يعرف الأب **كانديوه** حق المعرفة، عميد رؤساء العمل في مونسو، شيخ أبيض الجلد والشعر تماماً، كان يشارف على سني عمره السبعين، معجزة حقيقية عن الصحة الجيدة في المناجم.

«ماذا أتيتم لتفعلوا في هذه الناحية، يا كومة من العاطلين؟»، صاح.

توقّفت العصبة. لم يعُد ذاك ربّ عمل، كان رفيقاً؛ وقد منعهم شيء من الاحترام أمام ذلك العامل العجوز.

«هناك رجال في الجوف»، قال إتيان، «دعهم يخرجون».

«أجل، هناك رجال»، استأنف الأب **كانديوه**، «هناك حقاً ما يفوق سبعين رجلاً، الآخرون خافوا منكم، أيها الأوغاد الأشرار!

لكن أخبركم بأنه لن يخرج واحد منهم، وإلا سوف أتصرف معكم!».

تعالت صيحات، كان الرجال يدفعون، والنساء يتقدمن. بعدما نزل بسرعة من على المعبر، كان رئيس العمال يمنع الباب الآن. حينذاك، أراد **ماهو** التدخل.

«يا صديق، إنه حقنا، كيف نفلح في جعل الإضراب عاماً إذا لم نجبر الرفاق على الانضمام إلينا».

ظل العجوز ساكتاً للحظة. من البيّن أن جهله في ما يخص التحالف يساوي جهل الحفّار. وفي نهاية المطاف أجاب:

«إنه حقكم، لا أقول شيئاً. لكن، أنا لا أعرف سوى الأمر. أنا وحدي هنا. الرجال في الجوف حتى الساعة الثالثة، وسوف يظلون هناك حتى الثالثة».

غابت الكلمات الأخيرة وسط الهتافات الرافضة. كان هناك من يهدد بقبضته، ويغلب النساء بأصواتهن صوته، وينفخن أنفاسهن الحارة في وجهه. لكنه كان شديد العزم، الرأس مرفوع، بذقنه وشعره الأبيض بياض الثلج؛ والعزم يزيد صوته قوة حيث كان يُسمع جلياً فوق الجلبة.

«واسم الرب! لن تمرّوا! مثلما أن هذه الشمس تضيئنا، أفضل أن أموت على أن أسمح بلمس الأسلاك. لا تدفعوا إذن بعد هذا، وإلّا ألقيت بنفسي في البئر أمامكم!».

سرت رعدة، تراجع الحشد فزعاً. أما هو فقد تابع:

«من الخنزير الذي لا يفهم هذا؟ ما أنا إلا عامل مثلكم. قيل لي بأن أحرس، ها أنا أحرس».

لم تكن فطنته تتعدى هذا الحدّ، الأب **كانديوه**، المتصلّب في عناده، عناد الواجب العسكري، الرأس ضيق، والعين خابية بالحزن الأسود لنصف قرن في الجوف. كان الرفاق ينظرون إليه، وقد تحركت نفوسهم، إذ وصل في مكان ما منهم صدى ما كان يقوله لهم، طاعة الجندي تلك، الإخاء والإذعان أثناء الخطر. ظن أنهم لا يزالون مترددين، كرر عليهم:

«ألقي بنفسي في البئر أمامكم!».

هزة عظيمة أخذت العصبة من جديد. أدار الجميع ظهره، وعاد الركض في الطريق اليمنى، مسرعة إلى ما لا نهاية له، وسط الأراضي. من جديد، تعالت الصيحات:

«إلى مادلين! إلى كريفكور! لا شغل بعد اليوم! خبز! خبز!».

لكن، في الوسط، ولاندفاع المسيرة، وقع تزاحم. قيل إن ذلك كان شافال، الذي أراد أن ينتهز الفرصة للهرب. كان إتيان قد قبض عليه من ذراعه، مهدداً بتحطيمه، إن هو فكَر في خيانة ما. وكان الثاني يتخبط، ويحتج بغضب جامح:

«لماذا كل هذا؟ ألستُ حرّاً؟ أنا أرتجف من البرد منذ ساعة، أريد أن أغتسل. أتركني!».

كان يتألم في حقيقة الأمر من الفحم الملتصق بجلده من العرق، ولم يعُد قميصه الصوف يحميه من البرد بتاتاً.

«أسرع، وإلّا نحن من سيغسل وسخك»، ردّ عليه إتيان، «ما كان يجب عليك المزايدة والمطالبة بالدم».

كانوا يهرولون دوماً، وانتهى به الأمر إلى الالتفات صوب كاترين، التي كانت تناضل. كان ينزعج من الشعور بها جنبه، بذلك

القدر من البؤس، ترتعش في معطفها الرجالي البالي، وسروالها الموحل. لا بد أنها ميتة من شدة التعب، ومع ذلك كانت تجري.

«يمكن لكِ الانصراف، أنتِ»، قال في نهاية المطاف.

بدا على كاترين أنها لم تفهم القصد. لما صادفت عيناها عيني إتيان عبرتهما فحسب ومضة عتاب قصيرة. ولم تتوقف عن الهرولة قطعاً. لماذا يريد أن تتخلى عن رجلها؟ لم يكن شافال لطيفاً البتة، بكل تأكيد؛ بل كان يضربها، أحياناً. ولكنه رجلها، الرجل الذي حصل عليها هو الأول؛ وكانت تثور من أن ينقضّ عليه أكثر من ألف فرد. ولسوف تحميه، دون عاطفة، من باب الاعتزاز بالنفس.

«اذهبي!»، كرّر **ماهو** بشدة.

أبطأ أمر أبيها من جريها لحظة. كانت ترتعد، دموع تنفخ جفنيها. ورغم خوفها، عادت إلى مكانها، وجرت دوماً. حينذاك، تركت وشأنها.

جازت العصبة طريق جوازيل، سلكت لحظة طريق **كرون**، ثم صعدت نحو **كونيي**. من هذه الناحية، مداخن مصنع تخط الأفق المنبسط، حظائر من خشب، مشاغل من الآجر، ذات الفتحات العريضة المغبرّة، تمرّ تباعاً على طول الرصيف. جازوا على التوالي بيوتاً خفيضة بمجمّعين سكنيَين، مجمع مائة وثمانون، ثم مجمع ستة وسبعون؛ ومن كل واحد، بعد نداء البوق، والهتاف الخارج من جميع الأفواه، خرجت بعض العوائل، رجالاً، نساء، وأطفالاً، يهرولون معهم أيضاً، ملتحقين بذيل الرفاق. حينما وصل الحشد قبالة **مادلين**، كانوا عن حق ألفاً وخمسمائة فرد. الطريق

ينحني بمنحدر هيّن، كان على موج المضربين المدمدم أن ينعطف عبر ركام الردم ثم انتشر في ساحة المنجم.

في تلك اللحظة لم تكن الساعة قد بلغت الثالثة بعد. لكن رؤساء العمال، الذين كانوا على علم، عجّلوا بالصعود؛ ولما وصلت العصبة، كان الخروج قد تم، ظلّ في الجوف عشرون رجلاً تقريباً، خرجوا من أقفاص المصاعد. هربوا، تبعهم الحشد قذفاً بالحجارة. أصيب اثنان، وتخلّى ثالث عن كمّ سترته. مطاردة الرجال تلك أنقذت الأدوات، لم تُلمس الأسلاك ولا المراجل. وابتعد الموج الدافق أصلاً، وتدحرج على الحفرة المجاورة.

هناك أيضاً، صادفت العصبة وقت الخروج. قُبِض على عاملة نقل وضربتها النساء، السروال القصير ممزق وردفاها عاريان أمام الرجال الذين كانوا يضحكون. لُطِم الصبيان المتعلمون، فرّ بعض الحفّارين، الأضلاع مكدومة من أثر الضرب، والأنف مدمى. وفي خضم تلك الشراسة المتعاظمة، تلك الحاجة العتيقة للثأر الذي أخذ جنونها بكل العقول، تواصلت الصيحات، واختنقت بها الحناجر، موت الخونة، كراهة الشغل سيّئ الأجر، زمجرة البطن الذي يريد خبزاً. شُرع في قطع الأسلاك، لكن المنشار لم يكن يقطع، الأمر يتطلب وقتاً طويلاً، الآن وقد عمتهم حمّى السير قُدُماً، دائماً إلى الأمام. تمّ كسر صنبور في المراجل؛ بينما الماء المصبوب ملء الدلاء في المواقد حطّم حواجز الحديد السبيكة.

في الخارج، جرى الكلام عن الزحف على **سان توما**. كانت تلك الحُفرة أفضلها انضباطاً، لم يصبها الإضراب، لعل من نزلها يعُد تقريباً بسبعمائة رجل؛ وكان هذا الأمر مثيراً للتذمر، سوف

ينتظرونهم بالعصي، في معركة متفق عليها، مكاناً وزماناً، حتى يُرى من يظل طريح الأرض. لكن شاع خبر بأن هناك رجال درك في سان توما، رجال درك الصباح الذين استُخِفّ بهم. كيف عُلم بالأمر؟ لا أحد أمكنه قول ذلك. لا يهم! عمَّهم الخوف، وقرروا الزحف على **فوتري كانتيل**. وأخذهم الدّوار، والتأم الشمل من جديد على الطريق، يخفقون بنعالهم الخشب، مندفعين: إلى فوتري كانتيل! إلى فوتري كانتيل! الجبناء هناك كانوا حقاً يُعدون بأربعمائة فرد، سوف يضحك الحشد! وهي واقعة على بعد ثلاثة كيلومترات، كانت الحفرة تختفي في ثنية بقعة، قرب **لاسكارپ**. وصعدوا أصلا مرتقى **پلاتريير**، طريق درب **بونيي**، حينما صاح صوت ظلّ غير معلوم، بفكرة أن قوات التنانين كانوا على الأرجح هناك، في فوتري كانتيل. حينها، من أقصى المسيرة إلى أقصاها، تكرر أن قوات التنانين هناك. أبطأ تردد السير، ودبّ الذعر شيئاً فشيئاً، في تلك البلدة التي أنامتها العطالة، التي كانوا يجوبون أرجاءها منذ ساعات. لماذا لم يصادفوا جنوداً؟ كان ذلك الإفلات من العقاب يحيّرهم، حينما يخطر ببالهم القمع الذي كانوا يستشعرون مَقدَمه.

ودون أن يُعرف من أين ينطلق، سلَطهم أمر جديد على حفرة أخرى.

«إلى لافيكتوار! لافيكتوار!».

لم يكن هناك إذن لا قوات تنانين ولا رجال درك في لافيكتوار؟ لم يكن لهم علم بذلك. بدا الاطمئنان على الجميع. وبعد أن داروا على أعقابهم، نزلوا من جهة **بومون**، واختصروا الطريق عبر

الحقول، للعودة إلى طريق **جوازيل**. كانت السكة الحديدية تقطع عليهم الطريق، فقاموا بقلب الحواجز لاجتيازها. الآن، كانوا على مقربة من مونسو، تموُّج الأراضي البطيء كان ينخفض، ويوسع بحر ثمار الشمندر، بعيداً جداً، حتى بيوت مارشيين السود.

كان، هذه المرة، عدواً على مسافة خمسة كيلومترات كاملة. ومن شدة الاندفاع الذي كان يجرفهم، لم يشعروا بالتعب الفظيع، بأقدامهم المحطمة والمسلوخة. كان الذيل يتمدد دوماً، ويزدادُ بالرفاق الملتحقين في الطريق، في المجمّعات. حينما جازوا القناة عند جسر **ماغاش** ووقفوا قبالة لافيكتوار، كان عددهم ألفين. لكن الساعة الثالثة كانت قد دقّت، والخروج تم، لم يبقَ رجل واحد في الجوف. وتجلى إحباطهم في عبارات وعيد غير مجدية، ولم يكن في وسعهم سوى قذف الآجر المكسور في وجه عمال الردم الذين قدموا للعمل. وقع كرّ وفرّ، وصارت الحفرة المقفرّة في حوزتهم. ولما ثارت ثائرتهم لغياب وجه خائن يستحق اللطم، هجموا على الأغراض. انخرم فيهم كيس الضغينة، كيس مسموم، امتلأ ببطء. كانت أعوام تلو أعوام من الجوع تعذبهم بمخمصة الذبح والتدمير.

خلف حظيرة، شاهد إتيان حمّالين يملؤون عربة بالفحم.

«اغربوا عني!»، صاح، «لن تخرج قطعة فحم واحدة!».

وبأمر منه، أسرع ما يقرب من مائةُ مُضرِبٍ؛ ولم يكن للحمالين متسع من الوقت سوى للابتعاد. قام رجال بفك الجياد التي خافت وانطلقت، بعد لكزها؛ بينما أخرى حطمت المحامل عند قلب العربة.

وبضربات ساطور شديدة، ارتمى لوفاك على المرافع لتحطيم المعابر. كانت تصدّ ضرباته، وعنّت له فكرة اقتلاع القضبان، وقطع السكة، من أدنى الساحة إلى أقصاها. وسرعان ما انهمكت العصبة كاملة في تلك المهمة. قام **ماهو** بتحطيم قضبان السكة، مسلحاً بقضيبه الحديد الذي استعمله مثل رافعة. في تلك الأثناء، قامت **برولي**، وخلفها النساء، باكتساح قاعة المصابيح، حيث العصي المُحلِّقة غطت البلاط بحطام المصابيح. وكانت **ماهود**، وقد ركبت هواها، تخبط بمثل قوة لوفاكه. وتبللن جميعهن بالزيت، وكانت **موكيت** تمسح يديها في جبّتها القصيرة، وتضحك من كونها متسخة بكل ذلك القدر. وللمزح، أفرغ جونلان مصباحاً في عنقها.

لكن أفعال الانتقام تلك لم تعطهم ما يؤكل. كانت البطون تصرخ بأعلى صوت. وغلب النواح الشديد مرة أخرى:

«خبزا خبزا خبزا».

وبالمناسبة، في لافيكتوار، كان لرئيس عمال سابق محل لبيع الطعام. لا شك أنه خاف، كان محله مهجوراً. حينما رجعت النساء وانتهى الرجال من اقتلاع قضبان السكة، حاصروا محل بيع الطعام، الذي استسلمت ستائر نوافذه في الحال. لم يجدوا خبزاً، كان هناك فحسب قطعتان من اللحم النيّئ وكيس من البطاطس. وأثناء النهب فحسب، كُشف الغطاء عن خمسين زجاجة ماحيا تقريباً، اختفت مثل قطرة ماء وقعت على الرمل.

ولأن إتيان كان قد أفرغ قارورته، تمكن من ملئها مجدداً. شيئاً فشيئاً، سَكرة قبيحة، سَكرة الجياع، أدمت عينيه، وأبرزت أسنان

ذئب، بين شفتيه الشاحبتين. وبغتة، أدرك أن شافال هرب، وسط الجلبة. لعن، وركض رجال، قُبض على الهارب الذي كان يختبئ مع كاترين خلف خزنة الخشب.

«آه! يا لك من وغد حقير، تخاف أن تورط نفسك!»، صاح إتيان، «أنت في الغابة من طلب إضراب عمال الآلات، لإيقاف المضخات، والآن تريد أن تهرب غفلة منا! يا للعجب! اللعنة! سنعود إلى غاستون ماري، أريد أن تُحطم المضخة. أجل، اللعنة! سوف تحطّمها!».

كان سكران، ويدفع بنفسه رجاله نحو تلك المضخة، التي أنقذها ساعات معدودة من ذي قبل.

«إلى غاستون ماري! إلى غاستون ماري!».

كان الجميع يهتف باسمه، وهرعوا؛ بينما شافال يطلب دوماً أن يدَعوه ليغتسل، وقد أمسكوا به من الكتفين، وجرجروه، ودفعوه بعنف.

«هيا انصرفي!»، صاح **ماهو** في وجه كاترين، التي عادت هي كذلك للجري.

هذه المرة، لم تتقهقر، بل رفعت نحو أبيها عينين ترميان بشرر، وتابعت الجري. من جديد، سلكت العصبة السهل العراء. دارت على عقبيها، من الطرق الطويلة المستقيمة، من الأراضي المتسعة بلا حد. كانت الساعة تشير إلى الرابعة، الشمس النازلة في الأفق، كانت تُمدِّد على التراب الجليدي ظلال شرذمة الغوغاء تلك، بحركاتهم الحنقة الكثيرة.

تجنبوا مونسو، ثم وجدوا أنفسهم مرة ثانية في الجهة العليا

على طريق جوازيل؛ وحتى لا يسلكوا منعطف لافورش أوبوه، مرّوا أسفل جدران بيولين. وكان آل غريغوار قد غادروها آنفاً بالتحديد، لأنهم على موعد مع المحامي، قبل الذهاب للغذاء عند آل إينبو، حيث عليهم ملاقاة سيسيل. بدت الضيعة وكأنها نائمة، بمخرف أشجار الزيزفون المقفر، برياضه وبستانه العاريين في الشتاء. لا حركة في البيت، الذي كانت نوافذه المغلقة تظلم ببخار الداخل الحار؛ ومن الصمت البالغ يخرج ما يوحي بالدماثة، وراحة العيش، الإحساس الأبوي بالأفرشة الجيدة والمائدة الجيدة، والسعادة الساكنة، حيث كانت تجري حياة المالكين.

ودون أن تتوقف، كانت العصبة ترمي بنظرات من خلال السياج، على طول الجدران الحامية التي انتصبت عليها قيعان قنان زجاجية مُكسّرة. بدا الصياح من جديد:

«خبزا خبزا خبزا».

وحدها الكلاب ردّت بنباح شرس، كلبان كبيران من فصيلة دنماركية أعفران، انتصبا على قوائمهما، الخطم مشرع. وخلف ستار مسدود، لم يكن هناك سوى الخادمتين، ميلاني، الطاهية، وأونورين، خادمة الغرف، وقد جذبهما ذلك الصراخ، تتصببان عرقاً من شدة الخوف، شاحبتين تماماً بمشاهدة أولئك المتوحشين يسيرون تباعاً. جثتا على ركبهما، ظنا أنهما ميتتان، حينما سمعا حجراً، واحداً، يكسر زجاج نافذة مجاورة. كانت تلك مزحة من جونلان: لقد صنع مقلاعاً من طرف حبل، وأرسل تحية لآل غريغوار عند مروره. وعاد أصلاً إلى النفخ في بوقه، وتاهت العصبة بعيداً، بالصوت الذي خفت:

«خبزا خبزا خبزا».

تم الوصول إلى **غاستون ماري**، في كتلة زاد حجمها، أكثر من ألفين وخمسمائة مسعور، يحطّم كل شيء، يكنس كل شيء، بقوة السيل الجارف المتزايدة. كان رجال درك قد مروا من هناك من قبل ساعة، وانصرفوا من ناحية **سان توما**، إذ ضلّلهم بعض القرويين، ولم يتخذوا الحيطة، في عجلتهم، من ترك مخفر من بعض الرجال لحراسة الحفرة. في أقل من ربع ساعة، أُطفئت النيران، وأُفرِغت المراجل، واكتُسحت البنايات وخُرّبت. لكن على الأخص كان التهديد منصبّاً على المضخة. لم يكن كافياً أن تتوقف في آخر نفس ينفث البخار، لقد تمّ الهجوم عليها كما يُهجم على شخص حيّ، يراد الفتك به.

«لك الضربة الأولى!»، كان إتيان يردد وهو يضع مطرقة في يد شافال، «هيّا! لقد أقسمت مع الآخرين!».

كان يرتعد، يتقهقر؛ وفي الزحام، سقطت المطرقة، بينما الرفاق، دون انتظار، كانوا يدمرون المضخّة بضربات من قضبان حديدية، وآجر، وبكل ما وقع بين أيديهم. بل هناك من كسَر عليها عصيّاً. كانت الأقفال تتطاير، وقطع الصلب والنحاس تتفكك كأنها أطراف مستأصَلة. ضربة فأس بأقصى قوة ممكنة، هشمت الجسد الحديدي، فتسرب الماء، وأفرغ وسُمِعت غرغرة عالية، مثل فواق المحتضر.

كانت تلك النهاية، والتقت العصبة من جديد في الخارج، وقد جُنّت، يدوس بعضها بعض خلف إتيان الذي لم يُرخِ الشد عن شافال.

«الموت للخائن! إلى البئر! إلى البئر!».

كان البائس، الممتقع، يتمتم، ويرجع بإصرار أخرق إلى فكرته الثابتة، حاجته إلى الغسل.

«تمهل، إذا كان ذلك يزعجك»، قالت لوفاكه، «هاك! ها هو الحوض!».

كان هنالك بركة، تسربٌ لمياه المضخة. كانت بيضاء بطبقة سميكة من الجليد؛ فتمّ دفعه إليها، كُسر الجليد، وأجبِر على غطس رأسه في ذلك الماء البارد بشدة.

«هيا اغطس!»، كانت **برولي** تردّد، «اللعنة! إذا لم تغطس، سندخلك فيه. والآن، سوف تشرب جرعة، أجل، أجل، مثل البهائم، الخطم في الجرن!».

ولم يجد بُدّاً من الشرب، جاثياً على أربع. كان الجميع يضحك، ضحك قسوة. جذبت امرأة أذنيه، ولطخت ثانيةٌ وجهه بالبعر، بعر طريّ وُجِد في الطريق. لم يعُد قميصه الصوف يثبت عليه من شدة مزقه. وهو مذهول كان يتعثر، يضرب بظهره سعياً للهرب.

دفعه **ماهو** من قبل، وكانت **ماهود** ضمن من يهجم بإصرار، وهما معاً يشفيان غليل ضغينة قديمة؛ وموكيت نفسها، التي كانت في العادة تظل رفيقة عشاقها الطيبة، ثارت ثائرتها ضد هذا الأخير، نعتته بالحقير، قائلة إنها سوف تنزع سرواله، حتى ترى إن كان لا يزال رجلاً.

أسكتها إتيان.

«هذا يكفي! لا حاجة إلى أن يهمّ به الجميع. إذا شئت، أنتَ، سوف نفرغ من هذا معاً».

انغلقت قبضتاه، واتقدت عيناه بغضب قاتل، وتحول السُّكر عنده إلى رغبة في القتل.

«هـل أنـت مسـتعد؟ يجـب أن يهلـك واحـد منـا نحـن الاثنيـن. أعطـوه سـكّيناً. لـدي سـكّيني».

كانـت كاتريـن تنظـر إليـه، وقـد أصابـه العيـاء والذعـر. تذكـرت مـا بـاح لهـا بـه، رغبتـه فـي التهـام رجـل، حينمـا يشـرب، ويسـري فيـه السـم مـن الـكأس الثالثـة، مـن شـدة مـا أن والديـه السـكيرين أورثـا جسـده تلـك القـذارة. بغتـة، اندفعـت، ولطمتـه بيديهـا معـاً، يـدا المـرأة، وصرخـت أسـفل أنفـه، وقـد خنقهـا الغضـب:

«جبـان! جبـان! جبـان! أليـس فـي هـذا تجـاوز للحـدّ إذن، كل تلـك البغضـاء؟ تريـد قتلـه، الآن إذ لـم يعُـد يقـوى علـى الوقـوف!».

استدارت صوب أبيها وأمها، استدارت صوب الآخرين.

«أنتـم جبنـاء! جبنـاء! اقتلونـي معـه إذن. أمـزق وجوهكـم، أنـا! إن مسّـه أحدكـم مـرة ثانيـة. أوه! جبنـاء!».

ثـم وقفـت أمـام رجُلهـا، تحميـه، نسـيت الضـرب، نسـيت حيـاة البـؤس، وقـد ثـارت إذ فكـرت أنهـا تمتلكـه، بمـا أنـه أخذهـا، وأن مـن العـار عليهـا، أن يتـمّ إقبـاره بذلـك النحـو.

لمـا لطمتـه تلـك الفتـاة، اصفـرّ وجـه إتيـان. كاد فـي البـدء أن يصرعهـا. ثـم بعدمـا مسـح وجهـه، بحركـة الرجـل الـذي يريـد أن يصحـو مـن السـكر، قـال مخاطبـاً شـافال، وسـط صمـت شـديد:

«إنها على صواب، هذا يكفي. اغرب من هنا!».

فـي الحـال، جـرى شـافال، ثـم عَـدَت كاتريـن خلفـه. كان الحشـد ينظـر إليهـا وقـد بغتـه الأمـر، وهمـا يختفيـان عنـد ناصيـة الطريـق. وحدهـا **ماهـود** غمغمـت:

«لقـد أخطـأتَ، كان يجـب حبسـه هنـا. سـوف يُقـدِم بالتـأكيد علـى خيانـة مـا».

لكن العصبة عادت إلى السير من جديد. والساعة الخامسة توشك أن تزف، والشمس بحمرة الجمر، في طرف الأفق، تحرق السهل الشاسع. أخبرهم بائع جوّال كان مارّاً من هناك، بأن قوات التنانين ينزلون من ناحية كريڤكور. حينذاك، تراجعوا، ودار بينهم أمر:

«إلى مونسو إلى الإدارة!... خبزاً خبزاً خبزاً».

V

وقف السيد إينبو عند نافذة غرفة مكتبه حتى يرى انصراف العربة التي كانت تحمل زوجته للغداء في مارشيين. تابع لحظة نيغريل وهو يعدو جنب البوابة؛ ثم عاد للجلوس إلى مكتبه في بالٍ رخيّ. حينما يخلو البيت من زوجته وابن أخته اللذين يجعلانه حياً بضجيج وجودهما، كان يبدو خاوياً. وبالمناسبة، في ذلك اليوم، كان الحوذي هو من ساق العربة بالسيدة؛ أما روز، خادمة الغرف الجديدة، فإنها كانت في عطلة حتى الساعة الخامسة؛ ولم يبق سوى هيپوليت، الخادم، يجوب الغرف بخفيه الصوف، والطاهية، المشغولة منذ الفجر بمعاركة المقالي، منغمسة كلياً في العشاء الذي يقيمه سيّداها في المساء. لذلك كان السيد إينبو يعِدُ نفسه بيوم من الشغل الكثير، وسط ذلك الصمت العظيم في البيت المقفر.

حوالي الساعة التاسعة، وإن تلقى أمراً بصرف الجميع، إلا أن هيپوليت سمح لنفسه بالإعلان عن وصول دانسير الذي جاء بأخبار. في ذلك الحين فحسب علم المدير بأمر الاجتماع المنعقد في اليوم السابق، داخل الغابة؛ وكانت التفاصيل بقدر كبير من الوضوح، إلى حدّ أنه كان ينصت إليه وهو يفكر في علاقاته الغرامية مع پييرونه، المعروفة جداً بحيث أن رسالتين أو ثلاث رسائل مجهولة في الأسبوع كانت تندد بزيغ رئيس العمال الأول: من البيّن، أن الزوج كان قد تكلم، وذلك كان تُشمّ منه رائحة الفراش. بل انتهز الفرصة، وأفهمه أنه يعلم كل شيء، واكتفى

بـأن أوصـاه بالحيطـة، خشـية مـن الفضيحـة. لمـا أصابـه الذعـر مـن ذلـك التأنيـب، كان دانسـير ينفـي مـن خـلال تقريـره، ويتمتم بتقديـم الأعـذار، بينمـا أنفـه الضخـم كان يبـوح بالجـرم، عبـر احمـراره المباغـت. كمـا أنـه لـم يصـرّ، فـرح بالخـروج مـن الورطـة بأقـل الخسـائر؛ إذ جـرت العـادة أن يظهـر المديـر صرامـة لا هـوادة فيهـا، بصفـة الرجـل التقـي، مـا أن يقـدم مسـتخدم علـى الاسـتمتاع بفتـاة مليحـة، داخـل حفـرة مـن الحفـر. واسـتمر الحديـث حـول الإضـراب، اجتمـاع الغابـة ذاك لـم يكـن حتـى تلـك اللحظـة سـوى تبجّـح صيّاحين، ولا شـيء ينطـوي علـى تهديـد جـدّي. فـي كل الأحـوال، لـن تتحـرك المجمّعـات بكل تأكيـد فـي غضـون أسـابيع معـدودة، فـي ظلّ انطبـاع الخـوف الفـارض للاحتـرام الناشـئ بعـد جولـة الصبـاح العسـكرية.

حينمـا ظـلّ السـيد إينبـو وحـده، كان يوشـك رغـم ذلـك أن يبعـث برسـالة إلـى المحافـظ. لكـن أحجـم عـن ذلـك خشـية مـن أن يُقـدّم بـدون فائـدة دليـلاً علـى الحيـرة. لـم يغفـر لنفسـه أن حِسَّ التوقع غـاب عنـه، إلـى حـدّ أنـه كان يقـول فـي كل مـكان، ويكتـب حتـى للوكالـة، بـأن الإضـراب لـن يـدوم أكثـر مـن خمسـة عشـر يومـاً علـى أكبـر تقديـر. وكـم كانـت دهشـته عظيمـة لمـا صـار أبديـاً منـذ مـا ينـاهـز شـهرين؛ وقـد أحبطـه ذلـك، كان يشـعر بـأن قـدره ينحـطّ كل يـوم، وبأنـه يتـورط ويجبـر نفسـه علـى تخيل ضربـة سـطوع نجمـه، إذا شـاء أن ينعـم عليـه الـوكلاء. ولقـد طلـب منهـم بالمناسـبة بعـض الأوامـر، فـي حـال وقـوع مشـاجرة. تأخـر الجـواب، كان ينتظـر وصولـه مـع بريـد الظهيـرة. وكان يحـدث نفسـه بـأن الوقـت حـان لإرسـال برقيـات، لاتخـاذ مواقـع عسـكرية فـي الحُفـر، إذا كان ذلـك رأي السـادة. إذ بالنسـبة إليـه

سوف تقوم معركة، الدم والقتلى، بكل تأكيد. كان يضطرب أمام مسؤولية من ذلك القبيل، رغم طاقته المعتادة.

اشتغل في هدوء حتى الساعة الحادية عشر، في البيت الميت، من دون أي صوت آخر سوى صوت المِدهَن، البعيد جداً، في الطابق الأول حيث كان هيپوليت ينظف حجرة. ثم وصلت إليه برقيتان على التوالي، تخبره الأولى باكتساح جونبار على يد عصبة مونسو، وتصف الثانية الأسلاك المقطوعة، والنيران المنطفئة، والتخريب كله. لم يفهم. ماذا ذهب المضربون يفعلونه عند دونولان، بدل الهجوم على حُفرة في ملك الشركة؟ ثم، كان في وسعهم نهب ڤاندام، فذلك ينضج خطة الاستحواذ التي كان يتدبّر فيها. وفي منتصف النهار، تناول وجبة الغذاء، وحده في القاعة الواسعة، وقد أشرف على الخدمة في صمت الخادم الذي لم يكن يُسمع منه ولا حتى خفق خُفّيه الصوف. تلك الوحدة زادت من قتامة مشاغله، كان يحس ببرود في القلب، حينما جاء يجري رئيس عمال، تمّ إدخاله وروى له زحف العصبة على **ميرو**. في الوقت نفسه تقريباً، بينما هو يفرغ من شرب قهوته، أخبرته برقية عاجلة أن هناك تهديداً يحوم حول **مادلين** و**كريڤكور** بدورهما. وعليه، بلغ قلقه أقصى درجاته. كان ينتظر البريد في الساعة الثانية: هل عليه أن يطلب الجنود في الحال؟ هل من الأفضل أن ينتظر، بحيث لا يتصرف قبل أن يعرف أوامر الوكالة؟ عاد إلى مكتبه، كان يريد قراءة مذكرة التمَس من نيغريل تحريرها في اليوم السابق لأجل المحافظ. لكنه لم يستطع العثور عليها، ظن أن الرجل الشاب قد تركها في غرفته، حيث يكتب معظم الأحيان

ليلاً. ومن دون أن يحسم قراراً، وقد استحوذت عليه فكرة تلك المذكرة، صعد بسرعة بحثاً عنها، في الغرفة.

دهش السيد **إينبو** عندما دخل: لم تكن الغرفة مرتبة، لا شك أن ذلك كسل أو نسيان من هيپوليت. كانت تعم الغرفة حرارة رطبة، حرارة مغلق عليها ليلة كاملة، أثقلت عليها فوهة المسخنة، التي ظلت مفتوحة؛ وقد أخذته من منخريه، واختنق بعطر نافذ، الذي ظنه رائحة عطر الزينة، الذي كان وعاؤه ملآناً. فوضى عارمة كانت تشغل الغرفة، ملابس متفرقة، مناديل مبللة مرمية على متكئات المقاعد، السرير مشرَع، لحاف منزوع، مجرجر حتى السجاد. في البدء لم يلق سوى نظرة عابرة، إذ توجه صوب الطاولة، المغطاة بالأوراق، وبحث هناك عن المذكرة غير الموجودة. لمرتين، فحص الأوراق ورقة بعد ورقة، إنها لم تكن هناك بكل تأكيد. اللعنة أين قام ذلك المعتوه **پول** بوضعها حقاً؟

ولما كان السيد إينبو عائداً إلى وسط الغرفة وهو يلقي نظرة على كل جهاز من الأثاث، رأى في السرير المفتوح، بقعة متوهجة، تلمع كالشرارة، دنا طواعية، ومد يده. بين ثنيتي اللحاف، كانت هناك قارورة صغيرة مذهبة. في الحال، تعرف على قارورة السيدة إينبو، قارورة الأثير التي لم تكن تبارحها قط. لكنه لم يفهم وجود ذلك الغرض: كيف أمكنه أن يوجد في سرير **پول**؟ وفجأة، امتقع لونه بفظاعة. لقد نامت زوجته هناك.

«معذرة»، غمغم صوت هيپوليت من خلال الباب، «لقد شاهدتُ سيدي صاعداً».

كان الخادم قد دخل وأزعجته فوضى الغرفة.

«يا إلهي! صحيح، الغرفة غير مرتبة! كما أن روز خرجت وألقت على ظهري شغل البيت كله!».

أخفى إينبو القارورة في يده، وشدّ عليها حتى أوشك أن يكسرها.

«ماذا تريد؟».

«سيدي، مرة ثانية هناك رجل، وصل من كريڤكور، يحمل رسالة».

«حسن! دعني، أخبره بأن ينتظر».

زوجته نامت هناك! حينما أغلق القفل، فتح يده من جديد، نظر إلى القارورة التي تركت أثراً أحمر على جلده. بغتة، كان يرى، يسمع، تلك القذارة تجري في بيته منذ أشهر. تذكر شكّه القديم، الحفيف المتكرر على الأبواب، الأقدام الحافية السائرة ليلاً في أرجاء البيت الصامت. أجل، إنها زوجته التي كانت تصعد للنوم هناك!

تهاوى على كرسي، قبالة السرير الذي كان يحدق فيه باستغراق، ظلّ دقائق طويلة وكأنه صريع. أيقظه صوت، طرق على الباب، سعى لفتحه. تبيّن صوت الخادم.

«سيدي، آه! انغلق الباب على سيدي».

«ماذا أيضاً؟».

«يبدو أن الأمر عاجل، العمال يكسرون كل شيء. هناك في الأسفل رجلان آخران. وهناك أيضاً برقيات».

«دعني وشأني! في ما بعد!».

جمدت أطرافه من فكرة أنه كان في وسع هيپوليت اكتشاف القارورة بنفسه، لو أنه رتّب الغرفة صباحاً. ثم لا بد أن ذلك

الخادم كان على علم، لقد سبق لعشرين مرة أن وجد الفراش ساخناً لا يزال من أثر الزنى، خصلات شعر السيدة على المخدة، آثار حقيرة تدنس الفراش. إذا كان يصرّ على إزعاجه، فذلك عن خبث. ربما ظلّ ملصقاً أذنه على الباب، وهو مهتاج من فجور أسياده.

ولذلك، لم يتحرك السيد إينبو. كان ينظر دوماً إلى السرير. الماضي الطويل من العذاب ينبسط أمامه، زواجه بتلك المرأة، سوء الفهم العاجل بينهما، قلباً وجسداً، العشاق الذين ارتبطت بهم دون أن يرتاب في ذلك، العاشق الذي تسامح معها بخصوصه مدة عشرة أعوام، مثلما يتسامح المرء مع طعم بشع في مريضة. ثم كان وصولهما إلى مونسو، أمل بالغ لعلاجها، شهور من الوهن، من النفي الراقد، دنو الشيخوخة التي سوف تعيدها إليه في نهاية المطاف. وها قد حلّ ابن أخته، پول ذاك الذي صارت أمّاً له، الذي كانت تحدثه عن قلبها الميت، المدفون تحت الرماد إلى الأبد. وهو الزوج الغبي، لم يتوقع شيئاً. كان يعبد تلك المرأة التي كانت له، التي كانت لرجال آخرين، والتي وحده لم يستطع الحصول عليها! كان يعبدها بشغف مخز، إلى حدّ الجثو على ركبتيه، إن هي تفضلت عليه حقاً بما بقي من الآخرين! ما فَضُل عن الآخرين، كانت تعطيه لذلك الولد.

فزع السيد إينبو تلك اللحظة من رنين جرس بعيد. تبيّنه، إنه الجرس الذي يتم دقّه بأمر منه حينما يصل ساعي البريد. نهض، تكلم بصوتٍ عالٍ، في دفق من الكلام البذيء، الذي امتلأ به حلقه المتوجع، رغماً عنه.

«آه! لا يهمني! آه! لا تهمني برقياتهم ورسائلهم!»

الآن، غمره الغيظ، الحاجة إلى بالوعة يرمي فيها مثل تلك الوساخة بضربة قدم. تلك المرأة داعرة، كان يبحث عن كلمات بذيئة، يلعن بها صورتها. فكرة الزواج المباغتة التي رعتها بابتسامة هادئة جداً بين **سيسيل وپول** جعلت سخطه في أتمّه. لم يكن هناك ولا حتى أي هوى، ولا غِيرة، في أصل تلك الشهوانية الراسخة؟ لم تكن في تلك الساعة سوى لعبة شاذة، اعتياد الرجل، استراحة تُقضى مثل حلاوة معتادة. وكان يتهمها بكل شيء، ويبرئ الولد تقريباً، الذي عضّت عليه بالنواجذ، في صحوة الشهوة تلك، مثلما يعضُّ المرء أول فاكهة غير ناضجة على الطريق. مَن سوف تلتهمه في المستقبل، إلى أي حدّ سوف تسقط، حينما لن تجد أبناء إخوة ظرفاء، عمليين بما فيه الكفاية كيما يقبلوا، في أسرتهم، المائدة والفراش والمرأة؟

خمش على الباب بخجل، صوت هيپوليت الذي سمح لنفسه بأن ينفخ من ثقب القفل:

«سيدي، البريد. وهناك أيضاً السيد دانسير الذي رجع، الذي قال إن هناك اقتتال».

«أنا نازل، اللعنة!».

ما الذي سوف يفعله بهما؟ طردهما عند عودتهما من مارشيين، مثل بهيمتين نتنتين لم يعُد يرغب في وجودهما تحت سقف بيته. عصا غليظة، ويصيح بهما أن يحملا بعيداً سمّ تزاوجهما. من زفراتهما وبخرهما المختلطين، صار دفء الغرفة النّدي ثقيلاً؛ الرائحة النافذة التي خنقته، إنها رائحةُ مسكِ بشرةِ

زوجتـه، طعـم شـاذ آخـر، حاجـة جسـدية للروائـح العنيفـة؛ وهكـذا استعاد حـرارة ورائحـة المباضعـة، الزنـا الحـي، فـي الأوعيـة الملقـاة، فـي المِطهـرة التـي لا تـزال مملـوءة، فـي فوضـى الملابـس الداخليـة والأثـاث، بالغرفـة كلهـا، الموبـوءة بالرذيلـة. غيـظ العاجـز رمـاه علـى الفـراش ضربـاً مـن قبضتـه، يخربّـه، يحـرث المواضـع حيث كان يـرى أثـر جسـديهما، وثـارت ثائرتـه مـن الأغطيـة المنزوعـة، مـن اللحـف المتقبّضـة، الرخـوة والجامـدة تحـت ضرباتـه، وكأنهـا أصابهـا العيـاء بنفسـها مـن معاشـرة الليـل كلـه.

لكـن، بغتـة، ظـن أنـه سـمع هيپوليـت يصعـد مـن جديـد. أوقفـه شـعور بالخـزي. ظـلّ لحظـة يلهـث، يمسـح جبينـه، يهـدئ مـن رجفـان قلبـه. وهـو واقـف أمـام مـرآة، كان يتأمـل وجهـه، المفكك إلـى حـدّ لـم يتعرّفـه. ثـم بعدمـا رآه يهـدأ شـيئاً فشـيئاً، بجهـد إرادة قصـوى، نـزل.

فـي الأسـفل، كان يقـف خمسـة رُسـل، فضـلاً عـن دانسـير. كان الجميـع يحمـل إليـه أخبـاراً تـزداد خطـورة عـن زحـف المضربيـن علـى الحُفَـر؛ وقـصّ عليـه رئيـس العمـال الأول طويـلاً مـا وقـع فـي ميـرو، التـي أنقذهـا السـلوك الحسـن لـلأب **كانديوه**. كان يسـمع، يهـز رأسـه، لكـن لا يصغـي، لأن عقلـه ظـلّ فـوق، فـي الغرفـة. فـي نهايـة المطـاف، صرفهـم، وقـال إنـه سـوف يتخـذ مـا يلـزم مـن التدابيـر. حينمـا بقـي لوحـده مـن جديـد، جالسـاً إلـى مكتبـه، بـدا أن سِـنةً أخذتـه هنـاك، الـرأس بيـن اليديـن، والعينـان شـاخصتان. كان بريـده هنـاك، قـرر أن يبحـث فيـه عـن الرسـالة المنتظـرة، جـواب الوكالـة، التـي رقصـت سـطورها أول الأمـر. رغـم ذلـك، انتهـى بـه المطـاف إلـى فهـم أن أولئـك السـادة يتمنـون وقـوع عـراك مـا: الأكيـد أنهـم لـم يأمـروه

بزيـادة الطيـن بِلّـة؛ لكنهـم ألمحـوا إلـى أن القلاقـل سـتعجّل بنهايـة الإضـراب، مـن خـلال اسـتفزاز قمـع شـديد. ومـن ذلـك الحيـن، لـم يتـردد بعـد، أرسـل برقيـات إلـى كل الجهـات، إلـى محافـظ ليل، إلـى ثكنـة فيالـق دُواي، إلـى مخفـر رجـال الـدرك بمارشـيين. كانـت راحـة بعـد مشـقة، لـم يكـن عليـه سـوى حبـس نفسـه، بـل أشـاع خبـر أنـه مصـاب بالنقـرس. وطـول مـا بعـد الظهيـرة، اختبـأ فـي عقـر ديوانـه، لا يسـتقبل أحـداً، مكتفيـاً بقـراءة البرقيـات والرسـائل التـي تواصـل هطولهـا. هكـذا تبـع مـن بعيـد العصبـة، مـن مادليـن إلـى كريڤكـور، ومـن كريڤكـور إلـى لاڤيكتـوار، ومـن لاڤيكتـوار إلـى غاسـتون مـاري. مـن جهـة ثانيـة، كانـت تصلـه معلومـات عـن اضطـراب رجـال الـدرك وقـوات التنانيـن، التائهيـن فـي الطـرق، مُدبريـن بـلا توقـف عـن الحُفـر المعرضـة للهجـوم. كان فـي الوسـع أن يذبـح النـاس بعضهـم وتدميـر كل شـيء، وضـع رأسـه بيـن يديـه مـن جديـد، وأصابعـه علـى عينيـه، وغـرق فـي صمـت البيـت الخالـي، حيـث لـم يكـن يرصـد، بيـن فينـة وأخـرى سـوى صـوت مقالـي الطاهيـة، المشـغولة تمامـاً فـي المطبـخ، لأجـل محفـل عشـاء المسـاء.

كان المغيـب يُظلِـم الغرفـة مسبقاً، والسـاعة تشـير إلـى الخامسـة حيـن فـزع السـيد إينبـو مـن ضجيـج، كان سـادراً، لا يتحـرك، والمرفقـان دومـاً علـى أوراقـه. ظـن أن البائسَـين رجعـا. لكـن زادت حـدة الجلبـة، دوّت صرخـة مرعبـة، فـي اللحظـة التـي دنـا فيهـا مـن النافـذة.

«خبـزا خبـزا خبـزا».

كان هـؤلاء المضربـون وقـد اكتسـحوا مونسـو، بينمـا رجـال الـدرك

يديرون الظهر، يركضون قصد احتلال الحُفر ظناً منهم أن لوفوروه عرضة للهجوم.

وفي ذاك الوقت تحديداً، على بعد كيلومترين من أوائل المنازل، قليلاً أسفل الملتقى حيث يتقاطع الطريق الواسع ودرب ڤاندام، شهدت السيدة إينبو والآنستان مرور العصبة تباعاً. كان نهاراً مرحاً في مارشيين، غذاء لطيف عند مدير ليفورج، ثم زيارة مفيدة للمشاغل ولمصنع زجاج في الجوار لتزجية وقت ما بعد الظهر؛ ولما كانوا على أهبة الرجوع في نهاية المطاف، عند ذلك الأفول الشفاف ليوم شتوي جميل، همَّت سيسيل، بنزوة، بشرب كأس من الحليب ومشاهدة ضيعة صغيرة على حافة الطريق. نزلن جميعهن من العربة. وثب نيغريل من على فرسه بأناقة؛ بينما هرعت فلاحة، مذعورة من حُسن هؤلاء الناس، وقالت إنها ستبسط فرشاً، قبل خدمتهم. لكن كانت كل من لوسي وجان تريد مشاهدة الحَلب، ذهبن إلى الإسطبل بكؤوسهن، وجعلن من ذلك خرجة في المرعى، ضاحكات كثيراً من فرش التبن حيث توغلن.

كانت السيدة إينبو، بمظهر أمومتها الظريفة، تشرب بطرف شفتيها، حينما حيّرها صوت غريب، له فحيح في الخارج.

«ما ذاك إذن؟».

الإسطبل، المشيد عند جنب الطريق كان له باب واسع بدفَتين يسمح بدخول العربات، حيث كان يُستعمل في الوقت نفسه مخزناً للتبن. كانت الفتاتان، مسبقاً، تشرئبان بالرأس، وتتعجبان مما تبين لهما جهة اليسار، موج أسود، غوغاء الناس القادمين من درب ڤاندام يصيحون.

«اللعنة!»، غمغم نيغريل، الذي خرج أيضاً، «هل هؤلاء الصّياحين سينتهي بهم الأمر إلى السخط؟».

«ربما هم عمال الفحم مرة أخرى»، قالت الفلّاحة، «هذه هي المرة الثانية التي يمرّون فيها. يبدو أن الأمر ليس على أحسن ما يرام، إنهم أسياد البلد».

كانت تلفظ كل كلمة بحذر، وترصد أثرها على الوجوه؛ وحينما لحظت فزع الجميع، والقلق البالغ الذي رماهم اللقاء فيه، عجلت بالختم:

«أوه! المتسولون، أوه! المتسولون!».

لما رأى نيغريل أن الأوان قد فات لركوب العربة والانطلاق صوب مونسو، أمر الحوذي بإدخال العربة بسرعة إلى ساحة الضيعة، حيث تظل المطية خلف حظيرة. هو بنفسه ربط حصانه في ظلّ تلك الحظيرة وقد تكفل صبي بلجامها. حينما عاد، وجد خالته والبنتين في قمة الحيرة، على أهبة السير خلف الفلّاحة التي عرضت عليهن اللوذ بمنزلها. لكنه رأى أنهم هنا في مأمن أكثر، لن يقدم أحد بكل تأكيد للبحث عنهم وسط التبن. لكن باب العربات لم يكن يُغلق على نحو حسن، وكان به شقوق ترى منها الطريق عبر ألواحه الخشبية المنخورة.

«هيا، شيء من الشجاعة!»، قال، «سندفع حياتنا غالياً».

زادت تلك المزحة من الخوف. تنامى الضجيج، لم يكن أحد يرى شيئا بعدُ، وعلى الطريق الخاوية بدا أن ريحاً عاصفة تهب، أشبه بزفزفة الريح المباغتة، تلك التي تسبق العواصف الكبرى.

«كلّا، كلّا، لا أريد النظر»، قالت سيسيل وقد انصرفت للارتماء في حضن التبن.

السيدة إينبو، شاحبة جداً، وقد غضبت من أولئك الناس الذين يفسدون ملذة من ملذاتها، كانت تقف في الخلف، تنظر بمؤخر عينها، نظرة مبغضة؛ بينما لوسي وجان، رغم رعدتهما، فقد نظرتا بعين من شق، رغبة منهما في أن لا يفلتا شيئاً من الفرجة.

كانت أصوت الرعد تدنو، اهتزت الأرض، وكان جونلان أول من ركض، نافخاً في البوق.

«خذوا قوارير عطوركم، عرَق الشعب الذي يمر!»، همس نيغريل، الذي رغم معتقداته الجمهورية، كان يحب الهزء مع النساء من الرعاع.

إلا أن نكتته حملها إعصار الحركات والصرخات. ظهرت النساء، حوالي ألف امرأة، الرأس ثائر، والشعر منتفش من الجري، أسمالهن تكشف البشرة العارية، عري إناث أعيتهن ولادة جياع. بعضهن يحضنّ صغارهن، يرفعنهم، يلوّحن بهم مثل علم حداد وانتقام. أخريات، أكثر شباباً، بصدور محاربات منتفخة، كن يحملن عصياً؛ بينما العجائز، فظيعات، كن يصرخن بشدة إلى حدّ أن حبال الأصوات في أعناقهن توشك أن تنقطع. وانحدر الرجال بعد ذلك مسرعين، ألفا غاضب، صبيان متعلمون، حفارون، عمّال الترميم، كتلة متراصّة تتدحرج دفعة واحدة، مزدحمة، مختلطة إلى حدّ لا يتبيّن فيها المرء السراويل القصيرة التي بهت لونها، ولا أقمصة الصوف الممزقة، التي ذهب أثرها في شكل التراب الموحّد ذاته. كانت العيون تتّقد، وتُرى فقط ثقوب الأفواه السوّد، تنشد **المارسايز**، الذي غابت أبياته وسط زمجرة

مختلطة، يرافقها خفق النعال الخشبية على الإسفلت الصّلد. فوق الرؤوس، بين انتفاش قضبان الحديد، مرّ ساطور، محمول على نحو مستقيم تماماً، وذلك الساطور الوحيد الذي كان بمثابة لواء العصبة، كان له في السماء الصافية، الشكل الحاد لقاطع مقصلة.

«يا لها من وجوه بشعة!» تمتمت السيدة إينبو.

وقال نيغريل من بين أسنانه:

«فليهلكني الشيطان إن تعرفتُ على واحد من بينهم! من أين يخرج، إذن، هؤلاء اللصوص؟».

وبالفعل، الغضب، الجوع، شهران من العذاب وذلك الكرّ والفرّ المسعور خلال الحفر، أمور جعلت وجه كل عامل فحم مونسو الوديع يستطيل ويصير فكّين لوحش أعفر. في ذلك الأوان، كانت الشمس تغيب، والأشعة الأخيرة، بلون أرجوان غامق، تُدمي السهل. حينها، بدا وكأن الطريق تجرف دماً، النساء، الرجال يواصلون العدو، نازفين مثل قصّابين في عز مذبحة.

«أوه! رائع!»، قالت لوسي وجان بصوت مهموس، وقد تحرّكت في نَفس كل منهما نزعة الفنان من ذلك الرعب الجميل.

ورغم ذلك استبد بهما الذعر، وتقهقرتا جنب السيدة إينبو التي اتكأت على جُرن. كانت تشلها فكرة أنه يكفي إلقاء نظرة من بين ألواح ذلك الباب المفكك حتى يفتكوا بهم. أحس نيغريل بأنه صار شاحباً، هو أيضاً، الشهم في العادة، وقد استحوذ عليه ذعر يفوق مشيئته، ذعر من ذلك النوع الذي يهبّ من المجهول. وسط التبن، لم تعد سيسيل تتحرك. والآخرون، رغم أنهم أرادوا

أن يشيحوا بوجوههم، لم يقدروا، إذ كانوا ينظرون مع ذلك.

إن المشهد الأحمر للثورة هو ما سيذهب بريحهم، جميعاً، ذات أمسية دامية في نهاية القرن هذه. أجل، ذات مساء، الشعب الذي فُكّ قيده، بلا لجام، سيعدو على ذلك النحو في السبل؛ وسوف يسيل دم البرجوازيين. سوف يتجول برؤوس، ويبذر ذهب المجمّعات المبقورة الأحشاء. ستعول النساء، وسيكون لكل واحد من الرجال فكّا ذئب، مفتوحان كيما يعضّان، ستكون الأسمال نفسها، رعد النعال الغليظة نفسه، الغوغاء المريعة نفسها، ذات الجلد القذر، والبخر النتن، تكنس العالم القديم، بفعل دفعه الذي يفوق كل حدّ، دفع الهمج. سوف تشتعل حرائق، ولن يبقى هناك حجر على حجر في المدن، وسوف يعود الناس إلى الحياة البرّيّة في الغاب، بعد الهياج الشديد للإضراب، المأدبة الكبيرة، حيث في ليلة واحدة، سينكح الفقراء النساء بشدة ويفرغون أقبية الأغنياء من خمورها. لن يظل هناك شيء يذكر، ولا فلس من تلك الأموال، ولا لقب من الأوضاع المكتسبة، إلى أن يحين اليوم الذي تنمو فيه من جديد أرض جديدة، على الأرجح. أجل، تلك الأشياء هي التي كانت تجري في الطرقات، مثل قوة من قوى الطبيعة، وكانت ريحها الرهيبة تلفح وجوههم.

علت صرخة عظيمة، طغت على المارسايز:

«خبزا خبزا خبزا».

التصقت لوسي وجان بالسيدة إينبو، الواهنة؛ بينما وقف نيغريل أمامهن، كأنه يحميهن بجسده. إذن هل ذاك هو المساء الذي يتصدع فيه المجتمع القديم؟ شُدهوا تماماً بما رأوه حينئذ.

كانت العصبة تتدفَّق، ولم يبق سوى ذيل المتثاقلين، حينما برزت موكيت. كانت تتهاون، ترصد البرجوازيين، على أبواب حدائقهم، وعند نوافذ منازلهم؛ وحينما ترى بعضهم، ولأنها لا تستطيع أن تبصق في وجوههم، كانت تريهم ما يعبّر عما تكنه لهم من أشد الاحتقار. لا شك أنها رأت برجوازياً واحداً، لأنها رفعت بغتة ملابسها التحتية، وأظهرت عجيزتها الضخمة، عارية في آخر ومضات الشمس. لم يكن فيها شيء فاحش، تلك العجيزة، ولا تدعو للضحك، متمردة.

اختفى كل شيء، كان الموج يزحف على مونسو، على طول منعرجات الطريق، بين البيوت الواطئة، المبرقشة بالألوان الناصعة. أُخرِجت العربة من الفناء، لكن الحوذي لم يرد تحمل مسؤولية إرجاع السيدة والآنسات دون متاعب، إذا استولى المضربون على الطريق. والأسوأ أنه لم يكن هناك مسلك غيره.

«ومع ذلك يجب أن نرجع، العشاء ينتظرنا»، قالت السيدة إينبو، وقد ركبت هواها، وهاج غضبها من شدة الخوف، «هؤلاء العمال القذرون اختاروا مرة أخرى يوماً أستقبلُ فيه الناس. ويسارع المرء للإحسان إلى هؤلاء!».

انشغلت لوسي وجان بإخراج سيسيل من التبن، هي التي كانت تتخبّط، ظناً منها أن هؤلاء المتوحشين لا يزالون يسيرون تباعاً دون توقف، وتكرر أنها لا تريد أن تشاهد ذلك. وفي نهاية المطاف، عُدن جميعاً إلى مقاعدهن بالعربة. بعدما ركب حصانه، عنّت لنيغريل فكرة المرور من أزقة ريكيار.

«سُق على مهلٍ»، قال مخاطباً الحوذي، «لأن الدرب فظيع. إذا منعتك جماعات من العودة إلى الطريق، هناك، توقف خلف

الحفـرة القديمـة، وسـوف نرجـع علـى الأقـدام مـن خـلال بـاب الحديقـة الصغيـرة، بينمـا تركـن العربـة والأحصنـة فـي أي مـكان، بحظيـرة نـزل مـن النـزل».

انطلقـوا. تتدفـق العصبـة، بعيداً، فـي مونسـو. منـذ أن شـاهدوا، لمرتيـن، رجـال درك وقـوات تنانيـن، اضطـرب السـكان، وقـد حيّرهـم الذعـر. شـاعت أخبـار بغيضـة، وجـرى حديـث عـن منشـورات بخـط اليـد، تهـدد البرجوازييـن ببقـر بطونهـم؛ لـم يقرأهـا أحـد، ومـع ذلـك هنـاك مـن كان يذكـر جُمـلاً منهـا فـي نصهـا. وعنـد المحامـي علـى الأخـص، بلـغ الرعـب مبلغـه، إذ وصلتـه عبـر البريـد رسـالة مجهولـة، يُحـذّر فيهـا مـن أن برميـل بـارود مدفـون فـي قبـوه، علـى أهبـة الاسـتعداد لتفجيـره، إذا لـم يعلـن أنـه مـع الشـعب.

والشـيء بالشـيء يذكـر، فـإن آل غريغـوار، الذيـن أطالـوا زيارتهـم بوصـول تلـك الرسـالة، كانـوا يتحدثـون عنهـا، ويظنـون أنهـا مـن عمـل محـبٍ للمـزاح، حينمـا بلـغ الذعـر مبلغـه فـي البيـت مـن هجـوم العصبـة. هـم، كانـوا يبتسـمون. ينظـرون، بإزاحـة طـرفٍ مـن سـتار، ويرفضـون فـي قـرارة أنفسـهم القبـول بخطـر داهـم مـن الأخطـار، فهـم علـى يقيـن، كمـا كانـوا يقولـون، مـن أن كل شـيء سـينتهي وديـاً. كانـت السـاعة تـدقّ الخامسـة، وكان لديهـم مـن الوقـت لانتظـار أن يخلـو الطريـق للذهـاب، إلـى الجهـة المقابلـة، لقضـاء العشـاء عنـد آل إينبـو، حيـث سيسـيل، التـي رجعـت بـكل تأكيـد، كانـت تنتظرهـم. لكـن فـي مونسـو، بـدا أن لا أحـد كان يشـاطرهم ثقتهـم: كان النـاس حيـارى، يركضـون، والأبـواب والنوافـذ تُغلـق بشـدة. رأوا ميغـرا، علـى الجانـب الثانـي مـن الطريـق، يُمتـرِس محلـه، مسـتعيناً بقضبـان حديـد، ومـن

شـدة مـا كان شـاحباً يرتعـد، فـإن زوجتـه القصيـرة الهزيلـة كانـت مجبـرة علـى شـدّ الأقفـال.

كانـت العصبـة قـد توقفـت أمـام قصـر المديـر، والصرخـة تطـن طنينـاً:

«خبزا خبزا خبزا».

كان السيد إينبـو واقفـاً عنـد النافـذة، حينمـا دخل هيپوليـت كيمـا يغلـق المصاريـع مخافـة أن يُكسـر زجـاج النوافـذ قذفـاً بالحجـارة. كما أغلق مصاريـع الطابق السـفلي؛ ثم انتقـل إلـى الطابق العلوي، سُـمع صريـر المزاليـج، صفـق الشـبابيك، واحـداً تلـو الثانـي. والمصيبـة أنـه لـم يكـن فـي الوسـع إغـلاق فُتحـة المطبـخ المشـرعة، فـي الطـابق تحت أرضـي، فتحـة تثيـر القلـق حيـث تتوهـج نيـران المقالـي والمشـواة.

ومـن حيـث لا يـدري، صعـد السـيد إينبـو إلـى الطابـق الثانـي، قصد التحقـق بعينـه، فـي غرفـة **پول**؛ كان موقعهـا الأفضـل، إلـى اليسـار، لأنهـا تسـمح بمراقبـة الطريـق حتـى مواقـع الشـركة. وقـف خلـف الشـبّاك، المطـل علـى الحشـد. لكـن تلـك الغرفـة أفزعتـه مـن جديـد، طاولـة الزينـة منظفـة مـن الغبـار ومرتبـة، الفـراش البـارد، بلحافيـه النقييـن والمشـدودين جيـداً. كل هياجـه فتـرة مـا بعـد الظهـر، تلـك المعركـة الغاضبـة فـي عمـق صمـت وحدتـه الشـديد، تـؤدي الآن إلـى تعـب عظيـم. كيانـه كان مسـبقاً مثـل تلـك الغرفـة البـاردة، التـي كُنسـت منهـا أوسـاخ الصبـاح، وعـاد إلـى جـادة صـواب العـرف المعتـاد. مـا الفائـدة مـن الفضيحـة؟ هـل تَغيّـر أدنـى شـيء فـي بيتـه؟ زوجتـه كان لهـا ببسـاطة عاشـق إضافـي، بالـكاد ذلـك يفاقـم مـن حقيقـة أنهـا انتقتـه مـن وسـط الأسـرة؛ وربمـا هنـاك ميـزة فـي ذلـك، لأنهـا هكـذا

تحافظ على المظاهر. وأشفق على نفسه، حينما تذكر جنون غيرته. يا للسخف، أن يصرع ذلك الفراش بقبضات يده! بما أنه قبل بوجود رجل آخر، فإنه سوف يقبل بهذا. ولن يتطلب الأمر سوى قليل من الازدراء بعدُ. كانت مرارة فظيعة تسمّم فمه، لا جدوى كل شيء، العذاب الأبدي من الوجود، الخزي من نفسه، هو من يعبد ويرغب دوماً تلك المرأة، وسط القذارة حيث تهجره.

أسفل النافذة، دوّى العويل بعنف أشد.

«خبزا خبزا خبزا».

«أغبياء!»، قال السيد إينبو وهو مطبق فمه. كان يسمعهم يشتمون بخصوص رواتبه العالية، ينعتونه بالكسلان والأكرش، بالخنزير القذر الذي لا يبالي بعسر هضم الأطعمة الجيدة، بينما العامل يموت جوعاً. كانت النساء قد رأين المطبخ، وهبّت عاصفة من اللعنات اعتراضاً على طائر الدرّاج الذي كان يُشوى، على أصناف المرق التي كانت رائحتها القوية تدمر بطونهم الخاوية. آه! هؤلاء البرجوازيون الأوغاد، سنحشوهم بالشامبانيا والكمأ، حتى تنفجر أحشاؤهم.

«خبزا خبزا خبزا».

«أغبياء!»، كرّر السيد إينبو، «وهل أنا سعيد؟».

حمله غضب معترضاً على أولئك الناس الذين لا يفهمون. كم ودّ أن يهديهم رواتبه العالية عن طيب خاطر، كيما يحصل، مثلهم، على الجلد الصلد، التزاوج السهل ودون تأنيب. لو استطاع لأجلسهم إلى مائدته، وحشا بطونهم بطائره الدرّاج، بينما ينصرف خلف الأسيجة، يعاشر، ويقلّب فتيات، ساخراً من أولئك الذين قلّبوهن

من قبله! كم ودّ أن يعطي كل ما لديه، تعليمه، رغد عيشه، ترفه، قوته بصفته مديراً، لو أمكنه، ليوم واحد، أن يصير آخر بائس من أولئك البؤساء الذين يطيعونه، أن يصير مِلك جسده، فيه ما يكفي من الغلظة كي يلطم زوجته، ويستمتع بالجارات. وكان يتمنى أن يهلك جوعاً، أن تكون بطنه فارغة، وأن تتلوى المعدة من تشنج يهز الدماغ بدُوار: ربما أمكن ذلك أن يقتل الوجع الأبدي. آه! أن يعيش عيشة أجلف، لا يملك شيئاً لنفسه، يجوب المزارع مع أشد عاملة نقل قبحاً، وقذارة، ويقدر على أن يكون راضياً بها!

«خبزا خبزا خبزا».

إنه كان يأكل الطعام، هو، ومع ذلك كان يئن من الألم. حياته الزوجية مدمرة، حياته المكلومة بأتمها تصاعدت في حلقه، على هيئة فواق ميت. لا شيء يكون على ما يرام لأن لدينا خبز. من هو ذلك الأبله الذي كان يجعل سعادة هذا العالم في تقاسم الثروة؟ أحلام الثوريين الجوفاء تلك تستطيع حقاً أن تهدم المجتمع وتبني مجتمعاً ثانياً، ولن يضيفوا مع ذلك مسرّة للبشرية، أو ينقصوا منها وجعاً، بقطعة رغيف لكل واحد. بل إنهم سوف يوسعون من بؤس الأرض، سيجعلون ذات يوم حتى الكلاب تعوي من شدة اليأس، عندما يخرجوها من سكينة تلبية الغرائز، كي يرفعوها إلى عذاب الأهواء الذي لا يشفى غليله. كلا، الخير الوحيد هو أن يكون المرء، وإذا كان، فليكن شجرة، حجراً، أو أقل من ذلك، حبّة رمل، لا تنزف دماً تحت أقدام المارّة.

وفي سخطه من مصيبته، انتفخت عينا السيد إينبو بالدموع، وسالت قطراً حارقاً على وجنتيه. كان المغيب يُغرِق الطريق، حينما

بدأت حجارة تسّاقط على واجهة القصر الصغير. بلا غضب الآن من أولئك الجياع، وقد ثارت ثائرته فحسب من الجرح الحارق في قلبه، تابع التمتمة وسط دموعه:

«الأغبياء! الأغبياء!».

لكن صرخة البطن غلبت، وهبّت صيحة كالعاصفة، كاسحة كل شيء:

«خبزا خبزا خبزا».

VI

بعد أن صحا من سكره بلطمات كاترين، ظلّ إتيان على رأس الرفاق. لكن بينما دفعهم للزحف على مونسو، بصوت مبحوح، كان يسمع صوتاً ثانياً بداخله، صوت العقل الذي يتعجّب، الذي يسأل لماذا كل ذلك. لم يكن يرِد شيئاً من هذه الأمور، كيف حدث أنه، انطلق لأجل جونبار بهدف التصرف بكل برود ومنع وقوع كارثة، ها هو يُنهي اليوم، عنفاً بعد عنف، بمحاصرة قصر المدير؟

ومع ذلك هو الذي صرخ آنفاً: قف! لكن، أول الأمر كانت الفكرة هي حماية مواقع الشركة، حيث جرى الحديث عن الذهاب لتخريب كل شيء. والآن، بعد أن كانت الحجارة تخدش مسبقاً واجهة القصر، فإنه يحاول، دون العثور عليها، عن أي فريسة شرعية يجب عليه إطلاق العصبة، كيما يتجنب مصائب أكبر. وبما أنه لبث وحيداً على ذلك النحو، عاجزاً في قارعة الطريق، ناداه أحد ما، رجل واقف عند عتبة حانة **تيزون**، التي عجّلت صاحبته بوضع المصاريع، ولم تترك سوى الباب مفتوحاً.

«أجل، هذا أنا. اسمع إذن».

ذاك كان راسنور. حوالي ثلاثين فرداً، رجالاً ونساء، كلهم تقريباً من مجمَّع 240، الذين لزموا بيوتهم صباحاً وجاؤوا في المساء تنسماً للأخبار، اكتسحوا تلك الحانة عند دنوّ المضربين. كان زكاري يجلس بطاولة مع زوجته فيلومين. أبعد منهما، پييرون وپييرونه، يديران ظهريهما ويخفيان وجهيهما. ثم لم يكن أحد يشرب، كان مأوى لهم، فحسب.

عرف إتيان أنه راسنور، وكان يبتعد عنه حينما أضاف الثاني:

«يزعجك مرآي، أليس كذلك؟ لقد حذّرتك، ابتدأت المتاعب. الآن، يمكنكم المطالبة بالخبز، سيعطونكم الرصاص».

حينذاك، رجع، وأجابه:

«ما يزعجني، هم الجبناء الذين ينظرون إلينا ونحن نجازف بأرواحنا، وهم لا يفعلون شيئاً».

«فكرتك إذن هي نهب ما هو قبالتنا»، سأله راسنور.

«فكرتي هي أن أظل حتى الأخير مع الأصدقاء، ولو هلكنا نحن جميعاً».

وهو محبط، عاد إتيان إلى داخل الحشد، على أهبة الاستعداد للموت. في الطريق، كان ثلاثة أطفال يقذفون الحجارة، رفسهم رفساً وهو يصرخ، كيما يكفّ الرفاق، بأن تكسير زجاج النوافذ لن يفيد في الأمر شيئاً.

بيبير وليدي، اللذان التحقا آنفاً بجونلان، تعلما من هذا الأخير استعمال المقلاع. وقام كل واحد منهم بقذف الحصى، في لعبة تقوم على من يُحدِث أكبر خسارة. وبضربة خرقاء، أصابت ليدي رأس امرأة في الحشر اللجب؛ وكان الولدان يمسكان أضلاعهما. خلفهما، كان ينظر إليهما بونمور وموك، الجالسان على مقعد. ساقا بونمور المنتفختين كانتا لا تقويان على حمله بحيث وجد عناء كبيراً لجرجرة نفسه حتى ذلك الموضع، دون أن يعرف أحد سرّ حب الاستطلاع الذي كان يدفعه، لأنه كان بوجهه المغبر الذي يتخذه في الأيام التي لن يظفر منه أحد بكلمة واحدة.

فضلاً عن ذلك، لم يعُد أحد يطيع إتيان. واصلت الحجارة، رغم أوامره، النزول مثل البَرد، وكان يتعجّب، ويفزع أمام هؤلاء

الأجلاف الذين فُكّ لجامهم، الذين أبطأوا في إبداء التأثر، ثم بعد ذلك، صاروا مخيفين، ومقاومة شرسة عند الغضب. الدم الفلاماني العتيق كله كان هناك، ثقيل ووديع، يستغرق شهوراً ليسخن، يرتمي في أحضان الوحشية المقيتة، ولا يسمع شيئاً إلى أن يسكر الوحش من أصناف القسوة. في جنوبه هو، كانت الحشود تشتعل بسرعة، لكنها كانت تقوم بأعمال أقل. وقد لزمه معاركة لوفاك حتى ينتزع منه ساطوره، وكان في حال لم يعُد يعرف فيه كيف يحتوي آل ماهو الذين كانوا يقذفون الحجارة باليدين معاً. وكانت النساء على الأخص يفزعنه، لوفاكه، موكيت والأخريات، وقد تحرك في نفوسهن غضب قاتل، الأسنان والأظافر بارزة، ينبحن مثل الكلاب، بفعل تهييج برولي لهن، التي كانت تغلبهن بقامتها الهزيلة.

لكن حدث توقف مباغت، لحظة مفاجأة حسمت في قليل من الهدوء لم تستطع توسلات إتيان الحصول عليه. إنهم ببساطة آل غريغوار الذين قرروا مغادرة بيت المحامي للذهاب عند المدير، في الجهة المقابلة؛ وقد بدا أنهم كانوا على قدر من السكينة، وكان بادياً عليهم حقاً أخذ الأمر على أنه مزحة من قِبل عمال المنجم الطيبين الذين يعيشون على الإذعان منذ قرن من الزمان، إلى حدّ أن هؤلاء كفوا بالفعل عن قذف الحجارة، مخافة أن يصيبوا ذلك السيد العجوز وتلك السيدة العجوز، اللذين هبطا من السماء. وتركوهما يدخلان إلى الحديقة، ويصعدان الدرج، ويدقان جرس الباب المترّس، الذي لم يعجل أحد لفتحه. وفي تلك اللحظة بالضبط، كانت الخادمة روز عائدة من خرجتها، وهي

تضحك للعمال الغاضبين، الذين كانت تعرفهم جميعاً، لأنها من مونسو. والتي انتهى بها المطاف إلى إجبار هيپوليت، بخبطها الباب بقبضتها، على مواربته. وكان أوان ذلك، اختفى آل غريغوار، حيث بدأ تساقط الحجارة من جديد مثل البَرَد. لمّا زالت دهشته، صاح الحشد بصوت أعلى:

«الموت للبرجوازيين! تحيا الاشتراكية!».

لم تكف روز عن الضحك، في بهو القصر، كأن المغامرة أدخلت عليها البهجة، وكانت تكرر على سمع الخادم المذعور:

«ليسوا خبثاء، أنا أعرفهم».

علّق السيد غريغوار قبّعته وفق نهجه السابق. ثم بعدما أعان السيدة غريغوار على خلع معطفها من المخمل الغليظ، قال بدوره:

«لا شك، لا مكر لديهم في الأصل. بعدما يصرخون جيداً، سيذهبون للعشاء بشهية أكبر».

في تلك الآونة، كان السيد إينبو ينزل من الطابق العلوي. لقد رأى المشهد، واستقبل ضيوفه آنفاً، بمظهره المعتاد، البارد والمتأدب. وحده شحوب وجهه كان يخبر عن الدموع التي هزّت كيانه. كان الرجل مروّضاً، ولم يلبث فيه سوى الإداري المستقيم العازم على القيام بواجبه.

«تعلمون أن تلكم السيدات لم يرجعن بعد»، قال.

للمرة الأولى، أثرت الحيرة في آل غريغوار. سيسيل لم ترجع! كيف ترجع لو استمرت مزحة عمال المناجم هؤلاء؟

«لقد فكرتُ في إخلاء البيت»، أضاف السيد إينبو، «المصيبة هي أني وحدي هنا، ولا أعرف لأي مكان أبعث خادمي كيما يعود لي بأربعة رجال وعريف، يكنسون لي هؤلاء الرعاع».

بعدما ظلت هناك، تجرأت روز من جديد وهمست قائلة:

«أوه! سيدي، إنهم ليسوا خبثاء».

هـزّ المدير رأسـه، بينمـا الجلبـة تحتـدم فـي الخـارج، ويُسـمع سـقوط الحجـارة المكتـوم علـى الواجهـة.

«أنـا لا ألومهـم، بـل حتـى أجـد لهـم العـذر، يجـب أن يكـون المـرء غبيـاً مثلهـم للظـن أننـا نصـرّ علـى مصيبتهـم. لكـن فحسـب، أنـا مسـؤول عـن التهدئـة. والحـال أن هنـاك رجـال درك فـي الطرقـات، حسـب مـا قيـل لـي، وأنـي منـذ هـذا الصبـاح، لـم أرَ منهـم فـرداً واحـداً!».

سكت، فسح المجال للسيدة غريغوار قائلاً:

«من فضلك، سيدتي، لا تظلوا هنا، أدخلوا إلى المجلس».

لكن الطاهيـة التـي صعـدت مـن الطابـق تحـت الأرضـي، منزعجـة، أبقتهـم فـي البهـو دقائـق معـدودة. وقالـت إنهـا لـم تعـد تتحمـل مسـؤولية العشـاء، لأنهـا كانـت تنتظـر مـن حلوانـي مارشـيين حلـوى **بسـاط الريـح** التـي طلبتهـا للسـاعة الرابعـة. مـن البيِّـن أن الحلوانـي ضـلّ الطريـق، خوفـاً مـن أولئـك اللصـوص. بـل مـن المرجـح أنهـم نهبـوا عصائـر سـكّره. كانـت تتخيـل حلـوى بسـاط الريـح محبوسـة خلـف أجمـة، محاصـرة، تنفـخ بطـون البؤسـاء الثلاثـة آلاف الذيـن كانـوا يطلبـون الخبـز. فـي كل حـال، لقـد أنـذرت السـيد، إنهـا تفضـل أن ترمـي عشـاءها فـي النـار، إن هـي أخفقـت فـي إعـداده، بسـبب الثـورة.

«صبـراً»، قـال السـيد إينبـو، «لـم نخسـر شـيئاً بعـد، قـد يأتـي الحلوانـي».

ولما استدار نحو السيدة غريغوار وهو يفتح باب المجلس بنفسه، استغرب كثيراً لما رأى رجلاً لم يتبين ملامحه حتى تلك اللحظة، جالساً على مقعد البهو، في الظل المتزايد.

«هاك! هذا أنت، ميغرا، ماذا هناك إذن؟».

نهض ميغرا، وبدا وجهه، السمين والمصفر، مفككاً من شدة الذعر، أوضح بذِلّةٍ أنه تسلل إلى بيت السيد المدير، طلباً للعون والحماية، إن هاجم قطّاع الطرق محلّه.

«تعلم أني مهدّد بنفسي وأن ليس لي أحد»، أجاب السيد إينبو، «من الأفضل لك البقاء في محلّك، وحراسة سلعتك».

«أوه! لقد وضعت قضبان الحديد، ثم تركت زوجتي هناك».

نفد صبر المدير، ولم يُخفِ احتقاره. يا لها من حراسة جميلة، تلك المخلوقة الهزيلة، الناحلة من شدة الضرب!

«أقصد، لا أستطيع لك شيئاً، احرص على الدفاع عن نفسك. وأنصحك بالعودة في الحال، إذ ها إنهم يطالبون بالخبز من جديد، اسمع».

فعلاً، عاد الصّخب وظن ميغرا أنه سمع اسمه وسط الصرخات. لم يعُد الرجوع ممكناً، وإلا تمّ تمزيقه. من جهة ثانية، كانت فكرة خراب ماله تقلب كيانه. ألصق وجهه بصفحة الباب الزجاجية، والعرق يتصبب منه، مرتعداً، مترقباً الكارثة؛ بينما قرر آل غريغوار المرور إلى قاعة المجلس.

بهدوء، كان السيد إينبو يتظاهر بشرف الاستقبال في بيته. لكنه كان يرجو ضيوفه للجلوس، دون جدوى، القاعة المغلقة، المترّسة، المضاءة بمصباحين قبل أفول النهار، كانت تمتلئ

بالفزع، مع كل صيحة جديدة في الخارج. وسط اختناق النِّجاد، كان غضب الحشد، الباعث أكثر على القلق، يرسل بصخب تهديداً ملتبساً ورهيباً. ومع ذلك، تبادلوا أطراف الحديث، الذي يرجع دوماً إلى الهياج الذي لا يُصدّق. كان يتعجّب من كونه لم يتوقع شيئاً؛ وتدبيره كان سيئاً بقدر جعله يستشيط غضباً على الأخص ضد راسنور، الذي يقول عنه بأنه يعرف تأثيره المقيت. فضلا عن ذلك، سوف يأتي رجال الدرك، إذ من المحال التخلي عنه بذلك النحو. أما آل غريغوار، فقد كان شاغلهما هو بنتهما: الغالية المسكينة التي تفزع بسرعة! المرجح، في ظلّ الخطر، أن العربة رجعت إلى مارشيين. طال الانتظار مدة ربع ساعة أخرى، انتظار متوتر بلغط الطريق، بصوت الحجارة التي تخبط بين فينة وأخرى المصاريع المغلقة، التي تطنّ كأنها طبول. لم يعُد الوضع قابلاً للتحمل. قال السيد إينبو إنه سوف يخرج، ويطرد لوحده الصيّاحين ويذهب في لقاء العربة، حينما ظهر هيپوليت وهو يصرخ:

«سيدي! سيدي! ها هي سيدتي، سيدتي تُقتَل!».

حيث أن العربة لم تتجاوز زقاق ريكيار، وسط الجماعات المتوعدة، فقد سار نيغريل على فكرته، قطع المائة متر التي تفصلهم مشياً، ثم طرق الباب الصغير المطل على الحديقة، قرب ملحقات البيت: سوف يسمعهم البستاني، سيكون هناك دوماً أحد ما لفتح الباب. في البداية، جرت الأمور على الوجه الأكمل، بل كانت السيدة إينبو والآنسات يطرقن الباب أصلاً، حينما قامت نساء، أخذن علماً بوجودهن، وهجمن على الزقاق. حينذاك، ساء

كل شيء. لم يُفتح الباب، وقد حرص نيغريل دون جدوى على تحطيمه بضربات من كتفه. كان موج النساء يتعاظم، وخشي أن يتجاوزه الأمر، وقد اختار بعد يأس أن يدفع خالته والفتيات، للوصول إلى الدرج، من خلال المحاصِرين. لكن هذا السلوك جلب عليهم التدافع: لم يعُد للناس فكاك منهم، عصبة صارخة تطاردهم، بينما الحشد يتدفق من اليمين ومن الشمال، دون أن يدرك بعد، مستغرب فحسب من تلك السيدات في أتم زينتهن، التائهات في المعركة. في تلك اللحظة، وصل الاختلاط مبلغاً بحيث وقع حادث من حوادث الذعر التي تظل بلا تفسير. لوسي وجان، بعدما وصلتا إلى الدرج، اندستا عبر الباب الذي فتحته الخادمة بالكاد؛ أفلحت السيدة إينبو في إثرهما؛ وخلفهن، دخل نيغريل أخيراً، أعاد المغاليق، وهو على يقين من أنه رأى سيسيل تمر أولاً. لم تعد هناك، اختفت في الطريق، وقد جرفها خوفها الشديد إلى حدّ أنها أدارت ظهرها للبيت، وارتمت تلقاء نفسها في حضن الخطر.

في الحال، علا الصراخ:

«تحيا الاشتراكية! الموت للبرجوازيين! الموت!».

من بعيد، ظنها البعض، تحت الخمار الصغير الذي كان يحجب وجهها، أنها السيدة إينبو. وذكر آخرون اسم صديقة للمدير، زوجة شابة لصاحب مصنع مجاور يبغضه عُمّاله. فضلاً عن ذلك، لا يهم، فقد كانت تزعجهم جبّتها الحرير، ومعطفها الفرو، بل حتى الريشة البيضاء في قبعتها. كانت تفوح عطراً، ولديها ساعة معصم، وبشرة رقيقة لكسلانة لا تلمس الفحم.

«مهلا!»، صاحت برولي، «سوف نضع لك منه في الدبر، ذلك الثوب الشفاف!».

«يسرقن ذلك منا، تلكم الساقطات»، أردفت لوفاكه، «يلصقن الفراء بجلودهن، حينما نموت نحن من شدة البرد. اسمعن، فلتبق عارية تماماً، حتى نعلمها العيش!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

تبعاً لذلك، اندفعت موكيت.

«أجل، أجل، يجب التكفل بها».

وفي هذا التنافس المتوحش، كانت النساء تختنق، تمدّد أسمالهن، كل واحدة منهن تريد قطعة من بنت الأغنياء تلك. لا ريب في أن عجيزتها لم تكن أفضل حالاً من غيرها. ما أكثر اللواتي كن فاسدات الخلق تحت زينتهن الرخيصة. منذ أمد بعيد والظلم سائر، ولسوف يُكَرهن جميعاً على اللباس مثل العاملات، تلك اللائي يجدن من الجرأة إنفاق خمسين فلساً لغسل جبة قصيرة!

وسط ذلك الغضب العارم، كانت سيسيل ترتعد، ساقاها مشلولتان، متمتمة للمرة العشرين الجملة نفسها:

«سيداتي، من فضلكن، سيداتي، لا تُصبنني بسوء».

لكنها صرخت بصوت أجش: أُطبقت يدان باردتان على عنقها. كان ذاك العجوز بونمور، الذي دفعها الموج بقربه، وأحكم قبضته عليها. بدا سكران من شدة الجوع، متبلّد الذهن من بؤسه الطويل، وقد أفاق بغتة من إذعانه الذي دام نصف قرن، دون أن يدرك أية ضغينة دفعته إلى ذلك. بعد أن أنقذ، في حياته، اثنا عشر رفيقاً له من الموت، مجازفاً بجلده في انفجار الغاز وفي الانهيارات

الأرضية، ها هو يستسلم لأشياء لا يمكنه أن يفصح عنها، لحاجة إلى فعل ذلك، لفتنة عنق الفتاة الأبيض ذاك. وبما أنه في هذا اليوم فقد لسانه، فقد كان يقبض أصابعه، كأنه وحش هرم ذو عاهة، ويجتر ذكرياته.

«كلا! كلا!»، كانت النساء يصرخن، «جردوا عجيزتها! جردوا عجيزتها!».

في البيت الكبير، ما أن أدرك نيغريل والسيد إينبو الواقعة حتى فتحا الباب، بشجاعة، للإسراع بنجدة سيسيل. لكن الحشد كان الآن يهجم على سياج الحديقة، ولم يعُد من السهل الخروج. نشب صراع هناك، بينما ظهر آل غريغوار على الدرج، مذعورين.

«هيا، دعها يا عجوز! إنها آنسة ضيعة بيولين!»، صاحت **ماهود** مخاطبة الجد، وقد تعرّفت على سيسيل، التي مزقت امرأة خمارها.

من جانبه، لما راعه ذلك الانتقام من طفلة، سعى إتيان جهده كيما يفرق العصبة. وألهم فكرة، رفع الساطور الذي انتزعه من قبضة لوفاك.

«عند ميغرا، اللعنة! هناك خبز، في الداخل. فلنحطم محل ميغرا!».

وبسرعة، هوى بضربة أولى من الساطور على باب الحانوت. تبعه بعض الرفاق، لوفاك، ماهو وآخرون. لكن النساء أصرّين، إذ سقطت سيسيل من أصابع بونمور في يدي **برولي**. تسللت ليدي وبيبير، على أربع، يقودهما جونلان، بين الجبب، قصد رؤية عجيزة السيدة. أصلاً، كان يتم جذبها، فتُمزّق ثيابها، حينما ظهر

فارس، يدفع مطيته، ويضرب بسوطه الذين لا يفسحون الطريق بما يكفي من السرعة.

«آه! الرعاع، وصل بكم الحد إلى ضرب بناتنا!».

كان ذاك **دونولان** القادم في الموعد للعشاء. بسرعة، وثب على الطريق، أمسك **سيسيل** من خاصرتها؛ وبيده الثانية، قاد الحصان بمهارة وقوة خارقة للعادة، كان يستعمله وكأنه سفَن حيّ، يشقّ الحشد الذي كان يتراجع أمام شبوب الحصان. عند السياج، استمر العراك. ومع ذلك، جاز الحشد، داس أطرافاً. تلك النجدة غير المتوقعة خلّصت نيغريل والسيد إينبو اللذين كانا في خطر شديد، وسط الشتائم والضربات. وبينما كان الرجل الشاب عائداً في نهاية المطاف بسيسيل المغشي عليها، فوق الدرج، أصاب حجر دونولان الذي كان يحمي المدير بجسمه الضخم، وكاد صدمه أن يفك كتفه.

«هو ذاك، صاح بهم، كسروا عظامي، بعدما كسرتم آلاتي!».

دفع الباب بحزم. وتساقطت دفعة من الحجارة على اللوح.

«يا لهم من مسعورين!»، أردف قائلاً، «ثانيتان زيادة، ويشقون دماغي مثل قرعة يقطين فارغة. ليس في وسعنا أن نقول لهم شيئاً، لا مفر! لم يعُد لهم علم بشيء، لا حلّ غير صرعهم».

في قاعة الجلوس، كان آل غريغوار يبكيان، لما رأيا سيسيل ترجع نحوهما. لم يصبها أي سوء، ولا خدش واحد: خمارها وحده هو الذي ضاع. لكن ذعرهما زاد حينما تبيّنا أمامها طاهيتهما ميلاني التي روت لهما كيف أن العصبة هدّمت بيولين. ومن شدة الخوف، أسرعت لإخبار سيديها. كانت قد دخلت بدورها من الباب

المـوارب، أثنـاء المشـاجرة، دون أن يلحظهـا أحـد؛ وفـي حكايتهـا التـي لا نهايـة لهـا، فـإن الحجـر الوحيـد الـذي قذفـه جونـلان صـار رشـقاً تـام الأركان، شـق الجـدران. حينئـذ انقلبـت خواطـر السـيد غريغـوار: بنتـه تتعـرض للخنـق، بيتـه يمسـح مـن وجـه الأرض، صحيـح إذن أن أولئـك العمـال يلومونـه، لأنـه يعيـش كرجـل شـهم مـن عملهـم؟

ردّدت الخادمة وقد أحضرت منديلاً وماء كحول:

«مهما يكن، غريب، إنهم ليسوا خبثاء».

كانـت السـيدة إينبـو جالسـة، شـاحبة جـداً، لـم تتعـاف بعـد مـن هـزة تأثرهـا؛ واسـتعادت بسـمتها فحسـب حيـن تهنئـة نيغريـل. كان والـدا سيسـيل يشـكران الرجـل الشـاب علـى الأخـص. وأضحـى الـزواج الآن معقـوداً. كان السـيد إينبـو ينظـر بصمـت، ينقـل ناظـره مـن زوجتـه إلـى ذلـك العشـيق الـذي أقسـم علـى قتلـه فـي الصبـاح، ثـم إلـى تلـك الفتـاة الشـابة التـي سـوف تخلصـه منـه قريبـاً دون شـك. لـم يكـن علـى عجلـة مـن أمـره، لكـن لازمـه خـوف واحـد، الخـوف مـن أن يـرى زوجتـه تنحـطّ أسـفل مـن ذلـك، وتقـع بيـن حضـن خـادم ربمـا.

«وأنتمـا، أيتهـا الغاليتـان الصغيرتـان»، سـأل دونـولان بنتيـه، «لـم يصبكمـا شـيء؟».

لقـد خافـت لوسـي وجـان حقـاً، لكـن سـرّهما رؤيـة ذلـك. وهمـا تضحـكان الآن.

«أواه!»، تابع الأب كلامه، «هذا يوم سعد! إن أردتما صداقاً، ما عليكما سوى الظفر به بأنفسكما؛ وتوقعا أيضاً أن تتكفلا كرهاً بطعامي».

كان يمـزح، وصوتـه يرتعـد. اغرورقـت عينـاه حيـن ارتمـت بنتـاه فـي حضنـه.

لقد سمع السيد إينبو هذا البوح بخراب المال. أضاءت وجهه فكرة عاجلة. سوف يصبح ڤاندام فعلاً لمونسو، كان ذلك هو التعويض المأمول، ضربة الحظ التي سوف تعيد له حظوته لدى أسياد الوكالة هؤلاء. بعد كل مصيبة في حياته، يلوذ بالتنفيذ الصارم للأوامر، كان يجعل من الانضباط العسكري حيث يعيش نصيبه المختزل من السعادة.

لكن عمّ الهدوء، وغلب قاعة الجلوس سلام متعَب، بفضل ضوء المصباحين الساكن، ودفء البوابتين الخانق. ماذا كان يحدث إذن؟ الصيّاحون ساكتون، لم تعد الحجارة تقصف الواجهة؛ وكان يتناهى إلى السمع فحسب ضربات قوية مكتومة، ضربات فؤوس تسمع من بعيد في الغابات. وشاء من في المجلس معرفة ما يقع، إذ عادوا إلى البهو للمجازفة بإلقاء نظرة خلال لوح الباب الزجاجي. بل حتى تلك السيدات والآنسات صعدن للرصد خلف شبابيك الطابق الأول.

«هل ترى راسنور ذاك الخسّيس، قبالتنا، على عتبة تلك الحانة؟»، قال السيد إينبو مخاطباً دونولان، «لقد شممت ريح ذلك، يجب أن يكون ضمن ذلك».

رغم ذلك، لم يكن ذاك راسنور، بل إتيان الذي كان يحطم محل ميغرا بالساطور. وكان ينادي دوماً على الرفاق: البضائع هناك، أليست في ملك عمال الفحم؟ ألم يكن من حقهم استرداد مالهم من ذلك اللص الذي كان يستغلهم منذ أمد طويل، الذي كان يجوعهم بكلمة واحدة من الشركة؟ شيئاً فشيئاً، هجر الجميع قصر المدير، وسارعوا لنهب المتجر المجاور. من جديد زمجرت

الصرخة: «خبزا خبزا خبزا»، سوف يجدون منه خلف ذلك الباب. سورة جوع كانت تهيجهم، كما لو أنهم، بغتة، لم يعُد في وسعهم الانتظار أكثر، دون أن يفرجوا عن أنفاسهم على هذه الطريق. ومن شدة ما كان التدافع يهجم على الباب فقد خشي إتيان أن يصيب أحداً ما عند كل ضربة من ساطوره.

في الأثناء، لجأ ميغرا، الذي غادر بهو البيت الكبير، إلى المطبخ؛ لكن لم يكن يُسمع منه حسّ، كان يتخيل هناك أفعالاً إجرامية مقيتة ضد متجره؛ وقد صعد للاختباء خلف المضخة، في الخارج، حينما تبيّن بوضوح صرير الباب المتكرر، وصيحات غضب شديد تدعو للنهب فيها ذكر لاسمه. إذن لم يكن ذلك كابوساً: إذا كان لا يرى، فإنه يسمع الآن، يتابع الهجوم، وبأذنيه طنين. كل ضربة فأس كانت تقتحم قلبه. لا بد أن مفصلاً زال من مكانه، خمس دقائق بعدُ، ويتم الاستيلاء على المتجر. كان ذلك يُرسم في رأسه بصور حقيقية، مرعبة، قطاع الطرق الذين يهجمون، ثم كسر الأدراج بالقوة، شقّ الأكياس، كل شيء صار مأكولاً، مشروباً، المنزل بنفسه مسلوباً، ولا شيء بعدُ. ولا حتى عصا يتسول بها في القرى. كلا، لن يسمح لهم بأن يتمّوا خراب ماله، كان يفضل أن يَلقى في ذلك حتفه. منذ أن كان هنا، كان يرى في إحدى نوافذ بيته، على الجهة الخلفية، طيف زوجته الهزيل، شاحباً وغير واضح خلف الزجاج: لا شك أنها كان تشاهد قدوم الضربات، بما يلوح على وجهها من خرس، خرس كائن شقي تعرّض للضرب. تحت، كانت هناك حظيرة، بحيث أن موقعها، يسمح بالصعود إليها من حديقة القصر عبر تسلق سياج

الجدار الفاصل بين الجارين؛ ثم، من هناك، من السهل الزحف على القرميد حتى النافذة. وكانت فكرة العودة إلى بيته بتلك الصورة تعذبه في الوقت الراهن، وتأكله الحسرة على خروجه منه. ربما كان له متسع من الوقت كيما يمترس محله بأغراض الأثاث؛ بل كان يختلق أشكال دفاع بطولية أخرى، الزيت المغلي، النفط المشتعل، مسكوب من فوق. لكن تعلقه الشديد ببضائعه كان يصارع خوفه، ويئن من جبنه المنهزم. بغتة، حسم قراره بعد سماع رنينٍ أشدٍ للساطور. وغلب البخل، هو وزوجته سوف يحميان الأكياس بجسديهما، ولا يتخلَّيان عن كسرة خبز.

وفي الحال تقريباً، دوَّت هتافات.

«انظروا! انظروا! الهِرّ السمين في الأعلى! هلموا للهرّ! هلموا للهرّ!».

كانت العصبة قد أبصرت **ميغرا**، فوق سقف الحظيرة. في حميّته، رغم ثقله، صعد السياج بخفّة دون الاكتراث بالألواح التي كانت تتكسر؛ والآن، يتمدد على طول القرميد، ويسعى جهده قصد بلوغ النافذة. لكن المنحدر كان حادّاً جداً، وكرشه يضيّق عليه، وأظافيره تُنتَزع. ومع ذلك، كان يستطيع جرجرة نفسه حتى الأعلى لو لم تأخذه رعشه، خشية أن تصيبه حجارة؛ لأن الحشد، الذي لم يعُد يراه، واصل الصياح، أسفله:

«هلموا للهر! هلموا للهر! يجب أن نصرعه!».

وفجأة، أفلت يديه معاً، تدحرج مثل كرة، قفز إلى البالوعة. وسقط على عرض الجدار الفاصل، على نحو مؤسف، إذ وثب جانب الطريق، حيث تهشّم رأسه على زاوية حجرية. خرج المخ.

لقد مات. زوجته، فوق، شاحبة الوجه وغير واضحة الملامح خلف الزجاج، كانت تنظر دوماً.

في البداية، عمّ الذهول. توقف إتيان، وقد زلق الساطور من قبضته. ماهو، لوفاك، كل الآخرين، نسوا الحانوت، العيون صوب الجدار، حيث كان يسيل ببطء خيط رقيق أحمر. وكفّت الصيحات، واتسع الصمت في الظل المتعاظم.

وفي الحال، عادت الهتافات من جديد. النساء هن اللواتي هجمن وقد سرَت فيهن سكرة الدم.

«إذن هناك إله طيب! آه! يا خنزير، انتهى الأمر!».

تحلقن حول الجثة الحارّة لا تزال، كن يشتمنه بضحكات، ويصفن رأسه المهشم بالخطم القذر، صارخات في وجه الموت بضغينة حياتهن الطويلة دون خبز.

«كنت مدينة لك بستين فرنكاً، ها إنك حصلت عليها، يا لص!»، قالت ماهود، مغتاظة بين الأخريات، «لن ترفض لي بعد اليوم قرضاً. مهلاً! مهلاً! يجب أن أسمّنك بعدُ».

بأصابعها العشرة، كانت تقشر التراب، أخذت منه حَثيتين، ملأت بهما فمه، بشدة.

«هاك! كُل إذن! هاك! كُل، كُل، أنت الذي كنت تأكلنا!».

زادت الشتائم أضعافاً، بينما الميّت، المستلقي على الظهر، ينظر، بلا حراك، بعينيه الشاخصتين، إلى السماء الواسعة، التي كان يهبط منها الليل. ذلك التراب، المتراكم في فمه، كان هو الخبز الذي منعه. ولن يأكل بعدُ إلا من ذلك الخبز، الآن. تجويع الناس الفقراء، لم يجلب له السعادة بتاتاً.

لكن كان على النساء أن يأخذن منه ثأراً كثيراً آخر. كنَّ يدُرن وهن يشممنه، مثل إناث الذئاب. كل واحدة كانت تبحث عن انتهاك حرمة، عن تصرف وحشي يريحهن.

وسُمع صوت برُولِي الفظ.

«وجب تقطيعه مثل الهرّ السمين!».

«أجل، أجل! هلموا للهرّ! هلموا للهرّ! لقد أفرط الوغد في ما فعل!».

مسبقاً، كانت موكيت تجرده من ثيابه، تجر سرواله، بينما لوفاكه ترفع ساقيه. وبرولي، بيديها اليابستين، يدا العجوز، فرّجت الفخذين العاريين، وقبضت تلك الفحولة المائتة. كانت تمسك كل شيء، تنزع، بجهد يمدد ظهرها الهزيل، ويفرقع ذراعيها الطويلتين. كانت الجلود الرخوة تقاوم، ولزمها معاودة الكرّة، وانتهى بها المطاف إلى أخذ المزقة، هبرة لحم به شعر ودم، لوَّحت بها بضحكة نصر.

«ها هي! ها هي!».

حيّت أصوات حادة الغنيمة المقيتة بالدعاء عليه.

«آه! أيها الوغد، لن تحبل منك فتياتنا بعد هذا!».

«أجل، انتهى أداء الدين لك من لحمنا، لن نخضع لذلك كلنا أبداً، بأن نرفع المؤخرة للحصول على رغيف».

«هاك! أنا مدينة لك بستة فرنكات، هل تريد أن تأخذ الحساب؟ أنا أريد حقاً، إذا كنت تستطيع!».

هذه المزحة هزت كيان كل واحدة منهن بمرح رهيب. كنّ يُرِينَ لبعضهن المزق الدامية، مثل وحش كريه، جرّ العذاب على كل

واحدة منهن، والذي سحقنه آنفاً في نهاية الأمر، الذي يرينه، هناك، جامداً، تحت سلطانهن. كُن يبصقن عليه، وتبرز كل واحدة فكّيها، مرددة، بدوّي احتقار غاضب:

«صار عاجزاً! صار عاجزاً! من سنرمي في الحفرة، لم يعُد رجلاً. هيا إذن حيث تتعفّن، أيها الحقير!».

وعليه، ثبّتت برولي الهبرة كلها على طرف عصاها، ولما رفعتها في الهواء، تجول بها كأنها علَم، اندفعت في الطريق، وتبعتها لُمَّة النسوة المُوَلوِلات. قطرات دم تسقط كالمطر، وتلك الجلدة المؤسفة متدلية، مثل بقية لحم في معرض قصّاب. فوق، عند النافذة، لم تكن السيدة ميغرا تتحرك دائماً، لكن في ظلّ آخر ومضة من المغيب، فإن عيوب الزجاج المغمّمة شوهت ذلك الوجه الأبيض، الذي بدا وكأنه يضحك. هي التي تعرضت للضرب، والخيانة في كل ساعة، وكتفاها منكبّان من الصباح حتى المساء على سجِّل، ربما كانت تضحك، حينما هرولت لمة النساء، مع الحيوان الكريه، الرأس مهشَّم، على طرف عصا.

لقد تمّ ذلك التقطيع المريع بفظاعة من صقيع. لم يكن لإتيان أو ماهو أو الآخر متسع من الوقت للتدخل: ظلوا بلا حركة، أمام ركض جنِّيات الجحيم ذاك. عند باب حانة تيزون، أطلت رؤوس، راسنور مصفر الوجه من سخطه، وزكاري وفيلومين مشدوهَين مما رأيا. كان كل من العجوز بونمور وموك يهز رأسه، بتقاسيم وجه صارمة جداً. وبيبير يرغم ليدي على رفع أنفها. لكن النساء رجعن أصلاً، وهن يدرن حول أنفسهن، ويمضين أسفل نوافذ الإدارة. وخلف الشبابيك، كانت تلك السيدات والآنسات يمددن

أعناقهن. لم يكن في وسعهن رؤية المشهد، المحجوب بالجدار، ولم يكن من السهل عليهن تمييز شيء في الليل الذي صار مظلماً.

«ماذا لديهن إذن على طرف العصا؟»، سألت سيسيل، التي تجرّأت على النظر.

قالت لوسي وجان أن لا بد من أن ذلك جلد أرنب.

«كلّا، كلّا»، همست السيدة إينبو، «إذا نهبوا اللحم المقدد، فذلك يشبه بقية من لحم خنزير».

في تلك اللحظة، جزعت وسكتت. لقد ضربتها السيدة غريغوار بركبتها. وظلتا معاً فاغرتي الفمين. تلك الآنسات المصفرة وجوههن، لم يسألن بعد ذلك، وتابعن بعيونهن المحدّقة ذلك المنظر الأحمر، في جوف الظلماء.

من جديد، رفع إتيان الساطور. لكن الضيق لم يندثر، تلك الجثة تعترض الطريق في الوقت الحالي وتحمي المحل. تراجع الكثيرون. كان الأمر أشبه بإشباع أنزل عليهم السكينة جميعاً. ظلّ **ماهو** كئيب الوجه، حينما سمع صوتاً في أذنه يحثه على الهرب. التفت، تعرّف كاترين، دائماً في معطفها الرجالي، مسودة الوجه، تلهث. دفعها بحركة من يده. لم يشأ الإصغاء إليها، كان يهدد بضربها. حينئذ بدرت منها إيماءة يأس، ترددت، ثم عَدَت نحو إتيان.

«اهرب، اهرب، جاء رجال الدرك!».

بدوره، طردها، شتمها، وهو يشعر بدم اللطمات التي أصابته يغمر وجنتيه مرة ثانية. لكنها لم تتراجع، وأجبرته على رمي الساطور، جرّته بذراعيها معاً، بقوة لا تقاوَم.

«حين أخبرك بأن رجال الدرك جاؤوا! أنصت إليّ إذن. شافال هو من ذهب عندهم وأحضرهم، إذا شئت أن تعرف. أما أنا، فذلك أثار اشمئزازي، وقد جئتُ. اهرُب، لا أريد أن يتمّ القبض عليك».

ورافقته كاترين، في اللحظة التي هزّ فيها عدو ثقيل الرصيف من بعيد. وفي الحال، علت صرخة: «رجال الدرك! رجال الدرك!» وقع كرّ وفرّ، الهرب لمن استطاع على نحو محموم بحيث في ظرف دقيقتين أصبحت الطريق سالكة، واضحة تماماً، وكأن إعصاراً كنسها. جثة ميغرا وحدها كانت بقعة ظلّ على التراب الأبيض. أمام حانة تيزون، لم يبق سوى راسنور، وقد أراح، واستبشر، مصفقاً لنصر السيوف السهل؛ بينما في مونسو المقفرة، الخامدة، في صمت واجهات البيوت المغلقة، كان البرجوازيون، العرق يسيل على الجلد، لا يجرؤون على إلقاء نظرة، وأسنانهم تصطك. والسهل يغرق في الليل الدّامس، ولم يعُد هناك سوى المصاهر العالية وأفران الفحم المشتعلة في جوف السماء المفزعة. كان عدو رجال الدرك يدنو بشدة، شقوا الطريق، كتلة معتمة، دون أن يتبيّنهم أحد. وخلفهم وصلت أخيراً عربة حلواني مارشيين التي عُهِد إليهم حراستها، عربة صغيرة وثب منها صبيّ سخرة، شرع بكامل الهدوء في إنزال حلوى بساط الريح.

القسم السادس

I

مـرّ الأسـبوع الأول مـن شـهر فبرايـر أيضـاً، بـرد قاتـم يطيل الشـتاء القاسـي، بـدون شـفقة علـى البؤسـاء. مـن جديـد، جابـت السـلطات البلـد: محافـظ لِيـل، وكيـل محكمـة، وجنـرال. ولـم يكـن عـدد رجـال الـدرك كافيـاً، فجـاء العسـاكر واسـتوطنوا مونسـو، كتيبـة كاملة، وامتد معسـكر رجالهـا مـن بونيـي إلـى مارشـيين. حـرّاس مسـلحون لحراسـة الآبـار. كان هنـاك جنـود أمـام كل آلـة. قصـر المديـر، مواقـع الشـركة، بـل حتـى منـازل بعـض البرجوازييـن كانـت متنصّبـة بالبنـادق ذات الحـراب. ولـم يعُـد يُسـمع، علـى طـول الرصيـف، سـوى مـرور الحـرس الوئيـد. وعلـى ردم لوفـوروه، يظـل الحـارس واقفـاً مثـل حـارس فـوق السـهل العـراء، وسـط الريـح الجليديـة التـي تهب هنـاك فـي الأعلـى؛ وكل سـاعتين، تـدوي صرخـات الفصيـل، مثلمـا فـي بـلاد العـدوّ.

«من هنـاك؟ عـرّف نفسـك!».

لـم يُسـتأنف الشـغل فـي أي مـكان. بـل علـى العكـس، زادت حـدة الإضـراب: توقـف الاسـتخراج فـي كريڤكـور، ميـرو، مادليـن مثلمـا فـي لوفـوروه؛ وكل صبـاح ينقـص عـدد العمـال فـي فلـوري كانتيـل ولاڤيكتـوار؛ وفـي سـان تومـا، التـي ظلـت حتـى ذلـك الوقـت دون خسـائر، تغيّـب عـدد مـن الرجـال. الآن هنـاك إصـرار أخـرس، فـي مواجهـة انتشـار القـوة التـي أصبحـت تغيـظ كبريـاء عمـال المناجـم. بـدت المجمّعـات مقفـرة، وسـط حقـول الشـمندر. ولا عامـل واحـد يـدبّ، بالـكاد يلتقـي المـرء واحـداً منهـم بالصدفـة، منعـزلاً، ينظـر شـزراً، خافضـاً رأسـه أمـام السـراويل الحُمـر. وفـي ظلّ هـذا السـلام

الكئيب، وبذلك العناد الساكن، مصطدمة بالبنادق، كانت هناك الوداعة الكاذبة، الطاعة كرهاً وصبراً لوحوش في القفص، وعيونها على المروِّض، مستعدة لأكل قفاه، إذا هو أدار لها ظهره. كانت الشركة التي خرّبها موت الشغل ذاك تفكر في توظيف عمال مناجم **بوريناج**، الواقعة على الحدود مع **بلجيكا**؛ لكنها لم تجرؤ على ذلك قطعاً؛ بحيث أن المعركة ظلت على ما هي، بين عمال الفحم الذين أغلقوا عليهم بيوتهم، والحفر الميِّتة، التي يحرسها الجيش.

من غدوة اليوم الرهيب، تمّ ذلك السلام دفعة واحدة، حاجباً كل ذلك القدر من الذعر بحيث سكت الناس أكثر ما وسعهم عن الخسائر والفظائع. وأثبت التحقيق المنجز أن **ميغرا** مات من سقطته وظل تشويه الجثة ملتبساً، وأحاطت به الخرافة مسبقاً. من جانبها، لم تعلن الشركة عن الخسائر التي تكبّدتها، مثلما لم ينشغل آل غريغوار بتلطيخ سمعة بنتهما في فضيحة محاكمة يتحتم عليها الإدلاء بشهادة فيها. ورغم ذلك، جرت بعض الاعتقالات، ضحاياها بُدلاء كما دائماً، بلهاء أو متحيّرين، لا علم لهم بشيء. وبالخطأ، سيق **بيبرون** إلى مارشيين مقيّد اليدين، ولا يزال الرفاق يضحكون من ذلك. كما أوشك راسنور أن يساق بين رجُلَي درك. وتم الاكتفاء في الإدارة بوضع لوائح بأسماء المطرودين، وأُرجعت الرخص بكثرة: توصل **ماهو** برخصته، لوفاك أيضاً وكذلك أربعة وثلاثون من رفاقهم، في مجمع 240 وحده. وانصبّت الصرامة كلها على **إتيان**، الذي اختفى منذ مساء المشاجرة، والمبحوث عنه دون التمكن من العثور على أثره. أبلغ

عنـه شـاڤال، مـن حقـده، ورفـض ذكـر أسـماء الآخريـن، إذ توسّـلت إليـه كاتريـن التـي أرادت إنقـاذ والدَيهـا. الأيـام تمـرّ، ويشـعر النـاس بـأن لا شـيء انتهـى، وينتظـرون النهايـة والضيـق يثقـل علـى الصـدور.

فـي مونسـو، منـذ ذلـك الحيـن، كان البرجوازيـون يسـتيقظون كل ليلـة بفـزع، والأذان تطـن بناقـوس خطـر خيالـي، والأنـوف يسـكنها ريـح البـارود العفـن. لكـن مـا أتـى علـى جنونهـم هـي موعظـة كاهنهـم الجديـد، القسّ **رانڤيـي**، ذلـك الراهـب الهزيـل ذو العينيـن الحمراويـن كالجمـر الـذي حـل مـكان الراهـب جـوار. كـم أضحـى بعيـداً تكتـم هـذا الأخيـر الباسـم، عنايتـه الفريـدة كرجـل سـمين ووديـع للعيـش فـي سـلام مـع الجميـع! ألـم يسـمح الكاهـن **رانڤيـي** لنفسـه بالدفـاع عـن قطـاع الطـرق البغيضيـن وهـم يلوثـون شـرف الناحيـة؟ كان يجـد الأعـذار لإجـرام المضربيـن، ويهاجـم البرجوازيـة بشـدة، التـي يحملهـا كل المسـؤولية. البرجوازيـة، التـي سـلبت الكنيسـة حرياتهـا القديمـة كيمـا تسـيء اسـتعمالها بنفسـها، جعلـت مـن هـذا العالـم مكانـاً ملعونـاً حيـث الظلـم والعـذاب؛ إنهـا هـي التـي تطيـل مـن عمـر سـوء التفاهـم، التـي تدفـع إلـى مصيبـة فظيعـة، مـن خـلال إلحادهـا، ورفضهـا للعـودة إلـى المعتقـدات، إلـى التقاليـد الأخويـة عنـد المسـيحيين الأوائـل. وتجـرأ علـى تهديـد الأثريـاء، وحذّرهـم، إن هـم عانـدوا أكثـر ولـم يسـمعوا صـوت الـرّب، فـإن الـرّب سيصطف بـكل تأكيـد إلـى جانـب الفقـراء: سـوف يسـتعيد مـن المنعّميـن غيـر المصدِّقيـن ثرواتهـم، ويوزعهـا علـى المستضعفين فـي الأرض، نصـرة لمجـده. كانـت النسـاء المؤمنـات يرتعـدن، والمحامـي يقـول إن فـي ذلـك الـكلام الاشـتراكية الأشـد سـوء، وكان الجميـع يـرى الكاهـن علـى رأس عصبـة، يحمـل صليبـاً، ويحطـم المجتمـع البرجـوازي لـ 89 بضربـات قويـة.

لما تمّ إخباره، اكتفى السيد إينبو بالقول وهو يهز كتفيه: «إذا أزعجنا كثيراً، سوف يخلصنا الأسقف منه».

وبينما يهبّ الذعر بذلك النحو من أدنى السهل إلى أقصاه، كان إتيان يسكن تحت الأرض، في جوف ريكيار، في جحر جونلان. هناك كان يختبئ، لا أحد كان يظن بأنه أشد قرباً، الجرأة الهادئة على ذلك المأوى، في المنجم نفسه، بذلك المسلك المهجور في البئر، أضلت جهود البحث عنه. في الأعلى، أشجار البرقوق الشائك والزعرور البرّي، التي نمت بين الدعامات الخشبية المنهارة لبرج البئر، تسدّ الثقب؛ ولم يعُد يجازف أحد بالدخول إليه، إذ وجب معرفة التصرف، التشبث بجذور شجرة الغبيراء، والسقوط دون خوف، قصد بلوغ الدرجات التي لا تزال متينة؛ كما تحمي موانع أخرى، حرارة المنفذ الخانقة، مائة وعشرون متراً من النزول الخطر، ثم الزحف الشاق على البطن، مسافة ربع ميل، بين حواف السرداب الضّيّقة، قبل اكتشاف مغارة الإجرام، الممتلئة بالمسروقات. كان يقيم فيها وسط الوفرة، وجد بها الماحيا، بقية سمكة القدّ اليابسة، وأصنافاً من المؤنة. فراش التبن الواسع كان ممتازاً، ولا يشعر المرء بهبّة هواء، في تلك الحرارة المعتدلة، التي لها فتور حمَّام. التهديد الوحيد هو أن يعوزه الضوء. جونلان الذي جعل من نفسه مزوّداً له، بحيطة وكتمان متوحش مسرور بالهزء من رجال الدرك، لم يستطع الوصول إلى علبة من الشمع.

وبداية من اليوم الخامس، لم يعُد إتيان يوقد النور إلا عند الأكل. لم تكن المُضغات تمرّ حينما يبلعها في الليل. ذلك الليل

الذي لا حدّ له، التامّ، دائماً بالسواد ذاته، كان أكبر عذابه. مهما نام في أمن، وكان عنده خبز، ودفء، لم يسبق قط أن أثقل الليل على دماغه بذلك القدر. بدا له كأنه سحق لخواطره. الآن، ها إنه يعيش من السرقات! رغم نظرياته الشيوعية، تمرد عليه تحرج تربيته القديم، وكان يكتفي بالخبز اليابس، يُقلم من نصيبه. لكن كيف العمل؟ وجب أن يعيش حقاً، لم ينجز مهمته بعد. كان يقهره خزي آخر، الحسرة من تلك السكرة المتوحشة، من شرب الماحيا في البرد القارس، والمعدة خاوية، التي رمته على شافال، مسلحاً بسكين. كان ذلك يحرك في نفسه رعباً يجهله تماماً، الشر الموروث، إرث السكرة الطويل، الذي لا يتحمل قطرة كحول زائدة دون الوقوع في الغضب القاتل. هل سينتهي به المطاف قاتلاً؟ حينما وجد نفسه في مأمن، في هدوء الأرض البالغ ذاك، وقد استبدت به رغبة لإشباع العنف، نام مدة يومين نوم شخص شرس، متخم، صريع؛ واستمر الغثيان، وبقي موجوع البدن، في الفم مرار والرأس مريض، مثلما يحدث بعد عرس رهيب. مرّ أسبوع؛ لم يستطع آل **ماهو** إرسال شمعة بعد علمهم بالخبر. فوجب عليه التخلي عن الرؤية بوضوح، حتى عند الأكل.

الآن، يظل إتيان مدة ساعات مستلقياً على تبنه. تعتمل فيه أفكار ملتبسة، لم يظن أنها لديه. كان ذلك إحساس بالتفوق يفرده عن الرفاق، سموّ شخصه، كلما تعلّم. لم يسبق قط أن فكّر بذلك القدر من التفكير، وكان يتساءل لماذا نفوره، غداة الركض الغاضب خلال الحُفَر؛ ولم يجرؤ على أن يجيب نفسه، كان يشمئز من بعض الذكريات، خسّة الشهوات، وقاحة الغرائز، رائحة كل

ذلك البؤس الذي يهتز في الريح. رغم مصيبة الظلام، بلغ به الأمر الفزع من الساعة التي سوف يعود فيها إلى المجمّع. يا له من غثيان، أولئك البؤساء الذين يركب بعضهم بعضاً، يعيشون في حوض مشترك! ولا واحد معه يتحدث المرء في السياسة بجدية، عيشة قطيع، دائماً الهواء نفسه العطن برائحة البصل الذي يخنق الأنفاس. كان يريد أن يوسّع سماءهم، ويرفعهم إلى رغد عيش وطبائع البرجوازية الحسنة، ويجعل منهم الأسياد؛ لكن كم سيتطلب ذلك الأمر وقتاً طويلاً! ولم يعُد يشعر بأن لديه من العزم لانتظار النصر، في سجن الجوع ذاك. وشيئاً فشيئاً، غروره بكونه زعيم لهم، شاغله الدائم بالتفكير في مكانهم، جعلاه في حِلّ من عهوده، ونَفَخا فيه نفس واحد من أولئك البرجوازيين الذين يمقتهم.

ذات مساء، أحضر جونلان قطعة من شمعة، سرقها من فانوسِ حمَّالٍ؛ وقد أراح إتيان من ذلك كثيراً. لما كان الظلام يذهله في نهاية الأمر، ويثقل على رأسه حدّاً يصير معه مُوَسوساً، فإنه يشعل النور لحظة؛ وما أن يطرد الكابوس، يطفئه، إذ يبخل بذلك الضوء اللازم لحياته، مثل الخبز. كان الصمت يطنّ في أذنيه، ولم يكن يسمع سوى خطو جرذان، طقطقة ألواح الخشب القديمة، صوت خفيّ لعنكبوت تنسج بيتها. وعيناه شاخصتان في ذلك العدَم الفاتر، كان يعود إلى فكرته الثابتة، إلى ما يصنعه رفاقه فوق. كل ردّة من جانبه ستبدو له من أحطّ درجات الجبن. إذا كان يختبئ بذلك النحو، فذلك كيما يظل حراً طليقاً، لإسداء النصح وللفعل. استقرت تخيلاته الطويلة على طموحه: إذا صبر

أكثر، لأراد أن يكون **بلوشار**، وتخلى عن الشغل، واشتغل بالسياسة فحسب، لكن لوحده، في غرفة نظيفة، بذريعة أن أشغال الرأس تمتص الحياة كلها وتتطلب الكثير من الهدوء.

بداية الأسبوع الثاني، لما أخبره الطفل بأن رجال الدرك يعتقدون أنه عبر إلى بلجيكا، تجرأ إتيان على الخروج من جحره، ما أن يحل الليل. كان يريد الاطلاع على الوضع، والتحقق مما إذا كان لا بد من الإصرار زيادة. هو، يظن أن القضية خاسرة؛ قبل الإضراب، كان يشك في النتيجة، إذ أذعن للوقائع فحسب؛ والآن، بعد نشوة التمرد، عاد إلى شكّه الأول، ويئس من جعل الشركة تتنازل. لكنه لم يكن يعترف لنفسه بذلك بعدُ، ويلمُّ به الهلع حينما يستحضر مآسي الفشل. وكل مسؤولية العذاب التي تثقل عليه. نهاية الإضراب، أليست نهاية دوره، انهيار طموحه، وجوده الذي سوف ينحطّ من جديد إلى بلاهة المنجم وكل ما ينفره في المجمّع؟ وبكل صدق، دون حسابات رخيصة كاذبة، كان يسعى جهده لاستعادة إيمانه، لأن يبرهن لنفسه أن المقاومة تظل ممكنة، وأن الرأسمال سيدمر نفسه بنفسه، أمام الانتحار البطولي للشغل.

وبالفعل، في البلد كله، كان وقع خراب طويل. الليل، حينما يهيم في البرية المظلمة، مثل ذئب بعيد عن وِجارِه، كان يظن سماع هدّة الإفلاس، من أدنى السهل إلى أقصاه. لم يكن يعبر، على جوانب الدروب، سوى مصانع مغلقة، ميِّتة، تتعفن بناياتها تحت سماء شاحبة. مصانع السُكّر هي التي تضررت على الأخص؛ مصنع سُكّر هوتون، مصنع سُكّر فوفيل، بعد أن خفضوا من عدد عمالهم، انهارت تباعاً. في مطاحن دوتيول،

توقفت آخر مطحنة في السبت الثاني من الشهر، ومصنع حبال **بلوز** لأسلاك المنجم هلك نهائياً بفعل العطالة. ناحية مارشيين تدهور الوضع يوماً عن يوم: كل النيران مطفأة في مصنع زجاج **غاجبوا**، تواصَل الطرد في مشاغل بناء **سُومفيل**، مصهر واحد من المصاهر الثلاثة العالية في **فورج** كان متقداً، ولا مولد أفران فحم واحد كان يشتعل في الأفق. إضراب عمال فحم مونسو، الذي نشأ عن الأزمة الصناعية المستفحلة منذ عامين، زاد من حدّتها، وعجّل المحنة. فضلاً عن أسباب العذاب وتوقف طلبات أمريكا وكساد الرساميل الجامدة من فرط الإنتاج، هناك الآن النقص غير المتوقع للفحم، لأجل المراجل المعدودة التي لا تزال موقدة؛ وهنا تجلى الاحتضار الأشد، خبز الآلات ذاك الذي لم تعُد الآبار تنتجه. خوفاً من القلق العام، عندما أقدمت الشركة على خفض استخراجها وتجويع عمال المناجم وجدت نفسها حتماً، منذ نهاية ديسمبر، دون قطعة فحم واحدة في ساحة حفرها. كل شيء مترابط، الوباء يهبُّ من بعيد، سقطة تجر سقطة، وتنقلب الصناعات بسحق بعضها البعض، في سلسلة سريعة من الكوارث إذ يصل وقع عواقبها إلى عمق الحواضر المجاورة، لِيل، دواي، فالنسيين، حيث أدى هرب أصحاب المصارف إلى خراب الكثير من العائلات.

في أغلب الأوقات، كان إتيان يتوقف عند ناصية درب، في الليل القارس، كيما يسمع هطول الأنقاض. كان يستنشق الظلمات بقوة، وتستحوذ عليه فرحة العدَم، أمل بأن النهار سوف يشرق على إبادة العالم القديم، ولا ثروة واحدة قائمة، حدّ المساواة

وقد مرّ مثل منجل، سويّة الأرض. لكن حُفَر الشركة على الأخص كانت تعنيه في تلك المذبحة. وكان يستأنف السير من جديد، تُبهره العتمة، يزورها حفرة بعد حفرة، وهو فرح حين يعلم بخبر خسارة جديدة ما. تواصل وقوع الهدَم، بخطورة متزايدة كلما امتد هجر المسالك. فوق السرداب الشمالي لميرو، اتسع انهيار التربة بحيث هوت طريق جوازيل، على مسار مائة متر، كما عند هزة زلزال؛ ودون مساومة، أدت الشركة للملّاك ثمن الحقول المندثرة، خشية من الأخبار الرائجة حول تلك الحوادث. كان يحدث كثير من الانسدادات في كريڤكور ومادلين، حيث الصخر شديد الانجراف. وقيل إن رئيسَي عمالٍ دُفِنا عقب انجراف في لاڤيكتوار؛ وتعرّضت فوتري كانتيل للفيضان بعدما ضربها الماء؛ كما وجب تحصين جدران مسافة كيلومتر واحد من السراديب في سان توما، حيث تتحطم الألواح الخشبية من كل الجوانب بسبب سوء صيانتها. هكذا كانت الأمور، بين ساعة وساعة، مصاريف ضخمة، شروخ مفتوحة في أرباح المساهمين، تدمير سريع للحُفَر، الذي سينتهي، مع المدة، بالتهام آخر أنصبة مونسو، التي تضاعفت مائة مرة في ظرف مائة عام.

وعليه، نظراً لهذه الضربات المتكررة، ولد الأمل من جديد عند إتيان، وانتهى به الأمر إلى الاعتقاد أن شهراً ثالثاً من المقاومة سيقضي على الوحش المصاب بالعياء والمتخم، الرابض هناك مثل معبود، في مجهول هيكله. كان يعرف أن عقب اضطرابات مونسو، دبّ التأثر سريعاً في صحف باريس، جدلٌ حاد بين الجرائد الرسمية وجرائد المعارضة، قصص رهيبة تمّ استغلالها

على الأخص ضد الأُمية، التي كان يخافها الحكم الإمبراطوري، بعد أن كان قد شجّعها في السابق؛ ولم يعُد في وسع الشركة أن تدير الأذن الصمَّاء؛ وقد تفضّل وكيلان بالمجيء للقيام بتحقيق، لكن بحسرة ظاهرة للعيان، ولم يبدُ عليهما الانشغال بحل المشكل، من شدة لا مبالاتهما، بحيث انصرفا بعد ثلاثة أيام، وهما يقولان إن الأمور تسير على أحسن ما يرام. ورغم ذلك، تمّ إخباره بأن هذين السيّدين، أثناء مقامهما، كانا يحضران على نحو موصول، ويقومان بنشاط محموم، غارقين في أعمال لا يُفصِح محيطهما بكلمة واحدة عنها. وكان يتهمهما بالتظاهر بالثقة، وكان يحدث أن يعتبر انصرافهما بمثابة هرب مذعور، لأنه متأكد الآن من النصر، بما أن هؤلاء الرجال المخيفون تخلوا عن كل شيء.

لكن في الليلة التالية، دبّ اليأس في إتيان من جديد. فالشركة تستطيع تحمل المحنة بحيث لا يمكن كسر شوكتها بسهولة: في وسعها أن تخسر الملايين، وفي ما بعد تستردها على حساب العمّال، بالقطع من خبزهم. تلك الليلة، بعدما ضرب الأرض حتى جونبار، تبيّن الحقيقة، حينما أخبره حارس بأن هناك حديث عن تسليم ڤاندام لمونسو. ويقال إنها كانت محنة مثيرة للشفقة، في بيت دونولان، محنة الأغنياء، الأب السقيم من عجزه، الذي هرم بشاغل المال، البنتان تصارعان وسط المزوّدين، حريصتين على إنقاذ متاعهما. الناس تتعذب بدرجة أقل في المجمّعات التي أصابها الجوع من ذلك البيت البرجوازي، حيث يختبئ المرء كيما يشرب الماء. لم يُستأنف العمل في جونبار، ثم وجب استبدال مضخة غاستون ماري؛ هذا فضلاً عن بداية غمرٍ للمياه، تطلّب

تكاليفَ باهظة، رغم كل التعجيل بتدارك الأمر. وكان دونولان قد جازف آنفاً بطلب قرض بمائة ألف فرنك من عند آل غريغوار في نهاية المطاف، وكان الرفض المتوقع ضربة قاضية: إذا هم رفضوا، فذلك عطفاً عليه، حتى يتجنب صراعاً مستحيلاً؛ وكانوا ينصحونه بالبيع. كان يرفض دوماً بشدة. ويغيظه جداً أن يدفع تكاليف الإضراب، كان يأمل في البدء أن يموت جراء ذلك، الدم في الرأس، ويُدَقّ عنقه بسكتة دماغية. ثم ما العمل؟ لقد سمع العروض. رفعت ضده قضايا واهية، وتم التبخيس من تلك الطريدة الرائعة، ذلك البئر الذي أُصلِح، وجُهِّز من جديد، والذي شُلّ استغلاله لانعدام السلفات فحسب. وهو سيكون سعيداً لو أنه ظفر من ذلك بما يُبعِد به الدائنين. لقد كافح مدة يومين الوكيلين اللذين أقاما في مونسو، وثارت ثائرته من تلك الطريقة الهادئة التي استغلا بها متاعبه، وهو يصيح فيهما أبداً بصوته المدوّي. ظلت الأمور كما هي، رجعا إلى باريس في انتظار حشرجته الأخيرة، بصبر. لقد أحسّ إتيان بذلك التعويض عن الكوارث، وثبط عزمه أمام قدرة الرساميل الكبرى التي لا تقهر، الأقوياء جداً في المعركة، بحيث يسمنون من الهزيمة بأكل جيف الصغار، الذين سقطوا جنبهم.

في اليوم الموالي، من حسن الحظ، نقل إليه جونلان خبراً ساراً. في لوفوروه، هناك خطر يهدد خرق تبطين البئر، فالمياه تتسرّب من كل المَواصل؛ ولزم لإصلاح ذلك تسخير فرقة من النجّارين، باستعجال شديد.

وحتـى ذلـك الأوان، تجنـب إتيـان لوفـوروه، لخشـيته مـن طيـف الحـرّاس الأبـدي الأسـود، راسـخون فـي الـردم، فـوق السـهل. لا سـبيل لتجنّبهـم، كانـوا يهيمنـون علـى الفضـاء، كانـوا فـي الهـواء مثـل علـم الكتيبـة. حوالـي السـاعة الثالثـة صباحـاً، تغيمـت السـماء، ذهـب إلـى الحفـرة حيـث فسّـر لـه بعـض الرفـاق حالـة التبطيـن السيّئة: بـل فـي ظنهـم أن مـن العاجـل إعـادة إصلاحـه بالكامـل، ممـا يترتـب عنـه توقيـف الاسـتخراج لمـدة ثلاثـة أشـهر. حـامَ مـدة طويلـة، وهـو يسـمع صـوت مطـارق النجاريـن فـي البئـر. كان ذلـك يشـرح قلبـه، ذلـك الجـرح الـذي وجـب تضميـده.

فـي الصبـاح، لمـا رجـع، وجـد الحـرّاس علـى الـردم. هـذه المـرّة، سـوف يرونـه بـكل تأكيـد. كان يمشـي وهـو يفكـر فـي أولئـك الجنـود، المأخوذيـن مـن وسـط الشـعب، والذيـن يتـم تسـليحهم ضـد الشـعب. كـم إن نصـر الثـورة سـيكون سـهلاً لـو أن الجيـش يعلـن بغتـة أنـه معهـا! يكفـي أن يتذكّـر العامـل والفـلاح، أصلـه، فـي الثكنـات. تلـك هـي الطامّـة الكبـرى، الذعـر الأكبـر، الـذي منـه تصطـك أسـنان البرجوازييـن، حينمـا تخطـر ببالهـم ردَّة ممكنـة مـن قبـل العسـاكر. فـي ظـرف سـاعتين، سـيتم كنسـهم، إبادتهـم مـع ملـذّات وشـرور حياتهـم الجائـرة. قيـل أصـلاً إن كتائـب كاملـة تفشّـت فيهـا الاشـتراكية. هـل ذلـك صحيـح؟ هـل سـيأتي العـدل بفضـل جعـاب الرصـاص التـي وزعتهـا البرجوازيـة؟ وهـو يثـب مـن رجـاء إلـى رجـاء، كان الشـاب يحلـم بـأن تلتحـق بالإضـراب الكتيبـة التـي كانـت مرقباتهـا تحـرس الحُفَـر، وتطلـق نيرانهـا علـى الشـركة دفعـة واحِـدة وتُسـلِّم المنجـم فـي الأخيـر لعمـال المناجـم.

انتبـه حينهـا إلـى أنـه كان يصعـد الـردم، ورأسـه يطـن بالأفـكار. لمـاذا لا يحـدث ذلـك الجنـدي؟ سـيختبر لـون أفـكاره. وبمظهـر غيـر مبـالٍ، واصـل الدّنـوّ منـه، وكأنـه كان يلتقـط الأخشـاب القديمـة التـي بقيـت فـي الأنقـاض. ظـلّ الحـارس ثابتـاً فـي مكانـه.

«هـه؟ يـا رفيـق، طقـس رديء!»، قـال إتيـان فـي نهايـة المطـاف، «أظـن أن الثلـج سيسـقط علينـا».

كان جنديـاً قصيـر القامـة، أشـقر بوجـه وديـع شـاحب، بـه بقـع نمـش كثيـرة. كان فـي معطفـه الخشـن حـرج الحداثـة فـي الخدمـة.

«أجل، بأية حال، أظن»، قال همساً.

وبعينيـه الزرقاويـن كان ينظـر طويـلاً إلـى السـماء المكفهـرة، ذلـك الفجـر المدخّـن، الـذي كان سـخامه يثقـل مثـل الرصـاص، بعيـداً، فـي السـهل.

«كم إنهـم بلهـاء بوضعـك ثابتـاً هنـاك، حـدّ تجمـد عظامـك!»، تابـع إتيـان، «يخـال النـاس أننـا ننتظـر فرسـان القوقـاز! وفضـلاً عـن هـذا، هنـا تهـبّ الريـح دومـاً بشـدة!».

كان الجنـدي القصيـر يرتجـف دون أن يشـكو. هنـاك كـوخ مـن اللّبِـن الجـاف، يـأوي إليـه العجـوز بونمـور ليالـي الزوبعـة؛ لكـن الأمـر العسـكري كان يقضـي بعـدم هجـر قمـة الـرّدم، لـم يكـن الجنـدي يبـرح مكانـه، ويـداه متصلبتـان مـن البـرد، بحيـث لـم يكـن يشـعر بسـلاحه. كان مـن فرقـة حـرس السـتين رجـلاً الذيـن يحمـون لوفـوروه؛ وبمـا أن تلـك الفرقـة القاسـية كانـت ترجـع باسـتمرار، فقـد كاد أن يهلـك هنـاك، مسـبقاً وقدمـاه ميتتـان. كانـت المهنـة تتطلـب ذلـك، وأصابـه الخـدر تمامـاً مـن طاعتـه المستسـلمة، كان يـرد علـى الأسـئلة متلعثمـاً بكلمـات طفـلٍ هجـم عليـه النعـاس.

مـن دون طائـل، ولمـدة ربـع سـاعة، حـرص إتيـان علـى جعلـه يخـوض فـي السياسـة. كان يقـول «نعـم»، يقـول «لا»، ولا يظهـر عليـه أنـه يفهـم؛ يقـول رفـاق إن النقيـب كان جمهوريـاً؛ أمـا هـو، لـم يكـن لـه فكـرة عـن الأمـر، ذلـك سيّان عنـده. إذا أُمِـر بإطـلاق النـار، سيفعل، كـي لا يعاقَـب. كان العامـل يصغـي إليـه، وقـد اعتـراه حقـد الشـعب ضـد الجيـش، ضـد أولئـك الإخـوة الذيـن يتـم تغييـر قلوبهـم، وذلـك بإلصـاق سـروال أحمـر علـى مؤخراتهـم.

«إذن، اسمك؟».

«**جول**».

«ومن أين أنت؟».

«من **پلوغوف**، هناك».

ومـدّ ذراعـه كمـا اتفـق. كان القصـد مـن بريتانـي، ولا يعلـم أكثـر مـن ذلـك. وتوهـج وجهـه الشـاحب الرقيـق، أخـذ يضحـك، وقـد سـرى فيـه الـدفء.

«لـدي أمـي وأختـي. إنهمـا فـي انتظـاري طبعـاً. آه! لـن يتـم ذلـك غـداً. حينمـا رحلـتُ، رافقتانـي حتـى **پونلابي**. وركبنـا الحصـان فـي **لوپالميك** كادت تكسـر سـاقاه أسـفل منحـدر **أوديـيرن**. وكان ابـن العـم **شـارل** ينتظرنـا ومعـه قطـع مـن النقانـق، لكـن كانـت النسـوة تفـرط فـي البكـاء، وظـل ذلـك فـي الحلـق. آه! يـا إلهـي! آه! يـا إلهـي! كـم إن بيتنـا بعيـد!».

اغرورقـت عينـاه، دون أن يكـف عـن الضحـك. أراضـي **پلوغوف** المقفـرة، ذلـك الطـرف الأقصـى فـي راز الـذي تضربـه الزوابـع، كان يبـدو لـه وهـج مـن شـمس، فـي موسـم الخَلَنـج الـوردي.

«قل يا هذا»، سأله، «إذا لم يكن لدي عقوبة، هل تظن أني قد أحصل على رخصة مدتها شهر، في متم العامين القابِلين؟».

حينذاك، تحدث إتيان عن **البروفونس**، التي هجرها صغيراً. كان النهار يطلع، وبدأت ندف الثلج تتطاير في السماء المغبرّة. وفي النهاية استبدت به الحيرة لما رأى جونلان يحوم حول العلّيق، والدهشة بادية عليه من رؤيته هناك فوق. بإشارة، كان الطفل ينادي عليه. ما جدوى حلم الإخاء ذاك مع الجنود. يتطلب الأمر أعواماً بعد أعوام، وكان يأسف لسعيه غير المجدي، كما لو أنه عوّل على الفلاح في ذلك. لكن، بغتة، أدرك إشارة جونلان: هناك من جاء لاستبدال الحارس؛ ثم انصرف، رجع يعدو للاختباء في ريكيار، وقلبه مفجوع مرة أخرى بيقينه من الهزيمة؛ بينما كان الغلام، الذي يركض جانبه، يتهم ذلك العسكري الجاهل القذر بأنه دعا الحرس كيما يطلقوا عليهما النار.

في قمة الردم، ظلّ **جول** بلا حركة، ونظراته ساهمة في الثلج الذي كان يتساقط. دنا الرقيب ورجاله، وتم تبادل الصيحات النظامية:

«من هناك؟ عرّف بنفسك!».

وسُمعت الخطوات الثقيلة تنصرف، تطنّ وكأنها في بلد تمّ غزوه. رغم النهار الطالع، لم يكن شيء يتحرك في المجمّعات، عمال الفحم ساكتون ومغتاظون، تحت الحذاء العسكري.

II

تساقط الثلج قبل يومين؛ توقف في الصباح، صقيع كثيف يجمد الفرشة الشاسعة؛ وهذا البلد الأسود، الذي خُطّت طرقه من حِبر، واغبرّت جدرانه وأشجاره بسخام الفحم، صار أبيض تماماً، بياضاً واحداً، إلى ما لانهاية. وأضحى مجمع 240 مسجى تحت الثلج، كما لو أنه اندثر. لا دخان خارج من الأسقف. البيوت بلا نار، باردة مثل حجارة الدروب، لا تذيب طبقة القراميد السميكة. ولم يعُد المكان سوى مقلع للبلاط الأبيض، في السهل الأبيض، منظر قرية ميتة، يغطيها كفنها. وعلى طول الأزقة كانت دوريات الجنود العابرة لا تخلّف وراءها سوى ما داسته فحسب من وحل تعلق فيه الأقدام.

في بيت آل **ماهو**، آخر حفنة من الجمر الملتهب أُحرقت قبل ليلة؛ ولم يعُد يخطر على البال جمعُه من فوق الردم، نظراً للجو الرهيب، حيث العصافير نفسها لا تجد قشة واحدة. وكادت **الزير** أن تهلك، لأنها أصرّت على التنقيب في الثلج بيديها المسكينتين. ولزم **ماهود** أن تدثرها بقطعة غطاء، في انتظار الدكتور ڤانديرهاغن، الذي ذهبت إلى بيته مرّتين مسبقاً ولم تستطع لقاءه؛ وقد وعدتها الخادمة مع ذلك بأن السيد سوف يمر إلى المجمّع قبل الليل، والأم تترقب، واقفة أمام النافذة، بينما المريضة الصغيرة التي أرادت النزول، كانت ترتعش على كرسي، ظناً منها أن ذلك أفضل هناك، قرب الفرن البارد. وقبالتها، بدا العجوز بونمور، نائماً، جامعاً ساقيه. لم ترجع لا لينور ولا

هنري، يضربان الطرق المقفرّة رفقة جونلان، بغية تسول بعض النقود. في عرض الحجرة العارية، وحده **ماهو** كان يمشي بتثاقل، ويصدم عند كل جولة بالحائط، وكأنه من بلاهته دابّة لم تعد تبصر قفصها. لم يعُد هناك نفط بدوره؛ لكن انعكاس الثلج، في الخارج، من شدة ما ظلّ أبيض فإنه كان يضيء الحجرة بغير وضوح رغم هبوط الليل.

سُمع خفق نعال من خشب، ودفعت **لوفاكه** الباب بسرعة، ثائرة، صارخة من عتبة الباب مخاطبة **ماهود**:

«هكذا، أنتِ من قال إني أُجبر مستأجري على منحي عشرين فلساً، حينما يعاشرني!».

هزَّت الثانية كتفيها.

«إنكِ تزعجينني، لم أقل شيئاً. ثم، من قال لكِ ذلك؟».

«قيل لي إنكِ قلت ذلك، ولستِ في حاجة لمعرفة من. بل قلتِ إنك كنت تسمعيننا جيداً ونحن نأتي على قذارتنا خلف ستارك العازل، وأن الأوساخ تتراكم في بيتنا لأني كنت دوماً مستلقية على الظهر. قولي إنك لم تقولي ذلك، هه!».

كل يوم، تقع مشاجرات، عقب ثرثرة النساء المتواصلة. بين البيوت المجاورة على الأخص، الخلافات والمصالحات يومية. لكن لم يسبق قط أن جرى كلام السوء بينهم بهذه المرارة في تكالبهم على بعض. منذ الإضراب، زاد الجوع من حدة الضغائن، وأصبح المرء يحتاج إلى ضرب غيره: إذ ينتهي استفسار بين جارتين بمقاتلة بين الرجلين.

والشيء بالشيء يذكر، كان **لوفاك** قادماً بدوره، وهو يحضر معه **بوتلو** بالقوة.

«ها هو الرفيق، فليخبرنا قليلاً إن كان قد أعطى عشرين فلساً لزوجتي حتى يضاجعها».

كان المستأجر له يخفي وداعته الحائرة في لحيته الكثة، يحتج ويتمتم.

«أوه! لم يحدث ذلك، كلّا، لم يحدث شيء قط، قط!».

ومن ثم، صار في سلوك لوفاك تهديد، وقبضته عند أنف **ماهو**.

«إنك تعلم، هذا لا يروقني. حينما يكون للواحد زوجة مثل هذه، يكسر ضلوعها. ذلك أنك تصدق ما قالته إذن؟».

«لكن، يا رب!»، صاح **ماهو**، وقد استشاط غضباً لجرّه مما يثقل كاهله، «ما كل تلك الأقاويل؟ أليس لدينا ما يكفي من المتاعب. دعني وشأني وإلا ضربتُكَ! ثم من قال إن زوجتي قالت ذلك؟».

«من قاله؟ إنها **پييرونه** هي من قالته».

قهقهت **ماهود** بضحكة حادة؛ والتفتت صوب لوفاكه:

«آه! إنها پييرونه. عجباً! أستطيع أن أخبرك بما قالته لي. أجل! قالت لي بأنك تعاشرين رجُليكِ، كلاهما دفعة واحدة!».

ومن تلك اللحظة، لم يعُد في الوسع التفاهم. الجميع يسخط، آل لوفاك يجيبون آل ماهو بأن پييرونه قالت عنهم المزيد، وبأنهم باعوا كاترين، وبأنهم تعفنوا جميعاً، حتى الصغار، بقذارة أصابت **إتيان** في فولكان.

«قالت ذلك، قالت ذلك»، صاح **ماهو**، «طيّب! أنا ذاهب، لو قالت ما قالته، سأصفع بيدي خطمها».

اندفع إلى الخارج، وتبعه آل **لوفاك** حتى يشهدا، بينما رجع **بوتلو** خلسة، لأنه يمقت المنازعات. بعد أن ثارت نار ماهود من النقاش، خرجت بدورها، لكن أنيناً من **ألزير** ردّها. جمعت طرَفي اللحاف حول جسد الصغيرة المرتعد، ورجعت لتقف ثابتة قبالة النافذة، وعيناها تائهتان. وذلك الطبيب الذي لا يأتي!

عند باب آل پييرون، لقي **ماهو** وآل لوفاك الصغيرة **ليدي** التي كانت تتعثر في الثلج. كان البيت مغلقاً، خيط ضوء يعبر من شق المصراع؛ وأجابت الطفلة في البدء على الأسئلة بحرج: كلّا، والدها ليس في البيت، لقد ذهب إلى المغسلة كيما يلحق الأم **برولي** لإعادة رزمة الغسيل، ثم تحيّرت بعد ذلك، ورفضت أن تفصح عما كانت تصنعه أمها. وفي نهاية المطاف، لفظت كل شيء، بضحكة ضغينة ماكرة: لقد طردتها أمها خارجاً لأن السيد **دانسير** كان هناك، ولأنها تمنعهما من الكلام. كان هذا الأخير يتجول منذ الصباح في المجمّع رفقة رجُلي درك، ويحرص على جلب العمال، يضغط على الضعفاء منهم، ويعلن أينما حلّ أنه إذا لم ينزل الناس يوم الإثنين إلى لوڤوروه، فإن الشركة كانت عازمة على توظيف عمال من **بوريناج** البلجيكية. وبما أن الليل كان يهبط، فقد صرف رجُلي الدرك، حين ألفى **پييرونه** وحدها؛ ثم لبث في بيتها يشرب كأس ماحيا، قبالة موقد النار المحتدم.

«صه! اصمتوا، يجب أن نراهما!»، همس **لوفاك**، بضحكة فاجرة، «سوف نناقش الأمر لاحقاً. انصرفي، أنت، أيتها الفاجرة الصغيرة!».

تراجعت **ليدي** خطوات معدودة، بينما كان يلصق عيناً بشق المصراع. كتم صرخات صغيرة، وكان ظهره يتقوّس، في رعشة.

وبدورها، نظرت **لوفاكه**؛ لكنها قالت، وكأن مغصاً ألمّ بها، إن ذلك يثير اشمئزازها. **ماهو**، الذي دفعها، يريد أن يرى هو أيضاً، قال إن الغاية هي ماله. ثم أعادوا الكرّة تباعاً، كل واحد نظرة عين، مثلما في المسرح. كانت الحجرة، التي تلمع نظافة، تبتهج بالنار العظيمة؛ كان هناك حلويات على المائدة، وقنينة وكؤوس؛ القصد، عرس حقيقي. إلى حدّ أن ما كانوا يرونه في الداخل أزعج الرجلين في النهاية، اللذين كانا سيضحكان من الأمر طيلة ستة أشهر، لو كانت الظروف مغايرة. أن يتم وطؤها حتى الحلق، وملابسها طائرة في الهواء، فذلك كان أمراً عجيباً. لكن، يا رب! ألم يكن من الحقارة أن يصنع المرء ذلك قبالة نار موقَدَة بتلك الشدة، وأن يتقوّى بحلوى كعك، بينما الرفاق لا يجدون كسرة خبز، ولا جمرة فحم ملتهبة؟

«ها بابا!»، صاحت ليدي وهربت.

كان **بيرون** عائداً من المغسل رخي البال، ورزمة الغسيل على كتف. في الحال، خاطبه **ماهو**.

«قل يا هذا، قيل لي إن زوجتك قالت إني بِعتُ كاترين وأن جميع من في البيت خبيث السوءة. وفي بيتك، ماذا يؤدي مقابل زوجتك، السيد المنهمك الآن في سلخ جلدها؟».

لم يفهم **بيرون**، عندما تحيرت بيرونه إذ خافت بعد سماع جلبة الأصوات، إلى حدّ أنها فتحت شق الباب كيما تتحقق من الأمر. وشوهدت محمرّة تماماً، شق صدرها عار، والكسوة لا تزال مرفوعة، معلقة بالمحزم؛ بينما في الخلف، كان **دانسير** يلبس سرواله كالمجنون. هرب رئيس العمّال، اختفى، وهو يرتعد من أن

يصل خبر مماثل إلى مسمع المدير. وكانت تلك فضيحة مريعة، ضحكات، وهتافات، وشتائم.

«أنتِ، يا من تقولين دوماً عن الأخريات إنهن وسخات»، صاحت لوفاكه في وجه پييرونه، «ليس من العجب أنك نظيفة، إذا كان الرؤساء هم من ينظفونكِ!».

«آه! يليق بها، أن تثرثر!»، أردف **لوفاك**، «يا لها من عاهرة قالت إن زوجتي تضاجعني والمستأجر، كلانا دفعة واحدة! أجل، أجل، لقد قيل لي إنك قلتِ ذلك».

لكن **پييرونه**، وقد هدأت، كانت تجابه الكلام الفاحش، باحتقار شديد، وهي على يقين من أنها الأجمل والأغنى.

«لقد قلتُ ما قلتُه، دعوني وشأني، هه! ما دخلكم في شؤوني، يا لمّة حُسّاد تعيبون علينا لأننا نضع المال في صندوق الادخار! هيّا، هيّا، مهما قلتم، فزوجي يعلم حقاً لمَ كان السيد **دانسير** في بيتنا».

وقد ثار **پييرون** فعلاً، ودافع عن زوجته. ودارت الخصومة، نُعت بالخائن، بالواشي، بكلب الشركة، واتهم بكونه يغلق عليه كيما يحشو بطنه بقطع اللحم الجيدة التي يؤديها له الرؤساء مقابل خياناته. أما هو فقد كان يرد، يدعي أن **ماهو** دسّ له عبارات تهديد من تحت الباب، ورقة رُسِم عليها عظمتا ميّت على هيئة صليب، يعلوهما خنجر. وانتهى الأمر ضرورة بقتال بين الرجال، مثل خصومات النساء، منذ أن صار الجوع يثير حنق الأشد وداعة. وهجم **ماهو** و**لوفاك** على **پييرون** ضرباً بالأيدي، ثم وجب الفصل بينهم.

كان الدم يسيل من أنف صهرها فواراً، حينما رجعت **برولي** بدورها من المغسلة. حينما علمت بما وقع، اكتفت بالقول:

«ذلك الخنزير يجلب لي العار».

وأضحى الزقاق مقفراً من جديد، ولا ظلّ واحد يلطخ بياض الثلج العاري؛ والمجمّع الذي هوى مرة ثانية في جموده الميت، يهلكُ جوعاً وقد غلبه البرد الشديد.

«والطبيب؟»، سأل **ماهو**، وهو يغلق الباب.

«لم يأتِ»، أجابت **ماهود**، الواقفة دوماً قبالة النافذة.

«رجع الصغيران؟».

«كلا، لم يرجعا».

واستأنف **ماهو** مشيته الثقيلة، من جدار إلى جدار، وكأنه ثور صريع. متصلب فوق كرسيه، لم يرفع الأب **بونمور** رأسه. و**ألزير** بدورها لم تقل شيئاً، وتحرص على ألا ترتعد، حتى لا تسبب لهم الحزن؛ لكن رغم عزيمتها بأن لا تتوجع، فإنها كانت ترتجف بشدة أحياناً بحيث تُسمع في الغطاء رعشة جسدها الهزيل، جسد صبية مصابة بِعاهة؛ بينما، بعينيها الواسعتين المفتوحتين، كانت تنظر في السقف إلى الانعكاس الشاحب للحدائق المكسوة بالبياض تماماً، الذي كان يضيء الحجرة ببريق قمري.

الآن، كان الاحتضار الأخير، البيت المفرَغ، الذي هوى في العوز التام. قماش المفارش لحق الصوف عند تاجر الخردوات؛ ثم الملاحف، الغسيل، كل ما يمكن بيعه. ذات مساء، بيع منديل الجد بفلسين. سالت دموعٌ مع كل غرض من البيت الفقير وجب الانفصال عنه، والأم ما زالت تتباكى لأنها ذات يوم أخذت في

جبتها علبة الورق الوردية، هدية رجلها القديمة، مثلما يأخذ المرء طفلاً، للتخلي عنه عند باب من الأبواب. كانوا عراة، ولم يبق لديهم شيء يبيعونه سوى جلودهم، التي لن يدفع أحد مقابلها ولا ريال واحد من فرط ضمورها وبِلاها. لذلك لم يتكبد أحد منهم عناء البحث، إذ يعلمون أن لا شيء هناك، وأن نهاية كل شيء أزِفَت، وأن ليس عليهم رجاء الحصول على شمعة ولا على قطعة فحم ولا حبة بطاطس؛ وكانوا ينتظرون الموت جراء ذلك، ولم يُثَر غضبٌ إلا لأجل الأطفال، لأن تلك القسوة التي لا فائدة لها تهيِّجهم، إذ أصابوا الصغيرة بمرض، قبل أن تهلك جوعاً.

«وأخيراً، ها هو!»، قالت ماهود.

مرّ ظلٌّ أسود قبالة النافذة. فُتح الباب. لكن لم يكن ذاك الدكتور ڤانديرهاغن، لقد عرفوا أنه الكاهن الجديد، الراهب رانفيي، الذي لم تبدُ عليه الدهشة من كونه وقع في ذلك البيت الميّت، الذي لا ضوء فيه، ولا نار ولا خبز. أصلاً، لقد خرج من ثلاثة بيوت مجاورة غيره، متنقلاً من عائلة إلى عائلة ثانية، يجذب رجالاً ذوي إرادة خالصة، مثل دانسير ورجلَي الدرك؛ وفي الحال، شرح بصوته المحموم، صوت متعصب:

«لماذا لم تحضروا القداس يوم الأحد، يا أبنائي؟ أنتم على خطأ، وحدها الكنيسة هي التي تستطيع إنقاذكم. هيا، تعهدوا لي بأنكم سوف تأتون الأحد القادم».

وبعد أن نظر إليه، استأنف **ماهو** مشيه، مثقِّلاً، ولم ينبس بكلمة. إذ **أن ماهود** هي من ردّ عليه.

«إلى القداس، سيدي الكاهن، وماذا نصنع؟ أوَ لا يهزأ بنا الرّب الرحيم؟ هاك! ماذا صنعت له صغيرتي التي ترتعد من الحمّى

ها هنا؟ لم يُصبنا ما يكفي من البؤس، أليس كذلك؟ فأوجب أن يمرّضها، بينما لا أستطيع أن أعطيها فحسب كأس نقوع ساخن».

حينذاك، تحدث الكاهن طويلاً، وهو واقف. كان ينتهز سانحة الإضراب، ذلك البؤس المريع، تلك الضغينة الطافحة جوعاً، بحمية مبشّر يعظ همجاً، نصرة لدينه. كان يقول إن الكنيسة مع الفقراء، وإنها سوف تجعل العدل ظافراً ذات يوم، وذلك بتسليط غضب الربّ على جور الأثرياء. وذلك اليوم سيشرق قريباً، لأن الأثرياء أخذوا مكان الربّ، ووصل بهم الأمر إلى الحكم من دون الربّ، بسرقتهم المارقة للسلطة. لكن، إذا أراد العمّال القسمة العادلة لخيرات الأرض، عليهم أن يفوضوا أمرهم للرهبان في الحال، كما صنع الضعفاء والبسطاء عند موت يسوع لما اجتمعوا حول الحواريين. أي قوة سوف تكون للبابا، وأي جيش سيكون تحت تصرف الكهنوت حينما يقود حشود العمّال التي لا تُعدّ ولا تحصى! في ظرف أسبوع واحد، سنطهِّر العالم من الأشرار، ونطرد الأسياد الذين لا مروءة لهم، وسوف تكون في نهاية الأمر سيادة الربّ الحقيقية، ويحصل كل واحد على الجزاء المستحق، حيث قانون الشغل ينظِّم السعادة الكونية.

كانت **ماهود** وهي تصغي إليه تظن أنها تسمع **إتيان**، في مسامرات الخريف، حينما كان يبشرهم بنهاية آلامهم. لكنها، كانت دائماً تحذر من أصحاب الغفارات.

«هذا حسن كثيراً، ما تقصه علينا هنا، سيدي القس»، قالت، «لكن، إذن هذا يعني أنك لا تتفق قطعاً مع البرجوازيين. جميع كهنتنا الآخرين كانوا يتعشون في الإدارة ويعدوننا بالشيطان ما أن نطالب برغيف».

تكلّم من جديد، تحدّث عن سوء التفاهم المؤسف بين الكنيسة والشعب. الآن، بجمل مستترة، كان يهاجم قساوسة المدن، والأساقفة والكهنوت الأعلى، المتخم بالملذات، الممتلئ بالغلبة، المتعاهد مع البرجوازية الليبرالية، لبلاهة عماه، دون أن يرى بأن تلك البرجوازية هي التي تنتزع منه إمبراطورية العالم. الخلاص سوف يأتي من رهبان الأرياف، سوف ينهضون جميعاً لإقامة مملكة المسيح، بمساعدة من البؤساء؛ وبدا أنه مسبقاً على رأسهم، كان ينصب قامته العظمية، مثل زعيم عصابة، أو أحد ثوار الإنجيل، وفي عينيه نور قد يضيء الحجرة المظلمة. هذا الوعظ الملتهب كان يحمل عبارات زهد، لم يعُد يفهمها الناس الفقراء منذ أمد طويل.

«لا حاجة لكل هذا القدر من الكلام»، زمجر **ماهو** بغتة، «كان من الأفضل لو بدأت بإحضار بعض الخبز لنا».

«تعالوا إلى القداس يوم الأحد»، صاح الراهب، «سيتكفل الرّب بكل شيء!».

ثم انصرف، ودخل حتى يلقّن آل **لوفاك** التعاليم بدورهم، وهو يحلق عالياً في حلمه بنصر الكنيسة النهائي، ويزدري الحقائق بقدر يجعله يجول المجمّعات على ذلك النحو، دون صدقات، ويداه خاويتان وسط ذلك الجيش الميّت من الجوع، وهو بنفسه مثل عفريت بائس ينظر إلى العذاب على أنه مهماز الخلاص.

كان **ماهو** يمشي دوماً، ولم يكن يُسمع سوى تلك الهزة المنتظمة التي ترتعد منها البلاطات. سُمِع صوت بكرة أكلها الصدأ، بصق العجوز بونمور في المدخنة الباردة. ثم بدأ من

جديد إيقاع الخطوات. وشرعت **الزير**، التي غفت جراء الحمّى، في الهذر بصوت منخفض، تضحك، ظناً منها أن الجوّ حار وأنها تلعب تحت الشمس.

«يا للحظ العاثر!»، غمغمت **ماهود**، بعدما لمست وجنتيها، «ها إن حرارتها تُحرِق الآن. لن أنتظر ذلك الخنزير، لعل قطاع الطرق منعوه من الحضور».

كانت تتحدث عن الدكتور وعن الشركة. ومع ذلك تهلل وجهها فرحاً حينما رأت الباب يفتح من جديد. لكن هوت ذراعاها، وظلت مستقيمة تماماً، والوجه مكفهر.

«مساء الخير»، قال **إتيان** بصوت غير مسموع تماماً، حينما أغلق الباب بعناية.

معظم الأوقات، يصل على ذلك النحو، في الظلام الدامس. لقد علم آل **ماهو** منذ اليوم الثاني خلوته. لكنهم حفظوا السّر، لا أحد في المجمّع كان يعرف بحقّ مآل الرجل الشاب. ونُسِجَت حوله خرافة. إذ استمر الناس في تصديقها، وكانت تجري على الألسن أخبار غريبة: سوف يظهر من جديد مع جيش، مع صناديق ملأى بالذهب؛ ودوما هناك ترقُّبٌ ديني لمعجزة، تحقق المثال، الدخول المباغت إلى مدينة العدل التي وعدهم بها. قال البعض إنه رآه داخل عربة مجرورة، رفقة ثلاثة رجال، على طريق مارشيين؛ وأكّد غيرهم أنه لا يزال ليومين آخرين في إنجلترا. ومع المدة، بدأ الارتياب، رغم ذلك، إذ اتهمه بعض المازحين بأنه يستخفي داخل قبو، حيث توفر له **موكيت** الدّفء؛ لأن تلك العلاقة المعروفة أساءت إليه. إذ كانت، وسط شعبيته، ردة بطيئة،

الازدياد المكتوم للمقتنعين الذين استبد بهم اليأس، والذين كان عددهم في تكاثر.

«يا له من جوّ رديء!»، أضاف قائلاً، «وأنت؟ لا جديد عندك دائماً من سيّئ إلى أسوأ؟ لقد أخبروني أن نيغريل الصغير قد ذهب إلى بلجيكا للحصول على عمال من بوريناج. يا إلهي! لقد انتهى أمرنا لو كان ذلك صحيحاً».

وارتعش وهو يدخل تلك الحجرة الجليدية والمظلمة، حيث لزم لعينيه أن تتكيّفا كيما يريا الأشقياء، الذين كان يخالهم فيها، بفضل تضاعف الظل. شعر بنفور، بضيق العامل الذي خرج من طبقته، وهذبت الدراسة طبعه، واعتمل فيه الطموح. يا له من بؤس، والرائحة، والأجساد المتراكبة، والشفقة الفظيعة التي كانت تخنق حنجرته! لقد قلب مشهد ذلك الاحتضار كيانه إلى حدّ أنه كان يبحث عن كلماته كيما ينصحهم بالاستسلام.

لكن **ماهو** وقف قبالته، صارخاً بشدة:

«عمال من بوريناج! لن يجسروا على ذلك، أولئك الذين لا ذمة ولا همة لهم! فليسمعونا حسّ عمال بوريناج، إذا هم أرادوا أن ندمر المناجم!».

بإيماءة ضيق، بيّن إتيان أن لا سبيل للتحرك، وأن الجنود الذين يحرسون الحُفَر سوف يحمون نزول العمال البلجيكيين. كان **ماهو** يشدّ قبضتيه، وقد زاد حنقه على الأخص، كما قال، من أن حِرابهم موجهة لظهورهم. إذن، عمال الفحم لم يعودوا في ديارهم؟ يتم معاملتهم مثل المحكوم عليهم بالأعمال الشّاقة، لإجبارهم على الشغل، البندقية مسلّحة؟ كان يحب بئره، ويشق

عليه كثيراً أنه لم ينزل إليه منذ شهرين. لذلك كان يستشيط غضباً عندما تخطر عليه تلك الإهانة، أولئك الأجانب الذين يتمّ التهديد بإدخالهم إليه. ثم إن ذكرى إرجاع رخصته أوجعت فؤاده.

«لا أدري لماذا أغضب»، غمغم، «أنا، لم أعُد من معملهم. حينما سوف يطردونني من هنا، يمكن لي أن أهلك في الطريق».

«هوّن عليك، هيّا!»، قال إتيان، «لو أردتَ، سيعيدون إليك رخصتك غداً. العمال الجيدون لا يتمّ طردهم».

سكت، وقد استغرب سماع **ألزير** تضحك بوداعة، في هذيان حمّاها. لم يكن قد تبيَّن بعد سوى ظلّ الأب بونمور المتصلّب، أفزعته فرحة الطفل المريض تلك. زاد الأمر عن حدِّه هذه المرة، إذا شرع الصغار يهلكون من ذلك. بصوت مرتعد، قال بحزم.

«اسمعوا، لا يمكن لهذا الأمر أن يطول أمده، لقد قُضي علينا. يجب أن نستسلم».

دفعة واحدة، دوّى صوت **ماهود**، التي كانت صامتة ولا تأتي بحركة حتى تلك اللحظة، صارخة في وجهه، وهي ترفع الكلفة بينهما وتلعنُ مثل رجل:

«ماذا تقول؟ أنت الذي يقول هذا، اللعنة!».

أراد أن يقدم أسبابه، لكنها لم تسمح له قط بالكلام.

«لا تكرر ذلك، اللعنة! وإلا خبطت وجهك بيدي، وإن كنت امرأة. هكذا، أهلكنا أنفسنا مدة شهرين، وبعنا أثاث بيتنا، ومرض أطفالي بفعل ذلك، ولن يقع شيء، ويعود الظلم من جديد! آه! كما تعلم، حين أفكر في الأمر، أختنق في دمي. كلّا! كلّا! أنا، سأحرق كل شيء، أقتل الجميع الآن، ولا أسلم نفسي».

أشارت إلى **ماهو** في الظلمة، بإيماءة وعيد حازمة.

«اسمع هذا، إذا رجع رجلي إلى الحفرة، أنا من سينتظره على الطريق للبصق على وجهه ونعته بالجبان!».

لم يكن إتيان يراها، لكنه كان يحس بحرارة، مثل بخَر دابة تنبح؛ تراجع، فزعاً من سورة الغضب تلك التي كانت من صنعته. ألفاها وقد تغيرت جداً، لم يعُد يتعرّف إليها بعدُ، هي التي كانت بقدر كبير من الحكمة في ما مضى، يعيب عليها عنفها، قائلاً إنه لا ينبغي أن نرجو موت أي كان، ثم في هذه الساعة، كانت ترفض سماع صوت العقل، وتتحدث عن قتل الناس. لم يكن هو، بل هي التي تخوض في السياسة، وتريد أن تكنس البرجوازيين دفعة واحدة، وتطالب بالجمهورية والمقصلة، لتخليص الأرض من هؤلاء اللصوص الأثرياء، الذين يُسمِنون أبدانهم من عمل الجياع.

«أجل، بأصابعي العشرة، سوف أسلخ جلودهم. هذا يكفي، ربما حان دورنا! لقد قلتُ ذلك بنفسك. حين أرى أن الأب، والجد، والجد الأكبر، كل الذين سبقونا، نالهم العذاب الذي نتعذب به، وأن أبناءنا، وأبناء أبنائنا سوف يتعذبون من ذلك أيضاً، فذلك يصيبني بالجنون، سآخذ سكّيناً. ذلك اليوم، لم نقم بما يكفي، كان علينا أن نسوّي بمونسو الأرض، حتى آخر لبِنة. أو لا تعلم؟ ندمت على شيء واحد، هو أني لم أترك العجوز يخنق فتاة **بيولين**. وصغاري أنا، يُتركون للجوع يخنقهم!».

كانت كلماتها تهوي مثل ضربات ساطور، في الليل. لم يُرد الأفق المسدود أن ينفتح، والمثل الأعلى المستحيل صار سُمّاً، في جوف ذلك الدماغ الذي صدّعه الوجع.

«لقد أسأتِ فهمي»، هذا ما أمكن لإتيان قوله، وهو يتراجع، «يجب أن نصل إلى اتفاق مع الشركة: أعرف أن الآبار تعاني كثيراً، ومن دون شك، ستوافق على تسوية».

«كلا، لا شيء أبداً!»، صرخت.

بالمناسبة، لينور وهنري، العائدان، وصلا وأيديهما خاوية. لقد أعطاها رجل فلسين حقاً؛ لكن بما أن الأخت كانت تركل أخاها الأصغر دوماً، فإن الفلسين سقطا في الثلج؛ وأخذ جونلان يبحث معهما عنهما، ولم يستعيداهما قط.

«أين هو، جونلان؟».

«ماما، لقد انصرف مسرعاً، قال إن لديه بعض الأمور».

كان إتيان ينصت. في ما مضى، كانت تهدد بقتلهم، إذا هم تسولوا. اليوم، ترسلهم بنفسها إلى الطرقات، وكانت تقول إن عليهم الذهاب جميعاً، عمال مونسو العشرة آلاف، يحمل كل منهم عصا ومزودة الفقراء العجزة، يضربون أرض البلد الذي أصابه الرعب.

حينها تعاظم الذعر، في الحجرة المظلمة. عاد الصغيران بجوعهما، كانا يريدان طعاماً للأكل، لماذا لا نطعم؟ فدمدما، وجرجرا أقدامهما، وانتهى بهما الأمر إلى سحق قدمي أختهما المحتضرة التي أنّت. لطمتهما الأم وقد هاجت هائجتها، حسب ما صدفته يداها في الظلام. ولمّا صرخا بشدة يطلبان الخبز، أجهشت بالبكاء، وسقطت جالسة على البلاط، وأمسكتهما بحضن واحد، هما والصغيرة المعاقة؛ وبكت طويلاً، في استراحة الأعصاب المشدودة التي ظلّت بعدها رخوة، منهَكة، تتمتم الجملة

نفسها عشرين مرّة، تدعو الموت: «إلهي، لماذا لا تأخذنا عندك؟ إلهي، خذنا رحمة بنا، حتى ننتهي من الأمر!». حافظ الجدُّ على ثباته، ثبات شجرة ملوية تحت الشمس والريح بينما الأب يمشي من المدخنة إلى الصّوان، دون أن يلتفت.

لكن فُتِح الباب، وهذه المرة كان الدكتور ڤانديرهاغن.

«سحقاً!»، قال، «لن تذهب الشمعة ببصركم. أسرعوا، أنا على عجل».

مثل العادة، كان يزمجر، وقد أعيته المهمة. من حسن الحظ كانت لديه أعواد ثقاب، وتطلب الأمر أن يشعل الأب ستة أعواد، واحد بعد الثاني، ويمسك بها، حتى يستطيع فحص المريضة. بعد إزاحة غطاءها عنها، كانت ترتعش في ظلّ ذلك الوميض المتأرجح، بها هزال عصفور يحتضر في الثلج، ومن شدة نحولها لا تُرى سوى حدبتها. كانت تبتسم رغم ذلك، ابتسامة تائهة من مُقبلٍ على الموت، العينان واسعتان جداً، بينما يداها المسكينتان تنقبضان على صدرها المجوّف. وبما أن الأم، مقطوعة النفَس، كانت تتساءل هل من المعقول أن تهلك، قبلها هي، الطفلة الوحيدة التي تساعدها في البيت، البالغة الفطنة والوديعة، فقد انزعج الدكتور.

«هاكِ! ها هي تعبر. إنها ميتة من الجوع، صبيتك الملعونة. وهي ليست وحدها، لقد رأيت طفلة ثانية، في الجوار. تنادون عليّ جميعاً، لا يسعني فعل شيء، أنتم بحاجة إلى اللحم قصد العلاج».

رمى **ماهو** عود الثقاب بعد احتراق أصابعه؛ وخيَّم الظلام من

جديد على الجثة الصغيرة التي لا تزال حارة. انصرف الطبيب جرياً. ولم يعُد إتيان يسمع في الحجرة المظلمة سوى نحيب ماهود التي كانت تردد دعاءها للموت، ذلك البكاء الحزين الذي لا نهاية له.

«إلهي، إنه دوري، خذني! إلهي، خذ زوجي، خذ الآخرين، رحمة منك، حتى ننتهي من الأمر!».

III

يـوم الأحـد ذاك، بدايـة مـن السـاعة الثامنـة، ظـلّ **سـوفارين** وحـده فـي قاعـة **لافانتـاج**، فـي مكانـه المعتـاد، ورأسـه مسـند إلـى الحائـط. ولا عامـل واحـد كان يعـرف من أيـن يأتـي بفلسـي كأس، لـم يسـبق للحانـات أن قـلّ زبائنهـا بذلـك القـدر. لذلـك، كانـت السـيدة راسـنور، الواقفـة بـلا حركـة عنـد المعـرض، تلتـزم صمتـاً حانقـاً؛ بينمـا راسـنور، الواقـف قبالـة الموقـد الحديـدي، بـدا أنـه يتابـع دخـان الفحـم الأصهـب، وهـو مسـتغرق فـي التفكيـر.

بغتـة، وسـط تلـك السـكينة الثقيلـة للغـرف مفرطـة التدفئـة، ثـلاث نقـرات خفيفـة رنانـة، ضربـت علـى زجاجـة مـن النافـذة، جعلـت رأس سـوفارين يلتفـت. نهـض، تعـرّف الإشـارة التـي اسـتعملها إتيـان مـرات كثيـرة للنـداء عليـه، حينمـا يـراه مـن الخـارج يدخـن سـيجارته، وهـو جالـس إلـى طاولـة فارغـة. لكـن قبـل أن يصـل عامـل الآلـة إلـى البـاب، قـام راسـنور بفتحـه؛ ولأنـه تبيّـن الرجـل الـذي كان هنـاك، فـي ضـوء النافـذة، قـال لـه:

«هـل تخـاف أن أشـي بـك؟ سـوف تكونـان فـي أفضـل مـكان للحديـث هنـا منـه علـى الطريـق».

دخـل إتيـان، قدمـت لـه السـيدة راسـنور كأسـاً بـأدب، رفضهـا بإيمـاءة. أضـاف صاحـب الحانـة:

«منـذ أمـد طويـل خمّنـت مخبـأك. لـو كنـت واشـياً كمـا يقـول رفاقـك، لكنـتُ أرسـلت إليـكَ رجـال الـدرك منـذ ثمانيـة أيـام».

«لسـت فـي حاجـة إلـى الدفـاع عـن نفسـك»، قـال الرجـل الشـاب،

«أعرف أنك لست من تلك الطينة أبداً. قد لا نكون على الرأي نفسه ونقدر بعضنا مع ذلك».

وعمّ الصمت من جديد. عاد سوفارين إلى كرسيِّه، وظهره إلى الحائط، عيناه تائهتان في دخان سيجارته؛ لكن أصابعه المحمومة كانت ترتجف بقلق، يجسُّ بها على طول ركبتيه، بحثاً عن وبر **پولونيا** الدافئ، الغائبة ذلك المساء؛ وكان ذلك ضيق لا يدركه عيناً، شيء ينقصه، دون أن يعلم ما هو بالضبط.

جالساً عند الطرف الثاني من الطاولة، قال إتيان في نهاية المطاف:

«غداً يُستأنف العمل في لوفوروه. لقد وصل البلجيكيّون مع نيغريل الصغير».

«أجل، لقد جاؤوا بهم عندما هبط الليل»، غمغم راسنور الذي لبث واقفاً، «أرجو ألّا نتقاتل مرة أخرى».

ثم وقد رفع صوته:

«كلّا، كما ترى، لا أريد أن نتخاصم من جديد، لأن ذلك ينتهي بالسوء فحسب، إذا عاندت أكثر. هاك! ما وقع لكم هو تماماً ما وقع للأممية. لقد التقيت **پلوشار** مساء البارحة بمدينة لِيل، حيث قضيت بعض الشؤون. يبدو أن آلته تتعطّل».

وقدم بعض التفاصيل. بعد أن غزت الجمعية عمّال العالم بأكمله، بفضل اندفاع البروباغاندا، التي لا تزال البرجوازية ترتعد منها، صارت الآن تتآكل، تتهدم شيئاً فشيئاً كل يوم، بفعل المعركة الداخلية، معركة كل أصناف الغرور والطموح. منذ أن انتصر فيها الفوضويون، بعد طرد أنصار التطور الأوائل، كل شيء، يتفرق،

الهدف الأول، إصلاح الأجور، غارق وسط تجاذب الطوائف، والأُطر التنفيذية العالِمة تفقد نظامها بسبب كراهة الانضباط. أصلاً، يمكن توقع الإجهاض النهائي لتلك الهبّة الجماهيرية التي هدّدت لحظة بمسح المجتمع القديم الفاسد بنفخة نفَس واحدة.

«لقد مرض **پلوشار** بفعل ذلك»، تابع راسنور، «زيادة على ذلك، بُحّ صوته تماماً. ورغم ذلك، فإنه يتكلم مهما كان، يريد الذهاب للحديث في باريس. وكرر لي ثلاث مرات أن إضرابنا قُضي عليه».

كان إتيان، وعيناه إلى الأرض، يفسح له لقول كل شيء، دون قطع كلامه. في اليوم السابق، كان قد حدّث بعض الرفاق، وشعر بمرور أنفاس الضغينة والشكّ عليه، أولى أنفاس فقدان الشعبية، التي تنذر بالهزيمة. وظل كئيب الوجه، لم يُرِد إظهار أنه محطّم، أمام رجل تنبأ له بأن الحشد سيصرخ في وجهه بدوره، في اليوم الذي سيثأر فيه من خيبة أمله.

«لا شك، الإضراب قُضي عليه، أعلم ذلك شأن **پلوشار**»، قال، «لكن ذلك كان متوقعاً. لقد قبلنا به على مضض، ذلك الإضراب، لم يكن غرضنا القضاء على الشركة. فحسب، ننتشي، ونشرع في تأمل أشياء، وحين تسوء الأمور، ننسى أنه كان ينبغي لنا توقع ذلك، نتباكى ونتخاصم مثلما عند مصيبة نزلت من السماء».

«إذن»، سأله راسنور، «إذا كنت تعتقد أن المباراة خاسرة، لماذا لا تقنع الرفاق بالصواب؟».

حدّق فيه الشاب مثبتاً نظره.

«اسمع، هذا يكفي. لك أفكارك ولي أفكاري. لقد دخلت محلّك لأبيّن لك أني أقدرك رغم كل حال. لكن أظن دوماً أننا

إذا أهلكنا أنفسنا في العناء، فإن جثثنا كجياع ستخدم قضية الشعب أكثر من سياستك كلها، سياسة الرجل الحكيم. آه! لو أن واحداً من أولئك الجنود الخنازير استطاع أن يصيبني بطلقة في صميم القلب، كم سيكون من الشهامة أن يلقى المرء حتفه على ذلك النحو!».

اغرورقت عيناه، في تلك الصرخة التي تلعلع فيها رغبة المنهزم المكتومة، الملاذ حيث ودّ أن يدفن مصيبته إلى الأبد.

«قول سديد!»، أعلنت السيدة راسنور، التي بنظرة واحدة، رمت زوجها بكل ما في آرائها المتطرفة من ازدراء.

لم يبدُ أن سوفارين سمع شيئاً، عيناه غارقتان وهو يجسّ بيديه العصبيتين وجهه الأشقر، وجه فتاة، والأنف الرقيق، والأسنان الدقيقة الحادة، كان يستوحش في حلم يقظةٍ صُوفيّ، فيه تعبر رؤى دامية. وأخذ يحلم بصوتٍ عالٍ، ويردُّ على كلمةٍ قالها راسنور عن الأُمية، التقطها من وسط المحادثة.

«جميعهم جبناء، لم يكن هناك سوى رجل واحد قادر على أن يجعل من آلتهم أداة التدمير الرهيبة. لكن يجب إرادة ذلك، ولا أحد يريد، وهذا هو السبب في أن الثورة ستُجهض مرة أخرى».

تابع بصوت فيه نفور، التباكي على بلاهة بني البشر، بينما ظلّ الآخران حائرين من بوح هذا السائر في نومه، الذي يخاطب به الظلام. في روسيا، لا شيء يسير على ما يرام، كان مُحبَطاً من الأخبار التي وصلته. جميع رفاقه القدامى التفوا حول السياسيين، العدميون المشهورون الذين كانت ترتعد منهم أوروبا، أبناء الرهبان الأرثدوكس اليونان، والبرجوازيين الصغار والتجار،

لـم يعُـد مسـعاها أعلـى مـن التحريـر القومـي، بـدا عليهـم تصديـق خـلاص العالـم بعـد قتلهـم للمسـتبد؛ ومـا أن يحدثهـم عـن حصـد الإنسـانية القديمـة مثـل نبـت اسـتوى علـى سـوقه، مـا أن ينطـق بالكلمـة الصبيانيـة «جمهوريـة»، كان يشـعر بسـوء فهـم الآخريـن لـه، وبأنـه يثيـر حيرتهـم وحطـوا مـن قـدره، وجُنِّـد ضمـن الأمـراء الفاشـلين فـي النزعـة الكونيـة الثوريـة. لكـن قلبـه بصفتـه مواطنـاً كان يتخبـط، وبمـرارة موجعـة كان يـردّد كلمتـه المفضلـة:

«حماقات! لن يخرجوا من تلك الدّوّامة أبداً، بحماقاتهم تلك!».

ثـم، مُخفِضـاً صوتـه أكثـر، وبعبـارات كلهـا مـرارة، تحـدث عـن حلمـه القديـم، حلـم الأخـوة. لـم يفـرط فـي مرتبتـه وفـي ثروتـه، لـم ينضـم إلـى العمـال إلا أمـلاً فـي أن يشـهد أخيـراً بنـاء ذلـك المجتمـع الجديـد، مجتمـع العمـل المشـترك. كل فلـوس جيبيـه ذهبـت منـذ أمـد طويـل إلـى أطفـال المجمّـع، وأبـانَ لعمـال الفحـم عـن مرحمـة أخ، مبتسـماً لارتيابهـم، متقربـاً منهـم بمظهـره السـاكن، مظهـر العامـل الصـادق وقليـل الـكلام. لكـن، الظاهـر أن الامتـزاج لـم يتـمّ، إذ ظـلّ غريبـاً عنهـم، باحتقـاره لـكل الروابـط، بإرادتـه فـي الحفـاظ علـى شـهامته، بعيـداً عـن الغـرور الأجـوف والملـذات. وكان علـى الأخـص، منـذ الصبـاح، منزعجـاً بعـد قـراءة خبـر مـن أخبـار الحـوادث تناقلتـه الصحـف.

تبدّل صوتـه، وأشـرقت عينـاه، وحدَّقتـا فـي إتيـان، وخاطبـه متّجهاً لـه.

«هـل تـدرك ذلـك، أنـت؟ صانِعـا القبعـات فـي مرسـيليا اللـذان ربحـا جائـزة مائـة ألـف فرنـك الكبـرى، وقامـا فـي الحـال بشـراء

ما يرجع عليهما بريع، وهما يقولان بأنهما سوف يعيشان دون فعل أي شيء! أجل، تلك فكرتكم، أنتم جميعاً، العمال الفرنسيون، إخراج كنز من التراب، لأكله بعد ذلك لوحدكم، في ركن من الأنانية والكسل. مهما صرختم ضد الأثرياء، تعوزكم الشجاعة كيما تعيدوا إلى الفقراء المال الذي يرسله إليكم الحظ. لن تكونوا أبداً جديرين بالسعادة، طالما حصلتم على شيء لكم، وكان حقدكم على البورجوازيين مردّه فحسب حاجتكم المسعورة إلى أن تكونوا بورجوازيين مكانهم».

قهقه راسنور ضحكاً، فكرة أن عامِلَي مرسيليا قد يتخليان عن الجائزة الكبرى بدت له سخيفة. لكن اصفرّ سوفارين، صار وجهه المسترخي مخيفاً، وقد أخذته واحدة من تلك الغضبات الدينية التي تبيد الشعوب. صرخ:

«جميعاً سوف يتم استئصالكم، بأن تُقلبوا على قفاكم، والرمي بكم إلى العفن. سوف يولد، ذلك الذي سيقضي على عرقكم، عرق الجبناء والمنهمكين في الملذات. وهاكم! إنكم ترون يدَيّ، لو استطاعت يداي، لأمسكتا الأرض هكذا، وهزتاها حتى تجعلاها فُتاتاً، كيما تظلوا جميعاً تحت الأنقاض».

«قول سديد!»، ردّدت السيدة راسنور، بتأدب ويقين.

وعمّ الصمت مرة ثانية. ثم تحدث إتيان عن عمال بوريناج من جديد. سأل سوفارين عن التدابير التي اتّخِذت في لوفوروه. لكن عامل الآلة، الذي غاص من جديد في شواغله، بالكاد كان يحير جواباً، كان يعلم فحسب أنه يلزم توزيع جعاب الرصاص على جنود الحُفر؛ وزاد قلق أصابعه العصبي على ركبتيه إلى حدّ

أنه أدرك في نهاية المطاف ما ينقصها، الوبر الناعم والمهدئ للأرنب المألوف.

«أين هي پولونيا إذن؟»، سأل.

ضحك صاحب الحانة مرة ثانية، وهو ينظر إلى زوجته. بعد لحظة حرج قصيرة، حسم أمره.

«پولونيا؟ إنها تنعم بالدفء».

منذ ما وقع لها مع جونلان، فإن الأرنبة السمينة، الجريحة بدون شك، لم تضع سوى أرانب موتى؛ وكي لا يتمّ إطعام فم لا فائدة منه، أذعنت الأسرة، في اليوم نفسه، إلى طهوها مع البطاطس.

«أجل، لقد أكلتَ منها فخذاً هذا المساء. هه؟ لقد لعقتَ أصابعك من شدة لذتها!».

لم يدرك سوڤارين المغزى في البداية. ثم صار شاحباً جداً، تشنج ذقنه غثياناً؛ بينما انتفخ جفناه بدمعتين غليظتين، رغم إرادته كبت غرائزه.

لكن لم تسنح الفرصة لملاحظة تأثره ذاك، إذ فُتِح الباب بغتة، وظهر شاڤال، دافعاً كاترين أمامه. بعد أن سكر بالجعة وبالتبجح في كل حانات مونسو، خطرت عليه فكرة الذهاب إلى لاڤانتاج كي يظهر للأصدقاء القدامى أنه لا يخاف. دخل وهو يقول لخليلته:

«اللعنة! قلتُ لكِ إنكِ سوف تشربين كأساً هنا، وسأكسر خطم أول من ينظر إليّ شزراً!».

ابيضّ وجه كاترين تماماً حينما رأت إتيان، وهي فزعة. ولمّا أبصره بدوره، قهقه شاڤال بخبث ظاهر.

«سيدة راسنور، كأسان! إننا نحتفل باستئناف العمل».

دون أن تنبس بكلمة، سقتهما، بصفتها لا تمنع جعَتها عن أحد. خيّم صمتٌ، لم يبرح صاحب الحانة ولا الآخران مكانهم.

«أعرف بعض من قال إني واش»، أردف شافال متعجرفاً، «وأنتظر أن يكرر لي هؤلاء ذلك قليلاً وجهاً لوجه، كيما نستوضح الأمر أخيراً».

لم يُجِبه أحد، أدار الرجال رؤوسهم، ونظروا إلى الجدران بلا تدقيق.

«هناك الكسالى، وهناك غير الكسالى»، تابع بصوت أعلى، «أنا، ليس عندي ما أخفيه، لقد تركت مستودع دونولان القذر، وغداً أنزل إلى لوفوروه معي اثنا عشر بلجيكياً، طُلِب مني أن أقودهم، لأن هناك من يقدّرني. وإذا كان هذا الأمر يزعج أحداً، يمكنه قول ذلك، وسنتحدث في شأنه».

وبما أن كلامه المستفز تمّ استقباله بالصمت المتجاهِل نفسه، ثار في وجه كاترين.

«هلا شربت، اللعنة! فلتقرعي معي الكأس لهلاك كل الأوغاد الذين يرفضون العمل!».

قرعت الكأس، لكن بيد من شدة رعدتها، سُمِع رنين الكأسين الخفيف. أما هو، فقد أخرج الآن من جيبه حفنة نقود بيضاء، بسطها بتفاخر سكّير، وهو يقول إنه يكسب ذلك من عرق جبينه، ويتحدى الكسالى بأن يظهروا عشرة فلوس. كان موقف الرفاق يغيظه، وبلغ به الأمر إلى كيل الشتائم وجهاً.

«هكذا، الجرذان تخرج في الليل؟ يجب أن ينام رجال الدرك كيما نلتقي قطاع الطرق؟».

نهض إتيان، رابط الجأش، وبعزم.

«اسمع، إنك تزعجني. أجل، أنت واش، ومالُكَ لا تزال تفوح منه رائحة خيانة ما، ومن المقزز لنفسي أن ألمس جلدك، جلد من باع ذمّته. لا يهم! أنا الرجل الذي يليق لك، منذ أمد طويل بما يكفي، وجب على أحدنا أن يلتهم الثاني».

شدّ شافال قبضتيه.

«هيا بنا إذن! وجب أن تسمع الشتائم كيما تسخن، أيها الجبان الحقير! أنت وحدك، أريد ذلك حقاً! وسوف تدفع ثمن القذارة التي وقعت عليّ!».

بذراعين متوسلتين، تقدمت كاترين بينهما؛ لكنهما لم يتكبّدا عناء دفعها، لقد شعرت بضرورة العراك، تراجعت بنفسها، ببطء. واقفة، لصق الحائط، ظلت ساكتة، وقد شلّها الهلع بحيث لم تعُد ترتعد بعد، وعيناها شاخصتان في هذين الرجلين اللذين سوف يتقاتلان لأجلها.

جمعت السيدة راسنور الكؤوس فحسب من معرضها، خشية من أن تُكسَر. ثم جلست على أريكتها، دون إظهار حب استطلاع لا يليق. ورغم ذلك لم يكن في الوسع ترك رفيقين سابقين يقتتلان بتلك الصورة. كان راسنور يصرُّ على التدخل، وتطلّب الأمر أن يمسكه سوفارين من كتفه ويعيده قرب الطاولة وهو يقول:

«ذلك أمر لا يعنيك! أحدهما زائد عن الحاجة، البقاء للأقوى فيهما».

أصلاً، لم ينتظر شافال الهجوم، إذ رمى في الفراغ قبضتيه المضمومتين. كان هو الأطول، يخلج في مشيته، هدفه إصابة الوجه، بضربات شديدة على الخصر، من الذراعين، واحدة بعد أخرى، وكأنه يستخدم سيفين. وكان يتكلم دائماً، ويثير إعجاب المشاهدين، بدُفعاتٍ متلاحقة من الشتائم، التي كانت تزيد حماسه.

«آه! يا لك من قوّاد لعين، سأصيب أنفك! أنفك هو ما أريد أن أدخله في مكان ما! هات خطمك، يا مرآة العاهرات، كيما أجعل منه طعاماً للخنازير، وسوف نرى بعد ذلك إن كانت الفاجرات من النساء سوف يتهالكن عليك!».مكتبة .. سُر مَن قرأ

خرِساً، مطبق الأسنان، تكردس إتيان بقامته القصيرة، سعياً منه للملاكمة على النحو الصحيح، حاجباً صدره ووجهه بقبضتيه؛ وكان يترقّب، يمدّهما بصلابة نوابض، مصيباً بضرباتٍ أطرافاً رهيبة.

أول الأمر، لم يصيبا بعضهما بأذى كبير. حركات الواحد الصاخبة، رقصا إلى الأمام ثم إلى الخلف، انتظار الثاني الصّدود، كانت تطيل أمد المصارعة. قُلِب كرسيّ، سحقت أحذيتهما الغليظة الرمل الأبيض، المنثور فوق البلاط. لكنهما كانا يلهثان مع المدة، وسُمِع نخير أنفاسهما، بينما الوجه الأحمر لكل منهما كان ينتفخ مثل مجمر باطني، يُرى لهبه، من خلال الثقوب الواضحة لعينيهما.

«لقد أُصِبتَ!»، صاح شافال، «ورقة رابحة على جثتكَ!».

وبالفعل، قبضته، مثل محصَدٍ رُمي عرضاً، خرطت كتف خصمه. كتم هذا الأخير زمجرة وجع، ولم يُسمَع سوى صوت

رخو، انسلاخ العضلات المكتوم. ردّ عليه بضربة مستقيمة على صدره، كادت تسقط الثاني لو أنه لم يتجنبها بفضل قفزاته المتواصلة مثل عنزة. ورغم ذلك أصابته الضربة في حضنه الأيسر، بخشونة قوية حتى ترنّح، وقد انقطع نفَسه. هاج هائجه حينما شعر بارتخاء ذراعيه من الألم، ثم هجم مثل بهيمة، يقصد البطن كيما يمزقه بركلة من قدمه.

«هاك! في أحشائك!»، تمتم بصوته المخنوق، «يجب أن أفرغها في الشمس!».

تجنّب إتيان الضربة، وقد اغتاظ كثيراً من خرق قواعد العراك الشريف، حيث خرج عن صمته.

«اسكُت إذن، أيها الشرس! وبلا قدمين، اللعنة! وإلا أمسكت كرسياً وصرعتك!».

حينها، زادت حدّة العراك، كان راسنور سوف يتدخل من جديد وقد أسخطه ذلك، لولا نظرة صارمة من زوجته التي منعته: أوَليس من حق زبونين أن يسوّيا أمراً شجر بينهما؟ وقف ببساطة قبالة المدفأة، لأنه كان يخشى من أن ينقلبا في النار. أما سوفارين، بمظهره الساكن، فقد لفّ سيجارة ونسي مع ذلك أن يشعلها. مسندة ظهرها إلى الجدار ظلت كاترين بلا أدنى حركة؛ وحدهما يداها، من غير إدراكهما لذلك، صعدتا حتى خصرها؛ وهناك انعقدتا، وكانتا تنزعان ثوب جبّتها، بفعل تشجنهما المنتظم. كان كل جهدها هو ألّا تصرخ، ألّا تقتل واحداً منهما، إن صرخت بمن تفضله منهما، وقد تاه عقلها إلى حدّ أنها لم تعُد تعرف أيهما تفضل.

وسرعان ما خارت قوى شافال، وفاض عرقه عليه، فأخذ يخبط كما اتفق. رغم غضبه، واصل إتيان حماية نفسه وتجنب كل الضربات تقريباً، التي خدشه بعضها. بُضِعت أذنه، وسُلِخ طرف جلدة من عنقه، ومن شدة حرقة الوجع، شتم بدوره، وهو يرمي بواحدة من تلك الضربات المستقيمة الرهيبة. مرة أخرى، حمى شافال صدره بوثبة؛ لكنه انحنى، فأصابته القبضة في وجهه وسحقت أنفه وبعجت عينه. في الحال، سال الدم من منخريه، انتفخت عينه، كدمت وازرقّت. ولما عمي بصر البائس من ذلك السيل الأحمر، وأُدِيرَ به من اهتزاز قحف رأسه، كان يخبط الهواء بذراعيه الضَالتين، حينما قضت عليه ضربة أخرى، في صميم صدره. سُمع صدعٌ، سقط على قفاه، سقطة كيس ثقيل من الجص عند إلقائه من الحِمل.

تمهّل إتيان.

«انهض. إذا شئت من ذلك، نعيد الكرَّة».

ودون أن يحير جواباً، بعد ثوان معدودة من الذهول، تحرّك شافال على الأرض، أرخى أطرافه. كان يجمع نفسه بمشقة، ظلّ لحظة على ركبتيه، متكوّراً، ويده في قعر جيبه تقوم بشيء لا يُرى. ولمَا وقف، هجم من جديد، وحلقه منفوخ بعويل موحش.

لكن كانت كاترين قد رأت؛ ورغماً عنها، خرجت صرخة عظيمة من قلبها وفاجأتها، كأنها بوح بتفضيل كانت تجهله بذاتها.

«احذر! لديه سكّينة!».

لم يكن لإتيان ما يكفي من الوقت سوى تجنّب الضربة الأولى بذراعه. تمزق صوف القميص بالنصل العريض، واحدة

من تلك النصال تثبتها حلقة من نحاس في مقبض من خشب الآس. لقد أمسك مسبقاً معصم شافال، وبدأ صراع مخيف، إذ كان يشعر بأنه سيهلك إذا تراجع، والثاني كان يهتز كيما يتخلص منه ويضرب. هبط السلاح الأبيض قليلاً قليلاً، وتعبت أطرافهما المتصلبة، لمرَّتين أحس إتيان ببرودة الحديد على جلده؛ ولزمه القيام بجهد عظيم، لوى المعصم بقبضة شديدة حتى زلق السكّين من اليد المنبسطة. ارتمى الاثنان على الأرض، وكان هو من التقطه ورفعه بدوره. وكان يمسك شافال الملقى تحت ركبته، ويهدد بشق حنجرته.

«آه! اللعنة عليك أيها الخائن، سوف يُقضى عليك!».

كان صوت كريه، بداخله، يصيبه بالصمم. ذلك صاعد من أحشائه، يخبط رأسه بضربات مطرقة، جنونُ قتلٍ مباغت، حاجة إلى تذوق طعم الدّم. لم يسبق قط أن هزّته الأزمة بذلك النحو. رغم ذلك لم يكن سكران. وكان يصارع الشرّ الموروث، وبه رعشة محبطة من حبّ غاضب يتخبط على حافة الاغتصاب. وانتهى به الأمر إلى أن يقهر نفسه، ويرمي السكين خلفه، وهو يتمتم بصوت أجشّ:

«انهض، انصرف!».

هذه المرة، هرع راسنور، لكن دون أن يجازف كثيراً بالحيلولة بينهما مخافة أن تصيبه ضربة طائشة. لم يكن يرغب في أن يُقتل أحد في محله، كان مغتاظاً بشدة، حيث أن زوجته المستقيمة عند المعرض نبهته أنه يصرخ دوماً قبل الأوان. قرر سوفارين، الذي أوشك أن يتلقى السكين في ساقيه، أن يشعل سيجارة. انتهى

الأمـر إذن؟ كانـت كاتريـن لا تـزال تنظـر، بلهـاء أمـام الرجليـن، كلاهمـا حـيَ يـرزق.

«انصرفـ!»، كرر إتيان، «انصـرف وإلا قضيتُ عليك!».

نهض شـافال، مسـح بظاهـر يـده الـدم الـذي واصـل السـيلان مـن أنفـه؛ وفكّـه ملطـخ بالأحمـر، وعينـه مجروحـة، انصـرف يجـرّ سـاقيه وهـو هائـج مـن هزيمتـه. مـن دون أن تـدرك ذلـك، تبعتـه كاتريـن. حينئـذ، انتصـب، ودوّى حقـده فـي سـيل مـن الشـتائم.

«آه! كلا، آه! كلا، بمـا أنـك تريدينـه هـو، اذهبـي معـه، أيتهـا الجاهلـة القـذرة! ولا تضعـي قدميـك فـي بيتـي، إذا كنـتِ تحرصيـن علـى حياتـك!».

صفـق البـاب بشـدة. وعـمّ صمـت عظيـم فـي القاعـة الدافئـة، حيـث كان يُسـمع حسـيس الفحـم الخفيـف. فـوق البـلاط، لـم يبـقَ سـوى الكرسـيّ المقلـوب، وقطـرات دم كالمطـر كان رمـل البـلاط يشـربها.

مكتبة
t.me/soramnqraa

IV

حينما خرجا من عند راسنور، مشى إتيان وكاترين في صمت. بدأ ذوبان الجليد، ذوبان بارد وئيد، يتسخ منه الثلج دون أن يذيبه. في السماء المدلهمّة، يخمّن الناظر بدر التمام، خلف الغيوم العظيمة، أسمال سودٌ دحرجتها ريح هابّة بغضب، في الأعالي؛ وعلى الأرض، لا نفَس يتردّد، لا يُسمع سوى تقاطر السّقوف، التي تسقط منها رزم بيض، سقوطاً رخواً.

وهو محرج من هذه المرأة التي أُعطيت له، لم يجد إتيان شيئاً لقوله، في حرجه ذاك. بدا له من السخف أخذها وإخفائها معه في ريكيار. أراد أن يقودها إلى المجمّع، عند والديها؛ لكنها رفضت ذلك والرعب ظاهر على محيَاها: كلّا، كلّا، كل شيء ولا أعود لأثقل كاهلهما بعدما هجرتهما بكل ذلك القدر من الخسّة! ولم يعُد لا هو ولا هي إلى الكلام، كانا يدوسان الأرض كما اتفق، من خلال الدروب التي غدت وديانَ وحل. في البدء نزلا صوب لوفوروه؛ ثم انعطفا يميناً، ومرّا بين الرَّدم والقناة.

«يجب مع ذلك أن تنامي في مكان ما»، قال في نهاية المطاف، «لو كانت لدي غرفة فحسب، لأخذتك إليها حقاً...».

لكن قطعت نوبة خجل غريب كلامه. رجع إليه ماضيهما، رغباتهما العارمة الفائتة وأصناف الرقّة والخجل التي منعتهما من الرفقة معاً. هل يريدها دوماً إلى حدّ أنه مضطرب، وشيئاً فشيئاً يستدفئ قلبه برغبة جديدة؟

ذكرى اللطمات التي وجهتها له، في غاستون ماري، تهيّجه الآن، بدل ملء قلبه ضغينة. وظل مستغرباً، فأن فكرة أن يباشرها

في ريكيار أضحت طبيعية تماماً وتنفيذها سهل.

«هيا، احسمي أمرك، إلى أين تشائين أن أرافقك؟ إذن، إنك تمقتيني حقاً بحيث ترفضين العيش معي؟».

كانت تتبعه ببطء، يؤخرها انزلاق نعالها الشاق في أخاديد الطريق؛ وهمست من دون أن ترفع رأسها:

«أنا مفجوعة بما فيه الكفاية، يا إلهي! لا تَزِد الطين بِلّة. إلى أين سيؤدي بنا ما تطلبه، اليوم عندي رجل ولديك أنت امرأة؟».

إنها كانت تقصد **موكيت** بكلامها، كانت تظن أنه يرافق تلك الفتاة، مثلما تجري الأخبار بذلك منذ خمسة عشر يوماً؛ وحينما أقسم لها بالنفي، هزَّت رأسها، وذكّرته بالمساء حيث رأتهما يقبلان بعضاً ملء الفم.

«كل تلك الحماقات خسارة!»، قال بصوت خامل وهو يتوقف عن السير، «كم كنا سوف نتفاهم كثيراً!».

سرت فيها رعشة خفيفة وأجابته:

«هيا، لا تأخذك الحسرة على أي شيء، لم تفقد الكثير، لو علمت أي قفِرة أنا، بالكاد أزن مثقال فلسين من الزبدة، من سوء خلقتي لن أصير امرأة أبداً، ذلك مؤكد!».

وتابعت بكل طلاقة، تعيب على نفسها تأخر بلوغها الذي طال كأنه خطيئة. ورغم الرجل الذي عرفته، كان ذلك يحطّ من شأنها، ويجعلها في صف الفتيات الصغيرات. وقد يجد المرء عذراً بعد، حينما يستطيع ولادة طفل.

«يا لمسكينتي الصغيرة!»، قال إتيان خافضاً صوته وقد اعترته شفقة عظيمة.

كانا أسفل الردم، مستخفيين في ظلّ الركام العظيم. غيمة حبر كانت تمرّ على القمر في تلك اللحظة بالذات، لم يكن أحدهما يتبين حتى وجه الثاني، وامتزجت أنفاسهما، وسَعَت شفاههما إلى بعضها، بغية تلك القبلة التي حيرتهما الرغبة فيها مدة أشهر. لكن بغتة، ظهر القمر من جديد، ورأيا فوقهما، أعلى صخور الضوء البيض، حارس لوفوروه بارزاً، مستقيماً تماماً. ومن دون أن يقبّلا بعض في نهاية الأمر، فرّق الحياء بينهما، ذلك الحياء القديم المقرون بالغضب، وبعض النفور الملتبس والكثير من الصداقة. وانصرفا بتثاقل، يخوضان في الوحل حتى الكعبين.

«لقد حسمتِ قرارك، لا تريدين ذلك؟»، سألها إتيان.

«كلا»، قالت، «أنت، بعد شافال، هه؟ وبعدك أنت، شخص آخر. كلّا، ذلك يصيبني بالغثيان، لا أشعر بأدنى متعة، لِمَ القيام بذلك إذن؟».

سكتا، سارا مقدار مائة خطوة، دون تبادل كلمة واحدة.

«هل تعلمين إلى أين أنت ذاهبة على الأقل؟»، أردف، «لا يمكن أن أتركك بالخارج في ليلة مماثلة».

أجابت ببساطة.

«أنا راجعة، شافال عشيقي، ليس لي أن أنام في مكان غير بيته».

«لكنه سوف يوجعك ضرباً!».

خيّم الصمت من جديد. حرّكت كتفيها في إذعان. سيضربها، وحينما يصيبه العياء من ضربها، سيتوقف: أليس ذلك أفضل، بدل أن تهيم على وجهها في الطرقات مثل متسولة؟ ثم أنها

تعتاد اللطمات، كانت تقول، كيما تواسي نفسها، إن من بين عشر فتيات، ثمان لا يحصلن على أفضل مما حصلت عليه هي. إذا تزوجها عاشقها ذات يوم، فإن ذلك سوف يكون لطفاً منه مهما يكن.

اتجه إتيان وكاترين دون إدراك منهما صوب مونسو، وكلما اقتربا منها، صار صمتهما أطول. وكأنه لم يسبق لهما قط أن كانا رفقة بعض. لم يكن يجد شيئاً لإقناعها، رغم الحزن الشديد الذي عمّه وهو يراها عائدة إلى شافال. كان قلبه ينفطر، لم يكن في وسعه أن يمنحها ما هو أفضل، عيشة بؤس وهروب، ليل بلا غد، إذا هشمت رصاصة جندي رأسه. ربما، بالفعل، من الحكمة أن يكابد المرء ما يكابده، دون السعي إلى مكابدة ثانية. ثم قادها عند عاشقها، مطأطئ الرأس، ولم يحتجّ حينما بلغا الطريق الواسع وأوقفته عند ناصية المواقع، على بعد عشرين متر من حانة بيكيت، قائلة:

«لا تذهب أبعد من هذا. إذا رآك، سوف تقع مصيبة أخرى».

كانت الساعة الحادية عشر تدقّ في الكنيسة، والحانة مغلقة، لكن ومضات تبين من بين الشقوق.

«وداعاً»، همست.

مدّت له يدها، أمسكها، وكان عليها أن تجذبها بمشقة، بجهد وئيد، كيما تتركه. ودون أن تلتفت، دخلت من الباب الصغير. لكنه لم يبتعد قط، ظلّ واقفاً في المكان نفسه، عينيه صوب البيت، وهو قلق مما يقع هناك. كان يرخي السمع، ويرتعد من سماع عويل امرأة تتعرض للضرب. ظلّ البيت مظلماً وصامتاً، ورأى

فحسب إضاءة نافذة في الطابق الأول؛ وبما أن تلك النافذة فُتِحت وتبيّن الظل النحيل المطل على الطريق، تقدّم.

حينذاك، ألقت كاترين بصوت خفيض جداً:

«إنه لم يرجع، سوف أهجع للنوم، أتوسّل إليك، انصرف!».

انصرف إتيان. زاد ذوبان الثلج، سيلان مطرٍ كان يتساقط من السقوف، عَرَق رطوبةٍ يسيل من الجدران والحواجز ومن كل الكتل المختلطة لتلك البلدة الصناعية، التائهة في الليل. في البدء، اتجه صوب ريكيار، وقد أمرضه التعب والحزن، ولا ينقصه سوى الاندثار تحت الأرض، والفناء فيها. ثم ألحّت عليه فكرة لوفوروه، كان يفكر في العمال البلجيكيين الذين ينزلون، في رفاق المجمّع المنزعجين من الجنود، العازمين على عدم التسامح مع أجانب في منجمهم. ثم مشى من جديد على طول القناة، وسط برك الثلج الذائب.

ولما وجد نفسه مرة ثانية قرب الردم، بدا القمر أشدّ وضوحاً. رفع عينيه، نظر إلى السماء حيث يزداد ركض الغيوم، تحت ضربات سوط الريح العاتية التي تهب في الأعالي؛ لكنها كانت تبيضّ، تنتفش، وصارت أرقّ، شفافة مغيّمة مثل ماء كدر على وجه القمر؛ وتتابعت سراعاً إلى حدّ أن النجم المحجوب بعض الوقت كان يظهر من جديد بلا توقف، بكل صفوه.

وقد امتلأ ناظره بذلك الصفاء النّقيّ، طأطأ إتيان رأسه لما أوقفه منظر في قمة الرَّدم. الحارس وقد تصلّبت أوصاله من البرد، كان يجول فيه الآن، يقطع خمساً وعشرين خطوة صوب مارشيين، ثم يرجع صوب مونسو. كان يُرى ومض حربة البندقية

البيضاء، فوق ذلك الطيف الأسود، البارز بوضوح في شحوب السماء. وما كان يُهم الرجل الشّاب، هو أن خلف الكوخ حيث كان يلوذ بونمور إبان ليالي العاصفة، ظلّ متحرك، دابّة زاحفة بالمرصاد، والذي تعرّف منه في الحال على جونلان، بظهره ذاك، ظهر المجنون، الطويل، الذي لا عظم فيه. لم يكن في وسع الحارس أن يراه، هذا الطفل اللص كان يتهيأ بكل تأكيد لمقلب من المقالب، لأنه لا يكفّ عن غضبه من الجنود، ويسأل متى يتم التخلص من أولئك القتلة، الذين يتم إرسالهم ببنادق لقتل الناس.

تردّد إتيان لحظة في النداء عليه قصد منعه من ارتكاب حماقة ما. احتجب القمر، رآه يتكوّر على نفسه، على أهبة الوثب؛ لكن ظهر البدر من جديد، وبقي الطفل رابضاً. مع كل دورة، كان الحارس يتقدم حتى الكوخ، ثم يدير ظهره وينطلق من جديد. فجأة، بما أن غيمة رمت ظلامها، قفز جونلان على كتفي الجندي، قفزة هرّ وحشي عظيمة، تشبث بهما بمخالبه، وغرز في حنجرته سكينه المفتوح تماماً. كانت ذؤابته تصدّ الضربة، ولزمه أن يضغط بكلتا يديه على المقبض، والاتكاء على وزن جسمه كله. معظم الأوقات، كان يذبح فراخ الدجاج التي يباغتها خلف الضِّياع. تمّ ذلك بسرعة شديدة بحيث سُمعَت في الليل صرخة مكتومة فحسب، بينما سقطت البندقية كما تسقط رذالة حديد. وكان البدر، شديد البياض، يلمع أصلاً.

كان إتيان ينظر دوماً، لم يأت بحركة من شدة ذهوله. اختنق النداء في جوفه. هناك في الأعلى، كان الردم خالياً، لم يعُد يبرز أي ظلّ بين هروب الغيوم المذعور. صعد جرياً، ألفى جونلان

على أربع، حيث الجثة الممدودة إلى الخلف، الذراعان مفتوحتان واسعاً. في الثلج، على ضوء القمر الصافي، برز السروال الأحمر والمعطف الرمادي بخشونة. لم تسل قطرة دم، كان السكين لا يزال في الحنجرة، حتى المقبض.

بضربة من قبضة يده، ضربة بلا سبب، غاضبة، أسقط الطفل جنب الجثة.

«لماذا صنعت ذلك؟»، تمتم وهو محموم.

تجمّع جونلان، دبّ على يديه، بحركة هرّ بظهره الهزيل؛ وأذنيه الكبيرتين، وعينيه الخضراوين، وفكّيه البارزين، كلها ترتعش وتلتهب، من هزّة ضربته السيّئة.

«اللعنة، لماذا صنعتَ ذلك؟».

«لا أدري، رغبتُ في ذلك».

أصرّ على ذلك الجواب. قبل ثلاثة أيام، كان يرغب في ذلك. حيّره الأمر، وآلمه رأسه من ذلك، هناك، خلف الأذنين، من شدة ما كان يفكر فيه. وهل يلزم أن ينزعج المرء، مع أولئك الجنود الخنازير الذين يخلقون المتاعب لعمال الفحم في ديارهم؟ من الخُطب العنيفة في الغابة، من صرخات التدمير والموت التي صدحت بها الحُفر، ترسّبت لديه خمس أو ست كلمات، يكرّرها بصفته غلاماً يلعبُ الثورة. ولم يكن يعرف أكثر من ذلك، لم يدفعه أحد، جاء لوحده، مثلما جاءته رغبة في سرقة حبات بصل من حقل.

طرده إتيان ركلاً بقدمه وقد أصابه الذعر من الاختمار المكتوم للجريمة في عمق رأس الطفل ذاك، مثلما تُطرَد دابّة غير عاقلة.

كان يرتجف من أن تسمع فرقة حراسة لوفوروه صرخة الحارس المكتومة، رمى بنظرة صوب الحفرة، كلما انكشف القمر. لكن لم يتحرك شيء، ثم انحنى، جسّ اليدين الجامدتين شيئاً فشيئاً، سمع نبض القلب، المتوقف تحت المعطف. لم يكن يُرى من السكّين سوى المقبض المصنوع من العظم، حيث نُقِش الشعار الغرامي بحروف سود، تلك الكلمة البسيطة: «حب».

انتقلت عيناه من الحنجرة إلى الوجه. بغتة، تعرّف على الجندي الصغير: كان ذاك **جول**، حديث العهد بالخدمة، الذي تحدث معه ذات صباح. وأخذته شفقة عظيمة، قبالة ذلك الوجه الأشقر الوديع، الذي به بقع نمش كثيرة. العينيان الزرقاوان، المفتوحتان على وسع، تنظران إلى السماء، بتلك النظرة المحدّقة التي رآه يبحث بها في الأفق عن مسقط الرأس. أين توجد **پلوغوف** تلك التي بدت له في وهج الشمس؟ هناك، هناك. البحر يعول من بعيد، في ليل الإعصار ذاك. الأرجح أن تلك الريح العابرة بكل ذلك القدر من العلو قد هبّت على الأرض المقفرة. امرأتان واقفتان، الأم، الأخت، تحملان قبعتيهما اللتين حملتهما الريح، تنظران، بدورهما، كما لو وسعهما أن يريا ما يفعله الصغير في تلك الساعة، ما وراء الأميال التي تفصل بينهم. سوف تنتظرانه دوماً، الآن. يا له من أمر مقيت، أن يتقاتل المقهورون لأجل الأثرياء!

لكن كان من الواجب إخفاء تلك الجثة. رأى إتيان في البداية أن يلقي بها في القناة. لكن صرفه عن ذلك اليقين من العثور عليها هناك. حينذاك بلغ هلعه مبلغه، الدقائق تستعجل، أي قرار

يجب حسمه؟ ثم ألهمت نفسه بغتة: إذا أمكنه حمل الجسد لغاية ريكيار، سيفلح في دفنه هناك إلى الأبد.

«أقبِل هنا»، قال مخاطباً جونلان.

كان الطفل مرتاباً.

«كلا، تريد أن تضربني. ثم لدي ما أعمله. عمت مساء».

بالفعل، كان قد ضرب موعداً مع بيبير وليدي في مخبأ، ثقب مرتب تحت خزنة الخشب، في لوفوروه. كان قسم كبير بأكمله، للنوم، والمشاركة، إذا ما كُسِرت عظام البلجيكيين بالحجارة حينما سوف ينزلون.

«أنصت»، كرّر إتيان، «أقبِل، وإلا ناديت الجنود، الذين سيضربون رقبتك».

وبما أن جونلان عزم أمره، لفّ منديله، ضمّد به عنق الجندي بقوة، دون أن ينزع السكين الذي يمنع الدم من السيلان. كان الثلج يذوب، ولم يكن على التراب، لا بِركة حمراء، ولا دوس أقدام عراك.

«امسك الساقين».

أمسك جونلان الساقين، قبض إتيان الكتفين بعدما ربط البندقية على ظهره؛ ونزلا الردم معاً، ببطء، مع حرصهما على ألاّ يجرفا الصخور. من حسن الحظ، كان القمر قد احتجب. لكن لمّا كانا مسرعين على طول القناة، ظهر من جديد أشدّ ضياء: ومن المعجز أن فرقة الحراسة لم ترهما. كانا يسرعان، في صمت، وقد ضيّق عليهما ترجرج الجثة، وأُرغما على وضعها على الأرض بعد كل مائة متر. عند ناصية زقاق ريكيار، جمّد صوتٌ

أوصالهما، ولم يسنح لهما الوقت سوى بالاختباء خلف حائط لتجنب حارس جوّال. أبعد من هناك، باغتهما رجل، لكنه كان سكران، ابتعد وهو يشتمهما. وأخيراً وصلا إلى الحفرة القديمة، والعرق يغطيهما، وقد انقلب كيانهما إلى حدّ أن أسنان كل منهما كانت تصطك.

لقد خامر إتيان الشك كثيراً في أنه من غير اللائق جعل الجندي يمر عبر منفذ السلالم. تلك مهمة فظيعة. بادئ الأمر، لزم أن يقوم جونلان الذي بقي فوق في جعل الجسد ينزلق بينما هو، المتعلّق بالأغصان، يرافقه لمساعدته على تجاوز الدرجين الأوليين، حيث كانت بعض الدرجات الصغيرة مكسورة. ثم عند كل سلّم، لزمه أن يعيد الكرّة، أن ينزل قُدماً، ثم يتلقاه بين ذراعيه؛ وهكذا قطع ثلاثين سلّماً، مئتين وعشرة أمتار، وهو يحسّ به يسقط عليه باستمرار. والبندقية تسلخ ظهره، لم يشأ أن يذهب الطفل لإحضار طرف الشمعة الذي يحتفظ به بُخلاً. ما الفائدة منه؟ سيزعجهما الضوء في هذا المنفذ الضيّق. لكن، حينما وصلا إلى قاعة سلّم البئر، وقد انقطع نفَسه، أرسل الصغير لأخذ الشمعة. جلس، انتظره وسط الظلام، جنب الجثة، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً.

ما أن عاد جونلان بالنور حتى استوضحه إتيان، لأن الطفل كان قد فتّش تلك المقالع القديمة حتى الشقوق التي لم يستطع الرجال عبورها. وانطلقا من جديد، يجرّان الميت لمسافة كيلومتر تقريباً، من خلال متاهة من السراديب الخربة. وفي نهاية المطاف، انخفض السّقف، فألفيا نفسيهما جاثيين، تحت

صخـرة هشّـة، تدعهمـا أخشـاب نصـف مكسـورة. كانـت عبـارة عـن صنـدوق طويـل، فيـه سـيمددان الجنـدي الصغيـر كمـا فـي نعش؛ وضعـا البندقيـة علـى حضنـه؛ ثـم بضربـات قـدم شـديدة، أتمّـا كسـر الأخشـاب، وجازفـا بالهـلاك هنـاك. فـي الحـال، تفتّتـت الصخـرة، وبالـكاد وجـدا فسـحة مـن الوقـت للزحـف علـى المرافـق والرّكـب. حينمـا التفَـت إتيـان، وقـد دفعتـه الحاجـة للنظـر، اسـتمر انهيـار السـقف، ودُكَّ الجثمـان ببطء، بفعـل الثقـل الشـديد. ولـم يعُـد هنـاك أي شـيء، لا شـيء سـوى كتلـة التـراب العميقـة.

لمـا عـاد جونـلان إلـى «ديـاره»، فـي ركنـه مـن مغـارة اللصـوص، اسـتلقى علـى التّبـن، وهـو يغمغـم، وقـد كسـر العيـاء عظامـه:

«أفّ! سوف ينتظرني الصغيران، سأنام ساعة».

أطفـأ إتيـان الشـمعة التـي لـم يَفضُـل منهـا سـوى طـرف صغيـر. كان ظهـره يوجعـه هـو أيضـاً، لكنـه لـم يكـن يشـعر بالنعـاس، خواطـر كابـوس مؤلمـة كانـت تضـرب كالمطـارق فـي قحـف رأسـه. وسـرعان مـا ظلـت خاطـرة واحـدة تعذبـه، تتعبـه بسـؤال لـم يسـتطع لـه جوابـاً: لمـاذا لـم يُصِـب شـافال حينمـا كان يمسـك بـه تحـت رحمـة سـكّينه؟ ولمـاذا ذلـك الطفـل ذبـح للتـو جنديـاً، لـم يكـن يعـرف حتـى اسـمه؟ ذلـك يقلـب معتقداتـه الثوريـة، الشـجاعة علـى القتـل، الحـقّ فـي القتـل. هـل لأنـه كان جبانـاً لحظتهـا؟ فـوق التبـن، أخـذ الطفـل يشـخر، شـخير رجـل سـكران طافـح، وكأنـه يصحـو مـن سـكرة جريمـة القتـل، جريمتـه. وبـه نفـور وحنـق، كان إتيـان يتعـذب مـن علمـه بأنـه هنـاك، مـن سـماعه. فجـأة، فـزع، هـبّ نفَـس الخـوف علـى وجهـه. خشخشـة خفيفـة، نحيـب بـدا لـه كأنـه خـرج مـن أعمـاق الأرض. صـورة الجنـدي

الصغير، الراقد هنالك مع بندقيّته، تحت الصّخور، نزلت على ظهره صقيعاً وانتصب لها شعر بدنه. تلك حماقة، كل المنجم يمتلئ بالأصوات، ألزمه الأمر إشعال الشمعة مرة ثانية، ولم يهدأ روعه إلا حينما رأى من جديد فراغ السراديب على ذلك الضوء الشاحب.

ومدة ربع ساعة آخر، ظلّ يفكر، والصراع نفسه يرجّ كيانه دوماً، وعيناه تحدّقان في ذلك الفتيل المحترق. لكن سُمِع نشيش، وذهبت ذبالة الشمعة وخيّم الظلام من جديد على كل شيء. عاودته رجفة، كم ودّ أن يلطم جونلان لمنعه من الشخير بكل تلك الشّدة. صارت مجاورة الطفل لا تُطاق بالنسبة له إلى حدّ أنه هرب، وقد أصابته حاجة إلى الهواء النقي الطلق، مسرعاً عبر السراديب والمنفذ، كما لو أنه سمع طيفاً يلهث في عقبه.

فوق، وسط أنقاض ريكيار، استطاع إتيان أخيراً أن يتنفس وسعه. بما أنه لا يجرؤ على القتل، يجب عليه هو أن يموت؛ وفكرة الموت تلك، التي خامرته مسبقاً، صارت تُولَد من جديد، تتوغل في رأسه، مثل رجاء أخير. الموت ببساطة، الموت لأجل الثورة، ذلك سوف ينهي كل شيء، ويسوّي حسابه، خيراً كان أو شرّاً، ويمنعه من التفكير بما يزيد عن القدر. إذا هجم الرفاق على أهل بوريناج، سيكون في المقدّمة، وسيكون محظوظاً إذا أُصيب. واثقَ الخطوة رجع للطواف حول لوفوروه. دقّت الساعة الثانية، خرج لغط أصوات من حجرة رؤساء العمال حيث معسكر الفرقة التي تحرس الحفرة. اختفاء الحارس قلب للتو تلك الفرقة. هناك من ذهب لإيقاظ النقيب، وانتهى بهم المطاف إلى الظن أن ذلك

فـرار مـن الخدمـة بعـد فحـص دقيـق للمـكان. وهـو بالمرصـاد فـي الظـل، تذكـر إتيـان ذلـك النقيـب الجمهـوري الـذي أخبـره الجنـدي الصغيـر عنـه. مـن يـدري قـد يتـم دفعـه إلـى صـف الشـعب؟ إن جعلـت الكتيبـة أعقـاب بنادقهـا فـي الهـواء، فتلـك سـتكون إشـارة إلـى مذبحـة البرجوازييـن. وحملـه حلـم جديـد، ولـم يعُـد يفكـر فـي المـوت. ظـلّ طـوال سـاعات، قدميـه فـي الوحـل، ونـدى ذوبـان الثلـج علـى الكتفيـن، وقـد عمّتـه حمّـى رجـاء انتصـار لا يـزال ممكنـاً.

حتـى السـاعة الخامسـة، ترصّـد أهـل بوريـنـاج. ثـم أدرك احتيـال الشـركة التـي جعلتهـم ينامـون فـي لوڤـوروه. بـدأ النـزول حينـذاك، تـردد المضربـون القلائـل مـن مجمّـع 240، الرابضـون ليطّلعـوا علـى العـدو، فـي إخبـار الرفـاق. وكان هـو مـن أخبرهـم عـن المنعطـف الصحيـح فانطلقـوا جريـاً، بينمـا كان ينتظـر خلـف الـرّدم، عنـد طريـق سـحب السّـفن. دقّـت السـاعة السادسـة، اصفـرّت السـماء المتربـة، وتوضّحـت بفجـر مائـل إلـى الحمـرة، حينمـا خـرج الكاهـن رانڤيـي مـن درب، بردائـه المرفـوع علـى سـاقيه النحيلتيـن. كل يـوم إثنيـن، كان يذهـب لإلقـاء قـداس صباحـي بمصلّـى ديـر، علـى الجانـب الثانـي مـن الحفـرة.

«صبـاح الخيـر، صديقـي»، صـاح بصـوتٍ عـالٍ، بعدمـا تفحّـص وجـه الرجـل الشـاب بعينيـن مـن لهـب.

لكـن إتيـان لـم يحـر جوابـاً. بعيـداً، بيـن محامـل لوڤـوروه، رأى امـرأة تعبـر آنفـاً، وقـد هـرع إلـى ذلـك الصَـوب، وقـد داخلـه القلـق، إذ ظـن أنـه تبيّـن كاتريـن.

منـذ منتصـف الليـل، وكاتريـن تجـوب ذوبـان ثلـج الطرقـات. لمـا رجـع شـاڤال وألفاهـا مضطجعـة، جعلهـا تنهـض بصفعـة واحـدة.

وصرخ في وجهها بأن تخرج من الباب إن هي شاءت ألّا تخرج من النافذة؛ باكية، بالكاد كاسية، وقد سلختها ضربات القدم على الساقين، لم تجد بُداً من النزول، مدفوعة إلى الخارج بضربة أخيرة. ذلك الفراق المباغت أدار بها الأرض، جلست على حجر، تنظر إلى البيت، منتظرة دوماً أن يسترجعها؛ إذ لا يعقل، أنه كان يراقبها، سوف يدعوها للصعود، حينما يراها ترتجف على ذلك النحو، مهجورة، ولا أحد يأويها.

ثم، بعد مرور ساعتين، حسمت أمرها، وقد ماتت من البرد، من عدم حركتها مثل كلب أُلقي به في الشارع. غادرت مونسو، رجعت على عقبيها، ولم تجرؤ على النداء من الرصيف ولا الطرق على الباب. وفي الأخير انصرفت على الرصيف، في الطريق الواسع المستقيم، عازمة على الوصول إلى المجمّع، عند والديها. لكن لمّا وصلت، من شدة ما استَحيَت ركضت على طول الحدائق خشية من أن يتعرف عليها أحد من الناس، رغم النوم الغرِق، المثقل خلف الشبابيك المغلقة. ومن ذلك الحين، هامت على وجهها، فزعة من أدنى صوت، مرتعدة من القبض عليها وسوقها، مثل متسولة، إلى الماخور ذاك في مارشيين، الذي تحول وعيده إلى كابوس يسكنها منذ أشهر. لمرتين تعثّرت في لوفوروه، وذُعِرت من الأصوات الصاخبة في فرقة الحراسة، وركضت لاهثة، تلقي نظرات إلى الخلف، كي ترى إن لم يكن أحد يتبع أثرها. كان زقاق ريكيار يضج دوماً بالرجال السكارى، وعادت إليه رغم ذلك، راجية بلا يقين من أن تلقى فيه من صدّته ساعات من ذي قبل.

ذلك الصباح، كان شافال سينزل إلى الجوف لا بدّ؛ وأرجعت تلك الخاطرة كاترين صوب الحفرة وإن شعرت بأن لا جدوى من الكلام معه: لقد انقطعت الصلة بينهما. لم يعُد هناك شغل في جونبار، وقد أقسم على خنق أنفاسها حتى الموت إن هي عادت للعمل في لوفوروه حيث يخشى أن تورّطه. إذن، ما العمل؟ الرحيل إلى مكان آخر، الهلاك جوعاً، الاستسلام لضرب كل الرجال الذين سيعبرون؟ كانت تجرّ قدميها، وتترنح وسط أخاديد الطريق الموحل، وقد أصاب العياء ساقيها واتسخت بالقاذورات حتى الظَهر. كان ذوبان الثلج ينبسط آنذاك عبر الدروب نهراً من الوحل، كانت تغرق فيه، مواصِلة السير، ولا تجرؤ على البحث عن حجر تجلس عليه.

طلع النهار. تعرّفت كاترين للتو على ظَهر شافال الذي كان ينعطف بحذر على الرّدم، حينها رأت **ليدي** وبيبير يخرجان من مخبئهما، من تحت ركن الحطب. لقد قضيا الليل هناك بالمرصاد، دون القدرة على الرجوع إلى البيت، ما دام أن جونلان أمرهما بانتظاره؛ وبينما كان هذا الأخير، في ريكيار، يصحو من سكرة جريمته، ارتمى الطفلان في حضن بعض، حتى يجلبا الدفء. كانت الريح تصفر بين أعواد شجر الكستناء والسنديان، اجتمعا وكأنهما في خيمة حطّاب مهجورة. لم تكن **ليدي** لتجسر على الجهر بآلامها، آلام امرأة صغيرة تتعرض للضرب، مثلما أن بيبير لم تكن لديه الشجاعة للشكوى من صفعات القائد التي ورّمت وجنتيه؛ لكن في نهاية الأمر، فهذا الأخير أفرط في شططه، إذ يجازف بروحيهما في سرقات مجنونة، رافضاً بعد ذلك كل

قسمة؛ وكان صدرها يفيض حنقاً، وفي الأخير قبّلا بعضهما، رغم منعه، ولو تلقيا لطمة من الكائن غير المرئي، مثلما كان يهددهما به. وبما أن اللطمة لم تقع، فقد تابعا التقبيل بوداعة، دون أن يخطر عليهما شيء آخر، جاعلان في تلك الملامسة شغفهما الطويل المقاوَم، وكل ما في داخلهما من عذاب وحنان. استدفآ الليل بأكمله على ذلك النحو، ومن شدة فرحهما في غور تلك الحُفيرة المجهولة فإنهما لا ذكرى لهما عن فرح يزيد عن ذلك القدر، حتى في عيد القديسة بريارة، عند أكلهما الفطائر وشربهما الخمر.

فزعت كاترين عند سماع طنين بوق مباغت. وقفت على طرفي قدميها، رأت أفراد فرقة حراسة لوفوروه الذين كانوا يحملون السلاح. وكان إتيان قادماً يجري، نطّ بيبير وليدي وثباً خارج المخبأ. وهنالك، في وضح النهار الطالع، كانت عصبة من الرجال والنساء نازلة من المجمّع، يلوّحون بغضب عارم.

V

أُغلِقت كل منافذ لوفوروه، والجنود السّتون، السلاح عند القدم، يعترضون الباب الوحيد الذي ظلّ مفتوحاً، المؤدي إلى المورد، عبر سلّم ضيّق، حيث تنفتح حجرة رؤساء العمال والمستودع. جعلهم النقيب في صفّين، لصق جدار الآجر، كي لا يتم الهجوم عليهم من خلف.

في البداية، ظلت عصبة عمال مناجم المجمّع النازلة على مسافة. كانوا حوالي ثلاثين فرداً على أكبر تقدير، يتداولون أمرهم بعنف واختلاط.

كانت ماهود، أول الواصلين، شعرها منفوش تحت منديل معقود على عجل، وفي ذراعها إستيل نائمة، كانت تردّد بصوت محموم:

«لن يدخل أحد ولن يخرج أحد! يجب حجزهم جميعاً في الداخل هناك!».

كان ماهو يؤمّن على كلامها، حينما جاء الأب موك من ريكيار تلك اللحظة. أرادوا منعه من المرور. لكنه ظلّ يكافح، وقال إن جياده تأكل على أي حال علفها ولا تأبه بالثورة. ثم كان هنالك حصان نافق، ينتظر إخراجه. أفسح إتيان للسائس العجوز الذي تركه الجنود الصعود إلى البئر. وبعد ربع ساعة من ذلك الحين، بما أن عصبة المضربين، التي تكاثرت شيئاً فشيئاً، أضحت أكثر تهديداً، فُتح باب واسع في الطابق السفلي، وظهر بعض الرجال، يجرّون الدابّة النافقة، رزمة مثيرة للشفقة، لا تزال مشدودة في شبكة الحبال، تركوها وسط بقع الثلج الذائب. ومن شدة التأثر

لـم يتـم منعهـم مـن الدخـول واعتـراض البـاب مـن جديـد. تعـرّف الجميـع علـى الحصـان، مـن رأسـه المطـوي والمتصلـب علـى حضنـه. سـرت وشوشـات:

«ذاك **ترومپيت**، أليس كذلك؟ ذاك ترومپيت».

كان ذاك ترومپيـت، حقـاً. منـذ نزولـه، لـم يسـتطع التوافـق قـط. ظلّ كئيبـاً، لا يسـتطعم العمـل، وكأن حسـرته علـى النـور تعذبـه. بـدون جـدوى، كان **باتـاي**، عميـد المنجـم، يفـرك بـودّ أضلاعـه، يعضـض عنقـه، حتـى يمنحـه بعض الإذعـان مـن أعوامـه العشـرة فـي الجـوف. كانـت تلـك المداعبـة تزيـد مـن كآبتـه، ويرتعـش وبـره مـن أسـرار الرفيـق الـذي أصابـه الكِبَـر فـي الظلمـات؛ وهمـا معـاً، كلمـا التقيـا يتقافـزان علـى القوائـم، وبـدا أنهمـا يتشـاكيان، المسـنّ مـن أنـه لـم يعُـد يتذكـر شـيئاً، والشـاب مـن أنـه لا يسـتطيع أن ينسـى. فـي الإسـطبل، جـاران فـي المـأكل، عاشـا والـرأس مطأطـأ، ينفخـان علـى بعـض مـن المناخـر، ويتبـادلان حلمهمـا المتواصـل بضـوء النهـار، بمناظـر الأعشـاب الخضـر، والطـرق البيـض، والأضـواء الصفـر، إلـى مـا لا نهايـة لـه. ثـم، لمّـا كان ترومپيـت يحتضـر علـى فرشـته، وقـد بللـه العَـرَق، أخـذ باتـاي يتشـمّمه علـى نحـو يائـس، بِنشـق قصيـر، يشـبه النحيـب. كان يحـس بأنـه صـار بـارداً، وقـد سـلبه المنجـم فرحتـه الأخيـرة، ذلـك الصديـق الـذي سـقط مـن فـوق، طريـاً بروائـح طيّبـة، تذكـره بشـبابه فـي الهـواء الطلـق. قطـع قيـاده، وصهـل خوفـاً حينمـا أدرك أن الثانـي لـم يعُـد يتحـرّك.

فضـلاً عـن ذلـك، كان مـوك يحـذّر رئيـس العمـال منـذ ثمانيـة أيـام. لكـن هـل ينشـغل المـرء بحصـان مريـض فـي هـذا الظـرف! لـم يكـن

هـؤلاء الأسـياد يستحسـنون نقـل الجيـاد بتاتـاً. الآن، وجـب الحسـم فـي إخراجـه. فـي اليـوم السـابق، أمضـى السـائس سـاعة مـع رجليـن فـي تقييـد ترومپيت بالحبـل. ثـم رُبِط باتـاي إلـى العربـة قصـد جـرّه حتـى البئـر. ببطء، كان الحصـان المسـنّ يجـر الرفيـق النافـق، عبـر سـرداب شـديد الضِيـق حيـث لزمـه أن ينتفض مـرّات، مجازفـاً بسـلخ جلـده. بعـد أن أصابـه العيـاء، كان يحـرك رأسـه، للأمـام والخلـف، وهـو يصغـي إلـى الخشخشـة المديـدة لتلـك الكتلـة التـي ينتظرهـا الجـزّار. فـي سـلّم البئـر، حينمـا فـكّ وثاقـه، تبـع بعينـه الحزينـة تهيئـة الصعـود، الجثـة مدفوعـة علـى عـوارض، فـوق الحـوض والشـبكة معلّقـة أسـفل قفـص. وفـي نهايـة الأمـر، دقّ الحمَّـالون جـرس اللَحـم، رفـع عنقـه حتـى يـراه راحـلاً، أول الأمـر بلطـف، ثـم فـي الحـال وقـد غـرق فـي الظلمـات، محلّقـاً إلـى الأبـد فـوق ذلـك الثقـب الأسـود. وظـل عنقـه ممـدوداً، وذاكرتـه المترنحـة لدابّـة تتذكـر علـى الأرجـح أشـياء الأرض. لكـن قُضـي الأمـر، لـن يـرى الرفيـق شـيئاً مـن جديـد، هـو بنفسـه سـوف يتـم شـدّ وثاقـه داخـل رزمـة يرثـى لهـا اليـوم الـذي يصعـد فيـه مـن هنـاك. أخـذت قوائمـه ترتعـد، الهـواء الطلـق القـادم مـن الأريـاف البعيـدة كان يخنقـه؛ كان كأنـه سـكران حيـن رجـع إلـى الإسـطبل مثقّـلاً.

فـي السّـاحة، ظلّ عمـال الفحـم وقـد تغطّـوا بالغـمّ أمـام جثـة ترومپيـت. قالـت امـرأة بصـوت مهمـوس:

«رجل آخر، فلينزل من شاء!».

لكـن موجـاً جديـداً كان قادمـاً مـن المجمّـع، متبوعـاً بلوفاكـه وبوتلـو، كان لوفـاك فـي المقدّمـة يصـرخ:

«الموت لأهل بوريناج! لا للأغراب في ديارنا! الموت! الموت!».

كان الجميع يهرع، ولزم الأمر أن يوقفهم إتيان. اقترب من النقيب، وهو رجل شاب طويل القامة نحيف، يبلغ بالكاد ثمانية وعشرين عاماً من عمره، له وجه يائس وعازم؛ وكان يفسر له الأمور، ويحرص على الفوز بثقته، مترصداً لتأثير كلماته. ما الفائدة من المجازفة بمذبحة لا طائل منها؟ أليس العدل من جانب عمّال المنجم؟ الجميع إخوة، الواجب أن يتفاهموا. عند سماع كلمة جمهورية، أتى النقيب حركة متوترة. لزم صلابة عسكرية، قال بغتة:

«ابتعدوا! لا تجبروني على القيام بواجبي».

أعاد إتيان الكرّة ثلاث مرّات. خلفه، كان الرفاق يزمجرون. وقد شاع خبر أن السيد إينبو كان في الحفرة، وقيل بأنه يجب إنزاله من عنقه، حتى يرى الناس إن كان يستطيع اقتلاع فحمه بنفسه. لكن كانت مجرد إشاعة، لم يكن هناك سوى نيغريل ودانسير اللذين ظهرا معاً للحظة عند نافذة المورد: كان رئيس العمال الأول يقف في الخلف، وهو مرتبك منذ ما وقع له مع پييرونه؛ بينما المهندس، يطل على الحشد، بإقدام، بعينيه المتّقدتين، تبسمان بذلك الاستهزاء الساخر الذي كان يلقيه على الناس والأشياء. ارتفعت الهتافات، فاختفيا. ومكانهما، لم تُرَ سوى صفحة وجه سوڤارين الشقراء. كان بالمناسبة في الخدمة، لم يترك آلته ليوم واحد، منذ بداية الإضراب، وقد استغرق شيئاً فشيئاً في فكرته الراسخة، التي يبدو مسمارها الحديدي ساطعاً في عمق عينيه الشاحبتين.

«ابتعدوا!»، كرّر النقيب بصوتٍ عالٍ جداً، «لا أريد سماع شيء، عندي أمر بحراسة البئر وسأحرسه. ولا تندفعوا على رجالي، وإلا جعلتكم تتراجعون».

رغم صوته الحازم، كان يصفرُّ من حيرة متعاظمة، عند مرآة موج عمال المنجم المتكاثر دوماً. المفروض أن يُستبدَل في منتصف النهار؛ لكن، مخافة من أن لا يستطيع الصمود حتى ذلك الحين، فقد أرسل للتو صبياً متعلماً في الحفرة إلى مونسو، طلباً للمدد.

ردّت عليها صيحات غضب شديدة.

«الموت للغرباء! الموت لأهل بوريناج! نريد أن نكون الأسياد في ديارنا!».

تراجع إتيان، آسفاً. قُضي الأمر، لم يبقَ من خيار سوى العراك والموت. لذا كفّ عن كبح جماح الرفاق، وتدحرج الحشد حتى الكتيبة الصغيرة. كانوا قرابة أربعمائة، ومجمّعات الجوار كانت تفرغ، وتصل جرياً. الجميع يهتفون بالصرخة نفسها، كان **ماهو** ولوفاك يخاطبان العساكر بحنق:

«انصرفوا! لا حاجة لنا عندكم، انصرفوا!».

«ذلك لا يعنيكم»، أردفت ماهود، «دعونا نتعهد شؤوننا».

وخلفها، أضافت لوفاكه، بعنف أشد:

«هل يجب أن نأكلهم كيما نعبُر؟ نرجوكم، أغربوا عنّا!».

بل سُمِع صوت ليدي الرقيق، التي اندسّت في الضيق مع بيبير، وهي تقول بنبرة حادة:

«ها هم جنود صفٍّ بلهاء!».

كانت كاترين، على بعد خطوات، تنظر، تسمع، وحسّها متبلّد من ذلك العنف المتجدّد الذي يوقعها فيه حظها العاثر. ألا تتعذب بإفراط مسبقاً؟ ما الغلط الذي اقترفته إذن كي لا يترك لها الشقاء فسحة للراحة؟ اليوم السابق فحسب، لم تكن تدرك شيئاً من غضبات الإضراب، كانت تظن بأنه حين يحصل المرء على نصيبه من اللطمات، لا فائدة في السعي إلى المزيد منها؛ وفي تلك الساعة، كان قلبها يمتلئ بحاجة إلى الحقد، وتذكرت ما كان يرويه إتيان عند السّمر، في ما مضى، وتحرص الآن على أن تنصت لما يقوله الآن للجنود. كان ينعتهم بالرفاق، ويذكّرهم بأنهم من الشعب هم كذلك، بأن عليهم أن يكونوا مع الشعب، ضد مستغلي البؤس.

لكن حدثت هزّة مديدة في الحشد، فقد هرعت عجوز. كانت تلك برولي، المخيفة بهزالها، عنقها وذراعاها عارية، خفّت مسرعة بحيث كانت خصلات من شعرها الرمادية تعميها.

«آه! اللعنة، أنا معكم!»، قالت متلعثمة، ونفسها مقطوع، «أقفَل عليّ ذاك الخائن پييرون في القبو!».

ودون انتظار، قصدت العسكر، فمها مسودّ، يتقيّأ الشتائم.

«شرذمة رعاع! شرذمة أوغاد! إنهم يلعقون أحذية رؤسائهم، لا شجاعة لديهم سوى على المستضعفين!».

آنذاك، سار على هديها الآخرون، وكانت دفعات متتالية من الشتائم. كان بعضهم لا يزال يصيح: «عاش الجنود، إلى البئر أيها الضابط!». لكن سرعان ما طغت صيحة واحدة: «فلتسقط السراويل الحُمر!». هؤلاء الرجال الذين أنصتوا، دون إبداء حسّ،

بوجه ثابت وأخرس، إلى دعوات الإخاء، ومساعي استمالتهم الودّية، حافظوا على صلابتهم الساكنة نفسها، تحت وابل من العبارات الفاحشة. خلفهم، سحب النقيب سيفه من غمده؛ وبما أن الحشد كان يضيق عليهم الخناق أكثر فأكثر، مهدداً بسحقهم على الجدار، فقد أمرهم بِشبك حِرابِهم. أطاعوا الأمر، هوى صف مزدوج من أطراف الحديد المسنّنة، أمام صدور المضربين.

«آه! يا من لا ذمة ولا همّة لهم!»، صاحت **برولي** وهي تتراجع.

تقدم الجميع مسبقاً، باحتقار فائق للموت. أسرعت بعض النساء، وكانت **ماهود** **ولوفاكه** تصيحان:

«اقتلونا، اقتلونا إذن! نريد حقوقنا».

مجازفاً بقطع أصابعه، أمسك **لوفاك** حزمة حِرابٍ بملء يديه، ثلاث حراب، رجّها، جذبها إليه بغية نزعها، وكان يلويها بقوى غضبه المتعاظم، بينما كان **بوتلو**، منزوياً، ضجراً من اتباعه الرفيق، ينظر إليه هادئ البال.

«هيا، لنرَ»، كان **ماهو** يردد، «هيا قليلاً، إن كنتم بتلك الحقارة حقّاً!».

ثم فتح سترته، وأزاح قميصه، باسطاً صدره العاري، وجسده المُشعَر والموشوم بالفحم. كان يدفع نفسه إلى الأطراف المسنّنة ويجبرهم على التراجع، مخيفاً بصلافته وشجاعته. نَخَسَته حربة من بينها في ثديه، وأضحى من جرائها كالمجنون وكان يسعى جهده حتى تدخل أكثر ليسمع انكسار أضلاعه.

«جبناء، لا تجسرون على ذلك. هناك عشرة آلاف خلفنا. أجل، تستطيعون قتلنا، وسيكون عليكم قتل عشرة آلاف أيضاً».

صار موقف الجنود حرجاً، لأنهم تلقوا الأمر بأن لا يستعملوا أسلحتهم إلا للضرورة القصوى. وما السبيل إلى منع أولئك المسعورين من قتل أنفسهم بأيديهم؟ من جهة ثانية، كان المكان يضيق، وألفوا أنفسهم الآن لصق الجدار، إذ يستحيل عليهم التقهقر أكثر. كانت فرقتهم الصغيرة تكافح وهي حفنة من رجال في مواجهة موج عمّال المنجم الهائج، تنفّذ برباطة جأش الأوامر القصيرة الصادرة من النقيب. لم يكن هذا الأخير، بعينيه الصافيتين، وشفتيه الرقيقتين من شدّ أعصابه، يخاف سوى أمراً واحداً، أن يراهم يثورون على الشتائم. أصلاً، كان رقيباً شاباً، نحيفاً طويلاً، تتصّبت أربع شُعيراتٍ من شاربه، يطرف بجفنيه على نحو مقلق. جنبه، عجوز محنّك، جلده مدبوغ من عشرين حَملة، صار شاحباً، لمّا رأى حربته ملتوية مثل قشة تبن. جندي ثانٍ، لا شك حديث الخدمة، لا تزال تفوح منه رائحة الحرث، يصير محمرّاً بشدة كلما سمع من ينعته بالوغد والمنحط. ولم يكفّ العنف، القبضات مرفوعة، والعبارات كريهة، حفنة من الاتهامات والتهديدات التي تصفع وجوههم. وقد لزمت كل قوة الأمر لجعلهم على تلك الصورة، الوجه أخرس، يلفه صمت الانضباط العسكري المتكبر والحزين.

بدا الصدام محتوماً، حينما رأى الناس رئيس العمال ريشوم يخرج من خلف الكتيبة، برأسه الأبيض، رأس رجل الشرطة المستقيم، وقد قلب التأثر كيانه. كان يتكلم بصوت عالٍ جداً.

«اللعنة، هذا سخف في نهاية المطاف! لا يمكن أن نسمح بمثل هذه الحماقات».

ورمى بنفسه بين الحِرابِ وعمّال المنجم.

«أيها الرفاق، أنصتوا إلي. تعرفون إني عامل قديم وإني أعتبر نفسي دوماً واحداً منكم. عجباً! اللعنة! أعدكم، إذا لم يتم التعامل معكم بعدل، أنا من سيفضح الزعماء وأكشف للعلن حقيقتهم. لكن الأمور زادت عن الحدّ، لا جدوى في الصراخ بكلام فاحش لهؤلاء الناس الطيبين وإرادة بقر المرء لبطنه».

كان الجمع يسمع، يتردّد. فوق، مع الأسف، ظهر من جديد الطيف الجانبي الحاد لنيغريل القصير. لا ريب أنه كان يخشى من اتهامه بإرسال رئيس العمال بدل المجازفة بنفسه؛ وحرص على الكلام. لكن طغى على صوته لغط من شدة رعبه لم يجد بُدّاً من مغادرة النافذة مرة ثانية بعد أن هزّ كتفيه ببساطة. ومن ذلك الحين، مهما توسّل إليهم باسمه، وكرّر أن ذلك يجب أن يجري بين الرفاق: فقد كان هناك من يدفعه، ويرتاب فيه. لكنه أصرّ، وبقي وسطهم.

«ويحاً لكم! فليُكسر رأسي معكم، لكني لن أدعكم، ما دمتم بكل هذا القدر من السخافة!».

ندّت عن إتيان إيماءة عجز بعد أن توسّل إليه بأن يُسمعهم صوت العقل. فات الأوان، عددهم الآن أكثر من خمسمائة فرد. لم يكن هناك فحسب من هاج هائجهم، الذين هرعوا لطرد أهل بورينـاج: وقف بعض من يروم الاطلاع على الأمر، وغيرهم من المهرجين الذين كانوا يتسلّون بالمعركة. وسط جماعة، على مبعدة، كان زكاري وفيلومين ينظران كمن ينظر إلى مسرحية، على قدر من السكينة حيث أحضرا معهما الطفلين، أشيل وديزيري.

كان سيل ثان قادماً من ريكيار، فيه موكي وموكيت: في الحال ذهب وهو يقهقه للتربيت على كتفي صديقه زكاري؛ بينما هي، المتحمسة، كانت تركض نحو الصف الأول من ألدّ الخصوم.

في تلك الآونة، ومع كل دقيقة، كان النقيب يلتفت صوب طريق مونسو. المدد المطلوب لم يصل، ورجاله السّتون لا يمكنهم المقاومة أكثر. وفي نهاية المطاف، خطر بباله أن يصيب خَيال الحشد، فأمر بشحن البنادق أمامه. امتثل الجنود للأمر العسكري، لكن الجلبة زادت، بحركات تبجح وسخرية.

«هاك! هؤلاء الكسالى، إنهم ذاهبون للصيد»! كانت النساء يقهقهن، برولي، لوفاكه والأخريات.

كانت ماهود تقترب أكثر، بصدرها الذي يحجبه جسد إستيل الصغير، التي استيقظت وأخذت تبكي، سألها النقيب ماذا جاءت تفعل ومعها ذلك الطفل المسكين.

«وما دخلك أنت؟»، أجابته، «ارمه بالرصاص، إن استطعت».

كان الرجال يحركون رؤوسهم بازدراء. لم يكن أحد يظن أن يتمّ رميهم بالرصاص.

«ليس هناك رصاص في جعابهم»، قال لوفاك.

«وهل نحن من فرسان القوقاز؟»، صاح **ماهو**، «لا يُرمَى الفرنسيون بالرصاص، بؤساً لكم!».

كان يردد آخرون أنهم لمّا شاركوا في حملة **القِرَم**، لم يخشوا الرصاص. ثم واصل الجميع الارتماء على البنادق. لو تمّ إطلاق النار في تلك اللحظة، لحصدت الحشد.

في الصّف الأول، كانت موكيت تختنق من شدة الغضب، وهي تظن أن الجنود أرادوا ثقب جلود النساء. مهما بصقت في وجوههم

كل كلامها الفاحش، لم تجد شتيمة فيها ما يكفي من السفالة، حينها، بغتة، وإذ لم تجد سوى الإساءة القاتلة لأن تخرج ريحاً على مرأى من الكتيبة، عرّت عجيزتها. بيديها الاثنتين، رفعت ثوبها، وأخرجت خاصرتيها إلى ما ورائها، ومدّت عجزها الضخم المدوّر.

«هاكم، هذا لأجلكم! إنه نقي جداً لا يزال، يا شرذمة الأنذال!»، كانت تنحني، تنقلب، تستدير حيث يكون لكل واحد منهم نصيب، وتعيد الكرّة مع كل دفعة ترسلها.

«هذا لأجل الضابط! هذا لأجل النقيب! هذا للعساكر!».

ارتفعت عاصفة من الضحك، كان بيبير وليدي يتلويان من شدة الضحك، إتيان بنفسه، رغم انتظاره المغموم، صفّق لذلك العري الطافح بالشتيمة. كان الجميع، يهرّجون وهائجون، يهتف ضد الجنود الآن، وكأنهم رأوهم وقد أصابهم وسخٌ من قذفٍ بعذِرة؛ وحدها كاترين، بمعزل، واقفة على ألواح خشب قديمة، من ظلت خرساء، الدم محبوس في الصدر، وقد اكتسحها ذلك الحقد الذي يشعر المرء بتصاعد حرارته.

لكن وقع تدافع. إذ كيما يهدّئ من روع رجاله، قرّر النقيب إلقاء القبض على بعض من الناس. بوثبة واحدة، أفلتت موكيت، برمي نفسها بين أرجل الرفاق. ثلاثة عمال، لوفاك واثنان آخران، تمّ القبض عليهم من بين اللّمة الأشد عنفاً، وحراستهم، في أقصى طرف من حجرة رؤساء العمّال.

من فوق، صاح نيغريل ودانسير بالنقيب بأن يدخل، ويغلق على نفسه معهما. لكنه رفض، كان يشعر أن تلك البنايات، ذات الأبواب

مـن غيـر أقفـال، سـوف تنهـار مـن شـدة الهجـوم، وأنـه سـيتعرض فيهـا للخـزي بتجريـده ومـن معـه مـن السـلاح. أصـلاً، كانـت سـريّته الصغيـرة تزمجـر مـن نفـاد صبرهـا، إذ لا يمكـن الهـروب مـن هـؤلاء البؤسـاء بنعالهـم الخشـبية. وقـام السـتون، المحاصـرون لصـق الجدار بمواجهـة العصبـة مـرة ثانيـة.

فـي البـدء، حـدث تراجـع، وصمـت شـديد. وغلـب علـى المضربيـن التعجـب مـن ذلـك التقلـب فـي ميـزان القـوى. ثـم تعالـت صيحـة، تطالـب بالمسـجونين، وإطـلاق سـراحهم علـى الفـور. هنـاك مـن قـال إنهـم يتعرضـون للقتـل فـي الداخـل. ومـن دون مشـاورة، وقـد حملهـم الانـدفـاع نفسـه، ركـض الجميـع إلـى ركـام الآجـر المجـاور، إلـى ذلـك الآجـر الـذي يسـتخرج طينـه مـن تـراب صلصـال، والـذي يُطبـخ فـي عيـن المـكان. كان الأطفـال يجرّونهـا واحـدة تلـو أخـرى، وتمـلأ بهـا النسـاء كسـوتهن. وسـرعان مـا أصبـح عنـد قدمَـي كل واحـد عتـاده، وبـدأت معركـة الحجـارة.

كانت برولي أوّل من اتخذ موقعه. تكسـر الآجر على رضفة ركبتها الهزيلـة، وبيدهـا اليمنـى، ثـم بيدهـا اليسـرى، تقـذف القطعتيـن معـاً. كانـت لوفـاكه تشـمّر ثـوب كتفيهـا، ومـن شـدة بدانتهـا، ورخاوتهـا، فقـد لزمهـا الاقتـراب للتصويـب علـى نحـو صحيـح، رغـم توسّـلات بوتلـو الـذي كان يجرهـا إلـى الخلـف راجيـاً أخذهـا معـه بعيـداً، الآن وقـد صـار الـزوج محجوبـاً. غلبهـن الحمـاس جميعهـن، أمـا موكيـت فكانـت تفضـل رمـي الآجـرة كاملـة لمّـا ضجـرت مـن دمهـا النـازف بفعـل كسـر الآجـر علـى فخذيهـا السـمينتين فـوق القـدر. بـل حتـى الغلمـان التحقـوا بالصـف، كان بيبيـر يـدل ليـدي علـى كيفيـة رمـي ذلـك، مـن

تحت المرفق. كان ذلك بمثابة وابل من الحجارة، راجمات ضخمة يسمع صوتها المكتوم. وبغتة، وسط جنّيات الجحيم، تبينت الأعين كاترين، رافعة قبضتيها في الهواء حاملة بدورها أنصاف آجر، وتقذف بها بكل ما في ذراعيها الصغيرتين من قوة. لم يكن في وسعها الإفصاح عن السبب، كانت تلهث، وتكاد تموت من الرغبة في ذبح الناس. أما آن لحياة الشقاء الملعونة هذه أن تنقضي سريعاً؟ لقد طفح بها الكيل، من أن يلطمها ويطردها رجل، من أن تخوض مثل كلب ضال في وحل الطرقات، ولا تستطيع حتى أن تسأل أباها حساء، هو الذي يستغرق وقته في بلع لسانه مثلها. لم يسبق قط أن تحسنت الأمور، بل إنها تزداد سوءاً منذ أن عهدت نفسها؛ وكانت تكسر الآجر، وترمي به قبالتها، وفي خاطرها فحسب أن تكنس كل شيء، ومن شدة عماء عينيها من فورة الدم الغاضب، فإنها لم تتبيّن من هشّمت فكّيه.

كاد ينشق رأس إتيان الذي ظلّ بمواجهة الجنود. صفّرت أذنه، التفَت، فزع لمّا أدرك أن الآجرة أتت من قبضتي كاترين المحمومة؛ وإن جازف بالتعرض للموت، فإنه لم ينصرف، بل لبث ينظر إليها. كثيرون غيره تحيَر بصرهم هناك، وقد أغوتهم المعركة، لا يصنعون شيئاً. كان موكي يحصي الضربات، وكأنه يشاهد لعبة السّدّادة: أوه! ذاك، أحسن التسديد! وذلك، لا حظ له! كان يهزل، ويدفع بمرفقه زكاري الذي كان يخاصم فيلومين، لأنه لطم أشيل وديزيري، برفضه حملها على ظهره حتى يتمكنا من المشاهدة. كان هناك متفرّجون، اجتمع بعضهم على بعض بعيداً، على طول الطريق. وفي أعلى المنحدر، عند مدخل المجمّع، ظهر العجوز

بونمور للتو، يدبّ على عكّازته، ثابت في مكانه الآن، منتصب في السماء المتصدئة.

منذ أول آجرة رُمي بها، وقف رئيس العمال من جديد بين الجنود وعمال المناجم. كان يتوسّل هؤلاء، ويناشد أولئك، غير آبهٍ بالخطر، ومن شدة يأسه كانت دموع غليظة تسيل من عينيه. لم يكن كلامه مسموعاً وسط الجلبة، كانت الأعين ترى فحسب شاربيه الرماديين الكثين وهما يرتعدان.

لكن وابل الحجارة صار أشد، إذ شارك الرجال، إسوة بالنساء.

حينذاك، فطنت ماهود إلى أن **ماهو** ظلّ في الخلف، ولم يكن في يديه شيء، والغمّ يلوح عليه.

«ماذا جرى لك، قل؟ هل أنت جبان؟ هل ستترك رفاقك يُقتادون إلى السجن؟ آه! لو لم أكن أحمل هذه الطفلة، لرأيت بأم عينك!».

إستيل التي تشبثت بعنقها وهي تصرخ، منعتها من اللحاق ببرولي والأخريات. ولمّا بدا لها أن زوجها لا ينصت، فقد دفعت إليه بقدمها آجراً بين ساقيه.

«ويحك! هلا أخذت هذا! هل يجب أن أبصق على وجهك أمام الملأ، حتى تقوى عزيمتك؟».

احمرّ وجهه بشدة، كسر الآجر ورمى بها. كانت تسلقه بلسانها، تدوّخه، تنبح خلفه كلمات قاتلة، وهي تخنق طفلتها على صدرها، بين ذراعيها المتشنجتين؛ وكان يمشي قُدماً، ألفى نفسه مقابلاً للبنادق.

تحت عاصفة الحجارة تلك، اختفت السريّة الصغيرة. من حسن الحظ، كانت الحجارة تصيب أعلى ما فوقهم، وغدا الحائط

كله ثقوب. ما العمل؟ للحظة، احمرّ وجه النقيب من فكرة أن يرجع، أن يُدبِر؛ لكن لم يعُد الأمر ممكناً، سيتم تقطيعهم إرباً عند أدنى حركة. عندها كسرت آجرة مُستظَل قبعته العسكرية، وسالت قطرات دم على جبينه. جُرِح الكثير من رجاله؛ وكان يحسُّ بأن ثائرتهم قد ثارت، من فطرة جموح للدفاع عن النفس، حيث يكفّ المرء عن طاعة رؤساءه. كان الرقيب قد لفظ عبارة «اللعنة»! وقد انخلعت كتفه اليسرى تقريباً، وسُلِخ جلدها بصدمة مكتومة، مثل ضربة عصا في الثياب. بعد خدشه لمرّتين، تهشم خنصر الجندي الحديث في الخدمة، وضاق ذرعاً من ألم مُحرقٍ في ركبته اليمنى: هل سوف نذعن للمتاعب طويلاً؟ ارتدّ حجر وأصاب العجوز المحنّك أسفل بطنه، اخضرت وجنتاه، ورجف سلاحه، وتمدد على طول ذراعيه الهزيلتين. ثلاث مرّات، كان النقيب على أهبة الأمر بإطلاق النار. كان الهلع يخنقه، صراع لا حدّ له من بضع ثوان اصطدم فيه بأفكار وواجبات، كل معتقداته بوصفه رجلاً وجندياً. زاد وابل الآجر ضعفين، ثم فتح فمه، كان سيصرخ: أطلقوا النار! حين انطلقت البنادق تلقاء نفسها، ثلاث طلقات في البداية، ثم خمساً، فدفعة كتيبة، وطلقة واحدة، بعد ذلك بمدة طويلة، في الصمت المطبق.

وعمّ الذهول. لقد أطلقوا النار، ظلّ الحشد الفاغر فاه مستغرباً، بلا حركة، غير مصدّق بعدُ. لكن تعالت صرخات تمزق نياط القلب، بينما زعق البوق وقفَ إطلاق النار. شاع ذعر شديد، ركضُ قطيعٍ يرمى بالرصاص، هروبٌ تائه وسط الوحل.

تهاوى بيبير وليدي أحدهما على الثاني، عند الطلقات الأولى الثلاث، أصيبت الصغيرة في الوجه، وثقب الصغير أسفل الكتف

الأيسر. لم تعد هي تتحرك، صريعة. أما هو فقد تحرك، وضمها بكلتا ذراعيه، في تخبط الاحتضار، كما لو أنه أراد أن يضمها مرة ثانية كما فعل في جوف المخبأ المظلم، حيث أمضيا ليلتهما الأخيرة. وجونلان، بالمناسبة، الذي كان قادماً في نهاية المطاف من ريكيار، وقد نفخه النوم، يعرج وسط الدخان، رآه يعانق امرأته الصغيرة، ويموت.

الطلقات الخمس الأخرى أصابت **برولي** ورئيس العمال **ريشوم**. أصيب في الظهر عندما كان يتوسّل الرفاق. سقط على ركبتيه؛ وزلق على وركه، كان يردد حشرجة على الأرض، وعيناه مغرورقتين بالدمع الذي بكاه. أما العجوز، الحلقوم مشقوق، خرّت هامدة تماماً وقعقعت كأنها حِمل أعواد يابسة، متمتمة لعنة أخيرة في غرغرة الدم.

لكن في ذلك الحين كنست نار الكتيبة الموقع، وحصدت على بعد مائة خطوة جماعات المتطفلين الذين كانوا يهزؤون بالمعركة. دخلت رصاصة فم موكي، فأسقطته على قفاه، مهشم الرأس، عند أقدام زكاري وفيلومين اللذين غطت قطرات حمر صغيريهما. في اللحظة نفسها، تلقّت موكيت رصاصتين في البطن. كانت قد رأت الجنود يضعون البنادق على الأكتاف، فانبطحت، عن فطرة، فطرة فتاة طيبة، قبالة كاترين وهي تصيح بها أن تأخذ حذرها؛ ثم صاحت صيحة عظيمة، واستلقت على خاصرتيها، وقد قلبها الاهتزاز. أسرع إتيان، أراد أن يُنهِضها، يحملها، لكن بإيماءة، قالت إن الأوان فات. ثم شهقت، ولم تكفّ عن التبسم لهذا ولتلك، كما لو أنها كانت فرحة برؤيتهما معاً، الآن وهي راحلة.

بدا أن كل شيء قد انتهى، اندثر إعصار الرصاص بعيداً جداً، حتى واجهات المجمّع، حينها انطلقت الطلقة الأخيرة، معزولة.

ماهو، الذي أصيب في قلبه، دار حول نفسه ثم سقط ووجهه في بركة ماء، مسود بالفحم.

انحنت **ماهود**، ببلاهة.

«إيه! يا صاحبي، انهض. ذاك لا شيء، قل؟».

ويداها في ضيق من حمل إستيل، لزمها أن تضعها تحت ذراعها، لتقلب رأس رجلها.

«تكلم إذن! أين تشعر بالألم؟».

كانت عيناه فارغتين، والفم يرغي بزبد مدموم. لقد أدركت أنه مات. وعليه، ظلت جالسة في الوحل، بنتها تحت ذراعها مثل رزمة، وهي تنظر إلى رفيقها، بحسّ متبلّد.

لم يعُد على الحفرة قيد. بحركته المتوترة، سحب النقيب ثم أعاد قبعته التي شقّها حجر؛ وظل محافظاً على صلابته الشاحبة في مواجهة مصيبة حياته؛ بينما كان رجاله يلقمون أسلحتهم، بوجوههم الخُرس. ورأت الأعين، عند نافذة المورد، نيغريل ودانسير والذعر على وجه كل منهما. كان سوڤارين خلفهما، تخط جبينه ثنية عريضة، كما لو أن مسمار فكرته الملحّة انطبع هناك، مهدِّداً. في الطرف الثاني من الأفق، على حافة النجد، لم يبرح بونمور مكانه، متكئاً بيد واحدة على عكازته، ويده الثانية على حاجبيه ليستبين في الأسفل، مقتل أهله. كان الجرحى يصرخون، والموتى يلفهم البرد في هيئات مكسورة، وقد طلاهم الوحل السائل لذوبان الجليد، تغطيهم، هنا وهناك بقع الفحم الحِبرية،

التي كانت تتجلى تحت أطراف الثلج المتسخة. وسط الجثامين الآدمية، الصغيرة تماماً، بما يلوح عليها من فقر وهزالها البائس، كانت هناك جثة ترومپيت، كومة لحم ميت، فظيع ويرثى له.

لم يُقتل إتيان. كان ينتظر دوماً جنب كاترين التي سقطت من تعب وهلع، حينما أفزعه صوتٌ مُصلصِل. كان ذاك القسّ **رانفيي**، العائد من قداس موعظته، وذراعاه مرفوعتان، بغضب نبيّ، يدعو على القتلة بأن يصيبهم غضب الرّب. كان يبشّر بعصر العدل، بالإبادة الوشيكة للبورجوازية بنار السماء، لأنها بلغت مبلغها في الجرائم من خلال قتل العمال ومحرومي هذا العالم.

القسم السابع

I

تـردد صـدى إطـلاق النـار فـي مونسـو حتـى باريـس علـى نحـو مثيـر. طيلـة أربعـة أيـام، عبّـرت كل صحـف المعارضـة عـن تذمرهـا، وبسـطت فـي الصفحـة الأولـى أخبـاراً فظيعـة: خمسـة وعشـرون جريحـاً، أربعـة عشـر قتلـى، فيهـم طفـلان وثـلاث نسـاء؛ وكان هنـاك السـجناء أيضـاً؛ وصـار **لوفـاك** بمثابـة بطـل، ويعـزى إليـه جـواب فيـه عظمـة القدامـى، ردّ بـه علـى قاضـي التحقيـق. كان الحكـم الإمبراطـوري، الـذي أصيـب فـي الصميـم جـراء تلـك الرصاصـات المعـدودة، يتظاهـر برباطـة جـأش السـلطة القاهـرة، ولا يـدرك بنفسـه خطـورة إصابتـه. كان ذلـك مجـرد تصـادم يؤسـف لـه، شـيء غابـر، هنالـك، فـي البلـد الأسـود، بعيـداً عـن الشـارع الباريسـي الـذي يصنـع الـرأي العـام. سـوف يُنسـى بسـرعة، إذ تلقـت الشـركة أمـراً غيـر رسـمي بطـيّ القضيـة والقضـاء علـى ذلـك الإضـراب الـذي صـارت مدتـه المثيـرة للسـخط خطـراً اجتماعيـاً.

لذلـك، بدايـة مـن صبـاح الأربعـاء، رأى النـاس وصـول ثلاثـة مـن الـوكلاء إلـى مونسـو. المدينـة الصغيـرة، التـي لـم تجـرؤ حتـى تلـك اللحظـة علـى الفـرح بالمجـزرة، القلـب عليـل، فقـد تنفّسـت الصعـداء وذاقـت طعـم الفـرح بإنقاذهـا فـي نهايـة المطـاف. وبالمناسـبة، فقـد تزيّنـت الأجـواء، شـمس سـاطعة، مـن أوائـل شـموس فبرايـر التـي بدفئهـا تخضـر ذوائـب اللّيلـك. أُنزِلت كل سـتائر الوكالـة، وبدت البنايـة الواسـعة كأنهـا تعـود إلـى الحيـاة؛ وتخـرج منهـا أفضـل الأصـوات، وقيـل إن أولئـك السـادة متأثـرون جـداً مـن المصيبـة، هرعـوا كيمـا

يستقبلوا بأذرع أبوية من هم في ضلال بالمجمّعات. الآن وقد جرى ما جرى، أكثر بدون شك مما كانوا يصبون إليه، فقد بالغوا في مهمتهم كمخلِّصين، وأعلنوا عن تدابير متأخرة وممتازة. أولاً، طردوا أهل بورنياج، وذلك بالتطبيل كثيراً لهذا التنازل الأقصى منهم لعمّالهم. ثم أوقفوا الاحتلال العسكري للحفر التي لم يعُد يهددها المضربون بعد سحقهم. هم أيضاً من فرض الصمت بخصوص اختفاء الحارس في لوفوروه: لقد فُتِّش عليه في البلد دون العثور لا على البندقية ولا على الجثة، وتم الإعلان عن اعتبار الجندي هارباً من الجندية، وإن حام الشك حول جريمة قتل. في كل الأمور، سعوا جهدهم للتخفيف من الوقائع، وهم يرتعدون خوفاً من القادم من الأيام، حيث اعتبروا أن هناك خطراً في الإقرار بوحشية الحشد التي لا تقاوم، حشد تُرِك طليقاً بين هياكل واهية من العالم القديم. ثم إن عمل المصالحة ذاك لم يمنعهم من التدبير الجيد للشؤون الإدارية الخالصة؛ إذ شاهد الناس عودة دونولان إلى الوكالة، حيث كان يلتقي السيد إينبو. وتواصلت المفاوضات من أجل شراء ڤاندام، وتم التأكيد بأنه قبَل عروض أولئك السادة.

لكن ما قلب البلد على الأخص، هو تلك المنشورات الصفر الكبيرة التي أمر الوكلاء بإلصاقها بكثرة على الجدران. كتبت فيها هذه الأسطر المعدودة: «عمّال مونسو، لا نريد للضلال، الذي رأيتم في الأيام الأخيرة عواقبه المحزنة، أن يُحرَم من وسائل العيش العمّال الذين سمتهم الرزانة والإرادة الحسنة. لذلك سنفتح ثانية جميع الحُفر صباح الإثنين وحينما يُستأنف

العمل، سوف نفحص بعناية وحدَب الأوضاع التي يمكن النظر فيها قصد تحسينها. سوف نقوم بكل ما هو صائب وممكن».

في صبيحة واحدة، مرّ عمال الفحم العشرة آلاف تباعاً أمام تلك المنشورات. لم يتكلم ولا واحد منهم، الكثير كان يهز رأسه، وآخرون ينصرفون بخطواتهم الوئيدة، دون أن تتحرك ثنية واحدة في وجوههم الساكنة.

حتى ذلك الأوان، أصر مجمّع 240 على مقاومته الشرّسة. الظاهر أن دم الرفاق الذي صبغ وحل الحفرة بالأحمر كان يمنع الآخرين من سلك دربها. بالكاد عشرة أفراد هم من نزل مرة ثانية. **پيرون** وحشرات على شاكلته، الذي كان يُرى ذاهباً وراجعاً والغم يلوح عليه، دون إيماءة ولا تهديد. وعليه، فقد تمّ استقبال منشور أُلصِق على الكنيسة بحذر مكتوم. لا يتمّ فيه الحديث عن الرخص المعادة: هل كانت الشركة ترفض استعادتها؟ والخوف من الاقتصاص، والفكرة النابعة من الأخوة بالاحتجاج ضد طرد الأشد تورطاً كانت تجعلهم كلهم يزدادون إصراراً. كان الأمر مريباً، ومن الواجب النظر فيه، سوف يرجعون إلى البئر، حينما يريد هؤلاء السادة النقاش صراحة. كان الصمت يسحق البيوت الواطئة، الموت في حدّ ذاته لم يعُد شيئاً، يمكن لهم أن يموتوا جميعاً، منذ أن عبر الموت العنيف السقوف.

لكن بيتاً من بين البيوت، بيت آل **ماهو**، عمّه على الأخص الظلام والخرس، تحت وطأة الحِداد. منذ أن رافقت زوجها إلى المقبرة، لم تعد **ماهود** تفرّج ما بين أسنانها. بعد المعركة، تركت لإتيان عناية إرجاع كاترين إلى البيت، مغطاة بالوحل، شبه

ميّتة؛ ولما كانت تجرّدها من لباسها أمام الرجل الشاب، كيما تمددها على الفراش، ظنت لحظة أن ابنتها، هي الأخرى، رجعت إليها برصاصة في البطن، لأن القميص كان ملطخاً ببقع واسعة من الدم. لكن سرعان ما أدركت أن ذاك سيل دم الحيض الذي فاض أخيراً، من هزّة ذلك اليوم المشؤوم. آه! حظ آخر، ذلك الجرح! يا لها من هدية جميلة، أن يستطيع المرء ولادة أطفال يقوم رجال الدرك بذبحهم في ما بعد! ولم تكن تكلم كاترين، ولا إتيان. فهذا الأخير كان ينام رفقة جونلان، مجازفاً بالقبض عليه، فزعاً حدّ الاشمئزاز من فكرة العودة إلى ظلمات ريكيار، التي كان يفضل السجن عليها: سرت فيه رعدة، رعب الليل عقب كل تلك الأموات، الخوف غير المفصح عنه من الجندي الصغير الراقد هنالك، تحت الصخور. فضلاً عن ذلك، كان يحلم بالسجن كأنه ملاذ، وسط مصيبة انهزامه؛ لكن لم يتم إزعاجه، كان يطوي ساعات بائسة، لا يدري في أي شيء يتعب جسمه. أحياناً، فقط، كانت **ماهود** تنظر إليهما معاً، هو وبنتها، بنظرة ملؤها الضغينة، وكأنها تقول لهما ماذا تصنعان في بيتي.

من جديد، الجميع يشخر متراكباً بعضه على بعض، الأب بونمور يشغل السرير القديم الخاص بالصغيرين، اللذين ينامان رفقة كاترين، الآن بعدما لم تعد الشقية **ألزير** تغرز حدبتها في أضلاع أختها الكبرى. حينما تهجع الأم للنوم، تشعر بفراغ البيت، من برودة فراشها الذي صار واسعاً جداً. من دون طائل كانت تضم إستيل كيما تملأ الفراغ ذلك لا يعوّض رجُلها؛ وكانت تبكي دون حسّ مدة ساعات. ثم عادت الأيام إلى جريانها كما في

السابق: دائماً دون خبز، دون أن يحظى المرء بالهلاك للمرة الأخيرة رغم ذلك؛ أشياء ملتقطة يمنة ويسرة، تعين البؤساء في جعلهم يدومون. لم يتبدل شيء في الوجود، ما ينقص هو رجلها، لا غير.

ظهيرة اليوم الخامس، غادر إتيان الحجرة بعد أن أحبطه مرأى تلك المرأة الصامتة ومشى بتؤدة على طول زقاق المجمّع المرصوف. كان التبطُّل الذي يثقل عليه يدفعه إلى نزهات متواصلة، ذراعاه متدليتان، الرأس مطأطأ، تعذبه الفكرة نفسها. هكذا كان يدوس الأرض منذ نصف ساعة، حينما أحسّ، بتزايد ضيقه، أن الرفاق كانوا يقفون عند الأبواب قصد رؤيته. النزر القليل الذي فضل من شعبيته ذهب مع ريح إطلاق النار، كلما مرّ لقي نظرات يتبعها لهبها. حينما رفع رأسه، كان هناك رجال فيهم تهديد، بينما تزيح النساء ستائر النوافذ الصغيرة؛ وفي ظلّ الاتهام الذي كان لا يزال مكتوماً، والغضب الكامن في تلك العيون المحدّقة، التي اتسعت من الجوع والدموع، كان يصير أخرق، وتضطرب مشيته. خلفه دائماً، يزداد العتاب المكتوم. ومن شدة ما خشي أن يسمع المجمّع بأكمله وقد خرج ليصرخ بؤسه في وجهه، فقد رجع، وهو يرتعد.

لكن، في بيت آل **ماهو**، قضى عليه المشهد الذي كان في انتظاره وقلب كيانه. كان العجوز **بونمور** جنب المدفأة الباردة، مسمراً على كرسيه، منذ أن وجده جاران على الأرض، يوم المقتلة، وعكازته مكسورة قطعاً، وقد سقط مثل شجرة عتيقة أصابتها صاعقة. وبينما كانت لينور وهنري يقشران بضوضاء قعر مقلاة

قديمـة طبـخ فيهـا ملفـوف مـن قبـل يـوم، لمراوغـة جوعهمـا، فـإن **ماهود**، كانـت واقفـة، منتصبـة القامـة تمامـاً، بعـد أن وضعـت **إستيل** علـى الطاولـة، تهـدد بقبضتهـا كاتريـن.

«أعيدي قليلاً، الويل لك! أعيدي ما قلتِ آنفاً!».

كانـت كاتريـن قـد أفصحـت عـن نيتهـا فـي العـودة إلـى لوفـوروه. فكـرة ألّا تكسـب قـوت يومهـا، أن تقبـل بهـا أمهـا علـى ذلـك النحـو، كأنهـا دابّـة تثقـل الكاهـل ولا طائـل منهـا، أصبحـت كل يـوم فكـرة لا تطـاق؛ ولـولا خوفهـا مـن أن تتعـرض للضـرب علـى يـد شـافال، لنزلـت مـن جديـد بدايـة مـن يـوم الثلاثـاء. اسـتأنفت كلامهـا متلعثمـة:

«مـاذا تريديـن؟ لا يمكننـا العيـش دون فعـل أي شـيء. سـنوفر خبـزاً، علـى الأقـل».

قاطعتها ماهود.

«لـو ذهـب أحدكمـا إلـى العمـل، لقتلتـه. آه! كلّا، سـتكون تلـك ضربـة شـديدة، قتـل الأب، وبعـد ذلـك مواصلـة اسـتغلال الأبنـاء! لقـد طفـح الكيـل، أفضـل أن أراكـم جميعـاً وقـد حُمِلتـم علـى نعـش، مثـل ذاك الـذي رحـل مسـبقاً».

وبغضـب عـارم، انفجـر صمتهـا الطويـل سـيلاً مـن الكلمـات. يـا لـه مـن تقـدم، ذلـك الـذي سـتحمله لهـا كاتريـن! بالـكاد ثلاثيـن فلسـاً، التـي يمكـن أن تضـاف إليهـا عشـرين فلسـاً، إذا تفضَّـل الرؤسـاء بـأن يجـدوا شـغلاً لذلـك اللـص جونـلان. خمسـون فلسـاً لإطعـام سـبعة أفـواه! الصغـار لا يصلحـون لشـيء سـوى بلـع الحسـاء. أمـا الجـد، لا محالـة أن شـيئاً فسـد فـي مخـه، عندمـا سـقط، إذ يبـدو أبلـه؛ مـا لـم يكـن مصدومـاً بشـدة، لأنـه شـهد الجنـود يطلقـون النـار علـى الرفـاق.

«أليس كذلك؟ يا عجوز، لقد دمروك تماماً. مع أن قبضتك لا تزال شديدة، فأنت ميؤوس منك».

كان بونمور ينظر إليها بعينيه الكابيتين، ولا يدرك قولها. يظل ساعات ونظره شاخص، ولا يملك شيئاً غير فطنة البصق في صحن به رماد، موضوع جنبه، حفاظاً على النظافة.

«ولم يسووا معاشه»، تابعت كلامها، «وأنا على يقين من أنهم سوف يرفضونه بسبب أفكارنا. كلا! أقول لكما، لقد طفح الكيل، من أصحاب النحس هؤلاء!».

«لكن»، جازفت كاترين قائلة، «إنهم يتعهدون في المنشور... ».

«هلا ابتعدتِ عني أنت ومنشوركِ! ذلك فخ للإيقاع بنا وأكلنا. في وسعهم التظاهر بأنهم لطفاء، الآن بعد أن طعنوا أجسادنا».

«لكن يا ماما، أين سنذهب إذن؟ لن يتركونا في المجمّع بالتأكيد».

بدرت من **ماهود** إيماءة غامضة مخيفة. أين سيذهبون؟ لا علم لها، كانت تتجنب التفكير في الأمر، فذلك يصيبها بالجنون. سيرحلون، إلى مكانٍ ما. وبما أن صوت المقلاة أصبح لا يطاق، فقد صبّت جام غضبها على لينور وهنري وصفعتهما. وزاد اللغط بسقطة إستيل وهي تحبو. أسكتتها بوَكزِ جنبها: يا لها من صفقة جيدة لو أنها ماتت من سقطتها! تكلمت عن ألزير، وكانت ترجو للآخرين حظها. ثم، بغتة، بكت بحرارة، ورأسها مسند إلى الجدار.

كان إتيان واقفاً، لا يجرؤ على التدخل. لم يعُد له اعتبار في البيت، حتى الأطفال كانوا يهربون منه، بارتياب. لكن دموع تلك الشقية أوجعت قلبه، همس قائلاً:

«هيّا، هيّا، شيء من الشجاعة! سوف نسعى لتجاوز المحنة».

بدا أنها لا تسمعه، إذ صارت تشكو الآن، شكوى خفية الصوت، مسترسلة.

«آه، يا للشقاء، أوَ هذا ممكن؟ كانت الأمور تسير، قبل تلك الفظائع. نأكل خبزنا اليابس، لكن كنا جميعاً معاً. ماذا جرى إذن يا إلهي! ماذا صنعنا إذن، حتى نكون بهذا القدر من الحزن، البعض تحت التراب، وآخرون لا رغبة لهم سوى في أن يلحقوا بهم هناك؟ صحيح أنه كان يتم ربطنا مثل جياد للقيام بالشغل، ولم يكن ذلك عادلاً، عند القسمة، أن نحصل على الضرب بالعصيّ، ونثمر دوماً مال الأثرياء، دون رجاء أبداً في أن نتذوق طعم الأشياء الجميلة. ذهبت لذة العيش حين ذهب الرجاء. أجل، لم يكن في الوسع أن يطول ذلك أكثر، وجب أن يتنفس الناس قليلاً. لو أننا علمنا كيف! هل من الممكن أننا جعلنا من أنفسها أشقياء بكل هذا القدر لأننا ابتغينا العدل!».

امتلأ صدرها تأوّهاً، واختنق صوتها في حزن لا حدّ له.

«ثم، هناك محتالون هنا دوماً، كيما يعدوكم أن الأمر قد يصير على ما يرام، إن نحن تكبدنا العناء فحسب. ونبالغ في القلق، من شدة ما نعاني مما هو موجود، فإنا نطلب ما لا يوجد. أنا، كنت أحلم مسبقاً مثل بهيمة، كنت أرى حياة من الصداقة الطيبة بين جميع الناس، لقد حلّقتُ في الهواء، صدقوني! فوق السحاب. فنكسِرُ ضلوعنا، بالسقوط في القذارة. لم يكن الأمر صحيحاً، لم يكن هنالك شيء من تلك الأمور التي كنا نتخيل رؤيتها. لم يكن هنالك سوى البؤس، آه! القدر الذي نريد من البؤس، ورصاص البنادق فوق ذلك!».

كان إتيـان يصغـي إلـى هـذا البـكاء الـذي كانـت كل دمعـة منـه تصيبـه بالحسـرة. لـم يـدرِ مـا يقـول كيمـا يهـدئ ماهـود، المنكسـرة تمامـاً، بسـقطتها الرهيبـة، مـن فـوق المثـل الأعلـى. عـادت إلـى الحجـرة، كانـت تنظـر إليـه، الآن؛ وهـي ترفـع الكلفـة بينهمـا، بصرخـة اغتيـاظ أخيـرة:

«وأنـت، هـل تقـول أيضـاً إنـك سـترجع إلـى الحفـرة، بعـد أن ألقيـت بنـا جميعـاً فـي تلـك المعمعـة؟ أنـا لا أعاتبـك علـى شـيء. لكـن فحسـب، لـو كنـتُ مكانـك، لكنـت ميتـة أصـلاً مـن الحـزن، لأنـي أسـأت إلـى الرفـاق بـكل ذلـك القـدر».

أراد أن يجيـب، لكنـه هـزّ كتفيـه، محبطـاً: مـا فائـدة تقديـم تفسـيرات، لـن تفهمهـا، وهـي مفجوعـة؟ ولأنـه تعـذب بمـا يفـوق القـدر، فقـد انصـرف، وعـاد إلـى سـيره التائـه، فـي الخـارج.

هنـا أيضـاً، ألفـى المجمّـع الـذي بـدا أنـه ينتظـره، الرجـال عنـد الأبـواب، النسـاء عنـد النوافـذ. مـا أن ظهـر، سـرت زمجـرة، تفاقـم الحشـد. هبـت ريـح قيـل وقـال واشـتدت، منـذ أربعـة أيـام، ودوّت بلعنـة شـاملة. قبضـات أيـد كانـت تمتـد نحـوه، وتـدل أمهـات أطفالهـا عليـه بحركـة ملؤهـا الضغينـة، كان شـيوخ يبصقـون وهـم ينظـرون إليـه. كان ذلـك هـو الانقـلاب غـداة الهزيمـة، الانقـلاب المحتـوم للشـعبية، بغـض يعبّـر عـن ضيقـه مـن كل العذابـات التـي أصابـت النـاس دون نتيجـة. إنـه يـؤدي مقابـل الجـوع والمـوت.

قـام زكاري، القـادم مـع فيلوميـن، بدفـع إتيـان لمّـا كان هـذا الأخيـر خارجـاً. وقهقـه بشراسـة.

كانت لوفاكه قد خطت قدماً عند بابها، رفقة بوتلو. وتكلمت عن بيبير، صبيّها المقتول برصاصة، صرخت:

«أجل، هناك جبناء يجعلون الأطفال يُذبحون. فليذهب ويأتي لي بطفلي من التراب، إن أراد أن يعيده إلي!».

كانت تنسى رجلها السجين، فبيت الزوجية لم يتعطل، ما دام بوتلو ظلّ هناك. ومع ذلك، عاودتها الفكرة، وتابعت بصوت حاد:

«انصرف إذن! الأنذال هم الذين يتجولون بينما الناس الفضلاء يعيشون في الظل!».

وحتى يتجنبها، وقع إتيان في بييرونه التي هرعت بين الحدائق. لقد استقبلت موت أمها كأنه خلاص، لأن تصرفاتها العنيفة كانت ستؤدي بهم إلى المشنقة؛ ولم تكن تبكي قط صغيرة بييرون، تلك الوقحة ليدي، بئس المصير. لكنها انضمت إلى الجارات، طمعاً في الصّلح.

«وأمي، قل؟ والصّبيّة؟ لقد رآك الناس، كنت تختبئ خلفهما، حينما تمزقتا بالرصاص مكانك!».

ما العمل؟ يخنق بييرونه والأخريات، يعارك المجمّع؟ استبدت الرغبة بإتيان في فعل ذلك. كان الدم يغلي في رأسه، وصار ينعت الرفاق الآن بالأوباش، ويغتاظ من كونهم بلا فطنة، متوحّشين، إلى حدّ مؤاخذته على ما جرى من وقائع. يا للبلاهة! شعر بالغثيان من عجزه على ترويضهم من جديد؛ واكتفى بالإسراع في الخطو، وكأن به صمماً لا يسمع الشتائم. وسرعان ما أضحى الأمر هروباً، كل بيت يهتف به عند مروره، والناس يصرّون على تعقبه، كان شعب بأكمله يلعنه بصوت مجلجل شيئاً فشيئاً، وقد فاض ما في

الصدور من حقد. أضحى هو، المستغِل، القاتِل، السبب الوحيد في شقائهم. غادر المجمّع، مصفرّ الوجه، مذعوراً، يعدو، وتلك العصبة المولولة خلف ظهره. وفي الأخير، على الطريق، تركه الكثيرون، لكن بعضهم أصرّ، حينما صادف، أسفل المنحدر، قبالة لافانتاج، جماعة أخرى، خارجة من لوفوروه.

كان مُوك العجوز وشافال هناك. منذ وفاة بنته موكيت، وولده موكي، تابع العجوز عمله بوصفه سائساً، دون عبارة حسرة أو شكوى. بغتة، حين رأى إتيان، هزّه سخط عارم، انهمرت دموع من عينيه، وتفجّر سيلُ كلمات بذيئة من فمه المسودّ والمدموم، من فرط مضغه التبغ.

«حقير! خنزير! قبيح الخلق والخلقة! تمهّل، عليك أن تؤدي حق ولدَيّ الوغدين المسكينين، يجب أن نقتص منك!».

التقط آجرة، كسرها، وقذفه بالقطعتين.

«أجل، أجل، فلنضربه!»، صاح شافال، الذي كان يقهقه، وهو متحمّس كثيراً وفرح بذلك الانتقام، «لكل دوره. ها أنت ملزق بالحائط، أيها المتهتك القذر!».

وهجم بدوره على إتيان، قذفاً بالحجارة. وعلا صياح موحش، التقط الجميع آجراً، وكسروه وقذفوا به، لبقر بطنه، كما أرادوا بقر بطون الجنود. وهو دائخ، لم يعُد يهرب، كان يواجههم، ساعياً إلى تهدئتهم بالكلام. خُطَبه السابقة، التي كانوا يصفقون لها بحرارة في ما مضى، صعدت إلى شفتيه. كان يكرر الكلمات التي أسكرهم بها، في ذلك الأوان الذي كان يمسك بهم في يده، مثل قطيع وفيّ؛ لكن سلطته هلكت، وحدها الحجارة كانت تردّ عليه؛

وأصيب بجرح في ذراعه الأيسر، تراجع، في خطر شديد، حين ألفى نفسه محاصراً بواجهة حانة لافانتاج.

لحظة من ذي قبل، كان راسنور عند عتبة بابه.

«ادخل»، قال ببساطة.

كان إتيان متردداً، إذ كان يختنق من فكرة اللوذ بذلك المكان.

«هيا ادخل، سوف أكلّمهم».

أذعن، اختبأ في أقصى القاعة، بينما الحانيّ يحبس الباب بمنكبيه العريضين.

«هيّا، يا أصدقائي، حكّموا عقولكم. تعلمون جيداً أنه لم يسبق لي أن خدعتكم. دائماً مع الهدوء، ولو أنكم أصغيتم إلي، ما وصل بكم الحال إلى ما أنتم عليه، بكل تأكيد».

وهو يتمايل بكتفيه وبطنه، تابع لمدة طويلة، وأفسح لدفق فصاحته السّلسة، لها عذوبة ماء فاتر تهدئ الروع. وعاد إليه نجاحه الماضي بأكمله، مستردّاً شعبيته دون كدّ، طبعاً، كما لو أن الرفاق لم يهتفوا به واصفين إياه بالجبان، شهراً من ذي قبل. كانت هناك أصوات توافقه: «حسن جداً! لقد كنّا معه! ها كيف يجب الكلام!»، دوّت تصفيقات مثل الرعد.

في الخلف، خارت قوى إتيان، وغرق قلبه في المرارة. كان يتذكّر نبوءة راسنور، في الغابة، حينما هدّده بالحشود الجاحدة. يا لها من شراسة بلهاء! يا له من نسيان ممقوت للخدمات المبذولة! كانت تلك قوة عمياء تلتهم نفسها على الدوام. وفي غضبه من مشاهدة أولئك الأوغاد يفسدون قضيتهم، يكمن اليأس الحاصل من انهياره الشخصي، من نهاية طموحه المأساوية. وماذا! هل

انتهى الأمر مسبقاً؟ كان يتذكر أنه، في ظلال أشجار الزّان، سمع ثلاثة آلاف صدر يخفق لصدى صدره. ذلك اليوم، أمسك شعبيته بين يديه، ذلك الشعب كان في ملكه، وشعر بأنه سيّد عليه. كانت أحلام مجنونة تُسكِره آنذاك: مونسو عند قدميه، باريس هنالك، نائب برلماني ربما، يصعق البورجوازيين بخطابه، أول خطاب يلقيه عامل من منبر البرلمان. وانتهى الأمر! صحا من غفوته، بائساً وممقوتاً، ها هو شعبه يطرده قذفاً بالحجارة.

علا صوت راسنور:

«لم يسبق قط أن أفلح العنف، لا يمكن أن نعيد خلق العالم في يوم واحد. الذين وعدوكم بتغيير كل شيء دفعة واحدة هم هازلون أو أنذال».

«مرحى لك! مرحى لك!»، صاح الحشد.

من المذنب إذن؟ وهذا السؤال الذي كان يطرحه إتيان على نفسه، أثقل كاهله بما لا يزيد من الثقل. في حقيقة الأمر، هل تلك غلطته، تلك التعاسة التي ينزف منها هو نفسه، أولئك النسوة، والأطفال، المصابين بالهزال، ولا خبز لديهم؟ كان قد رأى تلك الرؤيا الشجيّة ذات مساء، قبل حدوث المصائب. لكن قوة كانت تهزّه مسبقاً، ويلفي نفسه محمولاً مع الرفاق. ثم، لم يسبق قط أن سيّرهم، هم الذين كانوا يسوقونه، يجبرونه على القيام بأشياء ما كان له أن يقوم بها، لولا جلبة تلك الانتفاضة المندفعة خلفه. مع كل عنف بقي مذهولاً من الأحداث، لأنه لم يتوقع ولم يشأ أي منها. هل كان في وسعه مثلاً توقع أن يقوم خلصاؤه في المجمّع برجمِه ذات يوم؟ هؤلاء المسعورون كاذبون

حين يتهموه بأنه وعدهم بحياة يتكاثر فيها الأكل والكسل. وفي ما يحتج به، في البراهين التي كان يسعى بها إلى مقاومة حسراته، كانت تضطرب حيرته المكتومة من كونه لم يظهر في مستوى مهمته، ريبة شبه العالِم تلك التي كانت تشغل باله دوماً. لكنه كان يشعر بأنه فقد كل عزمه، بل لم يعُد على قلب واحد مع الرفاق، صار يخافهم، يخاف كتلة الشعب تلك الضخمة، العمياء والتي لا تقاوم، التي تمر مثل قوة من قوى الطبيعة، تكنس كل شيء، بعيداً عن القواعد والنظريات. جعله الاشمئزاز ينفصل عنها شيئاً فشيئاً، ضيق أذواقه المهذّبة، الصعود البطيء لكل كينونته نحو طبقة أعلى.

في تلك اللحظة، غاب صوت راسنور وسط صيحات غضب شديدة الحماس.

«عاش راسنور! ليس هناك سواه، مرحى له، مرحى له!».

أغلق صاحب الحانة الباب، بينما تفرّق الحشد؛ ونظر الرجلان إلى بعضهما في صمت. هزّ كل منهما كتفيه. وانتهى بهما الأمر إلى شرب كأس معاً.

في اليوم نفسه، شهدت پيولين عشاء كبيراً فيه تمّ الاحتفال بخطوبة نيغريل وسيسيل. منذ اليوم السابق، أمر آل غريغوار بتلميع بلاط قاعة الطعام ومسح غبار قاعة الجلوس. كانت ميلاني هي سيدة المطبخ، تراقب المشويات، وتقلب أصناف المرق التي كانت روائحها تصعد حتى السقف حيث الأكداس. لقد تقرر سابقاً أن يقوم الحوذي فرانسيس بمساعدة أونورين في خدمة الضيوف. وكان على البستانية أن تغسل الأواني، ويفتح

البستاني البوّابة. لم يسبق قط لمثل هذا الحفل أن قلب البيت الأبوي الكبير الميسور.

مرّ كل شيء على أحسن ما يرام. أظهرت السيدة إينبو الودّ لسيسيل، وابتسمت في وجه نيغريل، حينما قام محامي مونسو، بلباقة، واقترح أن يشرب الحضور من أجل سعادة الزوجين المقبلين. كان السيد إينبو ودوداً جداً هو كذلك. لقد باغت مظهره الضاحك الضيوف، وشاع خبر بأنه حظي بعطف الوكالة، وقريباً سوف يصبح ضابطاً في جوقة الشرف، نظراً للطريقة الحازمة التي قمع بها الإضراب. تحاشى الحاضرون الكلام عن الأحداث الأخيرة، لكن كان ثمة نصرٌ في الفرح العام، وصار العشاء احتفالاً رسمياً بالنصر. أخيراً، كان الخلاص، وعاد المرء للأكل والنوم في سلام! وتم التلميح خفية إلى الأموات الذين بالكاد امتصّ وحل لوفوروه دمهم: كانت تلك عبرة ضرورية، وتعاطف الجميع، حينما أضاف آل غريغوار أن واجب كل واحد الآن هو الذهاب لتضميد الجراح في المجمّعات السكنية. أما هم، فقد رجعوا إلى دعَتهم المُحسِنة، وعذروا عمالهم بالمنجم الأخيار، الذين يخالونهم أصلاً في جوف الحُفر، يقدمون المثال الحسن عن الإذعان الأزلي. اتفق أعيان مونسو، الذين فارقهم الخوف، على أن مسألة الأجور تتطلب دراسة حذرة. لمّا حضر الشواء، بات النصر تاماً، عندما قرأ السيد إينبو رسالة من الأسقف فيها يعلن هذا الأخير عن نقل القس رانفيي. وأخذت برجوازية الإقليم كلها تبسط رأيها بشغف في شأن ذلك الراهب الذي كان ينعت الجنود بالقتلة. وحينما ظهرت أطباق الحلوى، اتخذ المحامي بكل حزم هيئة مفكر حرّ من كل القيود.

كان دونولان هناك، رفقة ابنتيه. في غمرة تلك المسرّة، يسعى جهده لحجب كآبة إفلاسه. في الصباح ذاته، كان قد وقّع على بيع احتكاره منجم ڤاندام لشركة مونسو. استسلم لمطالب الوكلاء، بعد محاصرته وذبحه، وتخلى لهم أخيراً عن تلك الفريسة التي كانوا لها بالمرصاد منذ أمد طويل، وقد استخلص منه بالكاد المال اللازم قصد ردّ ديونه. بل إنه قبِل عرضهم، بمثابة حظ سعيد، للاحتفاظ به برتبة مهندس قسم، مذعناً للعمل أجيراً في حراسة تلك الحفرة التي ملأها من ماله. كان ذلك إيذاناً بنهاية المقاولات الشخصية الصغيرة، الاندثار الوشيك لأرباب العمل، الذين يأكلهم واحداً تلو الثاني ذلك الغول، الرأسمال الجائع على الدوام، الغارقون في بحر الشركات الكبرى المتلاطم. هو وحده من يؤدي ثمن الإضراب، كان يشعر بأنهم يشربون نخب مصيبته، عند شربهم نبيذ **روزيت** من السيد إينبو؛ ولم يجد شيئاً من المواساة إلا في حسن الجسارة التي أبانت عنها لوسي وجان، المليحتان في ملابسهما المُرتقّة، تسخران من المحنة بوصف كل منهما فتاة حسناء تتشبه بالفتيان، وتزدري المال.

حينما انتقل الضيوف إلى قاعة الجلوس لشرب القهوة، أخذ السيد غريغوار قريبه على انفراد وهنّأه على قراره الشجاع.

«لا مفر؟ غلطتكَ الوحيدة أنك جازفت في ڤاندام بمليون سهمك في مونسو. لقد تكبدت عناء شديداً، وها هو قد ذاب في شغل الكلاب ذاك، بينما سهمي، الذي لم يتحرك من الرّف، لا يزال يطعمني بكل حكمة ولا أصنع شيئاً، مثلما أنه سوف يطعم أبناء أحفادي».

II

يوم الأحد، هرب إتيان من المجمّع، ما أن هبط الليل. كانت سماء صافية جداً، كثيرة النجوم، تضيء الأرض بنور مَغيب أزرق. نزل صوب القناة، تبع الضفة ببطء وهو يصعد جهة مارشيين. كانت تلك نزهته المفضلة، دربٌ يكسوه النّجيل مسافة ميلين، يجري مستقيماً، على طول ذلك الماء المنعطف، المنبسط مثل لُجَين ذائب لا نهاية له.

لم يسبق قط أن صادف فيه أحداً. لكن، في ذلك اليوم، انزعج حينما رأى رجلاً مقبلاً نحوه. وفي ظلّ ضوء النجوم الشاحب، لم يتبين المتنزهان المنفردان بعضهما إلا وجهاً لوجه.

«هاك! هذا أنت»، همس إتيان.

هزّ سوفارين رأسه ولم يحر جواباً. لبثا لحظة جامدين في مكانهما؛ ثم انطلقا نحو مارشيين جنباً لجنب. وبدا أن كلاً منهما مستغرق في تأملاته، وكأن أحدهما بعيد جداً عن الثاني.

«هل رأيت في الصحيفة نجاح **بلوشار** في باريس؟»، سأله إتيان في نهاية المطاف، «انتظره الناس على الرّصيف، وصفقوا له مرحّبين، عند الخروج من اجتماع بيلفيل ذاك. أوه! وها هو قد انطلق، رغم زكامه. وسيذهب إلى حيث يشاء، من هذا الحين».

نفض عامل الآلة كتفيه. كان يتميز باحتقار المتشدّقين، علوج يدخلون السّياسة مثلما يدخل المرء إلى مكتب، لكسب رزقه، من فرط الكلام.

الآن، أصبح إتيان مهتماً بداروِين. لقد قرأ منه بعض المقتطفات الملخّصة والميسّرة في كتاب بخمسة فلوس؛ ومن

هـذه القـراءة غيـر المفهومـة تمامـاً، كـوّن فكـرة ثوريـة عـن الصـراع مـن أجـل الوجـود، الهزيـل يـأكل السّمين، الشـعب القـوي وهـو يلتهـم البرجوازيـة الشـاحبة. لكـن سـوڤارين ركـب هـواه، واسـتطرد حـول بـلادة الاشـتراكيين الذيـن يقبلـون دَارويِـن رائـد اللامسـاواة العلميـة، الذي لا يستحسـن انتقاءه المشـهور سـوى الفلاسـفة الأرسـتقراطيون. وفـي تلـك الأثنـاء، ركـب الرفيـق رأسـه، وشـاء أن يتفلسـف، والتعبيـر عـن شـكوكه بافتـراض: لـم يعُـد المجتمـع القديـم موجـوداً، وقـد تـمّ كنسـه حتـى الفتـات؛ عجبـاً، أليـس هنـاك خـوف مـن أن ينشـأ العالـم الجديـد وهـو متعفـن ببطء مـن أصنـاف الظلـم نفسـه، هـذا سـقيم، وذاك سـليم معافـى، هـذا أضبـط وأفطـن، يُسـمِّن بدنـه مـن كل شـيء، ذاك أبلـه وكسـول، وقـد صـار عبـداً مـن جديـد؟ إذن، أمـام رؤيـا البؤس الأبـدي هـذه صـاح عامـل الآلـة بصـوت أشـدّ، بأنـه إذا لـم يكـن العـدل ممكنـاً مـع الإنسـان، وجـب أن ينـدثـر الإنسـان. كل ذلـك القـدر مـن المجتمعـات الفاسـدة، ومـن المجـازر، حتـى إدانـة آخـر مخلـوق. وعـمّ الصمـت مـن جديـد.

لمـدة طويلـة، ورأسـه مطـرق، مشـى سـوڤارين علـى العشـب الرقيـق، ومـن شـدة مـا كان مسـتغرقاً فقـد كان يتابـع أقصـى حافـة المـاء باليقيـن السـاكن لرجـل نائـم، يحلـم علـى طـول البلاليـع. ثـم فـزع دون سـبب، وكأنـه اصطـدم بطيـف. رفـع عينيـه، وظهـر وجهـه، شـاحباً جـداً؛ ثـم قـال بلطـف لصاحبـه:

«هل قصصتُ عليك كيف ماتت؟».

«من هي؟».

«زوجتي، هناك، في روسيا».

مكتبة
t.me/soramnqraa

نـدّت عـن إتيـان إيمـاءة غامضـة، وقـد اسـتغرب مـن رعـدة الصوت، مـن تلـك الحاجـة المباغتـة للبـوح، عنـد ذلـك الفتـى متبلّـد الحـسّ فـي العـادة، فـي انعزالـه الصَـارم عـن الآخريـن وعـن نفسـه. كان يعلـم فحسـب أن المـرأة كانـت خليلـة، وتـم شـنقها، فـي موسـكو.

«لـم يفلـح الأمـر»، حكـى سـوفارين، وعينـاه تائهتـان الآن فـي أفـق القنـاة الأبيـض، بيـن أعمـدة الأشـجار الباسـقة المائلـة للزرقـة، «كنـا قـد لبثنـا أربعـة عشـر يومـاً داخـل حفـرة، ونحـن نضـع الألغـام فـي مسـلك السـكة الحديديـة؛ لـم يكـن القطـار الإمبراطـوري، بـل قطـار مسـافرين هـو الـذي انفجـر. لذلـك، تـمّ القبـض علـى **أنوشكا**. كانـت تحضـر لنـا الخبـز كل مسـاء، متنكّـرة فـي زيّ قرويـة. كانـت هـي أيضـاً مـن أشـعل الفتيـل، حيـث كان مـن الممكـن أن يثيـر رجـل الانتبـاه. لقـد تابعتُ المحاكمـة، مختبـأ وسـط الحشـد، مـدة سـتة أيـام طويلـة...».

اضطرب صوته، واستبدّت به نوبة سعال وكأنه كان يختنق.

«لمرّتيـن، اسـتحوذت علـيّ الرغبـة فـي أن أصـرخ، وأنطلـق فـوق الـرؤوس، قصـد اللحـاق بهـا. لكـن مـا الجـدوى مـن ذلـك؟ رجـل ناقـص هـو جنـدي ناقـص؛ وكنـت أتبيّـن حقـاً بأنهـا كانـت تقـول لـي «لا» بعينيهـا الواسـعتين المحدّقتيـن حينمـا كانـت تصـادف عينـيَ».

سعل مرة أخرى.

«فـي آخـر يـوم، بالسـاحة، كنـتُ هنـاك. كان المطـر يهطـل، والذيـن يعوزهـم الحـذق يفقـدون صوابهـم، وقـد أزعجهـم المطـر المنهمـر. وقـد اسـتغرق منهـم شـنق أربعـة آخريـن عشـرين دقيقـة: كان الحبـل ينقطـع، ولـم يسـتطيعوا الإجهـاز علـى الرابـع. كانـت أنوشـكا واقفـة تمامـاً، تنتظـر. لـم تكـن ترانـي، كانـت تبحـث عـن وجهـي وسـط

الحشد. صعدتُ حجراً، فرأتني، ولم تجِد عيوننا عن بعض. حينما ماتت، كانت تنظر إليّ دوماً. لوّحتُ بقبعتي، ثم رحلتُ».

وخيّم الصمت من جديد. ينبسط الممشى الأبيض، ممشى القناة، إلى ما لا نهاية له، وكانا يسيران معاً بالخطوة المخنوقة ذاتها، وكأن كلا منهما وقع من جديد في شرك عزلته. في أقصى الأفق، بدا أن الماء الشاحب فتح في السماء كوة ضوء رقيقة.

«كان ذلك عقابنا»، تابع سوفارين بشدة، «كنا مذنبَين بحبنا لبعض. أجل، من الأحسن أنها ماتت، سوف يولد من دمها أبطال، وأنا، لم يعُد في قلبي جبن. آه! لا شيء، لا أبوين، لا زوجة ولا صديق! لا شيء يجعل اليد ترتعش، يوم يجب علي قبض حياة الآخرين أو منح حياتي!».

توقف إتيان، وهو يرتعد، في الليل المريح. لم يجادل، بل قال فحسب:

«لقد ابتعدنا، هلا أردت أن نرجع؟».

رجعا صوب لوفوروه، ببطء، وأضاف، بعد خطوات معدودة:

«هل رأيت المنشورات الجديدة؟».

كانت عبارة عن إعلانات صُفر كبيرة ألصقتها الشركة أثناء الصباح. فيها تبدو أشد وضوحاً وصُلحاً، وتتعهد بتسلم الرخص من عمال المنجم الذين سينزلون من جديد في اليوم التالي. سوف يتمّ نسيان كل شيء، والصفح معروض حتى على الأشد تورّطاً.

«أجل، لقد رأيتها»، أجاب عامل الآلة.

«وعليه! وما رأيك في ذلك؟».

«قُضي الأمر، هذا ما أراه. سينزل القطيع. أنتم جميعاً جبناء بإفراط».

وعلى نحو محموم، وجد إتيان للرفاق عذراً: في الوسع أن يكون الرجل شهماً، والحشد الذي يموت جوعاً لا قوة له. خطوة بعد خطوة، وصلا إلى لوفوروه؛ وأمام كتلة الحفرة السوداء، تابع، وأقسم أن لا ينزل من جديد أبداً، لكنه يغفر لمن ينزلون. ثم لمّا جرت الألسن بأن النجّارين لم يسعفهم الوقت لإصلاح التبطين، أراد أن يعرف أكثر. هل ذلك صحيح؟ إن ثقل الأرض على الألواح الخشبية التي كانت تقوم في البئر مقام حاجز خشبي جعلها تنتفخ من الداخل إلى حدّ أن قفصاً من أقفاص الاستخراج كان يحتك بالحواف عند مروره، على طول أكثر من خمسة أمتار؟ سوفارين، الذي غدا صموتاً من جديد، كان يجيب باختصار. لقد عمل أيضاً في اليوم السابق، وبالفعل كان القفص يحتك، ولزم الأمر أن يضاعف مسيّرو الآلة السرعة للمرور عند ذلك الموضع. لكن كل الرؤساء كانوا يستقبلون الملاحظات بالجملة الساخطة نفسها: الفحم هو المراد، سوف يتم التدعيم لاحقاً.

«كما ترى إن ذلك ينهار!»، همس إتيان، «سوف نحضر العرس».

وعيناه شاخصتان في الحفرة، التي لا تبين في الظلمة، ختم سوفارين بالقول، في هدوء:

«إذا انهار، سوف يعلم الرفاق ذلك، بما أنك تنصح بالنزول من جديد».

كانت الساعة التاسعة تدق في برج مونسو؛ ولمّا قال صاحبه إنه عائد كيما يهجع للنوم، أضاف دون أن يمد يده:

«وعليه! وداعاً. سوف أرحل».

«كيف، ترحل؟».

«أجل، لقد طلبتُ استرجاع رخصتي، سأذهب إلى مكان آخر».

كان إتيان ينظره إليه، وهو مذهول، متأثر. بعد ساعتين من التجول، يخبره بذلك، وبصوت شديد الهدوء، بينما وحده الإعلان عن ذلك الفراق المباغت كان يوجع قلبه، هو. لقد تعارفا، وكدّا معاً: فكرة أن لا يريا البعض أبداً، تصيب دوماً بالحزن.

«ترحل، إلى أين؟».

«هنالك، لا أدري».

«لكن، سوف أراك من جديد؟».

«كلا، لا أظن ذلك».

سكتا، وظلا لحظة وجهاً لوجه، دون أن يجدا شيئاً آخر لقوله.

«إذن، وداعاً».

«وداعاً».

بينما كان إتيان يصعد إلى المجمّع. دار سوفارين على عقبه، وعاد إلى ضفة القناة؛ وهناك، وحده الآن، مشى دون نهاية، مطأطأ الرأس، ومن شدة غرقه في الظلمات، لم يصِر غير ظلّ ليلي متحرك. بين فينة وأخرى، كان يتوقف، يعدُّ الساعات، بعيداً. حينما أزف منتصف الليل، غادر الضفة واتجه صوب لوفوروه.

في ذلك الأوان، كانت الحفرة خالية، لم يُلقَ بها سوى رئيس عمال، عيناه منتفختان من شدة النعاس. لن يتم التسخين إلا في غضون ساعتين، لاستئناف العمل. في البدء، صعد كي يستعيد من داخل خزانة معطفاً ادّعى أنه نسيه من ذي قبل. أدوات،

مثقب مـزوَّد بمِبرَمِـه، منشـار صغيـر صلـبٌ جـداً، مطرقـة ومقـص، كلها كانـت ملفوفـة فـي ذلـك المعطـف. ثـم انصـرف مـرة ثانيـة. لكـن بـدل أن يخـرج مـن المسـتودع، ولـج الممـر الضيـق المـؤدي إلـى منفـذ السـلالم. متأبطـاً معطفـه، نـزل بهـدوء، دون مصبـاح، وهـو يقيـس العمـق بحسـاب عـدد السـلالم. كان يعلـم أن القفـص يحتـك عنـد ثلاثمائـة وسـبعة وأربعيـن متـراً، بمحـاذاة المقطـع الخامـس مـن التبطيـن الأسـفل. حينمـا عـدّ أربعـة وخمسـين سـلماً، جـسَّ بيـده، أحـس بترديـد قطـع الخشـب. كان الموضـع هنـاك.

حينـذاك، بحـذق ورباطـة جـأش عامـل كفء تأمـل مهمتـه مـدة طويلـة، شـرع فـي العمـل. فـي الحـال، بـدأ فـي نشـر لـوح فـي حاجـز المنفـذ، بحيـث يتصـل بقسـم الاسـتخراج. وبفضـل أعـواد ثقـاب يشـعلها ويطفئهـا بسـرعة، أمكنـه التحقـق مـن حـال التبطيـن والترميمـات التـي أُجريـت علـى عهـد قريـب.

بيـن **كالـي** و**ڤالنسيين**، كان تعميـق بئـر المنجـم يلاقـي صعوبـات لا تصـدّق، لتجـاوز كتـل المـاء القابعـة تحـت الأرض، علـى هيئـة فُـرُشٍ شاسـعة، سـويّة الأوديـة الأشـد انخفاضـاً. وحـده إنشـاء قطـع التبطيـن، قطـع النجـارة المتصلـة فـي مـا بينهـا مثـل قطـع البرميـل المسـتديرة، كانـت تفلـح فـي احتـواء منابـع الروافـد، وعـزل الآبـار، وسـط البحيـرات التـي كانـت أمواجهـا العميقـة والمظلمـة تضـرب الحـوافّ. وقـد تطلـب الأمـر، عنـد تعميـق لوڤـوروه، وضـع تبطينيـن، واحـد للمسـتوى الأعلـى، فـي الرمـال الموحلـة والطيـن الأبيـض المجـاورة لـلأرض الطباشـيرية، المتصدّعـة مـن كل الأنحـاء، المنتفخـة بالمـاء مثـل منشـفة؛ ثـم تبطيـن المسـتوى الأسـفل، فـوق

أرض الفحم مباشرة، في رمل أصفر له رقة الطحين، الذي يجري بسهولة سائل؛ هناك كان يوجد السيل، ذلك البحر تحت الأرض، رعب مقالع فحم الشمال، بحر له عواصفه وغرقاه، بحر مجهول، لم يُسبَر غوره، يجري بأمواجه المظلمة، على بعد ثلاثمائة متر من الشمس. في العادة كانت دعائم التبطين تقاوم جيداً الضغط الشديد. لم تكن هناك خشية إلا من تكدّس الأراضي، التي يزعزعها العمل المتواصل في سراديب الاستغلال القديمة، التي تتعرض للردم. خلال النزول عبر تلك الصخور، أحياناً تقع كسور وتنتشر ببطء حتى الدعائم، وتُعوِّجها مع المدة، بدفعها داخل البئر؛ وهناك يكمن الخطر الأكبر، تهديد بحدوث انجراف وفيضان، إذ تمتلئ الحفرة بانهيار الأترية وطوفان المنابع.

لمّا وقف سوفارين، مباعداً رجليه الواحدة عن الأخرى في الفتحة التي أعملها، لاحظ اعوجاجاً خطراً جداً في الطبقة الرابعة من التبطين. كانت قطع الخشب تتدلى مثل بطن، خارج الإطارات؛ بل إن عدداً كثيراً منها خرج عن عضده. كانت تسربات دافقة، «السّرب» كما يسميها عمال المنجم، تنبجس من بين المواصل، من خلال تقوية سدّها بنسالة الخيوط المطلية بالقار. ولما استعجل النجارون ربحاً للوقت واكتفوا بأن وضعوا عند الزوايا مثلثات من حديد، بكل ذلك القدر من التهوّر، حتى أنهم أغفلوا إحكام جميع اللوالب. ومن البيّن أن حركة شديدة كانت تقع في الخلف، في رمال **طورون**.

مستعيناً بمثقبه، فكّ لوالب المثلثات، بحيث يمكن لدفعة أخيرة أن تزيلها جميعاً. وقد تميّز إنجاز تلك المهمة بجسارة

مجنونـة، كاد خلالهـا أن ينقلـب عشـرين مـرة، ويقفـز مائـة وثمانيـن متـراً التـي تفصلـه عـن القعـر. ولزمـه أن يمسـك بقيـاد السـنديان، أعمـدة الخشـب التـي تزلـق فيهـا الأقفـاص؛ مُعلَّقـاً فـي الهـواء، كان يتنقـل علـى طـول العـوارض التـي كانـت مربوطـة بهـا بيـن مسـافة وثانيـة. كان ينزلـق، يجلـس، ينقلـب، وينحنـي فحسـب علـى مرفـق أو ركبـة، بـازدراء للمـوت رخـي البـال. كان فـي وسـع نفخـة واحـدة أن تسـقطه فـي الهاويـة، وتـدارك الأمـر ثـلاث مـرّات، دون رعشـة واحـدة. فـي البدايـة، كان يجسّ بيـده، ثـم يشـتغل، ولـم يشـعل عـود ثقـاب إلا حينمـا يضِـلُّ، وسـط أعمـدة الخشـب الدبقـة تلـك. بعدمـا فـكّ اللوالـب، انبـرى إلـى القِطـع بذاتهـا؛ وزاد الخطـر أكثـر. لقـد بحـث عـن المفتـاح، القطعـة التـي تسـند القطـع الأخـرى؛ تصـدّى لهـا بإصـرار، بثقبهـا ونشـرها وجعلهـا رقيقـة كيمـا تفقـد قدرتهـا علـى المقاومـة؛ بينمـا كان المـاء المنفلـت نشيشـاً رقيقـاً، مـن بيـن الثقـب والشـقوق، يعميـه ويبللـه بمطـر مـن صقيـع. انطفـأ الوقـود مرتيـن، تبلـل جميعـه، كان الوقـت ليـلاً، غـور مـن الظلمـات لا قعـر لـه.

مـن ذلـك الحيـن، ركبـه غضـب شـديد. نفحـات مـا لا يُـرى كانـت تُسـكره، الرعـب الأسـود لذلـك الثقـب الـذي يخبطـه الهطـل كانـت ترمـي بـه فـي براثـن غضـب مدمِّـر. وتصـدى كمـا اتفـق للتبطيـن، يخبـط حيـث اسـتطاع، بضربـات مـن المثقـب، مـن المنشـار، وقـد اسـتحوذت عليـه غريـزة شـقه فـي الحـال مـن رأسـه. وقـد بـذل فـي ذلـك شراسـة وكأنـه يحـرك سـكيناً فـي جسـد كائـن حـيّ يبغضـه. سـوف يقتلـه فـي نهايـة المطـاف، ذلـك الوحـش الخبيـث لوفـوروه، ذو الخطـم المفتـوح علـى الـدوام، الـذي التهـم الكثيـر مـن اللحـم

البشـري! كانـت تُسـمع عضـة أدواتـه، وكان ظهـره يتمـدّد، يزحـف، يهبـط، يصعـد مـن جديـد، يقـف بمعجـزة، فـي انتفاضـة متواصلـة، تحليـق طائـر ليلـي مـن خـلال دعائـم بـرج سـقيفة.

لكنـه هـدّأ مـن روعـه، وهـو غيـر راض عـن نفسـه. ألـم يكـن فـي الوسـع إنجـاز الأمـور ببـرودة أعصـاب؟ دون اسـتعجال، تنفّسَ، دخـل منفـذ السـلالم الـذي أغلَـق ثقبـه، بإرجـاع اللـوح الـذي نجـره إلـى مكانـه. كان ذلـك كافيـاً. لـم يُـرِد أن يثيـر الانتبـاه بضـرر كبيـر جـداً قـد يسـعون إلـى ترميمـه فـي الحـال. كان الوحـش قـد أصيـب بجـرح فـي بطنـه، وسـوف نـرى إن كان سـيظل علـى قيـد الحيـاة حتـى المسـاء؛ ثـم تـرك توقيعـه، سـوف يعلـم العالـم المذعـور بأنـه لـم يمـت مِيتَـتَهُ الجميلـة. أخـذ وقتـه حتـى لـفّ أدواتـه فـي معطفـه وفق نهجه السـابق، ثـم صعـد السـلالم مـن جديـد ببطء. ولمّـا خـرج مـن الحفـرة دون أن يـراه أحـد، لـم يخطـر ببالـه الذهـاب لتغييـر ملابسـه. دقّـت السـاعة الثالثـة. ظـلّ واقفـاً فـي الطريـق، ينتظـر.

فـي السـاعة ذاتهـا، انشـغل إتيـان، الـذي لـم يكـن نائمـاً، بصـوت خفـي فـي ظلمـة الغرفـة المطبقـة. كان يميّـز نَفَس الأطفـال الخفيـف، وشـخير بونمـور وماهـود؛ بينمـا، بالقـرب منـه، كان جونـلان يصفـر نغمـة مزمـار ممـدودة. لا ريـب أنـه كان يحلـم، ويسـتغرق فـي ذلـك حينمـا عـاد الصـوت مـن جديـد. كانـت تلـك طقطقـة سـرير القـش، الجهـد المكتـوم لشـخص ينهـض. لذلـك، ظـن أن كاتريـن فـي ضيـق.

«قولي، أهذه أنتِ؟ ماذا جرى لكِ؟»، سـأل بصوت خامل.

لـم يجبـه أحـد، وحـده شـخير الآخريـن يسـتمرّ. مدة خمس دقائق، لـم يتحـرّك شـيء. ثـم سُـمعت طقطقـة ثانيـة. ولمـا أيقـن هـذه المـرة

أنـه لـم يخطـئ، عَبَـر الغرفـة، ومـدّ يديـه فـي الظـلام كيمـا يجـسّ الفـراش المقابـل لـه. وكانـت دهشـته عظيمـة لمّـا صـادف بذلـك الفتـاة جالسـة، ونفَسُـها محبـوس، صـاحيـة وبالمرصـاد.

«عجباً! لماذا لا تجيبين؟ ماذا تفعلين إذن؟».

انتهى بها المطاف إلى أن قالت:

«لقد نهضتُ».

«في هذه السـاعة، تنهضين؟».

«أجل، أنا راجعة للعمل في الحفرة».

مـن شـدة تأثـره، لـزم إتيـان أن يعـود للجلـوس علـى حافـة سـرير القـش، بينمـا كاتريـن تفسّـر لـه دواعيهـا. كانـت تعانـي كثيـراً مـن العيـش علـى تلـك الحـال، عاطلـة، وهـي تشـعر بمـا يثقـل كاهلهـا مـن نظـرات العتـاب الموصولـة؛ إنهـا تفضـل أن تجـازف بالتعـرض هنـاك لمضايقـة شـافال لهـا؛ وإذا كانـت أمهـا ترفـض مالهـا، حينمـا سـتحضره لهـا، إذن! فهـي كبيـرة بمـا يكفـي للإقامـة علـى انفـراد وإعـداد حسـوتها بنفسـها.

«انصـرِف، سـوف أرتـدي ملابسـي. ولا تَقُـل شـيئاً، أليس كذلـك؟ سـيكون ذلـك لطفـاً منـك».

لكنـه ظـلّ جنبهـا، أمسـكها مـن خاصرتهـا، بملامسـة فيهـا كـدر وشـفقة. بالقميـص، ملتصقيـن ببعـض، كانـا يشـعران بحـرارة جسـديهما عنـد حافـة ذلـك الفـراش، الدافـئ بنـوم الليـل. حاولـت هـي، فـي خطـوة أولـى، التخلـص؛ ثـم شـرعت تبكـي فـي همـس، بإمسـاكه مـن العنق بدورهـا حتـى تبقيـه لصقهـا، عناقـاً يائسـاً. ولبثـا دون شـهوة أخـرى، نظـراً لماضـي حبهمـا الشـقي، الـذي لـم يسـتطيعا

إرضاءه. هل انتهى الأمر إلى الأبد إذن؟ أوَ لن يجرؤا يوماً على حب بعض، الآن وقد صارا طليقين لا يحبسهما قيد؟ كان يكفي قليل من السعادة لإبعاد شعورها بالعار، ذلك الحرج الذي يمنعهما من السير معاً، بسبب كل أنواع الخواطر، حيث لا يستظهران بوضوح ذاتيهما.

«عد إلى فراشك»، هَمَسَت، «لا أريد أن أُشعل الضوء، فذلك سيوقظ أمي. حان الوقت، دعني».

لم يكن يصغي البتة، كان يضمها بجنون، وقلبه غارق في حزن شديد. حاجة إلى السكينة، اكتسحته حاجة لا تُقهر لأن يكون سعيداً؛ وكان يرى نفسه زوجاً، في منزل صغير نظيف، لا طموح له سوى أن يعيشا ويموتا هناك، معاً. سيقنع بشيء من الخبز؛ حتى وإن لم يكن منه سوى نصيب شخص واحد، سوف تكون الكِسرة لها. ما فائدة شيء غير ذلك؟ وهل الحياة تساوي أكثر من ذلك؟

أما هي، فقد أبعدت أثناء ذلك ذراعيه العاريتين.

«أرجوك، دع ذلك».

حينئذ، في اندفاعة قلبه، همس في أذنها:

«تمهّلي، سوف أذهبُ معكِ».

تعجّب هو نفسه من قوله ذلك. لقد أقسم على ألّا ينزل من جديد، من أين جاء إذن ذلك القرار المباغت، الذي خرج من فمه دون أن يفكر فيه، دون أن يدرسه للحظة؟ الآن، من شدة ما سكنت نفسه، وتداوى تماماً من شكوكه، فإنه بات يصر، كرجل أنقذته الصدفة، وألفى في نهاية الأمر المخرج الوحيد لمصيبته.

لذلك رفض الإنصات إليها حينما جزعت، وأدركت أنه يضحي من أجلها، وخشيت الكلام القبيح الذي سوف يُستقبل به في الحفرة. لم يكن يأبه بأي شيء، فالإعلانات كانت تعِد بالصفح وفي ذلك كفاية.

«أريد أن أشتغل، هذا رأيي. هيا نلبس ولا نحدث ضجيجاً».

لبسا في الظلام، بكثير من الحيطة. كانت قد هيأت ملابسها، خفية، في اليوم السابق، ملابس عامل المنجم؛ أما هو، فقد أخذ من الخزانة سترة وسروالاً؛ لم يغتسلا، مخافة تحريك المِطهرة الطينية. كان الجميع نائماً، لكن تطلب الأمر عبور الممر الضيق حيث كانت الأم نائمة. لمّا انصرفا، شاء النحس أن يصدما كرسياً. صحت، سألت، والنعاس لا يزال يدبّ فيها:

«هه؟ من هناك؟».

توقّفت كاترين، مرتعدة، وهي تمسك بشدة يد إتيان.

«هذا أنا، لا تزعجي نفسك»، قال هذا الأخير، «إني أختنق، أنا خارج لتنشق الهواء قليلاً».

«طيب، طيب».

وعادت ماهود للنوم. لم تجرأ كاترين على الحركة بعد ذلك. وفي نهاية الأمر، نزلت إلى الحجرة، قسمت رغيفاً مدهوناً احتفظت به من خبز أعطته لها سيدة من مونسو. ثم أغلقا الباب بلطف وانطلقا.

كان سوفارين قد ظلّ واقفاً، قرب لافانتاج، عند ناصية الطريق. نصف ساعة من ذي قبل وهو ينظر إلى عمال الفحم العائدين إلى الشغل، الذين لا تبين ملامحهم في العتمة، يمرون

وهـم يدوسـون الأرض بسـير القطيـع الرّويـد المكتـوم. كان يحسـب عددهـم، مثلمـا يعـدّ الجـزارون البهائـم فـي مدخـل المجـزرة؛ وقـد تعجّـب مـن عددهـم، لـم يتوقـع، حتـى بتشـاؤمه، أن يكـون عـدد الجبنـاء بكل ذلـك القـدر. كان الصّـف يمتـد دائمـاً، وأوصالـه تتخشّـب مـن البـرد الشـديد، أسـنانه مطبقـة وعينـاه تبرقـان.

لكـن أخذتـه نُفضـة. بيـن أولئـك الرجـال السـائرين تباعـاً، والذيـن لـم يتبيّـن وجوههـم، فإنـه تعـرّف رغـم ذلـك علـى واحـد منهـم، مـن مشـيته. تقـدّم نحـوه وأوقفـه.

«إلى أين أنت ذاهب؟».

وهو مفزوع، بدل أن يردّ إتيان، فقد تمتم:

«هاك! لم ترحل بعدُ!».

ثـم أقـرّ أنـه عائـد إلـى الحفـرة. لا ريـب أنـه أقسـم؛ لكـن، لـم تكـن تلـك عيشـة، أن ينتظـر وهـو شـابك ذراعيـه أشـياء قـد تحـدث بعـد مائـة عـام علـى الأرجـح؛ فضـلاً عـن ذلـك، هنـاك أسـباب تخصـه حسـمت قـراره.

أصغـى إليـه سـوفارين وهو يرتعـد. أمسـك بـه مـن كتفـه، ودفعـه صـوب المجمّـع.

«عد إلى بيتك، أريد ذلك، سمعتني!».

لكـن، حينمـا دنَـت كاتريـن، تعـرّف عليهـا بدورهـا. كان إتيـان يحتـج، ويقـول بأنـه لـن يسـمح لأحـد بالحكـم علـى سـلوكه. وانتقلـت عينـا عامـل الآلـة مـن الفتـاة الشـابة إلـى الرفيـق؛ بينمـا هـو يتقهقـر خطـوة بإيمـاءة هجـر مباغـت. حينمـا تسـكُن امـرأة قلـب رجـل، فتلـك نهايـة الرجـل، فـي وسـعه أن يمـوت. ربمـا، رأى مـن جديـد، فـي رؤيـة

خاطفـة، هنالـك، فـي موسـكو، عشـيقته المشـنوقة، تلـك الصلـة الأخيـرة بجسـدها المقطـوع، التـي أعتقتـه مـن حيـاة الآخريـن ومـن حياتـه. قـال ببسـاطة:

«اذهب».

وهـو محـرج، كان إتيـان يتأنّـى، يبحـث عـن كلمـة صداقـة طيّبـة حتـى لا يفترقـا علـى ذلـك النحـو.

«إذن، أنت راحل؟».

«أجل».

«وعليه! هات يدك، يا صاحبي. رحلة موفقة وبلا ضغينة».

هوى الثاني نحوه بيد من صقيع. لا صديق ولا زوجة.

«وداعاً، بحق، هذه المرة».

«أجل، وداعاً».

وهـو ثابت فـي مكانـه وسـط الظـلام، أتبـع سـوفارين نظـره إتيـان وكاتريـن وهمـا يدخـلان لوفـوروه.

III

في الساعة الرابعة، بدأ النزول. كان دانسير، الجالس شخصياً في مكتب الواسِم، بقاعة المصابيح، يسجِّل كل عامل حضر، ويعطيه مصباحاً. كان يقبَلهم جميعاً، دون إبداء أدنى ملاحظة، وفاءً بذلك لوعدِ الإعلان. لكن، حينما رأى إتيان وكاترين عند الشبّاك، أخذته نفضة، وأحمرّ وجهه كثيراً، وفمه مفتوح لرفض التسجيل؛ ثم اكتفى بالنّيل منه، والسخرية بادية عليه: آه! آه! أقوى الأقوياء أضحى صريعاً؟ أن يرجع مهدِّم مونسو الرّهيب يتسول خبزاً، فذلك يعني أن الشركة تملك أفضل خبز إذن؟ حمل إتيان مصباحه، وهو ساكت ثم صعد إلى البئر رفقة عاملة النقل.

إلا أن هناك، في قاعة المورد، كانت كاترين تخشى كلام الرفاق القبيح. والشيء بالشيء يذكر، من المدخل، تبيّنت شافال وسط عشرين عاملاً تقريباً، ينتظرون أن يفرغ قفص من الأقفاص. تقدّم بغضب شديد نحوها وتوقّف حينما رأى إتيان. لذلك، تظاهر بأنه يقهقه، مع هز كتفيه قاصداً الإساءة إليه. حسناً! إنه لا يكترث للأمر، بما أن الثاني أخذ المكان وهو لا يزال دافئاً بالتمام؛ يا له من خلاص مفرح! الرأي رأي السيد إذا كان يحب الفضلات؛ وفي طيّ ذلك الازدراء، عاودته رعدة الغيرة، واتقدت عيناه. ثم إن الرفاق لم يأتوا بأدنى حركة وهم خُرس، العيون مخفوضة. كانوا يكتفون بالنظر شزراً إلى الوافدَين الجديدَين؛ ثم، بعدما أرهقهم النظر، ودون غضب، عادوا إلى التحديق في فتحة البئر، المصباح في اليد، وهم يرتجفون تحت قماش ستراتهم الرقيق،

وسـط تيـارات الهـواء المتواصلـة فـي القاعـة الكبيـرة.

وأخيـراً، ثُبِّت القفـص علـى الأسـدّة، وصـاح بهـم صـوت أن اركبـوا. تكدّسـت كاتريـن وإتيـان فـي عربـة سـبق وكان فيهـا پييـرون وحفّارَيـن. فـي الجنـب، بعربـة ثانيـة، كان شـاڤال يخبـر بصـوتٍ عـالٍ الأب **موك**، أن الإدارة غلطـت حقـاً حينمـا لـم تنتهـز الفرصـة لتخليـص الحُفَـر مـن الأوغـاد الذيـن يفسـدونها؛ لكـن السـائس العجـوز، الـذي عـاد أصـلاً إلـى إذعـان عيشـة الكلاب التـي يعيشـها، لـم يعُـد يغضـب مـن مـوت ولديـه، يجيـب فحسـب بإيمـاءة صُلـح.

انفلـت القفـص، وهبطـوا سـريعاً فـي الظـلام. لـم يكـن أحـد يتكلّـم. بغتـة، بمـا أنهـم كانـوا عنـد ثلثـي مسـافة النـزول، وقـع احتـكاك رهيـب. كانـت قطـع الحديـد تطقطـق، وقُذِف الرجـال بعضهـم علـى بعض.

«سـحقاً!»، زمجـر إتيـان، «هـل سـوف يسـطَحونا علـى الأرض! سـوف نهلـك جميعـاً فـي النهايـة، بتبطينهـم الملعـون. ويدّعـون أنهـم قامـوا بترميمـه!».

ومـع ذلـك، جـاز القفـص العائـق. كان الآن ينـزل تحـت مطـر عاصـف مـن شـدة قوتـه كان العمّـال ينصتـون بحَيـرة إلـى ذلـك الهطـلان. إذن لقـد ظهـرت الكثيـر مـن التسـرّبات فـي تقويـة سـمك المَواصِـل؟

لمّـا سُـئل پييـرون، الـذي يعمـل منـذ أيـام كثيـرة، لـم يشـأ الإفصـاح عـن خوفـه الـذي قـد يُفهم بأنـه هجـوم علـى الإدارة؛ أجـاب:

«أوه! ليـس هنـاك خطـر! الأمـر علـى هـذه الحـال دومـاً. مـن دون شـك، لـم يسـمح الوقـت بسـدّ الثقـوب».

كان السـيل يشـخر فـي رؤوسـهم، وصلـوا إلـى الجـوف، إلـى سـلّم البئـر الأخيـر، تحـت وابـل مـن المطـر. لـم يخطـر ببـال واحـد مـن

رؤساء العمال أن يصعد السلالم للتحقق من الأمر. في المضخة الكفاية، وسوف يراقب عمّال التقوية المَواصِل، في الليلة التالية. داخل السراديب، كان تنظيم العمل من جديد عسيراً بما يكفي. قبل السّماح للحفّارين بالعودة إلى مقالع الحفر، كان المهندس قد قرّر بأنه خلال الأيام الخمسة الأولى، على جميع الرجال إنجاز بعض أشغال التدعيم المستعجلة إلى حدّ أقصى. فهناك تهديد وقوع هَدَم في كل مكان، ومن شدة الضرر الذي أصاب المسالك، وجب ترميم دعائم التمتين على طوال مئات الأمتار. في الأسفل، شُكِّلت فرق من عشرة رجال، يقود كل فرقة رئيس عمالٍ؛ ثم يدفعون إلى العمل، في المواضع الأشد ضرراً. حينما انتهى النزول. بلغ عدد النازلين ثلاثمائة واثنين وعشرين عاملاً، تقريباً نصف عدد من يشتغلون حينما تكون الحفرة في تمام الاستغلال.

وبالمناسبة، أكمل شافال عدد الفرقة التي كانت ضمنها كاترين وإتيان؛ لم يكن ذلك من باب الصدفة، لقد اختبأ أول الأمر خلف الرفاق، ثم أجبر رئيس العمال. انصرفت تلك الفرقة لإزالة الركام في أقصى السرداب الشمالي، على بعد ثلاثة كيلومترات تقريباً، كان هَدَمٌ يسدّ مسلكَ عِرق **ديزويوس**. تمّ التصدّي للصخور المهدمة بالفأس والمجرف. كان إتيان، شافال وخمسة آخرون يزيلون الركام بينما كاترين وصبيّان متعلِمان ينقلون الأتربة إلى السطح المائل. كان الكلام قليلاً، ورئيس العمال لا يفارقهم. ومع ذلك فإن عاشقَي عاملة النقل أوشكا أن يتبادلا الصفعات. وهو يغمغم بأنه لم يعُد يرغب في تلك العاهرة، فإن السابق كان يهتم

بها، يدفعها بِمكر، إلى حدّ أن العاشق الجديد هدّده بضربه بشدّة إن لم يدعها في شأنها. كانت عيونهما تأكل بعضها، ولزم الأمر الفصل بينهما.

حوالي الساعة الثامنة، مرّ دانسير حتى يلقي نظرة على سير العمل. بدا أن مزاجه عكر، وثار في وجه رئيس العمال؛ لا شيء يسير على ما يرام، كان المطلوب استبدال الخشب بالتدرّج، لا أسوأ من مثل هذه المهمة! ثم انصرف وهو يقول بأنه سوف يرجع مع المهندس. كان ينتظر نيغريل منذ الصباح، دون أن يدرك سبب ذلك التأخر.

مضت ساعة أخرى. أوقف رئيس العمال إزالة الركام كيما يشغل كل ما لديه من عمال في توسيع السقف. لم تعد عاملة النقل والصبيان للحمل، بل كانوا يهيؤون ويحملون قطع خشب التدعيم. في جوف ذلك السرداب، كانت الفرقة وكأنها في الطليعة، ضائعة في أقصى طرف من المنجم، دون تواصل مع باقي المواقع من ذلك الحين. ثلاث أو أربع مرّات، أصوات غريبة، ركض بعيد، كانت تجعل عمال المنجم يلتفتون: ماذا كان ذلك إذن؟ يخال المرء أن المسالك تُفرغ، وأن الرفاق يصعدون أصلاً، جرياً. لكن الأصوات اندثرت في الصمت البالغ، ورجعوا إلى تثبيت الألواح، وقد دوَّختهم ضربات المطارق الشديدة. وفي نهاية الأمر، استأنفوا إزالة الركام ونقله.

من الرحلة الأولى، عادت كاترين، مرتعبة، وهي تقول بأنه لم يعُد هناك أحد في السطح المائل.

«لقد ناديتُ، ولم يُجِب أحد. الجميع هجر المكان».

ومن شدة الفزع رمى الرجال العشرة أدواتهم كيما يركضوا. فكرة أن يتم التخلي عنهم، لوحدهم في جوف الحفرة، على بعدٍ من سلم البئر أصابتهم بالذعر. لم يحتفظوا سوى بمصابيحهم، كانوا يجرون تباعاً، الرجال، الأطفال وعاملة النقل؛ بل حتى رئيس العمال فقد صوابه، كان يطلق نداءات، ويزداد ذعراً من ذلك الصمت، من ذلك القفر من السراديب الممتد بلا نهاية. ماذا يقع بحيث لم يصادفوا نفساً واحدة؟ أي حادثة أصابت الرفاق على ذلك النحو؟ وكان رعبهم يتفاقم من عدم تبيّن الخطر، من ذلك التهديد الذي كانوا يشعرون بأنه هناك، دون التعرف عليه.

وفي الأخير، لمّا اقتربوا من سلّم البئر، قطع السيل عليهم الطريق. وفي الحال بلغ الماء ركبهم؛ ولم يعُد في وسعم الجري، كانوا يشقّون الماء المتدفق بمشقة، وفي بالهم أن دقيقة من التأخير سوف تكون هي الموت.

«اللعنة! لقد انشقّ التبطين»، صاح إتيان، «لقد قلتُ بأننا سنلقى حتفنا هنا».

منذ النزول إلى الجوف، كان پييرون، الحائر، يرى تفاقم الطوفان الساقط من البئر. وهو يحمل العربات مع عاملَين آخرَين، كان يرفع رأسه، فيتبلل وجهه بالقطر الغليظ، وأذناه تطنّان من نخير العاصفة، في الأعلى. لكنه ارتعد على الأخص، حينما أدرك، أن الحوض والبالوعة، تحته، البالغ عمقها عشرة أمتار، كانت تفيض على بلاطات الحديد السبيكة؛ وذلك دليل على أن المضخّة لم تعد كافية لنزح التسريبات. حينذاك، أخبر دانسير، الذي تلفظ لاعناً وردّ بأنه يجب انتظار المهندس.

لمرّتين عاد إلى الأمر، ولم يظفر منه بشيء سوى هزة كتفين كلها استياء. عجباً! الماء يعلو، ماذا في وسعه فعله؟

ظهر **موك** رفقة **باتاي**، الذي كان يسوقه للعمل الشاق؛ ولزمه أن يمسكه بيديه الاثنتين، وبغتة جمح الحصان العجوز الناعس، الرأس ممدود نحو البئر، يصهل حدّ الموت.

«ماذا إذن، أيها الفيلسوف؟ ما الذي يحيّرك؟ آه! لأن المطر يهطل. تعال، هيّا، ذلك أمر لا يخصّك».

لكن الدّابة كانت ترتعش بكل شعرة فيها، وجرّها بالقوة إلى محطّ النقل.

وفي اللحظة نفسها، تقريباً، لمّا اختفى موك وباتاي في جوف سرداب، سُمِعت قعقعة في الهواء، تبعتها ضوضاء هدَّة. كانت تلك قطعة قد انفصلت من التبطين، وسقطت من علو مائة وثمانين متراً، وهي تصطدم بالحواف. تمكّن **پييرون** والحمّالون الآخرون من التوقف، إذ أن لوح السنديان هَشَّم فحسب عربة فارغة. في الوقت نفسه، انسكبت قطعة ماء، سيلٌ فاض عن سدّ انصدَعَ. أراد دانسير الصعود كيما يرى؛ لكنه كان لا يزال يتكلم حينما انهار لوحٌ ثان. وأمام الكارثة المهدِّدة، لم يعُد يتردد، وهو مذعور، وأعطى الأمر بالصعود، ثم أرسل رؤساء عمالٍ لإخبار الرجال في المواقع.

حينذاك وقع تدافع مريع. من كل سرداب، كانت تصل صفوف العمّال جرياً، يهرعون هجوماً على الأقفاص. يسحق بعضهم بعضاً، يتقاتلون للصعود في الحال. أما بعض الذين عنّ لهم خاطر المرور عبر منفذ السلالم، فقد نزلوا مرة ثانية وهم يصرخون

أن الممـر كان مسـدوداً هنـاك مسـبقاً. كان الذعـر يصيـب الجميـع، بعـد انطـلاق كل قفـص صاعـد: هـذا مـرّ للتـو، لكـن مـن يـدري إذا كان التالـي سـوف يمـرّ أيضـاً، وسـط العوائق التـي باتـت تسـد البئـر؟ فـي الأعلـى، لا بـدّ أن المحنـة كانـت متواصلـة، إذ تُسـمع جملـة مـن الفرقعـات المكتومـة، الألـواح تتشـقق، تنشـطر وسـط زمجـرة المطـر المتواصلـة والمتعاظمـة. وسـرعان مـا أضحـى قفـص غيـر صالـح للاستعمال، إذ تصـدّع، ولـم يعُـد ينزلـق علـى القِيـاد، التـي انقطعـت لا ريـب. بينمـا كان الثانـي يحتـكّ بشـدة حيـث يوشـك أن ينقطـع السـلك بالتأكيـد. وهنـاك حوالـي مائـة رجـل يجـب إخراجهـم، كان الجميـع يئـن، يتشـبث، ينزفـون دمـاً، غرقـى. قُتِـل اثنـان منهـم بسـقوط ألـواح. ثالـث، قـام مسـبقاً بالقبـض علـى القفـص، سـقط مـن علـو خمسـين متـراً واختفـى فـي البالوعـة.

وفـي تلـك الأثنـاء، كان دانسـير يحـرص علـى النظـام. فـي يـده معـول، كان يهـدد شـجّ رأس أول مـن يعصـي الأوامـر؛ كان يريدهـم أن ينتظمـوا صفـاً، ويصـرخ بـأن الحمَاليـن هـم آخـر مـن سـوف يخـرج، بعـد ركـوب الرفـاق. لـم يكـن أحـد يصغـي إليـه، مُنِـع پييـرون، الجبـان والمصفـرّ الوجـه، مـن أن يصعـد مـع الأوائـل. كان عليـه، مـع كل انطلاقـة، أن يزيحـه بلطمـة. لكنـه، بنفسـه، كان يصـكّ أسـنانه، دقيقـة واحـدة زيـادة، وكان سـوف يتـم ابتلاعـه: كل شـيء كان ينفجـر فـي الأعلـى، كان نهـراً جارفـاً، مطـر قاتـل مـن الدعائـم الخشـبية. كان بعض العمّـال لا يزالـون يهرعـون حينمـا وثبـوا إلـى عربـة، وقـد فقـدوا صوابهـم خوفـاً، تاركيـن پييـرون خلفهـم وصَعَـد القفـص.

فـي تلـك الحظـة، خَرَجَـت فرقـة إتيـان وشـافال مـن مرتبـة سـلم

البئـر. شـاهدوا القفـص يختفـي، أسـرعوا؛ لكـن لزمهـم التراجـع، بعـد الانهيـار التـام للتبطيـن: انسـدت البئـر، لـن ينـزل القفـص مـن جديـد. كانـت كاتريـن تنتحـب، وشـافال يختنـق مـن شـدة الصـراخ باللعنـات التـي كان يلفظهـا. كانـوا حوالـي عشـرين فـرداً، هـل هـؤلاء الرؤسـاء الخنازيـر سـيتركونهم علـى ذلـك النحـو؟ الأب مـوك الـذي أحضـر معـه باتـاي، دون اسـتعجال، كان لا يـزال يمسـك بـه مـن قيـاده، وهمـا مذهـولان معـاً، العجـوز والدّابـة، أمـام التفاقـم السـريع للفيضـان. لقـد سـبق أن عـلا المـاء حتـى الفخذيـن. قـام إتيـان بحمـل كاتريـن بيـن ذراعيـه، وهـو أخـرس مطبـق شـفتيه علـى أسـنانه. وكان العشـرون يصرخـون رافعيـن وجوههـم نحـو السـماء، كانـوا يصـرّون، مـن بلاهتهـم علـى النظـر إلـى البئـر، ذلـك الثقـب المنهـار الـذي كان يقـذف نهـراً والـذي لـم يعُـد يأتـي منـه أي خـلاص.

فـي السـطح، لمـا نـزل دانسـير، رأى نيغريـل الـذي هـرع. شـاء القـدر المحتـوم أن تؤخـره السـيدة إينبـو، ذلـك الصبـاح، عنـد مغـادرة الفـراش، فـي تصفّـح كتـاب منتجـات، قصـد شـراء صنـدوق عطـور. كانـت السـاعة العاشـرة.

«عجباً! ماذا يجري إذن؟»، صاحَ من بعيد.

«ضاعت الحفرة»، أجاب رئيس العمّال الأول.

ثـم قـصّ عليـه الكارثـة، وهـو يتلعثـم، بينمـا كان المهنـدس يهـزّ كتفيـه، غيـر مصـدّقٍ: هيّـا يـا هـذا! هـل يتحطّـم التبطيـن هكـذا؟ هـذه مبالغـة، يجـب أن نـرى ذلـك.

«لم يبقَ أحد في الجوف، أليس كذلك؟».

اضطـرب دانسـير. كلّا، لا أحـد. كان يأمـلُ ذلـك، علـى الأقـل. لكـن، مـن الممكـن أن بعـض العمـال قـد تأخـر.

«لكـن، سـحقاً!»، قـال نيغريـل، «لمـاذا خرجـتَ إذن؟ هـل يتـركَ المـرء رجالـه؟».

في الحـال، أعطـى الأمـر بحسـاب عـدد المصابيـح. فـي الصبـاح، تـمّ توزيـع ثلاثمائـة واثنيـن وعشـرين مصباحـاً؛ ولـم يسـتعيدوا منهـا سـوى مائتـان وخمـس وعشـرين مصباحـاً؛ إلا أن الكثيـر مـن العمـال أقـروا بـأن مصابيحهـم بقيـت هنالـك، سـقطت مـن أياديهـم فـي التدافـع مـن شـدة الهلـع. لذلـك حـرص علـى النـداء بالأسـماء، وكان مـن المسـتحيل ضبـط العـدد الصحيـح: لقـد هـربَ بعـض العمـال، ولـم يسـمع آخـرون أسـماءهم. ولـم يتفـق أحـد علـى مـن هـم الرفـاق الغائبـون. ربمـا كانـوا عشـرين، ربمـا أربعيـن. وكان المهنـدس علـى يقيـن مـن أمـر واحـد: هنالـك رجـال فـي الجـوف، إذ يتبيّـن المـرء عويلهـم، فـي صـوت الميـاه، مـن خـلال الدعائـم المنهـارة، حينمـا يكَـبَّ علـى فوّهـة البئـر.

أول شـيء حـرص عليـه نيغريـل هـو إرسـال من يحضـر السـيد إينبو وعزمـه علـى إغـلاق الحفـرة. لكـن كان أوان ذلـك قـد فـات، فعمـال الفحـم الذيـن ركضـوا إلـى مجمّـع 240، كأن قعقعـة ألـواح التبطيـن تتعقّبهـم، أدخلوا الهلـع فـي قلـوب الأسـر؛ أخـذت جماعات من النسـاء والشـيوخ والصغـار تهبـط جريـاً، وقـد هزّهـا الصيـاح والنحيـب. كان لا بـدّ مـن إبعادهـم، إذ تـمّ تكليـف حلقـة مـن الحـرّاس بحبسـهم، لأنهـم قـد يعرقلـون التحـركات. الكثيـر مـن العمّـال الذيـن صعـدوا مـن البئـر، ظلـوا هنـاك، مذهوليـن، ولـم يخطـر ببالهـم تغييـر ملابسـهم،

إذ شغلهم عن ذلك فتنة الخوف، في مواجهة ذلك الثقب المخيف حيث كادوا يلبثون فيه. النساء، من حولهم، حائرات، يتوسّلن إليهم، يسألنهم، ويطلبن الأسماء. هل كان هذا ضمنهم؟ وذاك؟ لم يكن لهم علم بشيء، كانوا يتمتمون، وتسري فيهم رعشات شديدة، ويتصرفون كالمجانين، بحركات تزيح منظراً كريهاً، حاضراً دوماً. كان الحشد يتعاظم بسرعة، ويتعالى النواح في الطرقات. وفي الأعلى، على الردم، في كوخ بونمور، كان هناك رجل، يجلس على الأرض. سوفارين، الذي لم يبتعد، كان ينظر.

«الأسماء! الأسماء!»، كانت النساء تصرخ، بصوت تخنقه الدموع.

ظهر نيغريل لحظة، رمى تلك الكلمات:

«ما أن نعرف الأسماء، نخبركم بها. لكن لم نخسر شيئاً، سوف ننقذ الجميع. إني نازل».

حينئذ، انتظرَ الحشدُ وقد أخرسه الهلع. فعلاً، وبشجاعة وهدوء، استعدَّ المهندس للنزول. أمر بنزع القفص واستبداله، عند طرف السِّلك بقفّة؛ وبما أنه ارتاب من أن يطفئَ الماء مصباحه، فقد طلب أن يُعلّقَ مصباح ثان تحت القفة، كي يحميه.

كان رؤساء عمّال يساعدون في تلك الاستعدادات وهم يرتعدون، والوجه أبيض ومسترخٍ.

«ستنزل معي يا دانسير»، قال نيغريل بصوت وجيز.

ثم لمّا رآهم جميعاً وقد خذلتهم الشجاعة، حينما رأى رئيس العمّال الأول يترنَّح، وقد أسكره الذعر، أبعده بحركة فيها احتقار.

«كلا، سوف تضيّق علي. الأفضل أن أكون وحدي».

وبسرعة قعد في الدّلو الضيّق، الذي كان يتأرجح عند أقصى طرف في السِّلك؛ وهو يمسك مصباحه بيدٍ، ويشدّ بالأخرى على حبل الإشارة، صاح بنفسه مخاطباً مُسيِّر الآلة:

«برفق!».

أدّت الآلة إلى اهتزاز اللوالب، واختفى نيغريل في الهاوية التي كان يصعد منها عويل الأشقياء.

في الأعلى، لم يتحرّك شيء. لاحظ الحالة الجيّدة للتبطين العُلوي. وهو يتأرجح وسط البئر، ويلتف على نفسه، كان ينير الحوافّ: التسربات بين المَواصِل لم تكن كثيرة بحيث أن مصباحه لم يتأثر بها. لكن عند ثلاثمائة متر، حينما وصل إلى التبطين السّفلي، انطفأ كما توقّع ذلك، إذ غمر سيلانٌ القُفَّة. ومن ثم، لم يعُد له من وسيلة للرؤية هناك سوى المصباح المتدلي، الذي كان يسبقه في الظلمات. ورغم جسارته، شَحُب من رعشة، في مواجهة رعب المصيبة. ظلت بعض قطع الخشب وحدها، بينما الأخريات هوت مع إطاراتها؛ في الخلف، انحفرت تجاويف عظيمة، كانت الرمال الصفراء، التي لها دقة الطحين، تسيل على شكل كتل هائلة؛ بينما مياه **طورون**، ذلك البحر التحتاني الذي تُجهل عواصفه وغرقاه، تتدفق مثل فيضِ سدٍّ. هبط أكثر، وتاه وسط تلك الفراغات المتعاظمة بلا توقف، مغلوب على أمره، يلفُّ تحت انسكاب المنابع، ومن سوء إضاءة نجمة المصباح الحمراء، الهارب إلى تحت، فقد كان يظن أنه يتبيَّن أزقة وملتقيات طرق مدينة مدمّرة، بعيداً جداً، من خلال مجموع الظلال العظيمة المتحركة. لم يعُد ممكناً قيام عمل بشري. كان يتشبث بأمل

واحد، هو السعي إلى إنقاذ الرجال الذين هم في خطر. كلما توغل، كان يسمع تزايد العويل؛ ثم وجب عليه أن يتوقف، عائق لا يمكن تجاوزه كان يسدّ البئر، ركام من الروافع الخشبية، والألواح المفصولة من القِياد، الحواجز المتصدّعة للمنافذ، تتشابك مع مَقَاوِد المضخة المنزوعة. وبما أنه أمعن النظر، وقلبه منقبض، توقف العويل بغتة. لا ريب، أمام الفيضان السريع، هرب التعساء داخل السراديب، إذا لم يكن السّيل قد ملأ أصلاً أفواههم.

ولم يجد نيغريل بُدّاً من الإذعان لجذب حبل الإشارة كي يُصعدوه. ثم جعلهم يوقفونه من جديد. لزمه ذهول، من تلك الحادثة، المباغتة بقدر كبير، التي لم يفهم سببها. كان يريد التحقق من الأمر، فحص قطع التبطين المعدودة التي صمدت. استغرب وجود ما يدل على تمزيق ونشرٍ في الخشب، على مسافة من بعضها. كان مصباحه يخبو وقد أغرقته الرطوبة، ثم تلمّس بأصابعه، وتعرّف بوضوح شديد على ضربات منشار، ضربات مثقب، عمل تخريب مقيت على أتمّه. من البيّن أن هناك من أراد تلك الكارثة. ظلّ فاغراً فاه، طقطقت القطع، وهَوَت مع إطاراتها، في انزلاق أخير كاد يودي به هو أيضاً. ذهبت بسالته، تصوُّرُ ذلك الرجل الذي قام بذلك جعَلَ شعر رأسه ينصب، وجمَّد أوصاله بذلك الخوف الديني من الشرّ، كما لو أن الرجل، ملتبساً بالظلام كان لا يزال هنالك، أضخم من جنايته التي تفوق الحدّ. صاح، حرّك الإشارة بيدٍ غضبى؛ ثم إن أوان ذلك كان قد حان، لأنه تبيّن، بعد مائة متر صعوداً، أن التبطين العلوي قد شرع في التململ بدوره: كانت المَواصِل تنفتح وتفقد سداداتها البلوطية،

وتُفلت جداول. كان الأمر مسألة ساعات، سوف ينتهي الأمر بالبئر إلى أن ينشق تبطينها وتتهدّم.

في السطح، كان السيد إينبو ينتظر نيغريل وهو مذعور.

«وعليه! ماذا؟»، سأله.

لكن المهندس، وهو مختنق، لم يتكلم قط. خانته قواه.

«ذلك غير ممكن، لم يسبق قط أن رأينا ذلك. هل قمتَ بالفحص؟».

«أجل»، أجاب محرّكاً رأسه، بنظرات ملؤها الريبة. امتنع عن شرح الأمور في حضرة بعض رؤساء العمال الذين كانوا ينصتون، ابتعد بِخالِه عشرة أمتار، ولما رأى أنه لم يبتعد بما فيه الكفاية، تراجع أكثر؛ ثم، خفية، في الأذن، أخبره في نهاية الأمر عن الاعتداء، عن الألواح التي ثُقِبت ونُشِرت، عن الحفرة التي ذُبِحت من الرقبة وهي تئن. بعد أن شحب لون المدير، خفض صوته هو كذلك، وتلك حاجة غريزية تسكت عن فظاعة الفواحش العظيمة والجرائم الكبيرة. كان من غير المجدي الظهور بمظهر من يرتعد أمام عمال مونسو العشرة آلاف: لاحقاً، سوف ينظرون في الأمر. واستمر الاثنان في الوشوشة، وقد راعهما أن رجلاً وجد الشجاعة للنزول والتدلي في الفراغ والمجازفة بحياته عشرين مرّة، لإنجاز تلك المهمة المرعبة. لم يفهما حتى تلك البسالة المجنونة في التدمير، ورفضا التصديق رغم البيّنة، مثلما يشكُّ الناس في قصص الهروب المشهورة، لأولئك السجناء الذين طاروا من النوافذ، من على علو ثلاثين متراً من الأرض.

حينما دنا السيد إينبو من رؤساء العمّال، جذبت انقباضة توترٍ وجهَه. وندّت عنه إيماءة يأس، وأعطى الأمر بإخلاء الحفرة في

الحال. وكان ذلك خروج مأثمي موجِع، هجرٌ أخرس، مع التفاتات نحو تلك الكُتل العظيمة من الآجر، الخالية والتي لا تزال واقفة، والتي لم يعُد في وسع شيء أن يخلّصها.

ولما كان المدير والمهندس آخر من نزل من المورد، لقيهما الحشد بهتافه، المتكرر بإصرار.

«الأسماء! الأسماء! أخبرونا بالأسماء!».

الآن، كانت ماهود هناك، بين النساء. كانت تتذكر ضجيج الليل، بنتها ومُستأجِرها اللذان خرجا معاً لا محالة، إنهما موجودان بكل تأكيد في الجوف؛ وبعدما صرخت أن ذلك جزاؤها، وأنهما يستحقان الهلاك هناك، هما اللذان لا قلب لهما، الجبانان، فإنها هرعت، وكانت واقفة في الصف الأول، ترتعد من الهلع. ثم إنها لم تَعُد لها الجرأة على الشكّ، الحديث المتصاعد حولها عن الأسماء كان يخبرها. أجل، أجل، كاترين كانت هناك، إتيان أيضاً، لقد رآهما رفيق. لكن، بخصوص الآخرين، لم يكن هناك اتفاق. كلا، ليس هذا، وإنما ذاك على العكس، ربما شافال، الذي أقسم صبي متعلّم أنه صعد معه، رغم ذلك. لوفاكه وبييرونه، وإن لم يكن لديهما أحد في خطر، فقد كانتا تصرّان، تنوحان بقوة مثل الأخريات. بعد أن كان من بين أول الخارجين، فإن زكاري، رغم مظهر من يتهكم من كل شيء، فإنه عانق زوجته وأمّه باكياً؛ وظل قرب هذه الأخيرة، يرتجف معها، وأبان تجاه أخته عن فيض من الحنان غير منتظر، رافضاً التصديق بأنها هنالك، بما أن الرؤساء لم يسجلوا ذلك رسمياً.

«الأسماء! الأسماء! ارحمونا، الأسماء!»

وقد توترت أعصابه، قال نيغريل للحراس بصوت عال:

«لكن، اجعلوهم يسكتون! إن ذلك يقتل المرء من شدة الحزن. إننا لا نعرف الأسماء».

انقضت ساعتان، مسبقاً. أثناء حالة الذعر الأولى، لم يفكر أحد في البئر الثانية، في بئر ريكيار القديمة. أعلن السيد إينبو أنهم سوف يحاولون الإنقاذ من تلك الجهة، عندما جرت بين الألسن همهمة: لقد أفلت خمسة عمّال من الفيضان للتو، بالصعود من السلالم المخربة في المنفذ القديم الذي كان خارج الاستعمال؛ وقد ذُكر اسم الأب موك، وسبّب ذلك استغراباً، لم يكن أحد يظن أنه في الجوف. لكن ما قصّه الهاربون الخمسة زاد من انهمار الدموع: لم يستطع خمسة عشر رفيقاً اتباعهم، إذ ضلّوا الطريق، وحبستهم التهَدّمات، لم يعُد من الممكن إنقاذهم، لأن الفيض بلغ أصلاً علو عشرة أمتار في ريكيار. باتت كل الأسماء معروفة، وامتلأ الهواء بأنين شعب مذبوح.

«أسكِتوهم، إذن!»، كرّر نيغريل، «وليتراجعوا! أجل، أجل، مائة متر! هناك خطر محدق، أبعدوهم، أبعدوهم».

تطلّب الأمر معاركة هؤلاء الناس المساكين. كانوا يتخيلون مآسي أخرى، يتم طردهم كي يحجبوا عنهم الأموات؛ ولم يجد رؤساء العمّال بُدّاً من أن يبيّنوا لهم أن البئر سوف تَبتلع الحُفرة. جعلتهم هذه الفكرة خرُساً من شدة الفزع، وانتهى بهم الأمر إلى الإذعان للتراجع خطوة بعد خطوة؛ لكن دعت الضرورة إلى زيادة عدد الحرّاس الذين كانوا يحبسوهم: إذ رغماً عنهم، وكأنهم منجذبون، كانوا يعودون دوماً. ألف شخص كانوا يتدافعون في

الطريق، يهرعون من كل المجمّعات، بل حتى من مونسو. والرجل، في الأعلى، فوق الردم، الرجل الأشقر، الذي له وجه فتاة، كان يدخن سجائر للانتظار، وهو يحدّ النظر في الحفرة بعينيه البراقتين.

حينئذ، ابتدأ الانتظار. كان الوقت منتصف النهار، لم يأكل أحد شيئاً، ولم يبتعد أحد. في السماء المغيّمة، بلون رماد متسخ، كانت تمر ببطء سحب لها لون الصدأ. كان كلب ضخم ينبح بشدة، بلا كلل، خلف سياج راسنور، وقد أزعجه نفَس الحشد الحيّ. وشيئاً فشيئاً، انتشر ذلك الحشد في الأراضي المجاورة، وشكّل دائرة حول الحفرة، على بعد مائة متر. وسط الفراغ الهائل، كان لوفوروه منتصباً. لا نفَس ولا ضجيج، مكان قفر؛ النوافذ والأبواب، التي ظلّت مفتوحة، كانت تفضح الداخل المهجور: هرّ أحمر، منسي، يشم تهديد تلك العزلة، وثب من سلم واختفى. لا شك أن مواقد المولدات كانت تنطفئ بالكاد، لأن مدخنة الآجر العالية كانت تنفث أدخنة خفيفة، تحت السحب المظلمة؛ بينما دوّار هواء البرج يصرُّ في مهبّ الريح، بصرخة خفية مرّة، الصوت الكئيب الوحيد في تلك البنايات الواسعة المقبلة على الموت.

في الساعة الثانية، لم يتحرك شيء. السيد إينبو، نيغريل ومهندسون آخرون هرعوا، كانوا على شكل مجموعة من المعاطف الطويلة والقبعات السوداء، متقدمين الناس؛ وهم أيضاً لم يبتعدوا بدورهم، وقد تقطّعت سيقانهم من شدة التعب، وسرت فيهم حمّى، وبهم علّة أن يشهدوا وهم عاجزون مصيبة مماثلة، ولا يهمسون إلاّ بكلام قليل، كما حذو شخص يحتضر. لا بد

أن التبطين العلوي قد انهار بالتمام، إذ كان يُسمع، مرات كثيرة دويّ مباغت، وأصوات زلزلة سقوط عميق، تعقبها فترات صمت شديدة. كانت تلك الشّجة التي تتسع دوماً: الهَدَم، الذي بدأ من الأسفل، كان يصعد، ويدنو من السّطح. اجتاح نيغريل نفاد صبر متوتر، كان يريد أن يرى، وتقدّم أصلاً، وحيداً في ذلك الفراغ المخيف حينما ارتمى بعضهم على كتفيه. وما الفائدة؟ لم يعُد في وسعه منع أي شيء. ومع ذلك، فإن عاملاً، عجوزاً، ضلّل الحرّاس، وركض حتى المستودع؛ ثم ظهر من جديد وهو هادئ، لقد ذهب بحثاً عن نعاله الخشبية.

دقّت الساعة الثالثة. لا شيء بعد. بلَّلَ وابل المطر الحشد الذي لم يتقهقر خطوة واحدة. عاد كلب راسنور للنباح. وفي الساعة الثالثة وعشرين دقيقة فحسب زلزلت الأرض بهزة أولى. ارتعد منها لوفوروه، الصلب، الواقف دوماً. لكن تبعتها هزة ثانية في الحال، وعَلَت صرخة مديدة من الأفواه المفتوحة: حظيرة قاعة الغربلة المُقيّرة، بعد أن ترنّحت مرّتين، هَوَت للتو بِقعقعة مرعبة. وتحت الضغط العظيم، تكسّرت الروافع واحتكّت بقوة بحيث كانت ترمي بحُزَم من شرار. ومنذ تلك اللحظة، لم تتوقف الأرض عن الزلزلة، تتابعت الهزّات، وانهدمت طبقات تحتانية، وسُمعت زمجرة بركان ثائر. بعيداً، توقف الكلب عن النباح، كان يطلق عويلاً فيه شكوى، كما لو أنه ينذر بالزلازل التي استشعر حدوثها؛ والنساء، والأطفال، كل ذلك الشعب الذي كان ينظر ولا يستطيع منع هتاف نجدة، مع كل وثبة كانت ترفعهم. في ظرف أقل من عشرة دقائق، انهار سقف البرج ذي القرميد، وانشقت

قاعة المورد وحجرة الآلة، وثقبهما شرخ عظيم. ثم سكَنَت الأصوات، توقف الانهيار، وعمّ من جديد صمت شديد.

مدة ساعة، ظلّ لوفوروه على تلك الحال، وهو محطّمٌ، كما لو أن جيشاً من الهمج فجّره من الداخل. لم يعُد أحد يصرخ، حلقة المتفرجين الواسعة كانت تنظر. تحت العماد المتراكم في قاعة الغربلة، يتبيّن الرائي آلات القلب المهشمة، والأقماع المثقوبة والمعوجّة. لكن على الأخص في المورد، حيث تراكمت الأنقاض، وسط مطر الآجر، بين أطراف كاملة من الجدران التي تساقطت حصى. انحنى هيكل الحديد الذي كان يحمل البكرات، بعدما غاص حتى منتصفه في الحفرة؛ ظلّ قفص متدلياً، بينما يطفو طرف سِّلك منزوع؛ ثم كانت هناك خلطة من عربات الحمل وبلاطات الحديد السبيك والسلالم. ومن باب الصدفة، قاعة المصابيح التي لم يمسسها ضرر كانت تبدي في الجهة اليسرى الرفوف الواضحة حيث مصابيحها الصغيرة. وفي أقصى حجرتها المخرّبة، تُرى الآلة، جالسة تماماً على قاعدتها من الآجر: كان النحاس يبرق، وأطراف الفولاذ الغليظة كان لها مظهر عضلات لا تقهر، المحور الضخم، المطوي في الهواء، كان يشبه رُكبة عملاق قوية، مضطجع، ورخيّ البالٍ من قوته.

بعد ساعة الهدنة تلك، شعر السيد إينبو بتجدد الأمل. لا بد أن حركة الطبقات الأرضية قد هدأت، وسوف يحظون بإنقاذ الآلة وبقية البنايات. لكنه كان يمنع دوماً الاقتراب، ويريد الصبر نصف ساعة أخرى. وأصبح الانتظار لا يطاق، والأمل يضاعف الهلع، كل القلوب كانت تخفق. سُحُب غائمة، متعاظمة في الأفق، كانت

تعجّل من المغيب، أفول نهار حزين على حطام عواصف الأرض ذاك. منذ سبع ساعات، والناس هناك، دون حركة ولا طعام.

وبغتة، لمّا كان المهندسون يتقدمون بحيطة، انتفضت الأرض نفضة قصوى جعلتهم يفرّون. دّوت فرقعات تحتانية، كانت مدفعية بكامل العدة تلهو في الهاوية. وفي السطح، كانت آخر المنشآت تنقلب وتنسحق. في البداية، ما يشبه الزوبعة حملت أنقاض قاعة الغربلة وقاعة المورد. ثم هوت بناية المراجل واختفت. وبعد ذلك البرج الصغير المربّع الذي كانت تئنّ فيه مضخة التصريف، التي سقطت على وجهها، مثل رجل أسقطته قذيفة مدفع. وعندها، رأى الناس شيئاً مخيفاً، رأى الناس الآلة مُفكّكة فوق قاعدتها، أطرافها مفصولة، وهي تنازع الموت: مَشَت، مدّت محورها، رُكبتها العملاقة، كأنما تريد أن تنهض؛ لكنها كانت تزفر، مسحوقة، مُبتَلَعة. وحدها المدخنة العلوية ذات الثلاثين متراً ظلت واقفة، تهتز مثل صارٍ في عاصفة بحرية. وظن الناس أنها سوف تصير هشيماً وتتطاير غباراً حينما، فجأة، وغاصت دفعة واحدة، وقد شربتها الأرض، وذابَت مثل شمعة هائلة؛ ولم يعُد شيء يظهر، ولا حتى رأس مانع الصواعق. قُضي الأمر، لم يعُد الوحش الكريه يزفر نفَسه الغليظ والمديد. بتمامه، غرق لوفوروه في الهاوية.

فرّ الحشد صارخاً. كانت النساء يركضن وهن يحجبن العيون. دحرج الرعب الرجال مثل أوراق يابسة. لم يَرِد الناس أن يصيحوا، إلا أنهم صاحوا بملء الحناجر والأيادي مرفوعة إلى السماء، مقابل الثقب الواسع الذي انحفر. فوهة البركان الخامد تلك، البالغ عمقها خمسة عشر متراً، كانت تمتد من الطريق

إلى القناة، عرضها أربعون متراً على أقل تقدير. مساحة المنجم بأجمعها تَبعَت البنايات، المرافع الجبّارة، المعابر بسككها، قطار كامل من العربات، ثلاث مقطورات، هذا فضلاً عن مخزون الخشب، غابة أعمدة مقطوعة، ابتُلِعَت مثل الهشيم. في الجوف، لا يتبيّن الناظر إلا ركاماً من الأعمدة والآجر والحديد والجصّ، بقايا مرعبة مرصوصة، متداخلة، قذرة، في قبضة الكارثة تلك. وكانت دائرة الثقب تزداد، وتنطلق من الحواف شقوق، تعدو بعيداً، خلال الحقول. كان شقٌّ يصعد حتى حانة راسنور التي تكسّرت واجهتها. هل المجمّع بنفسه سيصاب؟ إلى أية مسافة يلزم الهرب، حتى يكون المرء بمنأى، في أفول النهار المقيت ذاك، تحت تلك الغيوم من رصاص، التي يبدو أنها تريد هي الأخرى أن تسحق الناس؟

لكن نيغريل رمى صرخة متفجّع. بكى السيد إينبو، الذي كان قد تراجع. لم تكن المصيبة تامة، انفصلت حافة وانسكبت القناة دفعة واحدة، على هيئة فَرشٍ يغلي، في شقة من الشقوق. ثم اختفى فيها، وسقط مثل شلال في وادٍ عميق. كان المنجم يشرب ذلك النهر، والفيض يغمر الآن السراديب لأعوام. وسرعان ما غُمِرت الفوهة، احتلت بحيرة من الماء الموحل المكان الذي وجد فيه لوفوروه منذ وقت غير بعيد، مثل تلك البحيرات التي ترقد تحتها مدنٌ ملعونة. عمّ صمت مخيف، ولم يعُد يُسمع سوى سقوط ذلك الماء، الذي يشخر في أحشاء الأرض.

حينذاك فوق الردم المهتز، نهض سوفارين. كان قد تبيّن ماهود وزكاري، ينتحبان أمام ذلك الانهيار الذي يثقل وزنه على

رؤوس التعساء الذين يحتضرون في الجوف. رمى سيجارته الأخيرة، وابتعد دون نظرة واحدة إلى الخلف، وسط الليل الذي صار مظلماً. بعيداً، تقلّص ظلّه، وامتزج بالظل. إلى هنالك كان ذاهباً، إلى المجهول. كان ذاهباً بمظهره السّاكن، إلى الإبادة، في أي مكان وجد به متفجرات، كيما يفجر المدن والناس. سوف يكون هو ذاك، لا ريب، حينما ستسمع البرجوازية المحتضرة، تحتها، في كل خطوة من خطواتها، تطايُر شظايا رصيف الأزقة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

IV

في الليلة نفسها التي أعقبت انهيار لوفوروه، رحل السيد إينبو إلى باريس، إذ شاء أن يخبر الوكلاء بنفسه، قبل أن تتمكن الصحف من نشر الخبر. وحينما رجع، في اليوم التالي، كان هادئاً جداً، يلوح عليه مظهر المُدبِّر المستقيم. من البيّن أنه أبعد عن نفسه كل مسؤولية، ولم يبدُ أن حظوته نقصت، بل على العكس، تمّ توقيع المرسوم الذي عيّنه ضابطاً في جوقة الشرف أربعاً وعشرين ساعة بعد ذلك.

لكن إذا نجا المدير، فإن الشركة كانت تترنّح من شدة الضربة الرهيبة. لم يتعلق الأمر قطعاً بخسارة ملايين معدودة، وإنما بالجرح في الخاصرة، الفزع المكتوم والوشيك من الغد، أمام ذبح بئر من آبارها. من شدة الضربة، فإنها شعرت مرة أخرى بالحاجة إلى الصّمت. ما فائدة الخوض في ذلك الأمر البغيض؟ لمَ، إن كشف المجرم، جعله شهيداً، فإن بطولته المرعبة ستفسد رؤوساً أخرى، وتخلق سلالة كاملة من مشعلي الحرائق والقتلة؟ ثم إنها لم تشكّ في المذنب الحقيقي، وانتهى بها الأمر إلى الظن أن هناك جيش من المتواطئين، لأنها لم تستطع الاقتناع بأن رجلاً وحيداً وجد الجرأة والقوة للقيام بمثل تلك المهمة؛ وهناك، بالضبط، تكمن الفكرة التي كانت تستحوذ عليها، فكرة تهديد أضحى متفاقماً بمحيط مناجمها. تلقّى المدير أمراً بإنشاء نظام واسع للتجسس، ثم طرد الرجال المشكوك في مشاركتهم في الجريمة، واحداً تلو الثاني، دون ضجيج. تمّ الاكتفاء بذلك التطهير، ذي الحيطة السياسية العالية.

وقـع طـرد مسـتعجل واحـد، طـرد دانسـير، رئيـس العمّـال الأول. منـذ الفضيحـة فـي بيـت **پييرونـه**، لـم يعُـد مقبـولاً. وتـم التـذرع بموقفـه أثنـاء الخطـر، جبـن رئيـس العمـال الـذي يتخلـى عـن رجالـه. مـن جهـة ثانيـة، فذلـك تفضيـل خفِـيّ لعمـال المنجـم الذيـن كانـوا يمقتونـه.

وفـي تلـك الأثنـاء، دارت بعـض الشـائعات بيـن الجمهـور، ولـم تجـد الشـركة بُـدّاً مـن إرسـال بيـان توضيـح لإحـدى الصحـف، كيمـا تُكّذِب روايـة جـرى فيهـا الحديـث عـن برميـل مـن البـارود أشـعله المضربـون. أصـلاً، بعـد تحقيـق سـريع، خلـص تقريـر مهنـدس الحكومـة إلـى تصدّع طبيعـي فـي التبطيـن قـد يكـون ناتجـاً عـن خسـوف الطبقـات الأرضيـة؛ وفضَّلَـت الشـركة السـكوت وقبـول التوبيـخ عـن سـوء المراقبـة. فـي الصحافـة، بباريـس، منـذ اليـوم الثالـث، أصبحـت الكارثـة تُغـذي الحـوادث المختلفـة: لـم يعُـد هنـاك حديـث إلا عـن العمّـال الذيـن يحتضـرون فـي جـوف المنجـم. بـل فـي مونسـو ذاتهـا، كانـت وجـوه سـكان المدينـة تشـحب ويعسـر عليهـم النطـق عنـد سـماع اسـم لوڤـوروه وحـده، ونشـأت خرافـة، كان يوشـوش بهـا الأشـد جسـارة فـي الأذن. وأبانـت البلـدة برمتهـا عـن تأثـر كبيـر إزاء الضحايـا، وكان يتـم القيـام بجـولات إلـى الحفـرة المدمـرة، وتهـرع إليهـا الأسـر لمشـاهدة فظاعـة الأنقـاض، التـي تحـط بثقلهـا البالـغ علـى رؤوس التعسـاء المدفونيـن.

دونـولان، المعيّـن كمهنـدس قسـم، وقـع تـوّاً فـي المصيبـة بمناسـبة دخولـه الوظيفـة؛ وكان أول أمـر اعتنـى بـه هـو إعـادة القنـاة إلـى مجراهـا. ولأن سـيل المـاء ذاك يزيـد مـن حـدة الخسـارة كل سـاعة.

كان من الضروري القيام بأشغال كبرى، وجعل في الحال ما يقرب من مائة عامل في بناء سدّ. لمرتين، حملت قوة السيل السدود الأولى. ثم وُضِعت مضخات، كان الأمر كفاحاً مستميتاً، استعادة شديدة، خطوة بعد خطوة، لتلك الأراضي المختفية.

لكن إنقاذ عمال المنجم الذين خُسِفَ بهم كان يستهوي الأفئدة أكثر. ظلّ نيغريل مكلّفاً بمحاولة جهد أقصى، ولم تكن الأذرع هي ما ينقصه، لقد هبّ عمال الفحم طوعاً، بدافع الأخوة. لقد تغاضوا عن الإضراب، ولم يعُد شاغلهم هو الأجرة؛ يمكن ألّا يُمنحَ لهم شيء، وهم لا يطلبون سوى التضحية بأنفسهم، بما أن هنالك رفاق دهمهم خطر الموت. كانوا هناك جميعاً، بأدواتهم، يرتعشون، ينتظرون معرفة المكان الذي يجب الحفر فيه. كثرة منهم، الذين أصابتهم علّة الذعر عقب الحادثة، تهتز أجسامهم برعدة متوترة، يبلّلهم عرق بارد، استحوذت عليهم كوابيس مستمرة، كانوا ينهضون رغم ذلك، ويظهر عليهم أنهم الأشد حميّة في إرادة مصارعة الأرض، وكأن لهم ثأر. من سوء الحظ، بدأ الارتباك أمام مسألة تخص مهمة نافعة: ما العمل؟ كيف ينزلون؟ من أي جهة يتصدون للصخور؟

استقر رأي نيغريل على أن ولا أحد من الأشقياء سوف ينجو، لقد هلك الخمسة عشر بكل تأكيد، غرقاً أو اختناقاً؛ لكن، في كوارث المناجم تلك، القاعدة هي أن يُفترض دوماً بأن الرجال المدفونين في الجوف هم أحياء؛ وكان يفكر بهذا المعنى. تمثل المشكل الأول في استنباط المكان الذي لاذوا به. رؤساء العمال، الشيوخ من عمّال المناجم الذين استشارهم اتفقوا حول هذا

الأمر: عند ارتفاع الماء، بكل تأكيد صعد الرفاق، من سرداب إلى سرداب، حتى المقالع الأكثر علوّاً، بحيث أنهم لا شك محاصرون عند طرف مسلك علوّي من المسالك. كان ذلك يتفق، فضلاً عن ذلك، مع معلومات الأب **موك**، الذي تدعو روايته المضطربة إلى الاعتقاد بأن ذعر الهروب فرّق العصبة جماعات صغيرة، ضل في طريقها الهاربون، عند كل الطوابق. لكن اختلفت بعد ذلك آراء رؤساء العمال ما أن يدور الحديث عن المحاولات الممكنة. بما أن المسالك الأقرب من الأرض كان على عمق مائة وخمسين متراً، لم يكن في الوسع التفكير في حفر بئر. بقي ريكيار، المنفذ الوحيد، الموضع الوحيد الذي منه يقتربون. لكن تجلى الأمر الأسوأ في أن الحفرة القديمة، المغمورة بالماء هي الأخرى، لم تعد تتصل بلوڤوروه، ولم يكن فيها من فسحة متاحة، فوق مستوى المياه، سوى مقاطع من سرداب تابع لسلم البئر الأول. كان تصريف المياه سيتطلب أعواماً كثيرة، أفضل قرار كان إذن هو زيارة تلك السراديب، للتحقق مما إذا لم تكن مجاورة للمسالك المغمورة بالماء، التي في أقصاها يحوم الشك في وجود عمال المنجم في المحنة. قبل أن يصل بهم الأمر إلى هناك من باب المنطق، تجادلوا طويلاً لاستبعاد مشاريع غير قابلة للإنجاز.

من حينه، نفض نيغريل الغبار عن الأرشيف، وعندما وجد التصاميم القديمة الخاصة بالحفرتين، درسها، وحدد المواضع التي سيشملها البحث. شيئاً فشيئاً، ألهبت تلك المطاردة حماسه، وقد اعترته، بدوره، حمّى الإخلاص، رغم لامبالاته الساخرة بالناس وبالأشياء. وُجِدت صعوبات أولى للنزول، في ريكيار: وجب

إزالـة الأنقـاض مـن فوّهـة البئـر، قطـع شـجرة الغبيـراء، وأشـجار البرقـوق الشـائك والزعـرور البـرّي؛ كمـا لـزم أيضـاً ترميـم السـلالم. ثـم بـدأ تلمّـس الطريـق. نـزل المهنـدس مـع عشـرة عمّـال وجعلهـم يضربـون بأدواتهـم الحديديـة بعـض أجـزاء العِـرق كان يدلّهـم عليهـا؛ وسـط صمـت مطبـق، كان كل واحـد يلصـق أذنـه علـى حجـارة الفحـم، كيمـا يسـمعوا إذا كانـت هنـاك ضربـات بعيـدة تُرجّـع صـدى. لكـن جاسـوا دون طائـل كل السـراديب السـالكة، لـم يرجِـع أي صـدى. وقـد زاد الحـرج: فـي أي موضـع تُشـقُّ الطبقـة؟ نحـو مَـن المسـير، بمـا ألاّ أحـد يبـدو هنـاك؟ ومـع ذلـك كان هنـاك إصـرار، وبحـث مـع توتـر القلـق المتعاظـم.

منـذ اليـوم الأول، كانـت ماهـود تصـل صباحـاً إلـى ريكيـار. تجلـس قبالـة البئـر، علـى عمـود، ولا تبـرح مكانهـا إلـى غايـة المسـاء. حينمـا كان يخـرج رجـل مـن هنـاك، تنهـض، تسـأله بعينيهـا: لا شـيء؟ كلا، لا شـيء! ثـم تجلـس مـن جديـد، وتنتظـر زيـادة دون كلمـة واحـدة، الوجـه صـارم وعابـس؛ جونـلان، بـدوره، لمـا رأى أنـه تـمّ اجتيـاح مخبئـه، كان يحـوم، ويبـدو عليـه هلـع وحـش مفتـرس سـوف يفضـح جحـر المسـروقات: كان يفكـر فـي الجنـدي الصغيـر، الراقـد تحـت الصخـور، والخـوف مـن أن يتـمّ إربـاك نومـه الطيـب ذاك؛ لكـن تلـك الجهـة مـن المنجـم كانـت مغمـورة بالميـاه، ثـم إن عمليـات الحفـر كانـت تتجـه أكثـر نحـو اليسـار، فـي السـرداب الغربـي. بدايـة، جـاءت فيلوميـن أيضـاً لمرافقـة زكاري الـذي كان ضمـن فرقـة البحـث؛ ثـم إنهـا ضجـرت مـن البـرد القـارس دون لـزوم ولا نتيجـة؛ كانـت تلبـث فـي المجمّـع، وتجـر وراءهـا أيامهـا هـي المـرأة الرخـوة، غيـر

المبالية، المشغولة بالسعال من الصباح حتى المساء. وعلى الضد من ذلك، لم يعُد زكاري يذوق طعم الحياة، ولو استطاع ذلك لأكل التراب لاسترجاع أخته. كان يصرخ أثناء الليل، يراها، يسمعها، وقد هزلت تماماً من شدة الجوع، وهلكت حنجرتها من شدة طلب الاستغاثة. لمرّتين، أراد أن يحفر دون أمر، حيث يقول، إن المكان هناك، وإنه يشعر بذلك حقاً. لم يعُد المهندس يسمح له بالنزول، وهو لم يعُد يبتعد عن تلك البئر التي يُطرَد منها، بل لم يعُد في وسعه الجلوس والانتظار جنب أمه، إذ تهزه حاجة إلى التصرف، والدوران دون هوادة.

في اليوم الثالث، ومن يأسه، قرر نيغريل ترك كل شيء في المساء. في منتصف النهار، بعد الغذاء، حينما رجع مع رجاله، سعياً لبذل جهد أخير، استغرب لما رأى زكاري خارجاً من الحفرة، محمّر الوجه، يلوّح بيديه، صارخاً:

«إنها هناك! لقد أجابتني! أقبلوا، هيّا أقبلوا!».

كان قد اندسّ عبر السلالم، رغم الحارس، وهو يقسم بأن هنالك ضرب، في المسلك الأول من عِرق غيُوم.

«لكن سبق أن سلكنا مرّتين من حيث تقول»، لاحظ نيغريل غير مصدّق، «طيّب، سوف نذهب للتحقق».

نهضت ماهود؛ ولزم منعها من النزول. كانت تنتظر وهي واقفة تماماً، عند حافة البئر، وعيناها في ظلمات ذلك الثقب.

في الأسفل، قام نيغريل بنفسه بالضرب ثلاث ضربات، بينها فاصل بما يكفي؛ ثم ألصق أذنه على الفحم، آمراً العمال بأقصى درجة من الصمت. لم يصله صوت واحد، هزّ رأسه: من البيّن أن

الولد المسكين كان يتخايل. من شدة غضبه، وجّه زكاري ضربة بدوره؛ وكان ينصت من جديد، وعيناه تلتهبان، وتضطرب أطرافه برعدةِ فرحٍ. حينها، قام العمال الآخرون بالتجربة مرة ثانية، على التوالي: ودبّت الحركة فيهم جميعاً، وكانوا يدركون بحق الردّ البعيد. كان ذلك أمر مستغرباً بالنسبة للمهندس، ألصق أذنه، وانتهى به الأمر إلى تبيّن صوت هواء خفيف، دردبة منتظمة بالكاد تميّزها الأذن، الوقع المعروف للنداء على عمال المناجم، الذين يضربون به حجارة الفحم، عند الخطر. لأن الفحم ينقل الأصوات بمثل صفاء البلّور، بعيداً جداً. قال رئيس عمال كان هناك بأن الصخرة المرصوصة التي يفصلهم سمكها عن الرفاق تقدر بما لا يقل عن خمسين متراً. لكن بدا أن في الإمكان مدّ يد العون إليهم، تعالت صيحات الفرح. ولم يجد نيغريل بُدّاً من البدء لتوّه في أشغال القرب.

حينما التقى زكاري فوق، أمه ماهود، تعانقا.

«لا يجب أن تفرحا»، وجدت **بييرونه** من القسوة ما يدعوها لقول ذلك، إذ حضرت ذلك اليوم للنزهة، وحب الاستطلاع، «إذا كانت كاترين غير موجودة هناك، فإن ذلك سيصيبكما بمزيد من الوجع».

صحيح، ربما كانت كاترين موجودة في مكان آخر.

«اغربي عن وجهي، هه!»، صاح زكاري وقد ثارت ثائرته، «إنها هناك، أعرف ذلك!».

ما أن انتشر الخبر في مونسو، حتى وصل سيل جديد من الناس. لم يكن أحد يرى شيئاً، وكانوا يظلون هناك رغم ذلك،

ثـم وجـب إبعـاد المتطفليـن. فـي الأسـفل، كان العمـل يجـري. ليـل نهـار. لخشـيته مـن مصادفـة عائـق مـا، أمـر المهنـدس بفتـح ثلاثـة سـراديب نازلـة، داخـل العِرق، تلتقـي عنـد الموضـع الـذي يفترضـون أن العمـال محبوسـون فيـه. كان فـي وسـع حفّـار واحـد اقتـلاع الفحـم، عنـد جبهـة المنفـذ الضيـق؛ وكان يتـم اسـتبداله بعـد كل سـاعتين؛ أمـا الفحـم الـذي كانـت تُحمّـل بـه السـلال، فقـد كان إخراجـه يجـري مـن يدٍ إلـى يدٍ عبـر سلسـلة مـن الرجـال، تمتـد كلمـا انحفـر الثقـب. فـي البدايـة، تمّـت المهمـة بسـرعة: إذ أنجِـزت سـتة أمتـار فـي يـوم واحـد.

اسـتطاع زكاري أن يكـون ضمـن عمّـال النخبـة لأجـل القلـع. كان ذاك منصـب شـرفي يتنازعـه العمـال. وكانـت تثـور ثائرتـه عندمـا يـراد اسـتبداله، بعـد سـاعتَي عملـه الشّـاق المتفـق عليـه. كان يسـرق دور رفاقـه، ويرفـض تـرك المعـول. وسـرعان مـا أضحـى سـردابه فـي مقدمـة السـراديب الأخـرى، يتعـارك فيـه مـع الفحـم باندفـاع شـرس، حيـث كان يُسـمع نفـس صـدره المزمجـر صـاعداً مـن المنفـذ، مثـل نخيـر كِيـرِ حـدادةٍ باطنـي. حينمـا كان يخـرج مـن هنـاك، مطلـي بالوحـل ومسـود، سـكران مـن التعـب، كان يخـرُّ علـى الأرض، ويتطلـب الأمـر لفَّـه فـي غطـاء. ثـم، وهـو لا يـزال يترنّـح، يغـوص مـرة ثانيـة، ويبـدأ الصـراع مـن جديـد، الضربـات العظيمـة المكتومـة، الأنّـاة المحبوسـة، انحبـاس مذبحـة منتصـر. الأسـوأ هـو أن الفحـم كان يـزداد صلابـة، لقـد كَسَـر مرّتيـن أداتـه، وهـو حنـق مـن كونـه لـم يعُـد يتقـدم بسـرعة كبيـرة. كان يعانـي أيضـاً مـن الحـرارة، حـرارة تـزداد مـع كل متـر مـن التقـدّم، لا تُطـاق فـي جـوف ذلـك الثقـب الضيـق حيـث لا يسـتطيع الهـواء أن يجـري. كانـت هنـاك مروحـة ذراع تشـتغل حقـاً،

إلا أن التهوية لا تتم بشكل حسن، ولثلاث مرّات سُحب حفّارون مغشياً عليهم، خنقهم ضيق التنفس.

كان نيغريل يقيم في الجوف مع عمّاله. تُنزَل إليه وجبات طعامه، وأحياناً ينام مدة ساعتين على كومة التبن، ملفوفاً في معطف. ما يسند العزائم، هو توسّل التعساء، هنالك، النداء البيّن أكثر فأكثر الذي كانوا يضربونه حتى يستعجلوا الوصول. في الوقت الحالي، كان يرن بوضوح كبير، بجرسٍ موسيقي، وكأنه عزف على قصبات آلة نغم. كانوا يهتدون به، ويسيرون على ذلك الصوت البلّوري، مثلما يسير الناس على دوي المدافع في المعارك. كلما تمّ استبدال حفّار، كان نيغريل ينزل، يضرب ويلصق أذنه؛ وكل مرّة، حتى الآن، كان الجواب يصل، سريعاً ومستعجلاً. لم يعُد لديه أدنى شكّ، إنهم يتقدمون في الاتجاه السليم؛ لكن يا له من بطء محتوم! لن يصلوا أبداً مبكراً بما يكفي. بداية، في يومين، صحيح أنهم اقتلعوا ثلاثة عشر متراً، فحسب، في اليوم الثالث، تراجعوا إلى خمسة أمتار، ثم ثلاثة في اليوم الرابع. كان الفحم يتراصّ، ويزداد صلابة إلى حدّ أنهم الآن، كانوا يتوغلون بمترين، بمشقة. في اليوم التاسع، بعد جهود تفوق قدرة البشر، بلغ التقدم اثنين وثلاثين متراً، وحسبوا أن أمامهم عشرين متراً تقريباً. بالنسبة للمحبوسين، كانت تلك بداية اليوم الثاني عشر، اثنا عشر مرة أربعاً وعشرين ساعة دون رغيف، دون نار، في تلك الظلمات الجليدية! كانت تلك الفكرة البغيضة تُدمِع الأجفان، تشلُّ الأذرع عن العمل. وبدا من المستحيل أن يظل مسيحيون على قيد الحياة زيادة، الضربات البعيدة صارت ضعيفة منذ

اليوم السابق، وكل لحظة كانت تسري في الأبدان رعدة، فزعاً من سماعهم قد توقفوا.

بانتظام كانت ماهود تأتي دوماً للجلوس عند فوّهة البئر. تُحضر بين ذراعيها إستيل التي لا يمكنها البقاء وحدها من الصباح حتى المساء. ساعة تلو ساعة، تتابع الشغل على تلك الحال، تتقاسم الأمل والخيبة. في الجماعات المتوقفة وحتى مونسو، كان الانتظار محموماً، وشروحات لا حدّ لها. كل أفئدة البلد كانت تخفق هنالك، تحت الأرض.

في اليوم التاسع، وقت الغذاء، لم يُجِب زكاري حينما نودي عليه للبدل. كان كالمجنون، ويصرّ بلفظ شتائمه. خرج نيغريل لحظة، ولم يستطع ثنيه عن عصيانه الأوامر؛ ولم يكن هناك سوى رئيس عمال واحد، وثلاثة عمال. لا شك أن زكاري ارتكب حماقة إشعال مصباحه، من سوء الإنارة وغضبه الشديد من ذلك الوميض المتأرجح الذي يؤخر عمله. وقد سبق رغم ذلك أن صدرَت أوامر صارمة، إذ وقع تسرّب الغاز الذي يلبث بكمية هائلة في تلك الأروقة الضيّقة التي لا تهوية فيها. بغتة، دوّت صاعقة، وتدفقت النيران من منفذ السراديب، مثل فوّهة مدفع مُحمّل بالطلقات. التهب كل شيء، اشتعل الهواء كما الغبار، من أدنى السراديب إلى أقصاها. ذلك السّيل من اللهب جرف رئيس العمال والعمال الثلاثة، صعد البئر، وانفجر في السطح بركاناً، كان يرمي الصخور وبقايا البناء الخشبي. فرّ الفضوليون، نهضت ماهود، وشدّت على صدرها إستيل المذعورة.

حينما رجع نيغريل والعمّال، هزّهم غضب رهيب. كانوا يخبطون الأرض بأقدامهم مثل زوجة أب تقتل أطفالها صدفة،

فـي غمـرة نـزوات قسـوتها الحمقـاء. يُخلِصُ المـرء، يهـب لنجـدة رفاقـه، ويجـب أن يهلـك رجـال أثنـاء ذلـك! بعـد ثـلاث سـاعات طويلـة مـن بـذل الجهـود وركـوب المخاطـر، حينمـا تـمّ ولـوج السـراديب فـي نهايـة المطـاف، كان رفـع الضحايـا موجِعـاً. لـم يمُـت رئيـس العمـال ولا مـات العمّـال، لكـن جروحـاً فظيعـة كانـت تغطـي أبدانهـم، تنبعـث منهـا رائحـة تشـيّط اللحـم؛ لقـد شـربوا النـار، نزلـت الحـروق حتـى الحلقـوم وكانـوا يصـدرون عويـلاً متواصـلاً، ويتوسّـلون بـأن يقتلوهـم رحمـة بهـم. أحـد العمـال الثلاثـة، كان الرجـل الـذي قـام أثنـاء الإضـراب بثقـب مضخـة غاسـتون مـاري بضربـة فـأس أخيـرة؛ واحتفـظ الاثنـان الآخـران بنـدوب فـي اليديـن، وسُـلخ جلـد أصابعهـم، وجُرحـت أصابعهـم مـن فـرط قـذف الجنـود بالآجـر. انحسـر الحشـد، الشـاحب والمرتعـد، عنـد مرورهـم.

كانـت ماهـود تنتظـر، منتصبـة القامـة. وظهـر جسـد زكاري فـي نهايـة المطـاف. احترقـت الملابـس، ولـم يعُـد الجسـد سـوى فحـم أسـود، متفحّـم، لا تُعـرف ملامحـه. لـم يعُـد الـرأس موجـوداً، إذ تهشـم فـي الانفجـار. وحينمـا وضعـت تلـك الأشـلاء المرعبـة فـي حمّالـة، تبعتهـا ماهـود بخطـو مثـل الآلـة، الجفنـان ملتهبـان، ليـس فيهمـا دمعـة واحـدة. كانـت تحمـل بيـن ذراعيهـا إسـتيل التـي غلبهـا النعـاس، انصرفـت وكلهـا أسـى، وشـعرها تضربـه سـياط الريـح. فـي المجمّـع، بقيـت فيلوميـن فـي غفلـة، وقـد تحولـت عيناهـا إلـى ينبـوع مـاء، وأراحـت نفسـها فـي الحـال. لكـن كانـت الأم قـد رجعـت مسـبقاً بالخطـوات ذاتهـا إلـى ريكيـار: لقـد رافقـت ولدهـا، وعـادت لانتظـار بنتهـا.

مضت ثلاثة أيام زيادة. استؤنِفت أشغال الإنقاذ، وسط صعوبات لا تصدَّق. من حسن الحظ أن سراديب القُرب لم تخسف بعد انفجار الغاز؛ لكن، كان الهواء فيها حارقاً، ثقيلاً وفاسداً بحيث لزم وضع مراوح أخرى. كل عشرين دقيقة، كان الحفّارون يتناوبون. وبتقدم الحفر، كان يفصلهم عن الرفاق متران بالكاد. لكن، في الوقت الحالي، كانوا يعملون والقلب محبط، يضربون بشدة من باب الانتقام فحسب؛ لأن الأصوات توقفت، ولم يعُد النداء يرنّ بوقعه الواضح. كان ذلك اليوم الثاني عشر من الأشغال، واليوم الخامس عشر من الكارثة؛ ومنذ الصباح، خيّم صمت جنائزي.

زادت الحادثة من فضول أهل مونسو، ونظّم السكّان خرجات فيها من البهجة بالقدر الذي جعل آل غريغوار يقررون اتباع الناس. رُتبت خرجة، واتفق على الذهاب إلى لوفوروه في عربتهم، بينما ستُقِلُّ السيدة إينبو في عربتها كلاً من لوسي وجان. سوف يُيَسر لهم دونولان زيارة موقع عمله، ثم يرجعون إلى ريكيار، حيث سيخبرهم نيغريل عن الموضع الذي بلغته السراديب وإن كان لا يزال لديه أمل. وفي الأخير، سيمضون العشاء جميعاً في المساء.

حوالي الساعة الثالثة، حينما نزل آل غريغوار وابنتهما سيسيل قبالة الحفرة التي خُسِف بها، وجدوا هناك السيدة إينبو، التي وصلت أوّلاً، بزيّ أزرق بحري، تحمي نفسها بمظلة من شمس فبراير الشاحبة. كان للسماء الصافية جداً دفء الربيع. وبالمناسبة، كان السيد إينبو هناك، رفقة دونولان؛ وكانت تنصت بأذن لاهية إلى الشروحات التي يقدّمها ذلك الأخير عن الجهود المبذولة لسدّ القناة. جان، التي تحمل معها كرّاسة على الدوام،

أخـذت ترسـم بالقلـم، وقـد التهـب حماسـها مـن فظاعـة المشـهد؛ بينمـا كانـت لوسـي جالسـة جنبهـا علـى حطـام مقطـورة، تهتـف أيضـاً بعبـارات ارتيـاح وتعجـب، إذ تجـد ذلـك «رائعـاً حقـاً». كان السّـد غيـر المكتمـل لا يمنـع مـرور تسـريبات كثيـرة، سـيولُ زبدِهـا تمـوجُ وتسـاقط شـلالاً فـي ثقـب الحفـرة المغمـورة الواسـع. رغـم ذلـك كانـت تلـك الفوّهـة تفـرغ، والمـاء الـذي تشـربه الأتربـة ينخفـض كاشـفاً الخسـارة المرعبـة التـي اصابـت الجـوف. وفـي ظـلّ السـماء الرحيمـة لليـوم الجميـل، كانـت ثمـة بالوعـة، خرائـب مدينـة انخسـفت وذابـت فـي الوحـل.

«ويزعـج المـرء نفسـه لرؤيـة هـذا!»، صـاح السـيد غريغـوار، وقـد زال عنـه وهمـه.

سيسـيل، مـورّدة الخدّيـن صِحّـة، فرِحـة باسـتنشـاق الهـواء النقـي بـكل ذلـك القـدر، كانـت تمـرح، تمـزح، بينمـا السـيدة إينبـو تلـوي حنكهـا مشـمئزة وهـي تهمـس:

«الحق أن ليس في ذلك ما يسرّ الناظر».

أخـذ المهندسـان يضحـكان. حرِصـا علـى لفـت عنايـة الـزّوار بمرافقتهـم إلـى كل الأمكنـة، وشـرحا لهـم حركـة المضخـات وعمـل المـدقّ الـذي يغـوّر الأوتـاد. لكـن اسـتبدت الحيـرة بتلـك السـيدات، وأخذتهـن رعـدة حيـن علمـن أن المضخـات تعمـل منـذ أعـوام، سـتة أعـوام أو سـبعة علـى الأرجـح، قبـل إعـادة بنـاء البئـر، وأنـه قـد تـمّ نـزح مـاء الحفـرة كلـه. كلّا، إنهـن يفضلـن التفكيـر فـي غيـر ذلـك، تلـك الانقلابـات لا تصلـح لشـيء سـوى التسـبب فـي أحـلام مخيفـة.

«هيّا بنا»، قالت السيدة إينبو وهي تتجه نحو عربتها.

صاحت جان ولوسي. كيف، بهذه السرعة! والرسم الذي لم يكتمل! أرادتا البقاء، وسوف يحضرهما أبوهما للعشاء، في المساء.

جلس السيد إينبو وحده رفقة زوجته في العربة المجرورة، لأنه كان بدوره يريد سؤال نيغريل.

«وعليه! سيروا إلى الأمام»، قال السيد غريغوار، «سوف نتبعكم، لدينا زيارة صغيرة مدة خمس دقائق، هناك، في المجمّع. هيّا، هيّا، سنصل إلى ريكيار وإياكم في الوقت نفسه».

ركبَ خلف السيدة غريغوار وسيسيل؛ وبينما أسرعت العربة الثانية على طول القناة، صعدت عربتهم المرتقى بلُطفٍ.

كان لا بدّ من ختم الخرجة بنيّة الإحسان. إذ أن موت زكاري ملأ قلوبهم شفقة تجاه أسرة **ماهو** التي طبعتها المأساة، وكان البلد بأكمله يتحدث عنها. لم تأخذهم شفقة بالأب، ذاك اللص، قاتل الجنود الذي لزم قتله مثل ذئب. إلا أن الأم كانت تؤثر فيهم، تلك المرأة البائسة التي ثكلت ولدها، بعد فقدان زوجها، والتي لم تكن بنتها سوى جثة، على الأرجح، تحت الأرض؛ هذا فضلاً عن الجد المعطوب، وطفل أعرج بعد انهيار، وبنت صغيرة ماتت جوعاً، إبّان الإضراب. لذلك، رغم أن تلك الأسرة استحقت شيئاً ما مصائبها، نظراً لطبعها البغيض، فإنهم قرروا التأكيد على سعة إحسانهم، ورغبتهم في النسيان والصلح، وذلك بأن أحضروا إليها الصدقة بأنفسهم. رزمتان، مغلفتان بعناية، كانتا أسفل مقعد العربة.

دلّت سيدة عجوز الحوذي على بيت آل **ماهو**، الرقم 16 من القسم الثاني. لكن، حين نزل آل غريغوار مع الرزمتين، طرقوا

الباب دون جدوى، وانتهى بهم الأمر إلى خبط الباب بقبضة اليد دون الحصول على مزيد جواب: كان البيت يردّد صدى الحزن، مثل بيت أفرغه الحِداد، مظلم، يلفّه الصقيع، مهجور منذ أمد بعيد.

«ليس هناك أحد»، قالت سيسيل، وقد خاب أملها، «هذا مضجر! ماذا سنفعل بكل هذا؟».

بغتة، فُتِح الباب المجاور وظهرت لوفاكه.

«أوه! سيدي وسيدتي، ألف معذرة! عذراً، آنستي! تسألون عن الجارة. إنها غائبة، هي في ريكيار».

وبدفق من الكلمات، قصّت عليهم الخبر، وردّدت أن من الواجب التعاون، وأنها تحتضن في بيتها لينور وهنري، حتى تمكّن الأم من الذهاب للانتظار، هناك. وسقطت عيناها على الرزمتين، وبلغ بها الأمر أن تحدثت عن بنتها المسكينة التي صارت أرملة، وبسطت بؤسها بعينين تبرقان لهَفاً. ثم، بتردد ظاهر، همست:

«لدي المفتاح. إذا كان سيدي وسيدتي يلحّان في ذلك. الجدّ هناك».

نظر إليها آل غريغوار والذهول بادٍ عليهم. كيف! الجدّ كان هناك! لكن لا أحد أجاب. كان ينام، إذن؟ ولمّا قررت لوفاكه فتح الباب، أوقفهم ما شهدوه، عند العتبة.

كان بونمور هناك، وحده، عيناه مفتوحتان على وسعهما، شاخصتان، وهو مسمّر على كرسيه، قبالة المدفأة الباردة. حوله، كانت الحجرة تبدو أكبر، دون الوقواق، وأثاث خشب الصنوبر المطلي التي كانت تبثّ فيها الحياة في ما مضى؛ ولم يتبق

فـي فجاجـة الجـدران المائلـة للخضـرة سـوى تصاويـر الإمبراطـور والإمبراطـورة، اللذيـن كانـت ترتسـم علـى شـفاههما الورديـة بسـمة عطـف رسـمي. لـم يكـن العجـوز يأتـي أدنـى حركـة، ولا يـرفّ لـه جفـن بفعـل النـور الداخـل مـن البـاب، وتبـدو عليـه البـلادة، وكأنـه لـم يشـهد حتـى دخـول كل أولئـك النـاس. وعنـد قدميـه، وُضِـع صحنـه المملـوء بالرمـاد، مثـل الـذي يُجعـل لقـاذورات القطـط.

«لا تلقـوا بـالاً، إن لـم يظهـر أدبـاً»، قالـت لوفـاكـه بكياسـة، «يبـدو أن شـيئاً مـا فسـد فـي مخـه. منـذ خمسـة عشـر يومـاً لا يتكلـم زيـادة».

لكـن رعـدة هـزّت بونمـور، بـدا أن نخامـة بالغـة صعـدت مـن أعمـاق صـدره؛ ثـم بصـق فـي الصحـن. بصـاق أسـود سـميك. كان الرمـاد مبلّـلاً بـه، وحلٌّ مـن الفحـم، فحـم المنجـم كلـه الـذي كان يدفـع بـه مـن حلقومـه. سـرعان مـا عـاد إلـى جمـوده، لـم يعُـد يتحـرّك، إلا ليبصـق، بيـن فينـة وأخـرى.

وإن غثـت نفوسـهم وتـأذت، واضطربـوا، فقـد حـرص آل غريغـوار علـى لفـظ عبـارات ودّ وتشـجيع.

«عجبـاً! أيهـا الرجـل الطيّـب، قـال الأب، أصابـك زكـام إذن؟».

لـم يلتفـت العجـوز، وعينـاه صـوب الجـدار. وعـمّ الصمـت مـن جديـد، ثقيـلاً.

«يجب أن يُعدّوا لك قليلاً من النّقوع»، أضافت الأم.

لـزم صـلابتـه الخـرسـاء.

«هيّـا قـل، يـا بابـا»، همسـت سيسـيل، «لقـد أخبرونـا حقـاً بأنـه صـار معطوبـاً؛ إلا أننـا لـم نسـتحضر ذلـك لاحقـاً...».

وتوقفـت عـن الـكلام، مـن شـدة حرجهـا. بعـد أن وضعـت علـى

الطاولة قِدراً وقنينتَي نبيذ، بسطت الرزمة الثانية، وأخرجت منها زوجي حذاء ضخم. تلك هدية الجد، وكانت تمسك في كل يد فردة، حائرة، وهي تحدق في قدمي الرجل المسكين المنتفختين، الذي لن يسير عليهما بعد ذلك.

«هه؟ لقد فات أوانها قليلاً، أليس كذلك، يا فاضل؟»، أردف السيد غريغوار، لإدخال البهجة على الموقف، «لا عيب في ذلك، إنه صالح دوماً».

لم يسمع بونمور، ولم يُجِب، بوجهه المخيف، الذي له صدود وصلابة الحجر.

حينئذ، وضعت سيسيل زوج الحذاء، خفية، بسنده إلى الجدار. لكن رغم كل الحيطة فقد رنّت المسامير؛ وظلت تلك النعال الضخمة مبعثاً للحرج في الغرفة.

«هيّا، لن يقول شكراً!»، صاحت لوفاكه، التي رمت على الحذاء طرفة عين حاسدة، «وكأنكم منحتم نظارتين لإوزّة، مع كل الاحترام».

وتابعت كلامها، وعملت على جرّ آل غريغوار إلى بيتها، قاصدة جذب شفقتهم عليها. وفي نهاية الأمر، عنّت لها ذريعة، امتدحت لهم هنري ولينور، اللطيفين، الطريفين، الذكيين جداً، اللذين يجيبان مثل ملَكين على الأسئلة الموجّهة إليهما! هذان سيخبران بكل ما يريد سيدي وسيدتي معرفته.

«هلا تفضلتِ لحظة، يا بُنيّة؟»، سأل الأب، وهو مسرور بالخروج.

«أجل، أنا خارجة في أثركما»، أجابت.

بقيت سيسيل وحدها مع بونمور. ما أبقاها هناك، مرتعدة ومسحورة، ذلك أنها ظنت بأنها تبيّنت من يكون ذلك العجوز: أين التقت إذن ذلك الوجه المربّع، المكفهر، الموشوم بالفحم؟ وبغتة تذكرت، تراءى لها من جديد سيل الشعب الصارخ حولها، وشعرت بيدين باردتين تشدّان رقبتها. كان هو ذاك، لقد استعادت صورة الرجل، ونظرت إلى اليدين الموضوعتين على الركبتين، يدا عامل رابض كل قوته تجمّعت في قبضتيه، الصلبتين رغم السّن. شيئاً فشيئاً، بدا أن بونمور يصحو، وكان يبصرها، ويتوضّحها بدوره، فاغراً فاه. اكتسى لهبٌ وجنتيه، وجذبت هزّة توتر فمه الذي سال منه خيط لعاب أسود. منجذبين، ظلا معاً وجها لوجه، هي مزهرة، بضّة ومُريّحة من كسلها الطويل ومن العيش الرغد لأصلها المتخم، أمّا هو، المنفوخ بالماء، قبح يدعو للرثاء، قبح دابّة أصابها الكساح، وقد هلك أباً عن جد بعد مائة عام من الكد والجوع.

بعد انصرام عشر دقائق، حينما رجع آل غريغوار إلى بيت آل ماهو إذ استغربا عدم رؤية سيسيل، أطلقا صرخة مرعبة. كانت بنتهما ممددة على الأرض، وجهها كمد، مختنقة. في عنقها، تركت الأصابع الأثر الأحمر لقبضة عملاق. مترنح على ساقيه الميتتين، سقط جنبها، دون القدرة على النهوض، كانت يداه لا تزالان معقوفتين، وهو ينظر إلى ما حوله والبلاهة بادية للعيان، عيناه مفتوحتان على سعة. وأثناء سقوطه، كان قد كسر صحنه، وتناثر الرماد، ولطّخ وحل بصاقه الغرفة؛ بينما زوج الحذاء يصطف على الجدار، سالماً وسليماً.

لم يكن في الوسع قط إعادة ترتيب الوقائع على وجه الضبط. لماذا اقتربت منه سيسيل؟ كيف استطاع بونمور، المُقعَد في كرسيه، أن يأخذ بِخُناقها؟ من البيّن أنه حين أمسكها، لا بدّ أنه استبسل، وشدّ عليها دوماً، كاتماً صراخها، وانقلب وإياها، حتى آخر حشرجة. ولا ضجة، ولا شكوى عبرت الفاصل الرقيق للبيت المجاور. وقد وجب تصديق مرد الأمر إلى نوبة جنون مباغتة، غواية بالقتل لا تفسير لها، أمام عنق الفتاة الناصّع ذاك. ذُهِل الناس بشراسة مماثلة، من عجوز مُقعَد عاش بصفته رجلاً شهماً، شكساً مطيعاً، معارضاً للأفكار الجديدة. أية ضغينة يجهلها في ذاته، فسدت ببطء، صعدت من أحشائه إلى جمجمته؟ ومن شدة الفظاعة خلص الأمر إلى فساد العقل، وكانت تلك جريمةُ معتوه.

في تلك الأثناء، كان آل غريغوار جاثيين ينتحبان، وقد خنقهما الألم. ابنتهما المحبوبة، تلك البنت المشتهاة مدة طويلة، التي أغدقا عليها بكل ما يملكان، التي كانا يذهبان على أطراف الأصابع، لمشاهدتها وهي نائمة، والتي لم يجدا قط أنها تنعم بما يكفي من الطعام، ولا فيها أبداً ما يكفي من الشحم! بل كان ذلك انهيار حياتهما، ما الفائدة من الحياة، الآن وسوف يعيشان من دونها؟

صاحت لوفاكه وقد استبدّت بها الحيرة:

«آه! أيها الوغد العجوز، ماذا فعل هنا؟ لم نكن نتوقع شيئاً مماثلاً! وماهود التي لن ترجع إلا هذا المساء! هيا، سأذهب لإحضارها، إذن».

لم يحَر الأب والأم جواباً، وقد هدّهما الخطب.

«هه؟ ذلك أفضل. أنا ذاهبة».

لكن قبل خروجها، لمحت لوفاكه زوج الحذاء. كان المجمّع بأكمله مضطرباً، والحشد يتدافع مسبقاً. من المرجح حقاً أن تتم سرقته. ثم، لم يعُد هناك من رجل في بيت آل ماهود قصد لبسه. أخذته بلطف. لا بدّ أن يستقيم ذلك في قدمي بوتلو.

في ريكيار، انتظر آل إينبو طويلاً آل غريغوار، رفقة نيغريل. بعد صعود هذا الأخير من الحفرة، كان يبسط بعض التفاصيل: هناك أمل في التواصل مع المحبوسين في المساء نفسه؛ لكن لن يتم بالتأكيد إخراج سوى الجثامين، لأن الصمت الجنائزي متواصل. خلف المهندس، كانت ماهود، جالسة على العمود، تنصت بيضاء الوجه تماماً، حينما وصلت لوفاكه لتخبرها بما أتاه عجوزها من صنيع جميل. ولم يبدر منها سوى إيماءة عظيمة من نفاد صبر واغتياظ. ومع ذلك، مشت في أثرها.

خارت قوى السيدة إينبو. يا للفظاعة! سيسيل المسكينة تلك، الفرحانة بكل ذلك القدر يومها، التي كانت تشعُّ حيوية ساعة من ذي قبل! وقد تطلّب الأمر أن يُدخل إينبو زوجته للحظة في كوخ العجوز موك. بيديه اللتين يعوزهما الحذق، فكّ أزرارها، وقد أربكته رائحة المسك التي فاحت من شق صدرها المفتوح. حينما، والدموع تسيل منها، ضمّت نيغريل، المذعور من تلك المِيتة التي قطعت الزواج، نظر إليهما الزوج وهما يتباكيان، وقد تخلّص من حيرة. تلك المأساة تسوّي كل الأمور، فهو يفضل الحفاظ على ابن أخته، خشية من الحوذي.

V

أسـفل البئـر، كان البؤسـاء يصرخـون رعبـاً بعـد هجرانهـم. الآن، بلـغ المـاء بطونهـم. وصـوت السـيل يصيبهـم بالـدّوار، وجعلهـم سـقوط قِطَـع التبطيـن الأخيـر يظنـون أن الانهيـار الأخيـر وشـيك؛ وكان ذعرهـم يصـل مبلغـه عنـد سـماع صهيـل الجيـاد المحبوسـة فـي الإسـطبل، صرخـة مـوت، رهيبـة، لا تُنسـى، صرخـة حيـوان يُذبـح.

سـبق وأرخـى مُـوك قيـد باتـاي. كان الحصـان العجـوز هنـاك، يرتعـد، العيـن ممـددة وشـاخصة فـي ذلـك المـاء المتصاعـد دومـاً. بسـرعة، امتـلأت قاعـة سـلم البئـر، ويُرى تعاظـم الفيـض المائـل إلـى الخضـرة، علـى ضـوء المصابيـح الثلاثـة الأحمـر، المتقـد لا يـزال تحـت السـقف المقبـب. وبغتـة، حيـن أحـس ذلـك الجليـد يبلّـل وبـره، انطلـق بسـنابكه الأربعـة، عـدواً شـديداً، توغـل واختفـى فـي جـوف أحـد سـراديب النقـل.

عندهـا، كان الهـرب لمـن اسـتطاع إليـه سـبيلاً، وتبـع الرجـال تلـك الدّابّة.

«لـم يعُـد لنـا حاجـة هنـا!»، صـاح **موك**، «يجـب التوجـه نحـو ريكيـار».

غلبـت عليهـم الآن فكـرة إمـكان الخـروج مـن الحفـرة المجـاورة القديمـة، إذا هـم بلغوهـا قبـل أن ينقطـع الممـر. وكان العشـرون يتدافعـون تباعـاً، رافعيـن مصابيحهـم فـي الهـواء كـي لا يطفئهـا المـاء. مـن حسـن الحـظ أن السـرداب كان يرتفـع بمرتقـى خفيـف، ومشـوا طـول مائتـي متـر، يصارعـون دفـق المـاء، دون أن يغمرهـم

زيادة. استيقظت معتقدات نائمة في تلك النفوس الحيرى، كانوا يدعون الأرض، الأرض هي ما كان ينتقم، ما يطلق هكذا دمُ العِرق، لأن هناك من قطع شرياناً من شرايينها. كان هناك عجوز يتمتم صلوات منسية ويلوي إبهاميه إلى الخارج حتى يُرضي أرواح المنجم الشريرة.

لكن عند الملتقى الأول، وقع خلاف. كان السائس يريد الانعطاف يساراً، بينما أقسم الآخرون أنهم سيختصرون الطريق لو سلكوا اليمين. وضاعت دقيقة من وقتهم.

«هه! أهلكوا أنفسكم هنا، لا دخل لي!»، صاح شافال بشراسة، «أنا، سأعدو من هنا».

سلَك يمنة، وتبعه رفيقان. واستمر الآخرون في الركض خلف الأب موك، الذي نشأ في جوف ريكيار. ومع ذلك، هو نفسه كان يتردّد، ولا يدري أين ينعطف. تاهت العقول، لم يعُد القدامى يتبيّنون المسالك، التي وكأن حبكتها اختلطت أمامهم. عند كل شعبة، توقفهم الحيرة على حين غرة، ومع ذلك كان يتوجب عليهم الحسم.

كان إتيان آخر من يجري، إذ تحبسه كاترين التي كان يشلها التعب والخوف. أما هو فقد ودّ أن يسرع يمنة، مع شافال، لظنه أنه كان على حقّ؛ لكنه تركه، ولو ظلّ في الجوف. ثم، استمر الكرّ والفرّ، إذ ذهب رفاق آخرون من جهتهم، ولم يبقَ سوى سبعة خلف موك.

«تشبثي بعنقي، سوف أحملكِ»، خاطب إتيان الفتاة الشابة، لما رآها تضعف.

«كلا، اتركني»، همست، «لا أستطيع بعدُ، أفضل أن أموت في الحال».

تخلّفا خمسين متراً، وكان يحملها رغم صدّها له، حينما انغلق السرداب بغتة: هوَت صخرة عظيمة وفرّقتهما عن الآخرين. سرعان ما بلل الفيضان الصخور وحدث تهدّم في كل الجهات. لزمهما التقهقر. ولم يهتديا إلى الاتجاه الذي يسلكانه. قُضي الأمر، وجب ترك فكرة الصعود ثانية من جهة ريكيار. كان أملهما الوحيد الوصول إلى السراديب العلوية، حيث من المرجح أن يأتي من يخلصهما، إذا انخفضت المياه.

في نهاية المطاف تبيّن إتيان عِرق غِيوم.

«طيب!»، قال، «أعرفُ أين نحن. بؤساً لنا! كنا في الدرب الصحيح؛ لكن، ويل لك الآن! اسمعي، فلنذهب قدُماً، سوف نتسلق المدخنة».

كان الماء يضرب صدر كل منهما، وهما يمشيان بتؤدة. كلما كان لديهما ضوء، لن يخيبا؛ وأطفآ مصباحاً لاقتصاد الزيت بنية إفراغه في الثاني. بلغا المدخنة، حينما جعلهما صوت، خلفهما، يلتفتان. هل كان هؤلاء إذن الرفاق، المحتجزين بدورهم، وقد رجعوا؟ كان نفسٌ يشخر بعيداً، لم يجدا تفسيراً لتلك الزوبعة التي كانت تدنو، يصحبها تلاطم الزبد. وصاحا حينما رأيا كتلة جبّارة، مائلة إلى الأبيض، خارجة من الظلمة، تصارع كيما تلحق بهما، بين دعائم الخشب الضيّقة بشدة، حيث كانت ترتطم.

كان ذاك باتاي. عند انطلاقه من سلّم البئر، عَدا على طول السراديب المظلمة، مضطرباً. بدا أنه يعرف طريقه، في تلك

المدينـة السـفلية التـي يقيـم فيهـا منـذ إحـدى عشـر سـنة؛ وكانـت عينـاه تبصـران بوضـوح، فـي جـوف الليـل الأبـدي حيـث عـاش. كان يعـدو، يعـدو، يلـوي رأسـه، ويجمـع قوائمـه، مسـرعاً بيـن منافـذ الأرض الرقيقـة، التـي يملأهـا جسـمه العظيـم. كانـت الأزقـة تتابـع والملتقيـات تنفـرج دون أن يبـدي تـردداً. إلـى أيـن كان ذاهبـاً؟ هنالـك، علـى الأرجـح، منظـر شـبابه، إلـى الطاحونـة حيـث نشـأ، علـى ضفـة **لاسكارپ**، إلـى ذكـرى الشـمس الملتبسـة، الحارقـة فـي الهـواء مثـل مصبـاح عظيـم. كان يريـد العيـش، وذاكرتـه، ذاكـرة الدّابـة تصحـو، الرغبـة فـي استنشـاق هـواء السـهول كانـت تدفعـه قدُمـاً، حتـى يكتشـف الثقـب، المَخـرَج فـي ظـلّ السـماء الحـارة، فـي الضيـاء. طـوّح هياجـه بإذعانـه القديـم، فتلـك الحفـرة كانـت تغتالـه، بعدمـا أعمتـه. كان المـاء الـذي يتعقّبـه، يجلـد فخذيـه، ويلسـع حزامـه. لكـن كلمـا توغّـل، صـارت السـراديب أضيـق، خافضـة السـقف، نافخـة الجـدار. كان يعـدو رغـم ذلـك، يسـلخ جلـده، ويتـرك فـي ألـواح التمتيـن مِزقـاً مـن أطرافـه. مـن كل الجهـات، بـدا أن المنجـم كان يضيّـق عليـه، حتـى يقبـض عليـه ويخنقـه.

وعليـه، لمـا كان مقبـلاً بالقـرب منهمـا، رآه إتيـان وكاتريـن يختنـق بيـن الصخـور. تعثّـر وانكسـرت سـاقاه الأماميتـان. وبجهـد أخيـر، جرجـر نفسـه أمتـاراً معـدودة، لكـن الكشـحان لـم يمـرّا، وظـل مغلّفـاً، مقيّـداً بـالأرض. واسـتطال رأسـه الدّامـي، بحثـاً عـن شـق، بعينيـه الكبيرتيـن الحائرتيـن. غمـره المـاء بسـرعة، وأخـذ يصهـل، بحشـرجة مديـدة، فظيعـة، تلـك التـي بهـا ماتـت جيـاد أخـرى مسـبقاً، فـي الإسـطبل. احتضـار مريـع، تلـك الدابـة الهرمـة، المكسـورة، التـي

لا تأتي حركة، متخبطة في ذلك الغور، بعيداً عن السطح. لم تتوقف صرخة استغاثتها الجشّاء، من فمها الممدود والمفتوح على سعته، إذ كان السيل يُغرق عُرفها. سُمع نخير أخير، الصوت المكتوم لبرميل امتلأ. ثم خيّم صمت شديد.

«آه! إلهي! خُذني»، كانت كاترين تنتحب، «آه! إلهي! أنا خائفة، لا أريد أن أموت. خذني! خذني!».

لقد شهدت الموت. البئر المنهارة، الحفرة التي غمرها الفيض، لم ينذرها شيء صراحة بذلك الرعب، صيحة باتاي المحتضر تلك. وكانت لا تزال تسمعه، وأذناها تطنّان بفعل ذلك، وكل جسمها يرتعش منه.

«خذني! خذني!».

أمسك بها إتيان وحملها. ثم، كان أوان ذلك حقاً، تسلقّا داخل المدخنة، مبللين حتى الأكتاف. كان عليه أن يساعدها، إذ لم تعُد لها قوة للتمسّك بالألواح. ثلاث مرّات، ظن أنها أفلتت من بين يديه، وأنها سوف تسقط في البحر العميق الذي كان موجُه يزمجر خلفهما. ومع ذلك، استطاعا التنفّس دقائق معدودة، حينما صادفا المسلك الأول، النافذ بعدُ. ظهر الماء من جديد، ولزم الأمر الارتقاء مرة ثانية. ومدة ساعات، استمر ذلك الصعود، وكان الفيض يطاردهما من مسلك إلى مسلك ثان، ويجبرهما على الارتفاع دائماً. في المسلك السادس، دبّت فيهما حمّى الأمل من تلك الهدنة، وبدا لهما أن المستوى ظلّ ثابتاً. لكن وقع ارتفاع أشد، ولزمهما التسلق إلى السابع، ثم إلى الثامن. بقي لهما مسلك واحد، وحينما وصلا إليه، كانا ينظران بهلع إلى

كل سنتمتر يكتسحه الماء. إذا لم يتوقف، سوف يموتان إذن، مثل الحصان العجوز، منسحقين على السقف، الصدر ملآن بالسيل؟

كان الانهدام يدوي كل لحظة. والمنجم ينتفض كله بأحشاء مفرطة الطول تتطاير من المسيل المغرِق الذي يغمره. في أقصى السراديب، كان الهواء المتجمع ينضغط وينطلق في انفجارات هائلة، بين الصخور المشقوقة والطبقات الأرضية المقلوبة. كان ذاك هو الصخب المرعب للزلازل الباطنية، ركن من المعركة القديمة، حينما كان الطوفان يقلب الأرض ويخسف الجبال تحت السهول.

وكانت كاترين، المضطربة، التي داخت من ذلك التهدّم المتواصل، تضم يديها إلى بعض، وتردّد بتلعثم الكلمات ذاتها، دون كلل:

«لا أريد أن أموت. لا أريد أن أموت».

وحتى يُطمئِنها، أقسم إتيان أن الماء لم يعُد يتحرك. منذ ست ساعات وهما هاربان، سوف ينزل الناس لنجدتهما. وكان يقول ست ساعات دون علم، إذ كان يعوزهما الحسّ السليم بالزمن. في حقيقة الأمر، مرّ يوم كامل أصلاً، أثناء صعودهما عبر عِرق غِيُوم.

جلسا هناك، مبللين، يرتعدان. خلعت ملابسها دون حرج، كيما تعصرها؛ ثم لبست من جديد السروال والسترة حتى تجففهما على بدنها. وبما أنها كانت حافية، فقد أجبرها على أخذ نعليه. في وسعهما الانتظار الآن، خفضا ذبالة المصباح، واحتفظا بومضة شعيلة ضعيفة. لكن تشنّجات كان تمزق لهما المعدة، وأدركا معاً

أنهما يموتان جوعاً. قبل تلك اللحظة، لم يشعرا بأنهما على قيد الحياة. إبّان الكارثة، لم يطعما الغذاء قطعاً، وها هما يجدان خبزهما المدهون، المنتفخ بالماء، وقد صار حساء. وكان عليها أن تبدي انزعاجاً كيما يقبل نصيبها. وما أن أكلت حتى نامت من شدة العياء، على الأرض الباردة. أما هو، الذي أحرقه السُّهاد، فكان يسهر عليها، وجبينه بين يديه وعيناه شاخصتان.

كم من الساعات مضت على تلك الحال؟ ما كان في وسعه أن يخبر بذلك. الشيء الذي يعرفه هو أن قبالته، من خلال ثقب المدخنة، رأى عودة السيل الأسود والمتحرك، الحيوان الذي ينتفخ ظهره بلا هوادة قصد بلوغهما. بداية، لم يكن ثمة سوى خط رفيع، ثعبان ليّن يتمدد؛ ثم اتسع ذلك وصار فِقار ظهرٍ محتشدة، زاحفة؛ وسرعان ما لحقهما، فتبلّلت قدما الفتاة النائمة. ومن جزعه، تردّد في إيقاظها. أليس من القسوة أن ينزعها من تلك الاستراحة، من الغفلة المنهكة التي ربما تهدهدها في حلم بالهواء الطلق والحياة تحت الشمس؟ ثم، من أين المفر؟ تفكر، وتذكر أن السطح المائل، المقام في ذلك القسم من العِرق، يتصل، عند جمع أطرافه بالسطح المؤدي إلى سلم البئر العلوي. وذلك مَخرج. تركها نائمة، أطول مدة ممكنة، وهو يشاهد السّيل المتقدم، وينتظر أن يطردهما. وفي نهاية الأمر، رفعها بلطف، وسرت فيها رعدة عارمة.

«آه! إلهي! صحيح! بدأ ذلك ثانية، إلهي!».

كانت تتذكر، تصرخ من مواجهة الموت القريب.

«كلا، اهدئي»، همس، «نستطيع المرور. أقسم لكِ».

لبلوغ السطح المائل، لزمهما السير وهما محنيّان، والبلل يعمّهما من جديد حتى الأكتاف. وبدأ الصعود مرة ثانية، أشد خطراً، من ذلك الثقب المدعم بالألواح بالكامل، وطوله مائة متر تقريباً. في البدء، أرادا جرّ الحبل كيما يثبتا في الأسفل عربة رافعة، إذ لو نزلت الثانية أثناء صعودهما، لسوف تسحقهما. لكن لم يتحرّك شيء، هناك عائق يحول دون حركة الآلة. ثم جازفا، إذ لم يجسرا على استخدام ذلك الحبل الذي يزعجهما، فكانا يسلخان أظفارهما بالألواح الملساء. كان هو بعدها في الخلف، يثبتها بأعلى رأسه حينما تزلق ويداها داميتان. بغتة، اصطدما ببقايا أعمدة تعترض السطح. كانت قد سالت أتربة، والهدَم يمنع من التقدم إلى الأعلى. من حسن الحظ، كان هناك باب منفتح، ونفذا إلى مسلك.

أدهشهما وميض مصباح، قبالتهما. صاح عليهما رجل بشدة: «مزيد من الأذكياء على قدر غبائي!».

تبيّنا شافال الذي ألفى نفسه محبوساً بالهدَم، الذي ملأت أتربته السطح المائل؛ والرفيقان، اللذان انطلقا معه، بقيا في الطريق، ورأساهما مهشمان. أما هو، المصاب في المرفق، فقد وجد من الشجاعة ما جعله يرجع على ركبتيه لأخذ مصباحيهما وتفتيشهما لسرقة خبزهما المدهون. ولمّا كان يهم بالهرب، أغلق انهيارٌ السردابَ حالما أدبر.

في الحال، أقسم بألّا يشارك مؤنته مع هؤلاء الناس الخارجين من الأرض. ودّ أن يصرعهم. ثم تعرّف بدوره عليهما، وذهب غضبه، وأخذ يضحك بسرور فيه خبث.

«آه! هـذه أنـتِ، كاتريـن! كسـرتِ أنفـكِ وأردتِ اللحـاق برجلـك. طيّـب! طيّـب! سـوف نلعبهـا».

كان يتظاهـر بأنـه لـم يـرَ إتيـان. وبـدرت مـن هـذا الأخيـر، الـذي أربكـه اللقـاء، إيمـاءة لحمايـة عاملـة النقـل التـي كانـت تتعلّـق بـه بشـدّة. ورغـم ذلـك، وجـب تقبُّـل الوضـع. فسـأل الرفيـق ببسـاطة، وكأنهمـا افترقـا سـاعة مـن ذي قبـل، مثـل صديقيـن حميميـن:

«هل نظرت في الجوف؟ لا نستطيع إذن المرور عبر المقالع».

كان شافال يقهقه دوماً.

«آه! أيـه! عبـر المقالـع! لقـد تهدمـت أيضـاً، نحـن بيـن حائطيـن. مصيـدة حقيقيـة. لكـن تسـتطيع العـودة مـن السـطح المائـل، إذا كنـت غطّاسـاً ماهـراً».

وبالفعـل، كان المـاء يصعـد، ويُسـمع تلاطـم المـاء. وطريـق التراجـع مقطـوع أصـلاً. كان علـى صـواب، إنهـا مصيـدة، طـرف مـن السـرداب أغلقـه فـي الأمـام وفـي الخلـف خسـف هائـل. ولا مخـرج واحـد. أُقبـروا ثلاثتهـم، جميعـاً.

«إذن، سـتبقى؟»، أردف شـافال سـاخراً، «هيّـا، ذاك أفضـل مـا تصنعـه، وإذا تركتنـي وشـأني، فأنـا لـن أخاطبـكَ حتـى. لا يـزال هنـا مـكان لرجليـن. سـوف نـرى عمّـا قريـب مـن الـذي سيهلك الأول، إلا إذا جاءنـا البعـض، وهـذا يبـدو لـي أمـراً صعبـاً».

استأنـف الرجل الشـاب:

«لو ضربنا الحيطان، من المرجح أن يسمعنا أحد من الناس».

«لقـد أصابنـي العيـاء مـن الخبـط. هـاك! حـاول بنفسـك بهـذا الحجـر».

التقط إتيان قطعة حجر رملي، سبق للأول أن فتته، وخبط العِرق، في الجوف، نداء عمال المنجم، القرع الممتد التي يدلُ به العمال على مكانهم أوان الخطر. ثم ألصق أذنه للإصغاء. عاند عشرين مرة. لم يُجِب أدنى صوت.

في تلك الأثناء، تظاهر شاڤال بأنه يقومُ بعمله المنزلي الصغير بكل برودة. في البداية، صفّ مصابيحه الثلاثة على الجدار: واحد منها كان متقداً، والآخران للاستعمال لاحقاً. ثم وضع ما بقي عنده من خبزه المدهون على قطعة من خشب التمتين. كان ذلك بمثابة صِوان، سيكفيه ذلك مدة يومين زيادة، إذا تصرّف برزانة. التفت قائلاً:

«تعرفين، كاترين، سيكون لك النصف، حينما تشعرين بالجوع كثيراً».

ظلّت الفتاة ساكتة. ذلك مبلغ شقائها، أن تلفي نفسها بين ذينك الرجلين.

وبدأت الحياة الفظيعة من جديد. لم يفتح أي من شاڤال أو إتيان فمه، جالسين على الأرض، على بعد خطوات معدودة. بعد ملاحظة من الأول، أطفأ الثاني مصباحه، ترَفُ إضاءة لا فائدة له؛ ثم عادا إلى صمتهما. اضطجعت كاترين جنب الرجل الشّاب، حائرة من النظرات التي كان يرمي بها عاشقها القديم. كانت الساعات تمضي، ويُسمع همس الماء الخفيّ الصاعد باستمرار؛ بينما كانت بين فينة وأخرى تعلن هزات بالغة، ودويّ بعيد عن آخر انهيارات المنجم. حين فرغ المصباح ولزم فتح مصباح ثان قصد إشعاله، اضطربوا لحظة خوفاً من انفجار الغاز؛ لكن كانوا

يفضّلون أن ينفجروا في الحال، بدل البقاء في الظلام؛ ولم ينفجر شيء، لم يكن هناك غاز. اضطجعوا من جديد، وعادت الساعات للزحف.

اضطرب إتيان وكاترين من صوت، فرفع كل منهما رأسه. لقد عزم شافال على الأكل: قطع نصف شريحة خبز مدهون، كان يمضغ طويلاً، حتى لا يغره ابتلاع كل شيء. أما هما، فكانا ينظران إليه والجوع يعذبهما.

«صحيح، ترفضين؟»، قال مخاطباً عاملة النقل، بمظهره المستفز، «إنك تغلطين».

خفضت عينيها، خشية الاستسلام، ومعدتها ممزقة بتشنج جعل جفنيها ينتفخان دموعاً. لكنها كانت تدرك ما يطلبه؛ أصلاً، في الصباح، نفخ على عنقها؛ إذ عادت إليه غلبة شهوته القديمة حين رآها قرب الثاني. النظرات التي كان يدعوها بها فيها لهب تعرفه حقاً، لهب نوبات الغيرة حينما كان يهوي عليها بلكماته ويتهمها بأفعال شنيعة مع مستأجر أمها. ولم تقبل، كانت ترتعد، لو رجعت إليه، من أن ترمي ذينك الرجلين الواحد على الثاني، في ذلك الكهف الضيق حيث يحتضرون. إلهي! ألا يمكن أن ينتهي الأمر بصداقة طيّبة!

ودّ إتيان أن يموت جوعاً على أن يتوسل شافال لقمة خبز. كان الصمت يزداد ثقلاً، والظاهر أن تلك أبدية تطول، مع بطء الدقائق الرتيبة، التي تمضي، واحدة بعد أخرى، بلا رجاء. منذ يوم وهم محبوسون معاً. ذبل المصباح الثاني، فأوقدوا الثالث.

قضم شافال شريحة خبزه الثانية، ثم دمدم:

«اقبِلي إذن، يا بلهاء!».

سرت في كاترين رعشة. وكيما يترك لها حرية القرار، أشاح إتيان بوجهه. ولأنها لم تتحرك، قال لها بصوت مهموس:

«هيّا، بنيّتي».

سالت حينها الدموع التي كبحتها. بكت طويلاً، بل لم تجد القوة للنهوض، إذ لم تعُد تعرف هل كانت جائعة، أم أنها تتألم من وجع أصاب بدنها كله. أما هو، فقد وقف، وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً، ويضرب بلا طائل نداء عمال المنجم، وقد ثارت ثائرته من بقية حياة يُجبر على عيشها هناك، لِصق الخصم الذي يمقته. ولا ما يكفي من مكان لأن يهلكا بعيداً الواحد عن الثاني! وما أن يمشي عشر خطوات، كان يلزمه الرجوع والاصطدام بذلك الرجل. وهي، الفتاة الحزينة، التي كانا يتنازعانها حتى في جوف الأرض! سوف تكون من نصيب آخر من يظل على قيد الحياة، ذلك الرجل سيخطفها منه مرة ثانية، إن رحل هو الأول. لا نهاية لذلك، الساعات تعقب الساعات، والقُرب المهيّج يتعاظم، مع تسمّم الأنفاس، وقذارة الغائط الذي يأتيهم معاً. لمرّتين، هجم على الصخور وكأنه يريد فتحها بضربات يده.

اكتمل يوم ثان، وجلس شافال قرب كاترين، واقتسم معها نصف شريحة خبزه الأخير. كانت تمضغ اللُّقَم بمشقة، وكان يجعلها تؤدي مقابل كل لقمة لمسة، بعناده الغيور الذي لم يشأ أن يموت دون الحصول عليها من جديد، أمام الثاني. من تعبها، استسلمت. لكن حينما أراد ملامستها، اشتكت.

«أوه! دع عنك ذلك، إنك تداعب عظامي».

وهو يرتعد، وضع إتيان جبينه على الألواح كي لا يرى. ثم رجع متوثباً، وقد جنّ جنونه.

«دعها، سحقاً!».

«وهل ذلك شأنك؟»، قال شافال، «إنها امرأتي، إنها لي على الأرجح!».

ثم ضمّها من جديد، وضيّق عليها، تبجّحاً، وهو يسحق فمها بشاربيه الحمراوين، وتابع قائلاً:

«اتركنا في حالنا، هه! هلا تفضّلتَ بإشاحة النظر حينما نفعلها».

لكن إتيان صاح وقد ابيضّت شفتاه:

«سأخنقك إذا لم تتركها!».

بسرعة وقف الثاني، لأنه أدرك، من صفير الصوت، أن الرفيق سوف ينهي الأمر. بدا لهما الموت بطيئاً بإفراط، وقد وجب، في الحال، أن يترك أحدهما المكان. إنها المعركة القديمة وقد بدأت من جديد، في جوف الأرض حيث سيرقدان عمّا قريب، جنباً إلى جنب؛ ولم يكن لهما من متسع، حيث لم يستطيعا رفع قبضتيهما دون خدشها.

«حذار»، دمدم شافال، «هذه المرة، سوف آكلك».

في تلك اللحظة جنّ جنون إتيان. غرقت عيناه في بخار أحمر، واحتقن حلقه بسيلٍ من الدم. استبدّت به الحاجة إلى القتل، القاهرة، حاجة جسمية، الإثارة الدموية لمخاط تحسم نوبة سعال حادة. تصاعد ذلك، وتناثر بغير مشيئته، بدافع الآفة الوراثية. كان قد أمسك من على الحائط قطعة حجر محدّد،

هزّها ونزعها، كانت عريضة جداً وثقيلة جداً. ثم، بكلتا يديه، بقوة مضاعفة، هوى بها على جمجمة شافال.

لم يكن لهذا الأخير متسع من الوقت للقفز إلى الخلف. سقط وقد تهشم وجهه، وانفلق قحفه. لطخ الدماغ سقف السرداب، كان رشاش أرجوان يسيل من الشجّة الدامغة، مثل رشاش نبع لا ينقطع. في الحال، تكونت بقعة دم، انعكست عليها نجمة المصباح المدخِّنة. كان الظلام يكتسح ذلك المدفن المقبور، وكان الجسد يبدو، على الأرض، كأنه حدبة سوداء لكومة جمر ملتهب.

وهو مكبّ، العين على سعتها، كان إتيان ينظر إليه. إذن تمّ الأمر، لقد قتل نفساً. وعلى نحو مختلط، عادت إلى ذاكرته كل صراعاته، كفاحه غير المجدي للسم الراقد في عضلاته، كحول أصله المتراكم ببطء. ومع ذلك، لم يكن سكران إلّا من جوع، لقد كان سكر الآباء البعيد كافياً. انتصبت خصلات شعره أمام فظاعة جريمة القتل تلك، ورغم هياج تربيته، فإن فرحة شديدة جعلت قلبه يخفق، فرحة حيوانية بعد إرضاء شهية في نهاية الأمر. ثم أحسّ بالفخر، فخر الأقوى. وتراءى له الجندي الصغير، وقد ثُقبت الحنجرة بسكين، الذي قتله طفل. هو أيضاً، قتل نفساً.

لكن كاترين أطلقت صرخة عظيمة، منتصبة القامة تماماً.

«إلهي! لقد مات!».

«أخذتكِ الحسرة عليه؟»، سأل إتيان بشراسة.

كانت تختنق، تتلعثم. ثم ارتمت بين ذراعيه، مترنحة.

«آه! اقتلني أنا أيضاً، آه! فلنمت معاً!».

وتعلّقت بكتفيه، معانقة، وعانقها بدوره، راجيان أن يموتا. لكن الموت لم يكن على عجلة من أمره. بسطا أذرعهما. ثم بينما كانت تحجب عينيها، جرّ البائس ورماه في السطح المائل، حتى يبعده عن المكان الضّيق الذي يلزمهما العيش فيه بعدُ. إذ مع تلك الجثة تحت الأقدام، لن تكون الحياة ممكنة. وعمّهما الذعر لمّا سمعها تغوص وسط استقامة الزّبَد. إذن غمر الماء أصلاً ذلك الثقب؟ شاهداه، إذ فاض في السرداب.

وعليه، كان صراعاً جديداً. أشعلا المصباح الأخير، وهو يستنفذ ما فيه بإضاءة الفيض، الذي لا يتوقف ارتفاعه المنتظم، العنيد. في البدء بلغ الماء العقبين، ثم بلل الرّكب. المسلك مرتفع، لاذا بأقصى طرفه، مما منحهما هدنة ساعات معدودة. لكن السيّل بلغهما، وسبحا حتى المحزم. واقفان، محاصران، فقرات الظهر لصق الصخر، كانا يشاهدانه يتعاظم دوماً، دوماً. حين يصل فم كل منهما، ستكون النهاية. المصباح المعلّق، كان يصبغ بصفرته اهتزاز الموجات الصغيرة السريع. خمد، ولم يتبيّنا بعد ذلك سوى نصف دائرة ينقص باستمرار، كما لو كانت تأكله العتمة المتعاظمة مع المد، على ما بدا؛ وبغتة، لفّهما العتم إذ همد المصباح تماماً، بعدما رمى قطرة زيته الأخيرة. وعمّ الليل المطبق، المطلق، ليل الأرض الذي ينامانه، ولن يفتحا أبداً عيونهما على ضوء الشمس.

«سُحقاً!»، لعن إتيان بصوت مكتوم.

لاذت به كاترين وكأنها شعرت بالظلمات تستحوذ عليها. وكررت بصوت منخفض عبارة عمال المنجم:

«الموت يطفئ المصباح».

ومع ذلك، أمام ذلك التهديد، كانت غريزتهما تصارع، ودبّت فيها حمّى الحياة. لذا أخذ يحفر الصخر الرملي بشدةّ مستعملاً خطّاف المصباح، بينما كانت تساعده بأظفارها. وقد صنعا ما يشبه المقعد العالي، وحينما تسلقاه، معاً، ألفيا نفسيهما جالسين، السيقان متدلية، الظهر مطوي، لأن القبة كانت تجبرهما على خفض الرأس. ولم يعُد الماء يجمّد سوى عقبيهما؛ لكن ما فتئا يشعران بالبرد يذبح الكاحلين وربلتي الساقين والركبتين، بحركة لا تقهر ولا هدنة فيها. المقعد، غير السويّ، كان يتبلل برطوبة لزجة شديدة بحيث كان يلزمهما الثبات بقوة كي لا يزلقا. كانت النهاية، كم سينتظران، وقد ضاقت بهما تلك المشكاة، حيث لا يجسران على الحركة، وقد هدّهما التعب والجوع، بلا خبز ولا ضوء؟ وكانا يكابدان على الأخص من عناء الظلام الذي كان يمنعهما من رؤية قدوم الموت. كان يخيم على المكان صمت شديد، المنجم المملوء بالماء لم يعُد يتحرك. لم يعُد تحتهما سوى الإحساس بذلك البحر، المتعاظم، من أقصى السراديب، ومدّه الأخرس.

كانت الساعات تتعاقب، سوداء كلها كذلك، دون أن يسعهما قياس مدتها الصحيحة، إذ أصبحا يغلطان في حساب الوقت أكثر فأكثر. عذابهما، المفروض فيه أن يطيل الدقائق، كان يحملها سراعاً. وكانا يظنان أنهما محبوسان منذ يومين وليلة فحسب، بينما في الواقع كان يومهما الثالث قد انقضى أصلاً. كل أمل في النجاة ذهب أدراج الرياح، لا أحد كان يعلم بوجودهما هناك، ولا

أحد يستطيع النزول إلى هناك، وسوف يهلكهما الجوع إذا تفضل عليهما الفيضان برحمته. للمرة الأخيرة، خطرت عليهما فكرة ضرب النداء؛ لكن الحجر بقي تحت الماء. ثم، من الذي سوف يسمعهما؟

مستسلمة، أسندت كاترين رأسها الموجوع إلى العِرق، حين انتصبت فزعاً.

«اسمع!»، قالت.

في البداية، ظن إتيان أنها تقصد صوت الماء الخفي الصاعد دوماً. كذب، وشاء أن يهدّئ من روعها.

«ذاك أنا الذي تسمعينه، إني أحرّك ساقيّ».

«كلّا، كلّا، لا أقصد ذلك. هنالك، اسمع!».

وألصقت أذنها على الفحم. فهم قصدها وصنع مثلها. خنقهما انتظار دام ثوان معدودة. ثم سمعا ثلاث ضربات، بعيدة جداً، ضعيفة جداً، مع فاصل واسع بينها. لكن الشكّ كان لا يزال يعتريهما، فالآذان تطنّ، ربما كانت تلك كسور تقع في الصخور. ولم يجدا شيئاً للضرب به كيما يجيبا.

خطرت على إتيان فكرة.

«لديك نعال الخشب. أخرجي قدميك، واضربي بالعقب».

خبطت، ضربت نداء عمال المناجم؛ ثم أصغيا، وتبيّنا من جديد الضربات الثلاث، بعيداً. أعادا الكرة عشرين مرة، وعشرين مرة ردّت الضربات. بكيا، تعانقا، مع المخاطرة بفقد التوازن. وأخيراً، كان الرفاق هنالك، وهم آتون. فيض من الفرح والحب أذهب نوائب الانتظار، وسعار النداءات التي ظلت طويلاً بلا

فائدة، وكأنه لم يكن على الحفارين سوى شقّ الصخر بالإصبع، لتخليصهما.

«هه!»، صاحت بمرح، «يا للحظ إذ أسندتُ رأسي!».

«أوه! لديك أذن رائعة!»، قال بدوره، «أنا، لم أسمع شيئاً».

ومن تلك اللحظة، تناوبا، ودائماً كان واحد منهما ينصت، جاهز للتواصل عند أدنى إشارة. وسرعان ما بلغهما صوتُ معولٍ: لقد بدأت أشغال القُرب وفتح سرداب. لم يعُد أدنى صوت يفلت منهما. لكن فرحتهما خمدت. مهما ضحكا، كيما يخدع أحدهما الثاني، فإن اليأس كان يدبّ فيهما شيئاً فشيئاً. في البداية، توسّعا في التفسيرات: من البيّن أن القدوم إليهما عبر ريكيار، فالسرداب يغوص في الطبقة، ومن المرجح أن يتم فتح الكثير منها، إذ هناك ثلاثة رجال في القلع. ثم قلّ كلامهما، وانتهى بهما الأمر إلى السكوت، حينما بلغا مسألة حساب الكتلة الضخمة التي تفصلهما عن الرفاق. وتابعا تأملاتهما بخرسٍ، كانا يعدان الأيام والأيام التي قد يستغرقها عامل لاختراق صخرة عظيمة مثل تلك. لن يلحقوا بهم أبداً بما يكفي من السرعة، وقتها يكونان ميتين عشرين مرة. وقد اكتنفهما الغمّ ولم تعد لهما الجرأة على النطق بكلمة واحدة من تفاقم الهلع، فقد كانا يردان على النداءات بقَرع النعلين، بلا رجاء، ويكتفيان، دون إرادة، بالحاجة إلى إخبار الآخرين بأنهما على قيد الحياة.

مرّ يوم، ثم يومان. كانا في الجوف منذ ستة أيام. الماء، المحبوس عند الرّكب، لم يعُد يصعد أو ينزل؛ وبدا أن ساقي كل منهما ذابتا في حمّام الجليد ذاك. كان في وسعهما، إخراجها مدة

ساعة، لكن هيئة الجلوس تصبح حينذاك غير مريحة، من شدتها كان يصيبهما اللوى من تشنجات فظيعة فلا يجدان بُدّاً من أن يدلّيا عقبيهما من جديد. وكلما مضت عشر دقائق، كانا يرفعان بدنيهما بدفعة من الخاصرتين على الصخرة الزلقة. كانت كسور الفحم تشقّ لهما فقرات الظهر، ويشعران عند الرقبة بوجع مقيم شديد، إذ يحرصان على جعلها مطوية باستمرار حتى لا يهشم كل منهما قحف رأسه. وزاد الخناق، إذ كان الهواء الذي دفعه الماء يتجمّع في ما يشبه الجرس الذي حُبسا فيه. وكان صوتهما المكتوم يبدو وكأنه قادم من بعيد. أصابهما طنين الآذان، إذ كانا يسمعان أصوات ناقوس خطر شديدة، عدو قطيع تحت وابل من حبّ الغمام لا حدّ له.

في بداية الأمر، كابدت كاترين مشقة الجوع الفظيعة. كانت تضع على صدرها يديها المنقبضتين الهزيلتين، كانت أنفاسها جوفاء بالغة، أنين متواصل، يمزق القلب، كما لو أن كُلّاباً نزَع معدتها. وإتيان الذي خنقه العذاب نفسه، كان يتلمس بحمّى في الظلام، حينما صادفت أصابعه بالقرب منه قطعة من خشب الدعائم، أصاب النخر نصفها، وأحالتها أظفاره فتاتاً. وأعطى منها للعاملة حفنة ابتلعتها بنَهَم. طول يومين، اقتاتا من ذلك الخشب المنخور، التهماه بالكامل، وخاب أملهما بعدما أتيا عليه، وسلخا جلديهما إذ أرادا الشروع في الأخشاب الأخرى، التي كانت لا تزال صلبة وأليافها تصدّ سعيهما. وتفاقم عذابهما، واغتاظا من عدم القدرة على مضغ قماش ملابسهما. وقد أراحا قليلاً من حزام جلدي كان يشد وسطه. نهش منه قِطعاً صغيرة

بأسنانه، وكانت تهرسها، وتجدّ في بلعها. كان ذلك يشغل فكّي كل منهما، ويوهمهما بأنهما يأكلان. ولما أتيا على الحزام، انهمكا في القماش، يمصّانه طول ساعات. لكن سرعان ما هدأت تلك النوبات الشديدة، ولم يعُد الجوع سوى وجع بالغ، مكتوم، الوهن بعينه، الوئيد والمتدرج. لا شك في أنهما كانا سيهلكان لو لم يكن لديهما ماء، ما شاءا منه. كانا ينحنيان فحسب، ويشربان ما اغترفاه غرفاً؛ وذلك عشرين مرة، إذ كانت بهما غلّة لا ترويها كل تلك الكمية من الماء.

في اليوم السابع، أكبت كاترين كيما تشرب، فصدمت بيدها جرماً عائماً قبالتها.

«يا هذا، انظر. ما ذاك؟».

جسّ إتيان في الظلام.

«لا أدري، أحسبها غطاء باب من أبواب التهوية».

شربَت، لكن لما شربَت جرعة ثانية، عاد ذلك الجرم وضرب يدها. فأطلقت صرخة رهيبة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ذاك هو، إلهي!».

«من هو؟».

«هو، تعلم حقاً. لقد شعرتُ بشاربيه».

كانت تلك جثة شافال، رجعت من السطح المائل إذ دفعها السيل إلى حيث هما. مدّ إتيان ذراعه، شعر أيضا بالشاربين، الأنف مهشّم، فاعترته رعشة تقزّز وخوف. ولمّا غثيت نفسها كراهة، بصقت كاترين الماء الذي بقي في فمها. ظنت أنها شربت دماً، وأن كل ذلك الماء الغور، أمامها، هو الآن دم ذلك الرجل.

«تمهّلي»، قال إتيان متلعثماً، «سوف أعيده إلى حيث كان».

خبط بقدمه الجثة التي ابتعدت. لكن سرعان ما شعرا بها تضرب ساقيهما معاً من جديد.

«اللعنة! هيّا انصرف!».

وفي المرة الثالثة، لم يجد إتيان بُدّاً من تركه. كان التيار يعيده. لم يرد شافال الرحيل، أراد أن يلبث معهما، ويكون عليهما ضداً. كان صاحباً فظيعاً، وأكمل البقية مفسداً الهواء. ومدة ذلك اليوم كله، لم يشربا، إذ كافحا، حيث آثرا الموت على فعل ذلك؛ وفي اليوم التالي فحسب، حسم العذاب قرارهما: كان يزيحان الجسد عند كل شربة، ويشربان مهما كان الأمر. لا حاجة لكسر رأسه، كيما يرجع بينه وبينها، عنيداً في غيرته. سيكون هناك، حتى آخر المطاف، ولو كان ميتاً، لمنعهما من أن يكونا معاً.

يوم آخر، ويوم آخر. كان إتيان يتلقى مع كل رعشة ماء ضربة خفيفة من الرجل الذي سبق وقتله، ما هي سوى لكزة من جار يذكِّر بحضوره. وفي كل المرّات كان يجزع. وعلى الدوام، كان يراه، منفوخاً، مخضراً، بشاربيه الحمراوين، في وجهه المحطّم. ثم لم يعُد يتذكّر، لم يقتله، كان الثاني يسبح ويهمّ بعضّه. أما كاترين فتهزها الآن نوبات بكاء طويلة، لا حدّ لها، وينهدّ كيانها بعدها. وانتهى بها الأمر إلى الوقوع في حال من النعاس الذي لا يقهر. كان يوقظها، فتلعثم بكلمات، وترجع للنوم في الحال، دون أن تفتح جفنيها؛ ومخافة من أن تغرق، أحاط وسطها بذراعه. كان هو الآن من يردّ على الرفاق. وكانت ضربات المعاول تدنو، إذ يسمعها خلف ظهره. لكن خارت قواه أيضاً، وذهب كل عزمه للضرب.

إنهم يعلمون بوجودهما هناك، لمّ التعب زيادة؟ لم يعُد تمكّنُهم من الوصول يعنيه في شيء. ومن بلاهة انتظاره فقد بلغ به الأمر، مدة ساعات، أن نسي ما كان ينتظر.

وألفيا بعض الراحة والمواساة. كان مستوى الماء ينخفض، وابتعد جسد شافال. منذ تسعة أيام، هناك من يعمل لخلاصهم، وكانوا، للمرة الأولى يتقدمون خطوات معدودة في السرداب حين رمت بهم رجّة مهولة على الأرض. بحثا عن بعض، وظلا متعانقين، وأصابهما جنون، إذ لم يفهما، وظنا أن الكارثة بدأت من جديد. لم يتحرك شيء بعد ذلك، وتوقف صوت المعاول.

في الركن حيث كان مجلسهما، جنباً إلى جنب، بدرت من كاترين ضحكة خفية.

«لا بد أن الجو طيّب في الخارج. تعال، لنخرج من هنا».

في البدء، قاوم إتيان ذلك المسّ من الجنون. لكن عدوى أصابت بشدة رأسه الصلب، وفقد الإحساس السليم بالواقع. جميع حواسهما صارت تغلط، خاصة حواس كاترين، التي ألمّت بها الحمّى، وقد ابتُليت في الوقت الحاضر بالحاجة إلى الكلام والحركة. وصار طنين أذنيها همسات ماء يجري وسقسقة عصافير؛ كانت تشم الأريج الحادّ لأعشاب مداسة، وترى بوضوح، بقعاً كبيرة صفراً تحلق أمام عينيها، ومن شدة اتساعها كانت تظن أنها في الخارج، قرب القناة، بين الزروع، في يوم مشمس جميل.

«هه؟ الجو حار! خذني إذن، فنلبث معاً، أوه! دوماً، دوماً!».

كان يضمها إليه بشدة، وكانت تداعب نفسها ملتصقة به، طويلاً، متابعة بثرثرة فتاة سعيدة:

«كم كنا بُلهاء بالانتظار كل هذه المدة الطويلة! في الحال، كم وددت ملامستك، ولم تفهَم، لقد وجدتَ كراهة في ذلك. ثم، إنك تذكُر، في بيتنا، ليلاً، عندما كنا لا ننام، وأنف كلّ منا مرفوع في الهواء، نصغي إلى زفيرنا، وقد عمَّتنا رغبة عظيمة للمعاشرة؟».

أصابته بهجتها، ومزح من ذكريات ما كان بينهما من حبّ صامت.

«لقد صفعتِني مرة، أجل، أجل! ضربات على الخدّين، الاثنين معاً»

«ذلك أني كنتُ أحبكَ»، همسَت، «كما ترى، كنت أمنع نفسي من التفكير فيكَ، وأحدث نفسي أن الأمر قضي حقاً؛ وفي الأصل، كنت أعرف أننا سنجتمع ذات يوم. كان يلزمنا مناسبة فحسب، حظ سعيد، أليس كذلك؟».

جمّدت رعشةٌ أوصاله، كان يريد رجرجة ذلك الحلم، ثم قال بتؤدة:

«لم ينقضِ شيء قط، يكفي قليل من السعادة كيما يبدأ كل شيء من جديد».

«إذن، تحتفظ بي، إنها الصفقة الجيدة هذه المرّة؟».

ثم زلقت وراحت تترنح. كانت من الوهن بحيث أن صوتها المكتوم خمَد. ومن رعبه، شدّها إلى صدره.

«أوَ تتألّمين؟».

انتصبت، مستغربة.

«كلا، بتاتاً. لماذا؟».

لكن هذا السؤال جعلها تصحو من حلمها. نظرت بِحيرة إلى الظلمات، لوَت يديها، وقد اعترتها نوبة نحيب جديدة.

«إلهي! إلهي! يا له من ظلام!».

لم تعد الزروع، ولا أريج العشب، ولا سقسقة القُبَّر، ولا الشمس العظيمة الصفراء؛ بل كان المنجم الخسف، المغمور بالفيض، والليل النّتن، والتقاطر الجنائزي لذلك القبو حيث يئنّان منذ أيام عدّة. كان اضطراب حواسها يزيد من فظاعتها الآن، إذ استحوذ عليها من جديد تطيّر طفولتها، رأت الإنسي الأسود، عامل المنجم العجوز الميت وقد عاد إلى الحفرة كي يلوي أعناق الفتيات اللواتي لا حياء لهن.

«أنصت، هل سمعت؟».

«كلا، لا شيء، لا أسمع شيئاً».

«بلى، الإنسي، هل تعلم؟ هاك! إنه هنا. لقد أطلقت الأرض دم العِرق كله، انتقاماً من قطعنا لشريانها؛ وهو هنا، إنك تراه، انظر! أشد سواداً من الليل. أوه! أنا خائفة، أوه! أنا خائفة!».

سكتت وهي ترتجف. ثم بصوت خفي، تابعت:

«كلا، إنه ذاك الآخر دائماً».

«أي آخر؟».

«الذي هو موجود معنا، الذي لم يعُد حيّاً».

كانت صورة شافال تَسكُنها، وكانت تتكلم عنه بالتباس، تروي حياة الكلاب، حياتهما، اليوم الوحيد الذي أظهر فيه أنه لطيف، في جونبار، وباقي الأيام حماقات وصفعات، حينما يقتلها بمداعباته، بعد الإمعان في ضربها.

«قلتُ لكَ إنه قادم، إنه سوف يمنعنا من العيش معاً! إن غيرته، تعتريه من جديد. أوه! أبعده، أوه! ضُمّني، ضُمّني بكُلّي».

ودفعة واحدة، تعلّقت به، بحثت عن فمه وألصقت عليه فمها بشغف. أضاءت الظلمات، ورأت الشمس من جديد، واستعادت ضحك العاشقة السّاكن. أما هو، إذ ارتعش لمّا أحس بها على تلك الحال لِصقه، نصف عارية تحت مزق السترة والسروال، ضمّها، وقد صحَت فحولته. وكانت في نهاية الأمر، ليلة زفافهما، في جوف ذلك القبر، على سرير الوحل ذاك، الحاجة إلى تجنّب الموت قبل الحصول على سعادتهما، الحاجة الملحّة للعيش، إلى عيش الحياة للمرة الأخيرة. وتحابّا في غمرة اليأس من كل شيء، في غمرة الموت.

ثم لم يعقب ذلك شيء. كان إتيان جالساً على الأرض، دائماً في الركن ذاته، وكانت كاترين على ركبتيه، ممددة، لا تتحرّك. مرت ساعات وساعات. ظن طويلاً أنها كانت نائمة؛ ثم لمسها، كانت باردة جداً، ميّتة. ومع ذلك، لم يتحرّك، مخافة أن يوقظها. فكرة أنه كان أول من عاشرها، وأن في وسعها أن تحمل، أدخلت عليه المرحمة. أفكار أخرى، الرغبة في الرحيل معها، الفرحة بما يمكن لهما فعله في ما بعد، كانت تراوده أحياناً، لكن من شدة غموضها فقد بدت أنها بالكاد تحاذي جبينه، مثل نفخة النوم نفسها. أصابه الوهن، ولم يفضُل له من قوة إلا قوة حركة صغيرة، حركة بطيئة من يده، للاطمئنان أنها هناك حقاً، مثل طفلة نائمة، في همدتها من جليد. غاب كل شيء، الليل نفسه غرق، لم يكن في مكان معلوم، خارج المكان، خارج الزمن. شيء

ما كان يخبط حقاً جنب رأسه، ضربات تدنو شدتها؛ لكنه في البدء اعتراه كسل القيام للردّ، وقد خدرت أطرافه بتعب شديد؛ وفي الوقت الحالي، لم يعُد يعلم شيئاً، كان يحلم فحسب بأنها تمشي أمامه وبأنه يسمع خفق نعليها الخفيفين. مضت يومان، لم تتحرّك، كان يلمسها بحركتها العفوية تلك، وهو مطمئن لإحساسه بأنها بكل ذلك القدر من السكون.

أحس إتيان بهزّة. أصوات ترعد، وصخور تتساقط حتى بلغت قدميه. ولمّا رأى مصباحاً، بكى. عيناه تتبعان الضوء وهما تطرفان، لم يصبه عياء من رؤيته، وقد عمّته حالة من الوَجد قبالة تلك النقطة المائلة إلى الحُمرة التي بالكاد كانت تلطخ الظلمات. لكن حمله رفاق، وتركهم يُدخلون بين أسنانه المطبقة، ملاعق صغيرة من المرقة. وفي سرداب ريكيار فحسب تمكّن من التعرف على أحد، المهندس نيغريل، الواقف أمامه؛ وهذان الرجلان اللذان كانا يُحقّران بعضهما، العامل الهائج، الرئيس المُريب، تعانقا، ونحبا نحيباً عالياً، في انقلاب بالغ للإنسانية الكامنة فيهما. وكان حزناً شديداً، بؤس الأجيال، الحدّ الزائد عن الوجع الذي يمكن أن تقع فيه الحياة.

في السطح، ماهود، التي هدّتها المصيبة، كانت جنب كاترين الميّتة، أطلقت صرخة، ثم ثانية، فثالثة، توجّع شديد طويل جداً، غير منقطع. سبق وتم إخراج جثامين كثيرة وصفّها على الأرض: شافال الذي ظُنّ أنه سقط صريعاً تحت هدَم، صبي متعلّم وحفَّاران، هشمت رؤوسهم، والجمجمة خاوية من مخها، والبطن منتفخ بالماء. نساء وسط الحشد، غابت عقولهن، كنّ يمزقن

ألبستهن ويخدشن وجوههن. وحينما أُخرِج في نهاية الأمر، بعد أن اعتاد المصابيح وأكل قليلاً، بدا إتيان بلا لحم، شعره أبيض تماماً؛ وكان الناس يفسحون الطريق مبتعدين، ويرتعدون قبالة ذلك العجوز. كفّت ماهود عن الصّراخ، كيما تنظر إليه ببلاهة، بعينيها الواسعتين الشاخصتين.

VI

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً. ليل أبريل المَريح يزداد دفئاً مع دنو النهار. في السماء الصافية، كانت النجوم تتراقص، بينما ضوء السَّحَر يصبغ المشرق بلونٍ أرجواني. والبلدة المظلمة، الغافية، بالكاد اعترتها رعشة، ذلك الهمس الملتبس الذي يسبق الصحو.

كان إتيان يخطر في مشيه وهو يسلك درب ڤاندام. لقد أمضى آنفاً ستة أسابيع في مونسو، في سرير بالمستشفى. أصفر لا يزال وشديد الهزال، وجد ما يكفي من القوة للرحيل، وكان على أهبة الرحيل. ولأن الشركة الخائفة دوماً على الحُفر، مستبقة عمليات طرد متلاحقة، فقد أخبرته بأنها لا تستطيع الاحتفاظ به. وهي تمنحه فضلاً عن ذلك معونة بقيمة مائة فرنك، ونصيحة أبوية بصرف النظر عن الشغل في المناجم، الذي بات شاقّاً بالنسبة إليه منذ ذلك الحين. لكنه رفض المائة فرنك. أصلاً، دعاه جواب من **پلوشار** إلى باريس، في رسالة ضمّت مال الرحلة. كان ذاك حلمه القديم وقد تحقق. في اليوم السابق، عند الخروج من المستشفى، نزل ليلاً في **بونجوايوه**، عند الأرملة **ديزير**. استيقظ في الصباح الباكر، وفي نَفسه شيء وحيد، توديع الرفاق، ثم الذهاب ليركب قطار الثامنة، في مارشيين.

توقف إتيان، لحظة، في الدرب الذي صار بلون الورد. كان من المفيد استنشاق ذلك الهواء النقي جداً، هواء الربيع المبكر. بشائر الصباح الرائع. ببطء كان النهار يطلع، وحياة الأرض تعلو

مـع الشـمس. واسـتأنف المسـير، وهـو يخبـط بقـوة بعصـا مـن شـجر القَرانيـا، وينظـر بعيـداً إلـى السـهل الخـارج مـن أبخـرة الليـل. لـم يـر أحـداً مـن جديـد، كانـت ماهـود قـد قَدِمـت عليـه مـرة واحـدة فـي المستشـفى، ثـم لـم تسـعفها العـودة دون شـكّ. لكنـه كان يعلـم أن مجمـع 240 بأكملـه ينـزل إلـى جـوف جونبـار الآن، وأنهـا بنفسـها اسـتأنفت شـغلاً هنـاك.

شـيئاً فشـيئاً، أخـذت الـدروب المقفـرة تعمـر، كان عمـال الفحـم يمـرون قـرب إتيـان باسـتمرار، الوجـوه شـاحبة، صامتيـن. قيـل إن الشـركة بالغـت فـي انتصارهـا. بعـد شـهرين ونصـف شـهر مـن الإضـراب، وقـد قهرهـم الجـوع، حينمـا رجعـوا إلـى الحُفَـر، لـم يجـدوا بُـدّاً مـن قبـول تعريفـة تمتيـن الدعائـم، خفـض الأجـر المُتَنَكِّـر ذاك، الممقـوت فـي الحاضـر، الملطّـخ بـدم الرفـاق. سـرقت منهـم سـاعة مـن الشـغل، وجعلوهـم يحنثـون بقسـمهم علـى ألّا يستسـلموا، وهـذا الحنـث باليميـن ظـلّ حبيـس الحلـق، مثـل هَنـة المـرارة. رجـع النـاس للعمـل فـي كل مـكان، فـي ميـرو، ومادليـن، وكريڤكـور ولاڤيكتـوار. فـي كل مـكان، وسـط ضبـاب الصبـاح، علـى امتـداد الـدروب الغارقـة فـي الظلمـات، كان القطيـع يسـير الرّويـد، صفـوف مـن البشـر يَعـدون والأنـوف فـي التـراب، مثـل بهائـم تسـاق إلـى المجـزرة. كانـوا يرتعشـون تحـت أقمشـة ملابسـهم رقيقـة النّسـج، يشـبكون أذرعهـم، يموجـون فـي مشـيتهم، ينفخـون الظهـر الـذي كان يبـدو أحـدب مـن الشـطيرة المقيمـة بيـن القميـص والمعطـف. وفـي تلـك العـودة الجماعيـة، فـي تلـك الظـلال الخـرس، المظلمـة بالكامـل، بـلا ضحكـة، ولا نظـرة إلـى جنـب، كان هنـاك إحسـاس بالأسـنان المطبقـة غضبـاً، والقلـب طافـح

بالحقد، الإذعان الوحيد لضرورة البطن.

وكلما اقترب من الحفرة، كلما رأى عددهم يزداد. تقريباً، كانوا جميعاً يمشون متفرقين، والذين يقدمون جماعات كانوا يصطفون تباعاً، وقد أصابهم التعب الشديد أصلاً، والنَصِب من الآخرين ومن أنفسهم. أبصر واحداً منهم، هرماً جداً، كانت عيناه تبرقان، مثل جمرات فحم، أسفل جبين مكفهرّ. وثانياً، كان شابّاً، ينفخ، مثل نفخ العاصفة المتواصل. الكثير منهم يحمل نعليه في اليد؛ وبالكاد يُسمع على التراب الخفق الرخو لجواربهم غليظة الصوف. كان سيلاناً لا نهاية له، محنة، مسيرة بالقوة لجيش مهزوم، يمشي على الدوام مطأطأ الرأس، ويركبه غيظ مكتوم من الحاجة إلى العودة للمقاومة والانتقام.

حين وصول إتيان، كان جونبار يخرج من العتم، والفوانيس المعلّقة إلى الحوامل لا تزال متقدة، في الفجر البازغ. فوق البنايات المظلمة، كان يرتفع دخان أبيض مثل بلشون، صبغهُ بلطفٍ لونٌ قرمزي. عبَر سلّم قاعة الغربلة كيما يصل إلى المورد.

كان النزول قد بدأ، والعمال يصعدون من المستودع. للحظة، ظلّ ثابتاً في مكانه، وسط ذلك الصخب والجلبة. تَدحرجُ عربات النقل يهزُّ بلاطات الحديد السبيكة، واللوالب تدور، تبسط الأسلاك، وسط صياح مكبّرات الصوت، طنين الأجراس، وضربات مطرقة على ميشار الإشارة؛ ولقي من جديد الوحش يبتلع نصيبه من اللحم البشري، الأقفاص تطفو، تغمر، وتغوص في الهاوية محمّلة بالرجال، دون توقف، بدفعة سهلة من حلقوم عملاقٍ نَهِم. منذ الحادثة التي أصابته، أصبح يبغض المنجم بتوتر. تلك

الأقفـاص المتوغلـة كانـت تمـزق أحشـاءه. ولزمـه أن يشـيح بنظـره، فالبئـر أضحـت تزعجـه.

لكـن فـي القاعـة الواسـعة المعتمـة بعـدُ، التـي كانـت الفوانيـس الخامـدة تنيرهـا بضـوء غبـش، لـم يـر أي وجـهٍ صديـق. العمـال المنتظـرون هنـاك، حُفـاة، المصبـاح فـي اليـد، كانـوا ينظـرون إليـه بعيونهـم الواسـعة الحائـرة، ثـم يخفضـون جباههـم، ويتراجعـون بخجـل ظاهـر. لا شـك فـي أنهـم كانـوا يعرفونـه، ولـم يعُـد لهـم ضغـن عليـه، بـل علـى العكـس بـدا أنهـم يخشـونه، ويخجلـون مـن أنـه يعيـب عليهـم كونهـم جبنـاء. مـلأ ذلـك الموقـف قلبـه. ونسـي أن أولئـك البؤسـاء رجمـوه، وعـاد مـن جديـد إلـى حلـمٍ جعلهـم أبطـالاً، وقيـادة الشـعب، قـوة الطبيعـة تلـك التـي كانـت تلتهـم نفسـها.

حمـل قفـصٌ الرجـال، واختفـت الدُفعـة، وبمـا أن غيرهـم قدمـوا، فقـد رأى فـي نهايـة المطـاف واحـداً مـن ملازميـه فـي الإضـراب، رجـل شـجاع أقسـم علـى المـوت.

«أنت أيضاً!»، غمغم، آسفاً.

اصفر وجه الثاني، وارتعدت شفتاه؛ ثم بإيماءة اعتذار قال:

«لا مفر، عندي امرأة».

الآن، في الموج الجديد الصاعد من المستودع، تبيّنهم جميعاً.

«أنت أيضاً! أنت أيضاً! أنت أيضاً!».

وسرت فيهم رعدة، جميعاً، وتمتموا بصوت مخنوق:

«عندي أمّ... عندي أولاد... نحتاج إلى الخبز».

لـم يظهـر القفـص مـن جديـد، انتظـروه، وقـد حـطّ عليهـم الحـزن، مـن شـدة ألـم هزيمتهـم، بحيـث أن نظراتهـم كانـت تتجنـب أن تلتقـي، محدقـة بإصـرار فـي البئـر.

«وماهود؟»، سأل إتيان.

لم يردوا البتة. أومأ البعض بأنها سوف تأتي. رفع البعض الآخر أذرعهم، المرتعدة شفقة: آه! المسكينة! يا للبؤس! واستمر الصمت، وحينما هوى الرفيق نحوهم بيده، كيما يودّعهم، شدّ عليها الجميع بقوة، وجعلوا في تلك الضّمّة المكتومة غيظهم من كونهم استسلموا، وقد اعتراهم أمل محموم في الانتقام. كان القفص هناك، دخلوه، ثم هووا، وقد أكلتهم الهاوية.

ظهر پييرون، بمصباح فتيل الغاز، المثبت في جلد خوذته. قبل ثمانية أيام، صار رئيس فرقة في سلّم البئر، وكان العمال يُفسحون له الطريق لأن ذلك التشريف جعله فخوراً. أزعجه مرأى إتيان، لكنه اقترب مع ذلك، وانتهى به الأمر إلى أن اطمئنّ، حين أخبره الرجل الشاب برحيله. تجاذبا أطراف الحديث. صارت زوجته الآن تُدير حانة **پروغري**، بفضل دعم كل هؤلاء السادة، الذين يعاملونها بكل ذلك القدر من اللطافة. لكنه قطع حبل كلامه، وثار في وجه الأب **موك** إذ عاب عليه كونه لم يُخرج روث خيوله، في الوقت المضبوط. كان العجوز يصغي إليه، محنياً ظهره. ثم وهو يهم بالنزول، وإذ ضاق صدره بذلك التوبيخ، مدّ يده إلى إتيان مصافحاً، مثل الآخرين، مصافحة طويلة، حارة بالغضب المكنون، مرتعدة بتمرّد قادم. وتلك اليد الهرمة التي كانت ترتعش في يده، ذلك العجوز الذي غفر له موت أولاده، أثّرا في نفسه بقدر جعله ينظر إليه وهو يختفي دون النبس ببنت شفة.

«إذن ماهود لن تحضر هذا الصباح»، قال سائلاً پييرون، بعد برهة.

في البدء، تظاهر الأخير بأنه لم يفهم من قصده شيئاً، لأن النحس يحلّ أحياناً بمجرد ذكرها. ثم، وهو يبتعد عنه، وبذريعة إصدار أمر، قال في نهاية المطاف:

«هه؟ ماهود، ها هي».

وبالفعل، كانت ماهود قادمة من المستودع، بمصباحها، وهي تلبس السروال والسترة، والرأس مشدود في البخنق. إحساناً، من باب الاستثناء، تفضّلت الشركة التي أشفقت من حال تلك التعسة، وقبلت بأن تدعها تنزل من جديد وهي في سن الأربعين؛ وإذ بدا من الصعب جعلها في النقل، عُهد لها بخدمة تولي مروحة صغيرة أقيمت آنفاً في السرداب الشمالي، في مناطق الجحيم تلك، أسفل تارتاري، حيث لا تهوية. ومدة عشر ساعات، وقد قصم ظهرها، كانت تدير عجلتها، في جوف مضيق ملتهب، وقد شوي الجسد بحرارة أربعين درجة. كانت تكسب من ذلك ثلاثين فلساً.

حين رآها إتيان، يرثى لها في ملابسها، ملابس الرجال، بصدرها وبطنها وكأنما انتفخا زيادة من رطوبة المقالع، تمتم فزعاً، لم تسعفه العبارة كيما يبيّن لها أنه راحل وأنه رغب في أن يودّعها.

كانت تنظر إليه ولا تصغي، وقالت في نهاية الأمر وهي تخاطبه برفع الكلفة:

«هه؟ تستغرب لمرآي. صحيح أني كنت أتوعد بِخَنق أول واحد من أقاربي إن هو نزل من جديد؛ وها أنا أنزل ثانية، يجب أن أخنق نفسي بنفسي، أليس كذلك؟ آه! لا تهتم، كنت فعلت ذلك

أصـلاً لـولا العجـوز والصغـار فـي البيـت!».

وتابعـت، بصوتهـا المهمـوس والمتعَـب. لـم تكـن تجـد الأعـذار، بـل تحكـي الأشـياء ببسـاطة، بأنهـم كادوا يهلكـون، وبأنهـا عزمـت علـى أمرهـا، حتـى لا يتـم طردهـم مـن المجمّـع.

«كيف هي حال العجوز؟».

«إنـه لطيـف ونظيـف دومـاً. لكـن عقلـه ذهـب تمامـاً. لـم يُحكـم بالإدانـة علـى فعلتـه، هـل تعلـم ذلـك؟ جـرى حديـث عـن وضعـه مـع المجانيـن، لكنـي لـم أقبـل، خشـية أن يجعلـوا كرشـه فـي مرقـة. لقـد سـببت لنـا قضيتـه الكثيـر مـن المتاعـب، إذ لـن يحصـل علـى معاشـه أبـداً، لقـد أخبرنـي أحـد السـادة هـؤلاء بـأن ذلـك سـيكون منافيـاً للأخـلاق إذا مُنـح معاشـاً».

«جونلان يشتغل؟».

«أجـل لقـد وجـد لـه هـؤلاء السـادة شـغلاً، فـي السـطح. إنـه يكسـب عشـرين فلسـاً. أوه! لا أشـكو شـيئاً، لقـد أبـان الرؤسـاء عـن طيبـة بالغـة، مثلمـا بيّنـوا لـي ذلـك بأنفسـهم. عشـرون فلسـاً مكسـب الغـلام، وثلاثيـن فلسـاً مكسـبي أنـا، تسـاوي خمسـين فلسـاً. لـو لـم نكـن سـتة أفـراد، لحصلنـا علـى مـا نطعمـه. الآن إسـتيل تلتهـم، والأسـوأ مـن ذلـك أنـه يجـب انتظـار أربعـة أو خمسـة أعـوام حتـى يبلـغ كل مـن لينـور وهنـري سـن القـدوم إلـى الحفـرة».

لم يستطع إتيان منع إيماءة توجُّع.

«هما أيضاً!».

غـزت حُمـرة خدّي ماهـود الشـاحبين، بينمـا اتقـدت عيناهـا. لكـن تداعـى كتفاهـا، كمـا لـو سـحقهما القـدَر.

«لا مفر، هما بعد الآخرين. الجميع أهلَكَ نفسه هناك، حان دورهما».

سكتت، إذ أزعجهما عمّال تفريغ كانوا يدفعون عربات حمل. من النوافذ الواسعة المغبرّة، دخل الصبح، مغرقاً الفوانيس بوميض رمادي؛ وعادت الآلة لضجيجها كل ثلاث دقائق، كانت الأسلاك الفولاذية تنبسط، وتواصل الأقفاص التهام الرجال.

«هيّا، أيها المتسكّعون، أسرعوا!»، صاح پييرون، «اركبوا، لن ننتهي من الأمر اليوم».

«إذن، سترحل؟».

«أجل، هذا الصّباح».

«أنت على حق، من الأفضل أن يكون المرء في مكان آخر، حين يسعه ذلك. أنا مسرورة لأني لقيتك، لأنك ستعلم على الأقل أني لا أحمل لك ضغينة. كنت لأقتلك، ذات مرة، بعد كل تلك المذابح. لكن حين نمعن النظر، أليس كذلك؟ ندرك أن في نهاية المطاف ذاك ليس خطأ أحد بعينه. كلّا، كلّا، ليس ذلك خطأك، إنه خطأ الجميع».

الآن، كانت تتحدث بسكينة عن موتاها، عن رجُلِها، عن زكاري، عن كاترين؛ وبدت فحسب دموع في عينيها حينما ذكرت اسم ألزير. كانت قد عادت إلى سكينتها، سكينة المرأة الرزينة، فهي تزن الأشياء بحكمة بالغة. لن يجلب ذلك الحظ للبرجوازيين جراء قتلهم كل ذلك العدد من الناس المقهورين. من المؤكد أنهم سيلقون عقاب ذلك ذات يوم، لأن لكل عمل جزاء. ولن نحتاج إلى التدخل في ذلك، سينفجر المكان تلقاء نفسه، ويرمي الجنود

أربـاب العمـل بالرصـاص، مثلمـا رمـوا العمّـال. وبإذعانهـا الأزلـي، وذلـك الإرث مـن الانضبـاط الـذي يحنـي ظهرهـا مـن جديـد، قضـي أمـر بذلـك النحـو، اليقيـن مـن أن الجَـور لـن يـدوم أكثـر، وأنـه إذا لـم يعُـد هنـاك مـن ربّ رحيـم، سـيولد آخـر، كيمـا ينتقـم للبؤسـاء.

كانـت تتكلـم همسـاً، بنظـرات حـذرة. ثـم حيـن دنـا پييـرون، أردفـت بصـوت عـالٍ جـداً:

«وعليـه! بمـا أنـك سـترحل، يجـب أن تحمـل مـن بيتنـا أغراضـك.. لا يـزال هنـاك قميصـان، ثلاثـة مناديـل، وسـروال بـال».

رفـض إتيـان بإيمـاءة تلـك الأسـمال المعـدودة، المختلسـة مـن بائعـي الخـردوات.

«كلا، لا تسـتحق العنـاء، سـتكون للأطفـال. فـي باريـس، سـوف أتدبـر الأمـر».

نـزل قفصـان آخـران، وقـرر پييـرون أن ينـادي ماهـود صـراحـة.

«هيهَ، هنـاك، النـاس تنتظـرك! هـل سـيكفُّ ذلـك الحديـث قريبـاً؟».

لكنهـا أدارت ظهرهـا. مـاذا حـل بـه كـي يفـرط فـي حماسـه، ذلـك الخائـن؟ النـزول، ذاك أمـر لا شـأن لـه بـه. إن رجالـه، فـي سـلّم البئـر، يمقتونـه مقدّمـاً بمـا فيـه الكفايـة. وكانـت تصـرّ فـي عنادهـا، ومصباحهـا بيـن أصابعهـا، مجمّـدة الأوصـال فـي مهـبّ الهـواء، رغـم جـوّ الموسـم اللطيـف.

لـم تسـعفهما كلمـة بعـدُ، لا إتيـان ولا هـي. لبثـا وجهـاً لوجـه، والقلـب مـلآن حيـث ودّا لـو يحدثـا بعـض زيـادة.

وفـي الأخيـر، تكلمّت بغيـة الكـلام فحسـب:

«لوڤاكـه حامـل، لوڤـاك فـي السـجن لا يـزال، وبوتلـو يحـل مكانـه، فـي انتظـار خروجـه».

«آه! أجل، بوتلو».

«اسمع إذن، هل أخبرتك؟ رحلت فيلومين».

«كيف، رحلت؟».

«أجل، رحلت مع عامل منجم من پادوكالي. لقد خشيتُ أن تترك لي الصغيرين. إلا أنها أخذتهما معها. هه؟ امرأة تبصق الدم ويبدو أنها تبلع دوماً لسانها!».

شرِدَت لحظة، ثم تابعت بصوت بطيء:

«كم جرت الألسن بالنميمة عني! إنك تذكر، قيل إني كنت أعاشرك. يا إلهي! بعد موت رجلي، كان ذلك ليحصل حقاً، لو أني كنت شابّة، أليس كذلك؟ لكن، اليوم، أفضل أن ذلك لم يحدث، لأننا كنا سوف نندم على ذلك بالتأكيد».

«أجل، كنا سنندم»، كرّر إتيان ببساطة.

وكان ذلك كل شيء، لم يتكلما زيادة. كان هناك قفص ينتظرها، نودي عليها بغضب مع تهديدها بغرامة. حينذاك، حسمت أمرها، وشدّت على يده بحرارة. وهو متأثر، ظلّ ينظر إليها، مدمّرة وهلِكة بكل ذلك القدر، بوجهها الذي اصفرّ لونه، وخصلات شعرها التي فاضت عن البخنق الأزرق، وجسدها، جسد البهيمة الخالصة كثيرة الولد، وقد بدت شوهاء في السروال وسترة القماش. وفي تلك المصافحة الأخيرة، ألفى أيضاً مصافحة رفاقه، ضمة طويلة، خرساء، تعطيه موعداً لليوم الذين يبادرون فيه من جديد. فهم القصد تماماً، كان في عمق عينيها عقيدتها الساكنة. إلى لقاء قريب، وهذه المرة، سوف تكون الضربة العظيمة.

«يا لها من متكاسلة لعينة!»، صاح پييرون.

بعـد دفعهـا وزحمهـا، تكوّمـت ماهـود فـي أقصـى عربـة حمـل رفقـة أربعـة غيرهـا. جـذب حبـل الإشـارة إعلانـاً عـن اللحـم، انفصـل القفـص وسـقط فـي الظـلام؛ ولـم يعُـد هنـاك سـوى ركـض الحبـل الفـولاذي السـريع.

حينـذاك، غـادر إتيـان الحفـرة. في الأسـفل، تحت حظيـرة الغربلة، رأى مخلوقاً يفترش الأرض، وسـاقاه ممدودتان، وسـط طبقة سـميكة مـن الفحـم. كان ذاك جونـلان، المسـتخدم بصفـة «منظـف القِطَـع الغليظـة». كان يمسـك بيـن فخذيـه حجـراً عظيمـا مـن الفحـم، ويزيـل بمطرقـة صفائـح فحـم؛ فيغرقـه غبـار رقيـق بسـيل مـن السـخام إلـى حدّ أن الرجـل الشـاب لـم يكـن فـي وسـعه قـط التعـرف إليـه لـولا أن الطفـل رفـع نحـوه خطمـه خطـم القـرد، وأذنيـه البارزتيـن، وعينيـه الصغيرتيـن المائلتيـن إلـى الخضـرة. ضحـك ضحكـة مـرح، وكسـر الحجـر بضربـة أخيـرة، ثـم اختفـى فـي الغبـار الأسـود المتصاعـد.

فـي الخـارج، سـلَك إتيـان الطريـق هنيهـة وهـو مفتتـن. كل أصنـاف الخواطـر تطـنُّ فـي داخلـه. لكنـه أحـسَّ بالهـواء الطلـق، بالسـماء المفتوحـة، وتنفـس نفسـاً مديـداً. بـدت الشـمس فـي الأفـق ظافـرة، كانـت تلـك صحـوة بهجـة، فـي البلـدة بأكملهـا. سـيل مـن الذهـب كان ينبسـط مـن الشـرق إلـى الغـرب، علـى السـهل الشاسـع. حـرارة الحيـاة تلـك كانـت تغـزو، تمتـد، فـي رعشـة شـباب، حيـث تهتـز زفـرات الأرض، وسقسـقة الطيـور، كل همسـات الميـاه والأشـجار. يطيـب المقام هناك، حيث كان العالـم القديم يريـد أن يعيـش الربيـع مـن جديـد.

أبطـأ إتيـان المشـي وقـد داخلـه الأمـل، وتاهـت عينـاه يمينـاً وشـمالاً، إذ اغتبـط مـن الموسـم الجديـد. كان يُفكِّـر فـي نفسـه،

ويشعر بأنه قوي، وناضج من تجربته المريرة في جوف المنجم. لقد تمّ تعليمه، وهو منصرف بسلاحه، بصفة جندي يعقل الثورة، أعلن الحرب على المجتمع، كما يراه وكما يدينه. الفرحة بلقاء **پلوشار**، بأن يكون مثل **پلوشار** زعيماً مسموعاً، كانت تهمس له بخُطب يرتّب جملها. كان يتأمل توسيع برنامجه، التهذيب البرجوازي الذي رفعه فوق طبقته كان يرمي به إلى حقد أشد على البرجوازية. أولئك العمال الذين كانت تزعجه رائحتهم الآن، فإنه يحس بالحاجة إلى أن يُدخلهم في مجد من الأمجاد، وسوف يظهرهم على أنهم هم العظماء وحدهم، وحدهم لا تشوبهم شائبة، بوصفهم الفئة النبيلة الوحيدة والقوة الوحيدة حيث يمكن للبشرية أن تجدد أصلها. مقدّماً، كان يرى نفسه على المنصّة، منتصراً مع الشعب، إذا لم يلتهمه الشعب.

في الأعلى، جعله صوت قبّرة ينظر إلى السماء. غيوم حمر صغيرة، آخر أبخرة الليل، كانت تذوب في الأزرق الصافي؛ وظهرت له صورتا سوڤارين وراسنور ملتبستين. الظاهر أن كل شيء يتعرض للفساد حين يجذب كل واحد السلطة إليه. هكذا، فإن تلك الأُممية التي كان يُفترض أن تجدّد العالم، أُجهضت من عجزٍ بعدما شهدت جيشها الجرّار ينقسم ويتفتت في خصومات داخلية. كان داروين على حق إذن، ليس العالم سوى معركة، حيث يأكل الأقوياء الضعفاء، من أجل حُسن وتكاثر النوع؟ كانت تلك المسألة تبلبله، وإن جزم، بصفة الرجل الراضي بعلمه. لكن فكرة بدّدت شكوكه، وفتنته، فكرة العودة إلى تفسيره القديم للنظرية، في أول فرصة سيتكلم فيها. إذا كان لا بد من أن تتعرض طبقة

للأكل، أليس على الشعب، الحيوي، الجديد بعدُ، من أن يأكل البرجوازية المنهكة بالملذات؟ الدم الجديد سيخلق المجتمع الجديد. وفي انتظار غزو الهمج، المولد للأمم القديمة البائدة، ظهر من جديد إيمانه المطلق بثورة قريبة، الثورة الحقّة، ثورة العمال، التي سيلهب حريقها نهاية القرن بأرجوان الشمس المشرقة، الذي يراه نازفاً من السماء.

كان يمشي دوماً، حالِماً، وهو يضرب بعصاه القرانيا حصى الطريق؛ وحينما كان يرمي بناظريه إلى ما حوله، كان يتعرّف مواضع من البلد. وبالتحديد، عند **فورش أوبوه**، تذكّر أنه، هناك، أخذ بزمام العصبة، صباح تخريب الحُفر. اليوم، سيبدأ من جديد شغل الوغد المميت، سيّئ الأجر. تحت الأرض، هنالك، في عمق سبعمائة متر، بدا له يسمع ضربات مكتومة، منتظمة، موصولة: كان هؤلاء الرفاق الذين رآهم ينزلون آنفاً، الرفاق السُود، يخبطون، بغيظهم الصامت. لا شكّ في أنهم كانوا مغلوبين، لقد تركوا هناك أموالاً وأمواتاً؛ لكن باريس لن تنسى إطلاق الرصاص في لوفوروه، دم الإمبراطورية سوف يسيل هو أيضاً بذلك الجرح الذي لا يبرأ؛ وإذا كانت الأزمة الصناعية سائرة إلى نهايتها، إذا فتحت المصانع أبوابها من جديد، مصنعاً تلو مصنع، فإن إعلان حالة الحرب لا يزال مع ذلك ساري المفعول، دون أن يكون السلام ممكناً منذ ذلك الحين. لقد صار عمال الفحم في الحسبان، وحاولوا جهد قوتهم، وهزوا بصرخة العدل عمّال فرنسا كلها. لذلك فإن هزيمتهم لم تُدخل السكينة على أي كان، فها هم برجوازيو مونسو، وقد غمرهم، أثناء نصرهم، قلق غداة

الإضـراب، ينظـرون خلفهـم إن لـم تكـن نهايتهـم هنـاك رغـم ذلـك، يصعـب تجنبهـا، فـي جـوف ذلـك الصمـت العظيـم. كانـوا يدركـون أن الثـورة سـوف تولـد باسـتمرار، إذا، ربمـا، مـع الإضـراب العـام، واتفـاق جميـع العمـال الذيـن لهـم صناديق ادخـار، فـي وسـعها الصبـر مـدة أشـهر، بـأكل الخبـز فحسـب. كانـت هـذه المـرة كذلـك مسـاعدة للمجتمـع المنهـار، وقـد سـمعوا قعقعـة ذلـك تحـت أقدامهـم، وهـم يشـعرون بتصاعـد هـزّات أخـرى، دومـاً هـزات أخـرى، إلـى أن يتداعـى البنـاء القديـم، المهـزوز، ويغـرق مثـل لوڤـوروه، فـي الهاويـة.

سَلَكَ إتيـان درب جوازيـل، يسـرة. وتذكـر أنـه منـع العصبـة هنـاك مـن الهجـوم علـى غاسـتون مـاري. بعيداً، في ضوء الشـمس السـاطعة، كان يـرى أبـراج الكثيـر مـن الحُفـر، ميـرو يمنـة، مادليـن وكريڤكـور جنبـاً إلـى جنـب. كان الشـغل يزمجـر فـي كل مـكان، ضربـات المعـاول التـي ظـن أنـه سـمعها، فـي بطـن الأرض، تخبـط الآن مـن أدنـى السـهل إلـى أقصـاه. ضربـة، وثانيـة، وضربـات دومـاً، تحـت الحقـول والطـرق والقـرى، الضاحكـة للضيـاء: كل الشـغل المظلـم للسـجن السـفلي، الـذي يـرزح تحـت ثقـل الصخـور الهائـل، حيـث يجـب علـى المـرء أن يعلـم بأنـه هنـاك فـي الأسـفل كيمـا يتبيّـن زفيـره الموجـع الشـديد. ويظـن فـي الوقـت الحاضـر أن العنـف لـن يسـتعجل الأمـور، علـى الأرجـح. جبـال مقطوعـة، سـكك منزوعـة، مصابيـح مكسـورة، يـا لهـا مـن مهمـة غيـر ذات فائـدة! هـل كان الأمـر يسـتحق فعـلاً أن يركـض المـرء ثلاثـة أميـال، بعصبـة مخرِّبـة! وعلـى نحـو غيـر دقيـق، خمَّـن أن الشـرعية سـتكون، ذات يـوم، أشـدّ رعبـاً. كان عقلـه ينضـج، لقـد تخلّـص مـن حماقـة ضغائنـه. أجـل، كانـت ماهـود تقـول ذلـك عـن

حق بفضل حسّها السليم، سوف تكون الضربة العظيمة: التعبئة بهدوء، التعريف بنفسه، التكتل في نقابات، حين تسمح القوانين بذلك؛ ثم، في الصباح الذي سوف يحسُّ الناس بالتعاضد، حينما يوجد ملايين من العمّال في مواجهة بضعة آلاف من الكسالى، آنذاك يستولون على السلطة ويكونون هم الأسياد. آه! يا لها من صحوة للحق وللعدل! فيموت الإله المتخم الرابض من ساعته، ذلك الصنم المرعب، المختبئ في جوف هيكله، في ذلك المجهول البعيد حيث يطعمه البؤساء من لحمهم، وهم لم يروه قط.

لكن بعد أن غادر إتيان طريق ڤاندام، وصل إلى الرصيف. يميناً، رأى مونسو التي تنحدر وتغيب. في مواجهته، أنقاض لوڤوروه، الثقب الملعون الذي تنزحه ثلاث مضخات بلا هوادة. ثم، الحُفر الأخرى الممتدة في الأفق، لا ڤيكتوار، سان توما، فوتري كانتيل؛ بينما جهة الشمال، الأبراج المرتفعة للمصاهر العالية ومولّدات أفران الفحم التي تنفث دخانها في هواء الصباح الشّفاف. إذا شاء ألّا يفوته قطار الثامنة، لزمه العجلة، إذ كان عليه قطع ستة كيلومترات أخرى.

وتحت قدميه، تواصلت ضربات المعاول، تلك الضربات العميقة، الضربات المُلِحّة. كان الرفاق جميعاً هناك، كان يسمعهم يتبعونه مع كل خطوة. أليست تلك ماهود، تحت قطعة قصب السُكّر تلك، الظهر محني، التي يصعد نَفَسُها الأجشّ يصاحبه نخير المراوح. يسرة، يمنة، بعيداً، كان يخال تبيّن آخرين، تحت حقول القمح، والأسيجة الحامية، والأشجار الفتيّة. الآن، في كبد السماء، كانت شمس أبريل تسطع ظافرة، وتدفئ الأرض الولود.

مـن حضنهـا المرضـع تخـرج الحيـاة، وتتشـقّ البراعـم عـن أوراق خضـرٍ، وتتمايل الحقـول من طلـع البقـول. مـن كل النواحـي، يشـرئب الحَـبّ، يطـول ويعـمّ السـهل، إذ حرّكتـه الحاجـة إلـى الحـرارة والنـور. فيـض مـن نُسـغ يجـري بأصـوات هـامسـة، وينتشـر صـوت البـذور قُبلـة عظيمـة. مـرة، وثانيـة، مـراراً كان الرفـاق يضربـون بوضـوح، كمـا لـو أنهـم اقتربـوا مـن التـراب. تحـت أشـعة النجـم الملتهبـة، فـي صبيحـة الشـبيبة تلـك، فـإن البلـدة كانـت حبلـى بتلـك الوشوشـة. رجـال يطلعـون، جيـش أسـود، منتقـم، يُبـذر ببـطء فـي الأخاديـد، يستأسـد لحصـاد القـرن القـادم، وسـرعان مـا يشـقّ نبتُـه الأرض.

مكتبة
t.me/soramnqraa

É M I L E   Z O L A

جرمينال

يرى الكثير من النقّاد أن هذه الرواية هي «واحدة من أفضل عشر روايات في الأدب الفرنسي». وتدور أحداثها في ستينيات القرن التاسع عشر. أطلق زولا عليها عنوان (جرمينال)، وهي الكلمة اللاتينية المقابلة لكلمة «برعم»، وهو أيضاً اسم الشهر السابع في التقويم الثوري الفرنسي. إنها تصوّر الحياة في مجتمع عمّال مناجم الفحم من خلال إبراز اضطهاد كبار البرجوازيين لأفراد الطبقة العاملة.

يقول المحرر الأدبي لصحيفة The Guardian عن هذه التحفة الأدبيّة:

«إنها صرخة احتجاج أبدية ضدّ الاضطهاد وبؤس الفقراء الذين لن يرثوا الأرض... الأرض نفسها هي الشخصية الأقوى في الرواية... إنها جميلة ومرعبة في نفس الوقت».

أُنتجت أكثر من خمسة أعمال سينمائية اقتباساً عن الرواية. كما أنها تُرجِمت إلى كل اللغات الحيّة في العالم وطُبعت منها ملايين النُسخ.

وها نحن في (كلمات) نفخر بتقديمها إلى القارئ العربي في أول ترجمة احترافية كاملة، آملين أن نكون قد وُفّقنا في ذلك.

telegram @soramnqraa

ISBN 978-99921-730-56-2

9 789992 173056 2

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة على تطبيق مكتبة كلمات
Google play
Available on the App Store